يوستن جاردر

عالم صوفيا

رواية عن تاريخ الفلسفة

■ **عالم صوفيا** - رواية عن تاريخ الفلسفة

■ تأليف: يوستن جاردر

■ ترجمة: أحمد لطفي

■ الناشر: دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق - سوريا، ص.ب ٣٤٠٠٦
هاتف ٢٣١٢٥٠٩، فاكس ٢٢٣٤٣٣٦، تلكس ٤١١٣٢٦، Gurfa برقياً (دار يعرب)

■ الطبعة الأولى - دمشق ١٩٩٦ م

■ ٢٠٠٠/١٩٩٦م

■ تصميم الغلاف للفنان عبد الهادي الشماع

كلمة المترجم

تعود صوفيا ذات يوم من مدرستها لتجد في صندوق البريد سؤالين يقولان: من أنت؟ ومن أين جاء العالم؟

تلك هي بداية المغامرة التي ستخوضها صوفيا في عالم الفلسفة مع أستاذ غامض لا يريد أن يفصح عن هويته. ولن يكون غموض هذا الأستاذ لغزاً من بين ألغاز أخرى كثيرة ستقتحم عالم صوفيا. فلماذا تتلقى صوفيا باستمرار بطاقات بريدية موجهة إلى بنت أخرى اسمها هيلد؟ ومن هي هيلد هذه؟ بل ومن هي صوفيا ذاتها؟ تحاول صوفيا حل تلك الألغاز مستعينة بمعرفتها الوليدة بالفلسفة، لكن الحقيقة التي ستنتهي إلى اكتشافها أغرب من كل ما كان بوسعها تخيله.

في هذا القالب الروائي الشائق نطالع عرضاً مبسطاً لمسار الفلسفة الغربية منذ العصر اليوناني القديم حتى عصرنا الحاضر.

والرواية تتبع مسار ذلك الفكر في ارتباطه بالسياق التاريخي الذي تطور داخله. فهي تعرض، مثلاً، الملامح العامة للثقافة اليونانية والملامح العامة لثقافة المسيحية وكيف تصادمتا من جهة وتفاعلتا من جهة أخرى. كما تعرض لعصر النهضة وعصر الباروك والعصر الرومانسي وما كان لهذه الفترات المختلفة من تأثيرات في مجالات العمارة والفن والموسيقى. وهي تعرض أيضاً لتطور النظريات العلمية التي تركت آثارها على عالم الفكر والفلسفة مثل التصورات العلمية لجاليليو وكوبرنيك ونيوتن وداروين. وتتطرق إلى أحدث المعارف المتعلقة بنشأة الحياة ونشأة الكون. كما تتناول، علاوة على ذلك، التصورات الحديثة عن نفس الإنسان. الكتاب إذن عرض لتاريخ الحضارة الغربية ككل.

وقد يرى البعض أن الكتاب يفتقر، على اتساع منظوره هذا، إلى تناول إسهام الحضارات الأخرى في صياغة التراث الفكري الغربي أو في تقديم رؤى مختلفة لقضايا الإنسان والوجود. وقد يرى بعض آخر أن هذا التحفظ يحمل الرواية أكثر مما تحتمل. غير أن تلك الموازنات والمفاضلات لا تقلل بحالٍ من أهمية الكتاب. فهو يقدم احدى رؤى العالم الغربي لتاريخه ولعلاقاته بغيره. وكيف لنا أن نفهم العالم الذي نعيش فيه إن لم نستوعب رؤى أطرافه المؤثرة. ولنأمل أن يكون أي اعتراض أو تحفظ يُبدى في هذا المستوى حافزاً على وضع أعمال أخرى تدرج إسهام سائر الحضارات في تكوين الوعي الإنساني الشامل.

مؤلف الرواية يوستن جاردر كاتب نرويجي ولد في ١٩٥٢. وقد اشتغل جاردر بتدريس الفلسفة لمدة احدى عشرة سنة في مدرسة ثانوية بمدينة بيرجين. وهو يؤمن إيماناً عميقاً بأهمية الفلسفة لكل إنسان. وقد عرفه الجمهور النرويجي بفضل روايته الثالثة «سر الصبر» (١٩٩٠) التي فازت بجائزة النقاد الكبرى. لكن رواية «عالم صوفيا» التي نقدمها للقراء هي التي جعلت منه كاتباً معروفاً خارج بلده. وهو يعيش الآن في أوسلو مع زوجته وولديه.

كتبت هذه الرواية بالنرويجية (وقد صدرت طبعتها الأولى في ١٩٩١)، ونقلناها إلى العربية عن الترجمات الانجليزية (الطبعة التاسعة ١٩٩٥) والفرنسية (الطبعة الأولى، ١٩٩٥) والإيطالية (الطبعة التاسعة، ١٩٩٥). وتم تدقيق أي اختلاف بين الترجمات المذكورة بالرجوع إلى النص الأصلي بمعونة أحد المتخصصين في اللغة النرويجية للوقوف على دواعي الاختلاف ونطاق التصرف. وقد أولينا في الترجمة العربية عناية خاصة لمقتضيات التطويع الثقافي، وتلك معادلة دقيقة ينبغي فيها الموازنة بين النقل الأمين للنص الأصلي وفي الوقت ذاته مراعاة الظروف الثقافية واللحظة التاريخية المحددة التي تُقرأ فيها النسخة المترجمة. وهذا أمر لا يتوقف على النسخة العربية وحدها، فقد أمكننا

ملاحظة ذلك النوع من التصرف في عشرات المواضع في الترجمات الثلاث التي نقلنا عنها، ومنها مثلاً تغيير بعض أسماء الأعلام لتناسب اللغة المنقول إليها مع مراعاة وجود أصل لها في النرويجية أو في الحيز الثقافي لبلدان الشمال.

كما اقتضى موضوع الرواية الاهتمام بتقريب النص من القارىء بتوخي التوضيح والتبسيط أكثر من الاستجابة لمطالب التجويد البلاغي.

كان صدور هذه الرواية حدثاً ثقافياً مهماً فاحتفت بها الملاحق الأدبية للصحف الكبرى فضلاً عن المجلات والبرامج الأدبية الإذاعية والتليفزيونية في دول عديدة. وقد انعكست أهميتها هذه في النجاح الهائل الذي حققته داخل العالم الغربي وخارجه، إذ ترجمت إلى نحو عشرين لغة وحصلت على عدة جوائز دولية.

وقد بذلنا في إعداد هذه الترجمة العربية قصارى الجهد مدركين أننا نضع بين يدي القارىء أثراً باقياً نأمل أن يصادف لديه القبول الحسن الذي نرجوه.

أحمد لطفي

القاهرة ١٩٩٥

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب ان يرى النور بغير مساعدة سيري دانفيج وتشجيعها. واود هنا ان اشكر كذلك مايكن ايمز الذي قرا مخطوط الكتاب وابدى عليه تعليقات ثاقبة، واود ان اتوجه بالشكر ايضاً الى تروند برج اريكسن لما ابداه من ملاحظات سديدة واسداه من مساندة قيمة على امتداد هذه السنوات.

يوستن جاردر

من، لم ينتفع بدروس ثلاثة آلاف عام
لم يتجاوز زاده خبرة يوم بيوم.

جوته

الفصل الأول

جنة عدن

... كان لا بد في لحظة معينة

أن ينبثق شيء ما من العدم...

كانت صوفيا اموندسن عائدة من المدرسة. الشوط الأول من الطريق تقطعه صوفيا مع صديقتها نورا، وقد ألفت هذه الصحبة اليومية بينهما فأصبحت نورا أحب صديقة إلى قلبها. تخرجان من المدرسة فلا تكفان عن الحديث والثرثرة. في ذلك اليوم أخذت نورا تحكي عن فيلم شاهدته، بطله إنسان آلي يأتي بالأعاجيب واندفعت تقول في حماسة إن عقل الإنسان ما هو إلا حاسب آلي مركب معقد، غير أن صوفيا لم توافقها تماماً على هذا الرأي، وقالت أليس الانسان أيضاً مشاعر وروحاً؟ فكيف يمكننا يا نورا اختزال الانسان إلى مجرد آلة صماء؟

عندما بلغتا المركز التجاري، حان وقت الافتراق، فمضت كل واحدة في طريقها. وكان طريق صوفيا أطول مرتين من طريق نورا. فصوفيا تسكن في الطرف الأقصى لحي هادىء، منازله كلها فيلات صغيرة تحيط بها الحدائق المنسقة.

كان بيت صوفيا يبدو كأنه في اخر الدنيا، فعنده يتوقف العمران وخلف حديقته مباشرة تبدأ الغابة.

عرجت صوفيا إلى «ممر النرجس».. في آخر الممر ينثني الطريق انثناءة حادة في منعرج يدعى «منعطف القبطان».، يندر أن تصادف عليه ماراً اللهم إلا في يوم من أيام العطلة.

كنا في مطلع مايو (أيار)، وفي حدائق المنازل كانت زهور النرجس تتكاثر حول سيقان الأشجار المثمرة، وكانت البراعم المتفتحة تكسو أغصان شجر البتولا بغلالة خضراء شفافة رقيقة.

أليس من الغريب أن نرى كيف انطلق كل شيء ينمو في هذه الفترة من السنة؟ ما الذي يجعل كل النباتات تشق الأرض الميتة بمجرد أن يبدأ الطقس في الاعتدال وتختفي آخر آثار الجليد؟

دفعت صوفيا بوابة الحديقة وألقت نظرة خاطفة على صندوق البريد. كانت تجد الصندوق مليئا في العادة بالاعلانات وببعض الأظرف الكبيرة المرسلة إلى أمها. وقد اعتادت أن تضع كل هذا على مائدة المطبخ قبل أن تصعد إلى غرفتها لحل واجبات المدرسة.

من وقت لآخر كانت تصل رسائل من البنك باسم أبيها، والحق أنه لم يكن أباً ككل الآباء، فقد كان يعمل قبطانا لناقلة بترول ضخمة، ولذلك كان يغيب السنة بطولها تقريبا. ويقضي على البر أسابيع معدودات فيطيل المكوث في البيت ويسخو بالحنان والرعاية لتعويض صوفيا وأمها عن فترات غيابه الطويل. ولكنه ما إن يستأنف الإبحار حتى يعود من جديد نائياً بعيداً.

اليوم، لم يكن بالصندوق سوى رسالة صغيرة، وكانت موجهة إلى صوفيا. كل ما دون عليها هو:

صوفيا اموندسن

٣ ممر النرجس

ولا شيء آخر، لا ذكر لمرسل أو حتى طابع بريد.

أسرعت صوفيا بغلق بوابة الحديقة وفتحت الرسالة فوجدت بداخلها قصاصة ورق لم يكتب فوقها سوى سؤال يقول: من انت؟

ولا شيء آخر. لم تكن الورقة تحمل تحية أو إشارة تشي بمرسلها، هاتان الكلمتان فقط دونتا بخط اليد، تتلوهما علامة استفهام كبيرة.

تأملت الظرف من جديد. نعم الرسالة موجهة حقاً اليها هي... ترى من دسها في صندوق البريد؟

مضت صوفيا نحو البيت الخشبي الأحمر. ما إن أحست بها قطتها شيريكان حتى ظهرت كالعادة من بين الأشجار وجرت مسرعة نحو الدرج ونجحت في التسلل إلى داخل البيت قبل أن تهم صوفيا بغلق الباب.

ـ مياو، مياو!

عندما تكون أم صوفيا معتلة المزاج لسبب أو لآخر، تقول إن البيت قد تحول إلى حديقة حيوان. أليست حديقة الحيوان مجموعة منتقاة من حيوانات شتى؟ بهذا المعنى، كانت لدى صوفيا حديقة حيوان وكانت سعيدة بها. في البداية أعطوها وعاء به ثلاث سمكات حمراء: ذات الشعر الذهبي، وذات الرداء الأحمر، والقرصان الأسود. ثم حصلت على عصفورين ملونين هما كوكو وصوصو، ثم على السلحفاة جوفيندا وأخيراً نالت القطة شيريكان الشقراء. وقد أهديت صوفيا هذه الحيوانات كلها علها تجد فيها صحبة تؤنسها حتى عودة أمها من عملها، وتعوضها عن غياب أبيها دائم التطواف بأقاصي العالم.

تخففت صوفيا من حقيبتها المدرسية وأطعمت شيريكان. ثم جلست في المطبخ وفي يدها الرسالة الغامضة. وتأملت قصاصة الورق مرة أخرى.

من أنت؟

انها صوفيا اموندسن بطبيعة الحال، ولكن من هي صوفيا هذه؟ انها لاتعرف من هي بالضبط.

لو كانت سميت باسم آخر. آن كنوتسن، مثلا. أكانت ستصبح شخصاً مختلفاً؟

وتذكرت فجأة أن أباها كان يريد في البداية أن يسميها «سينوف». وتخيلت صوفيا نفسها وهي تمد يدها بالسلام مقدمة نفسها للآخرين باسم «سينوف اموندسن»، كلا، إن هذا الاسم لا يتناسب معها. وفي كل مرة تتصور نفسها باسم جديد تلوح في مخيلتها فتاة مختلفة عنها كل الاختلاف.

نزلت عن المقعد الطويل وذهبت إلى الحمام وهي ما زالت تحمل في يدها الرسالة الغريبة. وقفت أمام المرآة ونظرت لنفسها في العينين مباشرة وقالت:

ـ أنا صوفيا اموندسن.

فلم ترد الفتاة المطلة من المرآة، ولم تصدر عنها لا إيماءة ولا حركة. تفننت صوفيا في الحيل ولكن الأخرى كانت تأتي نفس أفعالها تماماً. حاولت صوفيا أن تخدعها فتتحرك بسرعة خاطفة إلا أن الأخرى كانت تحاكيها بالسرعة ذاتها.

سألتها: من أنت؟

فلم يأتها إلا الرد الذي أتاها من قبل، ولكن لجزء من الثانية لم تدر على وجه التحقيق من الذي طرح السؤال، أهي أم فتاة المرآة؟

صوبت صوفيا سبابتها إلى الأنف الذي تراه في المرآة وقالت:

ـ أنت أنا.

ولما لم يأتها رد، قلبت الجملة:

ـ أنا أنت.

لم تكن صوفيا راضية دوما عن صورتها. قيل لها مراراً ما أحلى عينيك المسحوبتين كلوزتين جميلتين، ومن المحقق أن هذا التكرار كان يخفي الحرج من الاشارة إلى أنفها الذي جاوز الاعتدال في صغره وإلى فمها الذي جاوز

الاعتدال في اتساعه. زد على ذلك أن أذنيها كانتا قريبتين في إفراط من عينيها. ولكن أسوأ ما في الأمر أن شعرها كان أملس شديد الاستقامة مستويا كأسنان المشط مستعصيا على التصفيف. كان أبوها يمرر يده أحيانا في شعرها ويدعوها مداعبا «ذات الشعر الكتاني«، مستعيرا اسم مقطوعة موسيقية لكلود ديبوسي. كان سهلا عليه أن يمزح هذا المزاح، فشعره كان متموجا يصففه كيف شاء، و لم يكن مقضيا عليه أن يحتفظ طول حياته بشعر داكن كشعرها الذي يتهدل مستويا في هذه الاستقامة التي لا عوج فيها. وقد جربت صوفيا كل الكريمات والزيوت ولكن لم يكن بوسع أي دهان أن يعدل في شكل شعرها.

كانت صوفيا ترى أن شكلها عجيب لدرجة أنها تسائل نفسها أحيانا إن كانت لم تولد بعيب جسماني. ألم تقل لها أمها إن ولادتها كانت شاقة عسيرة. ولكن هل تؤثر ولادتنا على مظهرنا طول العمر؟

ألم يكن من الغريب ألا تنجح في معرفة من هي؟ وأليس من الظلم ألا نستطيع أن نختار شكلنا الخارجي؟ انه يحل عليك هكذا. ربما استطعنا أن نختار أصدقاءنا، ولكننا لا نختار أنفسنا. إنها لم تختر حتى أن تكون انسانة.

ولكن ما هو الانسان في حقيقة الأمر؟ انها لم ترتح لتشبيه نورا له بالانسان الألي، فوجدت نفسها ترد عفو الخاطر على نورا بأن الانسان عقل وروح. وها هو عقلها هذا يجعلها تتساءل عن حقيقتها وعن الانسان. فهل يملك انسان آلي أن يتساءل عن حقيقته؟

رفعت صوفيا عينيها من جديد للفتاة التي تطل من المرآة. وهمست كما لو كانت تستأذن:

ـ أعتقد أنني سأصعد لحل واجب الأحياء.

وما إن خرجت إلى الردهة وهمت بالصعود إلى غرفتها في الدور العلوي، حتى فكرت «كلا، بل أفضل الذهاب إلى الحديقة».

ـ مياو، مياو !

دفعت صوفيا القطة نحو الدرج ثم أغلقت الباب خلفها.

ما إن وصلت إلى الممشى المكسو بالحصى، وهي ما زالت تحمل الرسالة الغامضة في يدها، حتى اعتراها شعور غريب: إذ أحست أن هذا السؤال المؤلف من كلمتين والذي دفعها إلى التساؤل عن حقيقتها كان أشبه بهزة رقيقة جعلت عقلها يستفيق متسائلا مستطلعا. وشعرت أنها تخطو خطوة أولى على طريق واعد بالأسرار ومبشر بالتحولات. وأحست كأنها كانت حتى الآن دمية صغيرة ثم مستها عصا سحرية فبعثت فيها الحياة.

ما أروع أن يستيقظ الآن إحساسها بالوجود وأن تشعر أنها تشارك في مغامرة الحياة العجيبة !

ركضت شيريكان في الممشى تلهو ثم اختفت وراء بعض الشجيرات المتكاثفة، انها قطة مفعمة بالحيوية حقاً، من أصغر شعرة بيضاء في رأسها حتى آخر ذيلها الطويل في طرف جسمها الأملس الناعم. شيريكان موجودة مثلها في الحديقة، إلا أنها لا تدرك على حيويتها حقيقة هذا الوجود كما تشعر به صوفيا.

وكلما استفاق وعيها إلى أنفاس الحياة السارية في جوارحها استقر في أعماقها أنها لن تبقى حية إلى الأبد.

وقالت لنفسها: إن كنت موجودة هنا اليوم فإني لن أكون هنا غدا.

أهناك حياة بعد الموت؟ تلك مسألة أخرى لا تشغل قطتها.

وتذكرت جدتها وفاض الحنين. ها هي ستة أشهر أو أكثر تمر على وفاتها، ولا يكاد يوم ينقضي دون أن تشعر بشوق جارف اليها. وتساءلت: أليس من الظلم أن يموت الانسان؟

مكثت صوفيا في الممشى تتأمل، حاولت أن تقنع نفسها بأنها موجودة حقاً وصدقا حتى تطرد فكرة أنها لن تعيش إلى الأبد، ولكن بلا جدوى ولا طائل. فما إن تركز فكرها على أنها حية الآن حتى ترد على خاطرها فكرة أنها ستموت في يوم من الأيام. وكان العكس صحيحا بدوره: فما إن تتقبل فكرة أن حياتها ستنتهي يوما حتى تشعر أكثر من أي وقت مضى بأي نعمة كبرى تنعم بها إذ تتردد فيها أنفاس الحياة.

ما أشبه شعورها المزدوج هذا بوجهي قطعة عملة معدنية لا تفتأ تقلبها في يدها. فما إن يشتد سطوع جانب حتى يتبدى الجانب الآخر في اللحظة ذاتها بمزيد من الجلاء. فالحياة تحيل إلى الموت، والموت يحيل إلى الحياة.

وأخذت تفكر: كيف نشعر بقيمة الحياة إن لم نفكر أيضاً أننا سنموت في يوم من الأيام. وبالمثل، لا نملك ونحن نفكر في الموت إلا أن يعترينا في اللحظة ذاتها شعور بروعة تلك المعجزة الخارقة، معجزة أننا ننعم بالحياة.

وفجأة تذكرت صوفيا أن جدتها قالت شيئاً بهذا المعنى يوم أخبرها الطبيب بأنها مريضة مرض الموت. فقد قالت «الآن فقط أدرك مدى روعة الحياة وجمالها».

أليس من المحزن ألا يقدر معظم الناس قيمة الحياة إلا عندما يدهمهم المرض؟ أم علينا أن ننتظر رسالة غامضة تأتينا في صندوق البريد فتواجهنا بالسؤال عن أنفسنا وعن الحياة؟ بالمناسبة، ماذا لو تفقدت الصندوق لترى إن كان به شيء آخر؟

أسرعت صوفيا نحو بوابة الحديقة ورفعت غطاء صندوق البريد الأخضر، وإذا بها تنتفض مدهوشة عندما اكتشفت أن به ظرفا مماثلا. فقد كانت موقنة أنها تفحصت الصندوق جيداً عندما أخذت الرسالة الأولى....

كان هذا الظرف أيضاً يحمل اسمها. فتحت الظرف وأخرجت منه قصاصة بيضاء في حجم القصاصة الأولى، وقرأت ما كتب عليها:

من أين جاء العالم؟

قالت: ما أغرب هذه الأسئلة التي تنهال عليك يا صوفيا. قرأت السؤال ثانية ثم فكرت «ما عندي أدنى فكرة». هل يستطيع أحد أن يعرف هذا النوع من الأشياء؟ إلا أن السؤال يستحق أن يسأل. واعتراها لأول مرة في حياتها شعور بأن الانسان لا يستطيع أن يعيش بالفعل دون أن يتساءل عن أصله، من أين جاء.

كانت الرسالتان الغامضتان قد أدارتا رأسها إلى درجة جعلتها تقرر أن تختلي بنفسها في هدوء بكوخها الصغير.

كان كوخ صوفيا هو ملاذها السري ومكمنها الأمين. لم تكن تذهب إليه إلا إذا كانت شديدة الغضب، أو عميقة الحزن، أو عظيمة السعادة. ولكنها اليوم لا تدري ما اعتراها بالضبط، انها تضطرب بالحيرة.

كان البيت الأحمر يقع وسط حديقة فسيحة تزخر بأحواض الزهور، وتنتشر في أرجائها أشجار وشجيرات مثمرة، ويكسوها بساط ممتد من النجيل به أرجوحة، بل وبه أيضاً كشك خشبي أمر جد صوفيا ببنائه لجدتها، حدابا وعزاء، عندما فقدت صغيرتها الأولى و لم تكد تمضي على ولادتها أسابيع قلائل. كانت تلك الطفلة المسكينة تدعى ماري، وقد نقشا على قبرها عبارة تقول «ماري الصغيرة هلت علينا، ضحكت لنا، ثم رحلت عنا».

في الطرف الأقصى لركن من أركان الحديقة، خلف أشجار التوت جميعاً، كانت تمتد تجمعات عشبية متكاثفة تحول دون نمو الزهور والشجيرات. وكانت هذه التجمعات في الأصل سياجاً نباتياً يفصل الحديقة عن الغابة، إلا أن يد العناية لم تمتد إليه طوال السنوات العشرين الماضية فأصبح حشدا من النباتات الكثيفة الملتفة الشعثاء يتعذر النفاذ منه أو اجتيازه. أخبرتها جدتها أن هذا السياج قد أقاموه ليدرأ فيما مضى الثعالب التي كانت تتربص بالدجاج عندما يتركونه يجول طليقا في الحديقة.

كان الجميع، باستثناء صوفيا، يتصورون أن هذا السياج العتيق لا ترجى منه الآن فائدة، شأنه شأن الحظائر القديمة المهملة. ذلك انهم لم يكونوا يعرفون سر صوفيا.

لكن صوفيا كانت تعرف دائما أي بقدر ما تستطيع أن ترجع بذاكرتها إلى الوراء أن بالسياج ممرا صغيرا. ولو زحفت عبر هذا المنفذ لوجدته ينفتح بين الشجيرات المتكاثرة على فرجة متسعة بعض الاتساع. كانت هذه الفرجة أشبه بخص أو كوخ حقيقي. وكانت صوفيا مطمئنة إلى استحالة أن يهتدي إليها أحد وهي في مكمنها هذا.

عبرت الحديقة راكضة وهي تحمل الرسالتين في يدها، ثم جثت على أربع وتسللت أسفل السياج. كان كوخها متسعا تستطيع الوقوف فيه ان شاءت، ولكنها آثرت اليوم أن تقتعد بعض الجذور الغليظة. من مكمنها هذا تستيطع أن ترصد كل شيء من خلال ثغرات دقيقة بين الأغصان والأوراق. ومهما صغرت الثغرة فلم تتجاوز حتى حجم قطعة عملة صغيرة، فانها كانت تستطيع أن ترقب من خلالها الحديقة بأسرها. وكم كان يحلو لها وهي صغيرة أن تراقب أباها أو أمها يبحثان عنها حائرين وراء كل هذا الشجر.

تصورت صوفيا دائما الحديقة عالماً قائما بذاته. وكلما سمعت حديثا عن جنة عدن تخيلتها في صورة جنتها الصغيرة التي تطالعها هي وحدها إذ ترنو إلى الحديقة من مثواها في الكوخ.

من أين جاء العالم؟

ليس لديها أي فكرة. تعرف صوفيا أن الأرض ما هي إلا كوكب صغير يسبح في فضاء هذا الكون الهائل. ولكن من أين جاء هذا الكون؟

في مقدورنا أن نفترض لو شئنا أن الكون كان موجوداً على الدوام من قديم الأزل، فنتخلص بذلك من التساؤل عن أصل الكون. لكن أهناك شيء

يمكنه أن يكون قد وجد على الدوام من قديم الأزل؟ شعرت أنها لا تسيغ هذه الفكرة. أفليس من الضروري أن تكون لكل شيء بداية؟

لا بد أن يكون الكون قد خلق اذن انطلاقا من شيء آخر.

ولكن اذا كان الكون قد خلق من شيء آخر، فلا بد أن يكون هذا الشيء الآخر قد خلق بدوره في يوم من الأيام. وأدركت صوفيا أنها لا تقوم إلا بترحيل المشكلة. إذن كان لا بد في لحظة معينة أن ينبثق شيء ما من العدم. فهل هذا أمر يمكن تصوره؟ ولكن أليس من المستحيل، في المقابل، تصور أن العالم قد وجد من قديم الأزل؟

تعلمت أن الله قد خلق العالم، فحاولت أن تعزي نفسها بأن هذا هو أفضل حل للمشكلة. إلا انها ما لبثت أن انطلقت تفكر من جديد. إذا كان الله قد خلق العالم، فماذا عن الله إذن؟ هل خلق نفسه من العدم المطلق؟ هذا تصور غير مقنع بدوره. فلئن كان الله قادراً على خلق كل شيء فكيف كان يستطيع أن يخلق نفسه قبل أن تكون لديه «ذات» تقوم بالخلق. لا يتبقى اذن سوى حل واحد هو: أن الله قد وجد على الدوام. ولكن هذا هو بالتحديد الافتراض الذي رفضته في البداية! كل ما هو موجود لا بد أن تكون له بداية.

- يا له من مأزق مزعج!

فتحت الظرفين مرة أخرى. عل تأمل السؤالين من جديد يفتح بابا للاجابة.

من أنت؟

من أين جاء العالم؟

إن طرح هذا النوع من الأسئلة لا يدخل على الاطلاق في باب اللهو! فمن أين تأتي هذه الرسائل؟ هذا أيضاً كان سرا غامضا.

من ذا الذي استل صوفيا من حياتها الهادئة الساكنة ليضعها فجأة في مواجهة ألغاز الكون الكبرى؟

كان ساعي البريد قد مر لتوه، فذهبت صوفيا للمرة الثالثة لتتفقد صندوق البريد. أدخلت صوفيا يدها في الصندوق وأخرجتها بكومة من الجرائد ونشرات الدعاية وببعض الرسائل الموجهة إلى أمها. وجدت أيضاً بطاقة بريدية عليها صورة لشاطىء البحر في بلد من بلدان الجنوب. قلبت البطاقة، الطوابع نرويجية، إلا أن خاتم البريد يشير إلى «الفصيلة النرويجية من قوات الأمم المتحدة في لبنان». أهي آتية من أبيها؟ أموجود هو اذن في لبنان بينما تتصور أنه في مكان آخر تماماً من العالم؟ ولكن هذا ليس خطه...

وأخذ قلبها يدق بقوة أشد وهي تقرأ اسم المرسل إليه:

هيلد مولر كناج

طرف/صوفيا اموندسن

هيلد؟ انها لا تعرف أحدا بهذا الاسم.

كانت بقية العنوان سليمة.

٣ ممر النرجس...

وكانت البطاقة تقول:

عزيزتي هيلد،

ها أنت تتمين خمسة عشر ربيعا، فلك كل أمنياتي الطيبة. انت تعرفين اني حريص على ان اقدم اليك بهذه المناسبة هدية غير تقليدية، هدية تستعينين بها وانت تتهيأين لخوض تحولات النمو والنضوج. سامحيني لارسالي هذه البطاقة على عنوان صوفيا، فقد كان من الأسهل التصرف على هذا النحو.

قبلاتي.

بابا

ركضت صوفيا عائدة إلى المنزل وهي تضطرم حنقا وحيرة. من تكون «هيلد» هذه التي تشاء الصدف أن تتم خمسة عشر عاما بينما عيد ميلادها هي الخامس عشر لم يتبق عليه إلا شهر أو أقل؟

أحضرت دليل التليفونات وأخذت تقلب فيه. كثيرون يحملون اسم مولر أو اسم كناج. ولكن ليس هناك من يدعى مولر كناج.

أخرجت البطاقة البريدية مرة أخرى تتفحصها. كلا. انها بطاقة حقيقية تحمل طوابع بريد حقيقية وخاتم بريد حقيقيا.

لأي غرض يرسل أب لابنته بطاقة للتهنئة بعيد ميلادها على عنوان صوفيا؟ وأي أب هذا الذي ترد على باله تلك الفكرة الخرقاء التي تجعله يحرم ابنته من تسلم بطاقة عيد ميلادها بارسالها عمدا إلى عنوان آخر؟ ولماذا «كان من الأسهل التصرف على هذا النحو»؟ وقبل هذا وذاك كيف يمكنها أن تعثر على هيلد هذه؟

ها هي مشكلة أخرى تسقط على رأسها. اجتاحتها حيرة شديدة فحاولت أن تستعرض ما تلاحق عليها من أحداث علها تنجح في ترتيب أفكارها.

في عصر يوم واحد، أي في غضون سويعات قليلة، وجدت نفسها ازاء ثلاثة ألغاز. الأول هو معرفة من الذي وضع الظرفين في صندوق البريد. والثاني هو الاجابة عن السؤالين الدقيقين اللذين تطرحهما الرسالتان. أما اللغز الثالث فهو معرفة من هي هيلد مولر كناج هذه، ولماذا تلقت هي، صوفيا، بدلا منها بطاقة التهنئة بعيد ميلادها.

ساورها احساس خفي بأن هذه الألغاز الثلاثة تنطوي على صلة ما تربط بينها، إذ إن تلك الألغاز أخذت تثير معاً الاضطراب في حياتها التي كانت حتى هذا اليوم المشهود حياة عادية وادعة.

الفصل الثاني

القبعة الطويلة

... الشيء الوحيد الذي نحتاجه كي نصبح
فلاسفة مبدعين هو القدرة على الاندهاش...

أحست صوفيا أنها مقبلة على خوض مغامرة كبرى. وقالت ما أشبه هذه الألغاز الثلاثة بالدقات الثلاث المهيبة التي تتردد في جنبات المسرح قبل رفع الستار، فكاتب الرسالتين الغفلتين من اسم المرسل سيسعى حتما إلى الاتصال بها مرة أخرى. كما أحست بأن هذا التطور الذي يطرأ على حياتها يخصها وحدها، ولذا قررت أن تبقي سرها طي الكتمان حتى ترى ما تأتي به الأيام.

سيطرت تلك الأسئلة على تفكيرها حتى بدأت تجد صعوبة في تركيز الانتباه داخل الفصل. وبدا لها أن المدرس يتحدث عن أشياء لا أهمية لها. لماذا لا يحدثنا المدرس عن طبيعة الانسان أو عن طبيعة العالم وأصله؟

وخطر على بالها للمرة الأولى أن معظم الناس، في المدرسة وخارجها، لا يهتمون إلا بتوافه الأمور. على أن هناك أسئلة تفوق في خطورتها وصعوبتها المسائل التي تمتلىء بها مناهج المدرسة، أسئلة تحتاج إلى الإجابة عنها.

من في مقدوره حل تلك الأسئلة؟ ان التفكير فيها أجدى، على أي حال، من انفاق الوقت في حفظ تصريف الأفعال الانجليزية الشاذة عن ظهر قلب.

ما كادت الحصة الأخيرة تنتهي حتى غادرت صوفيا المدرسة مسرعة تتعجل العودة إلى رؤية ماذا يخفي صندوق البريد. استغربت نورا تصرفها فأخذت تركض وراءها تحاول أن تلحق بها. أدركتها فأبطأت صوفيا خطوها.

سألتها نورا:

ـ ما لك تركضين يا صوفيا؟ أوراءك شيء؟

ـ لا...

ـ هل نلعب الكوتشينة هذا المساء؟

هزت صوفيا كتفيها وقالت.

ـ أعتقد ان لعب الكوتشينة لم يعد يستهويني.

لم تصدق نورا أذنيها.

ـ حقاً؟ لعلك تفضلين أن نلعب تنس الريشة؟

ظلت صوفيا تحدق في الأرض ثم نظرت إلى صديقتها وقالت:

ـ أعتقد أن هذه اللعبة أيضاً لم تعد تستهويني.

ـ طيب، ما دامت هذه رغبتك!

لم تفت على صوفيا نبرة الاحباط في رد صديقتها.

ـ لكن خبريني على الأقل بما أصبح فجأة مهما لديك بهذا الشكل!

ندت عن صوفيا حركة خفية وتمتمت:

ـ إنه... إنه سر.

ـ آه! إنه الحب إذن يا صوفيا. هل تخفين عني شيئاً؟

سارت الصديقتان فترة طويلة يرين عليهما الصمت. وعندما وصلتا إلى ملعب كرة القدم استشعرت نورا أن صوفيا راغبة في الانفراد بنفسها فقالت:

ـ طيب، سأعبر الملعب...

كان «عبور الملعب» طريقا مختصرا تسلكه نورا عندما يكون عليها أن تعود لاستقبال بعض الضيوف أو للذهاب إلى طبيب الأسنان التي شاءت لها أسنانها أن تتردد عليه بانتظام.

تألمت صوفيا لأنها أحزنت أعز صديقاتها. لكن ما الذي كان في مقدورها أن تقوله لنورا؟ أإن بها رغبة مفاجئة في أن تعرف من هي وكيف خلق الكون، وإنها لم تعد تملك بالتالي وقتا للعب تنس الريشة؟ فهل كانت نورا ستتفهم ذلك؟ وتساءلت: لماذا تصبح الحياة صعبة على هذا النحو بسبب الاهتمام بأسئلة هي بلا شك أكثر الأسئلة أهمية وأشدها بداهة في الوقت ذاته؟

وصلت أمام صندوق البريد الذي أصبح مصادر الأسرار ففتحته وقلبها يدق دقا عنيفا. لم تر في البداية سوى خطاب من البنك وبعض الأظرف الصفراء الكبيرة. يا لخيبة الرجاء! إذ كان يراودها أمل قوي في أن تجد رسالة جديدة من ذلك المجهول الذي يكتب لها.

وبينما هي تغلق بوابة الحديقة فوجئت باسمها فوق ظرف من الأظرف الكبيرة. فأسرعت تفتحه، ولكنها ما إن همت بفضه حتى أبصرت على ظهر الظرف العبارة التالية: **«دروس في الفلسفة. يجب التعامل معها بعناية شديدة».**

قطعت صوفيا الممر المكسو بالحصى ركضا. ألقت حقيبتها على الدرج ودست الرسائل الأخرى تحت الدواسة، ثم جرت مسرعة في الحديقة خلف البيت لتلوذ بكوخها. هناك فقط تستطيع أن تفتح الرسالة الكبيرة.

جرت وراءها قطتها شيريكان، إلا أن صوفيا لم تهتم بها فهي واثقة بأنها لن تفشي سرها.

كان بالظرف ثلاث ورقات كبيرة مكتوبة بالآلة الكاتبة ضمت معاً بمشبك معدني. وبدأت صوفيا تقرأ:

ما هي الفلسفة؟

عزيزتي صوفيا،

كثير من الناس لهم هوايات شتى: فبعضهم يجمع العملات القديمة أو طوابع البريد، وبعضهم يهوى الأعمال اليدوية، وبعضهم الآخر ينفق معظم وقت فراغه في ممارسة هذه الرياضة أو تلك.

كما يولع كثيرون بالقراءة. ولكنهم يختلفون فيما يحبون قراءته. فبعض الناس يكتفون بقراءة الصحف أو القصص الكاريكاتورية، وبعضهم يفضلون الروايات، وآخرون يشغفون بالمؤلفات المتخصصة في موضوعات متنوعة مثل علم الفلك، أو حياة الحيوان، أو الكشوف العلمية.

قد أكون مولعا بالخيل أو بالأحجار الثمينة مثلا، ولكن لا يجوز لي أن أنتظر من الآخرين أن يشاركوني هذا الولع. وربما كنت أتابع بمتعة فائقة كل البرامج الرياضية في التلفزيون ولكن علي أن أسلم بأن هناك من يجدون الرياضة مضجرة مملة.

ولكن هناك مع ذلك شيئاً جديرا بأن يثير اهتمام الناس جميعاً، شيئاً يخص كل إنسان، بصرف النظر عمن يكون أو في أي مكان يعيش؟ نعم. يا عزيزتي صوفيا، هناك أسئلة ينبغي أن يهتم بها الناس كافة. وهذا النوع من الأسئلة هو بالتحديد موضوع هذه الدروس.

ما أهم شيء في الحياة؟ لو وجهنا هذا السؤال لشخص يكاد يموت جوعا، سيخبرك انه الطعام. ولو وجهنا هذا السؤال لشخص على شفا الهلاك من قسوة البرد، سيقول لك إنه الدفء. بينما من يقاسي آلام الوحدة سيرى بطبيعة الحال أن أهم ما في الحياة هو التمتع بصحبة الآخرين.

ولكن إذا افترضنا أن كل هذه الحاجات الأولية قد أشبعت، فهل سيظل هناك شيء آخر يحتاج إليه أيضاً كل الناس؟ ان الفلاسفة يجيبون عن هذا السؤال بنعم. إنهم يعتقدون أن الانسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده. كل الناس يحتاجون بطبيعة الحال إلى الغذاء. كما يحتاجون إلى المحبة والحنان. إلا أن هناك شيئاً اخر تماماً نحتاج اليه جميعاً، وهو أن نعرف من نحن ولماذا نعيش.

إن الرغبة في معرفة لماذا نعيش ليست اذن شاغلاً «جالبياً» أو ثانويا مثل الاهتمام بجمع الطوابع. ومن يطرحون هذا النوع من الأسئلة يهتمون بقضايا ما برح الناس يناقشونها منذ أن عاش الانسان فوق هذا الكوكب. فالتساؤل عن أصل الكون وكوكب الأرض والحياة قضية اهم كثيراً من معرفة من الذي فاز باكبر عدد من الميداليات في دورة الألعاب الاولمبية الأخيرة.

ولعل افضل طريقة نبدأ بها تناول الفلسفة هي طرح بعض الأسئلة الفلسفية:

كيف خلق العالم؟ أهناك ارادة أو غاية وراء ما يقع من أحداث؟ أثمة حياة بعد الموت؟ كيف يمكننا الوصول إلى اجابات لهذه الأسئلة؟ ثم كيف نجيب عن هذا السؤال الخطير وهو: كيف يجدر بنا أن نعيش؟

لقد طرح الناس على انفسهم هذه الأسئلة في جميع العصور. ولا توجد، في حدود علمنا، حضارة لم تهتم بمعرفة من هو الانسان أو بمعرفة كيف خلق العالم.

والواقع أن الأسئلة الفلسفية ليست كثيرة كما قد يتصور البعض. وقد رأينا بالفعل اكثرها أهمية. إلا ان التاريخ يقدم لنا على امتداد مسيرته اجابات مختلفة عن كل سؤال منها. وهذا يعني أن طرح الأسئلة الفلسفية أسهل كثيراً من الاجابة عنها.

واليوم أيضاً على كل واحد منا أن يكتشف بنفسه اجاباته هو عن تلك الأسئلة ذاتها. فنحن لن نجد في أي موسوعة اجابة عن وجود الله أو عن وجود حياة بعد الموت. كما إن الموسوعات لا تشير علينا كذلك بالطريقة التي يجدر أن نعيش بها. غير أن قراءة ما فكر فيه الاخرون يمكن أن تساعدنا على تكوين رأينا الخاص في الحياة.

ويمكننا أن نشبه سعي الفلاسفة وراء الحقيقة برواية بوليسية. البعض يرى أن شخصاً معينا هو الجاني بينما يرى البعض الاخر أنه شخص غيره. وفي التحريات البوليسية تنجح الشرطة عادة في حل اللغز. ولكن من الجائز أيضاً ألا تتوصل إلى هذا الحل أبداً. غير أن ذلك لا ينفي أن هناك حلاً للغز في جميع الأحوال.

فحتى إن كان من الصعب الاجابة عن سؤال ما فان لهذا السؤال اجابة صحيحة واحدة، وواحدة فقط. فإما إن يوجد على سبيل المثال نوع من الحياة بعد الموت وإما ألا يوجد.

لقد نجح العلم في حل عدد كبير من الألغاز القديمة. فقد ظل الوجه الخفي للقمر، مثلاً، سراً غامضاً فترة من الدهر. ولم تكن هذه المسألة من الأمور التي يمكن حسمها بالجدل والمناقشة فكان كل انسان يطلق لخياله العنان يصور له ما يشاء. ولكننا نملك اليوم معرفة دقيقة عن الوجه الآخر للقمر. ولم يعد من الجائز الآن أن نتصور أن هناك أناساً يعيشون على القمر، أو أن القمر رغيف خبز ضخم عظيم، كما تصور بعض الأقدمين.

ثمة فيلسوف يوناني عجوز عاش قبل أكثر من ألفي سنة كان يعتقد أن الفلسفة نشأت بفضل قدرة الانسان على الاندهاش. وكان يقول إن الانسان يستغرب وجوده الدافق بالحياة استغراباً محيراً يجعل الاسئلة الفلسفية تنبثق في ذهنه من تلقاء ذاتها.

إن الأمر أشبه بمشاهدة حيلة من حيل الحواة، اننا لا نفهم ما يدور أمام انظارنا فنندهش ونتساءل مستغربين: كيف حول الساحر بضعة مناديل حريرية بيضاء إلى أرنب حي؟

يعتقد كثيرون أن أصل الكون مستعص على الفهم كما تستعصي عليه حيلة الساحر الذي يخرج أرنبا من قبعة طويلة رأوها خاوية من لحظة واحدة.

فيما يتعلق بالأرنب، نعرف أن الساحر قد خدعنا. وكل ما نريد معرفته هو كيف نجح الساحر في أداء لعبته. أما العالم فنحن ندرك أنه ليس حيلة أو خدعة، لأننا نعيش فوق هذه الأرض ونشكل جزءاً منها. بل ما اشبهنا، في واقع الأمر، بذلك الأرنب الأبيض الذي يخرج من القبعة الطويلة. والفارق الوحيد بيننا وبين الارنب، هو أن الأرنب لا يدرك أنه يشارك في حيلة سحرية. أما نحن فنشعر أننا جزء من سر غامض ونود أن نكتشف غموض هذا السر.

ملاحظة: لعل من الأصوب والأدق مقارنة الأرنب الأبيض بالكون بأسره. أما نحن فلن نكون سوى بعض الكائنات الدقيقة الملتصقة بفراء الأرنب. ولكن الفلاسفة يحاولون تسلق الشعيرات الدقيقة لفراء الأرنب حتى يتابعوا أفالين الساحر وينظروا اليه في عينيه علهم يكتشفون سر الحيلة السحرية.

هل تتابعين حديثي يا صوفيا؟ موعدنا في الرسالة المقبلة.

كان التركيز قد استنفد قوى صوفيا. يسألها هل تتابع حديثه؟ لقد استغرقتها القراءة حتى أنها لا تستطيع أن تتذكر إن كانت تمهلت لحظة لالتقاط أنفاسها.

من الذي وضع الرسائل؟ من؟ من؟

من المؤكد أنه ليس نفس الشخص الذي أرسل إلى هيلد مولر كناج بطاقة التهنئة بعيد ميلادها، إذ إن هذه البطاقة كانت تحمل طوابع وعليها خاتم البريد. أما الظرف الأصفر فقد وضع مباشرة في صندوق البريد مثله مثل الظروف البيضاء.

نظرت صوفيا في ساعتها. كانت الثالثة إلا ربعا وأمها لن تعود من عملها قبل ساعتين. شعرت بقيمة كل لحظة تقضيها منفردة بنفسها تتأمل هذه الأفكار وتخوض غمار رحلة التحولات تلك: هل يسعدها الحظ بتلقي رسالة أخرى؟ لقد قال لها «موعدنا الرسالة المقبلة». خرجت من خصها على أربع ثم نهضت وجرت نحو صندوق البريد.

وجدت ظرفاً أصفر آخر يحمل اسمها. من وضع هذه الرسالة؟ تلفتت حولها مستطلعة متحيرة ولكنها لم تبصر أحداً. جرت حتى حافة الغابة لترى ان كان ثمة أحد على الممشى.

لم تجد أثراً لمخلوق.

وفجأة خيل إليها أنها تسمع صوت تكسر بعض الغصينات التي تكسو الأرض يأتيها بعيداً من جهة الغابة. فكرت في الجري في اتجاه الصوت، إلا أنها لم تكن واثقة مما سمعت، ثم لم الجري، على أي حال، وراء شخص يحاول الفرار والهرب؟

دخلت صوفيا إلى البيت آخذة حقيبتها التي تركتها على الدرج، والرسائل الموجهة إلى أمها. وصعدت إلى غرفتها وأخرجت علبتها المعدنية الجميلة التي تحتفظ فيها بمجموعة من أحجار غريبة الشكل تجمعها من جولاتها في الغابة

وأفرغت هذه الأحجار على الأرض، ووضعت مكانها الظرفين الكبيرين. ثم خرجت من جديد إلى الحديقة تحمل العلبة تحت ذراعها. إلا أنها لم تنس قبل مغادرة البيت أن تعد وجبة قطتها شيريكان.

ـ مياوا مياوا

ما إن دلفت صوفيا إلى كوخها حتى فتحت الظرف وأخرجت منه عدة صفحات مكتوبة بالآلة الكاتبة، وشرعت تقرأ:

مخلوق عجيب

أهلا بك من جديد يا صوفيا. ان هذا المقرر الفلسفي الصغير يصلك، كما تلاحظين، متتابعا على أجزاء صغيرة. لقد قلت لك في الرسالة السابقة إن الفلسفة نشأت بفضل قدرة الانسان على الاندهاش. وربما استطعنا أن نعبر عن هذه الفكرة بطريقة أخرى فنقول: *إن الشيء الوحيد الذي نحتاجه كي نصبح فلاسفة مبدعين هي القدرة على الاندهاش.*

وكل الصغار يملكون يا صوفيا هذه المقدرة. وهذا أمر طبيعي. فما تكاد تمر عليهم بضعة أشهر في بطون أمهاتهم حتى يقذف بهم إلى واقع جديد تماماً. ولكن يبدو أنهم يفقدون قدرتهم على الاندهاش هذه كلما شبوا عن الطوق. لماذا يحدث هذا؟ هل تعرفين يا صوفيا؟

لنبحث المسألة معاً: لو قدر لرضيع أن يتكلم في المهد لسمعنا منه حتما ما ينم عن دهشته من الخروج إلى هذا العالم الغريب. غير أن عجز الطفل عن الكلام لا يمنعه من التعبير عن دهشته تلك. فيكفي أن نراه وهو يشير إلى كل ما يحيط به مستفهما مندهشا، وأن نراقبه وهو يمسك بكل ما تصل إليه يداه مستطلعا متعرفا.

ويبدأ الطفل في تعلم اللغة ثم يبصر كلبا من الكلاب، فيأخذ في محاكاته صائحا «هاو هاو !». ونراه في عربته الصغيرة مستثارا صاخبا يلوح بيديه ويصيح «هاو هاو! هاو هاوا». أما نحن الذين مضى بنا العمر شوطا أطول فيتجاوزنا هذا الحماس

الطاغي فنجيبه بلا اكتراث «نعم، أعرف أنه هاو هاو، ولكن كفاك الآن صياحا وكن عاقلا !» اننا لا نشاركه بهجته. فما أكثر ما رأينا من كلاب.

وربما تكررت صرخات البهجة هذه مئات المرات قبل أن يرى الطفل كلبا فلا يهتز كيانه بهذا الشعور القوي الغامر. ويصدق نفس الشيء على الفيل أو الخرتيت. ولكن قبل أن يتقن الطفل الكلام وقبل أن يتعلم التفكير بطريقة فلسفية بزمن طويل سيكون العالم قد أصبح لديه عادة دارجة مالوفة.

وما افظع هذه الخسارة ! إذا أردت رأيي يا صوفيا.

ولذا فان أخشى ما اخشاه هو أن تفقدي مع تقدمك في العمر هذه القدرة على الاندهاش وتصبحين ممن يقبلون العالم على علاته كحقيقة مسلم بها. وكي لتأكد من ذلك، سنجري بعض التمرينات الذهنية الصغيرة قبل ان نبدأ دروس الفلسفة بمعناها الدقيق.

تخيلي نفسك تتنزهين في الغابة ذات يوم صحو وإذا بك تبصرين فجأة سفينة فضاء قائمة امامك ثم لا يلبث أن يخرج منها قزم من سكان المريخ ويقف ازاءك يتاملك، يراك مخلوقا عجيبا وترينه مخلوقا أعجب...

إنك لن تصادفي أبداً على الأرجح أي كائنات من كواكب أخرى. فنحن لا نعرف حتى إن كانت الحياة ممكنة فوق الكواكب الأخرى. إلا أنك ربما صادفت نفسك يوما، أي ربما تأملت ذاتك فوجدت أنك ازاء مخلوق غريب مثير للعجب بما ينطوي عليه من أسرار الحياة، فتعتريك الدهشة كأنك ازاء كائن عجيب كساكن المريخ وترين نفسك في ضوء جديد تماماً. وربما حدث لك هذا أثناء تنزهك في الغابة كذلك، بما تتيحه الغابة من خلوة بالنفس تساعد الانسان على تأمل ذاته.

وربما قلت إن صادفت نفسك على هذا النحو: إني كائن عجيب، اني حقاً مخلوق غامض... وربما شعرت أنك تستفيقين من نوم طويل كما حدث لبطلة حكاية «الجميلة النائمة». وربما سالت نفسك ! من انا؟ أنت لا تعرفين إلا أنك تسعين في رحاب هذا الكوكب السابح في اعماق الكون. ولكن ما هو الكون؟

لو نظرت إلى نفسك بهذا الشكل لاكتشفت أنك كائن غامض مثل ساكن المريخ الذي تحدثنا عنه. إنك لم تري مخلوقا عجيبا اتياً من الفضاء الخارجي ولكنك نظرت في اعماق نفسك فتبينت أنك أنت ذاتك كائن عجيب.

أما زلت تتابعينني يا صوفيا؟ طيب، سنقوم بتجربة اخرى !

فلنتصور أننا في حضور إحدى الأسر. الوقت صباحا، والأب والام والصغير توماس، الذي يناهز عمره سنتين يتناولون افطارهم في المطبخ. بعد فترة تنهض الأم عن المائدة لإحضار مزيد من الشاي وعندئذ... يلحظ الأب أنها أدارت ظهرها فيغتنم الفرصة ويرتفع في الهواء محلقا أمام ناظري توماس الجالس إلى المائدة.

ماذا سيقول توماس، في رأيك يا صوفيا؟ ربما أشار إلى أبيه وصاح: «بابا يطير!».

إن دهشة توماس ستكون كبيرة بطبيعة الحال. ولكنه لن يستغرب هذا التحليق في الواقع استغرابا شديداً. فأبوه يأتي كل يوم بأفانين عجيبة. فتوماس يرى أباه يحلق ذقنه كل صباح بآلة غريبة، كما يراه أحيانا معتليا سطح المنزل ليغير وجهة هوائي التلفزيون، أو غائصا برأسه داخل محرك السيارة ليخرجها سوداء كدهان الأحذية.

يأتي الآن دور الأم. لقد تناهى اليها ما قال توماس فتستدير مندهشة تستطلع الأمر. كيف ستتصرف، في رأيك يا صوفيا، عندما ترى الأب محلقا فوق مائدة المطبخ؟

لا بد أنها ستترك إبريق الشاي يسقط من يدها وتأخذ في الصراخ من شدة الخوف والفزع. وربما استوجب الأمر احضار الطبيب لها، بعد أن يكون الأب قد نزل بالطبع أخيراً ليجلس في مكانه! (ولا بد أنه تعلم الآن كيف يحترم آداب المائدة!)

لماذا اختلف، في رأيك، رد فعل الأم عن رد فعل توماس؟

ما هي إلا مسألة عادة. (تذكري هذا جيداً !). فالأم على يقين كامل من أن الانسان لا يستطيع الطيران، أما توماس فهو لا يعرف بعد تماماً ما يستطيع الانسان أن يفعل أو لا يفعل في هذا العالم.

ولكن ماذا عن العالم نفسه يا صوفيا؟ هل تعتقدين أنه يتصرف بشكل معقول، أم أنه يحلق هو أيضاً في الفضاء؟

المحزن أننا كلما تقدم بنا العمر اعتدنا لا على تأثير الجاذبية فحسب، بل على ما يحيط بنا حتى ننتهي إلى تصور أن كل شيء عاد وطبيعي. إذ كلما مضى بنا السن لم

يعد هناك، فيما يبدو، ما يدهشنا. غير أننا نفقد بذلك شيئاً جوهريا يحاول الفلاسفة أن يوقظوه فينا. فنحن نشعر في أعماقنا بأن الحياة سر كبير. وهذا أمر جربناه بأنفسنا في الصغر قبل أن يعلمنا إياه أحد بوقت طويل.

ولنكن أكثر وضوحا: لئن كانت الأسئلة الفلسفية تعني جميع الناس فإن الناس لا يصبحون كلهم فلاسفة للأسف. فلأسباب شتى، ينغمس معظم البشر في شواغل يومية تجعل آخر ما يهتمون به هو التفكير في الوجود أو الاندهاش من الحياة. (إنهم ينزلقون إلى أعماق فراء الأرنب إذا كنت تفضلين هذه الصورة ويمكثون هناك هانئين قانعين بقية العمر).

إن الأطفال يرون العالم وكل ما يحتويه *بوصفه* شيئاً جديداً كل الجدة لا يفتأ يثير دهشتهم. ولكن هذا لا يصدق للأسف على معظم الكبار. فما أكثر الكبار الذين لا يرون في العالم ما يستحق الدهشة أو يستأهل العجب.

بيد أن الفلاسفة يشكلون في هذا المقام استثناء واضحا. فما الفيلسوف إلا إنسان لم ينجح في يوم من الأيام في أن يأخذ العالم مأخذ العادة المألوفة. فالفيلسوف يرى دائما أن العالم يظل لغزا غامضا متحديا. ولذا فان الفلاسفة تجمعهم بالأطفال الصغار صفة عظيمة مشتركة. يمكننا أن نقول إن الفلاسفة يحتفظون طول حياتهم بقدرة الأطفال على الدهشة.

وعليك أن تقولي الآن يا صوفيا: أأنت طفلة لم تعتد على العالم بعد؟ أم أنت بالفعل فيلسوفة صممت ألا تعتاد عليه أبداً؟

إذا كنت تهزين رأسك وترين أنك لا طفلة ولا فيلسوفة، فذلك معناه أنك، بدأت تعتادين العالم فلم يعد يثير دهشتك. وفي هذه الحالة عليك أن تأخذي حذرك لأن الخطر غير بعيد. ولهذا السبب أبعث إليك بدروس الفلسفة هذه، على سبيل الاحتياط، لتتأكدي من أنك لا تمضين في طريق الغفلة. فانني لا أريد لك أن تكوني من الغافلين واللامبالين. بل أود لك أن تعيشي حياتك بعين تندهش وعقل يتساءل.

هذه الدروس مجانية تماماً. وعليه، لن نكون مطالبين برد أي مبالغ اليك إن لم تستكمليها. وإذا كنت تريدين ايقافها فأنت حرة تماماً في ذلك. إذ يكفيك أن تدسي لي كلمة في صندوق البريد. بل يكفيك حتى أن تضعي فيه ضفدعة حية من

الضفادع التي تجدينها في حديقتك. أقصد أي شيء أخضر بلون الصندوق حتى لا يفزع ساعي البريد!

خلاصة القول: إن أرنبا أبيض قد خرج من قبعة طويلة، ولكنه لما كان أرنبا ضخما فان هذه الحيلة السحرية قد استغرقت عدة مليارات من السنين. كل الناس يولدون على طرف الشعيرات الدقيقة لفراء الأرنب، ويتيح لهم موقعهم هذا الفرصة للتعجب من براعة الحيلة السحرية. ولكن كلما تقدم بهم العمر أخذوا ينزلقون شيئاً فشيئاً داخل فراء الارنب إلى أن يمكثوا في القاع. ولما كانوا راضين تماماً عما ينعمون به من راحة فانهم لا يجدون في أنفسهم الشجاعة على المخاطرة بتسلق شعيرات الفراء الطويلة. الفلاسفة وحدهم لديهم الشجاعة على خوض تلك الرحلة الخطرة التي تقودهم إلى الأطراف القصية للغة والوجود. ان بعضهم يتعثر أثناء هذه المحاولة، لكن آخرين يتشبثون بشعيرات الفراء ويشجعون سائر البشر المكتفين بالأكل والشرب في أعماق الفراء الناعمة على الانضمام اليهم. انهم يعلنون:

- سيداتي وسادتي ان العالم يحلق فى الفضاء على غير هدى !

لكن ليس هناك من ينصت لتحذيرات الفلاسفة. فما أكثر الأصوات التي تصيح وهي تنعم بدفء الفراء:

- ما أفظع الازعاج الذي يسببه هؤلاء !

ثم يواصلون الانغماس في أحاديثهم:

- أتستطيع أن تمرر إلي صحن المشهيات؟ ما هي أسعار البورصة اليوم؟ ما ثمن الطماطم؟ هل عرفت أن الليدي ديانا قد حملت من جديد؟

عندما عادت أمها قبيل المغرب، كانت صوفيا ما زالت واقعة تحت تأثير هذه الصدمات المتلاحقة.

أخفت العلبة ورسائل الفيلسوف المجهول بعناية داخل كوخها. وحاولت قدر استطاعتها حل واجباتها، غير أن عقلها لم يكف عن التساؤل عما فرغت من قراءته.

إنها لم تفكر في كل هذا من قبل. إنها لم تعد طفلة ولكنها لا تندرج بعد تماماً في عداد الراشدين. إلا أنها أدركت أنها كانت قد بدأت تنزلق فعلاً إلى أعماق فراء الأرنب الذي خرج من القبعة الطويلة. ثم جاء الفيلسوف ليوقف هبوطها: إنه أو لعلها أمرأة أمسكها من رقبتها ليعيدها إلى حيث كانت تلهو وهي طفلة صغيرة. وها هي من موقعها هذا، في الطرف الأقصى للشعيرات الناعمة، تنظر إلى العالم من جديد كما لو كانت تراه للمرة الأولى.

لقد أنقذها الفيلسوف. لا شك في ذلك. إن هذا الشخص المجهول قد أنجاها من الغفلة التي يورثها الاستغراق في شواغل الحياة اليومية.

عندما رجعت أمها نحو الخامسة، جذبتها صوفيا إلى البهو ثم أقعدتها أحد الكراسي وقالت لها:

ـ ماما، ألا تجدين أن وجودنا في الحياة شيء غريب؟

عقدت الدهشة لسان أمها فلم تعرف بما تجيب.

كانت تجد عند عودتها صوفيا عاكفة في العادة على حل واجباتها فما بالها اليوم؟ ردت قائلة:

ـ آه... أحيانا، نعم.

ـ أحيانا؟ أريد أن أقول... ألا تجدين من العجيب أن يوجد العالم أصلاً؟

ـ ولكن ما لك يا صوفيا؟ ما اعتراك كي تتحدثي اليوم بهذه الطريقة؟

ـ ولم لا؟ أتجدين أنت أن حال العالم طبيعية؟

ـ نعم. على الأقل في خطوطه العريضة...

بدا لصوفيا أن الفيلسوف على حق. فها هم الكبار يرون كل شيء في العالم ماضيا في طريقه على خير ما يرام. لقد استناموا تماماً لغفلة حياتهم اليومية الرتيبة. ومضت تقول:

ـ يبدو أنك اعتدت على العالم حتى لم يعد فيه ما يثير دهشتك.

ـ ولكن عم تتحدثين؟

ـ أقول إنك اعتدت على كل شيء حتى تبلد إحساسك تماماً.

ـ أنا لا أسمح لك أن تخاطبيني بهذه الطريقة يا صوفيا!

ـ لا تنزعجي يا ماما، سأحاول أن أعبر عن ذلك بطريقة أخرى. فلنقل إنك قد هيأت لنفسك مكانك المحدود في الأعماق الدافئة لفراء أرنب أبيض أخرج لتوه من القبعة الطويلة للكون. وبعد قليل ستضعين البطاطس على النار، ثم ستقرأين الجريدة، ثم ستستلقين لمدة نصف ساعة، ثم ستجلسين أمام التلفزيون لتشاهدي الأخبار.

كسا القلق ملامح أمها. ذهبت كما تقضي العادة إلى المطبخ ووضعت البطاطس على النار. ثم عادت إلى البهو، غير أنها هي التي أجبرت صوفيا هذه المرة على الجلوس وابتدرتها قائلة:

ـ هناك أمر هام لا بد أن أحدثك فيه يا صوفيا.

أدركت صوفيا من صوت أمها أن الأمر جد خطير.

ـ قولي لي يا حبيبتي، أرجو ألا تكوني قد اقتربت من المخدرات يوما؟

أدركت صوفيا لماذا تسألها أمها هذا السؤال الآن بالتحديد، ولكنها لم تستطع أن تمسك ضحكة أفلتت رغما عنها وردت قائلة:

ـ كيف تتصورين ذلك يا ماما؟ حتى أزداد بلادة وخمولا؟

وقضيتا تلك الأمسية، دون أن تطرح إحداهما من جديد لا مسألة المخدرات، ولا مسألة الأرنب الأبيض.

الفصل الثالث

الأساطير

... توازن هش بين قوى الخير والشر...

لم تجد صوفيا أي رسالة بالصندوق في صباح اليوم التالي. في المدرسة ساورها الضجر طول اليوم. فقد ملكت عليها تلك المعرفة الجديدة جماع نفسها. إلا أنها حرصت أثناء فترات الفسحة على ملاطفة نورا والتودد إليها. وفي طريق العودة، أخذتا تتحدثان عن القيام بنزهة خلوية في الغابة، فتأخذان خيمة تبيتان فيها ما إن تصبح الأرض أكثر جفافا.

بعد أن افترقتا، أسرعت صوفيا الخطو وهي تفكر في شيء واحد: صندوق البريد، حتى ألفت نفسها أمامه أخيراً. وجدت رسالة صغيرة ثم ظرفاً أصفر كبيراً. كانت الرسالة تحمل خاتم المكسيك، وحدثها قلبها أنها آتية من أبيها. وصدق ظنها فوجدت بها بطاقة من تلك البطاقات المصورة التي يبعث بها كلما رست سفينته بميناء فيقص فيها طرفا من أنبائه. قال إنه يشعر بحنين جارف اليها وإلى أمها، وإنه نجح أخيراً في هزيمة كبير الضباط في الشطرنج. وأضاف انه أوشك أن ينتهي من قراءة كل الكتب التي حملها معه في عطلته الأخيرة.

أما الظرف الأصفر الكبير الذي يحمل اسمها فقد حدست صوفيا ما يحتوي! ذهبت إلى البيت لتترك حقيبتها ورسالة أبيها، ثم أسرعت تلوذ بكوخها. أخرجت عدة ورقات أخرى مكتوبة بالآلة الكاتبة وبدأت تقرأ:

التصور الأسطوري للعالم

سلام يا صوفيا! سنناقش اليوم موضوعات كثيرة، ولذلك سامحيني إذا دخلنا في الموضوع مباشرة.

تعني كلمة **الفلسفة** طريقة في التفكير جديدة كل الجدة ظهرت في اليونان قبل ميلاد المسيح بنحو ٦٠٠ عام. قبل ذلك، كانت أديان شتى قد تكفلت بالإجابة عن جميع الأسئلة التي يطرحها الناس. وانتقلت هذه التفسيرات ذات الطابع الديني من جيل إلى جيل على هيئة أساطير. **والأسطورة** يا صوفيا حكاية تقص أنباء الآلهة في صورة تحاول تقديم تفسير لظواهر الحياة المختلفة.

وعلى امتداد آلاف السنين، حفل العالم أجمع بتفسيرات اسطورية لتساؤلات الإنسان الفلسفية. ثم جاء الفلاسفة اليونانيون فحاولوا أن يثبتوا للناس أن التفسيرات التي تقدمها الأساطير لا يمكن الثقة بها أو الركون اليها.

وكي نفهم الطريقة التي كان يفكر بها هؤلاء الفلاسفة الأوائل، علينا أن نفهم أولاً معنى التصور الأسطوري للعالم. وخير وسيلة لذلك هي أن ندرس بعض الأساطير، ولم لا بعض أساطير بلدان الشمال. (فالأفضل أن أحدثك عما أعرفه جيداً!).

أغلب الظن أنك سمعت عن الإله «تور» وعن مطرقته الشهيرة. فقبل دخول المسيحية إلى النرويج، كان سكان الشمال يعتقدون أن تور يعبر السماء في عربة يجرها كبشان عظيمان وكلما رفع تور مطرقته في الهواء أبرقت الصواعق وأرعدت العواصف. والكلمة النرويجية Torden (عاصفة) تعنى بالتحديد donn–Tor، أي «زمجرة تور». أما بالسويدية فان العاصفة تدعى aska، وهو لفظ مشتق في الأصل من كلمتين هما aka-as، أي «رحلة الإله» في السماء.

وعندما تبرق السماء وترعد يسقط أيضاً المطر. وفي عصر الفيكينج (أهل الشمال القدماء) كان المطر عنصرا حيويا للفلاحين ولذلك عبد تور بوصفه إله الخصب.

وكانت إجابة الأسطورة على سؤال «لماذا يسقط المطر؟». هي: «لأن تور يلوح بمطرقته في الهواء». وعندما ينهمر المطر تنبت الأرض وتكثر الغلات.

ويبصر الناس النبات وهو يشق الأرض وينمو ويطرح ثماره، فيجـدون أنفسـهم أمام حقيقة غير مفهومة في ظاهرها. لكـن الفلاحـين خمنـوا على أي حـال أن لذلـك علاقة بالمطر. ولما كانوا يؤمنون جميعاً بأن تور هو جالب المطر فقد أصبح واحـداً مـن أهم الآلهة لدى شعوب الشمال.

إلا أن أهمية تور لا تقف عند هذا الحد بل ترجع أيضـاً إلى سبب آخـر يتصـل بنظام العالم.

فقد كان الفيكنـج يتصـورون العـالم المـأهول جزيـرة تتهددهـا أخطـار خارجيـة مستمرة. وكانوا يطلقون على تلك المنطقة المأهولة من العـالم اسـم «ميدجـارد»، أي مملكة الوسط التي تضم داخلها أيضاً منزل الآلهة، الذي يسمى «اسجارد».

ووراء مملكة الوسط تقوم المملكة الخارجية أو « اورجارد« حيث يسكن عمالقة خطيرون لا يكفون عن محاولة تدمير العالم بحيل ماكرة خبيثة. ونحن نطلـق علـى هـذه الغيلان المدمرة اسم «قوى الفوضى». فقد أحس الناس من قديـم، كمـا يتجلـى مـن آداب بلدان الشمال والثقافـات الأخـرى، بـأن هنـاك توازنـا هشـا بـين قـوى الخـير والشر.

وفي سبيل تدمير مملكـة الوسـط «ميدجـارد«، حـاول العمالقـة، فيمـا حـاولوه، اختطاف إلهة الخصب فريا. اذ كانوا يتصورون أنهم اذا نجحوا في مهمتهم فلن ينمـو نبت في الحقول ولن تلد النسـاء. ولـذا كـان علـى آلهـة الخير أن تسـعى، مـن جهـة أخرى، إلى إحباط مسعاهم هذا.

وهنا نتبين السبب الآخر لأهمية تور، إذ إنه يقوم بدور حاسـم في هـذه المعركـة مع العمالقة. فمطرقته لا تجلب المطـر فحسـب وانمـا تشـكل أيضـاً سـلاحا ممتـازا في منازلة قوى الفوضى الخطيرة، لأن تلك المطرقة تمنحه قوة شـبه مطلقـة. اذ يكفيـه أن يقذف بها العمالقة حتى يرديهم صرعى. ولم يكن لتور أن يخشى فقدان مطرقته لأنهـا كانت ترتد دوما إليه.

كان هذا هو التفسير الأسطوري للتوازن الذي يحفظ الطبيعة ولسـبب الصـراع المستمر بين الخير والشر. وهذا النوع من التفسيرات هو بـالتحديد مـا كـان يرفضـه الفلاسفة.

ولكن الأساطير لها وظيفة أخرى غير تقديم التفسيرات. فالناس لا يسعهم أن يظلوا جالسين مكتوفي الأيدي في انتظار تدخل الآلهة كلما حل بهم جفاف مدمر أو وباء فتاك. بل عليهم أن يبادروا بأنفسهم إلى مكافحة قوى الشر. وكانوا يفعلون ذلك بممارسة الشعائر أو الطقوس الدينية التي تكفلت بتفريغ ماانتابهم من مشاعر الخوف والقلق في صيغ رمزية تقنعهم بأداء دور ايجابي فعال في درء الويلات والشرور.

وكان أهم طقس ديني في عصر أهل الشمال القدماء هو التضحية أو تقديم القرابين. فتقديم القربان للإله يجعله أشد قوة. وعندما يشتد بأس الآلهة تتمكن من هزيمة قوى الفوضى. ولهذا الغرض كان الناس يضحون عادة بأحد الحيوانات. وهكذا جرى العرف على التضحية بالكباش للإله تور. أما الإله أودين، فقد كانوا يقدمون إليه أحيانا قرابين بشرية.

وأشهر أساطير النرويج نقلتها إلينا قصيدة ملحمية تدعى «*مخبأ تريم*»، التي تخبرنا أن تور أفاق ذات صباح فاذا به يكتشف أن مطرقته سرقت أثناء نومه. وغضب تور غضبا عنيفا حتى أخذت يداه ترتعشان وجعل وجهه يرتعد فتهتز لحيته الطويلة. واصطحب تور صديقه لوكي وذهبا إلى فريا ليطلبا منها أن تعير لوكي جناحيها ليطير بهما حتى جوتونهايمن (منزل العمالقة) ليرى ان كان العمالقة هم حقاً الجناة. وطار لوكي وقابل تريم ملك العمالقة الذي تباهى بأخذ المطرقة وتفاخر بأنه أخفاها تحت الارض بثمانية الآف متر. وأضاف أن الآلهة لن تستعيد المطرقة إلا اذا وهبت فريا زوجة له.

وهكذا، وجدت آلهة الخير نفسها فجأة ازاء أزمة رهائن مخيفة. لقد أصبح العمالقة يملكون الآن أخطر سلاح دفاعي لدى الآلهة، واحتدمت الأزمة احتداما شديداً. فما دام العمالقة يحوزون مطرقة تور فانهم باسطون سلطانهم المطلق على عالم الآلهة والبشر. وها هم في مقابل رد المطرقة يطلبون فريا. لكن هذا مطلب مستحيل: فبغير ربة الخصب من سيحمي المخلوقات ويحفظها، ان العشب سيجف في الحقول، وسيهلك البشر ويفنى الآلهة جميعاً. ليس هناك مخرج من هذا المأزق. (حسبك أن تتخيلي مجموعة من الارهابيين يهددون بتفجير قنبلة ذرية في وسط لندن أو باريس إن لم تلب مطالبهم الخطيرة، وستتصورين عندئذ ما أريد أن أقوله لك).

وتتواصل الأسطورة مع عودة لوكي إلى منزل الآلهة. إذ يطلب لوكي من فريا أن تتزين كأجمل ما تتزين العروس.لأنها لا بد أن تتزوج ملك العمالقة (يالها من مسكينة!). تغضب فريا غضبا يزلزل منزل الآلهة وتقول إن الجميع سيعتبرونها قد فقدت رشدها إن هي وافقت على الزواج بأحد العمالقة.

عندئذ خطرت للإله هيمدال فكرة بارعة: فقد اقترح أن يتنكر تور في ثياب العروس. إذ يكفيه أن يضع على رأسه شعرا مستعارا وأن يضع فوق صدره حجرين يقومان مقام الثديين حتى يكون شبيهاً بامرأة. لم يتحمس تور حقاً للفكرة، لكنه أدرك أخيراً انهم مضطرون لاتباع نصيحة هيمدال إن هم أرادوا استعادة المطرقة. وأخيراً يتزين تور بالزينة الواجبة ويصحبه لوكي على أنه وصيفة العروس.

وإذا أردنا أن نصور الموقف بلغة حديثة، لقلنا إن تور ولوكي يشكلان «فرقة مكافحة الارهاب» التابعة للآلهة. فبعد أن تنكرا على هيئة أمرأتين، سيتسللان إلى قلعة العمالقة الحصينة لمحاولة استخلاص مطرقة تور.

ما إن وصلا إلى جوتونهايمن حتى شرع العمالقة في اعداد وليمة كبرى احتفالا بالزواج. ولكن أثناء هذه المأدبة التهمت العروس، أي تور، عجلا كاملاً ثم أردفته بثمانية خراف. وكانت إلى ذلك قد أفرغت في جوفها ثلاثة براميل من الجعة. وأصابت العملاق تريم الدهشة والعجب حتى كاد يفتضح أمر «فرقة مكافحة الارهاب المتنكرة لولا أن لوكي أنقذها من هذه الزلة زاعما أن فريا لم تأكل منذ ثماني ليال متصلة من شدة فرحتها بالحضور إلى جوتونهايمن للزواج.

ثم يرفع تريم الغطاء عن وجه العروس ليقبلها ولكنه ما إن يهم بالاقتراب حتى يتراجع أمام قسوة نظرات تور التي تقدح الشرر. ومرة أخرى ينجح لوكي في انقاذ الموقف. فيزعم أن العروس لم تستطع أن تغلق عينيها خلال ليال ثمان متصلة من شدة سعادتها بالزواج. فيطمئن تريم ويأمر باحضار المطرقة ووضعها في حجر العروس أثناء الحفل.

وعندما استعاد تور مطرقته انفجر في نوبة ضحك هستيري شامل فنزع زينته وقام بقتل تريم ثم صرع بقية العمالقة. وهكذا توجت المأساة الرهيبة بنهاية سعيدة. ومرة أخرى انتصر تور أو «باتمان» أو «جيمس بوند» الآلهة على قوى الشر.

هذا هو النص الحرفي للأسطورة يا صوفيا، ولكن ما هي دلالاتها وما هو المعنى الكامن وراءها؟ ان الأسطورة لم تبتكر ليتسلى الناس برواياتها فقط، بل لتحاول أن تشرح شيئاً ما. وهاك تفسيرا من التفسيرات الممكنة لها:

عندما كان الجفاف يحل ببلد من البلدان، كان الناس يحتاجون إلى معرفة لم لا تمطر السماء. هل لأن العمالقة قد استولوا، مثلا، على مطرقة تور؟

ربما كانت الأسطورة محاولة لشرح دورة الفصول: في الشتاء تصبح الطبيعة ميتة لأن مطرقة تور تكون غائبة في جوتونهايمن. لكن عندما ينجح تور في استرداد مطرقته يعود الربيع. وبذلك تسعى الأسطورة إلى تقديم تفسير لما لا يفهمه الناس.

غير أن دور الأسطورة لا يقتصر على التفسير وحده. فالناس كانوا يمارسون طقوسا دينية مختلفة ترتبط بالأسطورة. ومن الجائز لنا أن نفترض أن الناس كانوا يواجهون الجفاف، أو السنوات العجاف، بتمثيل القصة التي ترويها الأسطورة. وربما تنكر أحد رجال القرية في زي العروس) واضعا على صدره حجرين يقومان مقام الثديين) مستعيداً دور تور إذ يحاول استرداد المطرقة التي سرقها العمالقة. فكان الناس يشعرون آنذاك أنهم لا يظلون سلبيين بل «يفعلون» شيئاً حتى يعود المطر كي يخصب الحقول.

ونحن نعرف أمثلة كثيرة من مناطق أخرى من العالم يقوم فيها الناس بتمثيل «أساطير الفصول» هذه ليعجلوا بحدوث العمليات الطبيعية.

إننا لم نلق سوى لمحة خاطفة على أساطير بلدان الشمال. فهناك أساطير لايحصيها العد عن تور واودين، وعن فراير وفريا، وعن هودر وبآلدر، وعن شخصيات أسطورية أخرى عديدة. وكانت مثل تلك الأساطير شائعة في العالم بأسره عندما قرر الفلاسفة الأوائل أن يقبلوا عليها فيدرسوها عن كثب. وكان لدى اليونانيين بدورهم تصورهم الأسطوري عن العالم في الوقت الذي ظهرت فيه المحاولات الفلسفية الأولى. وعلى مر القرون، تناقلت أجيالهم المتعاقبة تاريخ آلهتها التي كان من أشهرها زيوس وابوللو، وهيرا وأثينا، وديونيسيوس واسكليبيوس، وهرقل وهفايستوس.

ونحو عام ٧٠٠ قبل الميلاد، سجل *هوميروس وهزيود* أساطير يونانية عديدة في قالب شعري ساحر بليغ. وخلق هذا حالة لم يسبق لها مثيل. فما أن أصبحت الأساطير مدونة على الورق حتى بات من الممكن أن تصبح موضع بحث ومناقشة.

وآنذاك بدأ اليونانيون الأوائل ينقدون أساطير هوميروس بما تزخر بـه مـن آلهـة تشبه الناس شبها شديداً، لا من حيث الشكل الخارجي فحسب بل من حيث الطباع أيضاً. فقد كانت آلهة أنانية متقلبة الأطوار. وبدأ يقال للمـرة الأولى أن الأسـاطير لا تصور في واقع الأمر إلا خيالات الناس أنفسهم.

ونجد نموذجا لهذه الرؤية النقدية للأساطير لدى الفيلسوف *اكسـانوفان*، الـذي ولد في عام ٥٧٠ قبل الميلاد على وجه التقريـب. فقـد قـال اكسـانوفان «إن النـاس يخلقـون الآلهـة علـى صورتهـم: فهـم يعتقـدون ان الآلهـة يولـدون في أجسـام ماديـة ويرتدون الثياب ويتحدثون مثلنا. فالأحباش يقولون إن آلهتهم سود فطـس الأنـوف، أما أهل تراقية فيزعمون أن آلهتهم زرق العيـون حمـر الشـعور. ولـو عرفـت الثيران والخيل والأسود الرسم لصورت آلهتها على مثالها أبقارا وخيولا وأسودا!».

وأثنـاء هـذه الفـترة شـرع اليونـانيون يؤسسـون المـدن في اليونـان وينشـئون المستعمرات في جنوب ايطاليا وآسيا الصغرى. وكان العبيـد يسـخرون في أداء كـل الأعمال اليدوية، فأصبح أمام المواطنين الأحرار متسع فسـيح مـن الوقـت يكرسـونه للاهتمام بالسياسة والثقافة.

وأخذت تظهر في هذه البيئة الحضرية طريقة جديدة تماماً في التفكير. فكـان مـن حق كل فرد أن يتساءل عن تنظيـم المجتمـع. كمـا كـان بوسـع الجميـع أن يطرحـوا أسئلة ذات طابع فلسفي دون اللجوء إلى الأساطير القديمة.

ونحن نصف ذلك التحول الهام فنقول إننا انتقلنا من أسـلوب تفكـير قـائم علـى الأسطورة إلى أسلوب تفكير قائم على التجربـة والعقـل. ذلـك أن هـدف الفلاسـفة اليونانيين الأوائل كان في الواقع هو التوصل إلى *تفسير طبيعي* للعمليات التي تحدث في الطبيعة.

تركت صوفيا كوخها وأخذت تجـول في الحديقـة الكبـيرة محاولـة تناسـي كل ما تعلمته في المدرسة، وخاصة ما درسـته في العلـوم الطبيعيـة. وقـالت لـو كان قدر لي أن أشب عن الطوق في هذه الحديقـة دون أن أكـون قـد تعلمـت أي شيء عن الطبيعة، فبأي حالة عقلية كنت سأتصور مقدم الربيع؟

أكنت سأتخيل قصة كاملة أفسر بها هطول المطر؟ أكنت سأبتكر حكاية أبرر بها اختفاء الجليد أو أعلل بها صعود الشمس في مرتقاها في صفحة السماء؟

بكل تأكيد، لقد كانت موقنة بذلك كل اليقين حتى أنها شرعت تطلق لخيالها العنان:

... كان الشتاء يأسر البلد في قبضته المتجمدة لأن «موريات» الشرير ألقى بالأميرة «سيكيتا» الجميلة في قبو ثلجي. ولكن الأمير الشجاع «برافاتو» يأتي يوما ليخلصها. وعندئذ تنطلق «سيكيتا» لترقص من فرحتها في المروج وهي تشدو بأغنية أبدعتها في سجنها الجليدي. فتتأثر الأرض والأشجار تأثراً شديداً بأغنيتها حتى أن الجليد يذوب متحولا إلى دموع. ولكن الشمس لا تلبث أن تعلو في السماء مجففة بكاء جميع الكائنات. وتغرد البلابل مستعيدة أنغام «سيكيتا»، ثم تفك الأميرة الجميلة شعرها فتتساقط بعض خصلاته على الأرض لتتحول إلى زهور تملأ الحقول....

رأت صوفيا أنها ابتكرت قصة ساحرة أقرب للأسطورة. وإن لم تكن قد تعلمت تفسيرات أخرى تشرح تغير الفصول، لانتهى بها الأمر ربما إلى الايمان بما ابتكرت توا.

وأدركت أن الناس كانوا بحاجة دوما إلى تفسيرات تعلل لهم الظواهر الطبيعية. ولما كان العلم لم يولد بعد في ذلك العصر فلم يكن أمامهم سوى ابتكار الأساطير.

الفصل الرابع

فلاسفة الطبيعة

... لا يولد شيء من العدم...

جلست صوفيا على الأرجوحة وأخذت قطتها شيريكان في حجرها تداعبها. ما أشد ما تغير احساسها بحديقتها، بعد القصة التي ابتكرتها، كأنها أقامت من خلالها صلة مباشرة بكل ما حولها. كل زهرة، كل فراشة، كل سحابة، كل دفقة نور. آنست حركات الأرجوحة المنتظمة تهدهدها وهي تتلقى شمس العصر الحانية، فاسترخت وغاصت في أفكارها. حاولت أن تتبين ان كانت هناك صلة تربط بين دروس الفلسفة وهيلد. وتساءلت هل ستحمل هذه التطورات الجديدة التي تنهال عليها أمراً يوضح حقيقة هيلد، أو يسمح على الأقل بتسليمها البطاقة التي تحمل تهنئة والدها بعيد ميلادها؟

أحست ببوابة الحديقة تنفتح. ها هي أمها قد عادت. وما لبث أن جاءها صوت أمها من بعيد:

- صوفيا ! هناك رسالة لك !

انتفضت صوفيا. فقد أخذت بالفعل منذ برهة وجيزة ما بالصندوق من رسائل، لا بد أنها إذن رسالة من الفيلسوف. ماذا ستقول لأمها الآن؟

تركت صوفيا الأرجوحة متباطئة ومضت لتأخذ رسالتها.

- ليس على الرسالة طوابع بريد. لعلها رسالة غرامية يا صوفيا.

أخذت صوفيا الرسالة.

- ألن تفتحيها؟

بم تجيب؟

ـ أرأيت أحدا يفتح رسالة غرامية أمام أمه؟

لا يهم، فلتدع أمها تظن أنها رسالة غرامية على ما في ذلك من حرج بالغ. فكيف تتلقى رسائل غرامية في سنها هذه؟ لكن أليس من الأفظع أن تعرف أمها أنها تتلقى دروسا في الفلسفة بالمراسلة من شخص مجهول يلعب معها، علاوة على ذلك، لعبة القط والفار؟

كانت الرسالة ظرفا من هذه الأظرف البيضاء الصغيرة. وآثرت صوفيا أن تصعد إلى غرفتها لتفتح الرسالة في خلوة وانفراد. أخرجت قصاصة الورق فوجدت بها ثلاثة أسئلة جديدة:

هل هناك مادة أولية صنع منها كل شيء؟

هل يمكن أن يتحول الماء إلى نبيذ؟

كيف يمكن للتراب والماء أن يصيرا ضفدعة حية؟

رأت صوفيا في البداية أن هذه الأسئلة لا تخلو من غرابة وطرافة إلا أنها بقيت تجول بخاطرها طول المساء. فهي تدرك أن كل سؤال يفتح بابا للمعرفة. وقد سحرتها هذه المعرفة الجديدة فأصبح كل سؤال دعوة إلى أسرار وكشوف.

في الصباح ظلت هذه الأسئلة الثلاثة تلح عليها وهي بالمدرسة، فجعلت تقلب فيها النظر الواحد إثر الآخر.

هل هناك «مادة أولية « صنع منها كل شيء؟ اذا افترضنا أن ثمة بالفعل مادة من هذا النوع، فكيف نفسر قدرتها على التشكل مرة في هيئة زهرة رقيقة ومرة أخرى في هيئة فيل ضخم؟

وتصدق نفس الملاحظة على السؤال عن تحول الماء إلى نبيذ. كانت صوفيا تعرف بالتأكيد قصة تحول الماء إلى نبيذ على يد المسيح، ولكنها كانت

تأخذها بمعناها الرمزي لا الحرفي. وحتى إذا كان المسيح قد نجح في تحويل الماء إلى نبيذ فان هذا يندرج بالتحديد في عداد المعجزات والخوارق، أي في عداد الأشياء التي يستحيل حدوثها في الأحوال العادية ! انها تعرف أن قدرا كبيرا من الماء يوجد لا في النبيذ فقط وإنما في كل الكائنات الحية، ولكن حتى اذا كان الماء يؤلف ٩٥ في المائة من ثمرة خيار، مثلا، فلا بد أن تحتوي الثمرة على شيء آخر حتى تغدو خيارة بالتحديد لا مجرد ماء.

أما قصة الضفدعة هذه !... يبدو أن أستاذها الفيلسوف مولع بالضفادع حقاً ! إذا وافقت تجاوزاً على فكرة أن الضفدعة تتكون من تراب وماء فلا بد في هذه الحالة أن يكون التراب مؤلفاً من أكثر من مادة واحدة. فاذا كان التراب مشكلاً من مواد مختلفة استطعنا أن نتخيل آنذاك أن يسفر اتحاد التراب بالماء عن انتاج ضفدعة. هذا اذا افترضنا أن الماء والتراب سيصيران أولاً بيضة ضفدعة ثم فرخ ضفدعة صغير. فالضفدعة لا تنبت هكذا في الحديقة، مهما أخلصنا في ري الأرض.

تركت المدرسة في عصر هذا اليوم وقلبها يزداد وجيبه كلما اقتربت من البيت. ما الذي اعتراك يا صوفيا؟ وما هذه العلاقة الجديدة التي تنشأ بينك وبين هذه الرسائل؟ تترقبينها كأنك على موعد هام، كأنها لحظة التحول والخلق. ماذا سيقول الفيلسوف يا ترى عن الماء والنبيذ والضفادع، وعن تلك المادة الأولية؟ ماذا؟

وجدت في الصندوق ظرفا ضخما، فمضت كعادتها في الأيام السابقة إلى كوخها لتفتحه هناك. وبدأت تقرأ:

مشروع كل فيلسوف

ها نحن ذا من جديد يا صوفيا ! سنشرع من فورنا في درس اليوم دون أن نمر بأمثلة الأرانب البيضاء، أو بهذا النوع من التمرينات التمهيدية.

سأذكر لك في ما يلي من رسائل الخطوط العامة للطريقة التي فكر بها النـاس في المسائل الفلسفية بدءا من اليونانين القدماء (الذين يعرفون أيضاً باسم الاغريق) حتى عصرنا الراهن. وسوف نسير في ذلـك متدرجـين حسـب الـترتيب الزمـني الطبيعـي. ولنبدأ الآن رحلتنا في وعي الانسان، وهي في تصوري رحلة عجيبة وساحرة.

لما كان الفلاسفة الأوائـل قـد عاشـوا في عصـر آخـر غـير عصرنـا وفي حضـارة أخرى مختلفة تماماً عن حضارتنا فمن المفيد أن نسعى إلى التعرف علـى مشـروع كـل فيلسوف. وأقصد بذلـك أننـا يجـب أن نقـف علـى المسـائل المحـددة الـتي اهتـم كـل فيلسـوف ببحثهـا. فقـد يريـد أحـد الفلاسفة أن يعـرف كيـف خلقـت النباتـات أو الحيوانات. في حين قد يتساءل آخر عن وجود الله أو عما اذا كـانت للانسـان روح خالدة.

وما أن يتسنى لنا تحديد مشروع كل فيلسوف حتى يصبح من السهل علينـا أن نفهم طريقته في التفكير، لأن الفيلسوف الواحد لا يهتم بكل القضايا الفلسفية معاً.

إنـي أقـول «الفيلسـوف» لا «الفيلسـوفة»، لأن تـاريخ الفلسـفة لم يصنعـه إلا الرجال. فقد تعرضت المرأة طويلا للقهر، سواء من حيث هي امرأة أو من حيث هي مفكرة. وهذا أمر مؤسف أشد الأسف فقد جعلنا نفتقر إلى رؤية المرأة للأمـور وهـي رؤية كانت جديرة إن وجدت بأن تثري معارفنا وخبراتنا. ولم تنجح المرأة في الاسهام في تاريخ الفلسفة إلا في القرن العشرين.

وقبل أن ندخـل في دروس الفلسفة بـالمعنى الدقيـق، أحسب أن أوضـح لـك مـا سيكون مطلوبا منك. اني لا أنوي أن أعطيك واجبات منزلية، لكن قد أعهـد اليـك من حين لآخر بتمرين تطبيقي صغير. إلا أنه لن يكون في صعوبة مسـائل الرياضيـات، ولن يتطلب هذه القدرة على الحفظ التي تحتاجها دراسة الأفعـال الانجليزيـة الشـاذة. ودعيني أقول لك، بالمناسبة، إن الفلسفة لا علاقة لها من قريب أو بعيد لا بالحفظ عن ظهر قلب ولا بالتسميع.

إذا كنت تقبلين هذه الشروط، نستطيع أن نبدأ الآن.

فلاسفة الطبيعة

يسمى الفلاسفة اليونانيون الأوائل، في أحيان كثيرة، «فلاسفة الطبيعة» (أوالفلاسفة الطبيعيين) لأنهم اهتموا في المقام الأول بدراسة الطبيعة والظواهر الطبيعية.

لقد تساءلنا من قبل عن أصل العالم، وعن أصل كل الأشياء من أين جاءت. وما أكثر من يعتقدون اليوم أن شيئاً ما لا بد أن يكون قد ولد من العدم في لحظة معينة. إلا أن هذه الفكرة لم تكن شائعة لدى اليونانين. بل كانوا يعتقدون لسبب أو لآخر أن «شيئاً ما» كان، على العكس، موجوداً على الدوام من قديم.

لم يكن جوهر المشكلة لدى اليونانيين القدماء إذن هو معرفة كيف خلق كل شيء من العدم. بل كانوا يتعجبون مثلا كيف يمكن أن يخرج السمك الحي من الماء، وكيف تنبت الأشجار العالية والزهور الملونة من الأرض الميتة، وكيف يولد الطفل من بطن الأم !

فالفلاسفة كانوا يلاحظون بأبصارهم أن الطبيعة تتحول تحولا دائما، ويتساءلون كيف يحدث هذا التحول؟ كيف يمكن لشيء أن يتحول من جماد مثلا إلى كائن حي؟

وتصور كل الفلاسفة الأوائل أن هناك *مادة أولية* هي الأصل الذي يتشكل بكل هذه الأشكال ويتجلى في تلك التحولات. ومن الصعب أن نقول كيف اهتدوا إلى هذه الفكرة، كل ما نعرفه هو أن ثمة فكرة تبلورت تدريجيا تقول إن هناك بالضرورة مادة أولية تعد هي العلة الخفية الكامنة وراء كل التغيرات الحادثة في الطبيعة. لا بد أن يكون هناك «شيء ما» تنشأ عنه كل الأشياء واليه تعود.

على أن أكثر ما يهمنا ليست الاجابات المختلفة التي توصل اليها بالفعل هؤلاء الفلاسفة الأوائل، بل الأسئلة التي طرحوها ونوع الاجابة التي كانوا يطمحون إلى التوصل إليها. فالأهم بالنسبة لنا أن نفهم «كيف» كانوا يفكرون لا «فيما» كانوا يفكرون بالضبط.

إننا نعرف أنهم كانوا يتساءلون عن التحولات التي يلاحظونها تحدث أمام أعينهم في الطبيعة، وأنهم كانوا يحاولون اكتشاف القوانين الطبيعية التي تفسر هذه التحولات. ثم انهم كانوا يتطلعون إلى فهم الأحداث التي تقع في الطبيعة دون اللجوء إلى التفسيرات التي تقدمها الأساطير. أي أنهم كانوا يريدون في المقام الأول أن يفسروا العمليات التي تحدث في الطبيعة بدراسة الطبيعة ذاتها. ولا ريب في أن هذا أمر مختلف كل الاختلاف عن تفسير البرق أو الرعد، أو الشتاء أو الربيع، بابتكار حكايات عما يحدث في عالم الآلهة.

لقد بدأت الفلسفة تستقل شيئاً فشيئاً عن الدين. وبوسعنا أن نقول إن فلاسفة الطبيعة قد خطوا الخطوة الأولى صوب استحداث *الأسلوب العلمي* في التفكير، وإنهم كانوا الرواد الأوائل لما سيصبح في وقت لاحق العلم بمعناه الدقيق.

وبحكم طول الفاصل الزمني، ضاع الجانب الأكبر مما قاله فلاسفة الطبيعة أو كتبوه. والجانب الضئيل الذي نعرفه عنهم نجده في مؤلفات *أرسطو* الذي عاش بعدهم بعدة قرون. إلا أن أرسطو قد اقتصر على تلخيص ما توصل اليه هؤلاء الفلاسفة من استنتاجات، ولذلك فاننا لا نعرف دوما ما هي السبل التي سلكها هؤلاء الفلاسفة للوصول إلى تلك الاستنتاجات. لكن ما وصل الينا عنهم يسمح لنا أن نؤكد أن «مشروع» الفلاسفة الأوائل كان يتعلق بالتساؤل عن «المادة الأولية» وفهم التحولات الحادثة في الطبيعة.

فلاسفة ملطية الثلاثة

أول فيلسوف سمعنا به هو طاليس، وهو من أبناء ملطية التي كانت مستعمرة يونانية في آسيا الصغرى. وكان طاليس جواب آفاق كثير الترحال. ويحكى عنه فيما يحكى أنه حسب ارتفاع أحد أهرامات مصر بقياس ظل الهرم في اللحظة التي تطابق فيها ظل جسمه هو أي طاليس مع طوله الحقيقي. كما يقال انه تنبأ بحدوث كسوف للشمس في عام ٥٨٥ قبل الميلاد.

كان طاليس يعتقد أن *الماء* هو أصل كل الأشياء. ونحن لا نعرف ما الذي كان يقصده بذلك على وجه الدقة. لعله كان يريد أن يقول إن كل أشكال الحياة تنشأ من الماء وإنها تعود جميعاً إلى الماء بعد تحللها.

ولعله أبصر، وهو بمصر، أن المحاصيل سرعان ما تنمو بمجرد انحسار فيضان النيل عن أرض الدلتا. أو لعله لاحظ أيضاً أن الضفادع وديدان الأرض تخرج من مكامنها بمجرد أن يتوقف هطول المطر. ومن المرجح كذلك أن يكون طاليس قد لاحظ أن الماء يتحول إلى ثلج أو إلى بخار ثم يصير ماء مرة أخرى.

وينسب إلى طاليس قوله «إن كل الأشياء مليئة بالآلهة». ما الذي يقصده بذلك على وجه الدقة؟ لا نستطيع إلا الحدس والتخمين. لعله حين رأى تلك الأرض السوداء معطاءة وهابة ينشأ عنها كل شيء، من الزهرة البرية إلى حقول القمح، مرورا بالحشرات والزواحف، تصور أن الارض مليئة «ببذور حية» دقيقة غير مرئية. هناك أمر مؤكد هو أنه لم يكن يقصد آلهة هوميروس.

وثاني فيلسوف نعرفه هو *انكسيمندريس* الذي عاش بدوره في ملطية وعاصر طاليس. وكان انكسيمندريس يرى أن عالمنا ما هو إلا عالم واحد من عوالم عديدة لا تحصى، تولد من شيء يسميه اللا محدود، ثم تنحل وتفنى فيه. ومن الصعب أن نقول ما الذي كان يعنيه الكسيمندريس باللا محدود على وجه التحقيق، انه على أي حال لا يقصد به عنصرا معروفا كما هو الأمر عند طاليس. لعله كان يريد أن يقول إن المادة التي تنشأ منها جميع الأشياء لا بد أن تكون مختلفة عن تلك الأشياء التي تنتج عنها. ولما كانت كل المخلوقات محدودة فان ما يأتي قبلها وبعدها لا بد أن يكون «لا محدودا». من الواضح اذن أن المادة الأولية لا يمكن أن تكون شيئاً عاديا مألوفا مثل الماء.

أما فيلسوف ملطية الثالث فكان يدعى انكسيمانس (نحو ٥٧٠ ـ ٥٢٦ قبل الميلاد). وكان يزعم أن *الهواء أو الضباب* هو أصل كل الأشياء. وكان انكسيمانس يعرف، بطبيعة الحال، مذهب طاليس في الماء. لكن من أين يأتي الماء وكيف يتحول؟ تصور انكسيمانس أن الماء لا بد أن يكون هواء وقد بلغ درجة التركز الكثيف. فنحن نلاحظ عند سقوط المطر أن الماء يخرج من الهواء، كأنما الهواء قد استقطر وعصر. وكان يتصور ان الماء عندما تزداد كثافته يتحول إلى تراب. فلا شك في أنه

رأى الجليد يذوب فيتحلل إلى تراب ورمال. وبنفس هذا المنهج في التفكير، لم تكن النار في رأيه سوى الهواء مخففا متخلخلا، فالتراب والماء والنار عناصر لها كلها أصل واحد هو الهواء.

وليس من الصعب ملاحظة الصلة بين التراب والماء من جهة، وبين النباتات التي تنمو في الحقول من جهة أخرى. ولعل انكسيمانس كان يتصور أن التراب والهواء والنار والماء عناصر ضرورية كلها لخلق الحياة، مع اقتناعه بأن «الهواء» أو «الضباب» هو أصل كل الأشياء.

وانكسيمانس يتفق بذلك مع طاليس ومع انكسيمندريس في التأكيد على أن ثمة مادة واحدة هي أصل كل التغيرات التي تحدث في الطبيعة، وان اختلفوا في تحديد تلك المادة.

لا يولد شيء من العدم

كان فلاسفة ملطية الثلاثة يعتقدون اذن أن أصل العالم مادة أولية واحدة فحسب ينشأ عنها كل شيء. ولكن كيف يمكن لمادة واحدة أن تتحول فجأة إلى شيء مختلف عنها تماماً؟ نستطيع أن نطلق على هذا السؤال *مشكلة التغير*.

قبل ٥٠٠ عام تقريبا من الميلاد، كان يعيش في مستعمرة إيليا اليونانية بجنوب ايطاليا بعض الفلاسفة الذين انصرفوا إلى مناقشة هذه المشكلة؛ وكان بارمنيدس (نحو ٥٤٠ ٤٨٠ قبل الميلاد) هو أشهر هؤلاء الفلاسفة الذين عرفوا باسم الفلاسفة «الإيليين» نسبة لموطنهم.

يرى *بارمنيدس* ان كل ما هو موجود قد وجد دوما من قديم الأزل. ولم تكن هذه الفكرة غريبة على أهل اليونان، فقد شاع لديهم تصور يسلم بأن كل ما هو موجود في العالم خالد أبدي. وكان بارمنيدس يقول: لا يولد شيء من لا شيء. كما أن الشيء الموجود لا يمكن بدوره أن يتلاشى في العدم.

غير أن بارمنيدس مضى بهذه الفكرة إلى مدى أبعد من سواه. فقد قادته هذه الفكرة إلى إنكار حدوث أي تغير حقيقي، فالتغير عنده هو أن يستجد شيء لم يكن موجوداً من قبل، وهو يرى أن كل شيء قديم منذ الأزل. من المستحيل اذن أن

يوجد شيء ثم يصبح شيئاً آخر غير ذاته. ولم يكن ليغيب عن بـارمنيدس أن الطبيعة تحدث فيها تحولات دائمة، فهذا ما يدركه *بحواسه*. ولكنه لم يستطع أن يو فق بين ما يدركه بحواسه وما يقوله *عقله* الذي ينكر التغير ويرفضه. وعندما اضطـر بـارمنيدس إلى الاختيار بين حواسه وعقله، اختار أن يركن إلى حكم العقل.

كلنا نعرف العبارة التي تقول: «لا تصدق إلا ما تراه بعينيك» لكـن بـارمنيدس لم يكن يصدق حتى ماتراه عيناه. فهـو يعتقـد أن الحـواس تعطينـا صـورة كاذبـة عـن العالم، صورة لا تتفق مع ما يمليه العقل. وكان يرى أن دوره كفيلسوف هـو تسـليط الضوء على *خداع الحواس* بكـل أشـكاله. فـالعقل ينكـر امكانيـة التحـول وبالتـالي فالتحولات التي تدركها الحواس خادعة غير حقيقية.

إن هذا الايمان الذي لا يتزعزع بالعقل الانسـاني يسـمى *العقلانيـة*. فـالعقلاني هو من يرى أن العقل الانساني هو المصدر الرئيسي لمعرفتنا بالعالم.

كل الأشياء في تغير متصل

وقد عاصر بارمنيدس فيلسوف آخر يدعى *هيراقليطس* (نحو ٥٤٠ ٤٨٠ قبـل الميـلاد) مـن مدينـة أفسـوس بآسيا الصغـرى. وكـان هـيراقليطس يـرى أن السـمة الرئيسية للطبيعة هي التغير المتصل. وربما جاز لنا أن نقول إن هـيراقليطس كـان يثـق أكثر من بارمنيدس بما تدركه الحواس.

يقول هيراقليطس ان «كـل الاشـياء في تغـير متصـل». كـل الموجـودات لاتفتـأ تتحول ولا يوجد شيء يظل ثابتا إلى الأبد. ولذا فاننا لا نستطيع علـى حـد قولـه أن «ننزل النهر الواحد مرتين» لأني عندما أستحم للمـرة الثانيـة في النهـر تكـون ميـاه النهر قد تجددت، كما أكون أنا قد تغيرت بدوري.

وأشار هيراقليطس إلى أن هذا التغير يعـزى إلى التفـاعل المستمر بـين الأضـداد الملازم للعالم والمتأصل فيه. فإن لم يحل بنا المرض أبداً لن نعرف ماهي الصحـة، وإن لم نقاس الجوع يوما لن نسعد بتناول كفايتنـا مـن الطعـام، وإن لم تنشـب الحـروب لـن نقدر قيمة السـلام، وإن لم يحـل الشـتاء لـن نشـهد بـزوغ الربيـع. وهـذا يوضـح أن

الصراع ينطوي على انسجام عميق وأن للخير والشر مكانهما الضروري في نظام الأشياء. فالعالم لا يوجد بغير التفاعل المستمر بين هذين الضدين.

وكان هيراقليطس يرى أن العالم بكل أضداده ينشأ عن مبدأ واحد أول هو النار. وهي نار أثيرية خفية سرمدية، هي حياة العالم وأصل كل الموجودات، ومصدر كل التحولات التي تسير وفق «قانون كلي» أو «سنة شاملة» أسماها هيراقليطس «اللوغوس» أي العقل. فكل ما يحدث في الطبيعة يحكمه «عقل كلي».

وكثيراً ما استخدم هيراقليطس لفظ «ا لله» بدلاً من كلمة العقل، وهو بالطبع لا يقصد به آلهة الأساطير القديمة. بل يقصد به شيئاً يشمل الطبيعة بأسرها. والواقع أن ا لله يتجلى بوضوح في التحولات المستمرة الحادثة في الطبيعة وفي التفاعل المتصل بين الأضداد.

وكان يقول «إن ا لله هو النهار والليل، والشتاء والصيف، والحرب والسلام، والجوع والشبع».

وروح الإنسان قبس من هذه النار الإلهية، ولذا على الانسان أن يدرك الانسجام الباطن في الأشياء وأن يحتكم إلى القانون الكلي الذي يسري على كل الموجودات. ولكن هيراقليطس كان يرى أن معظم الناس لا يفعلون، على العكس، إلا ما يعن لهم. ولذا لم يكن احتراما كبيرا للآخرين، وكان يقول: «ما أشبه رأي العامة بلهو الأطفال».

العناصر الأربعة الأولية

كان كل من بارمنيدس وهيراقليطس يعتنق اذن تصورا يتعارض تعارضاً كاملاً مع تصور الآخر. *فالعقل* لدى بارمنيدس يقضي باستحالة أي تغير حقيقي. في حين أن *خبرة الحواس* كانت تؤكد لهيراقليطس أن الطبيعة تتبدل تبدلا متصلاً. فأيهما كان على صواب؟ أيجب علينا أن نثق بما يقول به عقلنا، أم أن نثق بما تدل عليه *حواسنا*؟

إن كلاً من بارمنيدس، وهيراقليطس، يؤكد أمرين. فأما بارمنيدس فيرى:

أ ـ استحالة أي تحول حقيقي؛
ب ـ أن حواسنا خادعة بالتالي.

وأما هيراقليطس فانه يدافع في المقابل عن التصور القائل بأن:

أ ـ كل الأشياء تتحول تحولا حقيقيا («كل الأشياء في تغير متصل»)؛
ب ـ أن حواسنا جديرة بأن نثق بها.

من الصعب اتخاذ موقفين أشد تعارضاً! فمن منهما على صواب؟ لقد تكفل *انبادوقليس* (نحو ٤٩٠ ـ ٤٣٠ قبل الميلاد)، وهو من أبناء صقلية، باخراج الفلسفة من هذا المأزق. فقد بين أن كليهما كان مصيبا في نقطة، وأن كليهما كان مخطئا أيضاً في النقطة الأخرى.

فأنبادوقليس يرى أن سبب هذا الاختلاف الكبير ينشأ من أن كلا الفيلسوفين قد افترض أن هناك مادة واحدة هي أصل كل الأشياء.

ولو كان ذلك صحيحا فان الهوة بين ما يمليه علينا العقل من جهة «وما نراه بعينينا» من تحولات متصلة، من جهة أخرى، تبدو هوة هائلة يتعذر تجاوزها تماماً.

من الواضح أن الماء لا يمكن أن يتحول إلى سمكة أو فراشة. فالواقع أن الماء لا يمكن أن يتغير. فالماء النقي سيظل ماء نقيا. إذن بارمنيدس كان مصيبا عندما أكد عدم تغير أي شيء.

ولكن أنبادوقليس اتفق في الوقت ذاته مع هيراقليطس في أن علينا أن نثق بما تدلنا عليه حواسنا. يجب أن نثق بما نراه، ونحن نرى أن الطبيعة تتغير تغيرا مستمرا.

واستنتج أنبادوقليس ان فكرة وجود مادة أولية واحدة فكرة يجب رفضها. فلا الماء وحده يمكن أن يتحول إلى زهرة ولا الهواء وحده يمكن أن يتحول إلى فراشة. فالطبيعة لا يمكن أن تنشأ من «عنصر» واحد.

ورأى أنبادوقليس أن كل الأشياء الموجودة في الطبيعة تتألف من أربعة عناصر، أو «اصول» كما سماها، هي *التراب والهواء والنار والماء*.

وكل التغيرات التي تحدث في الطبيعة انما تنشأ عن امتزاج هذه العناصر الأربعة وانفصالها. ذلك أن كل الأشياء مؤلفة من خليط من التراب والهواء والنار والماء، مع تفاوت في نسب هذه العناصر. وكان يقول عندما تموت زهرة أو حيوان مثلا تنفصل

هذه العناصر الأربعة وتتفرق من جديد. ونحن نلاحظ هـذه التغيرات بأعيننـا. لكـن التراب والهواء والنار والماء تظل ثابتة لاتتغـير بتحـول أي شـكل مـن الأشـكال الـتي تشترك في تكوينها. ليس من الصحيح اذن أن نقول إن «كـل الأشـياء« تتغير. فمـن الناحية الأساسية لا شيء يتغير (أي ان العناصر البنائية التكوينية تظـل ثابتـة). إن مـا يحدث هو أن العناصر الأربعة تتحد وتنفصل ثم تمتزج وتتفرق من جديـد في دورة لا تنتهي.

ويمكننا أن نقارن ذلك بعمل الرسام. فان كان لدى الرسام لون واحـد، ولنقـل الأحمر مثلا، سوف يستحيل عليه أن يرسم أشجارا خضراء. لكن اذا كان لديه أيضاً الأصفر والأزرق والأسود لاستطاع أن يرسم مئـات الألـوان المختلفـة بمجـرد تغيـير نسبها في كل مرة.

أو لنقارن ذلك باعداد الطعام، مثـلا. فبـالدقيق وحـده، لـن أستطيع أن أصنـع كعكـاً مهمـا أوتيـت مـن براعـة. ولكـن اذا كـان لـدي دقيـق ولـبن وسـكر وبيـض لاستطعت عندئذ أن أصنع، انطلاقا من هذه المواد الأولية الأربع، أنواعا وأشـكالاً لا حصر لها من الكعك.

هكذا و لدت يا صوفيا فكرة العناصر الأربعـة. إلا أنـي واثـق أنـك تتسـاءلين: ولكن لماذا أربعة عناصر بـالتحديد؟ ولمـاذا هـي الـتراب والهـواء والمـاء والنـار؟ وهـو سؤال وجيه يا صوفيا.

ليس من الصدفـة أن يعتقـد أنبـادوقليس أن «اصـول» الطبيعـة هـي بـالتحديد التراب والهواء والنار والماء. إذ سـبقه فلاسـفة آخـرون حـاول كـل منهـم، بطريقتـه الخاصة، اثبات لماذا كانت المادة الاولية هي إما ماء وإما هـواء وإمـا نـار. فقـد كـان طاليس واناكسيمانس كلاهما مقتنعين بأن الماء شأنه شأن الهواء من عنـاصر الطبيعـة الأساسية. وكان اليونانيون مقتنعين أيضاً بأن النار عنصر جوهري. فقد لاحظوا مثلا أهمية الشمس لكل الكائنات الحية، كما لاحظوا أن جسم الانسـان أو الحيـوان لـه حرارة معينة.

لعل أنبادوقليس قد رأى قطعة خشب تحترق. فها نحـن ازاء شـيء يتحلـل. اننـا نستمع إلى الخشب يتصدع ويطقطق فنقول: إنه «الماء». ونـرى شـيئاً يتصـاعد علـى

هيئة دخان فنقول: إنه «الهواء». أما «النار» فها هي أمام أنظارنا تتلظى وتتقد. ثم يتبقى شيء عند خمود النار: انه الرماد أو «التراب».

وبعد أن أوضح أنبادوقليس أن كل التغييرات الحادثة في الطبيعة تعزى إلى تآلف العناصر الأربعة وتباعدها، يبقى شيء آخر يتعين تفسيره. فلأي سبب تتجمع هذه العناصر لتخلق حياة جديدة؟ وما الذي يجعل «التوليفة»، التي تجمعت على هيئة زهرة، مثلا، تتفكك وتنحل من جديد؟

وأجاب أنبادوقليس أن ثمة قوتين متعارضتين تؤثران في الطبيعة هما *المحبة والكراهية*. فالمحبة هي قوة التجميع والتوحيد أما الكراهية فهي قوة التفرقة والفصل.

ومما يلفت النظر حقاً أنه ميز بين «العنصر« و «القوة«، في نبوءة بعيدة استبقت التمييز الذي يقيمه العلم في عصرنا الحالي، بين «المواد الأولية « وبين «القوى الطبيعية». فالعلم الحديث يعتقد ان جميع الظواهر الطبيعية يمكن ردها إلى التآلف بين المواد الأولية والقوى الطبيعية المختلفة.

كما تساءل أنبادوقليس عن كيفية ادراكنا للأشياء. فكيف أستطيع أن أرى زهرة مثلا؟ ما الذي يحدث عندئذ بالتحديد؟ هل فكرت في هذا من قبل يا صوفيا؟

إن أنبادوقليس يزعم أن أعيننا مكونة من التراب والهواء والنار والماء، مثلها في ذلك مثل كل ما في الطبيعة. وعليه، فان «التراب» في عيني سيدرك عنصر التراب فيما أراه، وكذلك مع عنصر «الهواء» وعنصر «النار» وعنصر «الماء». واذا فقدت عيني عنصرا من تلك العناصر لن أستطيع أن أرى الطبيعة في كليتها.

جزء من الكل منبث في جميع الاشياء

كان هناك فيلسوف آخر لم يسعه أن يوافق، مثله مثل أنبادوقليس، على فكرة أن مادة أولية واحدة، كالماء مثلا، يمكنها أن تتحول إلى كل ما نراه: انه اناكساجوراس (٥٠٠ - ٤٢٨ قبل الميلاد). فهو بدوره لم يقتنع بفكرة أن عناصر التراب والهواء والنار والماء يمكنها أن تتحول إلى دماء وعظام.

ويرى اناكساجوراس أن الطبيعة مكونة من وحدات ضئيلة لا تراها العين. وكل الأشياء يمكن أن تنقسم إلى أجزاء أصغر فأصغر، لكن مهما تواصل هذا الانقسام فان كل جزء منها سيظل محتويا على بعض من الكل.

وربما ساعدتنا بعض الأمثلة الحديثة على أن نزداد فهما لتفكير أناكساجوراس، فتكنولوجيا الليزر الراهنة تمكننا من انتاج الهولوجرامات (أي صور مجسمة ثلاثية الأبعاد). فاذا صورنا هولوجراما على هيئة سيارة مثلا ثم أزلنا جزءا من هذا الهولوجرام، سنظل نرى مع ذلك صورة للسيارة كلها، حتى وان لم يتبق من الهولوجرام إلا الجزء الذي يمثل واقي الصدمات. وذلك ببساطة لأن النموذج بأسره موجود في أكثر أجزائه ضآلة.

إن أجسامنا أيضاً مكولة، من منظور معين، وفقاً لهذا التصور. فلو نزعت خلية من أحد أصابعي، فانها ستبين حالة وطبيعة لا جلدي وحده وانما أيضاً حالة وطبيعة عيني، ولون شعري، وعدد أصابعي وشكلها الخارجي، بل وكثيراً من الخصائص الأخرى. ان كل خلية في جسمي تحتوي على معلومات تفصيلية عن تكوين سائر خلايا الجسد. تملك كل خلية اذن «جزءا من الكل». ان الكل منبث في كل جزء مهما اشتدت ضآلته.

أطلق اناكساجوراس على هذه «الوحدات الضئيلة» التي تملك «بعضا من الكل» اسم «البذور».

لقد رأينا أن أنبادوقليس كان يعتقد أن «المحبة« توحد الأجزاء المختلفة لتكون منها أجساما كاملة. وكان اناكساجوراس بدوره يتصور أن هناك نوعاً من قوة تضفي النظام على تلك البذور وتشكل منها الحيوانات والبشر والزهور والأشجار وتسبغ عليها الهيئة الخاصة بها. وكان اناكساجوراس يطلق على هذه القوة «العقل المجرد« أو «الناموس« (أو «النوس« باللغة اليونانية).

كما اننا نهتم بأناكساجوراس لسبب آخر: فهو أول من سمعنا به من فلاسفة أثينا. انه ينحدر حقاً من آسيا الصغرى لكنه نزح إلى أثينا واستقر بها وقد ناهز الأربعين. وقد اتهم بالالحاد واجبر على ترك المدينة، لأنه تجرأ على الزعم بأن الشمس ليست إلهاً بل حجر ملتهب لدرجة الابيضاض يزيد حجمه زيادة هائلة على

حجم شبه جزيرة بليبونيز. فكان بذلك أول فيلسوف يعاقب على ما توصل إليه بوحي من تفكيره وبهدي من عقله.

وكان اناكساجوراس مولعا بعلم الفلك. وكان يرى أن جميع الأجرام السماوية مكونة من نفس مادة الأرض. وقد انتهى إلى تلك النتيجة بعد أن درس أحد النيازك المتساقطة من السماء. ولذلك فانه لم يستبعد أن يكون ثمة بشر يعيشون في كواكب أخرى. كما أشار إلى أن القمر لا يضئ بنفسه وانما يتلقى نوره من الأرض، وشرح كذلك ظاهرة خسوف الشمس.

ملحوظة: أشكرك على انتباهك يا صوفيا. انني أدرك أن هذا الفصل قد يكون صعبا بعض الشيء ولذا سأكون شاكرا لك إن أعدت قراءته حتى تستوعبيه استيعابا جيداً. فالفهم يتطلب دوما بعض الجهد. فإنك لن تعجبي، فيما أعتقد، باحدى صديقاتك إن هي نجحت في جميع المواد دون أن يكلفها ذلك أدنى عناء.

لقد رأينا يا صوفيا أن فكرة العناصر الأربعة كانت محاولة لتفسير التغيير المتصل الحادث في الطبيعة. إلا أن هذا التغير طرح له تفسير أكثر براعة قدمه ديموقريطس. ولكن عليك الآن أن تنتظري حتى الغد. فغدا ستتعرفين على هذا الفيلسوف...

نحت صوفيا قليلاً الأغصان الكثيفة فانفتحت أمامها ثغرة صغيرة أخذت ترنو من خلالها إلى الحديقة. هذا هو عالمها الأليف بأشجاره الباسقة وزهوره المتألقة وطيوره المغردة وقطتها التي تتقافز مرحة سعيدة. ثم خطر لها فجأة أن «الظواهر الطبيعية» ليست مفهوما نظريا مجردا انما هي حقيقة قريبة وملموسة. ولا بد أن الفلاسفة الأوائل شعروا بذلك فأقبلوا يحاولون فهمها وتعليلها.

ما أشبه خطواتها الأولى في دروس الفلسفة بالمحاولات الاولى لفهم العالم. لقد قال لها الفيلسوف إن الفلسفة لا علاقة لها بالحفظ والتسميع. فلتحاول إذن أن ترتب أفكارها بعد كل هذا الذي قرأت، وأن تفكر بنفسها دون الرجوع إلى ما فرغت توا من مطالعته.

من الواضح أن الماء لا يمكن أن يتحول إلا إلى ثلج أو بخار. إنه لا يمكن أن يتحول إلى ثمرة بطيخ، لأن ثمرة البطيخ مكونة من شيء آخر غير الماء وحده. ولكن ألا يعزى اقتناعها الراسخ هذا إلى أنها قد تعلمت ذلك من قبل؟

هل كانت ستعرف حقاً أن الثلج ما هو إلا ماء ان لم تكن قد درست هذا؟ ألم تكن مضطرة آنذاك لأن تدرس كما فعل القدماء ظاهرة تجمد الماء ثم ذوبانه ليصير ماء من جديد!

وحاولت صوفيا أن تفكر مرة أخرى بنفسها دون التفكير فيما تعلمته من الآخرين. لقد رفض بارميندس أن يعترف بأي شكل من أشكال التغير. وكلما أمعنت في التفكير اضطرت إلى الاقرار بأن هناك قدرا من الصواب فيما يقول. إن فطرته السليمة قد عصمته من قبول فكرة أن «شيئاً ما» يمكن أن يصير فجأة شيئاً مختلفاً تماماً. ولا بد ان بارمنيدس كان على قدر من الشجاعة ليعلن هذا الرأي الذي ينكر كل التغيرات الحادثة في الطبيعة، وهي تغيرات كان بوسع كل إنسان أن يلاحظها بنفسه. والأرجح أن هذا الانكار قد جعله موضع سخرية من الجميع.

وكان أنبادوقليس بدوره بارعا عندما أكد أن الكون لا يمكن أن يتألف من عنصر واحد وانما من عناصر متعددة. فبهذه الطريقة أصبح كل تحول في الطبيعة ممكنا دون أن يترتب على ذلك تغير أي شيء من الأشياء.

لقد توصل الفيلسوف اليوناني القديم إلى هذه الاستنتاجات بتوفره على إعمال فكره ودراسة الطبيعة، دون أن تتاح له الاستعانة بالتحاليل الكيميائية المتيسرة لعلماء اليوم.

ولم تدر صوفيا على وجه الدقة إن كان عليها أن تصدق حقاً أن التراب والهواء والنار والماء هي العناصر التي تشكل أصل كل المخلوقات الموجودة في الطبيعة. ولكن ما أهمية ذلك في واقع الأمر؟ من ناحية المبدأ لم يجانب انبادوقليس الصواب. فالسبيل الوحيد الذي يتيح لنا الإقرار بكل التحولات التي تدركها أعيننا دون أن نضحي بما يقوله العقل عن استحالة ولادة شيء من لا شيء هو قبول وجود أكثر من مادة أولية واحدة. فما الجديد الذي سيقوله ديموقريطس هذا يا ترى؟

وجدت صوفيا أن الفلسفة مغامرة عجيبة حقاً. فها هي تعرض عليها أفكارا وآراء، وفروضا ومحاولات، وحدسا بالحقيقة واقترابا من كشفها، فتشركها في تتبع رحلة الإنسان المعرفية. وكيف لها أن تشترك في هذه الرحلة ان هي لم تفكر بنفسها في كل ما يبسط بين يديها. واستنتجت أن الفلسفة ليست في حقيقة الأمر درسا يحفظ ويسمع، وانما هي درس يعلمنا كيف نفكر في قضايا الكون والوجود.

الفصل الخامس

ديموقريطس

... أبرع لعبة في العالم...

أغلقت صوفيا العلبة المعدنية الحمراء التي تحتفظ فيها بجميع الأوراق المطبوعة التي وصلتها من استاذ الفلسفة المجهول. وتسللت خارجة من كوخها ومكثت لحظة تتأمل الحديقة. ثم مر بخيالها فجأة ما حدث بالأمس من اكتشاف أمها لرسالة الفيلسوف. ثم هل تنسى أن أمها لم تتورع عن ممازحتها اليوم أثناء الافطار بخصوص هذه «الرسالة الغرامية» المزعومة. أسرعت تنظر في صندوق البريد تجنبا لتكرر هذا الموقف السخيف. فربما ساغ تجاوزا أن تتلقى رسالة غرامية ذات مرة، أما أن يتكرر ذلك في يومين متتاليين فمأزق محرج حقاً.

وجدت من جديد ظرفا صغيرا أبيض ! وبدأت صوفيا تتبين أن الرسائل التي تتلقاها تسير على نظام معين: فعصر كل يوم يصلها ظرف كبير أصفر، وبينما هي منهمكة في قراءة هذه الرسالة الطويلة، يتسلل الفيلسوف خفية ليدس في الصندوق ظرفا صغيرا أبيض.

وهذا يعني أن صوفيا تستطيع أن تكتشفه بسهولة. ولكن ما أدراها أن الفيلسوف ليس امرأة في واقع الأمر؟ حسبها أن ترابط في نافذتها، فموقعها يتيح لها أن ترى صندوق البريد بوضوح. وسينتهي الأمر بضبط هذا الفيلسوف الغامض. فليس من المعقول أن تأتي الأظرف البيضاء بنفسها!

واستقر عزم صوفيا على تنفيذ خطتها من الغد. فغدا سيوافق يوم الجمعة، وبعد يوم الجمعة ستكون أمامها عطلة نهاية الأسبوع بطولها.

صعدت إلى غرفتها لتفتح الظرف. اليوم، لم تكن قصاصة الورق تحمل إلا سؤالاً واحداً، ولكنه كان يبدو في ظاهره أشد غرابة من الأسئلة الثلاثة الأخرى التي وردت في «الرسالة الغرامية « الشهيرة.

لماذا تعتبر لعبة «اللوجو» أبرع لعبة في العالم؟

ما أعجب هذا السؤال! للوهلة الأولى، لم يسع صوفيا أن توافق على اعتبار لعبة «اللوجو» أبرع لعبة في العالم، انها لم تمسها على أي حال من سنوات طويلة. كما انها لا تتبين على الإطلاق ما علاقة اللوجو بالفلسفة.

ولكنها كانت تلميذة مجتهدة. فخفت إلى استخراج لعبتها عل تأملها يدلها على مقصد الفيلسوف. فتشت في الرف العلوي من خزانتها حتى عثرت على كيس من البلاستيك مليء بقطع اللوجو من كل حجم وشكل. ما أطول الوقت الذي انقضى منذ لعبت بها آخر مرة. انهمكت في تكوين أحد الأشكال، وبينما هي مستغرقة في اللعب أخذت تفكر فيما يميز قطع اللوجو.

قالت لنفسها ان تجميعها سهل للغاية. فحتى لو كان شكل القطع أو حجمها مختلفاً فهي تتراكب كلها معاً. وبالاضافة إلى ذلك فان هذه القطع البلاستيكية لا تبلى أو تتأثر بالاستعمال. فهي لا تذكر أنها رأت يوما قطعة لوجو تالفة. ان لعبتها تبدو جديدة تماماً كما تلقتها من عدة سنوات. ثم اننا نستطيع أن نبني بهذه القطع ما شاء لنا الخيال. كما نستطيع أن نفكك مابنيناه ثم نبدأ من جديد لنبني شيئاً مختلفاً كل الاختلاف.

أليس ذلك كافياً؟ وسلمت صوفيا بأن لعبة اللوجو جديرة بأن تسمى فعلاً أبرع لعبة في العالم. إلا انها ما زالت لا تدرك ما علاقة هذه اللعبة بالفلسفة.

ما لبثت صوفيا أن بنت بيتا كبيرا للعرائس. و لم تواتها الجرأة لتعترف بأنها لم تتسل منذ فترة طويلة بهذا القدر من المتعة. وبالمناسبة، لـمَ نتوقف عندما نكبر عن اللعب؟

عادت أمها، ولما وقع بصرها على البيت الذي أقامته صوفيا ابتدرتها قائلة:

ـ آه، ما أروع أن آراك يا صوفيا تستمتعين باللعب كفتاة صغيرة!

ـ أنا لا ألعب! أنا أقوم بتجربة فلسفية معقدة.

تنهدت أمها تنهدا عميقا. لا بد أن صوفيا تفكر في قصة هذا الأرنب الأبيض وتلك القبعة الطويلة.

عادت صوفيا من المدرسة في اليوم التالي فوجدت أنها تلقت من جديد عدة ورقات أخرى في ظرف كبير أصفر. أخذت الظرف وصعدت إلى غرفتها. كانت تتعجل قراءة الرسالة من جهة، وتريد مراقبة صندوق البريد من جهة أخرى.

نظرية الذرة

سلام يا صوفيا! ستسمعين اليوم عن آخر فيلسوف كبير من فلاسفة الطبيعة. انه *ديموقريطس* (نحو ٤٦٠ ـ ٣٧٠ قبل الميلاد) وهو من أبناء مدينة ابديرا المطلة على شمال بحر إيجة. وإن كنت قد نجحت في حل لغز اللوجو، فلن تواجهي صعوبة في فهم مشروع هذا الفيلسوف.

كان ديموقريطس متفقا مع الفلاسفة الذين سبقوه في أن التغيرات التي نلاحظها في الطبيعة ليست نتيجة «تحول» حقيقي. فافترض أن كل الأشياء لابد أن تكون اذن مشكلة من وحدات بنائية ضئيلة غير مرئية، وأن كل وحدة منها تعتبر إذا أخذناها على حدة سرمدية أبدية وثابتة لا تتغير. واطلق ديموقريطس على هذه الوحدات متناهية الدقة اسم *الذرات*.

وكان ديموقريطس يرى أن الوحدات الأساسية التي يقوم عليها بناء العالم لا يمكن أن يتوالى انقسامها إلى ما لا نهاية، وإلا لما تسنى استخدامها كوحدات بنائية. فلو أمكن تحطيم الذرات وتجزئتها إلى أجزاء أصغر فأصغر لفقدت الطبيعة في النهاية

كثافتها وتماسكها ولكانت أشبه بحساء يخف تركيزه شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى قوامه ويتبدد.

والعناصر البنائية للطبيعة يجب أن تكون من جهة أخرى سرمدية دائمة، فلا شيء يولد من العدم. واتفق ديموقريطس في هذه النقطة مع بارمنيدس والإيليين. كما كان يعتقد أن جميع الذرات لا بد أن تكون صلبة ومصمتة ولكنها لا يمكن أن تكون متماثلة. فلو تطابقت الذرات كلها سيظل من المتعذر ايجاد تفسير مقنع يوضح لنا كيف تتجمع معاً لتكو ن أشياء مختلفة كل الاختلاف مثل زهرة البنفسج، أو شجرة الزيتون، أو جلد الماعز، أو شعر الانسان.

وكان ديموقريطس يرى أن الطبيعة تحتوي على عدد لا متناه من الذرات. بعضها مستدير ناعم، وبعضها الآخر متقوس خشن. واختلاف أشكالها هو بالتحديد ما يتيح لها أن تتجمع في تكوينات متنوعة لا حصر لها. ولكن مهما زاد عددها واشتد اختلافها فهي جميعاً سرمدية وثابتة لا تنقسم أو تتجزأ.

وعندما يموت جسم كائن حي ولنقل مثلا جسم شجرة أو حيوان ويتحلل فان الذرات تتشتت وتتفرق، ويمكنها بعد ذلك أن تتجمع من جديد لتكو ن جسما جديداً. ان الذرات تتحرك في الفضاء، لكن بعض الذرات لها «نتوءات مقوسة» أو «أسنان» تمكنها من الارتباط فيما بينها لتكوين الاشياء التي تحيط بنا.

أظن أنك تبينت الآن ما كنت أريد تصويره عندما استعنت بنموذج وحدات اللوجو. فهي كلها تتمتع، بدرجة أو أخرى، بالصفات التي ينسبها ديموقريطس للذرات، ولذلك فانها تسمح ببناء أي شيء. فهي أولاً غير قابلة للانقسام. ثم هي متباينة الحجم والشكل ومصمتة وكثيفة. ثم هي تملك أيضاً هذه النتوءات أو الأسنان التي تتيح لنا أن نجمعها لنبني بها ما نشاء. وهذه الطريقة التي تتشابك بها وحدات اللوجو تسمح بتفكيكها بسهولة لبناء أشياء جديدة بواسطة القطع نفسها.

ولعل ما يفسر النجاح الذي حققته لعبة اللوجو منذ ظهورها هو اننا يمكننا أن نستخدم عناصرها مراراً وتكرارا إلى ما لا نهاية. فما استخدمناه اليوم في صنع سيارة يمكن أن نستعمله غدا في بناء قصر. بل ربما جاز لنا أن نقول إن قطع اللوجو هذه «أبدية» بمعنى ما: فالأطفال يستطيعون أن يلعبوا بقطع اللوجو التي كان يلهو بها آباؤهم أو أمهاتهم في الصغر.

ونحن نستطيع أيضاً أن نخلق أشكالاً مختلفة بلعبة الصلصال إلا أننا لانستطيع عجن الصلصال إلى ما لا نهاية، لأنه سيزداد تفتتا بمضي الوقت ويصبح من المستحيل بعد فترة معينة استعماله في صنع تكوينات جديدة.

وبمقدورنا أن نؤكد اليوم أن نظرية الذرات التي وضعها ديموقريطس صحيحة إلى حد بعيد. إذ إن الطبيعة مكونة بالفعل من «ذرات» مختلفة تتجمع وتتفرق. فربما كانت احدى ذرات الهيدروجين بخلية في طرف أنفي تشكل فيما مضى جزءا من خرطوم أحد الأفيال. ولعل ذرة من ذرات الكربون في عضلة قلبي كانت موجودة، في زمن قصي بعيد، في ذيل ديناصور عملاق؟

إلا أن العلم الحديث قد كشف، أن الذرات يمكن أن تنقسم إلى «جسيمات أولية» أشد صغرا تسمى البروتونات والنيوترونات والالكترونات. وربما تسنى ذات يوم المضي في تجزئة هذه الجسيمات الأخيرة، غير أن علماء الفيزياء متفقون على أن للانقسام حدا لا يمكن تخطيه أو تجاوزه. اذ يجب أن تكون هناك *أجزاء متناهية الدقة* تشكل الطبيعة بأسرها.

لم يكن لدى ديموقريطس الأجهزة الالكترونية التي نعرفها في عصرنا الحاضر. لقد كان العقل هو أداته الوحيدة، والعقل لم يترك له خيارا. فاذا انطلقنا من مبدأ يقول: لا شيء يتحول ولا شيء يولد من العدم، ولا شيء يختفي إلى الأبد لوجب علينا أن نسلم بأن الطبيعة مؤلفة من عدد لا حصر له من الوحدات البنائية الصغرى وان هذه الوحدات هي التي تتجمع ثم تتفرق من جديد.

لم يكن ديموقريطس يؤمن بأن هناك أي «قوة» أو «روح» يمكن أن تتدخل في العمليات الطبيعية. لقد كان يرى أن الشيء الوحيد الفعال هو الذرات والفراغ. ولما كان ديموقريطس لا يؤمن إلا بما هو «مادي» فاننا نسميه *فيلسوفا ماديا*.

ويفترض هذا الموقف الفلسفي عدم وجود أي «نية» واعية وراء حركات الذرة. إن كل ما في الطبيعة يحدث بطريقة آلية. ولكن يجب ألا يفهم من هذا أن كل شيء يحدث بحكم الصدفة العشوائية، ذلك ان كل شيء يخضع لقوانين الطبيعة، وهي قوانين لا يمكن الخروج عليها. فكل شيء يحدث له علة طبيعية، علة كامنة في الأشياء ذاتها. ولذا قال ديموقريطس يوما إنه يؤثر اكتشاف قانون من قوانين الطبيعة على ملك دولة الفرس.

ويرى ديموقريطس أن نظرية الذرة تفسر أيضاً *مادركاتنا الحسية*. **فحواسنا تنطبع فيها حركة الذرات في الفراغ وبذلك نستطيع إدراك الاشياء. فإن كنت أرى القمر فذلك لأن «ذرات القمر» تمس عيني.**

ولكن ماذا عن الروح؟ أيمكن اختزالها إلى ذرات، أي إلى «أشياء» مادية؟ نعم، في رأي ديموقريطس. إذ إنه كان يفترض أن الروح مؤلفة أساسا من ذرات خاصة مستديرة ملساء هي «ذرات الروح». وعند موت الانسان، تنطلق هذه الذرات في كل اتجاه، ويمكنها أن تتجمع بعد ذلك لتؤلف روحاً جديدة.

ويعني هذا أن روح الانسان ليست خالدة إلى الأبد. وتلك فكرة يعتنقها اليوم عدد كبير من الناس يعتقدون مثل ديموقريطس أن «الروح» مرتبطة بالمخ، واننا لا نستطيع أن نحتفظ بأي شكل من أشكال الوعي عند تحلل المخ.

إن نظرية ديموقريطس عن الذرات، تشكل أقصى نقطة وصلت اليها فلسفة الطبيعة اليونانية، وهي نقطة ستظل واقفة عندها إلى حين. لقد اتفق ديموقريطس مع هيراقليطس في أن كل الأشياء في الطبيعة يطرأ عليها «تغير متصل»، وأن الاشكال تظهر وتختفي، إلا أن ديموقريطس أبصر وراء هذه الأجسام دائمة الحركة والتحول عدة عناصر سرمدية أبدية وثابتة مستقرة لايطرأ عليها هذا «التغير المتصل». وتلك العناصر هي التي يسميها ديموقريطس الذرات.

لم يفت صوفيا وهي منهمكة في القراءة أن تلقي من حين لآخر نظرة من النافذة علها تلمح الفيلسوف المجهول وهو يتجه نحو صندوق البريد. ثم ظلت جالسة في هذا الوضع ترقب الصندوق مستعيدة في خاطرها ما فرغت من قراءته. فهذا ما قررت أن تقوم به إثر كل رسالة، لترى إن كانت قد استوعبتها جيداً ولتتعلم كيف تفكر بنفسها فيما تطرحه الرسالة من قضايا.

لقد فكر ديموقريطس بطريقة بسيطة وخطرت له فكرة عبقرية أتاحت حل المشكلة المستعصية الناشئة عن التعارض بين «المادة الأولية الواحدة» و«تغير العالم». فقد ظلت هذه المشكلة تحير الفلاسفة على امتداد أجيال متعاقبة، ثم وجد ديموقريطس الحل أخيراً غير مستعين في ذلك إلا بعقله وحده.

لم تستطع صوفيا أن تمنع نفسها من الابتسام، فقد كان الحل بسيطا إلى حد يدعو للدهشة. فمن المنطقي في نهاية المطاف أن تكون الطبيعة مرتكزة على بعض العناصر الصغرى التي لا تتغير هي أبداً. وفي الوقت نفسه كان هيراقليطس مصيبا عندما قال ان كل الأشياء في الطبيعة يطرأ عليها تغير متصل. فما من بشر أو حيوان بقادر على الافلات من يد الموت، بل إن الجبل يتعرض هو ذاته للتآكل حتى وإن ببطء. إلا أن النقطة الحاسمة هي أن هذا الجبل يتألف على ضخامته من وحدات بالغة الضآلة لا تنقسم ولا تفنى.

لكن ديموقريطس أثار أسئلة أخرى. فقد زعم مثلا أن كل شيء يحدث بطريقة آلية. كما أنه لم يقبل فكرة وجود قوى روحية في الكون مثلما كان يعتقد أنبادوقليس واناكساجوراس. وعلاوة على ذلك، كان ديموقريطس يرى أن روح الانسان ليست خالدة باقية.

أكان محقاً في هذه المسألة أيضاً؟

لم تدر صوفيا بما تجيب على وجه التحقيق. فهي لم تخط بعد في دروس الفلسفة إلا خطواتها الأولى.

الفصل السادس
القـــدر

... يحـاول العـراف تأويـل أشـياء

تستعصي بطبيعتها على أي تأويل...

كانت صوفيا لا تفتأ تتلفـت إلى الحديقـة وهـي تطـالع آراء ديموقريطـس. ولكن كي يطمئن قلبها نزلت مع ذلك إلى الحديقة لتلقي نظـرة علـى صنـدوق البريد.

حين فتحت باب المنزل وجدت على الدرج ظرفا صغيرا أبيض كتب عليه بطبيعة الحال **صوفيا اموندسن.**

آه! لقد عرف يسخر منها حقاً! ففي هذا اليـوم بـالتحديد الـذي جعلـت تراقب فيه صندوق البريد، تسـلل الفيلسـوف الغـامض مـن طريـق آخـر يـدور خلف المنزل واكتفى بوضع رسالته على الدرج ثـم أسـرع ليختفـي في الغابـة. يالها من خدعة ماكرة!

فكيف خمن أنها ستراقب اليوم صندوق البريد؟ هل لمحها وهي قابعة خلف النافذة؟ على أي حال، يكفي أنها أخذت الرسالة قبل أن تعـود أمهـا فتجدهـا ملقاة على الدرج.

رجعـت صوفيـا مسـرعة إلى غرفتهـا. لاحظـت وهـي تفـض الرسـالة أن أركان الظرف مبتلة قليلاً وبها علامات غائرة أشـبه بآثـار الأسـنان. مـن أيـن جاء هذا البلل والسماء لم تمطر منذ عدة أيام!

على القصاصة البيضاء كان مكتوباً:

هل تؤمنين بالقدر؟

هل المرض عقاب من الآلهة؟

ما هي القوى التي تحكم مسار التاريخ؟

يسألها عم اذا كانت تؤمن بالقدر؟ إنها لا تدري على وجه اليقين. لكنها تعرف أشخاصا عديدين يؤمنون بالقدر. فما أكثر زميلاتها في الفصل اللاتي يقرأن طالعهن في المجلات. وما دمن يصدقن أحكام النجوم فلا بد أنهن يؤمن بالقدر، لأن المنجمين يزعمون أن مواقع النجوم في السماء تؤدي دورا مؤثرا في حياة البشر فوق الأرض.

ولو كنا نؤمن بأن عبور قطة سوداء للطريق الذي نسير فيه أمر يجلب سوء الحظ، فلا بد أن نكون أيضاً مؤمنين بالقدر. وكلما أمعنت صوفيا التفكير في هذا التطير (التشاؤم والتفاؤل) وجدت له نماذج أخرى. فلم يقول البعض مثلا «أمسك الخشب»؟ ولم يتشاءم البعض من رقم ١٣؟ لقد سمعت صوفيا أيضاً أن فنادق عديدة تسقط رقم ١٣ من أرقام الغرف. أليس في هذا دليل فعلي على وجود كثير من المؤمنين بالتطير برغم أي ادعاءات اخرى؟

كانت صوفيا موقنة على أي حال من أمر واحد هو أن ديموقريطس لم يكن مؤمنا بالقدر. لقد كان ماديا لا يؤمن إلا بالذرات والفراغ.

وحاولت صوفيا أن تفكر في الأسئلة الآخرى المطروحة في الورقة.

هل المرض عقاب من الآلهة؟ تساءلت أهناك من يؤمنون بذلك في عصرنا الراهن؟ ثم خطر على بالها أن كثيراً من الناس يصلون لله في مرضهم كي يمن عليهم بالشفاء، وهذا يعني أنهم يؤمنون بأن لله يداً في صحة كل انسان ومرضه.

على أن الرد على السؤال الثالث كان أشد صعوبة. فلم يخطر على بالها من قبل أن تتساءل عن ما يحكم مسار التاريخ. هم البشر حتما، أليس كذلك؟ فلو كان مسار التاريخ خاضعاً لتدخل الله أو القدر لما أصبح للبشر إرادة حرة.

على أن فكرة الإرادة الحرة هذه جعلت صوفيا تفكر في مسألة أخرى تماماً. فلماذا يلعب الفيلسوف الغامض معها لعبة القط والفار؟ و لم لا تكتب هي بدورها رسالة لهذا الشخص المجهول؟ انه سيأتي (أو انها ستأتي) حتما لوضع ظرف كبير أصفر آخر في صندوق البريد، إما أثناء الليل وإما في الصباح الباكر. فلتترك له هي أيضاً رسالة!

وشرعت صوفيا في تنفيذ فكرتها. كان من الصعب عليها أن تكتب لشخص لم تره من قبل. انها ما زالت لا تعرف حتى أرجل هو أم امرأة، أشاب هو أم مسن. بل لعله حتى شخص تعرفه بالفعل.

سطرت وشطبت، ودونت وحذفت حتى انتهى بها الأمر إلى كتابة الرسالة التالية:

حضرة الفيلسوف المحترم

انني أقدر تقديرا عظيما عرضك السخي بإهدائي دروساً في الفلسفة بالمراسلة. ولكن يزعجني كثيراً أني لا أعرف من انت. ولذلك أرجوك أن تطلعني على اسمك. وكي أشكرك على ذلك أدعوك بكل ترحاب إلى شرب فنجان قهوة في منزلي، ولكن الأفضل أن يكون ذلك وأمي غير موجودة بالمنزل. انها تعمل من السابعة والنصف صباحا حتى الخامسة مساء، من يوم الإثنين حتى يوم الجمعة. أما انا فأذهب في تلك الأيام إلى المدرسة وأعود دوما في الساعة الثانية والربع، ما عدا يوم الخميس. واؤكد لك اني أ حسن صنع القهوة. ولك جزيل الشكر مقدما.

أصدق التحيات من تلميذتك النجيبة الوفية.

صوفيا، أربعة عشر عاما.

ثم كتبت في أسفل الصفحة: **في انتظار الرد.**

لم تقنع صوفيا تماماً بالرسالة. ولكن ما أصعب الاهتداء إلى أليق الكلمات عند الكتابة إلى شخص نجهل ملامحه.

وضعت الورقة في ظرف وردي ثم أغلقته وكتبت عليه: **إلى الفيلسوف.**

المشكلة الآن هي وضع الرسالة في الصندوق دون أن تعثر عليها أمها. ولذا عليها أن تنتظر أولاً حتى تعود أمها ثم تقوم بعد ذلك بدس الرسالة في الصندوق. ثم عليها ثانيا ألا تنسى أن تذهب مبكرة في صباح الغد لتتفقد الصندوق قبل موعد توزيع الجرائد. فهل ستتلقى رسالة جديدة هذا المساء أو هذه الليلة فيكتشف الفيلسوف ظرفها الوردي وهو يضع رسالته في الصندوق؟ إن لم يصلها شيء في هذه الأثناء ستكون مضطرة إلى استعادة الظرف الوردي، حتى لا يقع في يد أمها.

لم يجب أن يكون كل شيء معقدا بهذا الشكل؟

كان هذا المساء هو مساءالجمعة وغدا يوم عطلة، وقد اعتادت صوفيا أن تسهر مساء الجمعة مع أمها، إلا أنها آثرت في تلك الليلة أن تصعد إلى غرفتها مبكرا. حاولت أمها أن تستبقيها مغرية إياها بتناول البيتزا وبمشاهدة فيلم بوليسي يعرضه التلفزيون، ولكن صوفيا تعللت بالارهاق وبرغبتها في القراءة بسريرها. ثم تحينت صوفيا استغراق أمها في مشاهدة التلفزيون وتسللت إلى الخارج لتدس رسالتها في الصندوق.

من الواضح أن أمها قد استحوذ عليها القلق، إذ بدأت تحدث صوفيا بطريقة مختلفة منذ قصة الأرنب والقبعة الطويلة. وكم تبغض صوفيا أن تكدرها وكم تود أن ترضيها ولكنها مضطرة اضطرارا لأن تتركها الآن كي تتفرغ لمراقبة صندوق البريد.

عندما صعدت أمها لتنام كانت الساعة تقارب الحادية عشرة، وقبل أن تدلف إلى غرفتها مضت إلى غرفة صوفيا لتقبلها قبلة المساء فوجدت صوفيا لابدة ما زالت عند النافذة تنظر إلى الشارع، سألتها:

ـ لا أحسبك قابعة تراقبين صندوق البريد؟

ـ أني أنظر إلى ما أريد!

ـ أظنك عاشقة يا صوفيا. ولكن إن كنت تترقبين رسالة أخرى فلا أتصور أنه سيأتي ليضعها في منتصف الليل.

آه، كم تمقت صوفيا تلك القصص العاطفية السخيفة، إلا انها لم تر بديلا سوى ترك أمها تتصور ذلك. ومضت أمها تقول:

ـ أهو الذي حدثك عن الأرنب والقبعة الطويلة؟

ـ نعم...

ـ أرجو ألا يكون ممن يتعاطون المخدرات؟

عندئذ رق قلب صوفيا على أمها. وأشفقت أن تتركها نهبا للقلق. فما أبعد تصوراتها عن الحقيقة. وكيف يخطر ببالها أن لحالتها علاقة بالمخدرات، لمجرد انها بدأت تفكر بطريقة مختلفة قليلاً. ما أشد ضلال الكبار أحيانا! استدارت اليها وقالت:

ـ ماما أعدك أني لن أمس أبداً هذا النوع من الأشياء... أما «هو» فانه لايقرب المخدرات بدوره. إلا انه يهتم بالفلسفة اهتماماً شديداً.

ـ أهو أكبر منك؟

هزت صوفيا رأسها بالنفي.

ـ أهو من عمرك؟

أومأت بالايجاب.

ـ وتقولين انه يهتم بالفسلفة؟

وافقتها صوفيا من جديد.

ـ لا بد أنه شخص لطيف اذن. هيا، أعتقد أنك يجب أن تنامي الآن.

غير أن صوفيا ظلت واقفة بالنافذة واستمرت تنظر إلى الشارع. وعندما حانت الساعة الواحدة صباحا كان الإعياء قد بلغ منها منتهاه فأخذت عيناها

تطرفان. وبينما هي توشك أن تمضي إلى سريرها إذ بها تلمح فجأة ظلا يخرج من الغابة.

كان الليل قد أرخى أستاره، ولكن القمر كان يشي ببعض الضوء فاستطاعت أن تلمح خيالا. كان طيف رجل. وخيل إلى صوفيا انه أقرب للكهولة. هو ليس من عمرها على أي حال ! وكان يضع على رأسه غطاء أشبه بالبيريه.

بدا أنه رفع عينيه للحظة نحو البيت، إلا أن صوفيا كانت قد أطفأت النور مخافة أن يلمحها تترصده. اتجه الرجل نحو صندوق البريد ودس ظرفا كبيرا. ووقعت عيناه على رسالة صوفيا، فوضع يده في الصندوق والتقطها. وفي اللحظة التالية، كان قد أصبح بعيداً. عاد مسرعا يكاد يركض صوب الطريق المفضي إلى الغابة ثم اختفى في لمح البصر.

كان قلب صوفيا يخفق خفقانا عنيفا. فكرت لأول وهلة أن تمضي في أثره برغم أنها كانت ترتدي ثياب النوم. لكن... كلا، كيف تركض خلف شخص مجهول في وسط الليل. إلا أن عليها أن تخرج لإحضار الظرف الذي وضعه تواً!

انتظرت برهة ثم هبطت السلم محاذرة محتاطة، أدارت المفتاح في القفل وهرعت إلى صندوق البريد. في لمحة خاطفة كانت قد آبت إلى غرفتها وهي تحمل الظرف الكبير. جلست على طرف السرير وحبست أنفاسها حتى مرت بضع دقائق دون أن يطرأ ما يشي بأن حركتها قد أثارت انتباه أمها. ولما اطمأنت فتحت الظرف وجعلت تقرأ.

لم تكن تنتظر بطبيعة الحال أن تجد ردا على رسالتها. فهذا الرد لن يصلها إلا غداً في أحسن الأحوال.

القـدر

صباح الخير يا عزيزتي صوفيا ! أود أولاً أن أؤكد علـى أمر هـام، علـى سـبيل الاحتياط وهو أنك يجب ألا تحاولي أن تترصديني أو أن تتجسـي علـي. سيأتي اليـوم الذي نلتقي فيه يا صوفيا ولكن أنا الـذي سـأحدد مكـان هـذا اللقـاء وموعـده. أنـا أعرف أنك فتاة مهذبة وأثق بأنك ستحترمين هذا الطلب.

لنعد الآن إلى فلاسفتنا. لقـد رأينـا كيـف أنهـم حـاولوا أن يجدوا سـببا طبيعيـا يفسرون به التغيرات الحادثة في الطبيعة، بعد أن كان كل شـيء يفسـر مـن قبـل مـن خلال الأساطير.

بيد أن المعتقدات القديمة كان عليهـا أن تـتراجع عـن مواقعهـا أيضـاً في ميـادين اخرى. وسوف نرى ذلك عندما نتنـاول مسـألة *المرض والصحـة* وكذلـك مسـألة *السياسة* . ففي هذين المجالين ظل اليونانيون يؤمنون حتى ذلك الحين بالقدر.

والايمان بالقدر يعني أن كل أمر يقع أمر مقدر ومقرر سلفا. ونحن نصادف هـذا المفهوم في العالم أجمع، من أقدم العصـور حتـى يومنـا الحـاضر. ففـي بلـدان الشـمال مازال يسود اليوم اعتقاد عميق الجذور بالقضاء بنفس صيغته التي نطالعها في ملاحم ايسلندا القديمة.

ونحن نصادف لدى اليونانيين القدماء، مثلما نصادف في أنحاء اخرى من العـالم، تلك الفكرة التي تقول إن الناس يستطيعون معرفة قدرهم من خلال «قراءة الغيـب» بطرق شتى. ويعني هذا أن بالوسع الاستدلال على قدر انسان ما أو مصـير دولـة مـا بأساليب تأويلية مختلفة. وما أكثر الذين ما زالوا يؤمنون «باستشارة ورق اللعب» أو «قراءة الكف» أو «قراءة طالع النجوم».

ومن الوسائل الأخرى «قراءة الفنجان»، فآثار البن المتبقية في قاع الفنجان بعـد شرب القهوة قد ترسم صورة من الصور أو شكلاً مـن الأشكال. ولا يحتـاج تـأويل هذه الصور والأشكال إلا شـيئاً من الخيـال. فإن كـانت هـذه الآثـار تشبه ملامـح سيارة، قد يأتي من يقول إن تلك السيارة تعني أن من شـرب الفنجـان سـيقوم قريبـا برحلة طويلة بالسيارة.

من الواضح أن «العراف» يحاول تأويل أشياء تستعصي بطبيعتها على أي تأويل. ويصدق هذا على كل ألوان قراءة الغيب: إن ما يقول به العر اف مبهم غامض، وهذا الابهام والغموض يجعلان من الصعب تفنيد أو دحض ما يقوله.

إذا ألقينا نظرة على النجوم لن نبصر إلا حشدا منثورا من النقاط المضيئة. ولكن ما أكثر من آمنوا على مر العصور بأن لدى النجوم ما تقول عن أنباء حياتنا على الأرض. وما زلنا نرى حتى يومنا الحاضر رؤساء لأحزاب سياسة يستشيرون المنجمين قبل أن يقدموا على اتخاذ أي قرار هام.

عرافة «دلف»

كان اليونانيون القدماء يعتقدون أن بوسعهم معرفة مصائرهم بسؤال عرافة أو كاهنة معبد «دلف» المكرس لعبادة الإله *ابولون*. وكان ابولون يلقي بنبوءاته إلى الكاهنة الكبرى (بيثيا) المستوية على عرش يقوم أعلى صدع يشق الأرض وتتصاعد منه غازات وأبخرة تنشقها الكاهنة فتكاد تذهل عن رشدها. إذ كان غياب الكاهنة قليلاً عن وعيها شرطا ضروريا كي تنطق بوحي ابولون.

وكان الناس يفدون إلى دلف فيلقون سؤالاً على الكهنة الذين يقيمون الشعائر بالمعبد فينقلونه إلى الكاهنة الكبرى. ثم كانت هي تجيب اجابة بالغة الغموض والابهام فيتولى الكهنة الآخرون ترجمتها وتأويلها لصاحب السؤال. وكان اليونانيون يعتقدون أنهم بذلك ينتفعون بحكمة ابولون الذي يحيط بكل شيء علما إن في الماضي أو في المستقبل.

وما كان كثير من القادة ليجرؤوا على شن حرب أو على اتخاذ قرار خطير إلا بعد استشارة عرافة دلف. هكذا أصبح كهنة ابولون أقرب إلى الدبيلوماسيين والمستشارين. كما أصبحوا يملكون دراية واسعة بالبلد وأهله.

وأعلى معبد دلف نقشت الحكمة الشهيرة التي تقول: *اعرف نفسك!* لتذكر المترددين على المعبد بأن الانسان كائن فان وبأنه ليس بمفلت من قدره.

وقد نظم شعراء يونانيون عديدون قصائد مؤثرة عن أناس تطاردهم أقدارهم وتعاندهم مهما حاولوا تجنبها أو اتقاءها. ومع تقدم الزمن كتبت طائفة من

المسرحيات هي المآسي أو التراجيديات التي أخذت تصور هذه الشخصيات «التراجيدية»، ومن أشهر تلك المسرحيات مأساة الملك *أوديب*.

علم التاريخ والطب

إلا أن القدر لا يحكم حياة كل فرد وحسب. فقد آمن اليونانيون أيضاً بأن مسيرة العالم ذاتها ترتهن بمشيئة القدر. فنتيجة إحدى الحروب مثلا قد تتوقف على تدخل الآلهة. وما أكثر الذين ما زالوا يؤمنون اليوم أيضاً بأن الله أو قوى روحية أخرى تحكم مسيرة العالم.

ولكن بينما كان الفلاسفة اليونانيون يحاولون الكشف عن أسباب طبيعة للعمليات الحادثة في الطبيعة كان المؤرخون الأوائل يسعون إلى الكشف عن الأسباب الطبيعية الكامنة وراء أحداث التاريخ. فلم يعد من المقبول تفسير خسارة احدى الحروب مثلا بعقاب تنزله الآلهة. وكان أشهر المؤرخين اليونانيين هما *هيرودوت* (٤٨٤ ٤٢٤ قبل الميلاد) و*توكيديديس* (٤٦٠ ٤٠٠ قبل الميلاد).

وكان اليونانيون يؤمنون أيضاً بأن المرض انتقام تلحقه الآلهة بالبشر، فتنشر فيهم الأمراض المعدية جزاء وعقابا. كما ان الآلهة قادرة، من جهة أخرى، على شفائهم إن هم قدموا بين أياديها القرابين المناسبة.

وهذا الاعتقاد لم يكن قاصرا على اليونان وحدها. فقبل ظهور الطب الحديث، كان الناس في كل مكان تقريبا يعزون المرض إلى حقيقة تتجاوز الأسباب الطبيعية. ومن الأمثلة على ذلك أن اللفظ الانجليزي **Flue** أو اللفظ النرويجي **Influensa**، أي الزكام، كانا يعنيان في الأصل التعرض للتأثير **(Infuence)** الضار للنجوم.

وكثير من الناس ما زالوا يؤمنون حتى اليوم بأن أمراضا شتى، كالايدز مثلا، ليست إلا عقابا من الله. وما أكثر الذين يتصورون أنهم يستطيعون أن ينعموا بالشفاء بفضل قوى غير طبيعية.

وهكذا ففي حين كان الفلاسفة والمؤرخون اليونانيون عاكفين على تمهيد الطريق أمام أسلوب جديد في التفكير، ولد أيضاً مفهوم جديد للطب حاول أن

يفسر المرض والصحة بأسباب طبيعية. ومؤسس الطب اليوناني هو *ابقراط* الذي ولد في جزيرة كوس عام ٤٦٠ قبل الميلاد على وجه التقريب.

وكان ابقراط يرى أن أسلم وسيلة ندرأ بها المرض هي العيش البسيط المعتدل، فالعافية حالة من التوازن الطبيعي لدى الانسان. ونحن لا نصاب بالمرض إلا لأن الطبيعة «تخرج عن مسارها المرسوم» لاختلال في التوازن يعتري الجسم أو الروح. والطريق المفضي إلى الصحة يمر بالاعتدال والتوازن، لأن «العقل السليم في الجسم السليم».

وما أكثر ما نتحدث في عصرنا الحاضر عن «الخلق الطبي». ونعني به أن على الطبيب أن يمارس الطب مراعيا قوانين أخلاقية معينة. فلا يجوز للطبيب مثلا أن يصف عقاقير مخدرة لأناس يتمتعون بصحة جيدة. كما أن الطبيب ملزم بصون الأسرار التي يعرفها بحكم مهنته، فلا يجوز له أن يفشي ما يقول المريض عن مرضه. ولكن هل نفطن ونحن نتحدث عن هذا الخلق أن تلك المثل الأخلاقية تأتينا كلها من ابقراط؟ اذ كان ابقراط يلزم تلاميذه بأن يقسموا القسم التالي:

أقسم بأن أفي، باذلا أقصى ما أستطيع من طاقة وقدرة، بالميثاق التالي:

سأنزل من علمني الطب في مصاف والدي اللذين وهباني الحياة، وسأقتسم معه معرفتي وسأخف إلى تلبية حاجته ان جد داع أو ضرورة، وسأتخذ أبناءه أخوة لي، وان أرادوا تعلم الطب سأبذل لهم علمي دون أجر أو التزام.

وسأنقل ما تعلمته من مبادىء ودروس وتعاليم إلى أبنائي، وأبناء معلمي، والتلاميذ الذين التزموا بالميثاق وأقسموا القسم وفقاً للقانون الطبي، وليس لأحد سواهم.

وسأجعل غاية النظام الذي أصفه للمرضى هي تحقيق منفعتهم، باذلا أقصى قواي وقصارى علمي، وسأمسك عن إتيان أي شر أو اقتراف أي ظلم.

ولن أعطي عقاراً ساماً لأي إنسان، وبالمثل، لن أعطي لأي امرأة وسيلة تساعد على الإجهاض.

وسأنفق حياتي وأمارس مهنتي طاهر النفس نقي السريرة. وان دخلت بيتا فلن أروم فيه إلا نفع المرضى عاصما نفسي من آتيان أي سوء أو فساد، وخاصة اغواء النساء والأولاد، الأحرار منهم أو العبيد.

وكل ما أراه أو أسمعه من الناس أثناء ممارسة مهنتي، أو حتى خارج ممارستها، سأصونه مكنونا في صدري. ولن أبوح بما لاينبغي إفشاؤه، وسأعتبر كتمانه واجبي المقدس.

اذا وفيت بهذا القسم ولم أخالفه أو أخرج عليه، فليكتب لي أن أنعم بحياتي ومهنتي، مكرما إلى الأبد بين البشر؛ أما إن خالفته وحنثت به فليحل بي المصير المخالف!

عندما استيقظت صوفيا صباح ذاك السبت هبت ناهضة من سريرها. أكان حلماً ما أبصرت أم أنها رأت الفيلسوف حقاً؟

مررت يدها تحت السرير كي تتحقق من ظنها. نعم، ان الرسالة التي وضعتها هناك قبل أن تغفو ما زالت في مكانها، ثم تذكرت صوفيا كل ماقرأته عن ايمان اليونانيين بالقدر. لم يكن حلماً اذن.

لقد لمحت الفيلسوف بكل تأكيد ! بل إنها رأته بعينيها وهو يأخذ رسالتها هي!

جثت صوفيا على أربع وسحبت من تحت السرير كل الأوراق المطبوعة بالآلة الكاتبة. ولكن ما هذا الذي تراه؟ ثمة شيء أحمر يلمع إزاء الحائط! أشال هذا؟

زحفت تحت السرير وخرجت بشال حريري أحمر في يدها. انها متأكدة أنها ليست صاحبة هذا الشال!

عندما قربت الشال وأخذت تتفحصه، ندت عنها صيحة خافتـة، إذ رأت شيئاً مكتوباً بقلم حبر أسود بمحاذاة ثنية الشال. لقد كان مكتوباً «**هيلد**».

هيلد ! من هي اذن هيلد هذه؟ وكيف تتقاطع سبلهما على هذا النحو؟

الفصل السابع

سقراط

... أحكم الناس هو

من يعرف أنه لا يعرف...

ارتدت صوفيا ثوبا صيفيا خفيفا وأسرعت إلى المطبخ. كانت أمها تعطيها ظهرها مكبة على إعداد الافطار. آثرت صوفيا ألا تحدثها عن قصة الشال الحريري حتى لا تزيد من قلقها وريبتها. إلا انها لم تستطع أن تمنع نفسها من سؤالها:

- هل أحضرت الجريدة يا ماما؟

استدارت أمها.

- لا، لكن فلتكوني فتاة ظريفة وتذهبي لإحضارها.

وكانت هذه هي الدعوة التي تنتظرها. عبرت صوفيا الممر ركضا ونظرت في صندوق البريد الأخضر. لم يكن به سوى الجريدة. من المبكر للغاية أن تتلقى الرد الذي تنتظر. ولكن استوقفتها في الصفحة الأولى من الجريدة بضعة أسطر عن الفصيلة النرويجية للأمم المتحدة.

الفصيلة النرويجية للأمم المتحدة... ألم يكن هذا ما د و ن على البطاقة البريدية الواردة من والد هيلد؟ غير أن البطاقة كانت تحمل طوابع نرويجية، أي أنها أرسلت من النرويج ذاتها. ربما كان للجنود النرويجيين في قوة الأمم المتحدة في لبنان مكتب بريد خاص بهم...

ما إن دلفت إلى المطبخ، حتى بادرتها أمها بنبرة مازحة:

ـ ما أشد اهتمامك بالجرائد الآن!

إلا انها لم تشر، لحسن الحظ، لا إلى صندوق البريد ولا إلى الرسائل، لأثناء تناول الافطار ولا بقية النهار. وما إن ذهبت أمها إلى السوق حتى أخذت صوفيا الرسالة التي تتحدث عن القدر ومضت إلى كوخها.

وقعت عيناها على ظرف صغير أبيض بجوار العلبة التي تحتوي على رسائل أستاذ الفلسفة، فوجف قلبها. فقد كانت موقنة أنها لم تضع هذا الظرف هنا.

كانت أركان هذا الظرف بدوره مبللة رطبة وكان يحمل العلامات الغائرة مثل ظرف الأمس.

هل جاء الفيلسوف إذن حتى هنا؟ وهل يعرف سر مخبئها الخفي؟ ولم تصل الأظرف مبتلة قليلاً.

كل هذه الأسئلة أدارت رأسها. فاقتعدت مجلسها المألوف وفتحت الظرف وقرأت الرسالة التالية:

عزيزتي صوفيا،

لقد قرأت رسالتك باهتمام شديد، وتأثرت حقاً بدعوتك لي إلى شرب فنجان القهوة. سوف يأتي اليوم الذي نلتقي فيه يا صوفيا، ولكن ما زال من المبكر جدا أن أظهر الآن في «منعطف القبطان» الشهير.

ومن الواضح أيضاً أني لن أستطيع أن أحضر الرسائل بنفسي اعتبارا من الآن. ففي هذا مجازفة كبيرة على المدى الطويل. ولذا فإن رسولي الصغير هو الذي سيحمل إليك الرسائل التالية. ولكنه سيضعها مباشرة في مكانك السري بطرف الحديقة.

ويمكنك الاتصال بي في أي وقت ان شعرت بحاجة لذلك. إذ يكفيك أن تضعي في ظرفك الوردي قطعة من البسكوت أو من السكر. فإن رأى الرسول الصغير رسالة من هذا النوع فسيحضرها لي.

ملاحظة أولى: أعرف انه ليس من اللائق الاعتذار عن تلبية دعوة فتاة لطيفة لشرب القهوة. إلا أن للضرورة أحكامها أحيانا.

ملاحظة ثانية: إن كنت قد عثرت على شال حريري أحمر، أرجو أن تحتفظي به بكل عناية إذ يحدث أحيانا أن تختلط الأمتعة الشخصية عن غير قصد، وخاصة في المدارس والأماكن المماثلة. ولا تنسي أن هذه هي أيضاً مدرسة يا صوفيا، مدرسة فلسفة.

مع أطيب تحياتي.

ألبرتو كنوكس

تلقت صوفيا خلال عمرها القصير رسائل عديدة، في أعياد الميلاد ورأس السنة وفي بعض المناسبات الخاصة. لكن تلك الرسالة كانت فريدة في نوعها حقاً.

فهي لا تحمل طابع بريد. بل انها لم توضع حتى في صندوق البريد. لقد وضعت مباشرة في مخبئها داخل السياج العتيق. ثم هناك شيء آخر، فهي مبتلة قليلاً بينما الجو جاف.

غير أن أغرب ما في الأمر يبقى هو الشال الحريري. لنفترض أن للفيلسوف تلميذة أخرى، وان هذه التلميذة الأخرى أضاعت شالها الحريري، اتفقنا. لكن كيف يمكن أن يضيع تحت سرير صوفيا؟

ثم هذا المدعو ألبرتو كنوكس... يا له من اسم غريب حقاً!

على أي حال لقد أكدت لها هذه الرسالة أن هناك صلة ما بين استاذ الفلسفة وهيلد مولر كناج هذه. ولكن ما الذي يجعل والد هيلد يعمد بدوره إلى إبدال العناوين؟ هذا أيضاً أمر غريب وغير مفهوم حقاً.

قلبت صوفيا المشكلة على جميع وجوهها لتفهم أي علاقة يمكن أن تقوم بينها وبين هيلد، ثم تنهدت في استسلام. لقد قال لها الشخص المجهول إنهما سيلتقيان يوما. فهل ستقابل هيلد أيضاً؟

قلبت الورقة فاكتشفت على ظهرها العبارات التالية:

أهناك حياء طبيعي؟

أحكم الناس هو من يعرف أنه لا يعرف...

المعرفة الحقيقية تنبع من الباطن.

من يعرف الحق لن يقدم على الباطل.

أدركت صوفيا أن الجمل القصيرة المدونة في الأظـرف البيضـاء تستهدف تهيئتها لما ستتلقاه في الظرف الكبير الذي يأتيها بعد ذلك بفترة قصيرة. ثم خطرت لها فجأة هذه الفكرة: ما دام الرسول الصغير سيجلب الظرف الأصفر إلى الكوخ مباشرة فلم لا تنتظره حين يأتي؟ وعندئذ سوف تستنطقه ولن تتركه قبل أن تعرف المزيد عن هذا الفيلسوف أياً كان! لقد قالت الرسالة إن الرسول «صغير»، فهل هو طفل اذن؟

أهناك حياء طَبيعي؟

تعرف صوفيا أن الحياء كلمة تشير إلى الخجل الذي نستشعره فيعصمنا مثلا من أن نكشف أجسامنا أمام الآخرين. ولكن هل الشعور بالخجل لهذا السبب إحساس طبيعي فطري؟ إن شيئاً ما لا يكون بحكم التعريف ذاته طبيعيا فطريا إلا اذا اشترك فيه الناس جميعاً اشتراكا تلقائيا. ولكن لقد كان من الشائع أن يسعى الناس عراة في بعض المجتمعات. لا بد أن المجتمع هو الذي يحدد اذن ما هو لائق وما هو غير لائق. وقت كانت جدتها فتاة صغيرة لم يكن من المتصور أن تظهر النساء حاسرات الصدور على الشواطئ. أما اليوم فان معظم الناس يعتبرون هذا أمراً طبيعيا لا يثير دهشة أو استغرابا، حتى وان كان مازال مستنكرا محظورا في بلدان عديدة. حكّت صوفيا رأسها حائرة متسائلة عما اذا كان لكل هذا علاقة بالفلسفة.

ثم انتقلت إلى الجملة الثانية: **أحكم الناس هو من يعرف أنه لا يعرف.**

أحكم ممن؟ إن كان المقصود أن من يدرك أنه لا يحيط علما بكل شيء أحكم من شخص آخر أقل منه علما ولكنه يتصور أنه يعرف على العكس أشياء كثيرة، اذن نعم، ليس من الصعب الموافقة على ذلك. ان صوفيا لم تر الأشياء من هذه الزاوية من قبل، إلا أنها كلما أنعمت النظر اتضح لها أن معرفة أننا لا نعرف أشياء كثيرة نوع من المعرفة أيضاً. فمن أشد التصرفات حمقا ان يدعي المرء معرفة أمور لا يدري عنها أي شيء على الاطلاق.

ثم هناك حكاية هذه **المعرفة الحقيقية** التي تأتي من **الباطن**... ولكن ألا تدخل المعرفة إلى رؤوس الناس من الخارج؟ غير انها تذكرت، من جهة أخرى، كيف كانت منيعة حصينة تماماً لا ينفذ اليها شيء عندما تريد أمها أو أساتذتها في المدرسة أن يعلموها شيئاً لا يثير لديها أدنى اهتمام. ولاحظت أنها لم تنجح في واقع الأمر في تعلم أي شيء إلا إذا أقبلت عليه برغبة صادقة نابعة من ذاتها. كما يحدث لها أحيانا أن تفهم فجأة أمراً ظل يحيرها طويلا، فهل هذا هو نور البصيرة؟

ها هي تتمكن آخر الامر من التعامل مع تمريناتها الأولى بشكل لا بأس به. إلا أن الفكرة التالية كانت غريبة أشد الغرابة حتى انها لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام: **من يعرف الحق لا يقدم على الباطل.**

أيعني هذا أن اللص الذي يسطو على بنك لا يعرف أنه يأتي عملا شريرا؟ واذا كان يعرف الحق فلم يقدم على الباطل؟ لم تقتنع صوفيا بهذه الفكرة. بل كانت ترى على العكس أن الأطفال، بل والكبار كذلك، قد يفعلون حماقات يندمون عليها فيما بعد، وذلك بالتحديد لانهم يتصرفون بما يخالف الصواب الذي يعرفونه في قرارة نفوسهم.

بينما هي تفكر في كل هذا، سمعت حفيفا آتياً من جهة الشجيرات المتاخمة للغابة. أجاء الرسول بهذه السرعة؟ أخذ قلب صوفيا يخفق خفقانا سريعا. واعتراها شعور بالخوف وهي تسمع خطوه يقترب وتحس به يتنفس بصوت لاهث كتنفس الحيوان.

في اللحظة التالية ولج كلب ضخم آت من الغابة إلى كوخها. يبدو أنه من كلاب «اللابرادو»، الذكية المروضة. ترك الكلب ظرفا كبيرا أصفر كان يحمله بين أسنانه يسقط في حجر صوفيا ثم خرج مسرعا. وقع هذا المشهد بسرعة خاطفة أذهلتها فمكثت هنيهة عاجزة عن الحركة. بعد عدة ثوان أمسكت بالظرف الكبير بينما كان الكلب الأشقر قد فر منطلقا صوب الغابة. لقد وقع المشهد بسرعة خاطفة جعلتها تنهار تحت صدمة المفاجأة، فوضعت رأسها بين يديها وأجهشت في البكاء.

لم تدر كم من الوقت مضى وهي ماكثة في هذا الوضع قبل أن ترفع رأسها من جديد.

تنهدت وقالت هذا هو الرسول اذن! لذلك كانت الأظرف البيضاء تأتيها مبتلة الأركان بها آثار أسنان غائرة. كيف فاتها أن تفكر في هذا الاحتمال من قبل؟ انها تفهم الآن على الأقل لم يجب عليها أن تضع قطعة من البسكوت أو السكر في الأظرف التي تريد ارسالها إلى الفيلسوف.
إنها لا تدعى العبقرية. ولكن كيف فات عليها أن الرسول ما هو إلا كلب مروض! لم يبق لها الآن سوى أن تهجر فكرة استدراج الرسول لتعرف منه أين يوجد ألبرتو كنوكس.

فتحت صوفيا الظرف وجعلت تقرأ:

الفلسفة في أثينا

عزيزتي صوفيا

عندما تطالعين هذه الرسالة ستكونين قد تعرفت غالبا على هرمس. فان لم تكوني قد عرفته بعد، أقول لك إنه كلب. لكن لا تخشي شيئاً، انه وديع جدا وهو فوق ذلك أعقل من كثير من الناس، فهو على الأقل لا يحاول إعطاء الطباع بأنه أذكى مما هو.

ولعلك تلاحظين أن اسمـه لم يختر بمحض الصدفة. فهرمـس كـان رسـول آلهـة اليونان. وكان أيضاً إله البحارة، ولكن لنترك كل ذلك جانبا في الوقت الراهن علـى الأقل. ان اسم هرمس هو الأصل الذي اشـتقت منـه الصفـة «هرمسي»، أي خفـي محجوب لا سبيل للوصول إليه. وهي صورة موفقـة تمثـل دور الرسـول الـذي يؤديـه هرمس فيما بيننا وكل منا محجوب وبعيد عن الآخر في اللحظة الحاضرة.

ها أنا ذا قد قدمت اليك رسـولنا وعرفتـك بـه. وتـأكدي أنـه سيسـتجيب لـك بطبيعة الحال إن ناديت عليه باسمه، وأنه سيتصرف بأدب ولياقة.

فلنعد الآن إلى الفلسفة. لقد انتهينا من الجزء الأول من دروس الفلسـفة وأعـني به فلسفة الطبيعة والقطيعة الحاسمـة مـع التصـور الأسـطوري للعـالم. والآن سـنتعرف على أعظم ثلاثة من فلاسفة العصر القديم وهـم *سقراط*، *وأفلاطـون*، *وارسـطو*، الذين أثر كل منهم بطريقته الخاصة على الحضارة الاوروبية.

إن فلاسفة الطبيعة يسـمون أيضـاً الفلاسـفة «السـابقين علـى سـقراط» لأنهـم عاشوا قبله. صحيح أن ديموقريطس قد مات بعد سقراط بعدة سنوات، لكنه ينتمـي بكل تفكيره إلى فلسفة الطبيعة السابقة على سقراط. إلا أن سقراط ليس حداً فاصلاً وقطيعة فارقة في الزمان فحسب بل هـو رمـز للانتقـال أيضـاً في المكـان، إذ إنـه أول فيلسوف كبير يولد في أثينا. كما أن سقراط عاش ونشر فلسفته في أثينا، وهذا الأمر يصدق أيضاً على إفلاطون وأرسطو. ولعلـك تتذكريـن أن انكسـاجوراس قـد عـاش ردحا من الزمن في تلك المدينة، ولكنه طرد منها حـين زعـم أن الشـمس قـرص مـن اللهب. (وسترين ما هو المصير الذي تدخره أثينا لسقراط!).

وبدءاً من عصر سقراط، ستتركز الحياة الثقافية حـول أثينـا. علـى أن ثمـة أمـراً جوهريا ينبغي ملاحظته هنا وهو أن طبيعـة المشـروع الفلسـفي قـد طـرأ عليهـا تغيير جذري، فأصبح هذا المشروع مع سقراط مختلفاً كل الاختـلاف عنـه لـدى الفلاسـفة السابقين عليه.

غير أننا قبل أن نتعرف علـى سـقراط، سـنتحدث عـن *السوفسـطائيين*، الذيـن طبعوا بأثرهم الواضح الصورة الثقافية لمدينة أثينا في عصر سقراط.

ستار ! انتهى الفصل الأول ! فتاريخ الفكر أشبه بمسرحية من عدة فصول.

الانسان أساس كل شيء

اعتبارا من عام ٤٥٠ قبل الميلاد أضحت أثينا العاصمة الثقافية للعالم اليوناني. وفي هذه الفترة أخذت الفلسفة أيضاً اتجاها جديداً.

كان فلاسفة الطبيعة رجال علم في المقام الأول يهتمون بالطبيعة المادية للعالم، وهم يشغلون بهذه الصفة مكانا هاما في تاريخ العلم. لكن بينما كان الفلاسفة السابقون على سقراط مشغولين بدراسة الطبيعة كان الاهتمام يتجه في أثينا نحو دراسة الانسان ومكانه في المجتمع. ففي هذه الفترة بالتحديد أخذ يظهر شيئاً فشيئاً نظام ديمقراطي يرتكز على المجالس الشعبية والقضاة الشعبيين.

وكان من الشروط التي لا تقوم الديمقراطية بدونها أن يكون الشعب مستنيرا استنارة تتيح له أن يشارك في العملية الديمقراطية. وهذا الشرط ما زال ضروريا في عصرنا الحالي فقد رأينا إلى أي مدى تحتاج كل ديمقراطية فتية إلى استنارة الشعب. وكان أكثر ما يهتم به أهل أثينا كأداة للمشاركة السياسية الفعالة في الحياة الديمقراطية البراعة في فنون الفصاحة والبلاغة، أي القدرة على عرض الرأي بطريقة مقنعة جذابة.

وسرعان ما أخذ يتدفق على أثينا معلمون وفلاسفة جوالون من أبناء المستعمرات اليونانية. وأطلق هؤلاء على أنفسهم اسم *السوفسطائيين*. ويعني لفظ «سوفسطائي» المثقف القدير. وما لبث أن أصبح تعليم المواطنين في أثينا هو مصدر الرزق الثابت للسوفسطائيين.

وكانت تجمع السوفسطائيين بفلاسفة الطبيعة سمة مشتركة: فقد كان كلاهما ينقد الأساطير. إلا أن السوفسطائيين كانوا يرفضون فوق ذلك مايبدو لهم تأملا نظريا مجردا بغير هدف. فكانوا لا يهتمون بالبحث عن تفسير لألغاز الطبيعة والكون لأن الإنسان لا يستطيع، في رأيهم، أن يصل إلى إجابة تفسر هذه الألغاز تفسيرا مرضيا يمكن الاطمئنان إليه. ووجهة النظر هذه تدعى في الفلسفة مذهب الشك أو الارتيابية.

ولذا تخلى السوفسطائيون عن محاولة حل ألغاز الطبيعة واختاروا أن يهتموا بالانسان وبمكانه في المجتمع، وقالوا إن على البشر أن يتعلموا كيف يعيشون معاً.

ويقول الفيلسوف السوفسطائي بروتاغوراس (نحو ٤٨٥ ٤١٠ قبل الميلاد) «إن الانسان مقياس الأشياء جميعاً». وهو يعني بذلك أن الحق والباطل، شأنهما شأن الخير والشر، يجب الحكم عليهما تبعاً لحاجات الانسان.

وعندما سئل عن إيمانه بآلهة اليونان اكتفى بالرد قائلا «هذه مسألة معقدة وعمر الانسان قصير». والذي لا يستطيع أن يبدي رأياً قطعاً في وجود الإله او عدم وجوده يسمى *لاأدرياً*.

وكان السوفسطائيون بوجه عام أناساً كثيري الترحال مما أتاح لهم الاطلاع على أنواع الحكم في البلدان المختلفة. وقد لاحظوا في تطوافهم هنا وهناك وجود اختلافات هائلة بين شتى المدن في أخلاقها وعاداتها وقوانينها. وانطلق السوفسطائيون من هذه الملاحظات وطرحوا للمناقشة قضية ما تحتمه قوانين الطبيعة من جهة، وما يصطنعه المجتمع من جهة أخرى. فأرسوا بذلك الأسس التي ارتكز عليها النقد الاجتماعي في دولة مدينة أثينا.

وتمكن السوفسطائيون بهذه الطريقة من لفت النظر إلى أن عبارة «الحياء الطبيعي»، مثلا، لا تتفق دوما مع الواقع. فلو كان الشعور بالحياء «طبيعيا» لكان هذا معناه أنه شعور فطري. ولكن أهو شعور فطري حقاً يا صوفيا أم أنه بالأحرى شعور اصطنعه المجتمع؟ ان أي شخص سافر إلى أنحاء العالم المختلفة سيكون رده بسيطا على مسألة كشف الجسم هذه: ان الشعور بالخجل أو الخوف من كشف الجسم ليس «طبيعيا» أو فطريا. إن الحياء أو عدم الحياء مفهومان مرتبطان أساسا بعادات كل مجتمع وتقاليده.

وكما ترين كان السوفسطائيون يثيرون بحججهم مناقشات حية بين أهل أثينا يؤكدون فيها عدم وجود ***معايير*** مطلقة تميز الحق عن الباطل، وأن الحق والباطل مفهومان نسبيان. أما سقراط فقد حاول على العكس أن يبين أن هناك معايير مطلقة وصالحة بالنسبة للناس كافة.

من هو سقراط

لا شك في أن سقراط (٤٧٠ ٣٩٩ قبل الميلاد) هو أكثر الشخصيات غموضاً في تاريخ الفلسفة كله. فهو لم يخط سطراً واحداً. ومع ذلك فانه يعد واحداً من الذين أثروا أعظم التأثير في الفكر الاوروبي. ومما ساهم في قوة هذا التأثير الظروف الدرامية التي اكتنفت مماته.

نحن نعرف أن سقراط ولد في أثينا وأنه أنفق جل وقته يناقش من يقابلهم في ميادين المدينة أو من يصادفهم في أسواقها. وكان يرى أنه يتعلم بهذه الطريقة من الناس. ولذا اعتاد أن يقول «إن أشجار الريف ليس لديها ماتعلمني إياه». وكان من عادات سقراط أيضاً أن يظل ساعات طويلة مستغرقا في أفكاره.

وكان ينظر إليه، حتى أثناء حياته، على انه شخص غامض، كما اعتبر بعد مماته مؤسسا لمدارس فلسفية متعددة برغم أن كل مدرسة منها كانت مختلفة اختلافا شديداً عن الأخرى. ولعل غموضه ذاته هو الذي سمح لكل هذه الاتجاهات الفلسفية المتباينة أن تدعي الانتساب إليه.

إننا نعرف على الأقل أنه كان دميم الخلقة قبيح الشكل. إذ كان قصيرا سمينا، جاحظ العينين أفطس الأنف. ولكن يقال انه كان «رائعا» بما يملك من صفات روحية سامية. كما قيل عنه «ابحث ما شاء لك البحث فلن تجد له نداً لا في الماضي ولا في المستقبل». إلا أن ذلك لم يعصمه من حكم قضى باعدامه بسبب نشاطه الفلسفي.

ويعود الفضل الأول في معرفتنا بحياة سقراط إلى كتابات افلاطون الذي كان نداً لسقراط ثم أصبح هو نفسه واحداً من أعظم فلاسفة التاريخ. فقد كتب افلاطون عدة *محاورات* أو مناقشات فلسفية متخذاً من شخصية سقراط لسان حاله.

وعندما نطالع أقوالاً أوردها افلاطون على لسان سقراط تعوزنا في الواقع أي وسيلة تتيح لنا أن نعرف إن كان سقراط قد نطق بهذه الأقوال حقاً. ولذلك فان من الصعب تمييز أفكار سقراط عن أفكار افلاطون ذاتها. وتلك مشكلة تثور كلما مضت إحدى شخصيات التاريخ دون أن تترك وراءها أثراً مدوناً. وهي مشكلة

نصادفها أكثر مما نظن. وأشهر نموذج لهذه المشكلة هو المسيح بطبيعة الحال. فما السبيل إلى التيقن من أن «المسيح التاريخي» قد نطق فعلاً بالأقوال التي ينسبها إليه متى أو لوقا؟ اننا نجد أنفسنا مع «سقراط التاريخي» إزاء لغز من هذا النوع.

على أن معرفة من كان حقاً سقراط ليست مسألة مهمة بهذه الدرجة في واقع الأمر. فصورة سقراط التي نقلها افلاطون هي التي ألهمت المفكرين الغربيين على امتداد ٢٥٠٠ عام. وسقراط هذا هو الذي يهمنا ويعنينا.

فن المحاورة

تكمن قوة تأثير سقراط في أنه لم يسع إلى تعليم الناس. بل كان يوحي، على العكس، بأنه يلتمس العلم من محدثه. فلم يكن يحاضر كمعلم عاد. بل كان *يناقش ويجادل*.

غير أن سقراط لو كان قد اكتفى بالانصات إلى الآخرين ما كان أصبح، بطبيعة الحال، فيلسوفا شهيرا، وما كان تعرض لحكم الاعدام أيضاً. وكان سقراط يبدأ حواره دوما بطرح الأسئلة *متصنعاً* بذلك أنه لا يعرف شيئاً، ثم يحتال أثناء المناقشة حتى يكتشف محدثه بنفسه شيئاً فشيئاً فساد منطقه، وعندما يجد محاوره أنه قد أصبح محاصراً تماماً يضطر في النهاية إلى تميز الحق من الباطل.

ويحكى أن أم سقراط كانت تعمل مولدة، وان سقراط كان يقارن اسلوبه الفلسفي بمهنة *التوليد*. ان المولدة ليست هي من تحمل الطفل بل انها التي «تولده». ان مهمتها تنحصر في المساعدة أثناء الولادة. وبالمثل، رأى سقراط أن واجبه ينحصر في المساعدة على «توليد» أو استخراج الأفكار الصحيحة من الأذهان، لأن المعرفة الحقيقية يجب أن تأتي من داخل كل انسان. فالفهم النابع من الباطن هو الذي يؤدي إلى المعرفة الحقيقية.

وأود أن أؤكد هنا على أمر هام: إذا كانت ولادة الطفل شيئاً طبيعيا، فإن البشر جميعاً يملكون أيضاً مقدرة طبيعية على التوصل بأنفسهم إلى الحقائق الفلسفية إن هم استخدموا عقولهم. ففي وسع الانسان عندما ينعم التفكير أن يستولد الاجابات من داخل نفسه.

وكان سقراط قادراً بتصنعه الجهل على دفع الناس إلى التفكير واستخدام عقولهم. كان يجيد اصطناع الجهل أو التظاهر على الأقل بأنه أدنى ذكاء مما هو، ويسمي هذا الاسلوب في المحاورة «التهكم السقراطي». وهكذا كان سقراط يتمكن من كشف نقاط الضعف في أفكار أهل أثينا. وما أكثر ما وقع هذا المشهد في وسط السوق، أي على مرأى ومسمع من أشتات المارة. فكانت مقابلة سقراط تعني احتمال الوقوع تحت طائلة سخريته المرة والتحول إلى أضحوكة لجموع الناس.

ولذا يجب ألا نندهش إذا رأينا أن البعض قد انتهوا، بمرور الوقت، إلى اعتباره مزعجا مهيجا، ولا سيما أصحاب النفوذ في ذلك المجتمع. وكان سقراط يقول «إن أثينا تشبه حصاناً كسولا وما أنا سوى حشرة لاسعة تحاول أن توقظه من غفلته وتؤجج فيه روح الحياة». (وخبريني يا صوفيا ماذا يصنع الناس بحشرة لاسعة؟).

صوت إلهي

إلا أن سقراط لم يكن يلسع أبناء مدينته كي يصيبهم بالأذى أو ينغص عليهم صفو عيشهم. لقد كان مدفوعا بسلطان قوة باطنية أكبر منه لا تترك له أي خيار. فقد قال سقراط مراراً إنه يسمع صوتا إلهيا لا يفتأ يتردد في أعماقه. و تحكى عنه أنباء تنم عن ضميره اليقظ وروحه السامية منها أنه رفض مثلا أن يشارك في الحكم بالاعدام على أي مواطن من أهل بلده، وأنه رفض أيضاً إفشاء أسماء المعارضين السياسيين.

وقد انتهى الأمر بسقراط إلى دفع حياته ثمناً لأفكاره ومواقفه. ففي عام ٣٩٩ اتهم بأنه «يقول بآلهه جديدة»، وبأنه «يفسد الشباب»، فسيق أمام محكمة مؤلفة من ٥٠٠ عضو فأصدرت، بأغلبية ضئيلة، حكمها بإعدامه.

وكان بوسع سقراط أن يطلب العفو. أو كان بمقدوره على الأقل أن ينجو بنفسه إن كان وافق على الفرار من أثينا. ولكن إن كان فعل لما أصبح سقراط. فقد كان يضع ضميره والحقيقة في مكانة تعلو مكانة حياته، هذا كل ما في الأمر. لقد أكد للمحكمة أنه انما يعمل من أجل الخير العام وبرغم ذلك حكمت عليه بالاعدام. وآن أوان تنفيذ الحكم فتجرع كاساً من السم في حضور أصدقائه الأقربين. ثم استلقى على ظهره ومات.

لماذا يا صوفيا؟ لماذا حكم على سقراط بالموت؟ ان الناس ما برحت تطرح هذا السؤال منذ أكثر من ألفي عام. على أن سقراط لم يكن الشخصية التاريخية الوحيدة التي دفعت حياتها ثمناً لما تؤمن به. وقد أشرت إلى المسيح من قبل. ومما يلفت النظر أن المسيح وسقراط تجمع بينهما نقاط مشتركة كثيرة أخرى. وسأذكر لك بعضا منها.

فالمسيح وسقراط أ عتبرا كلاهما شخصين غامضين من قبل معاصريهما. كما أن كلاً منهما لم يترك آثاراً مكتوبة عن رسالته، مما يجعلنا لعتمد اعتماداً كاملاً في معرفتهما على الصورة التي نقلها تلاميذهما عنهما. غير اننا نعرف أن كليهما كان خبيرا في فن المحاورة، فكل منهما كان يتحدث بيقين عميق يأسر الألباب فوراً بسحر بيانه، ولكنه قد يثير أيضاً في بعض النفوس الضيق والسخط. كما أن الاثنين كانا يشعران، فوق كل هذا، أنهما رسولا قوة أكبر منهما بعثت بهما لهداية البشر، وقد تحديا أصحاب السلطان بنقدهما جميع أشكال الظلم والفساد. ثم هناك وجه شبه آخر لا يستهان به: ان ذلك قد كلفهما حياتهما.

كما أن محاكمتي المسيح وسقراط تتماثلان أيضاً من بعض الوجوه تماثلا مثيراً. فكلاهما كان بوسعه أن يطلب الصفح فينجو بحياته، ولكنه كان يرى أنه مكلف برسالة سيخونها إن لم يبرهن على الايمان بها حتى النهاية. وأدت مواجهتهما للموت بسكينة جليلة وكرامة شامخة إلى التفاف الآلاف حول أفكارهما بعد وفاتهما.

ولئن كنت أنوه بأوجه التماثل هذه فليس لأزعم أنهما متطابقان أو متشابهان، بل لابرز أن كلاً منهما كانت لديه رسالة ينقلها وأن شجاعتهما الشخصية كانت خير تجسيد لإيمانهما بتلك الرسالة.

جوكر في أثينا

إن الحديث عن سقراط لا ينتهي كما ترين. لقد تحدثنا عن أسلوبه لكن ما هو مشروعه الفلسفي بالتحديد؟

لقد عاش سقراط في نفس عصر السوفسطائيين. وكان يهتم مثلهم بالإنسان وحياته أكثر من اهتمامه بالمشكلات التي طرحها فلاسفة الطبيعة. يقول شيشيرون،

وهو فيلسوف روماني جاء بعد سقراط بعدة قرون، إن سقراط «أنـزل الفلسـفة مـن السماء إلى الأرض، وتركها تحيا في المدن وتدخـل البيـوت، وأجبرهـا علـى الاهتمـام بالحياة والاخلاق والخير والشر».

لكن سقراط كان يختلف عـن السوفسـطائيين في نقطـة جوهريـة ! فهـو لم يكـن يعتبر نفسـه «سوفسـطائيا»، أي شـخصاً مثقفـاً أو عالماً. ولـذا رفـض، علـى عكـس السوفسطائيين، أن يقبل مالاً لقاء ما يعلمه للناس. كلا، إن سقراط كان يعتبر نفسـه فيلسوفا بالمعنى الحقيقي للكلمة. فكلمة فيلسوف تعني «محب الحكمة».

ومن المهم أن تستوعبي جيداً يا صوفيا الفـرق بـين السوفسـطائي والفيلسـوف. كان السوفسطائيون يقبلون المال نظير آراء تتفاوت براعتها يعلمونهـا للنـاس. وهـذا النوع من السوفسطائيين قد وجد على مر العصور. واني أقصد على وجه الخصـوص هذا النوع من المتعالمين المتحذلقين الذين هم إما شديدو الرضا عن معارفهم حتى وإن لم تتجاوز أقل القليل، وإما يفاخرون بأنهم يعرفون كمـا مـن الأشـياء ليسـت لديهـم عنها أي فكرة في الواقع. انك مـازلت فتـاة صغـيرة ولكـن مـن المؤكـد انـك قـابلت بالفعل بعضا من هؤلاء السوفسطائيين أثناء حياتك الغضة... ان *الفيلسوف* الحقيقي يا صوفيا شيء آخر كلية، انـه العكـس تماماً في الحقيقـة. فالفيلسـوف يـدرك أنـه لا يعرف في واقع الأمر إلا أقل القليل. وهذا ما يدفعه لأن يسعى بـلا هـوادة إلى بلـوغ المعرفة الحقة. وكان سقراط واحداً من هذه الكائنات الفذة. لقد كان «واعيـا» بأنـه لا يعرف شيئاً يذكر عن الحياة والعالم. لكن الأمـر الأهـم هـو أنـه كـان يشـقى حقـاً باحساسه بضآلة معرفته ويسعى بكل قوة إلى التماس المعرفة بدافع من حب الحكمة.

الفيلسوف اذن هو شخص ي سل م بأن هناك أمـوراً كثـيرة لا يعرفهـا ويعـاني لهذا السبب. ولو نظرنا إليه من هذه الزاوية لرأينا أنه أحكم ممن يدعـون معرفـة كـل شيء. ألم أقل لك *إن أحكم الناس هو من يعـرف أنـه لا يعـرف*. وكـان سـقراط يؤكد أنه لا يعرف جيداً سوى شيء واحد هو أنه لا يعرف شيئاً. تذكري جيداً هـذه العبارة لأن من النادر الوقوع على اعتراف كهذا حتى في صفوف الفلاسفة. بل ربمـا يكون الجهر بهذه القناعة مصدر خطر داهم يودي بحياتك. إذ إن معناه أنك تبحثين عن المعرفة التي تنبع من الباطن، من إعمال العقـل. ومـن يسـعى إلىّ هـذه المعرفـة لا يكف عن طرح الأسئلة. ومن *يطرحون الأسئلة* هم دائمـا أشـد النـاس خطـراً. أمـا

الاجابة عنها فهي لا تورط في الحرج، أو هي لا تسبب المتاعب بنفس القدر. فربما كان سؤال واحد قادراً على تفجير تحجر العقول أكثر من ألف جواب.

أسمعت يا صوفيا عن حكاية حلة الامبراطورالجديدة؟ لقد جمع الامبراطور حاشيته ليعرض عليهم حلته الجديدة. ولكنه راح يخطر أمامهم عاريا تماماً، إلا ان رعايا الامبراطور لم يجسروا على مخالفته والبوح بالحقيقة. وفجأة صاح أحد الأطفال قائلا إن الامبراطور يمشي عاريا ! لقد كان *طفلا شجاعاً* يا صوفيا. وقد جروء سقراط، مثل هذا الطفل، على أن يعلن الحقيقة بأعلى صوت ويقول إننا بنو البشر لا نعرف إلا أقل القليل. وقد لاحظنا من قبل مدى التشابه بين الأطفال والفلاسفة.

وأود يا صوفيا أن أوضح لك هنا مسألة ترتبط بهذا الموقف: ان البشرية تواجه عددا من الأسئلة الصعبة، وهي أسئلة ليس لدينا إجابة مرضية عنها. وأمامنا من ثم أحد احتمالين: إما أن نخدع أنفسنا وسائر الناس فنزعم أننا نعرف ما يجب معرفته، وإما أن نغمض أعيننا عن الأسئلة الجوهرية ونتخلى نهائياً عن كل أمل في التقدم. وهكذا تنقسم البشرية إلى قسمين. فالناس عامة إما يدعون معرفة كل شيء وإما يركنون ببساطة إلى اللامبالاة. (تذكرى أن هذين النوعين من الناس يزحفون ويتسكعون في أعماق فراء الأرنب!). وهذه الحالة تشبه يا عزيزتي صوفيا تقسيم ورق الكوتشينة إلى قسمين. فمن جهة هناك الورق الأسود ومن جهة أخرى هناك الورق الأحمر. لكن من حين لآخر يظهر جوكر، أي ورقة لا تحمل لا رسم القلب ولا المربع ولا الورقة ولا الوردة، وكان سقراط واحداً من هؤلاء الجوكرات في أثينا. فهو لم يكن يزعم أنه يعرف كل شيء كما أنه لم يكن لا مباليا في الوقت ذاته، لقد كان يعرف فقط أنه لا يعرف شيئاً يذكر، إلا انه لم يقنع بذلك. ولهذا صار فيلسوفا، أي شخصاً لا يرضى باللامبالاة، شخصاً يسعى بكل قواه إلى بلوغ المعرفة الحقة.

يحكى أن أحد الاثينيين سأل عرا فة دلف عن أحكم أهل أثينا، فأجابت أنه سقراط، وعندما سمع سقراط هذا الجواب عجب أشد العجب (بل الأرجح أنه استغرق في الضحك يا صوفيا !). وانطلق إلى المدينة يبحث عن رجل يعتبره هو ويعتبره سائر الناس بالغ الحكمة، وجعل يحاوره ويجادله. إلا أن هذا الرجل عجز عن الإتيان بردود مرضية على أسئلة سقراط الذي اضطر للتسليم بأن العر افة ربما تكون قد صدقت.

لقد كان سقراط مهتما بإيجاد أساس متين تنهض عليه معرفتنا. وكان يرى أن هذا الاساس يكمن في عقل الانسان. وإيمان سقراط بعقل الانسان يجعل منه *عقلانيا*.

الرؤية الصائبة للأشياء تقود إلى العمل الصائب

ذكرت لك من قبل أن سقراط كان يزعم انه يسمع صوتا إلهيا يتردد في أعماقه، وان هذا «الوعي» كان يدله على الحق. وكان يردد أن «*من يعرف الخير لن يقدم على الباطل*». وكان يعني بذلك أن الرؤية الصائبة للأشياء تقود إلى العمل الصائب. وان كنا نفعل الشر فذلك لاننا نتخبط في الجهل. ومن هنا تتضح الأهمية القصوى لزيادة معارفنا. وقد اهتم سقراط بالتوصل إلى تعريف واضح وشامل لما هو حق ولما هو باطل. وكان يرى على عكس السوفسطائيين، أن عقل الانسان هو الذي يميز الخير والشر، لا ما يتواضع عليه مجتمع من المجتمعات.

ربما وجدت يا صوفيا أن هذا الجزء الأخير صعب بعض الشيء. فلأطرح المسألة إذن بشكل آخر: كان سقراط يرى أن من المستحيل أن ينعم الانسان بالسعادة ان هو تصرف بما يخالف قناعاته. والذي يريد أن ينعم بالسعادة سيفعل ما يؤمن في قرارة نفسه بأنه الحقّ. ولذا فان من يعرف الحق لن يقدم على الباطل. فمن ذا الذي يريد أن يكون تعيسا؟

وأنت، ما رأيك يا صوفيا؟ أتستطعين أن تعيشي سعيدة إنّ أنت دأبت على فعل أشياء تعرفين في قرارة نفسك أنها غير صائبة؟ ما أكثر من ينفقون وقتهم في الكذب والسرقة والافتراء على الآخرين. ألا تعتقدين انهم يعرفون حق المعرفة أن ما يفعلونه ليس خيراً، أو ليس جائزا على الأقل؟ أتعتقدين أن ذلك يجعلهم سعداء؟

إن سقراط، من جهته، لم يكن يعتقد ذلك.

ما إن فرغت صوفيا من قراءة الرسالة التي تتحدث عن سقراط، حتى أسرعت بوضعها في العلبة وخرجت من كوخها. كانت تريد أن تكون في

البيت قبل عودة أمها من السـوق كـي لا تسـألها أيـن كـانت. كمـا أنهـا قـد وعدتها من جهة أخرى بغسل الأطباق.

لم تكد صوفيا تفتح حنفية الماء حتى ظهرت أمها بالباب تحمـل في يديهـا كيسين كبيرين مليئين بالمشتريات. لعلها لاحظت أن صوفيا تأخرت في غسيل الأطباق أو لعلها أدركت في لحظة خاطفة بعـين الأم الخبـيرة أن صوفيـا غائبـة تماماً في خواطرها، إذ مـا لبثـت أن وضعـت الكيسـين علـى الأرض وابتـدرت صوفيا قائلة:

ـ إنك لست حقاً في حالتك الطبيعية في هذه الفترة يا صوفيا إنك مشغولة البال على الدوام.

ودون أن تستفسر صوفيا عن سبب قول أمها هذا ردت من فورها:

ـ وهكذا كان سقراط...

حملقت أمها وقالت في ذهول:

ـ سقراط؟

وواصلت صوفيا حديثها وهي مستغرقة استغراقا عميقا في أفكارها:

ـ وما أفظع أن يحكم عليه بالموت لهذا السبب...

ـ اسمعي يا صوفيا ! أنا لا أعرف حقاً ماذا أقول لك.

ـ ولا حتى سقراط... انه لم يكن يعرف سوى أنـه لا يعـرف شيئاً. ومـع ذلك كان أحكم أهل أثينا.

سكتت أمها برهة ثم غامرت بسؤالها:

ـ أهو أمر تعلمته في المدرسة؟

هزت صوفيا رأسها بقوة:

ـ لا، ليست المدرسة بالمكان الذي أتعلم فيه شيئاً ذا قيمة حقيقية. أترين، إن الفرق الكبير بين أساتذة المدرسة والفلاسفة الحقيقيين هو أن معظم الأساتذة يتصورون أنهم يعرفون أشياء كثيرة يحاولون أن يحشوا بها أدمغة تلاميذهم، في حين أن الفلاسفة يحاولون أن يجدوا مع تلاميذهم اجابات عما يطرحونه من أسئلة مشتركة.

ـ هل رجعنا للحديث من جديد عن قصة هذا الأرنب الابيض. أتعرفين، إني متلهفة على مقابلة صاحبك هذا. فقد بدأت أعتقد أنه حقاً غريب الأطوار.

توقفت صوفيا لحظة عن غسل الأطباق والتفتت إلى أمها والفرشاة في يدها:

ـ هو ليس غريب الأطوار. إنه مثل النحلة التي تزعج الآخرين لكي تجبرهم على الخروج من خمولهم الذهني.

ـ عال، عال ! من يتصور نفسه هذا !

أطرقت صوفيا وانهمكت في غسل الأطباق، ثم قالت:

ـ إنه ليس عالماً ولا مدعياً. إنه يريد ببساطة أن يصل إلى الحكمة الحقيقية. هنا يكمن كل الفرق بين الجوكر الحقيقي وكل أوراق الكوتشينة الأخرى.

ـ هل قلت جوكر؟

أومأت صوفيا برأسها، ثم مضت قائلة:

ـ ألم تسألي نفسك يوماً لـمَ نجد في ورق الكوتشينة أوراقا عديدة تحمل علامة القلب أو الربع أو الورقة أو الوردة، ولكننا لا نجد إلا جوكراً واحداً؟

ـ ما أعجب ردودك يا صوفيا !

ـ وما أغرب أسئلتك يا ماما !

كانت أمها قد فرغت من صف مشترياتها، فأخذت جريدتها وذهبت إلى البهو. وشعرت صوفيا أنها صفقت الباب خلفها بشيء من العنف.

أنهت صوفيا غسل الأطباق وصعدت إلى غرفتها. كانت قد وضعت الشال الحريري الأحمر في أعلى رفوف الخزانة بجوار اللوجو، فأخرجته وأخذت تتفحصه بعناية.

هيلد...

الفصل الثامن

أثينـــا

وارتفعت مكان الأطلال

صـــروح سـامقـة ...

في أول المساء، ذهبت أمها تزور إحدى صديقاتها. وما إن خرجت حتى نزلت صوفيا إلى الحديقة وذهبت إلى كوخها في طرف السياج العتيق. وجدت لفافة تنتظرها بجوار علبة البسكوت المعدنية الكبيرة. أسرعت صوفيا بفض اللفافة فاكتشفت بها شريط فيديو!

جرت عائدة إلى البيت. شريط فيديو ! هذا آخر ما يمكن توقعه ! لكن كيف عرف الفيلسوف أنهم يملكون جهاز فيديو؟ ترى ما الذي بالشريط؟

وضعت صوفيا الشريط في الجهاز. ظهرت على شاشة التلفزيون صورة مدينة كبرى. وسرعان ما أدركت أنها أثينا، إذ ما لبثت أن ظهرت صورة مقربة للأكروبول، الذي عرفته صوفيا فوراً لأنها رأت صوره قبل ذلك مراراً.

لقد كانت صورة حية، إذ إن الاطلال التي تراها كانت تعج بسائحين يرتدون ملابس خفيفة وتتدلى من رقابهم آلات التصوير. بل كان بينهم سائح يرفع لافتة. ولكن مهلاً أليس هذا اسم «هيلد» يبرز لي هذه المرة مسطوراً على اللافتة!:

بعد برهة، ظهر وجه ملأ الشاشة. كان وجه رجل في نحو الأربعين من عمره. وكان أقرب للقصر وله لحية سوداء مرتبة منسقة ويضع فوق رأسه بيريها أزرق. وما لبث الرجل أن نظر إلى الكاميرا مباشرة وقال:

ـ مرحبا بك في أثينا يا صوفيا. لا شك أنك خمنت أني ألبرتو كنوكس الذي يراسلك. اذا لم تكوني متأكدة بعد أقول لك شيئاً لا يعرفه سوانا: «إن الأرنب الأبيض الكبير قد خرج من قبعة الكون الطويلة». اننا نقف الآن وسط آثار الأكروبول. وتعني هذه الكلمة «القلعة» أو «المدينة المشيدة على المرتفعات». لقد عاش الناس في هذا المكان منذ العصر الحجري. والسبب هو موقعه الفريد المتميز بطبيعة الحال، فمن السهل الدفاع عن هضبة مرتفعة ضد المغيرين. كما أن الأكروبول يشكل مطلا ممتازا يشرف على ميناء من أهم موانيء البحر المتوسط...

وشيئاً فشيئاً، أخذت أثينا تنمو في أسفل الهضبة. وكان الأكروبول يستخدم آنذاك قلعة ومعبداً. وفي النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وقعت حرب طاحنة مع الفرس، وفي عام ٤٨٠ قام اكسريس ملك الفرس بنهب أثينا وحرق كل الانشاءات الخشبية القديمة القائمة في الأكروبول. وفي العام التالي نشبت حرب جديدة مني الفرس فيها هذه المرة بهزيمة ساحقة. وعلى إثر تلك الحرب بدأ العصر الذهبي لأثينا، فأعيد بناء الأكروبول فأصبح أروع وأبهى، وأضحى مكانا للعبادة وحدها. وتلك بالتحديد هي الفترة التي كان سقراط يجوب فيها الشوارع ويتنزه في ميدان السوق ليجادل الأثينيين. وهكذا اتيح له أن يشهد عن كثب اعادة بناء الأكروبول وتشييد جميع الآثار المهيبة التي تحيط بنا. أي موقع عمل كان ذاك! ترين ورائي المعبد الكبير. انه يسمى البارثينون أي «منزل العذراء» لأنه شيد تكريما لاتينا، الربة الحامية لمدينة أثينا. ان هذا الصرح الرخامي الهائل ليس به خط عمودي واحد، فالأركان الأربعة تميل إلى الداخل قليلاً، لإسباغ مزيد من الحيوية والرشاقة على المبنى، ولذلك فانه لا يبدو، على أبعاده الهائلة، ككتلة متراصة ضخمة. كل التصميم يقوم اذن على خدعة بصرية. فالأعمدة تميل ميلا هينا إلى الداخل، ولو مدت على استقامتها حتى تلتقي في نقطة أعلى المعبد لكونت هرماً يبلغ ارتفاعه ألفاً وخمسمائة متر. ولم يكن هذا الصرح العملاق يضم إلا شيئاً

واحداً هو تمثال للربة اتينا طوله اثنا عشر متراً. ويمكنني أن أضيف أيضاً أن رخام المبنى الأبيض، الذي لون بعدة ألوان زاهية، كان يستقطع من جبل يبعد عن موقعنا هذا بستة عشر كيلومتراً...

كانت صوفيا مشدوهة مأخوذة. هل استاذ الفلسفة هو من يحدثها في شريط الفيديو؟ انها لم تلمح حقاً سوى خياله في ظلمة ذاك المساء، لكن ماأغرب أن يكون هو نفس الرجل الذي يقف في الأكروبول بأثينا.

سار بعد ذلك بمحاذاة واجهة المعبد الطويلة، والكاميرا مصوبة إليه تتابعه. وأخيراً توجه إلى حافة المنحدر وأشار إلى المنظر المحيط. واقتربت الكاميرا من مسرح قديم مشيد عند سفح الأكروبول. وواصل الرجل الذي يرتدي البيريه حديثه:

ـ أترين مسرح ديونوسوس القديم هذا. إنه أقدم مسرح في أوروبا على الأرجح. هنا مثلث التراجيديات الكبرى التي ألفها **إسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس**، وهذا في عصر سقراط على وجه التحديد. ولقد ذكرت لك من قبل واحدة من أشهر هذه المسرحيات، وهي تراجيديا ملك شقي تعيس، هو الملك أوديب.

وكانت تمثل على هذا المسرح أيضاً مسرحيات كوميدية. وكان أشهر مؤلف كوميدي هو **أرستوفانيس** الذي كتب، فيما كتب، كوميديا سخر فيها سخرية مرة من سقراط وصوره فيها على أنه مهرج أثينا. وتبصرين في عمق المسرح الحائط الحجري الذي كان الممثلون يقفون أمامه، وكان يسمى «المشهد» أو «المنظر». ولكن فلنعد الآن إلى الفلسفة يا صوفيا، فلندر حول البارثينون ونهبط عبر المدخل...

دار الرجل القصير حول البارثينون وأشار إلى معابد أقل شأنا إلى يمينه. ثم بدأ ينزل درجات تهبط بين عدة أعمدة عالية. وعندما وصل إلى سفح هضبة الاكروبول، ارتقى ربوة صغيرة ثم أشار إلى أثينا وقال:

ـ إن الربوة التي أقف عليها اسمها ربوة «**الأريوباغوس**». وهنا كانت تنعقد محكمة العدل العليا في أثينا للفصل في قضايا القتل. وبعد بضعة قرون وقف هنا بولس الرسول يبشر أهل أثينا بكلمة المسيح ورسالته. ولكننا سنعود إلى موعظته تلك في مناسبة مقبلة. تبصرين أسفل موقعنا إلى جهة اليسار أطلال سوق أثينا القديمة التي لم يتبق منها، باستثناء معبد هيفايستوس إله الحدادين، سوى بعض كتل الرخام. ولنهبط الآن...

في اللحظة التالية، ظهر مرة أخرى بين الأطلال القديمة. وفي أعلى السماء وفي أعلى شاشة تليفزيون صوفيا ارتفع معبد اتينا المهيب رابضاً فوق الأكروبول. جلس استاذ الفلسفة على كتلة رخامية. وما لبث أن نظر إلى الكاميرا قائلا:

ـ إننا الآن أمام ميدان السوق القديم الذي يسمى «**الأغورا**». ليس فيه مايثير الدهشة، أليس كذلك؟ هذه حالته اليوم يا صوفيا. أما لو كنا وقفنا هنا في الماضي القديم لأحاطت بنا من كل جانب معابد جليلة ومحاكم مهيبة ومبان حكومية شامخة ومتاجر عديدة، بل وقاعة لحفلات الموسيقى وملعب رياضي فسيح. كل هذه الصروح كانت تحيط بميدان السوق على هيئة مربع كامل... إن هذه الساحة الصغيرة هي التي أرسيت فيها أسس الحضارة الاوروبية. ان كلمات مثل سياسة، وديمقراطية، واقتصاد، وتاريخ، وبيولوجيا، وفيزياء، ورياضيات، ومنطق، ولاهوت، وفلسفة، وعلم الأخلاق، وعلم النفس، ونظرية، ومنهج، وفكرة، ونظام وذلك على سبيل المثال لا الحصر أخذناها عن شعب صغير تركزت حياته اليومية في هذا الميدان. هنا كان سقراط يتجول ويحاور من يلتقي بهم. وربما أوقف عبداً يحمل جرة زيت زيتون ليسأله سؤالاً فلسفياً. إذ كان سقراط يعتبر أن العبد يملك نفس مقدرة الحر على التفكير. أو ربما جادل أحد الوجهاء جدالاً عنيفا، أو تحدث بصوت خافت مع تلميذه الشاب أفلاطون. ما أغرب التفكير في كل هذا. اننا لا نفتأ

نتحدث عن الفلسفة «السقراطية» أو «الأفلاطونية»، لكن أن نكون في حضرة أفلاطون أو سقراط ذاتهما فهذا شيء آخر.

وجدت صوفيا أن من الغريب بالفعل تخيلهما في زمانهما وسياقهما. إلا أنها وجدت أن من الغريب كذلك أن يخاطبها الفيلسوف فجأة بواسطة شريط فيديو يضعه كلب عجيب في مكمنها السري مباشرة.

نهض الفيلسوف أخيراً من فوق الكتلة الرخامية واستأنف حديثه بصوت خفيض هذه المرة:

ـ في الواقع، كان في نيتي أن أتوقف هنا يا صوفيا. لقد أردت أن أطلعك على الأكروبول واطلال الميدان القديم لسوق أثينا. ولكني لست متأكدا بعد من أنك قد استوعبت حقاً أي عظمة كانت تكلل هذا المكان في قديم الزمان، ولذلك أجدني مدفوعا... لأن أمضي إلى مدى أبعد، رغم ان ذلك أمر غير معتاد. إلا أني أثق بأنك ستحتفظين بهذا سرا فيما بيننا. إن لمحة خاطفة ستكفي على أي حال...

لم يزد قولا واكتفى بالتحديق إلى الكاميرا مباشرة. وما لبث أن ظهرت على الشاشة صورة مختلفة تماماً. فمكان الأطلال ارتفعت صروح سامقة. لقد نهضت كل الأطلال القديمة من جديد نافضة آثار الزمن كما لو أن عصا سحرية مستها فبعثتها في هيئتها الأولى. رأت الاكروبول من بعيد ولكنه الآن جديد قشيب مثله مثل المباني المحيطة بميدان السوق التي ظهرت موشاة بالذهب ومزخرفة بألوان زاهية. وفي الساحة الكبرى المربعة، أبصرت رجالا في ثياب ملونة يتجولون. كان بعضهم يحمل سيوفا، وبعضهم يحمل جرة على الرأس، وكان أحدهم يحمل لفافة بردي تحت ذراعه.

وعندئذ تعرفت صوفيا على استاذ الفلسفة ! كان مازال يضع البريه الأزرق فوق رأسه ولكنه كان يرتدي ثوبا فضفاضا أصفر كسائرالناس. اتجه الفيلسوف نحو صوفيا وهو يحدق إلى الكاميرا وقال:

- هذا أفضل بالتأكيد ! إننا الآن في أثينا إبان العصر القديم يا صوفيا. كنت أود أن تأتي هنا بنفسك، هل تدركين ما أعني؟ فنحن الآن في عام ٤٠٢ قبل الميلاد، أي قبل موت سقراط بثلاث سنوات، أرجو أن تقدري قيمة هذه الزيارة الخاصة التي رتبت لك، فما كان أصعب العثور على كاميرا فيديو...

أحست صوفيا أن رأسها يدور. كيف احتال هذا الرجل الغامض حتى يجد نفسه في أثينا تلك التي كانت قائمة من ٢٤٠٠ سنة؟ وكيف يكون بوسعها أن تشاهد شريط فيديو مسجلاً في هذا العصر الغابر؟ كانت صوفيا تعرف بطبيعة الحال أن الفيديو لم يكن موجوداً في العصر القديم. هل هو فيلم اذن؟ لكن كل هذه المباني الرخامية تبدو حقيقية تماماً! لو أن ميدان الأغورا والأكروبول قد بنيا بالكامل لمجرد تصوير فيلم لتكلفت الديكورات ثروة طائلة. وكل هذا لمجرد أن يعرفها على أثينا.

نظر اليها الرجل الذي يضع البيريه من جديد.

- هل ترين هذين الرجلين اللذين يتحادثان هناك تحت الأعمدة؟

أبصرت صوفيا رجلاً مسناً يرتدي ثوبا تدعو حالته إلى الرثاء. كان ذا لحية ملبدة شعثاء وأنف أفطس وعينين جاحظتين وذقن طويلة معقوفة. وكان يقف بجانبه شاب مليح وسيم.

- إنه سقراط وتلميذه الشاب أفلاطون. والآن سوف أعرفك عليهما شخصياً.

ما إن نطق أستاذ الفلسفة بهذه الكلمات حتى اتجه نحو الرجلين الواقفين تحت تاج عمود طويل. وعندما اقترب منهما رفع البيريه يحييهما وتفوه بكلمات لم تفهم صوفيا معناها. لا بد انه يتحدث باليونانية. وبعد برهة، استدار إلى الكاميرا قائلا:

ـ لقد أخبرتهما انك فتاة صغيرة تود التعرف عليهما. ويريد أفلاطون الآن أن يسألك بعض الاسئلة لتفكري فيها. إلا أن علينا أن نسرع قبل أن يكتشفنا الحراس.

أخذ وجه صوفيا يرتعش ويرتعد غير مصدقة، إذ إن الشاب الوسيم تقدم بضع خطوات ونظر إلى الكاميرا وقال في صوت هادئ:

ـ أهلا بك في أثينا يا صوفيا.

كان يتحدث متئدا متمهلا بلكنة أجنبية واضحة.

ـ إني أ دعى أفلاطون، وساعطيك أربعة تمرينات عليك أن تحليها: أولاً عليك أن تسألي نفسك كيف يستطيع الحلواني أن يصنع خمسين كعكة متماثلة تماماً؟ ثم أن تتساءلي لماذا تتشابه كل الخيول؟ ثم تحاولي بعد ذلك معرفة ان كان الانسان يملك روحاً خالدة، وأخيراً إن كان الرجال والنساء يملكون قدرات عقلية متساوية. حظ سعيدا

وبعد ثانية واحدة اختفت الصورة من الشاشة. جعلت صوفيا تحرك الشريط إلى الامام وإلى الوراء لكنها لم تجد عليه شيئاً آخر.

حاولت صوفيا أن تجمع شتات أفكارها. ولكنها ما إن تنجح في التركيز على فكرة حتى تجد نفسها تمضي وراء فكرة أخرى، قبل أن تنتهي من الأولى.

لقد أدركت منذ فترة بعيدة أن استاذ الفلسفة له أفانينه المبتكرة، لكن أن يلجأ إلى أساليب للتعليم تتعارض مع كل قوانين الطبيعة، فإنه يكون قد مضى حقاً إلى مدى بعيد فأوغل في البعد.

هل من رأتهما على شاشة التليفزيون هما سقراط وأفلاطون حقاً؟ لا بالطبع فذلك أمر مستحيل تماماً. إلا أن الشريط لم يكن فيلماً للرسوم المتحركة مع ذلك.

أخرجت صوفيا الشريط من الجهاز وصعدت إلى غرفتها ووضعت الشريط بجوار قطع اللوجو في أعلى رفوف الخزانة. ثم استلقت على سريرها منهكة تماماً، وما لبثت أن استغرقت في النوم.

بعد عدة ساعات، عادت أمها فذهبت تطمئن على صوفيا. رأتها نائمة بردائها فهزتها برفق وقالت لها:

ـ ما الذي اعتراك يا صوفيا؟

ـ ما... ماذا...

ـ أنمت بردائك؟

فتحت صوفيا إحدى عينيها بصعوبة وتمتمت:

ـ لقد ذهبت إلى أثينا...

لم تستطع أن تزيد قولا وأدارت ظهرها لأمها وأخلدت إلى النوم من جديد.

الفصل التاسع

أفلاطــون

... حنين للعودة إلى مستقر الروح...

في صباح اليوم التـالي استفاقت صوفيـا بغتـة مـن نومهـا. نظـرت إلى الساعة: لقد بلغت الخامسة أو كادت. لم يكـن بهـا ميـل إلى مزيـد مـن نـوم، فاستوت في سريرها وجلست.

تساءلت لماذا أغفت بردائها؟ وفجأة تذكـرت كـل شـيء. هبـت ناهضـة وارتقت كرسيا صغيرا ثم نظرت إلى الرف العلوي من خزانتها. نعـم، هـا هـو شريط الفيديو حيث تركته. لم يكن حلمـاً اذن. أو لم يكـن كلـه حلمـاً علـى الأقل.

لكن هل رأت حقاً أفلاطون وسـقراط؟ لقـد بدأنـا ندخـل في الجـد! ربمـا كانت أمها محقة عندما وجدت أنها مشغولة الذهن على الدوام في هذه الفترة. فهي تمضي بكل كيانها في تلك المغامرة الساحرة الجديدة.

الوقت ما زال مبكرا. حاولت أن تغفو من جديد ولكن الوسن لم ينقد لها و لم يستجب. ماذا لو ذهبت إلى كوخها لـترى ان كـان هرمـس قـد تـرك لهـا رسالة أخرى؟

هبطت صوفيا السلم على أطراف أصابعها ثـم انتعلـت حذاءهـا المطـاطي وخرجت.

في الحديقة كان كل شيء مجللا بسكينة صافية وسكون آخـاذ. العصافـير وحدها كانت تغر د أقوى ما وسعها التغريد، فلـم تملـك صوفيـا إلا الابتسـام إزاء هذه الحيوية الدافقة. وكان ندى الصبح يتلألأ وسط النجيل كحبات مـن

البلور. وتجددت دهشتها وهي تلاحظ أن العالم يعد حقاً معجزة تسحر الألباب وتأسر القلوب.

داخل السياج النباتي القديم كانت الأرض مشبعة أيضاً ببعض الرطوبة. لم تبصر صوفيا أي رسالة جديدة من الفيلسوف، إلا أنها مسحت جذعاً غليظا وجلست عليه.

ثم تذكرت أن أفلاطون كان قد عهد إليها، في شريط الفيديو، بواجبات تحلها. أولاً، **كيف يستطيع الحلواني أن يصنع خمسين كعكة متماثلة تماماً؟**

اكتشفت صوفيا أن السؤال ليس بالسهولة التي يلوح عليها لأول وهلة فأخذت تقلب فيه النظر. في المرات النادرة التي أقدمت فيها أمها على صنع صينية من الكعكات الصغيرة، كانت صوفيا تبحث حتى يعييها البحث فلا تجد قط كعكتين متماثلتين. ولما كانت هي أيضاً لا تجيد صنع الحلوى، فان محأولاًتها كانت تنتهيَ أحيانا «بتحف» عجيبة حقاً. ولكن حتى الحلوى التي نشتريها من المحل ليست بدورها متماثلة ما دام الحلواني يعدها واحدة واحدة.

وفجأة ابتسمت صوفيا ابتسامة تشي بالانتصار. فقد تذكرت يوم اصطحبها أبوها إلى وسط المدينة بينما كانت أمها تعد كعك أعياد الميلاد. فعندما عادا إلى المنزل وجدا حشدا من قطع كعك مشكلة على هيئة عرائس صغيرة يغطي منضدة المطبخ. وكانت هذه العرائس تتشابة إلى حد كبير وان لم تخلُ من عيب هنا أو عيب هناك. فكيف حدث هذا اذن؟ حدث ببساطة لأن أمها استخدمت **قالباً** واحداً في صنع العرائس كلها.

تهلل وجه صوفيا فرحا لأنها تذكرت هذه الواقعة واعتبرت أنها نجحت بذلك في الاجابة عن السؤال الأول. فالحلواني يصنع خمسين كعكة متماثلة لأنه يستخدم قالباً واحداً في اعداد الكعكات كلها، هذا هو كل ما في الأمر!

بعد ذلك حدق «أفلاطون الفيديو» إلى الكاميرا الخفية وسألها **لماذا تتماثل كل الخيول؟** وقالت صوفيا: ولكن هذا ليس صحيحا ! بل على العكس فليس

هناك في الحقيقة حصان يماثل حصاناً آخر، مثلما لا يوجد شخصان متماثلان تماماً.

حيرها هذا السؤال ملياً حتى كادت أن تتركه يأسا وفجأة تذكرت الطريقة التي اتبعتها مع عرائس الحلوى. فلم تكن أي عروسة منها مطابقة تماماً لأي عروسة أخرى. فهذه أكبر قليلاً، وتلك أضخم نسبيا، والثالثة تالفة نوعاً، ومع ذلك يتفق الجميع على اعتبارها «متطابقة تماماً».

لعل أفلاطون كان يريد أن يسأل لم يظل الحصان حصاناً باستمرار وليس هجينا يجمع مثلا بين البقرة والحصان. فحتى لو كانت بعض الخيول سمراً في دكنة الدببة وبعضها بيضاً في نصاعة الخراف يظل بينها كلها شيء مشترك يجمعها. فهل هناك من رأى حصاناً له ست أو ثماني أرجل؟

لكن أليس من الصعب تصور أن يكون قصد أفلاطون هو أن كل الجياد قد شكلت وفق قالب واحد؟

ثم سأل أفلاطون سؤالاً صعبا حقاً: **هل يملك الانسان روحاً خالدة؟** شعرت صوفيا أن القدرة تعوزها للاجابة عن هذا السؤال. فهي لا تعرف إلا أن رفات الموتى تدفن أو تحرق تبعاً لتقاليد الشعوب وليس لها بالتالي أي مصير سوى الفناء والتحلل. ولو افترضنا أن للانسان روحاً خالدة لوجب علينا قبول فكرة أن الانسان مكون من جزأين مختلفين اختلافا جذرياً: جسد يبلى ويفنى بعد عدد من السنين، وروح تتمتع بحيوية شبه مستقلة عما يحدث للجسد. وتذكرت صوفيا أن جدتها قالت لها يوما إنها تشعر بأن جسدها وحده هو مايشيخ، أما في أعماقها فانها ما زالت نفس الفتاة الصغيرة التي تفتح وجدانها في ربيع العمر.

فكرة «الفتاة الصغيرة» هذه نقلت صوفيا مباشرة إلى السؤال الأخير: **هل الرجال والنساء يتمتعون بقدرات عقلية متساوية؟** لا تدري حقاً كيف ترد على ذلك. فكل شيء يتوقف على ما يقصده أفلاطون «بالقدرات العقلية».

وتذكرت فجأة ما قاله أستاذ الفلسفة عن سقراط. فقد أكد سقراط أن كل الناس قادرون على اكتشاف الحقائق الفلسفية إن هم استخدموا عقولهم. كما قال إن العبد يملك نفس قدرة الحر على التفكير وعلى حل المشكلات الفلسفية. وتساءلت صوفيا هل تختلف هي أو نورا أو باقي صديقاتها عن زملائهن البنين في المدرسة؟ ألا نصادف لدى البنات والبنين تفوقا واقبالاً على العلم، مثلما نجد لدى الفتيات والفتيان ضعفا في التحصيل أو عزوفا عن المعرفة؟ أليست المدرسة عينة من المجتمع كله؟ ان كل خبراتها المباشرة تدلها على أن الرجال والنساء يتمتعون بقدرات عقلية متساوية. ولا بد أن سقراط كان سيتفق معها في هذا.

وبينما هي مستغرقة في أفكارها سمعت فجأة حفيفاً آتياً من السياج النباتي مصحوبا بتنفس لاهث متسارع كالدفقات المتدافعة من قاطرة بخارية. وبعد عدة ثوان اقتحم الكلب الأشقر الضخم كوخها حاملا ظرفا كبيرا في فمه. صاحت صوفيا:

ـ هرمس ! شكراً، شكراً !

ترك الكلب الظرف يسقط في حجر صوفيا التي أخذت تربت على عنقه وتداعبه، وهمست:

ـ هرمس، أتعرف أنك كلب رائع.

تمدد الكلب على قدميها وتركها تداعبه للحظات ثم نهض ليعود كما جاء، إلا أن صوفيا مضت في أثره هذه المرة، وهي تحمل الظرف الأصفر في يدها.

سار هرمس بخطى متأنية متوانية نحو الغابة. وتعقبته صوفيا من مبعدة يسيرة، وكان الكلب يستدير من حين لآخر فينبح ويعوي، ولكن ما كان هذا النباح ولا ذاك العواء ليردعا صوفيا أو يثنياها. فلسوف تعرف أخيراً أين يختفي الفيلسوف، حتى لو مضت إلى اثينا نفسها.

توسع الكلب في خطوه وسرعان ما دلف إلى درب صغير. باعدت صوفيا بين خطاها كذلك، ولكن عندما أحس الكلب انها تجد في أثره استدار وتوقف وأخذ ينبح ككلب حراسة حقيقي. على أن صوفيا لم تتراجع بل اغتنمت هذه الفرصة لتتقدم بضعة أمتار.

وعندئذ انطلق هرمس يعدو كالسهم المارق والمسافة بينه وصوفيا تزيد وتتسع حتى اضطرت إلى التسليم بأنها لن تستطيع ادراكه مهما جدت في ركضها. وقفت وتناهت اليها خطى الكلب متخافتة وهو يغيب داخل الغابة. ثم ران الصمت من جديد.

جلست على جذع شجرة في فرجة بين الأشجار، وفتحت الظرف الكبير الذي كان لا يزال في يدها ثم شرعت تقرأ.

أكاديمية أفلاطون

كيف حالك يا صوفيا منذ أن تقابلنا المرة الأخيرة؟ أقصد بالطبع منذ رحلتنا لأثينا. لقد كانت فرصة أتاحت لي أن أعرفك على نفسي. ولما كنت قد عرفتك على افلاطون أيضاً فلندخل إذن في الموضوع مباشرة.

كان عمر أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ قبل الميلاد) تسعة وعشرين عاما وقت حكم على سقراط بتجرع السم. وكان آنذاك نداً لسقراط قضى في صحبته فترة طويلة وتابع باهتمام شديد محاكمة معلمه. وإقدام اثينا على اعدام أنبل ابنائها أمر ترك في نفس افلاطون أثراً لا يمحى، بل لقد شكل مسار نشاطه الفلسفي كله.

فقد كان موت سقراط بالنسبة لأفلاطون أفظع تعبير عن التعارض بين المجتمع القائم فعلاً وبين المجتمع الفاضل أو المجتمع النموذجي الأمثل. وكان أول عمل استهل به أفلاطون انتاجه الفلسفي هو نشر «دفاع سقراط». وفي هذا الدفاع بسط أفلاطون ما قاله سقراط أمام جمع المحلفين.

ولعلك تذكرين يا صوفيا أن سقراط لم يكتب شيئاً هو نفسه، على عكس كثير من الفلاسفة السابقين عليه الذين كتبوا ودونوا. ولئن كانت معظم مؤلفات هؤلاء

الفلاسفة قد فقدت للأسف، فمن المعتقد أن أهم أعمال أفلاطون قد حفظت (ترك أفلاطون، علاوة على *دفاع سقراط*، رسائل عديدة ونحو ثلاثين محاورة فلسفية). ومن المؤكد أن مما ساعد على حفظ مؤلفاته أنه أنشأ مدرسة فلسفية خاصة به خارج اثينا، في حدائق تحمل اسم بطل يوناني يدعى أكاديموس فعرفت باسم «*الأكاديمية*». (وبسبب هذه الصدفة البحتة أي انشاء الأكاديمية في حدائق أكاديموس دخل لفظ «الأكاديمية» لغات عديدة وانشئت في العالم أجمع أكاديميات [مجامع علمية] لا حصر لها، كما شاع اللفظ على ألسنتنا، فنحن نتحدث عن الشخصيات «الأكاديمية» فنقصد الشخصيات الجامعية والعلمية ونتكلم عن الموضوعات «الأكاديمية» فنعني الموضوعات النظرية أو البحوث العلمية).

وفي أكاديمية أفلاطون، كانت تدرس الفلسفة والرياضيات والرياضة البدنية، برغم أن كلمة «تدرس» لا تصور طريقة التعليم فيها تصويراً دقيقاً. فأهم أدوات التعليم في الأكاديمية كانت المناقشات الحية التي تتجابه فيها الأفكار وتتصارع. ولذا ليس من قبيل الصدفة أن تكون معظم كتابات أفلاطون قد اتخذت شكل المحاورات.

الحق والخير والجمال

لعلك تذكرين يا صوفيا اني قلت لك في بداية هذه الدروس ان التساؤل عن مشروع كل فيلسوف أمر لا يخلو من فائدة. فماذا كانت إذن المسائل التي اهتم بها أفلاطون؟

يمكننا أن نقول اجمالاً إن أفلاطون كان يهتم بمعرفة العلاقات بين ما هو أبدي وثابت من جهة وما هو «متغير« باستمرار من جهة أخرى. (على غرار الفلاسفة السابقين على سقراط اذن !).

لقد قلنا إن السوفسطائيين وسقراط انصرفوا عن مشكلات فلسفة الطبيعة ليلتفتوا إلى قضايا الانسان والمجتمع. إلا اننا لن نجافي الصواب إن أكدنا أيضاً أن سقراط والسوفسطائيين قد اهتموا كذلك بالعلاقة بين الأبدي والزائل، ولكنهم اهتموا بها بطريقتهم الخاصة، أي لدى بحث الأخلاق الانسانية ومكانة المثل العليا أو الفضائل في المجتمع. وإن شئنا التبسيط لقلنا إن السوفسطائيين كانوا يرون أن

مفهومي الخير والشر مفهومان نسبيان يمكن أن يتغيرا بتغير الزمان والمكان. وبالتالي، فان الخير والشر يتغيران ويتحولان ولا ينطويان على قاعدة ثابتة مطلقة. وهذا هو بالتحديد ما لم يسع سقراط قبوله. فقد كان مقتنعا بأن هناك بعض القواعد الأبدية التي تحدد الخير والشر، وبأن في استطاعة الناس كافة أن يتوصلوا إلى تلك القواعد الثابتة إن هم استخدموا عقلهم. إذ إن العقل يتصف تحديداً بطابع أبدي وثابت، ومن ثم فان لديه القدرة على إدراك ما هو أبدي وثابت.

ثم جاء دور أفلاطون، فاهتم بما هو أبدي وثابت في الطبيعة على غرار فلاسفة الطبيعة، كما اهتم بما هو أبدي وثابت في الأخلاق والحياة الاجتماعية أسوة بسقراط. فقد كان أفلاطون يعتبر هاتين المسألتين مظهرين لنفس الحقيقة الواحدة، وحاول أن يستشف وراء هذه الحقيقة «واقعا» يتصف بالأبدية والثبات في آن واحد. ولنعترف بأن هذه هي بالضبط مهمة الفلاسفة. فهم ليسوا هنا لينتخبوا ملكة جمال العالم أو ليدلونا من أين نشتري الطماطم اليوم بأرخص الأسعار. (وربما لهذا السبب لا يصغي إليهم الناس إلا قليلاً!). إن الفلاسفة يحاولون أن يغضوا الطرف عن هذا النوع من الأسئلة التي يرى البعض أنها من «قضايا الساعة الخطيرة». وأن يبحثوا على العكس، عن صفات «الحق الأبدي» و«الخير الأبدي» و«الجمال الأبدي».

ربما استطعنا بذلك أن نتبين على الأقل الملامح العامة للمشروع الفلسفي لأفلاطون. ولنشرع الآن في دراسة كل جانب من جوانب هذا المشروع على حدة. فنحن نحاول أن نفهم عقلا فريداً ترك أثراً عميقا في الفلسفة الاوروبية كلها.

عالم المثل

كان أبادوقليس وديموقريطس قد أوضحا أنه لئن كان التغير المتصل يسري على جميع الظواهر الطبيعية فان هناك شيئاً جوهريا لا يتغير أبداً أو يتحول («العناصر الأربعة» أو «الذرات»). وقد وافق أفلاطون على هذه الفكرة ولكنه أعطاها مدلولاً مختلفاً كل الاختلاف.

إذ يرى أفلاطون أن كل ما هو ملموس في الطبيعة معرض للتغير. ليست هناك اذن، في رأيه، أي مادة غير قابلة للتحلل (سواء كانت ذرات أو عنصرا من العناصر

الأربعة). ان كل الأشياء في «العالم المادي» هي من جهة مؤلفة من مادة تنحل وتفنى مهما طال بها الزمن أو قصر، ولكنها من جهة أخرى مصنوعة وفقاً «لقالب» أو «نموذج» لا يتأثر بمضي الزمن إذ إنه أبدي وثابت.

هل فطنت الآن يا صوفيا لم سألك أفلاطون عن الكعكات المتماثلة والجياد المتشابهة؟ عظيم...

لم تتماثل كل الخيول يا صوفيا؟ ربما قلت إن هذا غير صحيح. لكنك ستتفقين معي أن بينها كلها شيئاً مشتركاً هو الذي يتيح لنا أن نستدل عليها بطريقة لا يتسرب اليها الخطأ. إن كل حصان على حدة يتغير بمضي الزمن فيمر بدورة تطور تقوده من الميلاد إلى الفناء والموت، أما «قالب» أو «نموذج» الحصان فإنه يظل أبديا وثابتا.

إن ما يعد أبديا وثابتا عند أفلاطون ليس «مادة أولية» فيزيائية (كالعناصر الأربعة أو الذرات) بل نماذج أو قوالب ذات طابع روحي ومجرد، صنعت وفقاً لها كل الأشياء.

وسأحاول أن أوضح هذه الفكرة بطريقة أخرى: لقد قدم الفلاسفة السابقون على سقراط تفسيرا معقولا للتغيرات التي تحدث في الطبيعة إذ قالوا ان هذه التغيرات تتوقف عند مستوى معين وإنها لا تمتد بالتالي إلى العناصر الأساسية التي تتكون منها الأشياء. إلى هنا ليس لدينا اعتراض يا صوفيا! ولكنهم لم يقدموا أي تفسير معقول يجعلنا نفهم كيف استطاعت هذه «الجسيمات الدقيقة» التي كانت ذات يوم العناصر البنائية التي شكلت حصاناً ما، أن تتلاقى فجأة ربما بعد انقضاء أربعة أو خمسة قرون لتشكل حصاناً جديداً تماماً، أو لتؤلف فيلاً أو تمساحاً؟ إن ما يرمي أفلاطون إليه بسؤاله، هو أن ذرات ديموقريطس ربما كونت حقاً حصاناً أو فيلاً أو تمساحاً لكنها لن تكو ن لا «تمسافيلاً»، ولا «فيلمساحاً». إن هذه العناصر البنائية لا تلتقي اذن صدفة واعتباطا بل وفقاً لتصميم أو نموذج معين. تلك كانت نقطة الانطلاق في تفكير أفلاطون.

إذا كنت قد فهمت تلك الفكرة يا صوفيا يمكنك أن تتجاوزي هذه الفقرة إلى ما بعدها. ولكنني سآخذ بالأحوط وأشرح المسألة من جديد بطريقة أخرى: لنفرض أن لديك بعض قطع اللوجو وانك كو نت منها حصاناً. ثم فككت الحصان

ووضعت القطع في العلبة. فلن يكفي بعد ذلك أن ترجي العلبة لتكوين حصان جديد. فيكف تستطيع قطع اللوجو وحدها أن تفعل ذلك؟ كلاً، سيتعين عليك أنت يا صوفيا أن تكو ني الحصان من جديد. فان نجحت في بنائه فذلك لأن لديك صورة عن المظهر الخارجي للحصان. إذن هذا الحصان المبني من قطع اللوجو يصمم وفقاً لنموذج يظل ثابتا من حصان لآخر.

وبالمناسبة، هل تمكنتِ من حل مسألة الكعكات الخمسين المتماثلة تماماً؟ لنتخيل أنك من سكان كوكب آخر وأنك هبطت من السماء إلى الأرض، وأنك لا تعرفين بالطبع أي شيء عن محلات الحلوى. ثم إذا بك تبصرين بالصدفة محل حلوى لأول مرة في حياتك، يجذبك منظره فتدلفين إليه مدفوعة بحب الاستطلاع. وعندئذ يلفت نظرك مشهد عجيب: فقد رصت على أحد الرفوف خمسون كعكة على هيئة عرائس متماثلة.

وإني أتخيل أن الحيرة ستتملكك بطبيعة الحال وتتساءلين كيف أمكن أن تتماثل كلها بهذه الدرجة من الدقة. قد تجدين يداً تنقص من هذه العروسة، أو جزءا من الرأس ينقص من عروسة أخرى، أو تجويفا صغيرا في بطن عروسة ثالثة، ولكنك ستسلمين بعد تفكير عميق بأن هناك قاسما مشتركاً يجمع بينها. فحتى لو لم تكن أي منها كاملة مكتملة فسوف تخمنين أن لها أصلاً واحداً. وسرعان ما تدركين أن هذه العرائس قد صنعت كلها بقالب واحد. وربما راودتك عندئذ رغبة قوية في رؤية هذا القالب ونفسك تحدثك بأنه سيكون أكثر كمالاً وبالتالي أكثر جمالا من كل النسخ الشاحبة التي صنعت على مثاله.

إن كنت قد نجحت في حل هذا الواجب بمفردك، تكونين قد حللت في الواقع احدى المشكلات الفلسفية بطريقة أفلاطون نفسها تماماً. فأفلاطون، مثل معظم الفلاسفة، «هبط من السماء» (وجلس على طرف شعيرة من فراء الأرنب) فانتابته الدهشة لما رأى كثرة أشكال التماثل بين الظواهر الطبيعية، فاستنتج من ذلك أن هناك حتما عددا محدودا من القوالب هي التي تكمن «فوق» أو «وراء» كل الأشياء المحيطة بنا. وأطلق أفلاطون على هذه القوالب اسم «المثل« (أي النماذج). فوراء كل الخيول، والأفيال، والناس، يكمن «مثال الحصان» و «مثال الفيل» و «مثال الإنسان». (وقد نجد بمحل الحلوى الذي تحدثنا عنه كعكاً مشكلاً على هيئة عرائس أو خيول أو أفيال، لأن أي محل حلوى محترم تكون لديه قوالب متنوعة لتشكيل

الكعك بأشكال متعددة أي مثلا على هيئة عرائس وخيول وأفيال... ولكن يكفي أن يكون لديه قالب واحد لكل نوع من الكعك).

وانتهى أفلاطون إلى أن هناك واقعا آخر يكمن وراء العالم المادي الذي تدركه الحواس. وهذا الواقع كان يسميه عالم المثل. وفي هذا العالم توجد «القوالب» الأبدية والثابتة التي هي أصل شتى الظواهر الموجودة في الطبيعة. وهذا المفهوم المبتكر كل الابتكار يشكل نظرية المثل (أو النماذج، أو الصور، أو الأفكار العامة المجردة).

المعرفة اليقينية

أنا واثق أنك تتابعيني حتى الآن يا صوفيا، إلا انك ربما تساءلت إن كان أفلاطون جاداً حقاً فيما يقول. أكان يؤمن حقاً بأن قوالب من هذا النوع توجد فعلاً في واقع آخر مختلف تماماً؟

لعله لم يؤمن بذلك حرفيا طول حياته، ولكن من المؤكد أن هذا هو التصور الذي أراد أفلاطون أن نفسر في ضوئه بعض محاوراته. ولنحاول أن نتتبع منهجه في التفكير.

يسعى الفيلسوف، كما رأينا، إلى اكتشاف ما هو أبدي وثابت. فليس من المفيد مثلا كتابة بحث فلسفي عن فقاعة صابون معينة. وذلك لسبب بسيط هو أننا ما إن نهم بدراستها حتى تكون قد انفقعت بالفعل؛ ثم من سيكبد نفسه مشقة شراء بحث فلسفي عن شيء لم تقع عليه عين أخرى ولم يستمر وجوده كله سوى ثوان خمس؟

إن أفلاطون يرى أن كل ما نبصره حولنا في الطبيعة يمكن تشبيهه بفقاعة صابون. فلا يوجد في العالم الذي تدركه الحواس شيء يدوم. ولست بمطلعك على شيء تجهلينه إن قلت لك إن كل البشر والحيوانات صائرون إن عاجلاً أو آجلاً إلى الموت والفناء. وحتى كتلة الرخام الصلد تتغير وتتآكل هي ذاتها تآكلاً بطيئاً. (لقد انتهى الأكروبول إلى أنقاض يا صوفيا! يا للأسف! ولكن هذي حال الدنيا). من المستحيل اذن، في رأي أفلاطون، امتلاك معرفة يقينية عن شيء يتغير تغيرا متصلاً. وأقصى ما نطمح إليه إزاء العالم المتغير الذي ندركه بحواسنا هو أن نجازف بطرح بعض الفروض غير المؤكدة. أما المعرفة اليقينية فلا يمكن أن ندركها إلا بعقولنا.

يخيل الي أن هذه النقطة قد تكون غامضة بعض الشيء، وأنك قد تطالبين بمزيد من الشرح. فمهلا يا صوفيا، دعيني أشرح لك ما أعنيه بهذا المثل: قد يؤدي عيب في العجينة أو الخميرة أو طريقة الخبز إلى إخفاق صنع إحدى عرائس الحلوى فتخرج مسخاً شائهاً ويكون الشاطر حقاً هو من ينجح في تخمين الصورة التي كان يفترض أن تمثلها هذه الكعكة. ولكن بعد أن أرى عشرين أو ثلاثين عروسة متماثلة، متقنة الصنع والتصوير، سأعرف عن يقين ما هو شكل القالب حتى وإن لم أكن قد رأيته قط. بل قد لا يقتضي الأمر أن يرى الانسان القالب رأى العين. إذ أنى للانسان أن يركن إلى حواسه والقدرة على الابصار تختلف هي نفسها من شخص لآخر؟ إلا اننا نستطيع أن نثق، في المقابل، بعقلنا لأن العقل واحد عند البشر جميعاً. وقد استنتجت شكل القالب بقوة عقلي في هذه الحالة، برغم أني لم أر القالب رأي العين.

إذا كنت تجلسين في الفصل مع ثلاثين تلميذاً، وسألكمُ المدرس عن أجمل ألوان قوس قزح، فمن المؤكد أنه سيحصل على اجابات متباينة أشد التباين. ولكنه إذا سأل عن حاصل ضرب ثلاثة في ثمانية فان الفصل كله سيجيب بالطبع اجابة واحدة (هذا ما أرجوه على الأقل !). فالعقل هو الذي يصدر حكمه في هذه الحالة. والعقل يتعارض تعارضاً جذرياً مع الشعور والإدراك الحسي. ويمكننا أن نؤكد أن العقل أبدي وكلي، وذلك على وجه التحديد لأن العقل لا يعبر إلا عن العلاقات الأبدية والكلية.

وقد اهتم أفلاطون بالرياضيات اهتماماً جما. وذلك ببساطة لأن العلاقات الرياضية لا تتغير أبداً. ولذا يمكننا أن نزعم أننا نملك معرفة يقينية عن تلك العلاقات. ولنأخذ المثال التالي: إذا فرضنا أنك وجدت تفاحة في الخارج. ربما كان لديك «انطباع» بأنها مستديرة تماماً، في حين أن صديقتك نورا قد تزعم أنها منبعجة قليلاً من أحد الجوانب. (وقد تبدآن في الشجار !) إذ إنكما لاتستطيعان استخلاص معرفة يقينية مما تراه عيونكما. ولكنكما تستطيعان، في المقابل، أن تؤكدا بكل ثقة أن مجموع زوايا الدائرة يساوي ٣٦٠ درجة. فأنتما تتكلمان في هذه الحالة عن دائرة نموذجية قد لا تكون موجودة في الطبيعة، إلا أنكما تستطيعان تخيل صورتها بكل دقة ووضوح (أنتما تتحدثان الآن عن قالب عرائس الكعك لا عن عروسة ما موجودة في المطبخ).

كيما أوجز حديثنا أقول: إن حواسنا لا تزودنا إلا بتصورات غير دقيقة. ولكننا نستطيع أن نملك معرفة يقينية عن الأشـياء الـتي ندركهـا بعقولنـا. ان مجمـوع زوايـا المثلث سيظل إلى الأبد مساويا ١٨٠ درجة. وبـالمثل، فـان «مثـال الحصـان» سـيظل أيضاً واقفا على أربـع أرجـل، حتـى لـو أصبحـت كـل الخيـول الـتي تنتمـي إلى عـالم الحواس خيولا عرجاء.

روح خالدة

لقد رأينا كيف قسم أفلاطون الواقع إلى جزأين.

الجزء الأول هو *العالم المدرك بالحواس*، ونملك عنه معرفة تقريبية وناقصة لأننا نستخلصها بواسطة حواسنا الخمس، وهي بحكـم طبيعتهـا حـواس تقريبيـة وناقصـة. وعالم الحواس هذا يخضع «للتغير المتصل» وليس به شيء دائم يصمـد لتيـار التحـول الدافق؛ فلا يولد شيء ليظل باقيا إلى الأبد، هناك فقط أشياء تولد وتختفي.

أما الجزء الثاني فهو *عـالم المثـل* الـذي نسـتطيع أن نملـك عنـه معرفـة يقينيـة، بفضل استخدام عقولنا. وعالم المثل هذا نعجـز عـن ادراكـه بـالحواس، لأن المثـل (أو النماذج) أبدية وثابتة.

ويرى أفلاطون أن الانسان مكون بدوره من جزأين: فان لدينـا جسـدا خاضعـاً للتغير ومرتبطاً ارتباطاً لا ينفصم بعالم الحواس ويسري عليه نفس المصير الذي يسري على جميع ما في الأرض (كفقاعة الصابون مثـلا). وحواسـنا جميعـاً مرتبطـة بالجسـد وبالتالي لا يمكن أن نثق بسلامة مدركاتها ثقة كبيرة. لكننا نملك أيضاً *روحاً* خـالدة هي موطن العقل. ولما كانت هذه الروح غـير ماديـة فـان في مقدورهـا أن تـرى عـالم المثل.

لقد قلت لك كل شيء تقريبا يا صوفيا. غير أن هناك شيئاً آخر بـالغ الأهميـة: فأفلاطون يعتقد أن الروح كـانت موجـودة قبـل أن تـأتي لتسـكن الجسـد. فـالروح تعيش من قديم في عالم المثل. (كانت قابعة على أحد الرفوف بخزانة قوالب الكعك). إلا أنها ما إن تحل في جسد إنسان حتى تنسـى تلـك المثـل المتصفـة بـأقصى درجـات الكمال. وتحدث عندئذ عملية غريبة: فكلما أخذ الإنسان يدرك، من خلال حواسه،

مختلف الأشياء المحيطة به انبثقت لها في الروح ذكرى غامضة. يرى الإنسان حصاناً، ولكنه حصان يعوزه الكمال (بل حتى حصان من الحلوى !)، فتكفي هذه الرؤية لتوقظ ذكرى مبهمة «للحصان» الأكمل الذي رأته الروح من قبل في عالم المثل. ومن هنا ينشأ حنين الروح للعودة إلى مستقرها الحقيقي القديم في عالم المثل. ويسمي أفلاطون هذا الحنين «أيروس» أو المحبة. فالروح تتوق لأن تطير على أجنحة المحبة حتى مستقرها في عالم المثل متحررة من «سجن الجسد»، لأنها ترى أن الجسد وكل ما يرتبط بالحواس ناقص شاحب.

وأود أن أؤكد من فوري يا صوفيا أن أفلاطون يصف هنا مسيرة حياة نموذجية مثلى هي مسيرة الفيلسوف، بل ان فلسفته كلها يمكن اعتبارها وصفا لطبيعة الممارسة الفلسفية. إلا أن عامة البشر لا يتركون كلهم الروح تتحرر بسهولة من عالم الحس لتعود إلى عالم المثل، بل على العكس! فمعظم الناس يتشبثون «بظلال المثل» التي يدركونها في عالم الحواس. إنهم يبصرون حصاناً ثم حصاناً آخر. لكنهم لا يبصرون الأصل الكامن وراء كل نسخة شاحبة. (انهم يندفعون إلى المطبخ ويتكالبون على قطع الكعك دون أن يهتموا كثيراً من أين جاءت).

عندما تبصرين ظلا يا صوفيا تستنتجين إن شيئاً ما يلقي بهذا الظل. فان كنت تحت ظل حيوان مثلا فقد تحسبينه ظل حصان ولكنك لست منه على يقين. وعند ذاك تستديرين فترين حصاناً حقيقيا أجمل من «حصان الظل» وأبهى وقد انحسر عنه غموض الظل فتجلى ظاهرالرسم واضح المعالم. *إن أفلاطون كان يعتقد أن ظواهر الطبيعة كلها ليست إلا ظلالا لنماذج أو لصور أو لمثل أبدية*. ومع ذلك فلا مفر من التسليم بأن معظم الناس راضون بالعيش وسط الظلال دون أن يتساءلوا من أين جاءت وما الذي يلقي بها. إنهم يعتقدون أن هذه الظلال هي الواقع الوحيد ولا يفطنون مطلقا إلى أنها مجرد انعكاسات، وهم بذلك لا يولون أي اهتمام للطابع الخالد لأرواحهم.

الطريق للخروج من ظلمة الكهف

ويحكي أفلاطون قصة رمزية توضح تماماً ما أقصده: انها قصة الكهف التي سأرويها لك بألفاظي أنا.

تخيلي أناساً عاشوا منذ نعومة أظافرهم في كهف مظلم وقد قيدت أطرافهم واجلسوا إزاء جدار ماثل في أعماق الكهف لا يملكون التفاتا ولا قياما فلا يتاح لهم سوى النظر إلى الجدار المواجه لهم.

ثم تخيلي أننا وضعنا وراءهم حاجزا أشبه بالحاجز المستخدم في مسرح العرائس وأخذنا نحرك من خلف الحاجز عرائس مختلفة الأشكال.

ثم تخيلي أننا أشعلنا وراء الحاجز نارا. وبالتالي فان ضوء النار سيلقي بظلال تلك العرائس على الجدار الماثل في أعماق الكهف أمام «المتفرجين». وعليه، فان كل ما يستطيع أهل الكهف رؤيته هو «مسرح الظل» ذاك. ولما كانوا ساكنين لم يتحركوا من مقعدهم هذا منذ تفتحت أبصارهم فانهم يظنون بطبيعة الحال أن تلك الظلال هي الواقع الوحيد في العالم.

تخيلي الآن أن واحداً من أهل الكهف نجح أخيراً في أن يتخلص من أغلاله. من المؤكد أن أول ما سيتساءل عنه في البداية هو من أين تأتي كل هذه الأطياف المتحركة على حائط الكهف. ماذا سيحدث في رأيك يا صوفيا عندما يكتشف العرائس أو الأشكال التي تتجاوز الحاجز؟ لا بد أنه سينبهر في البداية بالضوء الساطع القوي المنبعث عن النار ولكنه سينبهر أيضاً بوضوح تلك الأشكال (العرائس) لأنه لم ير حتى الآن إلا ظلالها. ولو افترضنا انه نجح في تجاوز هذا الحاجز ثم في تخطي النار وخرج من الكهف فوجد نفسه في الهواء الطلق، فمن المحقق أن انبهاره سيشتد ويتعاظم. ولكنه بعد أن يفرك عينيه جيداً سيذهل لجمال كل الأشياء المحيطة به. إذ سيبصر للمرة الاولى ألواناً وأشكالاً واضحة جلية. وسيرى رأى العين الحيوانات والزهور التي لم تكن ظلال الكهف سوى صور شاحبة باهتة لها. وسيتساءل من أين تأتي كل هذه الحيوانات وجميع تلك الزهور. وعند ذاك سيدرك إذ يبصر الشمس أنها هي التي تتيح للزهور والحيوانات أن تحيا فوق الأرض، مثلما كانت النار في الكهف تتيح رؤية الظلال.

ولكن ما إن يمضي ساكن الكهف سعيد الحظ منطلقا في الطبيعة ناعما بحريته المستعادة حتى يفكر فيمن لا يزالون رهناء الكهف فيقرر العودة اليهم. وما يكاد يهبط في ظلمة الكهف حتى يشرع في اقناع الآخرين بأن ما يتبدى لهم على الحائط ليس سوى ظلال متحركة لأشياء «حقيقية» فعلاً. ولكن من ذا يصدقه. فها هم

يشيرون إلى الحائط مؤكدين ان الواقع الوحيد هو ما يرونه أمامهم، وينتهي بهم الأمر إلى الإجهاز عليه.

إن ما يصفه أفلاطون من خلال حكاية الكهف هو مسيرة الفيلسوف الذي ينتقل من الظلال الشاحبة أو من المحسوسات التي يعتريها النقص أو القصور إلى المثل الحقيقية الكامنة وراء كل الظواهر الطبيعية. ومن المؤكد انه كان يفكر في سقراط الذي قتله «أهل الكهف» لأنه آثار الاضطراب في تصوراتهم التقليدية وأظهر لهم طريق الرؤية الباطنية الحقيقية بحضه إياهم على استخدام عقولهم. وقد أصبح تشبيه الكهف تصويراً لشجاعة الفيلسوف وإحساسه بمسؤوليته التربوية.

ويريد أفلاطون من خلال قصة الكهف، أن يوضح أن العلاقة بين ظلمة الكهف والطبيعة خارجه تشبه العلاقة بين الأشكال الموجودة في الطبيعة وبين عالم المثل. إنه لا يعني بذلك أن الطبيعة قاتمة كئيبة بل يعني أنها قاتمة كئيبة بالقياس إلى وضوح وضياء عالم المثل. ان صورة فتاة جميلة ليست بدورها قاتمة أو كئيبة، على العكس. إلا أنها ليست في نهاية الأمر سوى ظل لكائن أبهى وأروع.

جمهورية يحكمها الفلاسفة

أورد أفلاطون حكاية الكهف في محاورة *«الجمهورية»*، وهي محاورة يصف فيها صورة «الدولة المثلى»، أي الدولة النموذجية أو «الفاضلة» (ونحن قد نصفها اليوم بالدولة «الطوباوية» أي الخيالية). ولنقل على سبيل الايجاز إن أفلاطون يدعو إلى جمهورية يحكمها الفلاسفة، وكي يشرح أفلاطون تصوره لهذه الدولة يستعير صورة جسم الانسان بأعضائه ووظائفه المختلفة. فهو يعتبر أن جسم الانسان ينقسم إلى ثلاثة أجزاء هي: الرأس والصدر والبطن. وكل جزء من هذه الأجزاء تناظره أيضاً صفة من صفات الروح. فالرأس هو مكان العقل، والصدر محل الارادة والبطن هو موضع الرغبات أو الشهوات. وكل صفة من صفات الروح الثلاث هذه يناظرها كذلك مثل أعلى أو «فضيلة». فالعقل يجب أن يتمثل هدفه في بلوغ الحكمة، والارادة يجب أن تبرهن على التحلي بالشجاعة، أما الرغبات فيجب كبح جماحها بلوغا للاعتدال. وعندما تعمل هذه الأجزاء في انسجام لتشكل كلاً متناسقاً نكون

ازاء رجل سوي متوازن أو «فاضل». وفي المدرسة يجب أن يتعلم الأطفال أولاً ضبط الرغبات، ثم تنمية صفات الشجاعة والإقدام، ثم الاستعانة بالعقل لبلوغ الحكمة.

وانطلاقا من هذا الأساس يتصور أفلاطون دولة تبنى على نسق جسم الانسان بأجزائه الثلاثة. فالدولة لديها، على غرار الجسم ذي الرأس والصدر والبطن، حكام، ومحاربون (أو جنود)، وصناع (كالفلاحين مثلا). ومن الواضح أن أفلاطون متأثر هنا بالطب اليوناني الذي يرى الصحة تعبيراً عن التوازن والانسجام بين العقل والجسم، إذ إن فضيلة المدينة المثلى تقوم على التوازن بين الأدوار المحددة لكل فرد لتشكيل كل متناسق.

ويتجلى في فلسفة أفلاطون السياسية الطابع العقلاني الذي يميز فلسفته كلها. فالأمر الجوهري لقيام الدولة الفاضلة هو أن يحكمها العقل. فكما أن الرأس يحكم سائر الجسد فان الفلاسفة هم من يجب أن يحكموا المجتمع.

ولنضع جدولا مبسطا يصور العلاقة بين أجزاء الجسم الثلاثة والمدينة:

الجسم	*الروح*	*الفضيلة*	*المدينة*
الرأس	العقل	الحكمة	الحكام
الصدر	الإرادة	الشجاعة	المحاربون
البطن	الرغبة	الاعتدال	الصناع

وربما ذكرتنا مدينة أفلاطون الفاضلة بنظام هندي عتيق هو نظام «الطبقات المقفلة» الذي يسند لكل فرد وظيفة محددة يؤديها لصالح المجموع. وحتى قبل عصر أفلاطون كان نظام الطبقات المقفلة مطبقاً في الهند وكان يقوم على تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات أيضاً هي طبقة الحكام (الكهنة)، وطبقة المحاربين، ثم طبقة الصناع.

وربما ملنا اليوم إلى وصف المدينة التي كان يحلم بها أفلاطون بأنها دولة استبدادية. ولكن من المفيد أن نلاحظ أنه كان يعتقد أن النساء بوسعهن أن يحكمن تلك الدولة بنفس كفاءة الرجال، لسبب بسيط هو أن الزعماء يجب أن يحكموا الدولة مستندين إلى قوة عقولهم. وكان أفلاطون يرى أن النساء يتمتعن بنفس قدرة الرجال على التفكير إن حصلن على نفس التعليم وإن لم تقتصر وظيفتهن على رعاية

الأطفال وأداء الأعمال المنزلية. وكان أفلاطون يريد إلغـاء العائلـة والملكيـة الخاصـة بالنسبة لطبقتي الحكام والمحاربين في مدينته المثلى. ذلك أن تربية الأطفال مهمة أخطر من أن تترك لتقدير كل فرد ولذا يجب أن تصبح من مسؤوليات الدولـة. (وكـان بذلك أول فيلسوف يطالب باقامة رياض للأطفال ومدارس عامة تنظمها الدولة على أساس اليوم الدراسي الكامل).

وبعد أن تعرض أفلاطون لاحباطات شديدة على المستوى السياسي في محاولاتـه لإقامة هذه الجمهورية، كتب مؤلفه المعـروف باسـم «*القوانين*» الـذي وصـف فيـه «دولة القانون» أي الدولة التي يحكمها القانون والتي يرى أنها دولة شبه مثلـى تلـي مباشرة الدولة الفاضلة من حيـث هـي نمـوذج منشـود. وادخـل مـن جديـد في تلـك الدولة الملكية الخاصة والعلاقات العائلية، ولكنه ظل يؤكـد أن الدولـة الـتي لا تعلـم النساء تشبه رجلاً لا يستعمل إلا يداً واحدة.

وربما استطعنا أن نقول إن أفلاطون كان يملك بوجه عـام رؤيـة إيجابيـة للمـرأة، على الأقل اذا حكمنا عليه بمقاييس عصره. ففي محاور «*المأدبة*» يصور سقراط وهو يتلقى بصيرته الفلسفية عن امرأة، هي الكاهنة الأسطورية ديوتيما.

هذه هي قصة أفلاطون يا صوفيـا. ومـا بـرح النـاس منـذ أكـثر مـن ألفـي عـام يناقشون أفكاره المبتكرة وينقدونها. وأول من قام بذلك كان تلميذاً مـن تلاميـذه في الأكاديمية يدعى أرسطو، وهو ثالث أعظم فلاسفة أثينا. ولن أقول لك الآن أكثر من هذا!

بينما كانت صوفيا تجلس على جذع شجرة سميك تقـرأ هـذه الصفحـات عن أفلاطون أخذت الشـمس ترتفـع مـن جهـة الشـرق وراء التـلال المكسـوة بالأشجار. وشاءت صدفة عجيبة أن يظهر قرص الشمس في الأفق وهـي تقـرأ المقطع الذي يخرج فيـه الرجـل مـن الكهـف وعينـاه تطرفـان مـن وهـج النـور الساطع في الخارج.

وراود صوفيا شعور بأنها تخرج هـي ذاتهـا مـن مغـارة مظلمـة. فبعـد أن قرأت ما قاله أفلاطون أحست أن الطبيعة تبدو لها مختلفة تمامـاً. كـأن غشـاوة كانت تكسو عينيها حتى الآن فلم تبصر سوى أطياف وظلال.

ومع ذلك، فان أفلاطون لم يقنعها تماماً بتفسيره عن القوالب، ولكنها وجدت فكرته القائلة ان كل الكائنات الطبيعية التي نراها ما هي إلا صور شاحبة لأشكال أبدية موجودة في عالم المثل فكرة طريفة إجمالاً. أليست الزهور والأشجار والناس والحيوانات كائنات «يعوزها الكمال» بالفعل؟

كل ما يحيط بها كان جميلاً مترعاً بالروعة حياً مفعماً بالحياة. لكن ما تراه لن يدوم. ومع ذلك، فبعد مائة سنة ستنبض هذه الغابة بحيوية نفس الزهور والحيوانات. فحتى لو كان مقضيا على كل زهرة وكل حيوان بالاختفاء والفناء فسيوجد في مكان ما شيء «يتذكر» أشكالها.

تأملت صوفيا الطبيعة من حولها. رأت سنجابا يتسلق شجرة صنوبر متقافزاً سعيداً، يدور عدة مرات حول الساق ثم لا يلبث أن يختفي بين الأغصان.

وفكرت صوفيا: أهذا أنت؟ لقد رأيتك من قبل. كانت تدرك في قرارة نفسها أنه قد لا يكون نفس السنجاب الذي سبق لها رؤيته، إلا انها رأت نفس «الشكل» من قبل. ومن يدري لعل أفلاطون كان محقاً حين قال إنها رأت «السنجاب» الأبدي في عالم المثل، قبل أن تحل روحها في جسد.

أمن الصحيح أنها عاشت من قبل؟ أوجدت روحها قبل أن تصادف جسدا تتجسد فيه؟ أتملك في أعماقها جوهرا ذهبيا لا يؤثر فيه الزمن، روحاً تستمر في الحياة بعد أن يشيخ جسمها ويفنى؟

الفصل العاشر

شاليه الضابط العجوز

... وغمزت الفتاة المطلة من المرآة

بكلتا عينيها معاً في آن واحد...

الوقت ما زال مبكرا، فلم تعجل العودة إلى البيت؟ ان أمها تحب أن تأنس للرقاد في صباح الأحد فلا تستيقظ إلا وقد أخذت كفايتها من النوم. والساعة الآن لا تتجاوز السابعة ولن تصحو أمها قبل ساعة أو ساعتين. فماذا لو اغتنمت فسحة الوقت هذه فتوغلت في الغابة تبحث عن ألبرتو استاذ الفلسفة؟

ثم تذكرت صوفيا أن هرمس أخذ يعوي غاضبا عندما أحس أنها تريد اقتفاء أثره. ولكنها، بدافع من استكشاف المجهول، نهضت حاملة الرسالة التي تتحدث عن أفلاطون ومضت في الطريق الذي غاب فيه هرمس عندما انطلق راكضا. وكلما تشعب أمامها الطريق كانت تسلك الدرب الأعرض والأوسع.

الغابة تضج بتغريد الطيور التي لا تفتأ تصدح في كل مكان على الشجيرات، على الأشجار، في الهواء. لقد كانت في فورة سعيها الصباحي، فهي لا تميز يوم عطلة، كيوم الأحد هذا، عن الأيام الأخرى. لكن من ذا الذي علم الطيور أن تفعل ما هي منطلقة فيه الآن بكل قواها؟ هل يملك كل عصفور منها حاسبا آليا في رأسه يبرمجه ليقوم بأشياء معينة؟

صعد الدرب بها إلى ربوة صغيرة ثم هبط بها في انحدار شديد وسط أشجار الصنوبر السامقة. ثم بدأت تتزايد كثافة الغابة وعتمتها فلم يعد بصر صوفيا يمتد، بين هذه الأشجار المتراصة، لأبعد من أمتار قليلة.

وفجأة لمحت بين جذوع الصنوبر سطحا ينعكس عليه ضوء الصبح. أهي بحيرة وسط الغابة؟ خرجت صوفيا عن الدرب، الذي كان سيتباعد بها عن مصدر الضوء، ومضت تشق طريقها بين الأشجار في اتجاه النور؛ كأن قدميها قد تولتا قيادها فاستسلمت لخطواتها دون أن تعرف سببا لاندفاعها هذا. لقد صدق حدسها، إذ إنفتحت الأشجار عن بحيرة في حجم ملعب لكرة القدم. ورأت صوفيا على الضفة الأخرى شاليها أحمر يتوسط حديقة مسيجة بجذوع أشجار البتولا. وينبعث من مدخنته خيط دخان رفيع.

اجتذبها منظر هذا البيت المنزوي في أعماق الغابة فقررت أن تمضي إليه. هبطت حتى ضفة البحيرة، فوجدت الأرض موحلة في أماكن كثيرة، ولكنها لمحت على حافة البحيرة قاربا صغيرا به مجدافان جذب نصفه خارج الماء.

أخذت تتلفت حولها لكنها سرعان ما أيقنت أن من المستحيل عليها مهما فعلت أن تدور حول البحيرة وتصل إلى الشاليه دون أن يمتلىء حذاؤها ماء ووحلا. الحل الوحيد هو استخدام القارب اذن. اتجهت صوفيا بعزم وإصرار نحو القارب ودفعته في الماء ثم قفزت داخله وأخذت تجدف حتى لمس القارب الضفة الأخرى، وعندئذ قفزت إلى الأرض وجذبت القارب بعيداً عن الماء بقدر ما استطاعت لأن حافة البحيرة كانت في هذه الناحية أشد انحدارا.

استدارت ونظرت حولها ثم صعدت نحو الشاليه وهي مندهشة من جرأتها. كيف تجسر على فعل ما قد تندم عليه؟ لم تدر هي نفسها. إنها تفعل كل هذا كما لو كانت مندفعة إليه بقوة خفية.

اتجهت صوفيا نحو الباب وطرقت عليه. انتظرت برهة، ولكن لم يجب أحد. وعندذاك أدارت المقبض ببطء فانفتح الباب، وصاحت هاتفة:

ـ هل يوجد أحد هنا؟

دخلت صوفيا فوجدت نفسها في بهو فسيح. إلا أنها لم تجرؤ على غلق الباب وراءها.

كان من الواضح أن هناك من يسكن هذا البيت. فقد تناهى إلى سمعها صوت الخشب المشتعل يطقطق في المدفأة القديمة. كل شيء يوحي بأن من يعيشون هنا قد غادروا البيت منذ قليل.

تتوسط البهو مائدة كبيرة، وضعت عليها آلة كاتبة وبضعة كتب وعدة أقلام وكمية كبيرة من الورق. وإزاء النافذة المطلة على البحيرة، صفت منضدة وكرسيان. باستثناء هذا الأثاث كان متاع البيت قليلاً بسيطا. صفوف متراصة من الكتب تغطي جدارا عن آخره. وإزاء جدار آخر وضع صوان أبيض ذو عدة أدراج وعلقت أعلاه مرآة مستديرة كبيرة يحيط بها إطار نحاسي أصفر وتبدو عتيقة شديدة القدم.

وعلى جدار آخر رأت صوفيا لوحتين. الأولى تصور بيتا أبيض يقوم على مقربة من خليج صغير به حظيرة قوارب حمراء، وبين البيت والحظيرة تمتد حديقة تنحدر انحدارا هينا ترى فيها شجرة تفاح وبعض الشجيرات الملتفة الأغصان وصخورا تتناثر هنا وهناك. وكانت تحيط بالحديقة أشجار بتولا متراصة متلاصقة كأنها أكليل. وكان عنوان اللوحة المثبت على الاطار هو: باركلي (أي في حمى البتولا).

وإلى جانب هذه اللوحة، علق بورتريه لرجل عجوز جالس في كرسي كبير واضعا كتابا على ركبتيه. وكنا نلمح هنا أيضاً في خلفية اللوحة خليجا صغيرا وأشجارا وصخورا. وكان يبدو كأنها رسمت منذ عدة قرون. عنوانها كان بيركلي، واسم الفنان الذي رسمها هو سميبرت.

باركلي وبيركلي. ما أغرب هذا !

استمرت صوفيا في تفقد الشاليه. قادها باب من البهو إلى مطبخ صغير. يبدو أن شخصاً قد فرغ توا من غسل الأطباق، اذ كانت الأطباق والأكواب قد رصت على فوطة من الكتان وآثار الماء ما زالت عالقة بها. ورأت صوفيا

على الأرض وعاء به بقايا طعام. لا بد أن من يعيش هنا لديه إذن كلب أو قطة.

عادت صوفيا إلى البهو. كان باب آخر يفضي إلى غرفة نوم صغيرة. قبالة السرير كومت على الأرض بعض الأغطية على هيئة فراش صغير، ولاحظت صوفيا عليه بعض الشعيرات الذهبية. شعيرات ذهبية ! هذا هو الدليل الذي تنتظره! لقد تأكدت الآن أن ألبرتو كنوكس وكلبه هرمس يعيشان هنا!

رجعت صوفيا إلى البهو من جديد ووقفت أمام المرآة المعلقة أعلى الصوان. كان زجاج المرآة كامدا معتما مليئا بالخدوش ولذا كانت صورتها تتراءى في المرآة باهتة شاحبة. أخذت صوفيا تأتي بحركات بوجهها مثل تلك التي تأتيها أحيانا أمام مرآة الحمام في بيتها. وكانت المرآة ترد إليها صورتها وهي تفعل ما تؤديه بالضبط، وهو أمر طبيعي تماماً ليس فيه ما يثير الاستغراب.

ولكن فجأة وقع شيء مخيف: ففي إحدى المرات، ربما في جزء من الثانية، رأت صوفيا بوضوح أن الفتاة المطلة من المرآة تغمز بكلتا عينيها معاً في آن واحد. تراجعت صوفيا مرعوبة مذعورة. فاذا كانت هي قد غمزت حقاً بعينيها الإثنتين، فكيف استطاعت أن ترى الأخرى تغمز بهما معاً في اللحظة ذاتها؟

ولم يكن هذا هو كل شيء: فقد خيل لها أن الفتاة الأخرى المطلة من المرآة تغمز لصوفيا كأنما تريد أن تقول: إني أراك يا صوفيا! اني موجودة هنا في الجهة الأخرى !.

أخذ قلب صوفيا يخفق خفقانا شديداً. ثم سمعت في اللحظة ذاتها نباح كلب آتياً من بعيد. هو هرمس حتما! لا بد أن تفر بأسرع ما يمكن! وفي هذه اللحظة وقعت عيناها على محفظة خضراء موضوعة فوق الصوان تحت المرآة العجيبة. أخذتها صوفيا وفتحتها بحذر. رأت بداخلها ورقة نقد من فئة المائة

كرون وأخرى من فئة الخمسين كرونا... ثم أبصرت بطاقة مدرسية، عليها صورة فتاة شقراء، وأسفل الصورة كتب: **هيلد مولر كناج... مدرسة ليلساند...**

ازداد خوف صوفيا. وتناهى اليها من جديد صوت الكلب وهو يعوي وينبح. لا بد أن تترك الشاليه فوراً.

وبينما هي تمر بجوار المائدة إذ بها تلمح وسط الكتب والأوراق ظرفا أبيض كتب عليه «**صوفيا**».

ودون أن يتاح لها الوقت لتفكر فيما تفعله التقطت الرسالة ودستها في الظرف الأصفر الكبير مع الأوراق التي تتحدث عن أفلاطون واندفعت خارجة من الباب وصفقته وراءها.

كان النباح يقترب منبئا أن ألبرتو وهرمس سيصلان بين لحظة وأخرى. لكن أسوأ ما في الأمر، أن صوفيا لم تر القارب، لقد اختفى! بل ها هو! لقد ابتعد إلى داخل البحيرة وبجانبه مجداف يطفو على سطح الماء. وكل هذا لأنها لم تنجح في جذب القارب بعيداً عن الماء بمسافة كافية. وسمعت مرة أخرى نباح الكلب، بل ولمحت طيفا يتحرك في الجهة الاخرى من البحيرة.

لم يستمر تردد صوفيا. أمسكت بالظرف الأصفر بقوة وقفزت في الأحراش الممتدة وراء الشاليه وسرعان ما تبينت أن الطريق من هذه الجهة مليئة بالأوحال والمستنقعات. فأخذت تركض بصعوبة وقدماها تزلان وتغرزان فيصل الماء إلى منتصف ساقيها. ولكن صوفيا لم يكن أمامها سوى الاستمرار فقد كانت تريد الآن شيئاً واحداً هو أن تعود إلى بيتها بأسرع ما يمكن.

صادفت صوفيا دربا ضيقا. هل هو الممشى الذي جاءت منه قبل قليل؟ وقفت وعصرت ثوبها ثم جعلت تنتحب باكية.

كيف تصرفت بهذه الحماقة؟ إن أسوأ ما في الأمر هو ما حدث للقارب! لم تستطع أن تنسى صورة القارب الشارد والمجداف الطافي على سطح البحيرة، يا له من موقف مخجل مخز.

لا بد أن أستاذ الفلسفة قد وصل الآن إلى البحيرة. انه يحتاج إلى القارب للوصول إلى بيته. أحست صوفيا أنها قد أجرمت في حقه ولكنها لم تكن تقصد ذلك على الاطلاق.

ثم الظرف ! لعل هذا فعل أسوأ وأفظع. لماذا أخذت الظرف؟ لقد أخذته لأن اسمها كان مكتوباً عليه بالطبع، ولذا فهو يخصها بمعنى ما. ولكنها أحست برغم ذلك انها تصرفت مثل سارقة. ناهيك عن أنها قد تركت بهذا العمل دليلا واضحا على أنها هي التي دخلت إلى البيت.

أخرجت صوفيا القصاصة من الظرف فوجدت عليها العبارات التالية:

ماذا يأتي أولاً، الدجاجة أم «فكرة» الدجاجة؟

هل نولد ولدينا «أفكار» فطرية؟

ما هو الفرق بين النبات والحيوان والإنسان؟

لماذا يهطل المطر؟

ما الذي يحتاج اليه الإنسان كي يحيا حياة سعيدة؟

لم تكن صوفيا قادرة بالطبع على التفكير في هذه الأسئلة الآن، إلا أنها استنتجت أن تلك الأسئلة تمهد لدراسة الفيلسوف المقبل. ألم يكن اسمه أرسطو؟

لما رأت صوفيا السياج النباتي بعد أن ظلت تعدو لمسافة هائلة في الغابة أحست كأنما كادت تشرف على الغرق ثم ها هي تصل أخيراً إلى الشاطئ. وما أشد استغرابها لرؤية هذا السياج الحميم من الخارج لأول مرة. تسللت إلى كوخها وعندئذ فقط نظرت في ساعتها. كانت تشير إلى العاشرة

والنصف. وضعت صوفيا الظرف الكبير في العلبة المعدنية مع سائر الأوراق، أما القصاصة التي تحوي الأسئلة الجديدة فقد دستها في قميصها الداخلي.

دفعت باب البيت فرأت أمها تتحدث في التليفون، وما إن لمحتها أمها حتى وضعت السماعة بسرعة وابتدرتها متسائلة بلهفة وانزعاج:

ـ أين كنت يا صوفيا؟

تمتمت متلعثمة:

ـ كنت... أتمشى... في الغابة...

ـ كأنما لا أرى آثار الوحل!

وقفت صوفيا ساكنة تنظر إلى الماء الذي يقطر من ثوبها.

ـ لقد سألت عنك كل أصحابك. حتى نورا لم تكن تعرف اين أنت.

ـ نورا؟

ذهبت أمها لتحضر لها ملابس جافة وساعدتها على إبدال ثيابها. وكادت تكتشف قصاصة الورق التي تحمل أسئلة أستاذ الفلسفة لولا أن صوفيا أسرعت باخفائها. ثم جلستا في المطبخ، فأعدت لها أمها فنجانا من الكاكاو الساخن، وأخذت تتأملها بقلق وحنان ثم سألتها:

ـ هل كنت معه؟

ـ معه؟

ذهب فكر صوفيا إلى أستاذها الفيلسوف.

ـ نعم معه. مع «أرنبك»...

هزت صوفيا رأسها:

ـ لا...

ـ لكن أخبريني يا صوفيا ماذا تفعلان عندما تكونان معاً؟ ولماذا كنت مبتلة بهذا الشكل؟

جعلت صوفيا تنظر إلى المائدة ساهمة شاردة، ولكنها وجدت في قرارة نفسها أن الموقف له جانب هزلي رغم كل شيء. يا لأمي المسكينة، ألهذا السبب تشعرين بالقلق؟

هزت صوفيا رأسها مرة أخرى تريد أن تنفي ظن أمها، إلا أن هذه الايماءة استثارت سيلا جديداً من الأسئلة:

ـ أنا أطلب منك الآن أن تخبريني بالحقيقة. أقضيت ليلة أمس خارج البيت؟ ولماذا غفوت بردائك؟ هل هبطت وتسللت إلى الخارج بمجرد أن ذهبت لأنام؟ أنسيت يا صوفيا إنك لم تتجاوزي الرابعة عشرة؟ أريد أن أعرف من تخالطين ومن تصادقين.

أجهشت صوفيا في البكاء. ثم بدأت تتكلم، كان الخوف ما زال يستبد بها، وعندما يتملكك الخوف تشعر برغبة في الافصاح عن مشاعرك عسى أن يتبدد خوفك ولو قليلاً.

روت لها أنها استيقظت مبكرا وأنها ذهبت لتتنزه في الغابة. وكلمتها أيضاً عن الشاليه وعن القارب وعن المرآة العجيبة. غير أنها لم تذكر شيئاً عن دروس الفلسفة، ولم تنطق حرفا أيضاً عن المحفظة الخضراء. لم تعرف ما الذي دعاها إلى ذلك، ولكنها أحست أن عليها أن تحتفظ بحكاية هيلد لنفسها.

أخذتها أمها في حضنها وجعلت تربت عليها في حدب وحنان. وأدركت صوفيا أن أمها قد صدقتها الآن.

وأخذت تعترف وهي تنتحب:

ـ ليس لي صديق يا أمي. لقد قلت هذا لانك كنت منزعجة لما كنت أرويه عن الأرنب الأبيض.

واستأنفت أمها حديثها وهي مستغرقة في أفكارها:

ـ لقد ذهبت يا صوفيا اذن إلى شاليه الضابط العجوز...

سألتها وهي تبحلق بعينيها في دهشة:

ـ شاليه الضابط العجوز؟

ـ إن البيت الصغير الذي اكتشفتيه في الغابة يعرف باسم «شاليه الضابط العجوز» لأن ضابطا عجوزا كان يعيش فيه من زمن بعيد. كان شخصاً غريب الأطوار، بل يحكى عنه أنه كان مختلا إلى حد ما. ولكن هذا أمر لايهم الآن فالبيت مهجور منذ ردح طويل.

ـ هذا ما تتصورينه يا ماما إنه ليس مهجورا بل يعيش فيه فيلسوف لديه كلب كبير.

ـ اسمعي يا صوفيا، لا تطلقي العنان لخيالك من جديد!

جلست صوفيا بغرفتها تفكر في كل ما حدث لها. كانت رأسها تطن بضجيج أشبه بصخب سيرك في ذروة نشاطه. لا تفتأ تلح على ذهنها صورة القارب الصغير الشارد والمجداف الطافي وسط البحيرة في أعماق الغابة... وشخص يحتاج اليه كي يعود إلى بيته...

كانت تعرف أن أستاذ الفلسفة لن يغضب منها وأنه سيسامحها اذا عرف أنها هي التي دخلت إلى الشاليه. ولكن الذي يحز في نفسها هو أنها أخلت بالاتفاق. هل هذا جزاؤه وهو الذي يحاول أن يعلمها الفلسفة؟ كيف يمكنها أن تستدرك الآن هذه الحماقة؟

أخرجت صوفيا ورق الرسائل الوردي وأخذت تكتب...

عزيزي الفيلسوف،

أنا من دخل الشاليه في صباح الأحد. كنت أريد رؤيتك لأناقش معك بعض الأسئلة التي تثيرها دروس الفلسفة. اني الآن من أشد المعجبين بأفلاطون، إلا أني

لست متأكدة من أنه كان على صواب حين تصور أن المثل أو الأفكار أو الصور النموذجية توجد فعلاً في واقع آخر. ان المثل توجد بطبيعة الحال في أذهاننا، ولكن هذا أمر مختلف تماماً، هذا ما أعتقده حتى الآن على أي حال. ولا بد أن أعترف لك باني لست مقتنعة تماماً بعد بخلود الروح. اني لا أحتفظ من جهتي بأي ذكرى عن حيواتي السابقة. فاذا كنت تستطيع اقناعي بأن زوج جدتي الراحلة تعيش سعيدة في عالم المثل والأفكار سأكون ممتنة لك غاية الامتنان.

والحق انني لم أشرع في كتابة هذه الرسالة (التي سأضعها في ظرف وردي مع قطعة من السكر) لأحدثك في الفلسفة. لقد أردت في الحقيقة أن أطلب منك أن تسامحني لأني خالفت اتفاقنا. لقد حاولت سحب القارب على البر ولكن من الواضح اني لم أكن قوية بما فيه الكفاية. إذ يبدو أن موجة قوية قد جذبته إلى الماء مرة أخرى.

أرجو أن تكون قد تمكنت من العودة إلى البيت دون أن تبتل قدماك. فإن لم تكن قد نجحت في هذا، فاعلم، ان كان في ذلك عزاء لك، أني عدت إلى البيت وقد بلل الماء ثيابي وكسا الوحل حذائي وربما أكون قد أصبت أيضاً ببرد وزكام شديدين، غير أن هذا ليس سوى خطأي أنا على أي حال.

إنني لم ألمس شيئاً في الشاليه، ولكنني أشعر بأسف شديد لأنني لم أستطع أن أقاوم اغواء أخذ الظرف الموضوع على المائدة. لم يكن قصدي سرقة أي شيء، ولكن لما كان اسمي مكتوباً على الظرف فقد توهمت في غمرة ارتباكي أن الظرف يخصني، انني آسفة حقاً وأعدك ألا أخيب ظنك مرة ثانية.

ملاحظة أولى: سأشرع فوراً في تأمل جاد للأسئلة الجديدة.

ملاحظة ثانية: هل المرآة ذات الاطار النحاسي المعلقة أعلى الصوان الأبيض مرآة عادية أو هي مرآة مسحورة؟ اني أسألك هذا السؤال لأني لست معتادة على رؤية صورتي المنعكسة في المرآة تغمز بكلتا العينين معاً في آن واحد.

مع تحيات تلميذتك المخلصة.

صوفيا

قرأت صوفيا الرسالة مرتين قبل أن تضعها داخل الظرف الوردي. إنها على الأقل رسالة أقل تكلفا من الرسالة السابقة التي كتبتها إلى الفيلسوف. وقبل أن تنزل إلى المطبخ لتأخذ قطعة من السكر، أخرجت القصاصة التي تحمل مسائل اليوم.

ما الذي يأتي أولاً: الدجاجة أم «فكرة» الدجاجة؟ كان السؤال يبدو للوهلة الأولى في صعوبة ذاك اللغز القديم الذي يسأل عن البيضة والدجاجة أيهما جاء أولاً. فبغير البيضة لن توجد الدجاجة. وبدون الدجاجة لن توجد البيضة. فهل معرفة ما الذي جاء أولاً إلى العالم الدجاجة أم «فكرة» الدجاجة لغز معقد بنفس القدر؟ لقد فهمت صوفيا ما يرمي اليه أفلاطون. فهو يقول إن مثال الدجاجة (أو فكرة الدجاجة) وجد في عالم المثل (الأفكار) قبل أن توجد أي دجاجة في عالم الحواس. ويرى أفلاطون أن الروح قد «رأت»، قبل أن تحل في الجسد، مثال (فكرة) الدجاجة. ولكن أليست هذه هي بالتحديد النقطة التي لم تقتنع برأي أفلاطون فيها؟ كيف يستطيع إنسان لم ير قط أي دجاجة حقيقية ولا حتى صورة لأي دجاجة أن يكون «فكرة» ما عن الدجاجة؟ وقادها هذا إلى النظر في السؤال التالي:

هل نولد ولدينا «أفكار» فطرية؟ وقالت صوفيا: لا، على الأرجح. فمن الصعب أن نتخيل رضيعا لديه تصورات يمكن أن نسميها أفكارا. ولكننا لانستطيع أن نتأكد بالطبع من صحة هذا الحكم. فلئن كان الطفل لا يمتلك لغة الكلام فان هذا لا يعني حتما أن رأسه خال تماماً من الأفكار. إلا أن هناك أمراً مؤكداً وهو أننا يجب أن نرى أولاً مخلوقات العالم قبل أن نكون أي معرفة عنها، إذ يجب مثلا أن نرى الدجاجة قبل أن نعرف أي شيء عنها.

ما هو الفرق بين النبات والحيوان والانسان؟ تمكنت صوفيا فوراً من ادراك أن هناك فروقاً شديدة الوضوح بينها. فصوفيا تعتقد مثلا أن النبات ليس له أي حياة شعورية. فهل سمعنا عن أشجان زهرة برية؟ ان النبات يكبر وينمو، ويقتات على الغذاء، وينتج بذورا تسمح له بالتكاثر. هذا كل ما تستطيع أن

تقوله عن النبات. ولاحظت صوفيا أن كل ما ينطبق على النبات يصدق أيضاً على الحيوان أو الانسان. إلا أن الحيوان له بالتأكيد صفات أخرى. فهو قادر على الحركة والانتقال (هل رأينا قط شجرة تشترك في سباق الماراثون؟). أما الفرق بين الحيوان والانسان فتحديده أكثر صعوبة. إن الانسان يستطيع التفكير، لكن ألا يستطيع الحيوان أن يفكر بدوره؟ كانت صوفيا مقتنعة بأن قطتها شيريكان تستطيع التفكير. إن كل تصرفاتها توحي على أي حال بأنها تصرفات محسوبة وحذرة. لكن هل تستطيع القطة أن تفكر في مسائل فلسفية؟... هل تفكر القطة في الفرق بين النبات والحيوان والانسان؟ صعب ! قد يبدو على القطة انها سعيدة أو تعيسة، ولكن هل يمكنها أن تتساءل عن وجود الله أو عما اذا كانت تملك روحاً خالدة؟ رأت صوفيا أن ذلك أمر مشكوك فيه جدا. إلا أن علينا أن نتحفظ في هذا الحكم كما تحفظنا في حكمنا بشأن الرضيع والأفكار الفطرية، ما دام من الصعب أن نناقش هذه الأسئلة مع قطة، مثلما هو من الصعب أن نناقشها مع طفل وليد.

لـمَ يهطل المطر؟ هزت صوفيا كتفيها، وقالت هذا سؤال سهل. فالمطر يسقط لأن ماء البحر يتحول إلى بخار ماء، وبخار الماء يتكاثف على هيئة سحب، ثم تتجمع السحب لتعطي المطر. ألم تدرس هذا في السنة الثالثة الابتدائية. إلا اننا نستطيع أيضاً أن نقول لو شئنا إن المطر يهطل كي تستطيع النباتات والحيوانات أن تنمو وتكبر. ولكن أهذا صحيح؟ هل للمطر غاية فعلية يسعى إلى تحقيقها؟

وكان للسؤال الأخير علاقة بالغاية التي يرجوها كل انسان فهو يسأل: **ماالذي يحتاج اليه الانسان كي يحيا حياة سعيدة؟** لقد تحدث استاذ الفلسفة عن هذه المسألة في بداية الدروس. إذ قال إن كل الناس يحتاجون إلى الغذاء والدفء والمحبة والحنان. هذا هو الشرط الأول كي يحيا الانسان حياة سعيدة. ثم أشار إلى أن جميع البشر يحتاجون إلى اجابة عن الأسئلة الفلسفية التي يطرحونها على أنفسهم. ولعل من المهم أيضاً أن يمارس الانسان مهنة يهواها.

فان كنت لا تطيق زحام الشوارع مثلا فالأفضل ألا تعمل سائق تاكسي. واذا كنت تكره السفر فليس من الملائم أن تعمل قائد طائرات. وقالت صوفيا انها تحب الحيوانات وانها تريد أن تصبح طبيبة بيطرية. ان الانسان لا يحتاج اذن لأن يكسب الجائزة الأولى في اليانصيب كي يحيا سعيداً. بل على العكس. أليس هناك مثل يقول: «اليد العطلانة بطالة» (أي اليد ألفارغة من العمل تكثر من فعل الباطل)؟

ظلت صوفيا في غرفتها حتى نادتها أمها لتناول الغداء. لقد أعدت لها أكلتها المفضلة: شريحة لحم مع بطاطس مطهوة في الفرن. أي وليمة! أما الحلو فكان كريمة التوت البري. أقبلتا تأكلان بشهية مفتوحة وتتحدثان في موضوعات متفرقة. وسألتها أمها كيف تريد الاحتفال بعيد ميلادها الخامس عشر الذي لم يتبق عليه سوى أسابيع قلائل.

هزت صوفيا كتفيها، فلم تكن قد فكرت في هذا الامر.

- ألن تدعي أحدا؟ أقصد ألا تريدين إقامة حفل؟

- ربما...

- إننا نستطيع أن ندعو مارتا وآن ماري، وأريانا، ونورا بالطبع. وربما جيرمي أيضاً... ولكنك أنت التي ستقررين كل ذلك بنفسك. أتعرفين يا صوفيا، إني أتذكر حفل عيد ميلادي الخامس عشر بوضوح تام كأنما كان ذلك بالأمس، إنه لا يبدو لي بعيداً كما تتصورين. كنت أشعر آنذاك أني قد أصبحت كبيرة بالفعل. أليس هذا غريبا يا صوفيا؟ في الواقع أنا لا أجد أني قد تغيرت كثيراً من وقتها.

- إنك لم تتغيري يا ماما. لا شيء يتغير. لقد تفتحت فحسب مع تقدم العمر..

- آه...، إنك تتحدثين كأنما تملكين خبرة الكبار! إنني أجد فقط أن العمر قد مر سريعاً، سريعاً جداً...

الفصل الحادي عشر

أرسطو

... عقل أشرب حب النظام

الدقيق يرتب أفكارنا وينسقها...

غفت الأم غفوة القيلولة وذهبت صوفيا إلى كوخها. كانت قد وضعت قطعة سكر في الظرف الوردي وكتبت عليه:

إلى ألبرتو.

لم تجد بالكوخ رسالة جديدة، ولكنها لم تلبث أن سمعت الكلب يقترب. فصاحت صوفيا:

ـ هرمس!

في اللحظة التالية، كان هرمس قد اندفع إلى داخل الكوخ يحمل بين أسنانه ظرفا أصفر كبيرا.

ـ أيها الكلب الحبيب.

أخذت صوفيا تلاطف هرمس الذي كان يلهث لهاثا شديداً. ثم أحاطته بذراعها وأخرجت الظرف الوردي المحتوى على قطعة السكر ووضعته في فمه. غادر هرمس الكوخ مسرعا وانطلق في اتجاه الغابة.

فتحت صوفيا الظرف الكبير وهي مضطربة قليلاً تتساءل هل سيشير فيه ألبرتو إلى الشاليه والقارب؟

كان الظرف يحتوي على الأوراق المعتادة التي يضمها مشبك معدني صغير. ولكنها وجدت به أيضاً قصاصة ورق عليها كلمة قصيرة تقول:

عزيزتي الآنسة المخبرة السرية، أو على الأصح الآنسة أم يد خفيفة.

إن الشرطة قد عرفت بالفعل بأمر السرقة... كلا، أنا لست غاضبـا حقـاً. واذا كنت يا صوفيا مدفوعة بهذا القدر من الفضول في حل ألغاز الفلسفة فـإن مغـامرتك تعتبر مبشرة وواعدة. ولكني مضطر الآن للانتقال من الشـاليه وهـو أمـر مزعـج إلى حد ما، وان كنت لا ألوم عليه إلا نفسي. إذ كان لا بد لي أن أدرك أنك فتاة تريـد المضي دوما إلى قلب الحقيقة.

مع تحياتي الودية

ألبرتو.

تنهدت صوفيا بارتياح. إنه ليس غاضبا على الاطلاق. ولكن لمـاذا ينتقـل من مسكنه إذن؟

أخذت الأوراق الكبيرة وركضـت إلى غرفتهـا. فمـن الأفضـل أن تجدهـا أمها في البيت عند يقظتها من نومها. جلست صوفيا في سريرها وبـدأت تقـرأ عن أرسطو.

فيلسوف ورجل علم

عزيزتي صوفيا. إن كانت نظرية أفلاطون عـن عـالم المثـل قـد أثـارت دهشـتك فتأكدي أنك لست وحدك في ذلك! والواقع اني لا أدري إن كنت قـد أصغـت كـل ما قاله أو إن كان لديك ملاحظـات نقديـة علـى بعـض أفكـاره. فـان كـان مـا قالـه أفلاطون قد أثار لديك بعض الاعتراضات فلا تنزعجي واطمئني فهـي علـى الأرجـح نفس الاعتراضات التي أبداها *أرسطو* **(٣٨٤ ٣٢٢ قبل الميلاد) الذي ظـل تلميـذاً لأفلاطون في الأكاديمية نحوا من عشرين عاما.**

وأرسطو لم يولد في أثينا بل ولـد ونشـأ في مقدونيـا، ولكنـه وفـد إلى الأكاديميـة وعمر أفلاطون آنذاك واحد وستون عاما. وكان والد أرسطو طبيبـا ذائـع الصيـت، فنشأ أرسطو في بيت علم وقد ظهر تأثير هذا الوسط في مشروعه الفلسفي.

فأكثر ما اهتم به أرسطو هو دراسة الطبيعة. واذا كان أرسطو يعد آخر فيلسوف يوناني كبير فانه يعتبر أيضاً أول «عالم أحياء» عظيم في أوروبا.

وإذا أجزنا لأنفسنا أن نبالغ في التبسيط لقلنا إن أفلاطون قد ظل مستغرقا في صوره الأبدية أو «مثله» (أو أفكاره المجردة) إلى درجة جعلته لا يولي أي اهتمام لظواهر الطبيعة وتغيراتها. اما أرسطو فقد اهتم، في المقابل، بهذه الظواهر والتغيرات التي ندعوها اليوم العمليات الطبيعية.

وإذا شئنا أن نواصل هذه المبالغة في التبسيط لقلنا إن أفلاطون قد أدار ظهره للعالم الذي ندركه بالحواس وأغلق عينيه عن كل ما نراه حولنا. (فقد كان يريد أن يخرج من ظلمة الكهف ويستطلع عالم المثل الأبدي!) أما أرسطو فقد فعل العكس تماماً: لقد جثا على أربع وانكب يدرس الضفادع، والأسماك، وزهور البنفسج، وشقائق النعمان.

وما دمنا قد مضينا في التبسيط نستطيع أن نقول كذلك إن أفلاطون لم يستخدم سوى عقله أما أرسطو فقد استخدم حواسه أيضاً.

والاختلافات بين أرسطو وأفلاطون تتجلى أيضاً في أسلوبهما في الكتابة. فأفلاطون كان شاعرا ومبدع أساطير، أما كتابات أرسطو فجافة ودقيقة كمعجم أو موسوعة، وقد استند أرسطو في كثير منها إلى بحوث ميدانية.

وتنسب سجلات العصر القديم إلى أرسطو مائة وسبعين مؤلفا لم يحفظ منها سوى سبعة وأربعين. وهذه المؤلفات ليست كتبا كاملة لأن مصنفات أرسطو تتألف أساسا من مذكرات كان يستعين بها في محاضراته. إذ يجب ألا ننسى أن الفلسفة كانت لا تزال على عهد أرسطو نشاطا شفويا في المقام الأول.

ومن اسهامات أرسطو في الثقافة الأوروبية أنه وضع لعلوم عديدة مصطلحاتها التي ما زال العلماء يستخدمونها حتى اليوم. وليس هذا بالاسهام الهين أو البسيط فقد كان أرسطو هو المنظم والمنسق العظيم الذي أسس ورتب العلوم المختلفة.

لقد كتب أرسطو يا صوفيا في جميع العلوم. ولما كانت حدود مقررنا الفلسفي لا تسمح بتناول كل الميادين التي أبدع فيها، فسأكتفي باستعراض المعالم الرئيسية لانجازاته الفلسفية. ولعل خير بداية نستهل بها دراسة أرسطو هي أن اخبرك، وقد حدثتك عن أفلاطون هذا الحديث الطويل، كيف دحض أرسطو نظرية المثل

الأفلاطونية وفندها. وبعد ذلك سنتناول فلسفة أرسطو في الطبيعة التي صاغها بعد أن استعرض آراء فلاسفة الطبيعة القدماء، وهي آراء لم تصلنا كما تذكرين إلا من خلال تلخيص أرسطو لها. ثم سنرى كيف صنف أرسطو أفكارنا ونسق مفاهيمنا وأسس المنطق كعلم له قواعده وأصوله. وأخيراً، ساحدثك في ايجاز عن رؤية أرسطو للانسان والمجتمع.

ليست هناك أفكار فطرية

كان أفلاطون يريد، على غرار من سبقه من الفلاسفة، أن يستبين وسط كل مظاهر التغير شيئاً أبديا ثابتا لا يتحول أو يتغير. وهكذا ابتدع نظرية المثل (أو الأفكار الكاملة) التي تتسامى فوق العالم المدرك بالحواس. وكان أفلاطون يتصور علاوة على ذلك أن هذه المثل حقيقية أكثر من كل ظواهر الطبيعة. لقد وجد أولاً مثال «الحصان»، ثم جاءت كل خيول عالم الحواس تتهادى كأطياف خيال الظل المتحركة على جدار الكهف. وهكذا فان فكرة الدجاجة جاءت اذن قبل كل الدجاج بل وقبل كل البيض أيضاً.

ووجد أرسطو أن أفلاطون قد طرح المسألة بالمقلوب. لقد سلم مع معلمه بأن جميع خيول عالم الحواس تخضع «للتغير المتصل»، وبأن مصيرها جميعاً هو الموت والفناء. كما سلم معه بأن صورة الحصان تعد ثابتة وأبدية. لكنه قال ان مثال (أو فكرة) الحصان ما هو إلا مفهوم نظري مجرد كو ناه نحن البشر بعد أن رأينا عددا من الخيول. ان مثال أو فكرة أو «صورة» الحصان لا تتمتع بوجود حقيقي مستقل. ان «مثال» الحصان قد شكل، في رأي أرسطو، من محصلة صفات الحصان، أي من صفات ما نسميه اليوم في تصنيف المملكة الحيوانية «نوع» الحصان.

وساحاول أن أكون أكثر وضوحا: عندما يستخدم أرسطو لفظ «صورة» الحصان فهو يعني ما هو مشترك بين كل الخيول. وهنا لا يصدق ولا ينطبق التشبيه الخاص بقالب عرائس الكعك، لأن قوالب الكعك توجد حقاً بمعزل عن عرائس الحلوى. ويرى أرسطو أن هذا النوع من القوالب الفعلية لايوجد مستقراً، اذا جاز التعبير، في الرف الخاص به خارج عالم الطبيعة. ان «الصور» لا توجد، في رأي أرسطو، إلا في الأشياء ذاتها، فصورة أي شيء هي محصلة الصفات الخاصة به.

إن أرسطو لا يتفق اذن مع أفلاطون في أن «مثال» (فكرة) الدجاجة يسبق الدجاجة ذاتها. ان ما يسميه أرسطو «صورة» الدجاجة يوجد في كل دجاجة، بوصفها محصلة الصفات الخاصة بها، كقدرتها مثلا على وضع البيض. أي ان «صورة» الدجاجة لا تنفصل عن الدجاجة الفعلية مثلما لاتنفصل الروح عن الجسم الحي.

هذا هو في الواقع جوهر نقد أرسطو لنظرية أفلاطون. واود أن ألفت نظرك يا صوفيا إلى أننا نشهد هنا لحظة هامة وتحولا مثيراً في تاريخ الفكر. لقد كان أفلاطون يؤكد أن أعلى درجات الواقع هي ما نفكر فيه بعقولنا. ثم جاء أرسطو ليقول إن أعلى درجات الواقع هي ما ندركه بحواسنا. كان أفلاطون يعتقد أن ما نراه حولنا ليس سوى انعكاس لأشياء لها وجودها الفعلي في واقع أسمى هو عالم المثل، ورأى أن ذلك هو ما يفسر وجودها في روح الإنسان. ثم جاء أرسطو بتصور معاكس تماماً فقال إن ما يوجد في ذهن الانسان ليس سوى انعكاس للأشياء الموجودة في الطبيعة. ان الطبيعة، والطبيعة وحدها، هي العالم الحقيقي. ويرى أرسطو أن أفلاطون قد وقع سجينا لرؤية اسطورية للعالم اختلط فيها خيال الإنسان بالعالم الحقيقي.

وأشار أرسطو إلى أن الوعي لا يوجد به شيء لا يكون قد سبق لنا ادراكه بحواسنا أولاً. أما أفلاطون فكان سيقول غالبا إن الطبيعة ليس بها شيء لا يكون قد سبق أن وجد أولاً في عالم المثل. وقال أرسطو إن أفلاطون «يضاعف« بهذه الطريقة عدد الأشياء، فأفلاطون يفسر الحصان باللجوء إلى مثال الحصان. ولكن ما هذا النوع من التفسير يا صوفيا؟ من أين تأتي اذن فكرة الحصان؟

يعتقد أرسطو أن افكارنا وتصوراتنا تنبثق في وعينا من خلال ما نراه ونسمعه. لكننا نتمتع أيضاً بقدرة فطرية على الإدراك والتعقل والتفكير. اننا لانملك أفكارا فطرية، كما يزعم أفلاطون، لكننا نملك قدرة فطرية على تصنيف جميع انطباعات حواسنا ضمن مجموعات وفئات مختلفة. وهذا ما أدى إلى ظهور مفاهيم «الجماد» و «النبات» و «الحيوان» و «الانسان»، مثلما ظهرت مفاهيم «الحصان» و «السمكة» و «طائر الكناري».

وأرسطو لا ينكر مطلقا أن الانسان يولد بعقل فطري، بل على العكس. إن العقل، في رأي أرسطو، هو أهم صفة يمتاز بها الانسان. إلا ان عقلنا يكون خاليا

تماماً قبل أن تبدأ حواسنا في إدراك الأشـياء. وبالتـالي فـان الانسـان لايملـك، في رأي أرسطو، أي أفكار فطرية.

صورة الشيء هي محصلة صفاته

بعد أن حدد أرسطو موقفه من نظرية أفلاطون عن عالم المثل، لاحـظ أن الواقـع يتألف من أشياء مختلفة، وأن كل شيء من هذه الأشياء يشكل وحدة متكاملـة تجمـع بين «*الصورة والمادة*». ان «المادة» هي ما يصنع أو يتكون منه الشيء، في حـين أن «الصورة» هي محصلة صفاته المميزة الخاصة.

تخيلي يا صوفيا دجاجة ترفرف بجناحيها أمامك. ان «صورة» الدجاجة تتمثل في انها ترفرف بجناحيها، وانها تقأقيء وتقرقر، وأنها تضع البيض. نحن نقصـد بـالصورة اذن الصفات الخاصة بالدجاجة، أو بعبـارة أخرى، *ما تفعلـه* الدجاجـة. وعندمـا تموت الدجاجة وتكف عن القوقأة والقرقرة، فان صورتها كدجاجة تكف عندئذ عن الوجود هي أيضاً. ان كل ما سيبقى منها هو «مادة« الدجاجة، ولكنها عندئذ لم تعـد «دجاجة» بالمعنى الدقيق للكلمة.

لقد ذكرت لك من قبل أن أرسطو كان يهتم بالتغيرات التي تحدث في الطبيعـة. وقد فسر أرسطو هذه التغيرات بأن قال إن «المادة» تحتوي أو تنطـوي علـى امكانيـة بلوغ «صورة» محددة. اننا نستطيع أن نقول ان «المـادة» تسـعى إلى تحقيـق امكانيـة فطرية تنطوي عليها. أرسطو يفسر إذن كل تغير يحدث في الطبيعة بأنه تحـول للمـادة من «الممكن» إلى «الفعلي».

مهلا يا صوفيا، سأشرح لك ما أقصده. وربمـا سـاعدتنا هـذه الحكايـة الطريفـة على فهم ما يعنيه أرسطو. يحكى أن نحاتا ماهرا كان مكبا علـى نحـت كتلـة جرانيـت ضخمة. فكان يقضي كل يوم ساعات طويلة يطرق الحجر والحجر لا يلوح له شكل أو معنى. وذات يوم زاره صبي صغير وسأله «عم تبحث داخل هذا الحجر؟» فأجابـه النحات: «انتظر وسوف ترى». ومرت بضعة أيام وعاد الصـبي فـرأى أن المثـال قـد نحت حصاناً رائعا. فاخذ الصبي يحملق في الحصان مذهولا. ثم اسـتدار نحـو النحـات وسأله: «كيف عرفت انه كان مختفيا داخل الحجر؟»».

كيف عرف حقاً يا صوفيا؟ لقد رأى النحات، بمعنى ما، صورة الحصان داخل كتلة الجرانيت. لأن كتلة الجرانيت هذه تنطوي على امكانية أن تنحت على هيئة حصان. وأرسطو يفكر بنفس الطريقة. انه يرى أن كل الأشياء الموجودة في الطبيعة تنطوي على امكانية أن تحقق أو أن تنتج «صورة» معينة.

ولنعد إلى حكاية الدجاجة والبيضة. إن بيضة الدجاجة تنطوي على امكانية أن تنتج دجاجة. وهذا لا يعنى أن جميع بيض الدجاج سيصبح دجاجا بالضرورة، لأن بعض هذا البيض سينتهي على مائدة الافطار على هيئة بيض مقلي أو مسلوق أو مخفوق دون أن تتاح له فرصة أن ينتج «الصورة» الكامنة داخله. ومن البديهي أيضاً، أن بيضة الدجاجة لن تفقس بأي حال من الأحوال اذا فقست وزة أو بطة. لأن تلك الامكانية ليست كامنة في بيضة الدجاجة. ان «صورة» الشيء تدلنا اذن على ما يمكن أن يكونه ولكنها تدلنا أيضاً على حدوده، أي تدلنا على ما لا يمكن أن يكونه.

عندما يتحدث أرسطو عن «صورة» و «مادة» الأشياء، لا يفكر في الكائنات الحية وحدها. فمثلما تنطوي «صورة» الدجاجة على امكانية القوقأة والرفرفة بالجناحين ووضع البيض، فان صورة الحجر تنطوي على امكانية أن يسقط على الأرض إن قذف لأعلى. فالدجاجة لا تستطيع أن تكف عن القوقأة مثلما لا يستطيع الحجر أن يمنع نفسه من السقوط على الأرض. فإن امسكت حجرا وقذفت به فلن تستطيعي أبداً أن تقذفيه حتى يصل إلى القمر، إذ إن من طبيعته ان يسقط إلى الأرض بقوة الجاذبية.

(خذي حذرك إن حاولت اجراء هذه التجربة، فقد يشعر الحجر أنك تريدين منه أن يأتي أمراً مخالفاً لطبيعته فيسعى للانتقام ويعود بسرعة شديدة إلى الأرض، ويا ويل من يجده الحجر عندئذ في طريقه!)

العلة الغائية

والحديث عن مفهوم «الصورة» التي تجسد الهدف الذي تسعى إلى بلوغه القوى الكامنة في الأشياء الحية والجامدة يقودنا إلى الحديث عن نظرة أرسطو إلى العلية (أي إلى علل أو أسباب حدوث الأشياء)، لأن هذه النظرة مرتبطة بمفهومه عن الصورة.

عندما نتكلم اليوم عن «العلة»، فاننا نعني كيف حدث هذا الشيء أو ذاك. لقد تحطم الزجاج لأن بيتر ألقى عليه حجرا، لقد صنع الحذاء لأن الاسكافي قد خاط معاً عدة قطع من الجلد. لكن أرسطو كان يعتقد أن في الطبيعة عدة علل مختلفة صنفها ضمن أربعة أنواع مستقلة. ومن المهم هنا أن نفهم ما الذي كان أرسطو يقصده «بالعلة الغائية» (أو العلة النهائية).

عندما نبصر لوح الزجاج المكسور، من الطبيعي أن نتساءل لماذا ألقى بيتر الحجر عليه. اننا نريد أن نعرف ماذا كانت «غايته»، وعندما نبصر الحذاء نسلم أنه يجسد «غاية» الاسكافي من جمع قطع الجلد الواحدة إلى الأخرى. لكن أرسطو طبق أيضاً هذه «الغاية» على ظواهر الطبيعة، وساضرب لك مثلا يوضح هذه المسألة:

لم يهطل المطر يا صوفيا؟ من المؤكد أنك تعلمت في المدرسة ان المطر يهطل لأن ماء السحاب يبرد ويتكثف على هيئة قطرات مطر تسقط على الأرض بقوة الجاذبية. لو سمعك أرسطو يا صوفيا لهز رأسه موافقا على تفسيرك، ولكنه كان سيخبرك بأنك لم تذكري سوى ثلاث علل فحسب. «العلة المادية» ان الماء (السحاب) قد وجد في المكان المحدد في اللحظة المحددة التي قلت فيها درجة حرارة الهواء. و«العلة الفعالة» وهي أن الماء قد قلت درجة حرارته فبرد،، و«العلة الصورية» وهي أن «صورة« الماء أو طبيعته أن يسقط على الارض. وبعد هذه العلل الثلاث يضيف أرسطو علة رابعة هي أن المطر يهطل لأن النباتات والحيوانات تحتاج إلى ماء المطر كي تنمو وتكبر. وأرسطو يسمي هذه العلة «العلة الغائية». وكما ترين، فان أرسطو يسند إلى قطرات المطر مهمة تؤديها في الحياة أو «غاية».

ونحن أميل من جهتنا إلى طرح المسألة بطريقة معاكسة تماماً فنقول إن النباتات تنمو لانها تجد الماء. هل ترين هذا الفارق الدقيق يا صوفيا، فأرسطو يعتقد أن كل

شيء في الطبيعـة لـه هـدف وغايـة. المطـر يهطـل كـي تتمكـن النباتـات مـن النمـو، والنباتات تثمر برتقالا وعنبا ليزودا الناس ببعض حاجاتهم من الغذاء.

وهذه النظرة لا تتفـق مـع طبيعـة التفكـير العلمـي في عصرنـا الحـاضر. إذ إننـا نقول، على العكس، إن توافر الغذاء والماء شرط ضروري لحياة الإنســان والحيـوان. فان لم يتوافر هذا الشرط لن نكون قادرين على العيش أو البقـاء. ولكـن ليـس غايـة الماء أو البرتقال أن يمدانا بالغذاء.

وربما مللنا اليوم لأن نقول ان أرسطو قد جانبه التوفيق في تصوره لعلـل الأشـياء وأسبابها. ولكن فلنحذر إصدار الأحكام المتعجلة. فما أكثر من يؤمنون بـأن الله قـد هيأ العالم على الصورة التي نعرفها كي يناسب حياة جميع المخلوقـات. واذا نظرنـا إلى المسألة من هذه الزاوية، لأمكننا بالطبع أن نؤكـد أن مـاء الانهـار مـا وجـد الا لأنـه عنصر ضروري لحياة الانسان والحيوان ولكننا نتكلم عندئذ عن غايـة حددهـا الله. فقطرات المطر أو مياه الأنهار لا يعنيها وجودنا في شيء.

المنطق

إن الفرق بين «الصورة» و«المادة» يضطلع أيضاً بـدور هـام في تفسـير أرسـطو للطريقة التي نميز بها الأشياء الموجودة في العالم.

إننا نصنف جميع الأشياء التي ندركها ضمــن مجموعـات أو فئـات مختلفـة. فـإني أرى حصاناً ثم حصاناً ثانيا ثم ثالثا. وألاحظ أن هذه الخيـول ليسـت متماثلـة تمامـاً، لكني أتبين أن هناك شيئاً مـا مشـتركاً بـين كـل الخيـول. وهـذا الشـيء المشـترك هـو بالتحديد «صورة» الحصان. أما الفرق بـين حصـان وآخـر فهـو ينتمـي إلى «مـادة» الحصان.

وهكذا فإننا ننطلق في العالم، ونأخذ في تقسيم وتصنيـف جميع الأشياء. فنضـع الأبقار في الحظـائر، والخيـول في الاصطبـلات، والخنـازير في الزرائـب، والدجـاج في العشش. وهذا هو نفس ما تفعله صوفيا عندما ترتب غرفتها. فهـي تضـع «الكتـب» علـى رف المكتبـة، و«كراسـات المدرسـة» في حقيبـة المدرسـة و«المجـلات» في درج صوانهـا، ثـم هـي تطـوي ملابسـها بعنايـة وترتبهـا في خزانتهـا، القمصــان في رف،

والصدارات في رف ثان، والجوارب في درج مستقل. ولاحظي يا صوفيا أننا نفعل نفس الشيء في أذهاننا: فنحن نميز الأشياء المصنوعة من الحجر عن المصنوعة من الصوف. ونميز بين الكائنات الحية والأشياء الجامدة، ونفرق بين النبات والحيوان والانسان.

هل ترين ما فعله أرسطو يا صوفيا: انه كان يريد أن يرتب «غرفة» الطبيعة ترتيبا دقيقاً.

وسعى أرسطو إلى إثبات أن كل شيء في الطبيعة ينتمي إلى مجموعات معينة تنقسم بدورها إلى مجموعات فرعية. (فـهرمس كائن حي، أو بصورة أدق هو حيوان، أو بصورة أدق هو حيوان فقاري، أو بصورة أدق هو حيوان فقاري ثديي، أو بصورة أدق هو كلب، أو بصورة أدق هو لابرادور، أو بصورة أدق هو لابرادور ذكر.)

اصعدي إلى غرفتك يا صوفيا، والتقطي منها أي شيء. أيا كان ما تمسكين به فهو مندرج حتما ضمن مجموعة أكبر وأعم. واليوم الذي تجدين فيه شيئاً تعجزين عن تصنيفه ستصابين بصدمة قوية. وان اكتشفت مثلا شيئاً لا تستطعين أن تحددي على وجه اليقين إن كان ينتمي إلى عالم النبات أو الحيوان أو الجماد، فإني اعتقد أنك لن تجرؤي حتى أن تلمسيه.

وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الجماد يذكرني يا صوفيا بتلك اللعبة التي يجتمع فيها بعض الأطفال ويختارون واحداً منهم لحل لغز يلقونه عليه. وعندئذ يبتعد الطفل المختار برهة عن المجموعة ثم يعود ويكون عليه أن يخمن الشيء الذي وقع عليه اختيار بقية الأطفال.

لنفترض أن المجموعة الصغيرة قد اختارت مثلا القطة بوسي التي رأوها تلهو في الحديقة المجاورة. ويعود الطفل المسكين، ويبدأ في الحدس والتخمين، علما بأن المجموعة لن ترد عليه إلا بكلمة «نعم« أو «لا». فاذا كان هذا الطفل المسكين أرسطيا حقيقيا (وفي هذه الحالة لن يكون مسكينا بطبيعة الحال)، فسوف يأخذ الحوار هذا المنحى الطريف على الأرجح:

ـ أهو شيء ملموس؟ (نعم !)

ـ أهو ينتمي إلى عالم الجماد؟ (لا !)

ـ أهو كائن حي؟ (نعم !)
ـ أهو ينتمي إلى عالم النبات؟ (لا !)
ـ أهو حيوان؟ (نعم !)
ـ أهو عصفور؟ (لا !)
ـ أهو من الثدييات؟ (نعم !)
ـ أهو حيوان بأكمله؟ (نعم !)
ـ أهو قطة؟ (نعم !)
ـ أهو القطة بوسي؟ (صح ! ويأخذون في الضحك...)

إن أرسطو هو الذي ابتكر اذن هذه اللعبة يا صوفيا. وما دمنا نتحدث عن الفلاسفة والألعاب، فلنعترف بأننا مدينون لأفلاطون لأنه ابتدع لعبة الاستغماية في الظلام، ومدينون كذلك لديموقريطس لأنه اخترع لعبة اللوجو.

ولأن أرسطو كان عقلا أشرب حب النظام الدقيق أراد أن يرتب أفكارنا وينسقها، فلا عجب أن يكون هو اذن الذي أسس *علم المنطق*. فقد بين أرسطو عدة قواعد صارمة يجب اتباعها كي تأتي النتائج أو البراهين سليمة صحيحة. وسأضرب لك مثلا على ذلك. اذا ما قررت في البداية «ان كل الكائنات الحية فانية» (مقدمة أولى) ثم قلت «إن هرمس كائن حي» (مقدمة ثانية)، فانني أصل بالتالي إلى نتيجة منطقية تقول «ان هرمس كائن فان».

ويبين هذا المثل أن منطق أرسطو يتصل بالعلاقات بين المفاهيم، وأنه يتصل في هذه الحالة بالعلاقة بين مفهوم «الكائن الحي» و«الكائن الفالي». ولكن حتى ان كان علينا أن نسلم بأن تلك النتيجة التي توصلنا إليها صحيحة تماماً، فبوسعنا أن نضيف أيضاً أنها لا تعلمنا شيئاً جديداً في واقع الأمر، فنحن نعرف من البداية أن هرمس كائن فان. (انه كلب، وكل الكلاب كائنات حية، اذن فهي كائنات فانية، على عكس جبال الألب.) صحيح اننا نعرف هذا يا صوفيا وانه لا يخبرنا بشيء جديد، إلا أن العلاقات بين المفاهيم ليست دوما بهذا الوضوح وعندئذ نحتاج إلى تنظيم هذه المفاهيم تنظيما منطقيا.

ولنأخذ المثل التالي: قد نتساءل مثلا إن كانت الفئران الوليدة ترضع حقاً من ضرع أمها، على غرار صغار القطط أو الكلاب؟ قد يبدو لك أن هذا مثل غير جاد،

ولكن جدية المثل أو هزله لا علاقة لها بسلامة التفكير وصحة الاستدلال المنطقي. إذا حاولنا الاجابة عن السؤال نلاحظ أن هناك أمراً مؤكداً هو أن الفئران لا تبيض (فمتى رأيت بيضة فأرة؟). الفئران اذن تلد صغارا مثل القطط أو الكلاب. ونحن نسمي الحيوانات التي تلد صغارا حيوانات ثديية. والحيوانات الثديية هي حيوانات ترضع عند ولادتها لبن أمهاتها. ها نحن قد وصلنا إلى النتيجة التي نطلبها. إننا نملك الجواب في ذهننا لكن علينا أن ننعم التفكير في السؤال. اذ لعلنا نكون قد نسينا أن الفئران الوليدة ترضع من ضرع أمها. أو ربما لا نكون قد رأينا قط فئرانا صغيرة مستغرقة في الرضاعة، إذ ربما كانت الفارة تخجل من اطعام صغارها أمامنا!

سلم تصنيف الطبيعة

عندما يقوم أرسطو «بترتيب» الموجودات، يشير أولاً إلى أن جميع الأشياء في الطبيعة يمكن تقسيمها إلى مجموعتين رئيسيتين. فهناك من جهة *الجماد* مثل الأحجار، والمعادن، وقطرات الماء، التي لا تملك أي امكانية للتحول إلى شيء آخر. ان الجماد لا يمكن أن يتحول، في رأي أرسطو، إلا بتأثير عامل خارجي. ومن جهة أخرى، هناك *الأجسام الحية*، التي تملك امكانيات التحول.

ويقسم أرسطو الأجسام الحية إلى مجموعتين هما: *النباتات والكائنات الحية*. ثم يقسم أخيراً الكائنات الحية إلى مجموعتين فرعيتين هما: *الحيوان والإنسان*.

وعلينا أن نسلم بأن هذا التصنيف واضح وبسيط: فهناك فرق أساسي بين الجماد والجسم الحي، بين الحجر والوردة مثلا، كما ان هناك فرقا نوعيا بين النبات والحيوان، بين الوردة والحصان مثلا. ثم هناك فرق واضح بين الحصان والانسان. ولكن ما هي هذه الفروق على وجه التحديد؟ هل تستطيعين أن تدليني عليها يا صوفيا؟

ليس أمامي للأسف متسع من الوقت لأنتظر أن تجيبيني برسالة تضعينها في ظرف وردي به قطعة سكر، ولذا سأجيب بنفسي: ان أرسطو يقسم ظواهر الطبيعة إلى مجموعات مختلفة استنادا إلى معيار واضح هو صفات كل شيء، أو بمعنى أدق استنادا إلى *ما يفعله* كل شيء، أو *ما يستطيع أن يفعله*. إن جميع الاجسام الحية

(من نبات وحيوان وانسان) تملك القدرة على الاغتـذاء، والنمـو، والتكـاثر، ثـم ان كل الكائنات الحية (من حيوان وانسان) تملك اضافة لذلـك القـدرة على أن تـدرك بحواسها العالم المحيط بها والقدرة على التحرك والانتقال. ثم ان كـل البشـر يملكـون إضافة لذلك القدرة على التفكير، أي على تنظيم الانطباعات الـتي تنقلهـا حواسـهم ضمن مجموعات وفئات مختلفة.

وهكذا تتدرج الطبيعة في انتقال هين وارتقاء متصل مـن أبسـط النباتـات حتـى أكثرهـا تعقيـداً ومـن الحيوانات الأوليـة حتـى أنواعهـا المركبـة. وفي أعلـى «سـلم» تصنيف الطبيعـة هـذا نجـد الانسـان الـذي تلخـص حياتـه، في رأي أرسـطو، مسـيرة التطور الطبيعي بأسره. فالانسـان ينمـو ويقتـات علـى الغـذاء مثـل النبـات، ويملـك القدرة على الادراك الحسي للعالم وعلى الانتقال مثـل الحيـوان، ولكنـه يتمتـع فـوق ذلك بصفة قاصرة عليه وحده هي القدرة على التفكير والتعقل.

ولذا فإن الانسان يملك قبسا من العقل الالهي يا صوفيا. نعـم لقـد قلـت العقـل الالهي. فأرسطو لا يفتأ يذكرنا بين حين وآخر بأنه لا بد أن يوجد إله هو الـذي بـث الحركة في الكون بأسره. وعليه، يأتي الله في قمة سلم تصنيف الطبيعة.

وتخيل أرسطو أن حركة النجوم والكواكب توجه كل حركة في الأرض. ولكـن لا بد أن هناك شيئاً يحرك تلك الكواكب نفسـها. وهـو مـا يسـميه أرسـطو «المحـرك الأول» أو «الله». ويرى أرسطو ان «المحرك الأول» ساكن هو ذاتـه، ولكنـه «العلـة الاولى» لحركة الكواكب وبالتالي لكل حركة في الطبيعة، ما دامت حركة الكواكـب هي التي توجه كل حركة على الأرض.

الأخلاق

ولنعد الآن إلى الإنسان يا صوفيا. يرى أرسطو أن «صورة» الإنسان تتألف مـن النفس التي تضم جزءاً شبيهاً بالنبات هو (النفس المغتذيـة)، وجـزءاً شـبيهاً بـالحيوان (هو النفس الحساسة)، وجزءاً عاقلاً (هو النفس الناطقة). وبعد إن نظـر أرسـطو إلى الإنسان على هذا النحو تساءل: كيف ينبغـي لنـا أن نسـلك في حياتنـا؟ ومـا الـذي يحتاجه الإنسان كي يعيش حياة فاضلة خيرة؟ وسـألخص لـك إجابـة أرسـطو في جملـة واحدة: إن الإنسان لن يبلغ السعادة إلاإذا طور كل ملكاته وقدراته.

ويميز أرسطو بين ثلاثة أشكال من السعادة: الشكل الأول من السعادة هو حياة اللذة واللهو. والشكل الثاني من السعادة هو حياة المواطنة الحرة والمسؤولة. والشكل الثالث من السعادة هو حياة الفكر والتأمل الفلسفي.

ثم يؤكد أرسطو أن هذه الشروط الثلاثة يجب أن تجتمع معاً في آن واحد كي يبلغ الإنسان السعادة الحقة. فكان يرفض كل ما يؤدي إلى الإخلال بهذا التوازن. ولو أنه كان يعيش بيننا اليوم لقال ان الشخص الذي لا يعمل إلاعلى تنمية جسمه (أو قدراته العضلية) تفتقر حياته إلى التوازن السليم شأنه في ذلك شأن من يعمل على تنمية ذهنه (أو قدراته العقلية) وحدها. فكلتا الحالتين تعبران عن أسلوب عيش معوج مختل.

ويصدق نفس الشيء على العلاقات بين البشر. فعلى هذا المستوى يدعو أرسطو إلى اتباع طريق وسط دون افراط أو تفريط. إذ يجب إلانكون جبناء أو متهورين بل شجعانا. (فاظهار قليل من الشجاعة جبن واظهار كثير من الشجاعة تهور). كما يجب إلانكون بخلاء أو مسرفين بل كرماء (فعدم التحلي بكرم كاف يعني البخل واظهار السخاء الزائد يعني التبذير والاسراف). وينطبق نفس المعيار على الطعام. فمن الخطر عدم تناول كفايتنا من الطعام ومن الخطر أيضاً الإفراط في تناول الطعام. إن الأخلاق لدى كل من أرسطو وأفلاطون تتردد فيها أصداء الطب اليوناني الذي يقوم على مبدأ يقول إن مراعاة التوازن والاعتدال هي التي تتيح للإنسان أن يعيش حياة سعيدة أو حياة «متناسقة متوافقة».

السياسة

كما نصادف في رؤية أرسطو للمجتمع نفس هذا الاستهجان للتركيز على جانب واحد دون سواه. وكان يقول إن الإنسان بطبيعته «حيوان سياسي». فبدون المجتمع حولنا، لن نكون بشرا بالمعنى الحقيقي. وأوضح أرسطو إن الأسرة والقرية توفران حاجاتنا المعيشية الأساسية مثل الغذاء، والتدفئة، والزواج، وتنشئة الأطفال. أما أعلى أشكال الاجتماع البشري فلا تجسده إلاالدولة.

وهذا يقودنا إلى ذلك السؤال الجوهري وهو: كيف ينبغي تنظيم الدولة؟ (هل تذكرين يا صوفيا جمهورية أفلاطون التي يحكمها الفلاسفة؟) إن أرسطو يصف ثلاثة أشكال صالحة من أشكال الحكم. الأول هو الملكية، حيث لايوجد إلاحاكم واحد

للدولة. وكي يكون هذا الشكل من الحكم صالحا يجب إلايجنح هذا الشكل إلى «الطغيان» أي إلى سيطرة حاكم واحد لايسعى إلالتحقيق منفعته الشخصية. والشكل الثاني للحكم الصالح هو الارستقراطية، حيث الحكم بيد أقلية صغيرة. ويجب أن يحرص هذا الشكل من الحكم على إلايتحول إلى «الاوليغارشية» أي استبداد الأقلية لتحقيق مصلحتها الخاصة. (ومن الأمثلة على هذا النوع من الحكم في عصرنا الحاضر الديكتاتوريات العسكرية). والشكل الثالث من أشكال الحكم، هو الديمقراطية. وهذا الشكل له أيضاً وجهه السلبي. فالديمقراطية قد تنحط سريعا إلى الديماجوجية (الغوغائية) أو إلى حكم الدهماء. (ومن الأمثلة على ذلك أن النازيين قد تمكنوا، عن طريق النظام الديمقراطي، من الوصول إلى الحكم في ألمانيا فأقاموا بزعامة الطاغية هتلر حكما استبداديا مرعبا).

صورة المرأة

ولننظر ختاما فيما يقول أرسطو عن المرأة. إن أرسطو لا ينظر إليها للأسف بهذا التقدير العالي الذي خصها به أفلاطون. فأرسطو كان أميل إلى اعتبار أن النساء كائنات ناقصات. فما المرأة، في رأيه، سوى رجل «ناقص». والمرأة، على مستوى الإنجاب، سلبية متلقية في حين أن الرجل هو الفعال والمانح. كما يزعم أرسطو إن الطفل لا يرث صفاته إلاعن أبيه وحده. أما المرأة فهي كالأرض التي تستقبل البذرة وتنبتها. في حين أن الرجل هو «الغارس» و«الزارع». وإن شئنا استخدام مصطلحات أرسطو لقلنا: إن الرجل يهب «الصورة» أما المرأة فتسهم «بالمادة».
ومن المدهش والمؤسف في آن واحد أن يقع رجل في ذكاء أرسطو في هذا الخطأ الفاحش بشأن تصور العلاقة بين الرجال والنساء. على أن موقفه هذا إنما يثبت أمرين. أولا، أن أرسطو لم تكن له دراية عملية واسعة بحياة النساء والأطفال؛ وثانيا: إن ترك الرجال يبسطون سيطرتهم دون منازع على الفلسفة والعلم يؤدي إلى أحكام متحيزة متجنية.

وكان رأي أرسطو في المرأة ظالما ظلما مضاعفا، ذلك أن هذا الرأي، وليس رأي أفلاطون، هو الذي ظل سائدا طوال العصور الوسطى. وهكذا ورثت الكنيسة مفهوما عن المرأة لا يرتكز على أي سند في الكتاب المقدس. فمن المؤكد أن المسيح لم يكن عدوا للمرأة.

لن أقول لك الآن أكثر من هذا! ولكن أخباري ستصلك قريبا.

قرأت صوفيا الفصل الخاص بأرسطو عدة مرات ثم وضعت الأوراق في الظرف الأصفر، وجلست تحدق إلى الفضاء. وفجأة تنبهت للفوضى التي تحيط بها من كل جانب. الكتب والملفات مبعثرة على الأرض. أما الخزانة فتطل منها جوارب قصيرة وطويلة، وتتدلى منها أكمام قمصان وأرجل بنطلونات. أما كرسي مكتبها فقد تكدست عليه كومة من ثيابها المتسخة.

واجتاحت صوفيا رغبة لا تقاوم في ترتيب غرفتها. كان أول ما فعلته هو إفراغ جميع محتويات الخزانة على الأرض، إذ أحست أن عليها أن تبدأ تنظيم كل شيء من الصفر. وبدأت صوفيا تطوي كل ثيابها بعناية وتعيدها إلى الأدراج. وخصصت درجا لملابسها الداخلية ولقمصانها القطنية، ودرجا للجوارب القصيرة والطويلة. ودرجا للبنطلونات. وأخذت تملؤها بالتدريج الواحد تلو الآخر، فلم تعد تتساءل أين تضع هذا أو ذاك. أما الملابس المتسخة فقد وضعتها في كيس بلاستيك وجدته في الرف الأسفل.

نجحت صوفيا في ترتيب كل ثيابها عدا شيئاً واحداً: فردة جورب، أبيض يصل إلى أسفل الركبة، المشكلة إنها لم تعثر على الفردة الأخرى. أما الأدهى فهو أن هذا الجورب ليس جوربها هي.

أخذت صوفيا تقلب الجورب تتفحصه. لم يكن به ما يدل على صاحبته. إلاأن صوفيا لم يكن لديها أدنى شك فيمن تكون صاحبة الجورب، فوضعته في الرف العلوي ليأخذ مكانه بجوار لعبة اللوجو، وشريط الفيديو، والشال الحريري الأحمر.

وانتقلت صوفيا بعد ذلك إلى المكتبة. فرتبت الكتب والمجلات والملفات والملصقات بنفس الطريقة التي شرحها أستاذ الفلسفة في الفصل الخاص بأرسطو. وبعد أن انتهت من المكتبة رتبت سريرها ثم نظمت مكتبها.

وأخيرا، جمعت صوفيا كل الأوراق المخصصة لأرسطو ورتبتها ثم أحضرت الخرامة وثقبت الأوراق ووضعتها بعناية في الملف الذي انضم إلى

مكانه في الرف العلـوي. وقـالت إنهـا ستمضي في وقـت لاحق إلى كوخهـا لتحضر العلبة المعدنية وتأخذ ما بها من أوراق وترتبها في الملف.

واعتباراً من الآن سيبقى كل شيء منسـقا مرتبـا. وذلـك لا يسـري علـى الأشياء الموجودة في غرفتها فحسب، فقد أدركـت بعـد أن قـرأت أرسـطو أن من المهم أيضاً أن تنظم أفكارها وتصوراتها. ورفعـت صوفيـا بصرهـا إلى رف الخزانة العلوي الذي خصصته لمغامرتهـا في رحلـة المعرفـة وقـالت لنفسـها إنـه المكان الوحيد في الغرفة الذي تعجز عن التحكم فيه تحكماً كاملاً.

مرت ساعتان دون أن تسـمع صوفيـا لأمهـا لا حسـا ولا خـبرا. هبطـت الدرج إلى الدور الأرضي، فقد أرادت أن تطعم حيواناتها قبل أن توقظ أمها.

في المطبـخ، مـالـت علـى وعـاء الأسمـاك. كـانـت إحداهـا سـوداء والثانيـة برتقالية والثالثة بيضـاء وحمـراء. ولـذا سمتهـا القرصـان الأسـود، وذات الشـعر الذهبي وذات الرداء الأحمر. ألقت إليها ببعض قطع الثلج وبعض الغذاء وقـالـت لها:

- إنكم تنتمون إلى كائنات الطبيعة الحيـة؛ ولـذا فـأنتم تسـتهلكون الطعـام وتكبرون وتنمون. وبصورة أدق أنتم تنتمون إلى المملكة الحيوانيـة ولـذا فـأنتم تتحركون وتتلفتون حولكم. ولمزيد من الدقة أقـول إنكـم أسمـاك، ولـذا فـأنتم تستطيعون التنفس من الخياشيم والسباحة في كل إتجاه في مياه الحياة.

أعادت صوفيا الغطاء إلى علبة غذاء السمك. وأحست بالارتياح للمكـان الذي أدرجت فيه الأسماك على سلم تصنيف الطبيعـة وأعجبتهـا بوجـه خـاص عبارة «مياه الحياة». ثم جاء دور العصفورين الملونين. وضعت لهمـا طعامهمـا في القفص وقالت:

أعزائي كوكو وصوصو لقد أصبحتما عصفورين ملونين رائعين بعـد أن خرجتما من بيضتي عصفـورة ملونـة. فلمـا كـانـت «صـورة» هـذا البيـض أن يعطي عصافير ملونـة فمـن حسـن الحـظ أنكمـا لم تصبحـا ببغـاوين مزعجـين لايكفان عن الثرثرة والتقليد.

ثم ذهبت صوفيا إلى الحمام، حيث تعيش سلحفاتها جوفيندا الكسولة في صندوق كبير. واختيار هذا المكان لجوفيندا كان يثير سخط أمها، فكانت صوفيا تسمعها تصرخ منذرة من حين لآخر وهي تستحم بأنها ستتخلص يوما من هذه السلحفاة. إلا أن هذا الصراخ لم يكن حتى الآن سوى تهديد في الهواء. أخرجت صوفيا ورقة خس من برطمان مربى قديم ووضعتها داخل الصندوق وقالت:

- عزيزتي جوفيندا! صحيح أننا لا نستطيع أن نزعم أنك من أسرع الحيوانات، ولكنك تستطيعين مع ذلك أن تتنقلي ولو في جزء صغير جداً من هذا العالم الواسع الذي نعيش فيه. ويكفيك عزاء يا جوفيندا أنك إن كنت لاتستطيعين تجاوز قدراتك الطبيعية فهذه هي حال كل الكائنات الأخرى.

وتذكرت صوفيا شيريكان فقالت إنها قد انطلقت على الأرجح خارج البيت تطارد الفئران، وتلك طبيعتها كقطة على أي حال. وعندما عبرت صوفيا البهو قاصدة غرفة أمها. لمحت على مائدة جانبية إناء يضم بعض زهور النرجس البري. وخيل لصوفيا أن الورد الأصفر ينحني لها باحترام عند مرورها. وقفت صوفيا لحظة ومررت أصابعها برفق على التويجات الملساء. وخاطبت الزهرة قائلة:

- أنت تنتمين أيضاً إلى الجزء الحي من الطبيعة. ولذا فانت تتمتعين بميزة كبيرة بالقياس إلى إناء البلور الذي توجدين فيه. ولكنك غير قادرة للأسف على تقدير قيمة هذه الميزة.

توجهت صوفيا بعد ذلك إلى غرفة أمها وهي تسير على رؤوس أصابعها فوجدت أمها ما زالت تغط في نوم عميق، فوضعت صوفيا يدها على جبينها برقة وقالت:

- أنت من أسعد المخلوقات يا ماما. فأنت لست جسما حيا مثل الزنابق البرية التي تملأ الحقول. ولست مجرد كائن حي مثل شيريكان وجوفيندا. انت إنسان، أي أن لك ملكة نادرة: هي القدرة على التفكير.

ـ عم تتحدثين يا صوفيا؟
أفاقت أمها بأسرع من المعتاد.

ـ كنت أقول فقط إنك تشبهين سلحفاتي الكسولة! أنا، لعلمك، قد رتبت غرفتي وفعلت ذلك بطريقة فلسفية تماماً.

اعتدلت أمها وأسندت رأسها إلى ظهر السرير وقالت:

ـ مهلا يا صوفيا، إني سأنهض الآن. هلا سخنت ماء القهوة...

فعلت صوفيا ما طلبته أمها وسرعان ما اجتمعتا في المطبخ حول فنجان قهوة وفنجان كاكاو. وفجأة قالت صوفيا:

ـ ألم تسألي نفسك لم نعيش يا ماما؟

ـ آه. إنك لن تبدأي من جديد يا صوفيا!

ـ بلى! لأني أملك الجواب الآن. إن الناس يعيشون على هذا الكوكب ليسعوا فيه ويعطوا لكل شيء يصادفونه اسما.
ـ حقا؟ إنني لم أفكر في هذا أبداً.

ـ إذن فانت تعانين مشكلة كبرى، لأن الإنسان كائن يتمتع بالقدرة على التفكير (مقدمة اولى!). فإن كنت لا تفكرين (مقدمة ثانية!) فانت لست إذن إنسانة حقا (النتيجة!).

ـ صوفيا!
ـ تخيلي للحظة أن العالم لا يوجد به سوى النباتات والحيوانات. من كان سيميز عندئذ القطة من الكلب، أو النرجس من السوسن. إن النباتات والحيوانات لها أجسام حية أيضاً، ولكننا نحن الكائنات الوحيدة التي تستطيع أن تصنف الطبيعة في فئات مختلفة.

فقالت أمها:
ـ أنت فعلا أعجب فتاة رأيتها في حياتي.
فردت صوفيا:

ـ أرجو ذلك حقا! إن كل البشر عجيبون بدرجات متفاوتة (مقدمة اولى!). وانا إنسانة (مقدمة ثانية!) إذن أنا عجيبة بدرجة أو اخرى. (النتيجة!). ولما لم يكن لديك يا ماما سوى بنت واحدة، فمن الطبيعي إذن أن أبدو لك «أعجب فتاة رأيتها في حياتك».

ـ كنت أقصد فقط إنك تخيفيني بهذه الطريقة الجديدة التي تتحدثين بها.

ـ ما أسهل إخافتك يا ماما!

وقبل أن تغيب شمس ذلك النهار، عادت صوفيا إلى كوخها لتأتي بالعلبة المعدنية، ونجحت في احضارها خفية إلى غرفتها دون أن تنتبه إليها أمها.

بدأت صوفيا بتصنيف الأوراق حسب ترتيبها الزمني ثم ثقبتها ووضعتها في الملف قبل الفصل الخاص بأرسطو. وأخيرا رقمت الصفحات في الجانب الأعلى الأيمن. تجمع لديها الآن أكثر من خمسين صفحة. لقد كانت تجمع في الواقع أول كتاب فلسفة خاص بها. من المؤكد إنها لم تكتبه بنفسها، ولكنه كتب خصيصا لها.

لم يكن لديها متسع من الوقت لتفكر في واجبات يوم الإثنين. من المحتمل أن يكون لديها امتحان في مادة الدين، لكن الأستاذ يردد دوما لحسن الحظ إنه يقدر التعبير عن المواقف الشخصية والأحكام التقديرية. وهي تشعر أنها بدأت تعرف الآن كيف تعبر عن هذه المواقف والآراء.

الفصل الثاني عشر

الهيلينية

... قبس من النور...

أخذت صوفيا تداعب قطتها شيريكان تودعها قبل أن تمضي في طريقها إلى المدرسة في صباح ذلك الاثنين. وبرغم أن أستاذ الفلسفة كان قد بدأ يبعث برسائله إلى كوخها مباشرة داخل السياج النباتي القديم، فقد ألقت صوفيا مع ذلك نظرة خاطفة على صندوق البريد، بحكم العادة ربما أكثر من أي شيء آخر.

كان الصندوق خاليا كما توقعت. وبينما هي تسير في ممر النرجس لمحت فجأة صورة ملقاة على الرصيف. كانت الصورة لعربة جيب بيضاء رفع عليها علم أزرق. تبينت صوفيا على العلم غصني زيتون يتلاقيان. أليس هذا علم الأمم المتحدة؟

قلبت الصورة فوجدت أنها بطاقة بريدية عادية. وكانت مرسلة إلى «هيلد مولر كناج، طرف/صوفيا أموندسن...»، وتحمل طابع بريد نرويجيا مختوما بخاتم بريد «فصيلة الأمم المتحدة» بتاريخ الجمعة ١٥ يونيو(حزيران) ١٩٩٠.

١٥ يونيو(حزيران)! إنه عيد ميلادك يا صوفيا!

وكانت البطاقة تقول:

عزيزتي هيلد

أعتقد أنك ما زلت تحتفلين الآن بعيد ميلادك الخامس عشر. إلاإذا كانت هذه البطاقة قد تأخرت في الوصول وأصبحنا الآن في صباح اليوم التالي لاحتفالك. إن كان حدث هذا التأخير البسيط الذي لا أرجوه، فسوف أعزي نفسي وأقول ما

أهمية يوم يزيد أو ينقص لهدية ستصحبك في مشوار عمرك بأكمله. ودعيني الآن أقول لك مرة أخرى كل سنة وأنت طيبة. ولعلك فهمت الآن يا هيلد لماذا أرسل البطاقات على عنوان صوفيا. فاني واثق أنها ستنقلها إليك.

ملاحظة: ماما قالت لي إنك فقدت محفظتك الخضراء. وأعدك أن أعطيك ١٥٠ كرونا بدلا من التي ضاعت مع المحفظة. أما عن بطاقة المدرسة فيمكنك أن تستخرجي بطاقة أخرى بدلا منها قبل أجازة الصيف.

لك خالص أشواقي ومحبتي.

بابا

ظلت صوفيا متخشبة متحجرة كإنما التصقت بالأرض! ثم ساءلت نفسها: ماذا كان تاريخ خاتم البريد على البطاقة السابقة؟ خيل إليها إن البطاقة السابقة التي تحمل صورة شاطئ البحر كانت مختومة أيضاً في يونيو(حزيران)، برغم إننا ما زلنا في شهر مايو (أيار)، أي هي مختومة قبل موعدها المفترض بشهر كامل. كيف لم تنتبهي يا صوفيا لهذه المسألة؟

نظرت إلى ساعتها ثم ركضت عائدة إلى البيت. فلتتأخري يا صوفيا اليوم عن المدرسة إن اقتضى الأمر!

أغلقت الباب وارتقت السلم قفزا ووثبا واندفعت إلى غرفتها قاصدة رف الخزانة العلوي. وجدت البطاقة الاولى المرسلة إلى هيلد تحت الشال الحريري الأحمر. صدق حدسك يا صوفيا! إن تاريخ خاتم البريد هو أيضاً١٥ يونيو (حزيران)! ما أعجب هذه الصدفة. إن ذلك التاريخ يوافق عيد ميلادك يا صوفيا ثم هو اليوم الدراسي الأخير قبل أجازة الصيف!

عادت تركض لتلحق موعدها مع نورا عند المركز التجاري، والأسئلة تتدافع في رأسها تترى ملحة...

من هي هيلد هذه؟ وكيف يكون أبوها واثقا أن صوفيا ستنجح في الوصول إليها؟ وما هذا الحمق أو هذا الهزل الذي يجعله يبعث بالبطاقات إليها

هي بدلا من إرسالها إلى ابنته مباشرة؟ ليس من المعقول إلايعرف عنـوان ابنتـه. أهي مزحة سمجة إذن؟ أم هل يحاول أن يهيئ مفاجـأة لابنتـه في عيـد ميلادهـا بدفع فتاة غريبة إلى التورط في لعبة المخبر السري وساعي البريد؟ ألهذا السبب كانت البطاقات مؤرخة قبل موعدها المفترض بشهر كامل عـل صوفيـا تنجـح خلال هذه الأثناء في الوصول إلى هيلد؟ وهل يريدها أن تهتدي لهيلد ليقدم إلى ابنته صديقة جديدة كهدية في عيد ميلادها؟ أتكون هي الهدية الـتي ستصحب هيلد «في مشوار العمر بأكمله»؟

وإذا كان هذا الأب العجيب الذي يهوى المزاح فيما يبدو يوجد حقـا في لبنان، فكيف عرف عنوانها؟ مهما يكن من شـيء فـإن صوفيـا وهيلـد توجـد بينهما نقطتان مشتركتان على الأقل. فأولا إذا كان عيد ميلاد هيلد يوافق ١٥ يونيو (حزيران) فمعنى هذا أنهما ولدتا في نفس اليوم. وثانيا، ان لكـل منهمـا أبا يعمل في الطرف الآخر من العالم.

أحست صوفيا أنها تنجرف على رغمها في عالم مسحور. فهل يد القـدر هي التي ترتب كل هذه الصدف. إن الاعتقـاد بـالقدر ليـس، علـى أي حـال، أمرا بالغ الحمق. لا، مهلا يا صوفيا لا تقفزي إلى نتائج متعجلة. فمـن الممكـن أن يكون لكل هذا تفسير منطقي. ولكن كيف يعثر ألـبرتو على محفظة هيلـد بينما هي تعيش بمدينة ليلساند، على مبعدة مئات الكيلومترات؟ ولماذا وجـدت صوفيا البطاقة البريدية ملقاة في طريقها على الرصيف؟

هل سقطت سهوا من حقيبة ساعي البريد قبل أن يصل إلى صندوق البريد الخاص بأسرة صوفيا؟ ولكـن في هـذه الحـال لمـاذا سـقطت منـه تلـك البطاقـة بالتحديد؟

وصلت صوفيا أخيرا إلى المركز التجاري وما إن لمحتها نورا حتى صـاحت فيها:

- إلاترين كم الساعة الآن!

ـ أعرف... أنا آسفة يا نورا.

رمقتها نورا بنظرة قاسية كنظرة أستاذ مدرسة صارم وقالت:

ـ أرجو أن يكون ما أخرك عذر مقبول على الأقل.

أجابت صوفيا:

ـ إن الأمم المتحدة هي السبب. لقد احتجزني أحد رجال الميليشيا في لبنان.

ـ كفاك مزاحا! من المؤكد أنك عاشقة يا صوفيا.

ثم جرتا إلى المدرسة بأسرع ما وسعهما الجري.

وفي الحصة الثالثة عقد امتحان مادة الدين، وهي مادة لم يكن لدى صوفيا متسع من الوقت لمراجعتها. وكان الامتحان يقول:

منهج الحياة وضرورة التسامح

١ـ اذكر عددا من الأمور التي يمكن أن تكون موضوعا للمعرفة ثم اذكر عدداً من الأمور التي لا يمكن أن تكون إلا موضوعا للإيمان.

٢ـ اذكر بعض العوامل التي تسهم في تكوين منهج الإنسان في الحياة.

٣ـ ما المقصود بالضمير؟ وهل تعتقد أن الضمير واحد عند الجميع؟

٤ـ ما المقصود بسلم أولويات القيم؟

ظلت صوفيا تفكر مليا قبل أن تبدأ في الاجابة. هل تستطيع أن تستعين ببعض الأفكار التي تعلمتها من ألبرتو كنوكس؟ إنها مضطرة لذلك على أي حال، فهي لم تفتح كتاب الدين منذ عدة أيام. وما إن بدأت تجيب حتى أخذت الكلمات تنبثق من قلمها.

كتبت صوفيا إن الحقائق العلمية والتاريخية خير مثل على الأمور التي يمكن أن تكون موضوعا للمعرفة فنحن نعرف أن القمر ليس رغيف خبز ضخما،

وأن الوجه الخفي للقمر مليئ بفوهات متفاوتة الاتساع، وأن سقراط والمسيح قد حكم عليهما بالاعدام، وأن كل البشر صائرون إلى الموت إن عاجلاً أو آجلاً، وأن معابد الأكروبول الكبرى قد شيدت في أعقاب الحروب الفارسية التي دارت في القرن الخامس قبل الميلاد، وأن أهم عرافة كانت تنطق بوحي الآلهة لدى اليونان هي عرافة دلف. ومن أمثلة الأمور التي لا يمكن إلاأن تكون موضوعا للايمان، ذكرت صوفيا مسألة إن كان الله موجودا، ومسألة إن كانت هناك حياة بعد الموت، وإن كان المسيح هو ابن الله أو مجرد رجل حكيم. وأنهت اجابتها قائلة: «إننا لا نستطيع، على أي حال، أن نعرف من أين جاء العالم. فهو أشبه بأرنب كبير خرج من قبعة طويلة. ويحاول الفلاسفة أن يتسلقوا شعيرة من الشعيرات الرقيقة لفراء الأرنب كي ينظروا إلى عين الساحر الكبير مباشرة. فهل سينجحون يوما في سعيهم؟ هذا سؤال فيه نظر. ولكن إذا أضاف كل فيلسوف لانجازات أسلافه، أي إذا تسلق كل فيلسوف على ظهر فيلسوف آخر، فسوف ينجحون في النهاية في الابتعاد أكثر فأكثر عن فراء الأرنب، وعندئذ سيكون هناك احتمال، فيما أعتقد، كي يصلوا إلى هدفهم ذات يوم.

ملاحظة: إن الكتاب المقدس يحكي لنا قصة شيء يماثل تلك الشعيرة الدقيقة لفراء الأرنب. لقد كانت هذه الشعيرة تدعى «برج بابل» الذي تعرض للتدمير لأن الساحر الكبير لم يشأ للكائنات البشرية الضئيلة أن تبلغ هذا العلو السامق على فراء الأرنب الابيض الذي فرغ توا من خلقه.

ثم انتقلت صوفيا إلى السؤال الثاني: «**اذكر بعض العوامل التي تسهم في تكوين منهج الإنسان في الحياة**». تؤدي التنشئة والبيئة دورا في ذلك. فالناس الذين عاصروا أفلاطون كانت لديهم رؤية للحياة تختلف عن رؤية كثير من الناس اليوم، لأنهم عاشوا في عصر آخر وبيئة أخرى. ومن العوامل المهمة أيضاً التجارب التي يخوضها الناس. ان الإدراك الفطري لا يعتمد على البيئة، فهو مشترك بين الناس كافة. وربما أمكننا مقارنة الوسط والأوضاع الاجتماعية

بالظروف السائدة في أعماق كهف أفلاطون. ولو استخدم الناس عقولهم لاستطاعوا أن ينجوا بأنفسهم من ظلمة الكهف. إلاأن هذا المسعى يتطلب قدرا هائلا من الشجاعة الشخصية. وسقراط مثل بارز لإنسان تحرر من الآراء السائدة غير مستعين في ذلك إلابقوة عقله الخاص. واختتمت صوفيا إجابتها قائلة: «في عصرنا الراهن، تتزايد فرص التقاء أناس ينتمون إلى بلدان وثقافات عديدة. وما أكثر ما نرى مسيحيين ومسلمين وبوذيين يعيشون متجاورين في عمارة واحدة. واحترام كل طرف لعقائد الآخرين أهم في هذه الظروف من التساؤل لم لا يؤمنون كلهم جميعا بعقيدة واحدة».

وجدت صوفيا أنها تتصرف بشكل لا بأس به اجمالا. فهي تستمد جزءاً من الاجابة مما تعلمته من أستاذ الفلسفة. ثم هي تستكمله بآراء تهتدي إليها بحسها الفطري وتضيف إليها ما تكون قد قرأته أو سمعته عن المسألة التي تعالجها.

وأقبلت صوفيا بثقة أكبر على حل السؤال الثالث: «**ما هو المقصود بالضمير؟ وهل تعتقد أن الضمير واحد عند الجميع؟**» كان هذا موضوعا دارت حوله مناقشات واسعة في الفصل. وكتبت صوفيا: «المقصود عموما بالضمير هو قدرة الناس على تمييز الحق من الباطل. إن كل إنسان يتمتع، في رأيي الشخصي، بهذه الملكة، أي أن الضمير بعبارة أخرى شيء فطري. ولو سئل سقراط لقال نفس الشيء. ولكن ما يمليه الضمير يختلف اختلافا واسعا من شخص لآخر. ويمكننا أن نقول ان السوفسطائيين محقون في هذه النقطة. فقد كانوا يعتقدون أن التمييز بين الحق والباطل يعتمد قبل كل شيء على الوسط الذي ينشأ فيه الفرد. أما سقراط فكان يؤكد أن الضمير واحد عند الناس جميعا. وربما كان كلا الرأيين صحيحا. لانه إذا كان قلة من الناس لا يشعرون بالخجل من كشف أجسامهم، فان معظم الناس يشعرون، بتأنيب الضمير إذا ألحقوا الأذى بالآخرين. ويجب ألا ننسى أن امتلاك الضمير شيء، واستخدام هذا الضمير شيء آخر. فبعض الناس يتصرفون أحيانا كما لو كانوا مجردين

من الضمير، إلا أني اعتقد أن هؤلاء الناس يملكون أيضاً نوعا من الضمير حتى وان كان مطمورا في أعماق نفوسهم. ألا نرى كذلك بعض الناس يتصرفون وكإنما فقدوا عقولهم تماماً؟ والسببُ هو أنهم لا يستخدمون هذا العقل.

ملاحظة: إننا نستطيع أن نقارن الإدراك الفطري أو الضمير بإحدى العضلات. فالعضلة إن لم تستخدم تضعف وتضمر.

ولم يتبق سوى السؤال الأخير: «**ما المقصود بسلم أولويات القيم؟**» كان هذا موضوعا آخر ناقشوه مطولا في الآونة الأخيرة. كتبت صوفيا: قد يكون من المهم مثلا استخدام السيارة للانتقال سريعا من مكان لآخر، لكن إذا كان استعمال السيارة يؤدي إلى تلوث الطبيعة وموت الغابات فنحن نصبح إزاء خيار بين قيمتين. أنعمت صوفيا التفكير ورأت أن النتيجة التي ترتاح إليها هي أن وجود بيئة نظيفة وغابات مزدهرة أهم من الوصول بسرعة إلى مكان العمل. وضربت صوفيا أمثلة أخرى ثم أنهت إجابتها قائلة: «وإني شخصيا أرى أن الفلسفة موضوع لا يقل أهمية عن قواعد اللغة الإنجليزية إن لم يكن أهم منها. واحترام سلم أولويات القيم يقضي باختصار الوقت المخصص لقواعد اللغة الانجليزية لإدراج الفلسفة في جدول الحصص».

أثناء الفسحة الأخيرة، انتحى أستاذ الدين بصوفيا جانبا وقال لها:

ـ لقد صححت بالفعل إجابتك يا صوفيا إذ كانت بالصدفة في أول مجموعة أوراق الاجابة.

ـ أرجو أن تكون قد نالت رضاك.

ـ هذا بالتحديد هو ما أردت أن أكلمك فيه. فاجابتك كانت ناضجة حقا من نواح كثيرة. الحق اني دهشت من نضجها، وأعجبني أنها تعبر عن مجهود شخصي تماماً. ولكن لا تخفي على يا صوفيا، انك لم تراجعي دروسك، أليس كذلك؟

ودافعت صوفيا عن نفسها فسألته:

ـ ألم تقل ان من المهم أن نكو ن وجهات نظر شخصية وأن نعبر عنها؟

ـ بلى قلت... ولكن هناك حدودا.

حدقت صوفيا إلى عينيه، وشعرت أنها تستطيع أن تجيز هذا لنفسها بعد كل ما مرت به مؤخرا، وقالت:

ـ لقد بدأت دراسة الفلسفة. وهي تزود الإنسان بخلفية طيبة تساعده على تكوين آرائه الشخصية.

ـ ولكن هذا لا يجعل من السهل إعطاءك درجة على إجابتك. فإما أن أعطيك عشرة من عشرة وإما أن أعطيك صفرا.

ـ هل أفهم من ذلك أن ما كتبته كان إما صحيحا كله وإما خاطئا كله؟

ـ خلنا نقل عشرة من عشرة. ولكن عليك أن تراجعي دروسك في المرة المقبلة!

عندما عادت صوفيا من المدرسة بعد الظهر، ألقت حقيبتها على السلم وركضت سريعا نحو كوخها. وجدت ظرفا أصفر موضوعا فوق الجذع الغليظ. وكانت أركان الظرف جافة، مما يعني أن هرمس قد جاء منذ فترة غير قليلة.

أخذت الظرف وذهبت إلى البيت. أطعمت جميع حيواناتها ثم صعدت إلى غرفتها. وتمددت على السرير، وفتحت رسالة ألبرتو وأخذت تقرأ:

الهيلينية

أهلا بك من جديد يا صوفيا! لقد تعرفت الآن يا صوفيا على فلاسفة الطبيعة وعلى الثلاثة الكبار سقراط وأفلاطون وأرسطو، وبذلك أصبحت تلمين بالأسس التي نهضت عليها الفلسفة الغربية. ولذا سوف نتخلى اعتبارا من الآن عن الأسئلة

التمهيدية التي كنت تتلقينها في الأظرف البيضاء. فاني أعتقد أن عندك واجبات وامتحانات كثيرة تعدينها للمدرسة.

وسأكلمك الآن عن فترة طويلة تمتد من أرسطو، أي من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد على وجه التقريب حتى مطلع العصور الوسطى التي بدأت نحو عام ٤٠٠ بعد الميلاد. ولعلك تلاحظين أننا بدأنا نفر ق عند ذكر التواريخ والأعوام بين قبل الميلاد وبعد الميلاد، مما يعبر عن الأهمية التي خلعت على المسيحية بوصفها إيذاناً بعصر جديد.

عندما مات أرسطو عام ٣٢٢ قبل الميلاد كانت أثينا قد فقدت دورها المهيمن المسيطر. وكان هذا يرجع إلى عوامل شتى ليس أهونها الاضطرابات السياسية التي ترتبت على فتوحات الاسكندر الأكبر (٣٥٦ ٣٢٣ قبل الميلاد).

كان الإسكندر الأكبر ملكا على مقدونيا. وكان أرسطو ينحدر أيضاً من مقدونيا، بل كان خلال فترة من الزمن معلم الاسكندر في صدر شبابه. والإسكندر هو الذي أحرز الانتصار النهائي الحاسم على الفرس. كما إنه استطاع بفتوحاته المظفرة المتتالية أن يربط مصر وقسما هائلا من الشرق يمتد حتى الهند بالحضارة اليونانية.

وكانت تلك بداية عصر جديد في تاريخ الإنسان. فقد بزغت حضارة جديدة اضطلعت فيها الثقافة اليونانية واللغة اليونانية بدور محوري. وتعرف هذه الحقبة، التي دامت نحو ٣٠٠ عام، *باسم الهيلينية*. ويشير لفظ «الهيلينية» إلى هذه الفترة الزمنية كما يشير إلى تلك الثقافة التي يطغى عليها الطابع اليوناني والتي ازدهرت في الأقاليم الهيلينية الثلاث الكبرى وهي: مقدونيا، وسورية، ومصر.

ولكن اعتبارا من سنة ٥٠ قبل الميلاد تقريبا، أخذت ترجح كفة روما في الشؤون العسكرية والسياسية. وبدأت الدولة العظمى الجديدة تفتح الأقاليم الهيلينية الواحد تلو الآخر، وجاء الدور لتسود الحضارة الرومانية واللغة اللاتينية من اسبانيا غربا إلى أعماق آسيا شرقا. وكانت تلك هي بداية *العصر الروماني*. أو ما نسميه أيضاً *العصر القديم المتأخر*. ولكن يجب ألا ننسى أمرا هاما، وهو أنه قبل نجاح

الرومان في بسط نفوذهم على العالم الهيليني كانت روما قد أصبحت بالفعل إقليما اصطبغ بالثقافة اليونانية. وهذا ما يفسر أن الثقافة اليونانية، والفلسفة اليونانية ظلتا تضطلعان بدور هام على امتداد فترة طويلة حتى بعد أن بات النفوذ السياسي اليوناني ذكرى بعيدة للمحمة غابرة.

الدين والفلسفة والعلم

من السمات التي تميز الهيلينية أن الحدود التي تفصل بين البلدان والثقافات المختلفة قد زالت في هذه الفترة وانمحت. وقبل العصر الهيليني كان كل من أهل اليونان وروما ومصر وبابل وسورية والفرس يعبدون آلهتهم في كنف ما نسميه بوجه عام «الدين القومي». ولكن ما إن تلاشت الحدود بين البلدان حتى أخذت الثقافات المختلفة تتمازج وتتداخل فأسفر هذا عن توليفة من أخلاط متجاورة وأشتات متنافرة من جميع التصورات الدينية والفلسفية والعلمية.

وربما جاز لنا أن نقول إن الساحة العالمية قد ورثت الدور الذي كان يؤديه ميدان السوق في المدينة القديمة. بل إن هذا الميدان القديم أخذت تتردد فيه ألسنة وأصوات شتى تبيع حينا صنوفا جديدة من السلع وتذيع حينا تصورات وأفكاراً غير معروفة ولا مألوفة. والأمر الجديد أن هذه السلع وتلك الأفكار أخذت تفد من جميع بقاع العالم.

لقد ذكرت لك من قبل أن الرؤية اليونانية للحياة أخذت تنتشر خلال تلك الفترة في أقاليم جديدة أكثر اتساعا من المناطق التي كانت متأثرة في الماضي بالثقافة اليونانية. ولكن مع مضي الزمن أخذت عبادة الآلهة الشرقية تنتشر هي بدورها في جميع البلدان المطلة على البحر المتوسط. وتداخلت العقائد فظهرت ديانات جديدة استعارت آلهة الأمم القديمة واجتزأت معتقداتها. وظاهرة اختلاط العقائد هذه تعرف باسم *التلفيقية*.

فيما مضى من زمن كان الإنسان يرتبط بقومه وبلدته بوشائج قوية متينة. ولكن مع تلاشي الحدود الفاصلة والتخوم الحامية، زحفت التصورات الوافدة تزلزل

اطمئنان نفوس كثيرة إلى سلامة تصورها للعالم والحياة: وهكذا وقع العصر القديم المتأخر تحت سطوة التشكك في الأديان وانحطاط الثقافات والتشاؤم وضياع الرجاء. وأخذ الناس يقولون «إن العالم قد انحط وشاخ».

ولذلك فإن الأديان الجديدة التي ظهرت أثناء العصر الهيليني تجمع بينها نقطة مشتركة، هي أنها تحتوي على تعاليم تطمح إلى تخليص الإنسان من خشية الموت. وكانت تلك التعاليم تعد في أحيان كثيرة سرية خفية لا يطلع عليها إلا المؤمنون، وتقضي بأن يمارس الإنسان طقوسا معينة أملا في الفوز بخلود الروح والحياة الأبدية. كما يتطلب خلاص الروح أمرا لا يقل أهمية عن أداء الشعائر الدينية، وهو أن يسعى الإنسان إلى تدبر الطبيعة الحقيقية للكون.

هذا عن الأديان الجديدة، فماذا كان حال الفلسفة يا صوفيا؟ لقد أخذت *الفلسفة* تحت وقع نفس المؤثرات غالبا تتجه تدريجيا هي الأخرى نحو نشدان «الخلاص» والتماس صفاء النفس وسكينتها. وبدأ ينظر إلى التأمل الفلسفي على أنه لئن كانت له قيمته في حد ذاته فان له أيضاً مهمة عملية هي أن يحرر الإنسان من التشاؤم ومن الخوف من الموت والفناء. وهكذا أخذت الحدود بين الدين والفلسفة تتراجع وتشف شيئاً فشيئاً حتى كادت تتلاشى.

على أن الفلسفة الهيلينية تخلو عامة من تلك الأصالة التي تخطف الأبصار بإبداعها المبتكر. فلا يلوح على ساحة ذلك العصر لا أفلاطون آخر ولا أرسطو جديد. بل ان فلاسفة اثينا الثلاثة الكبار هم الذين كانوا على العكس مصدر إلهام لعدد من الاتجاهات الفلسفية التي سأوجز لك توا خطوطها العريضة.

وكان *العلم* بدوره في العصر الهيليني ثمرة امتزاج بين معارف وافدة من ثقافات مختلفة. وقد اضطلعت الاسكندرية بدور رئيسي في هذا المقام، إذ كانت هي الساحة التي تلاقى فوقها الشرق والغرب. ولئن كانت اثينا قد ظلت عاصمة الفلسفة بما ضمته من مدارس فلسفية واصلت رسالتها بعد أفلاطون وارسطو، فإن الاسكندرية قد أصبحت عاصمة العلم، وأضحت بمكتبتها الكبرى مركزا للرياضيات، والفلك، والأحياء، والطب.

ويمكننا أن نلمح بعض أوجه التشابه بين العصر الهيليني وقرننا العشرين. فكلتا الحقبتين تميزت بالانفتاح على تأثيرات الثقافات الخارجية. وفي كلتا الحقبتين طرح هذا الانفتاح تحديات جديدة أثارت الاضطراب على مستوى العقائد والفلسفات. وفي كلتا الحقبتين نصادف ظاهرة تعدد الأديان في معظم الحواضر الكبرى، ففي مطلع العصر المسيحي كان بوسع المرء أن يجد في روما مثلا أدياناً يونانية ومصرية وشرقية، كما إن بمقدورنا أن نجد اليوم في معظم المدن الأوروبية أتباعاً لأديان من جميع أنحاء العالم.

كما يمكننا أن نلاحظ في عصرنا الراهن كيف تنتخب أشتات وأخلاط من الأديان والفلسفات والعلوم القديمة والجديدة ثم تطرح كإنما هي خيارات ورؤى جديدة في الحياة، في حين أن جانبا كبيرا من تلك «المعارف الجديدة» المزعومة ليس في الواقع سوى إحياء لأفكار قديمة يمتد بعضها بجذوره إلى العصر الهيليني الذي ندرسه الآن.

وكما قلت لك يا صوفيا، استمرت الفلسفة الهيلينية تبحث وتدرس ذات المسائل التي طرحها سقراط وأفلاطون وأرسطو. ولعلك تذكرين أن هؤلاء الفلاسفة الكبار قد جمع بينهم السعي إلى اكتشاف خير طريقة يعيش بها الإنسان ويموت وأنهم اهتموا من ثم *بالأخلاق*. وقد اتخذت الفلسفة في العصر الهيليني من الأخلاق مشروعها الرئيسي، فأصبح شغلها الشاغل هو معرفة فيم تتمثل السعادة الحقيقية وكيف يمكن بلوغها. وسندرس الآن أربعة اتجاهات فلسفية ظهرت في تلك الفترة ونرى كيف أجابت عن هذا السؤال.

المدرسة الكلبية

يحكى أن سقراط وقف ذات يوم أمام متجر فسيح امتلأ بألوان السلع فجعل يقلب فيه البصر ثم قال: «ما أكثر الأشياء التي لا أحتاج إليها!».

ولعل ذلك القول المأثور يصلح لأن يكون شعارا لمدرسة الكلبيين الفلسفية التي أسسها *انتستانس* في اثينا في نحو عام ٤٠٠ قبل الميلاد. وكان انتستانس تلميذا لسقراط، وقد تأثر أساسا بجانب الزهد في شخصية معلمه.

وكان الكلبيون يؤكدون على أن السعادة لا تكمن في زخارف الحياة مثل الترف المادي أو السلطة السياسية أو الصحة الموفورة. بل ان السعادة الحقيقية تكمن في التحرر من ربقة هذه المظاهر الخارجية التي تروح وتأتي وتتقلب وتزول. ولما كانت السعادة لا تعتمد على هذه الأشياء فانها تغدو ميسورة في متناول الجميع. وما إن يتسنى بلوغ تلك السعادة حتى تصبح سعادة مقيمة دائمة لا تتلاشى أو تضيع.

وبعد انتستانس جاء تلميذه *ديوجنيس* الذي يعد أشهر الكلبيين وأذيعهم صيتا. وقد غالى ديوجنيس في زهده وتطرف حتى صار مضرب الأمثال. ويحكى أنه كان يعيش في برميل لا يملك من متاع الدنيا إلادثارا يستر جسده وعصا يتوكأ عليها وكيسا يجمع فيه كسرات الخبز. (من الصعب إذن أن يجرده أحد من سعادته!) ويروى أنه كان جالسا ذات صباح بجانب برميله يستمتع بدفء الشمس، فإذا بحشد كبير يفد مقبلا عليه يتصدره الاسكندر الأكبر. ومر به الموكب فوقف العاهل أمامه يسأله إن كان به حاجة لشيء يستطيع الإسكندر أن يقدمه إليه؟ فأجابه ديوجنيس «نعم. تنح جانبا حتى لا تحجب عني ضوء الشمس». وقد أظهر ديوجنيس بذلك أنه لا يقل عن أعظم الفاتحين لا في الثراء والغنى ولا في السعادة والرضا، ما دام هو يملك كل ما يريد.

وكان الكلبيون يعتقدون أن على الإنسان ألا يقلق على صحته وألا يضطرب للمرض وألا يجزع للموت. كما يجب عليه أيضاً ألا ينشغل بآلام الآخرين.

وقد اكتسب لفظ «كلبي» أو «النزعة الكلبية» في أيامنا هذه مدلولا خاصا، فباتا يعنيان إنكار الصدق الإنساني، والاستهزاء بالقيم، واللامبالاة بالآخرين.

المدرسة الرواقية

وقام الكلبيون بدور مؤثر في نشوء مدرسة فلسفية أخرى هي الرواقية التي ظهرت في اثنيا في نحو عام ٣٠ قبل الميلاد على يد فيلسوف اسمه *زينون*. ولم يكن زينون هذا من أهل أثينا بل كان تاجرا قبرصيا تحطمت سفينته فالتجأ إلى أثينا حيث تتلمذ على يد بعض الكلبيين ثم ما لبث أن استقل عنهم بمذهبه الخاص. وقد اعتاد على جمع تلاميذه في رواق ذي رسوم، كان فيما سلف ملتقى للشعراء، ولذا عرف زينون وتلاميذه بالرواقيين. وقد مارست الرواقية فيما بعد تأثيرا ملموسا على الثقافة الرومانية.

وكان الرواقيون يعتقدون، على غرار هيراقليطس، أن جميع البشر يشكلون جزءاً لا يتجزأ من العقل الكلي أو «اللوغوس»، وأن كل إنسان عالم مصغر أو «عالم أصغر» ما هو إلا أنعكاس «للعالم الأكبر».

وقادهم هذا إلى الفكرة القائلة ان هناك معقولية تامة في الأشياء، هي ما يسمى «القانون الطبيعي». ولما كان القانون الطبيعي مؤسسا على العقل الخالد الكامن في الإنسان والكون، فان هذا القانون لا يتغير بتغير الزمان والمكان. وبذلك أخذ الرواقيون جانب سقراط في معارضة السوفسطائيين.

والقانون الطبيعي يسري على البشر أجمعين بما فيهم العبيد. ويرى الرواقيون ان قوانين الدول المختلفة وتشريعاتها ما هي إلاتقليد يفتقر إلى كمال «القانون» الكامن في الطبيعة ذاتها.

وكما يمحو الرواقيون الفرق بين الفرد والكون، فإنهم ينكرون أيضاً وجود أي تعارض بين «العقل» و«المادة»، ويرون ان هناك طبيعة واحدة فحسب. ويسمى هذا التصور «الواحدية» وذلك في مقابل «ثنائية» أفلاطون الواضحة حيث يتألف الواقع من عنصرين (هما كما تذكرين المثال والشيء المخلوق على صورته).

وكان الرواقيون أبناء مخلصين لعصرهم الذي أزال الحدود بين البلدان، فتميزوا برؤية عالمية واضحة أكثر انفتاحا على ثقافة عصرهم من «فلاسفة البراميل» (الكلبيين). واسترعى الرواقيون الانتباه إلى الأخوة الإنسانية وعنوا بالسياسة فخرج من صفوفهم رجال دولة مرموقون مثل الإمبراطور الروماني *ماركوس اوريليوس*

(١٢١ ١٨٠ بعد الميلاد). وشجع الرواقيون على ذيوع الثقافة اليونانية في روما. وكان من أبرزهم في هذا المقام *شيشرون* (١٠٦ ١٤٣ قبل الميلاد) الخطيب والفيلسوف ورجل السياسة الذي ابتكر مفهوم «النزعة الإنسانية»، وهي رؤية للحياة تضع الفرد في بؤرة الاهتمام ومركزه. وقد عبر *سينيكا* (٤ قبل الميلاد ٥٦ بعد الميلاد)، وهو من ممثلي الرواقية في صورتها المتأخرة، عن تلك النظرة فقال: «ان للإنسان قيمة مقدسة في عين أخيه الإنسان». ومنذ ذلك الحين صارت هذه العبارة المأثورة شعارا للمؤمنين بالنزعة الإنسانية.

كما لفت الرواقيون الانتباه إلى أن كل الظواهر الطبيعية مثل المرض والموت تتبع قوانين الطبيعة الثابتة التي لا تحيد. ولذا يجب على الإنسان أن يتعلم كيف يتقبل مصيره. وما من شيء بحادث صدفة واتفاقا. فكل ما يقع هونتيجة الضرورة الحتمية، فلا معنى إذن للجزع عندما يأتي القدر يقرع الباب. وعلى الإنسان أن يستقبل أيضاً أحداث الحياة السارة ساكن النفس لا يستبد به طرب أو يطغى عليه فرح. ونحن نرى هنا شبها بالكلبيين الذين طالبوا الإنسان بألا يأبه لتصاريف الحياة أقبلت هي أو أدبرت. ونحن نستخدم اليوم عبارة «السكينة الرواقية» لنصف حال من لا يترك نفسه نهبا للمشاعر والانفعالات.

المدرسة الابيقورية

لقد رأينا أن سقراط كان مهتما بمعرفة كيف يستطيع الإنسان أن يحيا حياة سعيدة. وقد فسر كل من الكلبيين والرواقيين فلسفة سقراط على أنها تعني أن على الإنسان أن يتحرر من الاحتياج الداخلي إلى أي ترف مادي. إلا أن سقراط كان له أيضاً تلميذ يدعى ارستبوس ذهب مذهباً معاكساً. إذ كان يرى أن غاية الحياة هي تحقيق أقصى لذة ممكنة. وكان يقول «إن الخير الأسمى هو اللذة، والشر الأفظع هو الألم». ولذا سعى *ارستبوس* إلى ابتداع أسلوب عيش هدفه تجنب أي ضرب من ضروب الألم. (لقد كان هدف الكلبيين والرواقيين هو تحمل الألم بجميع أشكاله، اما ارستبوس فكان هدفه هو *تجنب الألم* بأي ثمن).

وفي نحو عام ٣٠٠ قبل الميلاد، ظهرت في اثينا مدرسة فلسفية أسسها فيلسوف يدعى *ابيقور* (٣٤١ ٢٧٠ قبل الميلاد) استعاد فكرة أخلاق اللذة وعمد إلى تطويرها وإلى الجمع بينها وبين نظرية ديموقريطس في الذرة.

ويحكى أن الابيقوريين كانوا يعيشون في حديقة، فعرفت باسم «حديقة ابيقور» وعرفوا باسم «فلاسفة الحديقة». كما يروى أن مدخل الحديقة قد نقشت فوقه عبارة تقول «أدخل أيها الغريب، هنا ستحيا حياة طيبة. هنا اللذة هي الخير الأسمى».

ولئن كانت اللذة خيرا، بل خيرا أسمى، فان ابيقور قد نبه أيضاً إلى أن للذة عواقبها، وقد لا تكون تلك العواقب أو الآثار الجانبية كلها خيرا. فان كنت قد أسرفت يا صوفيا مثلا ذات مرة اسرافا شديدا في أكل الشوكولاته فستفهمين بالتأكيد ما أعنيه، أما إن لم تكن قد فعلت ذلك فإليك التمرين التالي: خذي بعض ما ادخرته من مصروفك واشتري به خمس قطع من الشوكولاته. (وسنفترض أنك تحبين الشوكولاته). وعليك الآن ان تأكلي كل هذه الكمية دفعة واحدة: وما إن تنقضي نصف ساعة، حتى ستدركين مع الآم المعدة المبرحة ما يقصده ابيقور بالآثار الجانبية.

ولئن كانت اللذة خيرا فان ابيقور قد أشار أيضاً إلى أن اللذات مراتب ودرجات وينبغي المفاضلة بينها. فقد تعني التضحية بلذة قريبة دانية الفوز بلذة أطول آجلاً أو أشد قوة في المدى الأبعد. (تخيلي أنك قررت أن تحرمي نفسك من الشوكولاته لمدة سنة كاملة حتى تدخري من مصروفك المبلغ اللازم لشراء دراجة جديدة أو للقيام برحلة). ولحن نملك، على عكس الحيوانات، القدرة على تخطيط حياتنا، وعلى «برمجة» رغباتنا. ان الحصول على الشوكولاته شيء جميل لكن الفوز بالدراجة أو برحلة سياحية شيء أجمل.

وكان ابيقور يؤكد على أن «اللذة» لا تعني بالضرورة اللذة الحسية كأكل الشوكولاته مثلا. إنه يدخل في اللذة أيضاً اللذة النفسية كالشعور بالصداقة، أو اللذة العقلية كتذوق الفن الرفيع. والتمتع بالحياة يقتضي التحلي بالفضائل اليونانية القديمة وهي ضبط النفس، والاعتدال، والطمأنينة الباطنية. وعندما ينجح الإنسان في التحكم في رغباته يفوز بالطمأنينة التي تساعده على تحمل الألم.

وبدافع الخوف من الآلهة، أخذ كثير من الناس يتوافدون على حديقة ابيقور سعيا وراء وعد بالسكينة والسعادة. وفي هذا الصدد استخدم ابيقور نظرية ديموقريطس الذرية علاجا شافيا من المخاوف المرتبطة بالخرافات الدينية. فالشرط الأول كي يعيش الإنسان حياة سعيدة هي التغلب على الجزع من الموت. ولهذا الغرض استعان ابيقور بنظرية ديموقريطس عن «ذرات الروح». لعلك تذكرين أن ديموقريطس كان لا يعتقد في وجود حياة بعد الموت، لأن «ذرات الروح» تتفرق من كل جانب عند موت الإنسان.

وكان ابيقور يقول «إن الموت لا يعنينا ولا يخصنا. فحين نحيا لا وجود للموت. وحين يحضر الموت فلا وجود لنا» وبالتالي لن نشعر بشيء ولا داعي للجزع من الموت (يا لها من فكرة بارعة عندما تتأمليها! فمن سمع عن شخص اشتكى من أنه ذاق مرارة الموت).

وقد أوجز أبيقور فلسفته التي تخلص الإنسان من مخاوفه في أربع عبارات أسماها الوصفات الأربع الشافية، وهي:

إن الآلهة لا تثير الفزع.

إن الموت لا يثير الجزع.

إن الخير يسير المنال.

إن الكرب سهل الاحتمال.

ومن وجهة النظر اليونانية لم يكن من الجديد في شيء تشبيه مهمة الفيلسوف بمهمة الطبيب. وابيقور يرمي هنا إلى تزويد كل إنسان «بصيدلية فلسفية» تحتوي على «الوصفات» الأربع السابقة.

وعلى عكس الرواقيين، لم يظهر الأبيقوريون اهتماماً يذكر بالسياسة أو بالحياة الاجتماعية، وكانت نصيحة الأبيقوريين هي «عش معتزلا ». وربما جاز لنا أن نقارن «حديقة ابيقور» بمجموعات الشباب المعاصرة التي اختارت أن تعيش معاً حياة

جماعية مشتركة. فقد التمس كثيرون في عصرنا الحاضر «ملاذا آمنا » صنعوه لأنفسهم ويعيشون فيه على هامش المجتمع.

وبعد ابيقور اكتفى كثيرون من أتباعه بالتركيز على التماس الملذات بمعناها الحسي جاعلين شعارهم «عش اللحظة الراهنة!»، حتى شاع العرف أن يستخدم لفظ «أبيقوري» اليوم بمعنى سلبي لوصف من لا يعيش إلا للذة وحدها.

الأفلاطونية الجديدة

لقد رأينا يا صوفيا أن الكلبيين والرواقيين والأبيقوريين قد نهلوا جميعا من معين سقراط، وأنهم قد استعانوا أيضاً ببعض الفلاسفة السابقين على سقراط مثل هيراقليطس وديموقريطس.

لكن أبرز تيار فكري في العصر الهيليني المتأخر قد استهلم في المقام الأول فسلفة أفلاطون. ولذا فاننا نسميه «الأفلاطونية الجديدة».

وأهم ممثلي الأفلاطونية الجديدة هو افلوطين (نحو ٢٠٥ ٢٧٠ بعد الميلاد) الذي درس الفلسفة في الاسكندرية ثم شد الرحال بعد ذلك إلى روما ليستقر فيها. ومن المهم أن نلاحظ أنه وفد من الاسكندرية، أي من تلك المدينة التي كانت ساحة تلاقت فوقها الفلسفة اليونانية مع الصوفية الشرقية على مدى عدة قرون. وذهب افلوطين إلى روما جالبا معه مذهبا في الخلاص سيشكل منافسا قويا للمسيحية التي جاءت لتبشر بفكرة أخرى عن الخلاص. على أن تلك المنافسة لم تمنع الأفلاطونية الجديدة من أن تترك تأثيرا ملموسا في اللاهوت المسيحي.

هل تتذكرين يا صوفيا نظرية أفلاطون عن المثل، وكيف ميز بها بين عالم المثل وعالم الحواس ففصل فصلا تاما بين الروح والجسد. لقد أصبح الإنسان بذلك كائنا مزدوجا: فجسمه مكون من الطين والتراب مثل أي شيء آخر في عالم الحواس، ولكنه يملك أيضاً روحا خالدة. وكانت تلك فكرة يؤمن بها كثير من أهل اليونان قبل أن يظهر أفلاطون بزمن طويل. ولم تكن هذه الرؤية غائبة عن افلوطين بدوره. فقد اطلع على أفكار مماثلة وصلت إليه وافدة من آسيا.

يرى افلوطين أن العالم يقوم في المسافة الممتدة بين قطبين متقابلين. فمن جهة يسطع النور الالهي الذي يدعوه «الواحد» أو «الله» أحيانا. ومن الجهة الاخرى يسود الظلام المطلق الذي لا يتلقى شيئاً من نور الواحد. ويرى افلوطين أن الظلام ليس له وجود فعلي، فما هو سوى غياب الضوء.

إن كل ما يوجد هو الله، أو الواحد، لكن مثلما تخبو دفقة الضوء وتهن تدريجيا حتى تتلاشى فان هناك نقطة معينة لا يصل إليها وهج النور الالهي.

ويعتقد افلوطين أن الروح تتلقى قبسا من نور الواحد، في حين أن المادة هي الظلمة التي ليس لها وجود حقيقي. على أن كل الصور والأشكال الموجودة في الطبيعة تملك هي أيضاً بريقا باهتا من الواحد.

تخيلي يا صوفيا أننا أوقدنا نارا ذات ليلة في أرض خلاء فأخذ الشرر يتطاير منها في كل اتجاه. وفي دائرة واسعة حول النار سينير الضوء المنبعث من النار ظلمة الليل. وحتى ان نحن ابتعدنا لعدة كيلومترات عن موقع النار لاستطعنا أن نبصر الضوء الخافت الصادر عنها. ولكننا ان واصلنا الابتعاد فلن نرى سوى نقطة ضوء واهن أشبه بوميض خافت آت من شمعة نائية في حلكة الليل. فإن أوغلنا في البعد فلن يصلنا الضوء على الاطلاق. فعند نقطة معينة ستختفي أشعة الضوء في عتمة الليل، وعندما تسود الظلمة التامة لن نستطيع أن نرى شيئاً وعندئذ لن تكون هناك لا أشكال ولا أطياف.

تخيلي الآن أن الواقع يشبه نارا كهذه أشعلت ليلا في الخلاء. إن ما يشتعل ويضيء هو الله أما الظلمة المحيطة فهي المادة التي خلق منها الإنسان والحيوان. وعلى مقربة من الله توجد المثل التي هي الصور الأولية التي خلقت على هيئتها جميع الكائنات. وما روح الإنسان في المقام الأول إلا «قبس من النور». وأينما ولينا فثمة بعض من النور الالهي. ويكفينا أن ننظر إلى المخلوقات الحية جميعا، أفلا نستشف هذا الوهج الالهي حتى في زهرة برية عزلاء تنبت بين الصخور. ولكن ما بال الجماد من تراب وحجر وماء؟ إن الجماد لا يوجد إلا في أقصى النقاط بعدا عن الإله الحي. إنني أقول إن السر الالهي منبث في جميع المخلوقات بقدر مقدور. فنحن نبصر هذا السر ساجيا في زهرة الفل أو زهرة السوسن. ثم نستشعره منعكسا بقوة أكبر عندما نرى

فراشة تطير من زهرة لأخرى أو حين نراقب سمكة حمراء تسبح في وعاء مـن زجاج. إلا أن هذا السر الذي لا تسبر أغواره يسطع بأبهى تجلياته في أرواحنا. ففـي الـروح نكون أقرب شـيء إلى الله، وفي الـروح وحدهـا نستطيع أن نتوحـد مـع سـر الحيـاة العظيم، بل قد يمكننا في أحوال نادرة أن نشعر أننا لسنا سوى هذا السر الإلهي ذاته.

ألا يذكرنا تشبيه افلوطين عن النار الموقدة ليلا في الخلاء بتشـبيه الكهـف لـدى أفلاطون؟ فكلما اقتربنا من مدخل الكهف اقتربنا من المصـدر الـذي تنبثق منـه كـل الكائنات. ولكـن علـى عكـس أفلاطـون الـذي يقسـم الواقـع إلى جزأيـن مسـتقلين متمـايزين، فـان مذهـب افلوطـين يتميز بتجربـة يختبر فيهـا الوجـود بكليتـه التامـة الشاملة. فالكل واحد لأن الكل هو الله. فحتى الظـلال في أعمـاق كهـف أفلاطـون تتلقى وهجا باهتا من الواحد.

وقد مر افلوطين في حياته بأحوال نـادرة شـعر فيهـا أن روجـه تتوحـد مـع الله. ونحن نسمي هذه التجربة عادة *تجربة صوفية*. ولم يكن افلوطين هو وحده الـذي خـبر هذا النوع من التجارب. ففي كل العصور وجميـع الثقافـات نصـادف أناسـا ينبئوننـا بأنهم مروا بهذا النوع من التجارب، ورواياتهم عـن تلـك التجـارب قـد تتبـاين في التفصيلات إلا أن السمات الجوهرية تظل واحدة فيها. ولندرس الآن بعضا من تلك السمات.

الصوفية

تعـني التجربـة الصوفيـة تجربـة يشـعر فيهـا الإنسـان أنـه يفنـى في الله أو «روح الكون». ولئن كانت أديان كثيرة تؤكد على الهوة التي تفصـل الله عـن المخلوقـات، فان هذه المسافة لا وجود لها في عين الصوفي. فهو يشعر أنه «يتوحد مـع الله» أو أنـه «يفنى» فيه.

والفكرة التي تقوم عليها هذه التجارب هي أن ما ندعوه عادة «الأنا» ليس هـو «الأنا» الحقيقية. ففي لمحات خاطفة، نستطيع أن نمر بتجربة الانتماء إلى «أنا» أكـبر. وبعـض الصوفيـين يطلقـون علـى هـذه الأنـا الأكـبر الله، وبعضهـم يدعوهـا «روح

الكون» أو «الطبيعة» أو «الكون». وعندما يحدث الاتحاد، يشعر الصوفي أنه «يفقد ذاته» انه يتلاشى في الله أو يفنى في الله، مثلما تفقد قطرة الماء ذاتها عندما تصبح جزءاً من مياه البحر فتفنى فيه. وقد وصف أحد الصوفيين الهنود هذه التجربة فقال: «عندما كنت لم يكن الله؛ وعندما كان الله لم أكن أنا». أما الصوفي المسيحي *أنجليوس سيليسيوس* (١٦٢٤ ١٦٧٧) فيصف هذه التجربة فيقول: «كل نقطة تصبح البحر عندما تصب فيه، مثل الروح تظل تصعد في مرتقاها حتى تصبح الله».

وربما كنت تتصورين يا صوفيا أن «فقدان الذات» ليس بالأمر المستحب أو المنشود. وأنا أتفهم شعورك هذا، لكن المسألة هي أن ما تفقدينه أقل كثيراً مما تفوزين به. فأنت تخسرين نفسك في شكلها الراهن لكنك تدركين في الوقت ذاته أنك شيء أكبر كثيراً. إنك الكون كله، بل إنك في الواقع روح الكون ذاتها يا صوفيا. وحتى إن كان عليك أن تفقدي نفسك بوصفك صوفيا امولدسن، ففي وسعك أن تلتمسي العزاء في معرفة أنك ستفقدين هذه «الأنا» الفردية على أي حال في يوم من الأيام. أما «الأنا» الحقيقية التي لاتستطعين أن تعرفيها إلا إذا كنت قادرة على فقدان نفسك فهي في رأي الصوفيين، مثل نار غامضة تبقى مشتعلة إلى الأبد.

لكن هذا النوع من التجارب الصوفية لا يأتي دوما من تلقاء ذاته. فقد يتعين على الصوفي أن يسير في طريق «تطهر النفس واستنارة البصيرة» الذي يقود إلى الاتصال بالله. ويتمثل هذا الطريق في اتباع أسلوب غيش بسيط وممارسة طرق مختلفة للتأمل الباطني. وذات يوم سيبلغ الصوفي مأربه ويستطيع أن يهتف أخيرا «أنا الله» أو يخاطب الله قائلا: «أنا أنت».

ونحن نصادف الاتجاهات الصوفية في كل أديان العالم الكبرى. ومما يلفت النظر في الروايات التي يقدمها الصوفيون عن تجاربهم أنها تتشابه جميعا تشابها واضحا ملموسا يتجاوز ما قد يكون بينها من فروق تعزى إلى اختلاف الثقافات. فالخلفية الثقافية لكل صوفي لا تتجلى إلاعندما يحاول أن يقدم تفسيرا دينيا أو فلسفيا لتجربته الصوفية.

وفي *الاتجاه الصوفي التوحيدي* (أو الغربي) ـأي الاتجاه الذي نشأ في كنف أديان التوحيد وهي اليهودية والمسيحية والإسلام يؤكد الصوفي على إتحاده بإله عيني. ذلك

أن الله لئن كان موجودا في الطبيعة وفي روح الإنسان، فانه يسمو أيضاً متعاليا على العالم. أما *الاتجاه الصوفي الشرقي* - أي الاتجاه الذي نشأ في كنف الهندوسية والبوذية والطاوية فان الصوفي يصف تجربته على أنها تعني الاندماج الكامل مع إله غير عيني أو مع «روح الكون».

وبمقدور الصوفي الشرقي أن يقول «أنا روح الكون»، أو «أنا الله». فهو يرى أن الله ليس موجودا إلا في العالم وحده وليس في أي مكان آخر سواه.

كما نصادف في عصرنا الحاضر أناسا يصفون لنا تجارب صوفية مروا بها دون أن يكونوا منتمين إلى دين بعينه. فيروون أنهم يشعرون فجأة بشيء يسمونه «الوعي الكوني» أو «الشعور الأثيري». لقد شعروا أنهم انتزعوا خارج نطاق الزمن وخبروا تجربة الحياة «من منظور الأبدية».

اعتدلت صوفيا وجلست في سريرها. كان عليها أن تتأكد أنها ما زالت تملك جسدا... إذ ما كادت تفرغ من القراءة عن افلوطين والصوفيين، حتى بدأت تشعر أنها تحلق في فضاء الغرفة ثم تخرج من النافذة وتطير فوق المدينة. ومن مرتقاها هذا أخذت تنظر إلى المارة في الميدان الكبير ثم استمرت تعلو وترتفع حتى لاح كوكب الأرض فأبصرت شمال أوروبا بأسره ثم ظلت تصعد وتصعد إلى أن رأت السافانا الافريقية الشاسعة.

لقد أصبح العالم كله أشبه بشخص حي، وشعرت أن هذا الشخص هو صوفيا ذاتها. وقالت «أنا العالم»، ان هذا الكون العظيم الهائل التي طالما شعرت أنه مستعص على الفهم ومليء بالأسرار أصبح «الأنا» الخاصة بصوفيا. إن الكون ما زال كما هو بالطبع هائلا وجليلا لكن صوفيا أضحت هي كذلك هائلة كبيرة.

و لم يلبث هذا الشعور العجيب أن تلاشى رويدا رويدا، غير أن صوفيا كانت متأكدة أنها لن تنساه أبداً... وشعرت أن شيئاً انبثق من جبهتها

وامتزج بسائر المخلوقات، مثلما تسري قطرة صبغة واحدة في إناء مـاء فتلونـه كله..

عندما تبددت هذه الانطباعات، أحست كأنما هـي تستيقظ بـرأس مثقـل بعد حلم رائع. وراودها شيء من الإحبـاط وهـي تتبـين أن لها جسـدا يحـاول بصعوبة أن يستوي معتدلا في السرير. فقد كـان ظهرهـا يؤلمهـا لأنهـا كـانت تقرأ وهي مستلقية على بطنها. لكن ما أروع تلك التجربة التي لا تنسى!

وأخـيرا نجحـت صوفيـا في النهـوض مـن السـرير، فبـادرت إلى تثقيـب الصفحـات ووضعتهـا في الملـف مـع الـدروس الأخـرى. ثـم ذهبـت تتـنزه في الحديقة.

كانت العصافير تغرد كمـا لـو أن العـالم قـد خلـق تـوا. وخلـف حظـائر الأرانب القديمة، كانت أشـجار البتـولا تزهـو بأخضرهـا النـاضر البـاهر حتـى ليخيل إليك أن الخالق لم يفرغ بعد من تكوين اللون الذي سيقدره لها.

أتستطيع أن تؤمن حقا بأن كل الأشياء هي «أنا» إلهية؟ أتستطيع أن تؤمن أنها تحمل في نفسها روحا هي «قبس من النور»؟ إن صدق هذا لكـانت هـي مخلوقا ربانيا.

الفصل الثالث عشر

البطاقات البريدية

... أفرض على نفسي رقابة صارمة...

عدة أيام مرت دون أن تتلقى صوفيا شيئاً من أستاذ الفلسفة. غداً الخميس سيوافق ١٧ مايو (أيار)، وهو العيد الوطني للنرويج. كما إن بعد غد الجمعة سيكون كذلك يوم عطلة بالمدرسة ثم تتلوه عطلة نهاية الأسبوع. ولذا خرجت صوفيا ونورا من المدرسة جذلتين فرحتين تتهيآن لاستقبال هذه الإجازة القصيرة. وفجأة قالت نورا:

ـ ما رأيك يا صوفيا إن أخذنا الخيمة وقمنا برحلة في الغابة؟

كان أول ما فكرت فيه صوفيا هو أنها لا تستطيع أن تبتعد عن البيت فترة طويلة. إلا أنها ما لبثت أن قالت:

ـ لِمَ لا؟ انها فكرة ظريفة.

بعد قليل جاءت نورا إلى بيت صوفيا تحمل على ظهرها حقيبة كبيرة. وكانت صوفيا قد جهزت أيضاً حقيبتها وأحضرت الخيمة. أخذت كل واحدة فراشا مطويا ومرتبة عازلة وسترة ثقيلة وترموسا كبيرا وكمية كافية من مأكولاتهما المفضلة.

ومكثتا تنتظران والدة صوفيا حتى عادت في نحو الخامسة، فأخذت تزودهما بوصاياها عما يجب ولا يجب فعله، ثم سألتهما أين تنويان نصب خيمتهما بالضبط.

قالتا انهما ستقصدان مكانا مرتفعا يدعى «قمة الطيور». فقد يسعدهما الحظ بسماع النداء المميز الذي يطلقه طائر «الوقواق» في الصباح الباكر.

على أن صوفيا كان لديها سبب آخر دفعها إلى تشجيع نورا على اختيار هذا الموقع المحدد. إذ كانت تعتقد أن «قمة الطيور» قد لا تكون بعيدة عن شاليه الضابط العجوز. فثمة شيء يدفعها لأن تعود إلى هناك، ولكنها لا تجرؤ على الذهاب بمفردها.

سارتا على الممشى الذي يبدأ من أمام بيت صوفيا. وأخذتا تثرثران في موضوعات متفرقة، وأحست صوفيا أنها تستمتع بترك نفسها على سجيتها تتحدث في هذا وذاك بعد المجهود الذي بذلته في دراسة الفلسفة.

في نحو الساعة الثامنة كانتا قد فرغتا من نصب الخيمة على هضبة مستوية خالية من الأشجار بالقرب من قمة الطيور. ثم مدتا فراشيهما وأخذتا تتهيآن لقضاء ليلتهما في الخلاء فجلستا أمام الخيمة تتناولان عشاءهما. وبينما هما تحتسيان مشروبا دافئا سألت صوفيا صديقتها:

ـ هل سمعت يا نورا عن شاليه الضابط العجوز؟

ـ شاليه الضابط العجوز؟

ـ إنه شاليه داخل الغابة غير بعيد من هنا... على حافة بحيرة صغيرة. لقد كان يعيش به فيما مضى ضابط عجوز غريب الأطوار لذلك أصبح يعرف بهذا الاسم.

ـ وهل يعيش فيه أحد الآن؟

ـ أتريدين الذهاب إلى هناك لنراه؟

ـ ولكن أين هو بالضبط؟

أشارت صوفيا إلى اتجاه غامض بين الأشجار.

لم تكن نورا متحمسة للذهاب، إلا أنها نزلت على رغبة صديقتها وانطلقتا في طريقهما بينما الشمس تهبط بعيدا في الأفق.

سارتا في البداية بين أشجار الصنوبر العالية ثم شقتا طريقهما وسط شجيرات متلاصقة ونباتات متكاثفة. وأخيرا وصلتا إلى درب متعرج. أهو الدرب الذي سارت عليه صوفيا صباح ذلك الأحد؟

نعم إنه هو، إذ سرعان ما لمحت شيئاً يلمع بين الأشجار إلى يمين الدرب، فصاحت:

ـ إنه هناك.

وما لبثتا أن وصلتا إلى حافة البحيرة الصغيرة. أخذت صوفيا تحدق إلى الشاليه من الجهة الأخرى للبحيرة. كانت كل النوافذ مغلقة، والمبنى الأحمر الصغير يبدو مهجورا تماماً.

تلفتت نورا حولها ثم استدارت نحو صوفيا وسألتها:

ـ هل سنسير على الماء؟

ـ لا بالطبع، سنركب قاربا.

وأشارت صوفيا إلى القارب الصغير الذي كان في نفس مكانه السابق.

ـ أجئت إلى هنا من قبل يا صوفيا؟

هزت صوفيا رأسها بالنفي. فمحاولة شرح زيارتها السابقة أمر بالغ التعقيد. فلو حدثت نورا عنها ستضطر لأن تخبرها بأمر ألبرتو كنوكس ودروس الفلسفة.

ركبتا القارب وأخذتا تجدفان بقوة وهما تتضاحكان وتتمازحان حتى وصلتا إلى الضفة الأخرى. ولم يفت صوفيا أن تجذب القارب، مع نورا هذه المرة، إلى داخل الشاطيء بعيدا عن الماء.

وسارتا نحو الشاليه حتى وصلتا إلى الباب الأمامي. لم تلاحظا شيئاً ينم عن وجود أحد بالشاليه فأدارت نورا مقبض الباب.

ـ إنه موصد... هل كنت تتصورين أن يكون الباب مفتوحا؟

ردت صوفيا:

ـ انتظري، ربما وجدنا مفتاحا.

أخذت صوفيا تبحث في الشقوق بين أحجار الأساس. وبعد عدة دقائق صاحت نورا:

ـ كفاك بحثا يا صوفيا هيا بنا نعود إلى الخيمة.

ولكن في نفس اللحظة هتفت صوفيا:

ـ ها هو، لقد عثرت عليه!

ولوحت بالمفتاح وهي منتشية بفرحة الانتصار، وأدارته في القفل فانفتح الباب.

تسللت الصديقتان إلى داخل الشاليه بخفة وحذر فوجدتاه باردا ومعتما، فقالت نورا:

ـ إننا لا نرى شيئاً!

كانت صوفيا قد احتاطت لهذا الاحتمال فأخرجت من جيبها علبة ثقاب وأشعلت عودا. أجالتا بصرهما في كل اتجاه فوجدتا الشاليه خاليا تماماً. وفجأة انطفأ العود فحل الظلام من جديد. أشعلت صوفيا عودا ثانيا، إلا أنها لمحت هذه المرة شمعة مثبتة في شمعدان من الحديد المشغول موضوع أعلى المدفأة. فأشعلت الشمعة بعود ثالث فسرى في الغرفة الصغيرة نور يكفيهما لتفقد المكان. وسألت صوفيا:

ـ أليس من الغريب أن تضيء هذه الشمعة الصغيرة هذا الظلام الحالك؟

فأومأت نورا برأسها.

ومضت صوفيا تقول:

ـ ولكن عند نقطة معينة يختفي الضوء في الظلام. في الواقع ان الظلام لا يوجد بحد ذاته، انه ليس سوى غياب النور.

ـ إنك تخيفينني بهذا الحديث يا صوفيا! هيا بنا نخرج من هنا...

ـ كلا سننظر أولا في المرآة.

وأشارت صوفيا إلى المرآة النحاسية المعلقة أعلى الصوان. فقالت نورا:

ـ إنها جميلة حقا!

ـ هذا صحيح لكن الأهم أنها مرآة مسحورة.

ـ مرآة مسحورة فلنختبرها إذن: «يا مرآة يا مسحورة أخبريني من أجمل الجميلات»!

ـ إني لا أمزح يا نورا. أنا متأكدة أنك إن تطلعت إليها لأبصرت شيئاً في الجهة الأخرى.

ـ ألم تقولي إنك لم تأت إلى هنا من قبل؟ فلماذا تحاولين إخافتي طول الوقت؟

ولم تستطع صوفيا أن ترد على هذه الملاحظة، فقالت:

ـ أنا آسفة، لا تغضبي...

ثم لمحت نورا علبة صغيرة مطروحة في أحد الأركان. فانحنت وأخذتها، وقالت:

ـ ليس بها سوى بطاقات بريدية!

شهقت صوفيا وقالت:

ـ لا تلمسيها! أتسمعيني؟ أقول لك لا تلمسيها!

قفزت نورا مذعورة تاركة العلبة تسقط من يدها كما لو كانت قد احترقت بها فتبعثرت البطاقات على أرض الغرفة. وفي اللحظة التالية أخذت تضحك وتقول:

ـ ولكنها ليست سوى بطاقات بريدية يا صوفيا!

جلست نورا على الأرض، وبدأت تجمع البطاقات. ثم ما لبثت صوفيا أن قعدت إلى جوارها. وجعلت نورا تتفحص البطاقات وتقول:

ـ من لبنان... من لبنان... من لبنان أيضاً... لقد ارسلت كلها من لبنان.

فردت صوفيا:

ـ أعرف ذلك.

اعتدلت نورا في جلستها ونظرت إلى صوفيا في عينيها مباشرة وقالت:

ـ إذن أنت جئت إلى هنا من قبل؟

ـ نعم... هذا صحيح...

إذ تبينت صوفيا أن من الأنسب أن تخبر صديقتها أنها حضرت إلى الشاليه من قبل. فما وجه الضرر في أن تخبر نورا بطرف من المغامرة العجيبة التي عاشتها خلال الأيام الماضية؟

ـ إلا أني لم أرد أن أخبرك قبل أن نحضر إلى هنا يا نورا.

وبدأت نورا تقرأ البطاقات.

ـ إنها كلها مرسلة إلى فتاة تدعى هيلد مولر كناج!

لم تكن صوفيا قد أمسكت بهذه البطاقات حتى الآن، فسألت نورا:

ـ وما هو عنوان هيلد هذه؟

وقرأت نورا:

ـ هيلد مولر كناج، طرف/ألبرتو كنوكس، ليليفان، النرويج.

تنفست صوفيا بارتياح. فقد كانت تخشى أن يكون العنوان هو: طرف/صوفيا أموندسن، فلما اطمأنت أخذت تتفحصها عن قرب.

ـ ٢٨ أبريل (نيسان)... ٤ مايو (أيار)... ٦ مايو (أيار)... ٩ مايو (أيار)... إنها لم ترسل إلا منذ أيام قلائل!

ـ وهناك شيء غريب آخر. إن خاتم البريد على كل البطاقات هو خاتم النرويج. انظري يا صوفيا إلى هذا الخاتم انه يشير إلى: «فصيلة الأمم المتحدة». إن الطوابع أيضاً نرويجية...

ـ أعتقد أنه أمر طبيعي. فالواجب يحتم عليهم أن يكونوا محايدين ولذلك فان لهم مكتب بريد نرويجيا خاصا بهم هناك.

ـ ولكن كيف يبعثون برسائلهم إلينا هنا؟

ـ بطائرة عسكرية غالبا.

وضعت صوفيا الشمعة على الأرض، وأخذت الصديقتان تقرآن البطاقات. رتبتها نورا زمنيا وبدأت تقرأ البطاقة الأولى:

عزيزتي هيلد،

لا تدرين مقدار شوقي للعودة إلى ليلساند. انني أتوقع أن أصل إلى مطار كريستيانساند في أول المساء من ليلة العيد، عيد منتصف الصيف. كم كنت أود أن أصل يوم عيد ميلادك الخامس عشر لكنك تعرفين أنني أخضع للأوامر العسكرية. وكي أعوضك عن هذا التأخير البسيط أبذل كل جهدي وعنايتي في إعداد الهدية الرائعة التي ستتلقينها يوم عيد ميلادك.

مع صادق المحبة ممن يفكر دائما في مستقبل ابنته.

ملاحظة: سأرسل صورة من هذه البطاقة إلى صديقتنا المشتركة. اعرف أني قد أبدو لك متكتما، وربما شديد الغموض، غير أن اللحظة التي ستدركين فيها كل شيء قد اقتربت يا هيلد.

ثم أخذت صوفيا الرسالة التالية:

عزيزتي هيلد

نحن نعيش هنا يوما بيوم. وإن كان هناك ما سأتذكره من هذه الشهور التي أمضيها في لبنان فهو هذا الانتظار المتطاول بلا نهاية. ولكني أبذل قصارى جهدي لتكون هدية عيد ميلادك أجمل الهدايا وأروعها. لا أستطيع أن أقول لك شيئاً آخر الآن فاني أفرض على نفسي رقابة صارمة.

تحياتي

بابا

جلست الصديقتان وقد حبستا أنفاسهما. ولم تجرؤ أي منهما على أن تنبس ببنت شفة فقد كانتا تتحرقان شوقا لمعرفة ما تقول البطاقات.

ابنتي الحبيبة،

كنت أود أن أرسل إليك اخباري مع حمامة بيضاء ولكن الحمامات البيضاء غائبة عن سماء لبنان. وإذا كان هناك شيء تمس اليه حقا حاجة هذا البلد الذي دمرته الحرب فهو الحمامات البيضاء. إني أرجو حقا أن تتمكن الامم المتحدة من إشاعة السلام في العالم!

ملاحظة: ربما كانت هدية عيد ميلادك تصلح لأن تقتسميها مع اشخاص آخرين. سنتكلم في ذلك عند عودتي. لكن أمازلت لا تعرفين حقا عمّ أتحدث؟

لك كل محبة صادقة ممن يفكر فيك طول الوقت.

واستمرتا تقرآن البطاقات حتى وصلتا إلى البطاقة السابعة التي كانت تقول:

حبيبتي هيلد

لقد بدأت أضيق بكتمان كل هذه الاسرار بخصوص عيد ميلادك إلى درجة أني أمنع نفسي عدة مرات كل يوم من أن أحدثك في التليفون لأخبرك بالحقيقة كلها

دفعة واحدة. انه شيء لا يكف عن النمو والنمو. وعندما يصبح الشيء أكبر فأكبر يغدو من الأصعب على المرء أن يحتفظ به لنفسه.

بابا الذي يهديك قبلاته وأشواقه

ملاحظة: ستقابلين ذات يوم فتاة تدعى صوفيا. وكي أتيح لكل منكما الفرصة لتتعرف على الأخرى قبل أن تلتقيا، بدأت أبعث إليها بنسخ من كل البطاقات البريدية التي أرسلها إليك. وأعتقد انها ستبدأ قريبا يا هيلد في تبين المقصود من ذلك. لكنها لا تعرف حتى اللحظة الحالية أكثر مما تعرفين أنت. إن لها صديقة تدعى نورا، ربما استطاعت أن تساعدها.

بعد أن قرأتا هذه البطاقة الأخيرة جلستا ساكنتين تحدق إحداهما إلى الأخرى ثم أمسكت نورا يد صوفيا بقوة وقالت لها:

ـ أنا خائفة!

ـ وأنا أيضاً!

ـ متى أرسلت هذه البطاقة الأخيرة؟

تفحصت صوفيا البطاقة من جديد ونظرت إلى تاريخ خاتم البريد، وأجابت:

ـ ١٦ مايو (أيار)... هذا تاريخ اليوم!

واندفعت نورا تقول:

ـ لكن هذا مستحيل!

أخذتا تفحصان خاتم البريد من جديد. لم تكن صوفيا مخطئة إنه... «٩٠/٥/١٦».

ومضت نورا تقول:

- إنه حقا مستحيل. ولا أستطيع أن أتخيل من الذي يكتب كل هـذا. من المؤكد انه شخص يعرفنا. ولكن كيف عرف أننا سنأتي إلى هنا في هـذا اليوم بالتحديد؟

كانت نـورا هـي الأكثر خوفـا واضطرابـا. فقصـة هيلـد وأبيهـا لم تكـن جديدة على صوفيا.

- أعتقد أن لذلك صلة بالمرآة النحاسية.

فانتفضت نورا مذعورة مرة أخرى وصاحت:

- لا أتصـور أنـك تعتقديـن أن البطاقـات تخـرج مـن المـرآة المسـحورة في اللحظة التي يوضع فوقها خاتم البريد في لبنان؟

- هل عندك تفسير آخر؟

- لا....

- هناك شيء آخر غامض هنا.

قالت صوفيا هذا وهبـت متجهـة بالشـمعة نحـو اللوحتـين المعلقتـين علـى الجدار. سارت نورا وراءها ووقفتا تحدقان إلى اللوحتين:

- **بيركلي وباركلي**. ما معنى هذا؟

- لست أدري...

لاحظتا أن الشمعة أوشكت على النضوب فقالت نورا:

- هيا بنا نغادر هذا المكان.

- انتظري أريد أن آخذ المرآة معنا.

مدت صوفيا يديها ونزعت المرآة عن الحائط أعلى الصوان. حاولت نـورا أن تثنيها ولكن صوفيا لم تنصت إليها. عندما خرجتا من الشاليه كانت الظلمة شاحبة شأنها في ليالي مايو (أيار)، وكانت السـماء تشي بضـوء كـاف يتيـح

رؤية ملامح الأشجار والشجيرات. وكانت البحيرة تعكس في شحوب صورة السماء من فوقها. جدفت الصديقتان ببطء وكل منهما غارقة في أفكارها حتى وصلتا إلى الضفة الأخرى.

لم تشعر أي منهما برغبة في الكلام وهما عائدتان إلى الخيمة ولكن كلا منهما كانت تعرف أن صاحبتها تفكر بعمق فيما رأيتاه توا. ومن حين لآخر كانتا تبصران عصفورا يطير أو تسمعان بومة تنعق.

وما إن وصلتا إلى الخيمة حتى تسللتا إلى فراشيهما. ورفضت نورا رفضا قاطعا أن تظل المرآة المسحورة داخل الخيمة. فمن المخيف بما فيه الكفاية أنهما ستنامان وهما تعرفان أن المرآة قابعة أمام باب الخيمة. وكانت صوفيا قد أخذت أيضاً البطاقات البريدية ووضعتها في أحد الجيوب الجانبية لحقيبتها.

استيقظتا مبكرتين في الصباح. نهضت صوفيا وتركت فراشها قبل نورا. انتعلت حذاءها الطويل وخرجت من الخيمة. رأت المرآة النحاسية على العشب مكسوة بالندى، فمسحتها بكم صدارتها، وأخذت تتطلع إلى صورتها. خيل إليها أنها ترى نفسها من أعلى لأسفل في لحظة واحدة. ولكنها لم تجد بجوار المرآة لحسن الحظ اي بطاقات بريدية آتية من لبنان!

أعلى الفرجة الخالية بين الأشجار الممتدة خلف الخيمة، كان ضباب الصبح ينقشع ببطء منسحبا في تشكيلات أشبه بالقطن المندوف. وكانت الطيور تصدح بكل طاقتها ولكن صوفيا لم تستطع أن تبصر أو تسمع أي طائر من طيور الوقواق.

لبست الصديقتان صدارتين إضافيتين وجلستا تتناولان إفطارهما خارج الخيمة. وسرعان ما عرج الحديث إلى شاليه الضابط العجوز وإلى البطاقات الغامضة.

ولما فرغتا من الافطار أعدتا حقيبتيهما ثم طويتا الخيمة وأخذتا طريق العودة. حملت صوفيا المرآة الكبيرة وحدها تحت ذراعها إذ رفضت نورا حتى

بمجرد لمسها فكانت صوفيا تقف لتستريح من حين لآخر. وعندما اقتربتا من أطراف المدينة سمعتا بعض الطلقات المتفرقة. وتذكرت صوفيا ما كتبه والد هيلد عن لبنان الذي تمزقه الحرب، وأدركت أنها سعيدة الحظ لأنها تعيش في بلد ينعم بالسلام. «فالطلقات» التي سمعتها لم تكن سوى أصوات الصواريخ النارية الملونة التي تطلق احتفالا بالعيد الوطني.

وصلتا إلى البيت فدعت صوفيا صديقتها إلى فنجان من الكاكاو الساخن. وآثار منظر المرآة دهشة أمها التي أخذت تمطرهما بالأسئلة لمعرفة كيف وأين وجدتاها. أخبرتها صوفيا إنهما وجدتاها أمام شاليه الضابط العجوز، فروت أمها من جديد قصة الضابط غريب الأطوار وبيته المهجور منذ سنين طويلة.

عندما ذهبت نورا، بدلت صوفيا ثيابها وارتدت ثوبا أحمر ومر يوم العيد الوطني كالمعتاد. وفي نشرة أخبار المساء اذاع التليفزيون تحقيقا عن احتفال الفصيلة النرويجية للأمم المتحدة بهذا اليوم في لبنان. وكانت عينا صوفيا مشدودتين إلى الشاشة، فإن واحداً من هؤلاء الرجال الذين تراهم قد يكون هو والد هيلد.

وكان آخر ما فعلته صوفيا يوم ١٧ مايو (أيار) هذا، هو أنها علقت المرآة الكبيرة في غرفتها. وفي صباح اليوم التالي وجدت ظرفا أصفر جديدا في كوخها. ففضت الظرف من فورها وشرعت في قراءة الرسالة.

الفصل الرابع عشر

ثقافتــان

... السبيل الوحيد لتجنب التحليق

في الفـراغ على غير هـدى...

إننا سنلتقي قريبا يا صوفيا. لقد كنت أعرف أنك ستعودين إلى شاليه الضابط العجوز، ولذلك تركت هناك البطاقات البريدية التي أرسلها والد هيلد. فتلك كانت الطريقة الوحيدة التي أضمن بها وصول البطاقات إلى هيلد. لا تشغلي بالك الآن بكيفية حصولها على تلك البطاقات. فإن أشياء كثيرة ستحدث قبل ١٥ يونيو (حزيران).

لقد رأينا كيف ظل الفلاسفة الهيلينيون يدورون في فلك الفلاسفة اليونانيين القدماء. بل لقد اشتط بعضهم فحاولوا أن يجعلوا من أسلافهم أنبياء أو مؤسسين لأديان جديدة. وقد أوشك افلوطين أن يعتبر أفلاطون مخلصا للبشرية.

إلا أننا نعرف أن مخلصاً آخر قد ولد خلال الفترة التي درسناها. وأنا أقصد به *يسوع الناصري*. وسوف ندرس في هذا الفصل كيف بدأت المسيحية تنفذ تدريجيا إلى العالم اليوناني الروماني مثلما أخذ عالم هيلد يتسلل شيئاً فشيئاً إلى عالمنا نحن يا صوفيا.

لقد كان يسوع يهوديا، واليهود ينتمون إلى الثقافة السامية. أما اليونان والرومان فإنهم ينتمون إلى الثقافة الهندية الأوروبية. ولذا نستطيع أن نقول ان للحضارة الأوروبية جذرا يمتد في كل ثقافة من هاتين الثقافتين. وقبل أن ندرس الطريقة التي أثرت بها المسيحية في الثقافة اليونانية الرومانية، يجب أن ندرس أولاً هذين الجذرين الأصليين، وهما الجذر السامي الذي نشأت عنه المسيحية، ثم الجذر الهندي الأوروبي الذي نشأت عنه الثقافة اليونانية الرومانية.

الهنود الأوروبيون

إننا نقصد بعبارة «الهنود الأوروبين» أهل كل البلدان والثقافات التي تستخدم لغة هندية أوروبية. وتشمل هذه البلدان جميع الأمم الأوروبية باستثناء قلة منها تستخدم إحدى اللغات الفنلندية المجرية (وهي اللابية، والفنلندية، والاستونية، والمجرية) أو تستخدم اللغة الباسكية.

ومن أربعة آلاف عام على وجه التقريب كانت قبائل الهنود الأوروبيين الأوائل تعيش حول البحر الأسود وبحر قزوين. وسرعان ما انطلقت من هذه القبائل هجرات في اتجاه الجنوب الشرقي صوب ايران والهند، وفي اتجاه الجنوب الغربي نحو اليونان وايطاليا واسبانيا، وفي اتجاه الغرب إلى فرنسا وانجلترا مرورا بأوروبا الوسطى، وفي اتجاه الشمال الغربي صوب اسكندينافيا أو أوروبا الشمالية، ثم في اتجاه الشمال نحو أوروبا الشرقية وروسيا. وحيثما ذهب الهنود الأوروبيون كانوا يتمازجون مع الثقافات المحلية القائمة، وسرعان ما أخذت اللغات والثقافات الهندية الأوروبية الوافدة تطغي على اللغات والثقافات المحلية.

إن نصوص «الفيدا» الهندية القديمة المقدسة، والفلسفة اليونانية، بل والأساطير الاسكنديناقية التي جمعها سنوري، قد كتبت كلها بلغات بينها صلة قرابة. لكن صلة القرابة هذه لا تقتصر على اللغات. فالقرابة اللغوية كثيراً ما تفضي إلى القرابة الفكرية. وهذا ما يجيز لنا أن نتحدث عن «الثقافة» الهندية الأوروبية.

وأكثر ما يميز ثقافة الهنود الأوروبيين أنهم آمنوا بآلهة متعددة. فنحن نصادف أسماء هذه الآلهة ومصطلحات دينية عديدة تتردد في كل البقاع التي انتشرت فيها الثقافة الهندية الأوروبية. وإليك بعض الامثلة:

كان الهنود القدماء يعبدون إله السماء ديوس، ويسمى هذا الإله باليونانية زيوس، وباللاتينية جوبيتر (أو ايوف باتر، أي «أب السماء») ويدعى بالنرويجية القديمة تير. إن أسماء ديوس، وزيوس، وايوف، وتير، ليست سوى «تعبيرات محلية» مختلفة لنفس الكلمة.

وقد تعلمت ولا ريب أن الفيكينج (سكان اسكنديناقيا القدماء) كانوا يؤمنون بآلهة يسمونها آزير. وهذا لفظ آخر سنصادفه مرارا بالمنطقة التي سادت فيها الثقافة

الهندية الأوروبية. ففي السنسكريتية، وهي لغة الهند الكلاسيكية القديمة، تسمى الآلهة *آزورا*، كما انها تسمى بالفارسية *آهورا*. ويسمى الاله بالسنسكريتية أيضاً ديفا، وبالفارسية *ديفا*، وباللاتينية *ديوس*، وبالنرويجية القديمة *تيفور*.

وكان الفيكينج القدماء يؤمنون بطائفة خاصة من آلهة الخصب (مثل ليود، وفريار، وفريا). وكان يشار إلى هذه المجموعة من الآلهة باسم خاص هو: *فانر*. وهي كلمة قريبة من الاسم اللاتيني لآلهة الخصب *فينوس*. كما نجد في السنسكريتية اسما قريبا يطلق على آلهة الخصب هو فاني الذي يعني «الرغبة».

ويمكننا أيضاً ملاحظة قرابة واضحة بين عدد من الأساطير الهندية الأوروبية. ففي الحكايات التي جمعها سنوري عن الآلهة النرويجية القديمة، نجد أساطير مماثلة لأساطير هندية كانت تروى قبل ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ سنة.

وبالرغم من أن الاساطير التي رواها سنوري تعبر عن بيئة بلدان الشمال وأن الأساطير الهندية تعبر عن بيئة الهند فاننا نلاحظ في كثير منها آثارا تشي بوجود أصل مشترك. ونحن نستطيع أن نبصر هذه الآثار بوضوح في الأساطير المتعلقة باكسير الخلود أو بصراع الآلهة ضد قوى الفوضى.

ونستطيع أيضاً أن نرى أوجه تماثل واضحة بين أنماط التفكير في شتى الثقافات الهندية الأوروبية، منها مثلا تصور العالم بوصفه مسرحا يدور فوقه صراع ضار متصل بين قوى الخير والشر. ولهذا السبب حاول الهنود الأوروبيون دوما أن «يتنبأوا» بنتيجة المعارك بين الخير والشر وأن يعرفوا مصير العالم ومستقبله.

وربما استطعنا أن نؤكد دون مجانبة الصواب انه ليس من قبيل الصدفة ان تكون الفلسفة اليونانية قد ولدت في المحيط الثقافي الهندي الأوروبي. فالأساطير الهندية واليونانية والنرويجية تنطوي كلها على ميل واضح نحو رؤية فلسفية أو «تأملية» للعالم.

لقد سعى الهنود الأوروبيون إلى «تبصر» تاريخ العالم، ولو اقتفينا أثر لفظ «التبصر» أو «المعرفة» من ثقافة لأخرى داخل العالم الهندي الأوروبي، لوجدنا أن مقابله في السنسكريتية هو لفظ «فيديا» الذي يشبه الكلمة اليونانية ايدييا، (أي الفكرة المجردة)، وهو مفهوم كان له كما تتذكرين دور بالغ الأهمية في فلسفة أفلاطون. أما في اللاتينية فاللفظ المناظر لكلمة المعرفة أو التبصر هو *فيديو* الذي لا

يعنى على أرض الثقافة الرومانية سوى «أبصر» أو «أرى». وإن كانت كلمة «أرى» قد اكتسبت لدينا معنى آخر هو «أعرف» أو «أدرك» (وحين جاء عصرنا أصبحت كلمة «أرى» تعنى التحديق إلى شاشة التلفزيون). ومن الألفاظ المقابلة في الانجليزية wise و Wisdom (حكمة). كما نجد في الالمانية wissen (معرفة). وفي النرويجية نجد كلمة viten (معرفة) التي تشترك في جذر واحد مع لفظ فيديا بالهندية أو لفظ فيديو باللاتينية.

وبصفة عامة، يمكننا أن نلاحظ أن البصر هو أهم حاسة لدى الهنود الأوروبيين. فآداب الهنود واليونان والفرس والجرمان كانت تتميز برؤى كونية كبرى. وهنا نصادف تلك الكلمة مرة أخرى: فان الكلمة الانجليزية) vision رؤية) تأتي من الفعل اللاتيني (video فيديو = أرى). ومن السمات الأخرى المميزة للثقافات الهندية الأوروبية، أنها رسمت لوحات ونحتت تماثيل تصور بها الآلهة واحداث الأساطير.

وأخيرا، كان لدى الهنود الأوروبيين تصور دوري للتاريخ أي أنهم تصوروا مسيرة التاريخ على انها دورات تتعاقب وتتوالى مثل فصول السنة. فالتاريخ إذن ليست له لا بداية ولا نهاية، وإنما هو حضارات تنهض وتسقط وتصعد وتنهار في تتابع متصل بين الحياة والموت.

والديانتان الشرقيتان الكبريان، وهما الهندوسية والبوذية، لهما كلتاهما أصل هندي أوروبي. ويصدق هذا أيضاً على الفلسفة اليونانية، ولذا يمكننا أن نبصر عددا من أوجه التماثل الواضحة بين الهندوسية والبوذية من جهة والفلسفة اليونانية من جهة أخرى. فالتأمل الفلسفي له مكانه البارز في كل من الهندوسية والبوذية.

وكثيراً ما نجد في الهندوسية والبوذية تأكيدا على أن الإله منبث في جميع الموجودات (وهو ما يعرف بمذهب وحدة الوجود) وعلى أن الإنسان يمكن أن يتوحد بالله بفضل المعرفة أو البصيرة الدينية. (هل تتذكرين افلوطين يا صوفيا؟) ويتطلب بلوغ هذه الغاية ممارسة التأمل أو الاستبطان الذاتي. ولذا فان اعتزال الحياة والانسحاب منها يشكلان في الشرق غاية دينية سامية. وفي اليونان القديمة أيضاً، كان كثير من الناس يؤمنون بأن حياة النسك والزهد تقود إلى خلاص الروح. وتلك

الرؤى القديمة قد تركت فيما بعد أثرا واضحا على جوانب كثيرة من حياة الأديرة في العصور الوسطى.

كما نصادف في عديد من الثقافات الهندية الأوروبية الإيمان بتناسخ الأرواح (أي انتقال الروح من الجسد بعد موته إلى جسد آخر). فعلى امتداد أكثر من ٢٥٠٠ سنة، كان الهدف النهائي للحياة بالنسبة لكل هندي هو التحرر من دورة الميلاد المتكرر بلا انقطاع. ولعلك تتذكرين يا صوفيا أن أفلاطون كان يؤمن هو أيضاً بتناسخ الأرواح.

الساميون

لننتقل الآن إلى الساميين يا صوفيا. إنهم ينتمون إلى ثقافة مختلفة تماماً وإلى لغة أخرى كلية. لقد نشأ الساميون في شبه الجزيرة العربية، لكنهم هاجروا بدورهم إلى أجزاء مختلفة من العالم. وساعدت المسيحية على نشر تاريخ وثقافة الساميين إلى أماكن نائية عن جذورهما، كما انتشرت الثقافة السامية أيضاً على نطاق واسع من خلال الإسلام.

والأديان الثلاثة التي أثرت على الغرب، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام، لها كلها خلفية سامية. وقد كتب *القرآن والعهد القديم* بلغتين ساميتين قريبتين. وأحد الألفاظ التي تعنى «الرب» في العهد القديم وهي «الوهيم» لها نفس جذر كلمة «*الله*» في القرآن.

ولكن الصورة تصبح أكثر تعقيدا عندما ننتقل إلى المسيحية. فمع أن للمسيحية خلفية سامية شأنها شأن اليهودية والإسلام إلا أن *العهد الجديد* قد كتب باليونانية. وعندما استحدث اللاهوت المسيحي (أي دراسة علوم الدين المسيحي) وصيغت العقيدة المسيحية تأثرا باللغتين اليونانية واللاتينية وبالتالي تأثرا أيضاً بالفلسفة الهيلينية.

لقد كان الهنود الأوروبيون يؤمنون بآلهة متعددة. ولكن من اللافت للنظر أن الساميين قد آمنوا منذ أقدم العصور بإله واحد. والإيمان بإله واحد يسمى *التوحيد*.

واليهودية والمسيحية والإسلام أديان توحيدية تشترك كلها في فكرة جوهرية هي أن هناك إلها واحداً.

كما يشترك الساميون في سمة مميزة هي *رؤيتهم الخطية* للتاريخ. أي أنهم كانوا، بعبارة أخرى، يتصورون التاريخ كخط يمتد ويتواصل في استقامة. في البداية خلق الله العالم فكانت تلك بداية التاريخ. وسوف يأتي اليوم الذي سينتهي فيه التاريخ، وذلك اليوم هو يوم القيامة الذي يبعث فيه الموتى، وهو يوم الحساب الذي يحاسب الله فيه كل نفس عن ما فعلت.

والدور الذي يؤديه التاريخ من السمات الهامة في أديان التوحيد الثلاثة الكبرى هذه. فهي تتقاسم الاعتقاد بأن الله يتدخل في مسار التاريخ، بل ان هذا التاريخ لم يوجد إلا لكي تتجلى من خلاله إرادة الله. فكما قاد الله يوما خطى ابراهيم إلى «أرض الميعاد» فانه يقود خطى الناس جميعا حتى يوم الحساب. وعندما يأتي ذلك اليوم سيمحق الشر ويمحى من العالم.

وقد دفع هذا التركيز القوي على تدخل الله في مسار التاريخ الساميين إلى الاهتمام خلال آلاف السنين بتدوين أحداث التاريخ وتسجيل وقائعه. وأصبحت هذه السجلات والروايات التاريخية هي لب نصوصهم المقدسة.

ومن المظاهر التي تدل أيضاً على الخلفية المشتركة لأديان التوحيد الثلاثة أن مدينة القدس (وكانت تعرف قبل الفتح العربي باسم أورشليم) مازالت حتى اليوم مركزا دينيا بارزا يجله اليهود والمسيحيون والمسلمون.

فالقدس تضم معابد وكنائس ومساجد كبرى. ولذا فان من المؤلم أن تصبح القدس موضوعا للصراع والاقتتال بين آلاف البشر لأنهم لا يستطيعون أن يتفقوا على كيفية الإشراف على هذه «المدينة الخالدة». فهل تستطيع الأمم المتحدة أن تنجح ذات يوم في إحلال السلم بالقدس وفي جعلها من جديد ساحة التقاء بين الأديان الثلاثة... (لن نواصل الآن هذا الجانب العملي من مقرر الفلسفة. إذ سنتركه كلية لوالد هيلد. فلا بد أنك أدركت الآن أنه يعمل مراقبا للأمم المتحدة في لبنان).

لقد قلنا ان البصر كان أهم الحواس لدى الهنود الأوروبيين. ومن الشائق أن نلاحظ أن السمع هو الذي يشكل أهم الحواس جميعا في الثقافات السامية. وليس من قبيل الصدفة أن تبدأ الصلاة اليهودية بعبارة «اسمع يا اسرائيل!»

ويقص علينا العهد القديم كيف «سمع» الشعب كلمة الله، ويبدأ الانبياء اليهود مواعظهم عادة بعبارة «هكذا تكلم يهوه (الله)». كما تعلق المسيحية أهمية كبرى على «الاستماع» لكلمة الله. كما أن الشعائر الدينية اليهودية والمسيحية والإسلامية تتميز كلها بتلاوة النصوص المقدسة بصوت عال فيما يسمى «بالترتيل».

لقد قلت لك ان الهنود الأوروبيين قد رسموا اللوحات ونحتوا التماثيل يصورون بها آلهتهم. اما الساميون فإنهم لم يفعلوا ذلك قط. فقد حرم عليهم أن يصوروا الله في لوحات أو تماثيل. والعهد القديم يمنع الناس من رسم أي صورة لله. وما زال هذا ساريا حتى اليوم بالنسبة لليهودية والإسلام. بل ان بعض الاتجاهات الإسلامية تستقبح التصوير والفن التشكيلي، لأن الناس يجب ألا تتنافس مع الله في «تصوير» أو «خلق» أي شيء.

وأكاد أسمعك تقولين إن الكنائس المسيحية تزخر بصور المسيح والله. وهذا صحيح يا صوفيا، ولكنه ليس سوى مثل على مدى تأثر المسيحية بالعالم اليوناني الروماني. (أما في الكنيسة الاورثوذكسية اليونانية أي في اليونان وروسيا فما زال من المحرم نحت التماثيل، أو صنع صلبان تمثل المسيح مصلوبا، أو حفر لوحات مستوحاة من قصص الكتاب المقدس).

وعلى عكس الأديان الشرقية الكبرى، تركز أديان التوحيد الثلاثة على الهوة الشاسعة التي تفصل الله عن العالم الذي خلقه. وغاية الإنسان في أديان التوحيد ليست انقاذ الروح من دورة الميلاد المتجدد بلا انقطاع، بل النجاة من الخطيئة والفوز بالمغفرة. كما أن الحياة تتميز في أديان التوحيد بأداء الصلوات والاستماع للعظات ودراسة النصوص المقدسة أكثر مما تتميز بالتأمل أو الاستبطان الداخلي.

بنو اسرائيل

ليس في نيتي يا صوفيا أن انافس الأستاذ الذي ي د رس لك مادة الدين في المدرسة، لكن دعينا مع ذلك نلخص سريعا الخلفية اليهودية للمسيحية.

كل شيء بدأ عندما خلق الله العالم. ويمكنك قراءة وصف لقصة هذا الخلق في الصفحات الاولى من الكتاب المقدس. لكن آدم وحواء ما لبثا أن عصيا ربهما فنزل العقاب حاسما باترا فطرد الإنسان من جنات عدن، وبات الموت قدره ومصيره.

وعصيان الإنسان لله هو الموضوع الرئيسي في الكتاب المقدس بأسره. ولو تصفحنا سفر التكوين لطالعنا قصة الطوفان وسفينة نوح، ولرأينا أن الله عقد عهداً مع إبراهيم وذريته. ويقضي هذا العهد، أو الميثاق، بأن يتمسك إبراهيم ونسله بوصايا الله. ووعدهم الله إن هم أوفوا بعهدهم أن يحمي ذرية ابراهيم ويحفظها. ثم جدد هذا العهد عندما تلقى *موسى* الوصايا العشر على جبل سيناء نحو عام ١٢٠٠ قبل الميلاد. وكان بنو اسرائيل آنذاك عبيدا في مصر منذ ردح طويل من الزمان، لكن الله آزر موسى فعاد بقومه إلى أرض اسرائيل.

ونحو عام ١٠٠٠ قبل الميلاد أي قبل ظهور أي شئ يدعى الفلسفة اليونانية بوقت طويل سمعنا عن ملوك ثلاثة عظام خرجوا في بني اسرائيل. أولهم كان *شاول*، ثم خلفه *داوود*، ثم جاء بعدهما *سليمان*. وفي عهد هؤلاء الملوك اتحد بنو اسرائيل في مملكة واحدة وعرفوا، في عهد الملك داوود على وجه الخصوص، فترة مجد سياسي وعسكري وثقافي.

وكان العرف يقضي عند اختيار أحد الملوك أن يمسح جسده بالزيت المقدس رمزا لتنصيبه. فأصبح الملك ي عرف باسم *المسيح*، أي الذي مسح جسمه بالزيت المقدس تكريسا وتكريما. وكان الملك يعتبر، من وجهة النظر الدينية، رسولا بين الله وشعبه. ولذلك تسنى للملك أن يحمل لقب «ابن الله»، كما جاز للبلد أن يدعى «مملكة الله».

ولكن سرعان ما بدأ الضعف يدب في مملكة اسرائيل ويتضاءل نفوذها حتى انقسمت إلى مملكتين: هما مملكة الشمال (اسرائيل) ومملكة الجنوب (يهوذا). وفي عام ٧٢٢ قبل الميلاد استولى الاشوريون على مملكة الشمال ففقدت كل أهميتها

السياسية والدينية. ولم تكن مملكة الجنوب أفضل مصيراً، إذ استولى عليها البابليون عام ٥٨٦ قبل الميلاد فدمروا الهيكل وساقوا جل أهلها عبيدا وسبايا إلى بابل. وقد استمر هذا «السبي البابلي» حتى عام ٥٣٩ قبل الميلاد، حين انتصر الفرس على بابل فاذنوا لبني اسرائيل بالعودة إلى القدس وبناء الهيكل من جديد. إلا أن اليهود ظلوا طوال الفترة الممتدة حتى ميلاد المسيح يعيشون في ظل السيطرة الأجنبية.

وطوال تلك الفترة كان ثمة سؤال واحد لا يفتأ يلح على اذهان اليهود وهو: *لماذا* دمرت مملكة داوود ولماذا توالت عليهم الكوارث رغم أن الله قد وعد بني اسرائيل بحمايتهم وحفظهم. لكن ألم يتعهد بنو اسرائيل كذلك بأن يستمسكوا بوصايا الله؟ لقد حل بهم عقاب الله جزاء عصيانهم.

ونحو عام ٧٥٠ قبل الميلاد بدأ يظهر *أنبياء* ينذرون بني اسرائيل بعقاب من الله شديد لنقضهم عهد الله ومخالفتهم وصاياه. وساروا يذيعون في الناس أن قصاص الله من بني اسرائيل آت لا ريب فيه. وتسمى هذه النبوءات «نبوءات القصاص».

ثم رأينا أنبياء آخرين جاءوا يبشرون بأن الله سيخلص نخبة مختارة من شعبه وسيرسل لهم «ملك السلام» أو ملكا من ذرية داوود سيجلب معه السلام ويعيد مجد مملكة داوود القديمة ويعرف الشعب على يديه غدا رغدا مشرقا.

وكان من هؤلاء الأنبياء *النبي اشعيا* الذي قال «الشعب الجالس في الظلام رأى نورا ساطعا، والجالسون في أرض الموت وظلاله أشرق عليهم النور». ويسمى هذا النوع من النبوءات «نبوءات الخلاص».

خلاصة القول: إن بني اسرائيل عرفوا فترة ازدهار في عهد الملك داوود. ولكن بعد أن تدهورت أحوالهم بدأ أنبياؤهم يبشرون بملك جديد سيأتي من ذرية داوود. وهذا «المسيح» أو «ابن الله» سوف «يخلص» الشعب، ويعيد مجد اسرائيل ويؤسس «مملكة الله».

المسيح

كانت الكلمات الجارية على كل لسان في ذلك الوقت هي اذن «المسيح»، و«ابن الله»، و«الخلاص»، و«مملكة الله». على أن تلك الكلمات لم تكن لها في البداية إلا دلالة سياسية. ففي عصر يسوع، كان كثير من الناس يعتقدون أن مسيحا

جديدا سيظهر، ولكنهم كانوا يتصورون أن هذا المسيح سيكون زعيما سياسيا وعسكريا ودينيا من طراز الملك داوود. وهكذا نظر الناس آنذاك إلى هذا «المخلص» على انه منقذ قومي سيضع حدا لمعاناة اليهود الخاضعين لربقة السيطرة الرومانية.

لكن كان هناك أيضاً أناس عديدون أبعد نظرا. فقبل مجيء المسيح بنحو مائتي عام، ظهر أنبياء يبشرون بأن «المسيح» الموعود سيكون مخلصا للبشر كلهم أجمعين. فهو لن يخلص الاسرائيليين من النير الأجنبي فحسب بل سيخلص أيضاً الناس كافة من الخطايا والذنوب بل وسيقهر الموت أيضاً. ان التطلع إلى «الخلاص» بهذا المعنى كان منتشرا اذن على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم الهيليني. وفي تلك الفترة ظهر رجال عديدون كان كل منهم يدعي انه المسيح.

وأخيرا جاء *يسوع الناصري* بعد طول انتظار فقال إنه «المسيح» المنتظر، وترددت على لسانه أيضاً كلمات «ابن الله» و«مملكة الله» و«المسيح» و«الخلاص»، فأعلن انتسابه بذلك إلى سلسلة الأنبياء الأولين. وأراد يسوع أن يتم ما جاء عنه في النبوءات فدخل اورشليم تاركا الجموع تهتف له على أنه المخلص الموعود؛ محاكيا «طقوس تتويج» الملوك القدماء فكإنما تلقى بذلك «مسحة» الشعب. وقال «حان الوقت... وملكوت الله اقترب».

وما ينبغي الالتفات اليه هنا هو إن يسوع قد ميز نفسه عن كل من حاول انتحال صفة المسيح. إذ أعلن في وضوح أنه ليس متمردا عسكريا أو ثائرا سياسيا. وقال ان رسالته أعظم غاية وأسمى مقصدا. وبشر بالخلاص وبغفران الله لجميع البشر. وهكذا مضى في الناس يقول «لقد غفرت لكم خطاياكم».

وكان منح «الغفران» عن الخطايا بهذه الطريقة أمرا لم يسمع به أحد من قبل. ولكن الأخطر أنه أخذ يخاطب الله داعيا اياه «الأب». وهذا أمر لم يسبق له مثيل في المجتمع اليهودي في تلك الفترة. وسرعان ما هبت ضده عاصفة من الاحتجاج في صفوف رؤساء الكهنة ومعلمي الشريعة.

يمكننا أن نلخص الموقف كما يلي: عدد كبير من الناس في عصر يسوع الناصري ينتظرون مسيحا يعيد مملكة الله بالسيف والرمح. وعبارة «مملكة الله» كانت تتردد حقا في مواعظ المسيح، ولكنه كان يقصد بها معنى أوسع نطاقا. فقد

قال يسوع إن مملكة الله هي محبة الآخرين، والرحمة بالضعيف والفقير، ومسامحة الضالين.

وكان هذا تحولا دراميا في معنى عبارة عتيقة جعلها تأخذ دلالة أخرى تماماً. لقد كان الشعب ينتظر زعيما عسكريا يقيم «مملكة الله» ثم إذا بيسوع يأتي في ثوب بسيط ليقول إن مملكة الله ما هي إلا «عهد جديد» و«أحب قريبك مثلما تحب نفسك»! ولم يكتف المسيح بهذا بل مضى إلى مدى أبعد يا صوفيا وقال اننا يجب أن نحب أعداءنا. وإذا ضربنا أحد على خد فلا نرد بل ندير له الخد الآخر. واننا يجب أن نسامح لا سبع مرات كما تقول شريعة اليهود بل سبعين مرة سبع مرات.

ولم يستنكف المسيح عن مخاطبة الخاطئات أو المرابين الجشعين أو جباة الضرائب المفسدين، بل كان يقول ان الابن الضال الذي أضاع مال أبيه أو جابي الضرائب المرتشي يستحق غفران الله عندما يتوب ويطلب المغفرة، فرحمة الله لا حدود لها.

وليس هذا كل شيء، فقد تقدم المسيح خطوة أخرى وقال ان هؤلاء المخطئين *أكثر* صلاحاً في عين الله *وأكثر* استحقاقا لمغفرته من الفريسيين، تلك الفرقة اليهودية المتشددة في التمسك الشكلي الأجوف بأحكام الشريعة.

وأكد المسيح أن ما من إنسان بقادر على أن يجلب لنفسه رحمة الله. فنحن لا نستطيع أن نخلص أنفسنا (كما كان يعتقد كثير من اليونانيين). فالخلاص فضل من الله.

والمطالب الأخلاقية الصارمة التي أعلنها المسيح في موعظة الجبل لم يكن الغرض منها هو تعريف الناس يإرادة الله فحسب بل كانت تستهدف أيضاً اظهار انه لا يوجد إنسان بار كامل التقوى في عين الله وأن رحمة الله لا حدود لها، ولكن علينا أن نتجه إلى الله نسأله المغفرة.

وسأترك لأستاذ الدين مهمة تزويدك بفكرة وافية عن شخصية المسيح ورسالته. وليست تلك بالمهمة الهينة. وأرجو أن ينجح في أن يبين لك عظمة يسوع الفذة. فالمسيح طوع ببراعة لغة عصره ليعطي لكلمات عتيقة معنى جديدا كل الجدة ومضمونا أرحب أفقا. ولذا ليس مما يثير الدهشة أن يكون قد انتهى على الصليب. فان رسالته المفعمة بالسلام والمترعة بالتسامح والمبشرة بالخلاص كانت تهدد مصالح أصحاب النفوذ والسلطان، ولذا تعين القضاء عليه.

عندما تحدثنا عن سقراط، رأينا مدى خطورة حث الناس على استخدام عقولهم: وها نحن نرى مع المسيح مدى خطورة الدعوة إلى الحب الأخوي المنزه عن الغرض وإلى التسامح غير المشروط. وما زلنا نرى في عالم اليوم دولا قوية تضطرب وتهتز عندما تواجه بمطالب بسيطة مثل مد يد المحبة والسلام، أو توفير الغذاء للفقراء، أو العفو عن معارضي النظام.

ولعلك تذكرين كيف اجتاح الغضب أفلاطون عندما أبصر أن خير أبناء أثينا قد حكم عليه بالموت. ولئن كانت تعاليم المسيحية تقول ان المسيح هو خيرالناس كمالا وصلاحا، فلا هذا الكمال ولا ذاك الصلاح قد درآ عنه حكم الاعدام. ويقول المسيحيون إن المسيح مات ليفتدي جميع الناس من اللعنة التي حلت بهم جزاء خطيئة أبيهم آدم، ويسمون ذلك «آلام» المسيح. لقد كان يسوع هو «الفادي المعذ ب» الذي تحمل خطايا البشر كيما نستطيع أن «نتصالح» مع الله وننجو من غضبه.

بولس

وما كادت تمر عدة أيام على صلب المسيح ودفنه حتى سرت الشائعات تقول إنه قام من قبره. فأثبت المسيح بذلك أنه ليس بالرجل العادي وإنما هو حقا «ابن الله».

ويمكننا أن نقول ان الكنيسة المسيحية قد تأسست صباح عيد القيامة مع الشائعات التي سرت عن قيامة المسيح. وقد عبر بولس عن هذا بقوله: «إن كان المسيح ما قام، فتبشيرنا باطل وإيمانكم باطل».

والآن يستطيع كل البشر أن يأملوا في «قيامة الجسد»، لإن يسوع ما صلب إلا ليفتدينا. ولكن عليك ألا تنسي يا صوفيا أن هذا لا يعني من وجهة النظر اليهودية لا «خلود الروح» ولا أي شكل من «تناسخ الأرواح». فتلك فكرة يونانية، وبالتالي فكرة هندية أوروبية. اما المسيحية، بما لها من أصول سامية، فلا ترى أن في الإنسان شيئاً خالدا بذاته. هو لا يملك مثلا «روحا » خالدة بذاتها. ولئن كانت الكنيسة المسيحية تؤمن «بقيامة الجسد» و «الحياة الأبدية» فان ذلك لا يعزى إلى ملكة

شخصية أو قدرة فطرية وإنما يعزى إلى فضل الله الذي شاء أن ينقذنا من الموت ومن «لعنة» الخطيئة.

وقد بدأ المسيحيون الأوائل في نشر «البشارة» عن الخلاص بفضل الإيمان بيسوع المسيح. فمن خلال هذا الإيمان بالمسيح الذي جاء مخلصا وفاديا يمكن تحويل«مملكة الله» إلى حقيقة واقعة. والمهمة الآن هي كسب العالم كله لقضية المسيح.

وبعد موت المسيح ببضع سنوات دخل المسيحية رجل فريسي يدعى *بولس*. وما لبث بولس أن طوف بجميع أرجاء العالم اليوناني الروماني يبشر بالدين الجديد حتى اكتسبت المسيحية مكانة الدين العالمي. ويقص علينا سفر «أعمال الرسل» في الكتاب المقدس أنباء هذه الرحلات التبشيرية التي قام بها بولس. وقد وصلت إلينا عظات بولس وتوجيهاته إلى المسيحيين من خلال الرسائل العديدة التي كتبها إلى الجماعات المسيحية الاولى التي ظهرت في أماكن مختلفة.

ثم كان أن قصد بولس إلى أثينا وتيمم ساحة الميدان الكبير في عاصمة الفلسفة العريقة. ويحكى أن «غضبه ثار عندما رأى المدينة مملوءة بالأصنام». وزار بولس المعبد اليهودي في اثينا وأخذ يناقش اليهود والمتعبدين. ثم صادف جماعة من الفلاسفة الأبيقوريين والرواقيين فجعلوا يجادلونه فاستغربوا ما قاله استغرابا شديدا. فاصطحبوه إلى مجلس المدينة المنعقد على تلة الأريوباغوس، وسألوه «نريد أن نعرف هذا المذهب الجديد الذي تبشر به، لأن تعاليمه غريبة على مسامعنا ونحن نرغب في معرفة معناها».

هل تستطيعين أن تتخيلي هذا المشهد يا صوفيا؟ ذات صباح يظهر رجل مسيحي فجأة وسط ميدان السوق يتحدث عن مخلص صلب ثم قام بعد ذلك من القبر. وربما استطعنا حتى من زيارة بولس هذه لاثينا أن نستشف بوادر الصراع الذي سيضع الفلسفة اليونانية في مواجهة صدامية مع مفهوم الخلاص المسيحي.

وفي وسط المجلس المجتمع فوق تلة أريوباغوس على مرأى من معابد الأكروبول المهيبة، وقف بولس يتحدث فاجتذب أسماع الاثينيين، قال:

«يا أهل أثينا! أراكم أكثر الناس تدينا في كل وجه. لأني وأنا أطوف في مدينتكم وانظر إلى معابدكم وجدت مذبحا مكتوبا عليه: إلى الإله المجهول. فهذا الذي تعبدونه ولا تعرفونه هو الذي أبشركم به.

انه الله خالق الكون وكل ما فيه، فهو رب السماء والأرض لا يسكن في معابد بنتها يد البشر. ولا تخدمه أيد بشرية كما لو كان يحتاج إلى شيء، لأنه هو الذي يعطي البشر كلهم الحياة ونسمة الحياة وكل شيء. خلق البشر كلهم من أصل واحد، وأسكنهم على وجه الأرض كلها، ووقت لهم الأزمنة وحدد لسكناهم الأماكن حتى يطلبوه لعلهم يلتمسونه فيجدونه وهو غير بعيد عن كل واحد منا. فنحن فيه نحيا ونتحرك ونوجد، كما قال أحدكم. ونحن أيضاً أبناؤه، كما قال شاعر آخر من شعرائكم. وما دمنا أبناء الله فيجب علينا ألا نحسب الالوهية شكلا صنعه الإنسان بفنه ومهارته من ذهب أو فضة أو حجر.

وإذ كان الله غض نظره عن أزمنة الجهل، فهو الآن يدعو الناس كلهم في كل مكان إلى التوبة: لأنه وقت يوما يدين فيه العالم كله بالعدل على يد رجل اختاره، وبرهن لجميع الناس على اختياره بأن أقامه من بين الأموات!».

بولس في أثينا يا صوفيا! لقد بدأت المسيحية تنفذ إلى العالم اليوناني الروماني بوصفها شيئاً جديدا يختلف اختلافا تاما عن الفلسفة الأبيقورية أو الرواقية أو الأفلاطونية الجديدة. لكن بولس وجد مع ذلك في هذه الثقافة نقطة ارتكاز يستند إليها. فقد أكد أن السعي إلى الله ميل طبيعي مستقر في أعماق كل الناس. ولم يكن هذا شيئاً جديدا على اليونانيين. لكن الذي كان جديدا هو قول بولس إن الله قد تجلى للبشر وتوجه إليهم برسالته. فهو ليس «إلها فلسفيا» يمكن أن يصل إليه الناس بعقولهم. وهو لا يشبه «صورة من ذهب أو فضة أو حجر» وما كان أكثر هذه الصور في الأكروبول وفي ساحة المدينة! إنه إله «لا يسكن في معابد بنتها أيدي البشر». إنه إله عيني يتدخل في مسار التاريخ ليخلص البشر ويفتديهم.

بعد أن فرغ بولس من إلقاء خطبته أمام مجلس المدينة، يروي لنا سفر «أعمال الرسل» أن البعض استهزأوا به لما سمعوه يذكر قيامة الأموات. لكن نفرا آخر قالوا له «سنسمع كلامك في هذا الشأن مرة أخرى». ثم كان رهط ثالث انضموا إليه وآمنوا بالمسيحية. وكان من الذين تبعوا بولس امرأة تدعى داماريس. ومن الجدير

بالذكر أن النساء قد اقبلن على اعتناق الدين الجديد في حماسة شديدة واخلاص صادق.

وواصل بولس نشاطه التبشيري. وما كادت عدة عقود تنقضي على وفاة المسيح حتى كانت الجماعات المسيحية منتشرة في جميع الحواضر اليونانية والرومانية، في اثينا، وروما، والاسكندرية، وافسوس، وكورنثوس. وفي غضون ثلاثة أو أربعة قرون كان العالم الهيليني بأسره قد أصبح عالما مسيحيا.

أركان العقيدة المسيحية

ولا تقتصر أهمية بولس الجوهرية للمسيحية على دوره كمبشر. فقد مارس تأثيرا عظيما داخل الكنائس المسيحية المنتشرة في الأصقاع المختلفة. فقد كانت هناك حاجة ماسة إلى مرشد ديني وموجه روحي.

وكان من الأسئلة الهامة التي طرحت نفسها بعد أن أخذت المسيحية تنتشر في صفوف غير اليهود سؤال يقول: هل العمل بشريعة موسى شرط على المؤمن الحقيقي بالمسيح؟ فرأى بولس أن التقيد بالشريعة اليهودية لا داعي له ولا ضرورة. فالمسيحية أكبر كثيراً من أن تقتصر على نحلة يهودية. فانها تتوجه إلى جميع البشر برسالة خلاص عالمية. إن «العهد القديم» بين ا لله وبني اسرائيل قد حل محله «العهد الجديد» الذي عقده يسوع بين ا لله وجميع البشر.

ولكن المسيحية لم تكن الدين الوحيد في تلك الفترة. فقد رأينا كيف كانت الهيلينية متأثرة باختلاط الأديان. ولذلك كان من الضروري للكنسية أن تتقدم بملخص يوجز جوهر العقيدة المسيحية، كي تتمايز عن الأديان الاخرى من جهة، وكي تتجنب الانشقاقات داخل الكنسية المسيحية من جهة أخرى. وهكذا صيغت *أركان العقيدة المسيحية (أو قانون الإيمان المسيحي)* التي تلخص «العقائد» أو المبادئ المسيحية الأساسية.

ومن تلك العقائد الأساسية إن يسوع كان إلها وإنسانا في آن واحد. هو إذن لم يكن فقط «ابن ا لله» بفضل أعماله بل كان هو ا لله ذاته. ولكنه كان أيضاً «إنسانا حقيقيا عانى آلام البشر وقاسى العذاب على الصليب.

وقد يبدو هذا متناقضا، لكن رسالة الكنسية كانت على وجه التحديد أن الله أصبح بشرا. إن يسوع لم يكن «نصف اله» (أي لم يكن نصفه إنسان ونصفه إله). فقد كان الإيمان بأنصاف الآلهة شائعا على نطاق واسع في الأديان اليونانية والهيلينية. لكن تعاليم الكنيسة تقول إن يسوع «إله كامل وإنسان كامل».

ملاحظة: إني أسعى يا صوفيا لأن أشرح لك كيف تداخلت كل هذه العوامل معاً. فنحن نشهد مع دخول المسيحية إلى العالم اليوناني الروماني اصطداما دراميا بين ثقافتين، ونشهد أيضاً إحدى الثورات الثقافية الكبرى في التاريخ.

لقد أشرفنا يا صوفيا على الخروج من العصر القديم. فقد انقضى الآن نحوا من ألف عام منذ أيام الفلاسفة اليونانيين الأوائل. ونحن نقف الآن على أعتاب القرون الوسطى المسيحية التي استمرت بدورها قرابة ألف عام.

لقد قال الشاعر الالماني *جوته* ذات يوم «من لم ينتفع بدروس ثلاثة آلاف عام لم يتجاوز زاده خبرة يوم بيوم» وهذا ما لا أريده لك يا صوفيا. ولذا سأبذل غاية جهدي لأطلعك على جذورك التاريخية. فهذا هو السبيل الوحيد كي تصبحي كائنا إنسانيا حقيقيا. هذا هو السبيل الوحيد لتجنب التحليق في الفراغ على غير هدى.

ظلت صوفيا ساكنة تتطلع إلى الحديقة من الفتحات الصغيرة في كوخها. وبدأت تفهم أهمية أن تعرف جذورها التاريخية.

إنها فتاة صغيرة حقا، ولكنها لو استوعبت خبرة الإنسان الطويلة لواجهت حياتها بحكمة عميقة. إنها لن تعيش إلا سنوات قليلة فوق هذا الكوكب، ولكن إن هي تمثلت تاريخ البشرية لأصبح هذا التاريخ كله كأنه تاريخها الخاص، فكإنما امتد عمرها لآلاف السنين.

الفصل الخامس عشر

العصور الوسطى

... لأن نقطع شوطا صغيرا على الطريق

الصحيح خير من أن نضل الطريق ذاته...

أسبوع مر دون أن تتلقى صوفيا أي رسائل من ألبرتو. كما انها لم تتلق أيضاً بطاقات بريدية من لبنان، إلا أنها لم تكف عن الحديث مع نورا عن البطاقات التي عثرتا عليها في شاليه الضابط العجوز. كانت هذه أكثر مرة شعرت فيها نورا بالخوف في حياتها. ولكن لما مرت الأيام دون أن يجد جديد أخذ هذا القزع يتبدد ويطغى عليه الانشغال بحل واجبات المدرسة ولعب تنس الريشة.

قرأت صوفيا رسائل ألبرتو مرة بعد مرة علها تجد فيها ما يلقي الضوء على السر المحيط بهيلد. إلا أن هذا السر ظل غامضا مستغلقا كما كان. لكنها اكتشفت في المقابل أنها تستمتع بإعادة قراءة دروس الفلسفة. فهي تثير تأملا لا ينتهي. ووجدت أنها قد أحسنت الآن استيعاب الفلسفة الكلاسيكية القديمة فلم تعد تواجه، كما صادفت في البداية، صعوبة في التمييز بين ديموقريطس وسقراط أو بين أفلاطون وأرسطو.

يوم الجمعة ٥٢ مايو (أيار)، كانت صوفيا في المطبخ تحضر وجبة العشاء قبل عودة أمها. كان هذا هو ما اتفقتا عليه ليوم الجمعة من كل أسبوع. في ذلك المساء كانت صوفيا تعد حساء سمك وسمكا مشويا وجزرا مسلوقا. لقد وفقت إلى اختيار وجبة سهلة بسيطة.

في الخارج بدأت الريح تهب عاصفة. وأخذت صوفيا تقلب الحساء وتتطلع بين حين وآخر من النافذة. كان شجر البتولا يتأرجح ويميل كسنابل القمح حين تهتز في أحضان الريح.

وفجأة سمعت شيئاً يصطفق بزجاج النافذة. تطلعت في اتجاه الصوت فأبصرت قصاصة من ورق مقوى وقد لصقتها الريح بالنافذة. ثم تبينت أنها بطاقة بريدية، ومن وراء الزجاج استطاعت أن تقرأ:

«هيلد مول كناج طرف/صوفيا اموندسن....»

هذا حقا آخر ما تتوقعه! فتحت النافذة وأخذت البطاقة. من الصعب أن تكون الريح هي التي حملتها من لبنان حتى هنا؟

كانت هذه البطاقة تحمل أيضاً تاريخ ١٥ يونيو (حزيران). رفعت صوفيا الحلة عن النار وجلست إلى مائدة المطبخ وقرأت البطاقة.

عزيزتي هيلد،

لست أدري إن كنت ستتسلمين هذه البطاقة واليوم لا يزال هو يوم عيد ميلادك. هذا ما أرجوه يا هيلد. وإلا فأرجو على الأقل ألا تكون أيام كثيرة قد مرت على عيد ميلادك. فالواقع أن الزمن بالنسبة لصوفيا ليس هو نفسه بالنسبة لنا. إني سأعود ليلة عيد منتصف الصيف، وعندئذ سنظل جالسين طويلا على الأرجوحة يا هيلد نتأمل البحر الفسيح. فما أكثر الأشياء التي نحتاج لأن نتكلم عنها. قبلاتي.

والدك الذي يشعر باحباط شديد لهذا الصراع المرير الدائر منذ آلاف السنين بين اليهود والمسيحيين والمسلمين، ويلح على ذهني بلا انقطاع أن الأديان الثلاثة تنتسب كلها إلى إبراهيم. وأتساءل ألا يفترض هذا إنهم يعبدون نفس الإله؟ ثم أجدني ألاحظ بقنوط أن قابيل وهابيل لم يكفا هنا عن الاقتتال.

ملاحظة: أرجوك أن تبلغي سلامي إلى صوفيا. فالمسيكنة ما زالت لا تفهم ما الحكاية. فعسى أن تكوني قد فهمت أنت يا هيلدا!

وضعت صوفيا رأسها على المائدة وقد أعياها كل هذا الغموض. إن كان هناك أمر مؤكد فهو أنها لا تعرف ما الحكاية، أما هيلد فهي قد فهمت هذا اللغز فيما يبدو. ألم يطلب والد هيلد منها أن تبلغ تحياته لصوفيا؟ أفلا يعني هذا أن هيلد تعرف عن صوفيا أكثر مما تعرف صوفيا عن هيلد؟ وامتنع على صوفيا تبين منفذ يخرجها من حيرتها فقامت تواصل إعداد العشاء.

بطاقة بريدية تلتصق وحدها على زجاج نافذة المطبخ! هذا هو البريد الجوي حقا!

وما إن وضعت الحساء على النار مرة أخرى حتى دق التليفون.

آه لو أنه بابا. لكم تود أن يعود والدها لتخبره بكل ما مر بها خلال الأسابيع الماضية. ولكن الأرجح أنها مكالمة من أمها أو من نورا. هرعت إلى السماعة:

ـ آلو؟

وجاءها صوت يقول:

ـ هذا أنا.

إنه صوت رجل ولكنه ليس صوت والدها. إلا أنها كانت واثقة أنها سمعته من قبل... فسألته:

ـ من يتكلم؟

ـ أنا ألبرتو.

يا لها من مفاجأة. صح، إنه الصوت الذي سمعته في شريط الفيديو الخاص بأثينا.

ـ آه... أهلا!

ـ كيف حالك يا صوفيا؟

- بخير شكرا.

- من اليوم لن تتلقي رسائل أخرى يا صوفيا.

- ولكني لم أرسل لك ضفدعة، هل فعلتِ شيئاً أغضبك؟

- إنك لم تفهمي قصدي يا صوفيا. لقد حان الوقت لكي نلتقي وجها لوجه. فالأمر قد بدأ يصبح عاجلاً.

- عاجلاً؟ لماذا؟

- إنه والد هيلد. لقد بدأ يحاصرنا.

- يحاصرنا؟ كيف يحاصرنا؟

- من كل الجهات يا صوفيا. ولذلك يجب أن نتعاون معاً.

- كيف...؟

- ولكنك لن تستطيعي أن تمديني بمساعدة كبيرة قبل أن أحدثك عن العصور الوسطى. ويجب أن ندرس كذلك عصر النهضة والقرن السابع عشر، ثم بيركلي الذي يعد من الشخصيات الهامة.

- أليس هو الشخص المرسوم في اللوحة المعلقة في شاليه الضابط العجوز؟

- بلى إنه هو. وربما بدأت المعركة الفعلية حول فلسفته...

- من يسمعك يتصور أنك تتكلم عن حرب حقيقية.

- أنا أفضل أن أسميها صراع إرادات. فعلينا أن نجتذب اهتمام هيلد ونأخذها في صفنا قبل أن يعود أبوها إلى ليلساند.

- أنا لا أفهم أي شيء على الاطلاق.

- ربما ساعدتك الفلسفة على فتح عينيك. موعدنا الرابعة من صباح الغد في كنسية السيدة العذراء. لكن عليك أن تحضري بمفردك يا ابنتي.

ـ ولكن هذا موعد مستحيل. أتريد مني الخروج في وسط الليل؟

غير أن ألبرتو كان قد وضع السماعة...

ـ آلو... آلو...

لقد أنهى الاتصال! أسرعت صوفيا عائدة إلى المطبخ لتحرك الحساء قبل أن يفور من الحلة.

كنيسة السيدة العذراء؟ إنها كنيسة عتيقة من العصور الوسطى لا تستخدم إلا للحفلات الموسيقية ولبعض المناسبات الدينية الخاصة. وربما فتحت أبوابها صيفا ليزورها السياح. ولكن من المؤكد انها لا تفتح أبوابها في نصف الليل.

قبل أن تعود أمها كانت قد وضعت البطاقة الآتية من لبنان «بالبريد الجوي» في خزانتها مع الأشياء المتعلقة بألبرتو وهيلد. وبعد أن تناولت العشاء مع أمها ذهبت لزيارة نورا.

وما إن فتحت صاحبتها الباب حتى ابتدرتها قائلة:

ـ لا بد أن نرتب أمرا يبقى سرا بيننا يا نورا.

لم تزد قولا وقصدت رأسا إلى غرفة صديقتها. ولما أغلقت نورا الباب، مضت صوفيا تقول:

ـ إنه أمر يصعب شرحه...

ـ هاتي ما عندك يا صوفيا...

ـ أنا مضطرة لأن أخبر أمي أني سأمضي الليلة هنا.

ـ عظيم! سنظل نثرثر طول الليل.

ـ لم تفهميني يا نورا. هذه مجرد حجة أتعلل بها فقط. فأنا مضطرة للذهاب إلى مكان آخر...

ـ هذا شيء مقلق يا صوفيا. أهو موعد غرامي في نصف الليل؟

ـ لا بالطبع! هل جننت؟ إنه بسبب هيلد...

تنهدت نورا في يأس، وحدجتها صوفيا في عينيها وقالت:

ـ سأعود ثانية بعد قليل. غير أني سأضطر إلى التسلل من البيت في الساعة الثالثة. وعليك أن تغطي غيابي حتى أعود.

ـ ولكن أين ستذهبين يا صوفيا؟ قولي لي ماذا ستفعلين؟

ـ أنا آسفة يا نورا إنه سر لست في حل من إفشائه.

لم يكن قضاء الليلة عند نورا بالأمر الجديد. فقد اعتادت الصديقتان أن تبيتا معاً من حين لآخر، وخاصة في أيام العطلة. لم تعترض أمها ولكنها قالت لصوفيا قبل أن تغادر البيت:

ـ سأنتظرك في الصباح لتناول الإفطار معاً فلا تتأخري.

ـ لو تأخرت، فأنت تعرفين أين أنا.

ما الذي جعلها تقول ذلك؟ فنقطة الضعف الوحيدة هي أن تضطر للتأخر فتسأل عنها أمها.

ككل ليلة يقضيها المرء في بيت صديقه، بدأت زيارة صوفيا بثرثرة تواصلت حتى ساعة متأخرة من الليل. وأخيرا قررت الصديقتان أن تخلدا إلى النوم عل صوفيا تفوز بقسط من الراحة. فضبطت صوفيا المنبه على الساعة الثالثة والربع، وسرعان ما سكتت الهمهمات وسكنت الجوارح وسرت طمأنينة النوم.

و لم يمض وقت طويل حتى رن الجرس، فانتبهت صوفيا وسارعت باسكاته مخافة أن يقلق كل من في البيت. إلا أن نورا كانت قد تنبهت كذلك فنظرت إلى صوفيا وغمغمت:

ـ خذي حذرك يا صوفيا.

ثم غابت في النوم من جديد.

انطلقت صوفيا في طريقها، تنعشها نسمات الليل ويسري إليها من هذا السكون الشامل طمأنينة وترقب. رغم قلة النوم شعرت بحيوية دافقة فجدت في سيرها لتصل في موعدها المضروب، فكنيسة السيدة العذراء تقع في طرف الحي القديم بالجهة الأخرى من المدينة.

عندما وقفت أخيرا بباب الكنيسة الحجرية العتيقة كانت الساعة قد قاربت الرابعة. تلفتت صوفيا حولها فلم تبصر أحدا. هل ينتظرها بالداخل إذن؟ ولكن ألا يكون الباب موصدا في العادة. حاولت دفع الباب ففوجئت بأنه قد استجاب لها وانفتح!

فضاء الكنيسة موج بالجلال مكلل بسكون خاشع مهيب. كل شيء هنا يفوح بعبق تاريخ قديم. من الزجاج الملون المنقوش ينفذ ضوء أزرق واهن يكشف ذرات الغبار العالقة في الهواء فتبدت على هيئة حزم من النور الغائم تتقاطع في فضاء الكنيسة. جلست صوفيا على مقعد بالرواق الأوسط وجعلت تتطلع إلى المذبح ثم رفعت بصرها نحو تمثال حالت ألوانه يصور المسيح على الصليب.

عندئذ بدأ الأرغن يعزف فامتلأ الفضاء بنغمات قوية مؤثرة. هزتها المفاجأة فلم تجرؤ على التلفت حولها. وسرعان ما تسربت أصداء اللحن إلى وجدانها فتداعى لها مطمئنا ساكنا. كان اللحن أشبه بالتسابيح القديمة، ولعله يرجع أيضاً إلى العصور الوسطى شأن هذه الكنسية التليدة.

ثم ران الصمت من جديد. وما لبثت صوفيا أن سمعت وقع أقدام تقترب. هل عليها أن تنظر نحو مصدر الصوت؟ لم تدر كيف تتصرف فظلت تتطلع إلى المسيح المصلوب.

تجاوزها وقع الأقدام السائرة في الممر الأوسط فرأت طيف راهب يرتدي ثوبا بنيا يتقدم في صحن الكنسية. خمنت صوفيا إنه ألبرتو ولكنه كان في هيئته تلك أشبه براهب خارج من العصور الوسطى رأسا.

قبل أن يصل الراهب إلى المذبح استدار نصف دورة وصعد إلى المنبر بخطوة متئدة ثم مال إلى الأمام من وراء حافة المنبر ورفع يده ثم خفضها في وقار كما يفعل القساوسة عندما يشيرون للمصلين بالجلوس، وسألها:

- كم الساعة الآن يا ابنتي؟

عرفت صوت ألبرتو فتيقنت من شخصية الراهب وزايلتها الرهبة فأجابت:

- الرابعة إلا خمسا.

- جاء الوقت إذن. إن العصور الوسطى يمكن أن تبدأ الآن.

فسألته صوفيا بدهشة شديدة:

- هل تبدأ العصور الوسطى في الرابعة؟

- نعم، لقد بدأت في الساعة الرابعة تقريبا. وبعد ذلك صارت الساعة الخامسة فالسادسة والسابعة. ولكن كأنما الوقت قد توقف. ثم جاءت الساعة الثامنة فالتاسعة والعاشرة. إلا أننا ما زلنا في العصور الوسطى كإنما الزمن لا يسير. ولعلك تقولين إن الأوان قد أزف للانتقال إلى عصر جديد. لكن العصر الجديد لا تلوح بوادره. فكأننا في عطلة من الزمن أخذت تتطاول وتتمدد بلا نهاية. ثم جاءت الساعة الحادية عشرة فالثانية عشرة فالواحدة بعد الظهر، فوصلنا إلى ما يعرف «بالعصور الوسطى المتأخرة» أو «العصر القوطي المتأخر»، الفترة التي شيدت فيها الكاتدرائيات الكبرى في أوروبا. وعندما أشرفت الساعة على الثانية، بدأ الديك يصيح أخيرا مؤذنا بإدبار العصور الوسطى.

فقالت صوفيا:

ـ إن العصور الوسطى قد استمرت إذن عشر ساعات.

دفع ألبرتو بحركة من رأسه قلنسوة الرداء البني وأخذ يتطلع إلى جمهور الكنسية الذي يتألف من فتاة واحدة في الرابعة عشرة من عمرها وقال:

ـ نعم، لو اعتبرنا أن كل ساعة تعادل مائة سنة. فيمكننا عندئذ أن نفترض أن المسيح قد ولد في منتصف الليل وأن بولس بدأ رحلاته التبشيرية قبيل الثانية عشرة والنصف ثم مات في روما في نحو الواحدة إلا ربعا. وظل الحظر مفروضا بدرجات متفاوتة على الكنسية المسيحية حتى الساعة الثالثة تقريبا. ثم جاء عام ٣١٣ فاطلقت الحرية للمسيحية فباتت دينا مقبولا في الإمبراطورية الرومانية. وكان هذا على عهد الإمبراطور قسطنطين. غير أن هذا الإمبراطور التقي الورع لم يتنصر إلا على سرير الموت بعد ذلك بسنوات عديدة. واعتبارا من عام ٣٨٠ أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية بأسرها.

ـ لكن ألم تتفكك، الإمبراطورية الرومانية في تلك الفترة تقريبا؟

ـ كانت الأمارات التي تنبئ بالسقوط قد بدأت تظهر وتلوح. ونحن نقف هنا إزاء أحد التحولات الكبرى في تاريخ الثقافة. ففي القرن الرابع أحدقت بروما المخاطر، فمن جهة أخذ البرابرة يغيرون عليها من الشمال ومن جهة أخرى أخذت الصراعات والاضطرابات تمزقها من الداخل. وفي عام ٣٣٠، نقل قسطنطين الكبير العاصمة إلى مدينة القسطنطينية التي أسسها في مدخل البحر الأسود. وقد اعتبرها كثيرون «روما الجديدة». وفي عام ٣٩٥، انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى جزأين. الإمبراطورية الرومانية الغربية ومركزها روما، والإمبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية. وفي عام ٤١٠ أغار البرابرة على روما فأعملوا فيها النهب والتدمير. وما جاء عام ٤٦٧ حتى كانت الإمبراطورية الرومانية الغربية قد انهارت. أما الإمبراطورية

الرومانية الشرقية فقد ظلت دولتها قائمة حتى عام ١٤٥٣ عندما فتح الترك القسطنطينية.

ـ وعندئذ تغير اسمها إلى اسطنبول؟

ـ نعم هذا صحيح. وهناك تاريخ آخر يجب ألا تنسيه يا صوفيا باعتبارك دارسة مجتهدة للفلسفة، انه عام ٥٢٩. فهو العام الذي أغلقت فيه الكنيسة أبواب أكاديمية أفلاطون في اثينا. وفي نفس السنة تأسست رهبنة البندكتيين؛ فكانت أول سلك رهباني كبير. وهكذا أصبح عام ٥٢٩ رمزا لتحكم الكنسية في الفلسفة اليونانية. ومنذ ذلك الحين احتكرت الأديرة التعليم، والتأمل، والتفكير النظري. ان عقارب الساعة تشير الآن إلى الخامسة والنصف تقريبا...

كانت صوفيا قد فهمت ما يقصده بكل هذه الساعات. فالساعة الثانية عشرة في منتصف الليل هي ساعة البداية أو ساعة الصفر، والساعة الواحدة تعني عام ١٠٠ بعد الميلاد، والساعة السادسة تعني عام ٦٠٠ بعد الميلاد، والساعة الثانية بعد الظهر تعني عام ١٤٠٠ بعد الميلاد.

وواصل ألبرتو حديثه:

ـ إن العصور الوسطى تعني في الواقع فترة بين حقبتين. وقد نشأ هذا التعبير أثناء عصر النهضة، إذ كان ينظر آنذاك إلى العصور الوسطى على انها «عصور مظلمة» كإنما هي ليل استطال وخيم على أوروبا طوال ألف عام بين العصر القديم وعصر النهضة. ومازالت عبارة «العصور الوسطى» تستخدم اليوم بمدلول سلبي لوصف كل ما يستحق أن ينعت بالاستبداد والتسلط أو بالتأخر والجمود. غير أن بعض المؤرخين يعتبرون الآن أن العصور الوسطى كانت ألف عام من التبرعم والانبات أو من النضج الهادىء الطويل. ففي تلك الفترة أنشىء مثلا نظام المدارس. فمدارس الأديرة أخذت تنتشر في وقت مبكر من تلك العصور. ثم ظهرت مدارس الكاتدرائيات في القرن الثاني عشر. وفي نحو

عـام ١٢٠٠ أسسـت الجامعـات الاولى، وجمعـت موضوعـات الدراسـة في «كليات» مختلفة، كما هي الحال اليوم.

ـ إن ألف عام فترة طويلة حقا!

ـ نعم، لكن المسيحية أخذت وقتا طويلا حتى وصلت إلى الجماهير. كمـا تكونت في تلك الفترة الدول القومية بمقوماتها من مـدن ومواطنين وموسيقى فلكلورية وأغان شعبية. وكيف كنا سنعرف الحكايات والاغاني الشعبية لو لم تبدعها العصور الوسطى؟ وماذا عن أوروبا يا صوفيا؟ أكانت ستظل مثلا مقاطعة رومانية؟ ان هذه القرابـة اللغوية الـتي يـتردد رنينهـا في أسمـاء الـنرويج وانجلترا والمانيا ندين بوجودها لذلك اليم العميق الذي نسـميه العصـور الوسطى. ففي تلك المياه العميقة تسبح في كل اتجاه أسماك براقة حتى وان كنـا لا نلمحها دوما. وفي العصور الوسطى عاش مثلا سنوري جامع أساطير بلدان الشمال. كما عاش فيها سانت اولاف القديس الذي نصر النرويج، وشـارلمان الملك العظيم، ناهيك عن روميو وجولييت، وجان دارك، وغيرهم من الأمـراء الأقويـاء، وأمـيرات البـلاط الفاتنـات، والملـوك الأجـلاء، والفرسـان النبـلاء، وصناع الزجاج المجهولين، والمعماريين المبدعين، والنساك الزاهديـن، والمحـاربين الشجعان، والساحرات الشريرات.

ـ كل هذه القائمة الطويلة ثم تنسى الكهنة والقساوسة!

ـ معك حقك يا صوفيا. وبالمناسبة لم تدخل المسيحية النرويج حتى القـرن الحادي عشر. ومن المبالغة الزعم بأن بلدان الشمال قد تنصرت دفعـة واحـدة بعد هزيمة ستيكليستاد. فالمعتقدات الوثنية ظلت لفترة طويلة حية تحت القشـرة السطحية للمسيحية، وأخذت كثير من المفاهيم السابقة على المسـيحية تندمـج في المسيحية. فالاحتفالات الاسكندينافية بميلاد المسيح، مثلا، ما زلنا نرى فيها حتى يومنا هذا تقاليد اسكندينافية قديمة جنبا إلى جنب مع التقـاليد المسيحية. وتذكرنا هذه الحقيقة بالمثل الذي يقـول ان الشـبه بـين الزوجين يـتزايد كلمـا تقدم بهما العمر. ولكن مما لا شك فيه أن المسيحية أصبحت تدريجيا الفلسـفة

الرئيسية للحياة. ولذلك فاننا نتحدث عادة عن العصور الوسطى بوصفها من العوامل التي وحدت الثقافة المسيحية وعززتها.

ـ لم تكن كلها عصور ظلام إذن؟

ـ من المؤكد أن القرون الاولى بعد عام ٤٠٠ قد عرفت انحطاطا ثقافيا. لقد كانت الحقبة الرومانية فترة ازدهار ثقافي شهدت نشأة حواضر كبرى، وشبكات للصرف الصحي، وحمامات ومكتبات عامة، وفن معماري فخم جليل. إلا أن كل هذه الانجازات الثقافية قد انهارت في القرون الاولى من العصور الوسطى، مثلما انهارت التجارة والاقتصاد. فعاد الناس في العصور الوسطى إلى نظام المقايضة أو مبادلة سلعة عينية بأخرى دون وساطة النقود. وأصبح الاقتصاد يسيطر عليه **النظام الإقطاعي**، الذي يعني أن يملك الأرض قلة من النبلاء الأقوياء وأن يسخر في فلاحتها الأقنان (أي العبيد الذي يرثهم سيد عن آخر مع الأرض التي يعملون فيها). كما انخفض عدد السكان انخفاضا حادا في القرون الاولى. فبعد أن وصل عدد سكان روما إلى أكثر من مليون نسمة في العصر القديم، انخفض في عام ٦٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ نسمة، أي إلى جزء ضئيل من حجمه في فترة الازدهار. تخيلي يا صوفيا تلك المدينة ذات المجد التليد شبه مهجورة إلامن فئة قليلة تجول وسط أطلال الصروح العريقة. لقد تقطعت بهم أسباب الحضارة حتى إنهم كلما احتاجوا لمواد البناء أخذوها من تلك العمارة الأثرية. وكم يؤسف هذا التدمير علماء الآثار المعاصرين الذين كانوا يؤثرون أن يترك سكان العصور الوسطى الآثار القديمة على حالها.

ـ من السهل إصدار الأحكام بعد وقوع الحدث.

ـ من وجهة النظر السياسية كان العهد الروماني قد انتهى بالفعل في آخر القرن الرابع. إلا أن أسقف روما أصبح هو الرئيس الأعلى للكنسية الكاثوليكية كلها. ولقب «البابا» (أي الأب) وسرعان ما أصبح ينظر إليه على أنه خليفة المسيح على الأرض، وهكذا أصبحت روما مقر البابوية وعاصمة المسيحية خلال الشطر الأعظم من العصور الوسطى. لكن مع تزايد

قوة ملوك وأساقفة الدول القومية الوليدة تجر أ بعضهم على الوقوف في وجه كنيسة روما.

تطلعت صوفيا إلى هذا الراهب الذي يعرف كل هذه الأشياء وسألته:

- لقد قلت إن الكنيسة قد أغلقت أكاديمية أفلاطون. فهل معنى هذا ان الفلاسفة اليونانيين قد ذهبوا طي النسيان؟

- لم يتعرضوا للنسيان الكامل، فقد كانت بعض كتابات أفلاطون وأرسطو معروفة هنا أو هناك. ولكن الإمبراطورية الرومانية انقسمت تدريجيا إلى ثلاث مناطق ثقافية مختلفة. أوروبا الغربية، وسادت فيها ثقافة مسيحية لغتها هي **اللاتينية**، وكانت عاصمتها روما. ثم أوروبا الشرقية، وسادت فيها ثقافة مسيحية لغتها هي **اليونانية**، وكانت عاصمتها القسطنطينية التي سميت بعد ذلك باسمها اليوناني «بيزنطة». ولذا فاننا نتكلم عن العصور الوسطى البيزنطية في مقابل العصور الوسطى الرومانية الكاثوليكية. ثم كانت الإمبراطورية الرومانية تشمل أيضاً أفريقيا الشمالية والشرق الأدنى. ولكن هذه المنطقة نشأت فيها خلال العصور الوسطى ثقافة **عربية إسلامية**. فبعد موت محمد بن عبد الله في عام ٦٣٢ انتشر الإسلام في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ثم أصبحت أسبانيا أيضاً جزءاً من عالم الثقافة الإسلامية. ومن المفيد، من وجهة نظر تاريخ الثقافة، ملاحظة أن العرب قد فتحوا الاسكندرية أيضاً، التي كانت مدينة هيلينية قديمة، وهكذا ورث العرب جانبا كبيرا من العلوم اليونانية القديمة. وطوال العصور الوسطى، تفوق العرب في علوم مثل الرياضيات والكيمياء والفلك والطب. ونحن ما زلنا نستخدم الارقام العربية حتى اليوم. وكانت الثقافة العربية متفوقة في عدد من المجالات على الثقافة المسيحية.

- هل نسيت أني سألتك عما حدث للفلسفة اليونانية؟

ـ أتستطيعين أن تتخيلي نهرا عريضا انقسم إلى ثلاثة فروع مختلفة ثم التقت هذه الفروع معاً من جديد لتكون نهرا عظيما عريضا.

ـ نعم..

ـ تستطيعين إذن أن تدركي كيف انقسمت الثقافة اليونانية الرومانية. فقد تفرعت في ثلاث ثقافات ظلت حية من خلالها: الثقافة الرومانية الكاثوليكية في الغرب، والثقافة الرومانية البيزنطية في الشرق، والثقافة العربية في الجنوب، وكي أقدم لك صورة شديدة التبسيط أقول لك إن الأفلاطونية الجديدة قد انتقلت إلى الغرب وان أفلاطون قد انتقل إلى الشرق، وان أرسطو قد انتقل إلى العرب في الجنوب. غير أن كل ثقافة من الثقافات الثلاث كانت تتضمن أيضاً شيئاً من التراث اليوناني الروماني كله مثل النهر الذي يتفرع في ثلاثة فروع. وفي نهاية العصور الوسطى التقت الفروع الثلاثة مجددا في شمال ايطاليا. فالتأثير العربي جاء وافدا من اسبانيا، والتأثير اليوناني جاء من اليونان وبيزنطة وكانت هذه هي بداية عصر النهضة، نهضة الثقافة القديمة. أي أن الثقافة القديمة قد ظلت حية، بمعنى ما، ولم يقض عليها ظلام العصور الوسطى الطويل.

ـ اتضحت الصورة الآن.

ـ ولكن لا تدعينا نستبق مسار الأحداث. إذ يجب أن نتكلم قليلا في البداية عن فلسفة العصور الوسطى. ولكني لن أواصل حديثي من فوق هذا المنبر. فسأهبط الآن.

وخيم الصمت من جديد لا يقطعه إلاوقع خطوات الراهب الوئيدة. وبتأثير هذا الوقع الرتيب، وقلة النوم، وانقطاع التركيز خالط الوسن عيني صوفيا فكانت تبصر هذا الراهب العجيب يمشي في الكنيسة القديمة كإنما ترى حلما.

سار ألبرتو نحو المذبح ورفع بصره إلى التمثال العتيق للمسيح المصلوب، ثم استدار وتقدم ببطء نحو صوفيا وجلس إلى جوارها على مقعد الكنسية.

ما أغرب شعورها إذ تجد هذا الشخص الذي كان متنائيا لا تخاطبه إلابالورقة والقلم قد بات قريبا منها على هذا النحو. لاحظت صوفيا أنه رجل يخطو نحو الكهولة ذو شعر أسود ولحية مدببة منسقة، ولمحت في عينيه العسليتين الداكنتين نظرة تأمل عميق. وتساءلت صوفيا «من أنت؟ ولماذا ظهرت في حياتي لتقلبها رأسا على عقب؟». وقال ألبرتو وكأنه يقرأ أفكارها:

- إننا سنتعارف أكثر فأكثر بمضي الوقت.

أخذت الكنيسة تضيء شيئاً فشيئاً بضوء الفجر المار من النوافذ الملونة، وبدأ ألبرتو يتحدث عن فلسفة العصور الوسطى:

- لقد سلم فلاسفة العصور الوسطى تقريبا بأن المسيحية تمثل الحقيقة المطلقة. وكانت المسألة الجوهرية التي انصرف إلى بحثها الفلاسفة هي: هل الإيمان هو السبيل الوحيد لقبول المسيحية؟ أم من الممكن الوصول إلى الحقائق المسيحية عن طريق العقل. ثم ما هي العلاقة بين الفلاسفة اليونانيين وما يقوله الكتاب المقدس؟ أهناك تناقض بين الكتاب المقدس والعقل أم أننا نستطيع أن نوفق بين الإيمان والمعرفة؟ ان فلسفة العصور الوسطى قد دارت كلها تقريبا حول هذه المسألة الجوهرية.

أومأت صوفيا برأسها كإنما تتعجل ألبرتو، فقد كانت تعرف كل هذا من دروس الدين في المدرسة.

- اننا سندرس كيف تناول أبرز اثنين من فلاسفة العصور الوسطى هذه المسألة، وسنبدأ **بالقديس أوغسطين** الذي عاش من عام ٣٥٤ إلى عام ٤٣٠. فحياة هذا الرجل تلخص وحدها الانتقال من العصر القديم إلى أوائل العصور الوسطى (التي تدعى أيضاً العصور الوسطى المتقدمة). ولد أوغسطين في طاجسطا في شمال أفريقيا، وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره قصد قرطاجنة ليدرس فيها. وسافر بعد ذلك إلى روما وميلانو. ثم عاش الجزء

الأخير من حياته أسقفا لمدينة ايبونا التي تقع غربي قرطاجنة بعدة كيلومترات. ولكن أوغسطين لم يكن مسيحيا طوال حياته. فقد درس اتجاهات دينية وفلسفية مختلفة قبل أن يعتنق المسيحية.

ـ وما هي هذه الاتجاهات التي اهتم بها؟

ـ في فترة من الفترات كان مانويا. والمانوية فرقة دينية يتجلى فيها العديد من سمات العصر القديم المتأخر. وكانت عقيدة المانويين في الخلاص نصف دينية ونصف فلسفية، تؤكد أن العالم يتألف من مبدأين هما الخير والشر، والنور والظلام، والروح والمادة، ويستطيع الإنسان بقوة نفسه أن يرتفع فوق المادة ويجد خلاص الروح. غير أن أوغسطين لم يرتبط تماماً بالمانوية لأن هذا الانقسام الحاد بين الخير والشر كان يؤرقه لأن معناه أن الشر حقيقة قائمة بذاتها. ولكن إذا كان العالم من صنع الله وكان الله هوالخير المطلق فكيف يوجد الشر في العالم؟ وربما يكون ذلك هو ما جعل أوغسطين يتأثر لفترة من حياته بالفلسفة الرواقية، التي كانت، على العكس، لا ترى أن هناك ذلك الانقسام الحاد بين الخير والشر. على أن أكثر ما تأثر به أوغسطين هو فلسفة العصر القديم المتأخر، اي الأفلاطونية الجديدة، التي أعانته على حل مشكلة أصل الشر، من أين جاء. إذ وجد فيها الفكرة التي تقول ان الشر ليس من صنع الخالق وإنما هو انعدام الخير.

ـ هل أصبح أوغسطين إذن اسقفا يؤمن بالأفلاطونية الجديدة؟

ـ نعم، يمكنك أن تقولي هذا يا صوفيا. لقد تنصر أولا، لكن مسيحية القديس أوغسطين تأثرت تأثرا شديدا بالأفكار الأفلاطونية. ومن هنا ندرك أننا لا نبصر قطيعة درامية مع الفلسفة اليونانية بمجرد ولوجنا إلى العصور الوسطى المسيحية. فقسم كبير من الفلسفة اليونانية ظل مستمرا خلال العصور الوسطى وذلك لأن بعض آباء الكنيسة، مثل القديس أوغسطين، قد استعاروا هذا القسم الواسع وصاغوه في قوالب جديدة.

ـ هل تقصد بذلك إن القديس أوغسطين كان نصفه مسيحيا ونصفه الآخر أفلاطونيا جديدا؟

ـ هو نفسه كان يعتقد انه مسيحي مائة في المائة. على انه لم يكن يرى في الواقع اي تناقض بين المسيحية وفلسفة أفلاطون. بل كان يرى أن التماثل بين مذهب أفلاطون والعقيدة المسيحية ظاهر جلي حتى تخيل أن أفلاطون كان قد ألم بالعهد القديم. وهذا احتمالٌ ضعيف جداً بطبيعة الحال. فالأصدق أن نقول إن القديس أوغسطين هو الذي «نصّر» أفلاطون.

ـ لم يدر أوغسطين ظهره إذن لكل ما يمت بصلة إلى الفلسفة عندما بدأ يؤمن بالمسيحية؟

ـ لا، ولكنه أشار إلى أن هناك حدودا في معرفة الحقيقة لا يستطيع العقل أن يهتدي إليها بقوته الطبيعية. فالعقل له، في القضايا الدينية، حدود يتعذر عليه أن يتخطاها. والمسيحية سر إلهي لا يمكن إدراكه إلا بالإيمان. ولكن ان استقر هذا الإيمان في قلوبنا فإن الله سوف «ينير» أرواحنا فنصل إلى معرفة عن الله تتجاوز حدود قدراتنا العقلية. لقد شعر القديس أوغسطين في أعماق نفسه أن هناك حدودا ليس بمقدور الفلسفة تجاوزها فهو، بخبرته الذاتية، لم يعرف سلام الروح إلا بعد أن أصبح مسيحيا. وقد كتب في هذا المعنى يقول «إن قلبنا يظل مضطربا حتى يطمئن إليك».

ويبدو أن صوفيا كانت تنتظر أن تسمع شيئاً لم يذكره ألبرتو فسألته:

ـ كل هذا رائع. ولكني لا أفهم كيف تتفق المسيحية مع أفكار أفلاطون ومنها، كنموذج، عالم المثل؟

ـ لقد أكد القديس أوغسطين أن الله خلق العالم من العدم وتلك كانت فكرة جاءت في الكتاب المقدس، ولعلك تذكرين أن اليونانيين كانوا أكثر ميلا إلى الاعتقاد بأن العالم قد وجد دوما من قديم الأزل. لكن القديس أوغسطين كان يرى أن «المثل» كانت موجودة في ذهن الله قبل أن يخلقَ العالم. هو إذن

وضع «مثل» أفلاطون في ذهن ا لله، وبذلك حافظ على رؤية أفلاطون للمثل الخالدة.

- كان هذا حلاً توفيقياً بارعاً!

- هو بارع فعلاً إلا أنه يبين كيف بذل لا القديس أوغسطين وحده بل وغيره من آباء الكنيسة، محاولات فيها قدر هائل من التعسف والعنت للتوفيق بين الفكر اليوناني والفكر اليهودي المسيحي. فهم ينتمون، بمعنى ما، إلى ثقافتين. كما استعان أوغسطين بالأفلاطونية الجديدة في حل مسألة مصدر الشر التي طالما أرقته. إذ اتفق مع افلوطين في أن الشر هو «غياب ا لله». إن الشر ليس له وجود مستقل او حقيقي، لأن ا لله لا يخلق إلاالخير. أما الشر فإنه ينبع من معصية البشر. أو على حد تعبيره: «إرادة الخير عمل ا لله، وإرادة الشر هي الابتعاد عن عمل ا لله».

- وهل كان يعتقد حقا أن للإنسان روحا إلهية؟

- نعم ولا. فالقديس أوغسطين يرى أن هناك هوة يتعذر تجاوزها بين ا لله والعالم. وهو في هذا يقف بثبات على أرض الكتاب المقدس، رافضا مذهب افلوطين الذي يرى أن كل الأشياء ما هي سوى واحد. غير أنه يؤكد على أن الإنسان كائن روحي: إن له جسما ماديا ينتمي إلى العالم المادي «وتفسده العثة والعفن» ولكنه يملك أيضاً روحا تستطيع معرفة ا لله.

- وماذا يحدث للروح عندما نموت؟

- يرى القديس أوغسطين أن الجنس البشري كله قضي عليه بالهلاك بعد خروج الإنسان من الجنة. لكن ا لله شاء انقاذ بعض الناس من الهلاك.

- في هذه الحالة كان ا لله يستطيع كذلك إن شاء إنقاذ الناس كافة.

- في هذه النقطة ينكر القديس أوغسطين على الإنسان أي حق في انتقاد ا لله أو الاعتراض على حكمه، ويشير في هذا المقام إلى ما كتبه القديس بولس في رسالته إلى كنيسة روما: «من أنت أيها الإنسان حتى تعترض على ا لله؟

أيقول المصنوع للصانع: لماذا صنعتني هكذا؟ أما يحق للخزاف أن يستعمل طينه كما يشاء، فيصنع من جبلة الطين نفسها إناء لاستعمال شريف، وإناء آخر لاستعمال دنيء».

ـ هل يلهو الله إذن في عليائه بالبشر؟ وما إن يغضب على مخلوق من مخلوقاته حتى يطوح به بعيدا.

ـ إن ما يسعى القديس أوغسطين إلى تبيانه هو أنه ما من إنسان بمستحق خلاص الله. ومع ذلك فقد اختار الله البعض لإنقاذهم من الهلاك، وبالتالي فهو يرى أن معرفة الناجين من الهالكين أمر مقدر سلفا. اننا مثل الفخار في يد الله. فنحن نعتمد جميعا على رحمته.

ـ أي أنه عاد، بمعنى ما، إلى الاعتقاد القديم في القضاء والقدر.

ـ هناك شيء من هذا. لكن القديس أوغسطين لا يعفي الإنسان من المسؤولية عن حياته. وكان يوصي الناس بأن يعيشوا واعين بأنهم من زمرة المختارين السعداء. ولم ينكر أن لدينا إرادة حرة. لكن الله «قدر» سلفا كيف سنعيش.

فسألت صوفيا:

ـ أليس في هذا شيء من الظلم؟ لقد قال سقراط ان كل الناس أمامهم نفس الفرص لأنهم يملكون نفس العقل. لكن القديس أوغسطين يقسم البشرية إلى قسمين: قسم سينجو وقسم سيهلك.

ـ معك حقك في أن لاهوت القديس أوغسطين قد ابتعد كثيراً عن النزعة الإنسانية الاثينية. غير إن القديس أوغسطين لم يكن يستهدف تقسيم البشرية إلى مجموعتين. لقد كان يتوسع فقط في الفكرة الواردة في الكتاب المقدس عن الخلاص والهلاك، وقد شرح هذه الفكرة في كتاب كبير اسمه «**مدينة الله**».

ـ وماذا يقول في هذا الكتاب؟

ـ إن عبارة «مدينـة ا لله» أو «مملكـة ا لله» أو «ملكـوت ا لله» جـاءت في الكتاب المقدس وفي تعـاليم المسيح. ويؤمـن القديـس أوغسـطين بـأن التـاريخ البشري كله تاريخ صراع بـين «مدينـة ا لله» و«المدينـة الارضيـة». ان هـاتين المدينتين ليستا دولتين سياستين كـل واحـدة مستقلة ومتمـايزة عـن الأخـرى. إنهما تتصارعان في سبيل السـيادة داخـل نفـس كـل إنسـان. غـير أن «مدينـة ا لله» موجودة بدرجة أو أخرى في الكنيسـة و«المدينـة الأرضيـة» موجـودة في الدولة السياسية كالإمبراطوريـة الرومانيـة مثـلا الـتي كـانت آخـذة في الأفـول والاضمحلال في عهد القديس أوغسطين. ثم تزايد اسـتخدام هـذا التصـور في تفسير وتبرير الصراع الـذي لم يتوقـف طيلـة العصـور الوسـطى بـين الكنيسـة والدولة في سـبيل السـلطة والسيادة. وشـاعت آنـذاك العبـارة الـتي تقـول «لا خلاص خارج الكنسية»، ومع مضي الزمن أصبحت فكرة «مدينـة ا لله» الـتي ابتدعها القديس أوغسطين لا تعـني إلامؤسسـة الكنسـية. ولـن نصـادف أدنـى احتجاج على الفكرة القائلة ان الإنسـان لا يستطيع أن يجد الخـلاص إلا مـن خلال الكنيسة، إلى أن تظهر حركة الاصلاح الديني في القرن الرابع عشر.

ـ لقد تأخر ذلك كثيراً!

ـ يمكننا أن نلاحظ أيضاً إن القديس أوغسطين هو أول فيلسـوف نصادفـه يدرج **التاريخ** في فلسفته. ان الصراع بين الخير والشر ليس جديدا في حد ذاته. إن الجديد ان مسيرة التاريخ ما هي إلا تعبير عن الصـراع بـين الخـير والشـر في رأي القديس أوغسطين. وهذا الجانب من أفكاره لم يتأثر فيه كثيراً بأفلاطون. إنه أكثر تأثرا هنا بالرؤية الخطية للتاريخ كمـا نصادفهـا في العهـد القديـم: أي فكرة أن ا لله يحتاج إلى التاريخ من أجل أن يحقق «مدينة ا لله». والتـاريخ هنـا له وظيفة ضرورية هي تنوير الإنسان ومحق الشر ومحوه. وكما يقـول القديـس أوغسطين: «ان العناية الإلهية توجه تاريخ البشـر مـن آدم حتـى آخـر الزمـان، كأنما هـو قصـة رجـل واحـد يتقـدم بـه العمـر شيئاً فشيئاً مـن الطفولـة إلى الشيخوخة».

نظرت صوفيا إلى ساعتها وقالت:

ـ الساعة الآن الثامنة وسأضطر للرجوع عما قليل.

ـ ولكن ليس قبل أن أكلمك عن ثاني فيلسوف كبير من فلاسفة العصور الوسطى. ما رأيك لو جلسنا في الخارج؟ ودون أن ينتظر ردها نهض ألبرتو وضم كفيه معاً ثم سار في الممشى الأوسط متجها إلى خارج الكنيسة. كان يبدو وكأنه يصلي أو يتأمل بعمق واستغراق في مسألة روحية. قامت صوفيا وتبعته وهي تشعر أنها لا تملك أي خيار آخر في الواقع.

كانت الشمس قد أشرقت ولكن ضوءها لم يكن قد اشتد بعد لينفذ من سحب الصباح. اقتعد ألبرتو دكة خشبية خارج الكنيسة. وتساءلت صوفيا عما سيقول من يراهما في جلستهما هذه أمام الكنيسة. فالجلوس على دكة أمام الكنيسة في الثامنة صباحا فيه ما فيه من الغرابة، أما الجلوس بجانب راهب يشبه كهنة العصور الوسطى فهو أمر عجيب حقا.

وبدأ كلامه قائلا:

ـ الساعة الآن الثامنة، لقد مر نحو ٤٠٠ سنة على عهد القديس أوغسطين. والآن تبدأ المدارس. إلا أن التعليم سيظل حتى الساعة العاشرة حكرا على مدارس الأديرة. وبين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة، أسست أولى المدارس المرتبطة بالكاتدرائيات ونحو الساعة الثانية عشرة تأسست الجامعات الأولى. وفي تلك الفترة نفسها، شيدت الكاتدرائيات القوطية الكبرى. وهذه الكنيسة التي نجلس أمامها قد بنيت نحو عام ١٢٠٠، أي في العصور الوسطى المتأخرة (التي تعرف أيضاً باسم العصر القوطي المتأخر). فأهل هذه البلدة لم تكن لديهم الموارد الكافية لبناء كاتدرائية كبرى.

فقالت صوفيا:

ـ إنهم لم يكونوا بحاجة إلى كاتدرائية كبرى، فعددهم لم يكن كبيرا وأنا لا أحب الكنائس الخاوية.

ـ إن الكاتدرائيات الكبرى لم تكن تبنى لمجرد أن تسع جماعات كبيرة من المصلين. بل كانت تبنى تمجيدا لله وتعد، في حد ذاتها، بمثابة قداس ديني. على أن تلك الفترة وقع فيها شيء له أهمية خاصة للفلاسفة من أمثالنا.

ـ وما هو هذا الشيء الخطير؟

ـ لقد بدأ تأثير عرب اسبانيا يتجلى ويظهر. فطيلة العصور الوسطى أبقى العرب مذهب أرسطو حيا يدرس ويبحث. واعتبارا من نهاية القرن الثاني عشر بدأ العلماء العرب يتوافدون على شمال ايطاليا بدعوة من نبلاء هذه المنطقة. وبذلك عرفت كثير من كتابات أرسطو وترجمت من اليونانية أو من العربية إلى اللاتينية. وخلق هذا اهتماماً جديدا بالعلوم الطبيعية وبث روحا جديدا في مسألة العلاقة بين العقيدة المسيحية والفلسفة اليونانية. فلئن كان من الواضح أنه لا يمكن بطبيعة الحال الاستمرار في تجاهل أرسطو في مسائل العلوم، فلم تكن القضية بهذا الوضوح عندما نأتي لأفكار أرسطو الفلسفية؟ فمتى يجب أن ننصت إلى ما يقول أرسطو ومتى يجب أن نستمسك بما يقول الكتاب المقدس؟ هل رأيت المشكلة التي ظهرت آنذاك؟

أومأت صوفيا برأسها، وواصل الراهب حديثه:

ـ كان أكبر الفلاسفة وأهمهم في تلك الفترة هو القديس **توما الأكويني** الذي عاش بين عام ١٢٢٥ وعام ١٢٤٧. وكان من بلدة صغيرة تدعى أكوينو تقع بين روما ونابولي، وقد تتلمذ في باريس وعلم فيها حتى صار أستاذا بالجامعة. لقد سميته «فيلسوفا » ولكني أستطيع أيضاً أن أدعوه «لاهوتيا» ففي تلك الفترة لم يكن هناك فرق كبير بين الفلسفة واللاهوت (أي دراسة علوم الدين المسيحي). وسأقول لك على سبيل الاختصار، إن القديس توما الأكويني قد «نصّر» أرسطو بنفس الطريقة التي كان القديس أوغسطين قد «نصّر» بها أفلاطون في مستهل العصور الوسطى.

ـ ولكن أليس من الغريب تنصير فلاسفة عاشوا مئات السنين قبل المسيح؟

ـ يمكنك أن تقولي هذا، لكننا نقصد «بتنصير» هذين الفيلسوفين اليونانيين الكبيرين تفسيرهما وشرحهما بطريقة تجعلهما لا يشكلان تهديدا للعقيدة المسيحية. ان توما الأكويني كان من الذين حاولوا التوفيق بين فلسفة أرسطو والمسيحية. اننا نقول انه خلق التوليفة المثلى بين الإيمان والمعرفة. وقد نجح في هذا بأن انطلق من فلسفة أرسطو آخذا اياها بمعناها الحرفي.

ـ أنا آسفة يا ألبرتو، أنا لم أفهم هذه النقطة الأخيرة، ربما لأني نمت قليلا جداً الليلة الماضية. فهلا شرحت لي ذلك بطريقة أبسط.

ـ كان توما الأكويني يرى أنه ليس هناك تعارض بالضرورة بين ما تعلمنا إياه الفلسفة أو العقل من جهة وبين ما ت علمنا اياه الرسالة المسيحية أو الإيمان من جهة أخرى. فالمسيحية والفلسفة يقولان نفس الشيء في أحيان كثيرة. ولذلك فاننا نستطيع أن نصل بمعونة العقل إلى نفس الحقائق التي يمكن أن نطالعها في الكتاب المقدس.

ـ كلا! هذه مسألة من الصعب قبولها! هل يستطيع العقل أن يقول لنا إن الله خلق العالم في ستة أيام أو إن يسوع هو ابن الله؟

ـ لا بالطبع، إن هذا النوع من الحقائق الإيمانية لا يمكن الوصول إليه إلا بالإيمان والعقيدة المسيحية. لكن القديس توما الأكويني يرى أن هناك عددا من «الحقائق اللاهوتية الطبيعية»، أي حقائق يمكن الوصول إليها بالعقيدة المسيحية وبعقلنا الفطري أو الطبيعي على السواء. وكان يرى ان هناك طريقين يفضيان إلى الله. طريق يمر عبر الإيمان والعقيدة المسيحية، والآخر يمر عبر العقل والحواس. وكان من رأيه أن طريق الإيمان والعقيدة هو الطريق الأسلم والأقوم، فما أسهل أن يضل الإنسان إن هو عول على العقل وحده. ولكن النقطة الجوهرية التي كان القديس توما يريد أن يؤكد عليها هي أنه ليس هناك بالضرورة تعارض بين فلاسفة مثل أرسطو والعقيدة المسيحية.

ـ هل معنى هذا الكلام أن بوسعنا أن نختار سواء الاقتناع بأفكار أرسطو أو الإيمان بالكتاب المقدس؟

ـ لا، ليس هذا هو المقصود على الاطلاق. ان أرسطو لم يقطع إلا جزءاً من الطريق، إذ لم يقدر له أن يعرف العقيدة المسيحية. ولكن لأن نقطع شوطا صغيرا على الطريق الصحيح خير من أن نضل الطريق ذاته. فليس من الخطأ مثلا ان نقول ان اثينا تقع في أوروبا. ولكننا لا نستطيع أن ندعى ان هذا تعبير دقيق عن موقعها الفعلي. فلو تصورنا أنك صادفت وأنت تطالعين أحد الكتب المعلومة القائلة ان اثينا تقع في أوروبا وأنك أردت معرفة موقعها بمزيد من الدقة فقد يتعين عليك عندئذ أن تنظري في مرجع جغرافي مناسب فيخبرك أن أثينا هي عاصمة اليونان، وأن اليونان بلد صغير يقع من جنوب شرقي أوروبا. وإذا صادفك حسن الحظ ربما حدثك هذا المرجع عن الاكروبول. ومن يدري لعله يحدثك أيضاً عن سقراط وأفلاطون وأرسطو!

ـ لكن المعلومة الاولى كانت صحيحة...

ـ بالضبط! وهذا ما كان يريد اثباته القديس توما: ان هناك حقيقة واحدة فقط. فعندما يبين لنا أرسطو شيئاً يقضي العقل بصحته فان هذا الشيء لن يكون متعارضا مع العقيدة المسيحية. اننا نستطيع أن نصل بنجاح إلى جانب من الحقيقة عن طريق العقل والحواس. وهذا الجانب يتصل، مثلا، بالحقائق التي يذكرها أرسطو في وصفه للمملكة النباتية أو للمملكة الحيوانية. غير أن هناك جانبا آخر من الحقيقة يطلعنا عليه الله من خلال الكتاب المقدس. لكن كلا الجانبين من الحقيقة يتداخلان في عدد من النقاط الهامة. فهناك قضايا عديدة يقول عنها الكتاب المقدس والعقل نفس الشيء.

ـ كوجود الله مثلا؟

- بالضبط! ففلسفة أرسطو تفترض أيضاً وجود الله أو سبب أول هو محرك كل الظواهر الطبيعية. ولكن أرسطو لا يعطي أي وصف اضافي لله. وعلى هذا المستوى علينا أن نعتمد كلية على الكتاب المقدس وتعاليم المسيح.

- وهل وجود الله أمر مؤكد هكذا بصورة مطلقة؟

- هذه قضية أثارت نقاشا كثيراً بطبيعة الحال. غير أن معظم الناس متفقون في عصرنا الحاضر على أن العقل الإنساني عاجز بكل تأكيد عن اثبات أن الله غير موجود. ولكن انتظري يا صوفيا، فالقديس توما مضى إلى مدى أبعد. فقد قال انه يستطيع أن يثبت وجود الله على أساس فلسفة أرسطو ذاتها.

- هذه تكون حقا محاولة بارعة.

- لقد كان يعتقد أن عقلنا يدلنا على أن كل ما يحيط بنا لا بد أن يكون له «سبب أول». وقد تجلى الله للبشر من خلال الكتاب المقدس ومن خلال العقل على حد سواء. وعليه، فان لدينا «لاهوت الإيمان» و«اللاهوت الطبيعي» في آن واحد. ويصدق هذا أيضاً على مستوى الأخلاق. فالكتاب المقدس يبين الطريقة التي يريد لنا الله أن نعيش بها، لكن الله أعطانا أيضاً وعيا يمكننا من تمييز الحق عن الباطل بطريقة «طبيعية». وبالتالي، فان هناك «طريقين» يفضيان إلى العيش وفق مكارم الأخلاق. فنحن نعرف أن من الخطأ ايذاء الآخرين حتى وإن لم نكن قد قرأنا في الكتاب المقدس الوصية التي تقول «اصنع للآخرين ما تريد أن يصنعوه لك». وهنا أيضاً يرى القديس توما إن اتباع وصايا الكتاب المقدس أقوم وأسلم من الركون إلى حكم العقل وحده.

وقالت صوفيا:

- أعتقد أني بدأت افهم الآن. المسألة تشبه العاصفة مثلا فاننا نعرف أنها آتية وشيكة سواء من رؤية البرق أو من سماع الرعد.

ـ هذا صحيح! ويمكننا أن نسمع الرعد حتى إن كنا مكفوفين، أو أن نرى البرق حتى إن كنا صما. والأفضل بطبيعة الحال هو أن نرى ونسمع. ولكن ليس هناك أي تعارض بين ما نراه وما نسمعه، بل على العكس ان كل انطباع يعزز الآخر.

ـ فهمت قصدك.

ـ دعيني أ ضف صورة أخرى. عندما تقرأين إحدى الروايات، ولنقل مثلا رواية **فئران ورجال لجون شتاينبك**...

ـ من المصادفة أني قرأتها فعلا..

ـ أفلا ترين يا صوفيا أن قراءة كتاب من الكتب تعطيك فكرة ما عن شخصية مؤلفه؟

ـ أستطيع أن أفترض على الأقل أن هناك شخصا كتبه...

ـ وهل لا يمكنك استنتاج شيء آخر، في حالة شتاينبك مثلا؟

ـ يبدو انه يهتم بالغرباء.

ـ عندما تقرأين هذا الكتاب، الذي ألفه شتاينبك، تستطيعين أن تعرفي شيئاً ما عن شخصية المؤلف. ولكنك لا تتوقعين بالطبع من قراءة الرواية معرفة أي معلومات تفصيلية عن المؤلف. فعندما تقرأين رواية فئران ورجال لا يمكنك أن تقولي كم كان عمر شتاينبك عندما كتبها، أو أين كان يعيش آنذاك، أو ما عدد أطفاله.

ـ كلا بالطبع!

ـ لكنك تستطيعين أن تجدي كل هذه المعلومات في كتاب عن سيرة جون شتاينبك. ان السيرة أو السيرة الذاتية هي التي تتيح لك أن تتعرفي على شتاينبك **كإنسان**.

ـ هذا صحيح.

ـ وتلك هي تقريبا الصلة بين مخلوقات الله والكتاب المقدس. فنحن نستطيع أن نتبين وجود الله بمجرد السير في الطبيعة. ويمكننا أن نستنتج بسهولة أنه يحب الزهور والحيوانات، وإلافلم خلقها؟ ولكن كل ما يتصل بالله، من حيث هو ذات، لن نجده إلا في الكتاب المقدس أو في السيرة الذاتية لله إذا كنت تفضلين هذه الصورة.

ـ أنت بارع حقا في العثور على الأمثلة.

ـ...

وللمرة الأولى يظل ألبرتو صامتا يفكر. و لم تستطع صوفيا أن تمنع نفسها من سؤاله:

ـ ألكل هذا علاقة بهيلد؟

ـ نحن لا نعرف إن كانت هيلد هذه موجودة أصلا!

ـ ولكننا نعرف أن هناك من يترك آثارا تدل عليها هنا وهناك: بطاقات بريدية، شالا أحمر، محفظة خضراء، جوربا طويلا...

هز ألبرتو رأسه وقال:

ـ يبدو أن والد هيلد هو الذي يقرر عدد هذه الآثار والقرائن التي يضعها على طريقنا...

إن كل ما نعرفه الآن هو أن هناك شخصا ما يرسل لنا كل هذه البطاقات. أرجو أن يكتب شيئاً عن نفسه أيضاً. ولكننا سنعود إلى هذه المسألة فيما بعد.

ـ إن الساعة الثانية عشرة. يبدو اني مضطرة للعودة قبل نهاية العصور الوسطى.

ـ سأختتم حديثي بكلمات قليلة لأبين لك كيف تبنى القديس توما فلسفة أرسطو في كل المجالات التي لا تتصادم فيها مع لاهوت الكنيسة. ومن هذه

المجالات منطق أرسطو، ونظريته في المعرفة، وفلسفته في الطبيعة، ولعلك تذكرين مثلا كيف وصف أرسطو سلم تصنيف الطبيعة من النبات إلى الحيوان ثم إلى الإنسان.

- نعم....

- كان أرسطو يعتقد أن هذا السلم يمضي في الارتقاء وصولا إلى الله الذي يمثل أعلى درجات الوجود. و لم يكن من الصعب التوفيق بين هذا التصور واللاهوت المسيحي. فالقديس توما يرى أن الوجود يتقدم درجة إثر درجة عند الانتقال من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان، ثم من الإنسان إلى الملائكة، ثم من الملائكة إلى الله. فالإنسان يملك مثل الحيوانات جسما وحواسا، لكنه يملك أيضاً ذكاء يمكنه من تعقل الأشياء. أما الملائكة فليس لها لا هذا الجسد ولا حواسه ولكن لها ذكاء تلقائيا ومباشرا. وهي ليست بحاجة لأن «تتعلم التفكير» مثل البشر، ولا لأن تستخلص الاستنتاجات. انها تعلم كل ما يعرفه البشر دونما حاجة إلى تعلم ذلك خطوة خطوة مثلنا، ولما كانت الملائكة لا تملك أجساما فانها خالدة لا تموت أبداً. ولكنها ليست أزلية قديمة مثل الله لأن الله قد خلقها في يوم من الأيام. ولكنها خلقت بلا جسد تفارقه ذات يوم، ولذلك فانها لن تعرف الموت أبداً.

- كم يبدو هذا رائعا...

- ولكن فوق الملائكة هناك الله يا صوفيا. انه يستطيع أن يرى ويعرف كل شيء في نظرة واحدة تحيط بكل شيء.

- إذن هو يرانا الآن؟

- نعم هذا محتمل، ولكن ليس في هذه «اللحظة». فالزمن بالنسبة لله ليس كالزمن بالنسبة لنا. «فالآن» بالنسبة لنا ليس هو «الآن» بالنسبة لله. ومرور عدة أسابيع بالنسبة لنا لا يعني بالضرورة أنها تمر بالنسبة لله.

- إن جسمي يقشعر!....

نظر إليها ألبرتو مستفهما فواصلت حديثها:

ـ لقد تلقيت أمس بطاقة أخرى من والد هيلد يقول فيها لهيلد شيئاً مشابها: إن الزمن بالنسبة لصوفيا ليس هو الزمن بالنسبة لنا! ألا يماثل هذا ما تقوله أنت عن الله!

لاحظت صوفيا أن وجه ألبرتو قد عبس فجأة تحت قلنسوته البنية وسمعته يقول غاضبا:

ـ كان يجب أن يخجل من نفسه!

لم تفهم صوفيا ما يقصده ألبرتو بالتحديد. صمت ألبرتو لبرهة ثم واصل حديثه:

ـ ومن المؤسف إن القديس توما قد تبنى رؤية أرسطو للمرأة. لعلك تتذكرين يا صوفيا أن أرسطو كان ينظر إلى المرأة على أنها أشبه برجل ناقص وكان يرى أن الأطفال لا يرثون إلا صفات الأب، إذ إن المرأة هي العنصر السلبي المتلقي في حين أن الرجل هو العنصر الفعال والخلاق. ورأى القديس توما إن هذه الافكار تتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس، الذي يخبرنا مثلا بأن حواء قد خلقت من ضلع آدم.

ـ أنا لا أفهم ذلك!

ـ من المفيد أن نلاحظ أن تكاثر الثدييات لم يدرس حتى عام ١٨٢٧. ولذا لم يكن من المدهش أن يتصور الناس أن الرجل هو القوة الخلاقة واهبة الحياة في عملية التكاثر. ولكن يجب ألا يفوتنا إن القديس توما لم يكن يعتبر أن المرأة أدنى من الرجل إلامن حيث هي كائن طبيعي فحسب. لكن روح المرأة مساوية لروح الرجل تماماً. وفي السماء تسود المساواة الكاملة بين الجنسين لأن كل القضايا المتصلة بجنس الجسد تزول ولا تعود قائمة.

ـ يا له من عزاء هزيل! ألم تظهر في العصور الوسطى ولا فيلسوفة واحدة؟

ـ إن حياة الكنيسة في العصور الوسطى قد هيمن عليها الرجال. لكن هذا لا يعني أنه لم تظهر مفكرات. وكانت إحدى هؤلاء المفكرات هي **هيلدجارد البنجنية** (أي التي تنتسب لمدينة بنجن)...

اتسعت عينا صوفيا وقالت:

ـ وهل تربطها أي علاقة بهيلد؟

ـ يا له من سؤال يا صوفيا! هيلدجارد هذه كانت راهبة عاشت في وادي نهر الراين من عام ١٠٨٩ حتى عام ١١٩٧، وبرغم انها كانت امرأة فقد اشتغلت بالوعظ، والتأليف، والتطبيب، وبدراسة النبات والطبيعة. وهي نموذج لميل المرأة، حتى في العصور الوسطى، إلى الاهتمام بالمسائل المعرفية وبالجوانب التطبيقية العملية.

ـ وماذا عن هيلد؟

ـ هناك اعتقاد مسيحي ويهودي قديم يرى أن الله يملك جانبا أنثويا أو «طبيعة أمومية». إن المرأة أيضاً خلقت على صورة الله. وهذا الجانب الأنثوي الأمومي من الله يدعى باليونانية «صوفيا» ويعني «الحكمة».

فوجئت صوفيا بهذه الحقيقة وهزت رأسها بدهشة وتساءلت: لـمَ لمْ يخبرها أحد بهذا؟ ولـمَ لمْ تفكر هي أن تسأل عن معنى اسمها؟

وواصل ألبرتو حديثه:

ـ كما أن «صوفيا» أو الطبيعة الأمومية لله كانت لها أهمية كبرى لكل من اليهود والكنيسة الارثوذكسية اليونانية طوال العصور الوسطى. أما في الغرب فان هذه المسألة كانت قد طوتها يد النسيان حتى جاءت هيلدجارد. ويروى عن هيلدجارد أن «صوفيا» رمز الحكمة قد ظهرت لها في إحدى الرؤى ترتدي ثوبا موشى بالذهب ومرصعا بالأحجار الكريمة...

في هـذه اللحظـة نهضـت صوفيـا. وفكـــرت: لقـد ظهــرت «صوفيـا» لهيلدجارد في رؤية... فقالت:

ـ ربما أظهر أنا أيضاً لهيلد!

جلست صوفيا من جديد، وربت ألبرتو على كتفها يطمئنها وقال:

ـ اننا سنبحث حتماً هذه المسألة. ولكن الساعة الآن الواحـدة ويجـب أن تعودي الآن فنحن نقترب من مطلع عصر جديد. وسوف أدعوك قريبـا إلى لقاء نتحدث فيه عن عصر النهضة. ان هرمس سيأتي إلى الحديقة ليصطحبك.

وما إن أنهى الراهــب الغريـب حديثـه حتـى نهـض واتجـه نحـو الكنيسـة. وظلت صوفيا جالسة في مكانها تفكر في هيلدجارد و«صوفيا» رمز الحكمـة، ثـم تفكـر في هيلـد وصوفيـا الصغيرتين. وفجـــأة انتفضـت وجـرت خلـف الفيلسوف المتدثر بثوب الراهب وصاحت:

ـ وهل كان في العصور الوسطى شخصا يدعى ألبرتو؟

أبطأ خطوه، وأدار رأسه قليلا وقال:

ـ كان للقديس توما أستاذ فلسفة شهير يدعى ألبرت الأكبر...

قال هذه الكلمات وأحنى رأسـه ثـم غـاب مـن بـاب الكنيسـة. لم تقتنـع صوفيا باجابته. فسارت وراءه إلى داخل الكنيسة، غير أنهـا وجـدت الكنيسـة خالية تماماً. أين ذهب؟ هل ابتعلته الارض؟

بينمـا هـي تغـادر الكنيسـة لمحـت لوحـة للعـذراء مريـم. فـاتجهت نحوهـا وأخذت تتفحصها بعناية. وخيل إليها انها ترى قطرة مـاء تحـت إحـدى عيـني العذراء. هل هذه دموع؟

أسرعت صوفيا بالخروج من الكنيسة وأخذت تركض بكل قوتها صـوب بيت نورا.

الفصل السادس عشر

عصر النهضة

... أيا سليل الأرباب المتواري في حلة فانية...

كانت نورا تقف أمام بوابة بيتها الأصفر تتلفت في كل اتجاه وقد استبد بها القلق. وعندما لمحت صوفيا أخيرا كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والربع. جاءت صوفيا تعدو بكل قوتها ووصلت تلهث وتتصبب عرقا، إلاأن نورا ابتدرتها صائحة في حدة:

ـ لقد غبت أكثر من عشر ساعات يا صوفيا؟

هزت صوفيا رأسها وقالت:

ـ لا، بل غبت أكثر من ألف سنة!

ـ ولكن أين ذهبت؟ هل جننت؟ لقد تكلمت أمك من نصف ساعة!

ـ وماذا قلت لها؟

ـ قلت لها إنك ذهبت لشراء مجلة من كشك الجرائد. فطلبت أن تتصلي بها فور عودتك. وليس هذا كل شيء، فقد دخل بابا وماما الغرفة يحملان لنا الافطار ورأيا سريرك خاليا!

ـ وكيف تصرفت يا نورا؟

ـ كان موقفا في غاية الحرج فاضطررت لأن أخترع شيئاً! أخبرتهما أنك عدت إلى منزلك لأننا تشاجرنا معاً.

ـ يجب إذن أن نتصالح سريعا، كما يجب أن نحتال كي لا يتصلا بأمي لعدة أيام مقبلة. أتعتقدين أننا نستطيع أن نفعل ذلك؟

هزت نورا كتفيها وقالت:

- هذا ما أرجوه على أي حال!

وما لبث أن ظهر والد نورا في الحديقة يرتدي أفرولا أزرق ويدفع أمامه عربة صغيرة يجمع فيها ما تساقط من أوراق الشجر. وعندما أبصر صوفيا ونورا معاً هتف:

- آه!... ها قد عدتما صديقتين من جديد. أتعرفان أني جمعت كل أوراق الشتاء الماضي. لا توجد الآن ورقة واحدة على سلم البدرون.

فقالت صوفيا في لهجة جافة لا تترك مجالاً لمواصلة الحديث:

- عظيم، ربما استطعنا أن نتناول الشاي هناك بدلا من أن نشربه في غرفة نورا.

ندت عن والد نورا ضحكة متكلفة ومضى في سبيله. وتنهدت نورا في حرج واستسلام إزاء رد صديقتها. فلئن كان هذا النوع من الردود الخشنة قد يسمع أحيانا في بيت صوفيا فإنه لم يكن مألوفا في أسرة نورا التي تتألف من والدها السيد برجستون، المستشار المالي المشغول دوما بأخبار البورصة، ومن والدتها المتأنقة دوما بطريقة تذكرك بعرائس «باربي».

- أنا آسفة يا نورا إلاأني أحسست أن علي أن أتظاهر بأني ما زلت غاضبة لأجعل والدك يصدق قصة تشاجرنا.

- ألن تحكي لي ماذا فعلت ليلة أمس!

- طبعا إذا سرت معي حتى البيت. فما سأرويه لك لا يخص على أي حال لا المستشارين الماليين ولا عرائس «باربي» المتصابيات.

- ما أخشن تعليقاتك يا صوفيا أحيانا.

- اعذريني يا نورا فاني لم أنم تقريبا الليلة الماضية. ثم هناك شيء آخر، لقد بدأت أتساءل إن لم تكن هيلد ترى كل ما نفعله.

وبدأتا تسيران نحو ممر النرجس.

ـ هل تقصدين أنها تتمتع بالقدرة على الرؤية عن بعد؟

ـ ربما...

رد ت نورا في نبرة تشي بعدم ارتياحها لكل هذا التكتم:

ـ إلاأن هذا لا يفسر لماذا يرسل والدها بطاقات حمقاء إلى شاليه مهجور في وسط الغابة.

ـ أسلم معك بأن هذه نقطة غير مفهومة.

ـ إلاتريدين أن تقولي لي أين ذهبت؟

عندئذ أفضت إليها صوفيا بسرها الدفين، فحدثتها عن دروس الفلسفة وأستاذ الفلسفة الغامض. وطلبت من نورا أن تقسم ألا تبوح بشيء مما قالته لها.

ثم سارتا صامتتين حتى وصلتا إلى بيت صوفيا فقالت نورا:

ـ إن كل ذلك لا يروق لي.

ووقفت نورا عند بوابة البيت وبدا عليها أنها تريد العودة.

ـ أنا معك في ان هناك جوانب غامضة لا ندري كيف نفسرها بعد. لكن كيف ننسى أننا نتعرف في الوقت ذاته على تاريخ الفلسفة، ونتعلم كيف حاول الناس في كل العصور أن يجيبوا عن الأسئلة التي تعني كل إنسان مباشرة. إن الفلسفة تبحث فيمن نكون ومن أين أتينا. هل تعتقدين أننا نتعلم ما يكفي عن هذه الأمور في المدرسة؟

ـ ليس هناك من يستطيع الاجابة عن أسئلة كهذه.

ـ ربما، ولكننا لا نتعلم مجرد طرح هذا النوع من الأسئلة!

عندما دخلت صوفيا إلى المطبخ رأت الغداء موضوعا على المائدة وأمها في انتظارها. أقبلت صوفيا تأكل بشهية وراحت تمتدح طهي أمها وتسامرها علها تنسيها أنها لم تتصل بها من بيت نورا. وتجاهلت أمها الموضوع فلم تشر إليه بملاحظة أو تعليق.

بعد أن انتهت صوفيا من تناول الغداء، أخبرت أمها أنها تريد أن تغفو قليلا، متعللة بأنها لم تنم إلاقليلا في بيت نورا، وهو أمر مألوف، على أي حال، عندما ينام الإنسان في بيت صديقه.

قبل أن تمضي صوفيا إلى سريرها وقفت أمام المرآة النحاسية التي علقتها في غرفتها فطالعها وجهها مجهدا شاحبا. ظلت تحدق إلى ملامحها حتى خيل إليها أنها تلمح، خلف وجهها، صورة باهتة لوجه فتاة أخرى. أخذت صوفيا تتنفس تنفسا عميقا محاولة أن تهدئ من روعها، فلا ينبغي أن تتخيل أشياء لا وجود لها.

تطلعت من جديد إلى وجهها المرهق وإلى شعرها الداكن المتهدل، لكن صورة الفتاة الأخرى كانت هناك تتراءى وراء ملامح صوفيا. وفجأة أخذت الفتاة الأخرى تغمز بكلتا عينيها بسرعة شديدة كإنما تريد أن تقول إنها موجودة هناك حقا في الجهة الأخرى. لم يدم هذا كله إلالحظة خاطفة ثم اختفت الصورة فجأة كما ظهرت.

جلست صوفيا على حافة سريرها. لم يخالجها أدنى شك في أن من رأتها في المرآة هي هيلد. فقد لمحت صورتها في بطاقة المدرسة التي وجدتها في شاليه الضابط العجوز. من المؤكد أنها نفس الفتاة التي رأتها في المرآة.

أليس من الغريب ألايحدث لها دائما هذا النوع من التجارب الغامضة العجيبة إلاعندما يكون التعب قد بلغ منها منتهاه فتظل تتساءل بعد ذلك إن كان ما مر بها قد وقع فعلا أم هو محض خيال.

أبدلت صوفيا ثيابها ودخلت سريرها وغفت من فورها فرأت حلما مؤثرا على نحو غريب.

رأت أنها تقف وسط حديقة فسيحة تطل على خليج صغير به حظيرة قوارب حمراء. وعلى المرسى المجاور للحظيرة جلست فتاة شقراء الشعر تتأمل البحر. مضت صوفيا نحوها وجلست إلى جوارها. ولكن بدا كأنما الفتاة لاتشعر بوجود صوفيا. قدمت صوفيا نفسها قائلة «أنا صوفيا». إلاأن الفتاة الأخرى كانت لا تستطيع فيما يبدو أن تراها أو تسمعها. وفجأة ترامى إلى صوفيا صوت ينادي: «هيلدا!». عندئذ هبت الفتاة واقفة وأخذت تجري نحو البيت بأقصى سرعتها. إنها ليست إذن لا صماء ولا عمياء فلماذا لم ترد عليها؟ واندفع خارجا من البيت رجل في منتصف العمر يجري هو الآخر في اتجاه الفتاة المجهولة. كان يرتدي زيا عسكريا وبيريها أزرق. ارتمت الفتاة في أحضانه فرفعها في الهواء ودار بها عدة مرات. ولاحظت صوفيا أن الفتاة قد تركت حيث كانت تجلس على المرسى سلسلة علق بها صليب ذهبي. فأخذت صوفيا السلسلة وضمت عليها قبضتها. وفي هذه اللحظة استيقظت من نومها.

نظرت صوفيا إلى ساعتها لقد نامت نحو ساعتين. اعتدلت وجلست في سريرها تفكر في هذا الحلم الغريب. كانت صورة الحلم واضحة وحقيقية إلى درجة جعلتها تشعر أنها عاشت هذه التجربة فعلا وصدقا. كما كانت واثقة أن البيت والمرسى اللذين رأتهما في الحلم يوجدان بالفعل في مكان ما. أفلا يشبهان في الواقع اللوحة التي وجدتها معلقة في شاليه الضابط العجوز؟ ليس هناك شك على أي حال في أن الفتاة التي رأتها في الحلم هي هيلد مولر كناج وأن الرجل هو أبوها لحظة عودته من لبنان. ولاحظت صوفيا أنه كان في حلمها يشبه ألبرتو كنوكس...

نهضت صوفيا وأقبلت ترتب سريرها. وبينما هي تسوي وسادتها انتفضت فجأة، إذ عثرت يدها بجسم معدني. مدت صوفيا يدها ثانية في حذر فخرجت بسلسلة علق فيها صليب ذهبي! قلبت صوفيا الصليب في يدها

تتفحصه فرأت على ظهره ثلاثة أحرف هي: هـ. م. ك... إنها الأحرف الأولى من اسم هيلد مولر كناج!

لم تكن هذه أول مرة تحلم فيها صوفيا بأنها وجدت شيئاً ثميناً. ولكنها كانت بالتأكيد أول مرة تحضر فيها هذا الشيء الثمين من عالم الحلم إلى عالم اليقظة! استبدت الحيرة بصوفيا ازاء هذه الظواهر الغامضة التي تتوالي عليها، واعتراها احباط شديد لعجزها عن الفهم والتفسير فصاحت:

ـ هذا حقا كثير!

وفتحت صوفيا في سورة غضبها باب خزانتها وألقت بالسلسلة الذهبية في الرف العلوي مع الشال الحريري، والجورب الأبيض، والبطاقات البريدية الآتية من لبنان.

في صباح اليوم التالي، وجدت صوفيا إفطارا شهيا في انتظارها، خبز ساخن، وبيض مقلي وسلطة خضار. فعندما كانت أمها تستيقظ قبلها في صباح الأحد تحرص على أن تعد لها وجبة افطار حقيقية.

بينما هما تأكلان قالت أمها:

ـ هناك كلب غريب في الحديقة. إنه لا يكف عن الدوران حول السياج منذ الصباح. أنا لا أعرف ماذا يفعل هنا؟

وجدت صوفيا نفسها تندفع قائلة:

ـ هل عاد حقا؟

ثم ندمت على اندفاعها هذا.

ـ وهل جاء إلى هنا من قبل؟

كانت صوفيا قد تركت المائدة وذهبت إلى البهو لتطل من النافذة على الحديقة الفسيحة. هو ما تفكر فيه بالضبط! كان هرمس متمددا أمام مدخل كوخها السري.

بم تجيب؟ لم تجد فرصة لتفكر فيما تقول، إذ حضرت أمها ووقفت إلى جانبها. وسألتها:

ـ هل قلت إنه حضر إلى هنا من قبل؟

ـ لا بد أنه أخفى عظمة هنا وجاء الآن ليتفش عنها. إن للكلاب ذاكرة قوية...

ـ ربما يا صوفيا، فأنت من يملك في هذا البيت خبرة بطباع الحيوانات.

أخذت صوفيا تفكر بسرعة ثم قالت:

ـ سأصطحبه إلى بيته.

ـ أتعرفين أين يقيم إذن؟

هزت صوفيا كتفيها وقالت:

ـ لا بد أن عنوانه مكتوب على الطوق.

بعد قليل خرجت صوفيا من باب البيت إلى الحديقة وما كاد هرمس يلمحها حتى أقبل نحوها يتقافز ويهز ذيله في الهواء، فأخذت صوفيا تداعبه وتلاطفه:

ـ هرمس، أيها الكلب الحبيب!

كانت تعرف أن أمها ترقبها من النافذة. ولذلك تمنت إلايدخل هرمس إلى الكوخ المتواري داخل السياج. إلاأن الكلب أخذ لحسن الحظ يجري في الممر المكسو بالحصى وتظاهر بأنه يحاول القفز فوق البوابة كي تفهم صوفيا أنه يريد الخروج من الحديقة.

أغلقت صوفيا بوابة الحديقة خلفهما. وانطلق هرمس يتقدم صوفيا ببضع خطوات. سارا في طرقات فرعية تنتشر على جانبيها فيلات صغيرة، ولم تكن صوفيا وهرمس وحدهما في الطريق. فما أكثر العائلات التي خرجت تتنزه معاً

في صباح الأحد هذا. وأحست صوفيا وهي ترى هـذا المشـهد بمـدى افتقادهـا لتلك الصحبة الأسرية الحميمة التي لا يتاح لها أن تستمتع بها إلاقليلا.

من حين لآخر كان هرمس يتتبع كلبا آخـر أو يتشـمم شيئاً بجـوار سـور إحدى الحدائق، ولكن ما إن كانت صوفيا تنادي عليه حتى يعود عندها فورا.

عبرا منتزها واسعا ثـم ملعبـا رياضيـا فسيحا ثـم أشرفا على حي أكثر ازدحاما. وواصلا طريقهما في اتجاه وسط المدينة بطول شارع فسيح تسير فيـه بعض خطوط الترام. ثم عبر هرمس شارع الكنيسة. لقد وصلا الآن إلى المدينة القديمة التي تنتشر فيها الدور الواسعة الكبيرة التي شيدت في أوائل القرن. إنهما الآن في الجهة الأخرى من المدينـة و لم تكـن صوفيـا قـد جـاءت هنـا إلانـادرا. وتذكرت أنها أتت ذات مرة إلى هذا الحي القديـم وهـي صغـيرة لـتزور قريبـة عجوز تقيم في شارع من هذه الشوارع.

وصلا أخيرا إلى ميدان صغير تحيط به عدة بيوت عتيقة ويدعى الميـدان الجديد برغم ما يبدو عليه من شدة القـدم. بـل ان هـذا القـدم الشـديد يميز في الواقع ذلك الحي كله الذي أنشئت أولى مبانيه في العصور الوسطى.

مضى هرمس نحو البيت رقم ١٤ ووقف ساكنا في انتظار أن تفتح صوفيا الباب. وبدأ قلبها يدق بقوة.

رأت صوفيا في مدخل المبنى عـددا مـن صنـاديق الـبريد الخضـراء ولفتـت نظرها بطاقة بريدية ملصقـة علـى أحـد الصنـاديق. ورأت علـى البطاقـة خاتمـا وضعه ساعي البريد يقول «لم يستدل على المرسل إليه». أما المرسل إليه فكـان هيلد مولر كناج، وأما العنوان فكان ١٤ الميدان الجديـد! وكـان تـاريخ خـاتم البريد هو ١٩٩٠/٦/١٥. ما زال هناك اسبوعان على هذا التاريخ، لكـن مـن الواضح أن الساعي لم ينتبه لهذه المفارقة الغريبة!

أخذت صوفيا البطاقة وقرأتها:

عزيزتي هيلد،

إن صوفيا تصل الآن إلى بيت الفيلسوف. إنها أوشكت أن تتم خمسة عشر عاما، أما أنت فقد أتممت الخمسة عشر ربيعا أمس، أم لعلك ستتمينها اليوم يا هيلد؟ إن كان اليوم هو عيد ميلادك فإن هذه البطاقة تصلك أغلب الظن في وقت متأخر من النهار. إلاأن ساعاتنا لا تشير إلى نفس التوقيت. فإن جيلا يشيخ بينما يولد جيل جديد. وفي هذه الأثناء يتابع التاريخ مسيرته. هل فكرت يوما في أن تاريخ أوروبا يمكن مقارنته بحياة إنسان؟ إن العصر القديم كان بمثابة طفولة أوروبا. ثم جاءت العصور الوسطى فكانت أشبه بسنوات المدرسة. وأخيرا أشرق عصر النهضة. ها قد انتهى اليوم الدراسي الطويل، وانطلقت أوروبا الفتية مفعمة بالحيوية عطشى للحياة واندفعت وقد طال صبرها لتلقي بنفسها في تيار الوجود. نستطيع أن نقول إن عصر النهضة هو عيد ميلاد أوروبا الخامس عشر! إننا في منتصف يونيو (حزيران) يا ابنتي، فما أروع الحياة!

ملحوظة: يؤسفني أن أعرف أنك فقدت صليبك الذهبي. لقد حان الوقت لتتعلمي كيف تصونين حاجياتك.

لك كل الأشواق من بابا الذي أوشك على الوصول.

كان هرمس قد بدأ يصعد السلم. أخذت صوفيا البطاقة البريدية معها وصعدت وراءه، وكان عليها أن ترتقي السلم وثبا لتلحق به وهو يقفز ويهز ذيله مستثارا مرحا. تجاوز الدور الثاني فالثالث ثم الرابع. وعند هذا الحد أخذ السلم يضيق، هل سيصعدان إلى السطح؟ واصل هرمس صعوده ثم وقف أمام باب ضيق وراح يضربه بقدمه ضربات متتابعة.

سمعت صوفيا وقع أقدام يقترب من الداخل. انفتح الباب وظهر ألبرتو كنوكس. كان قد أبدل ثوب الراهب ويرتدي الآن زيا أشبه بالأزياء التنكرية. كان يرتدي جوربا طويلا أبيض وسروالاً أحمر منتفخا يقف عند الركبة، وسترة صفراء ذات أكمام منتفخة وأكتاف مبطنة مرتفعة. لقد ذكر

صوفيا بجوكر ورق الكوتشـينة. إن لم تكن مخطئـة فهـذا هـو الـزي التقليـدي لعصر النهضة. أثار منظره عجب صوفيا فقالت له وهي تدخل الشقة:

ـ ما أشبهك حقا بمهرجي السيرك؟

كان يبدو على صوفيا الاضطراب بسبب البطاقة البريدية التي وجدتهـا في مدخل البيت. ويبدو أن ألبرتو قد لاحظ قلقها فقال لها وهو يغلق الباب:

ـ ماذا حدث يا صوفيا؟ هدئي من روعك يا ابنتي...

أجابته صوفيا وهي تمد يدها إليه بالبطاقـة البريديـة كإنمـا تعتـبره مسـؤولا عنها:

ـ هاك آخر ما وصل من رسائل!

قرأ ألبرتو البطاقة وهز رأسه وقال بحدة:

ـ لقد ازدادت جرأته حقا فلم يعد يتورع عن شيء! كإنمـا يتخذنـا تسـلية تتلهى بها ابنته في عيد ميلادها.

ثم مزق ألبرتو البطاقة إلى قطع صغيرة ورمى بها في سلة المهملات.

وقالت صوفيا:

ـ تذكر البطاقة أن هيلد فقدت صليبها الذهبي.

ـ نعم هذا ما قرأته...

ـ فهل تتخيل أنـي وجـدت هـذا الصليـب في البيـت تحـت وسـادتي! هـل تستطيع أن تفهم كيف وصل إلى هناك؟

تطلع ألبرتو إليها ساهما وأجاب:

ـ قد تبدو هذه الحركة مثيرة بارعة. لكنها ليست في الحقيقة إلاحيلة سهلة لا تكلفـه أي عنـاء علـى الاطـلاق. الأجـدر بنـا أن نركـز الآن علـى الأرنـب الأبيض الكبير الذي خرج من قبعة الكون الطويلة.

انتقلا إلى البهو فكان أغرب بهو تراه صوفيا في حياتها.

كان ألبرتو يسكن شقة فسيحة في الدور الأخير، ولذا كان سقفها مائلا، كما تبنى الأدوار الأخيرة في البلاد المطيرة كي ينزلق عليها المطر. تتوسط السقف نافذة واسعة تملأ الغرفة بضوء السماء المباشر. كما كانت بالغرفة نافذة تطل على المدينة يبصر الرائي منها أسطح بيوت الحي القديم.

إلاأن الذي أدهش صوفيا هو ما تحتويه هذه الغرفة من أثاث ومتاع ينتميان لفترات تاريخية مختلفة. إذ كانت هناك أريكة عريضة من الطراز الذي كان شائعا في الثلاثينات، ومكتب قديم من أوائل القرن، وكرسي يرجع عهده فيما يبدو إلى عدة قرون. إلاأن الأثاث لم يكن هو كل ما يثير العجب في هذه الغرفة: فعلى الرفوف وفي الخزانات تكدست أشياء قديمة تستخدم للزينة أو لأغراض أخرى متنوعة. كانت هناك ساعات حائط قديمة، وآنية زهور، وأوعية، وأنابيب تقطير، وسكاكين، وعرائس، وأقلام من ريش الطيور، ومساند للكتب، وبارومترات، وأدوات هندسية مثل الثمنيات، والسدسيات، والفرجارات. وكان هناك حائط تغطيه الكتب عن آخره، غير أنها ليست من الكتب التي نجدها في المكتبات التجارية. فهذه المجموعة تضم مصنفات أ لفت في قرون مختلفة. وعلى الحوائط الأخرى علقت رسومات ولوحات بعضها حديث ولكن معظمها كان بالغ القدم. وعلقت أيضاً على الجدران خرائط جغرافية قديمة تصور العالم تصويرا بعيدا عن الدقة إلى حد بعيد.

وقفت صوفيا عدة دقائق صامتة تتأمل ما حولها ثم قالت أخيرا:

ـ أرى أنك تهوى جمع الأشياء العتيقة البالية!

ـ لا تستهيني بهذه الأشياء القديمة يا صوفيا. هلا فكرت كم قرن من قرون التاريخ يوجد في هذه الغرفة. أنا لا أ سمي هذه المقتنيات «أشياء بالية».

ـ هل لديك محل للتحف القديمة أو تدير تجارة من هذا النوع؟

بدا التأثر على وجه ألبرتو وقال:

ـ لا نستطيع أن نترك تيار التاريخ يجرفنا جميعا يا صوفيا. بل يجب أن يتوقف بعضنا ليجمعوا ما تبقى على ضفاف النهر...

ـ هذه طريقة غريبة لرؤية الأمور.

ـ ولكنها صحيحة يا ابنتي. فنحن لا نعيش في عصرنا وحده. إننا نحمل تاريخنا معنا. ثم لا تنسي أن كل ما ترينه في هذه الغرفة كان جديدا يبرق في يوم من الأيام. فربما كانت هذه الدمية الخشبية التي تنحدر إلينا من القرن السادس عشر قد صنعت لتهدى إلى فتاة صغيرة في عيد ميلادها الخامس، ربما بطلب من جدها العجوز... ثم أتمت هذه الفتاة عشر سنوات، ثم كبرت وتزوجت وربما أنجبت بدورها طفلة وأعطتها هذه الدمية، ثم تقدم بها العمر وماتت ذات يوم. ربماً تكون عاشت عمرا مديدا إلاأن هذا العمرقد انتهى ذات يوم ولن تعود هي أبداً من جديد. الواقع أنها لم تأت هنا إلافي زيارة قصيرة. أما دميتها، فإنها ما زالت هنا على الرف.

ـ إن كل شيء يصبح محزنا وموحشا عندما تتحدث بهذه الطريقة.

ـ إن الحياة محزنة وموحشة في نفس الوقت. إننا ندعى إلى دخول عالم رائع فنتلاقي ونتعارف، وربما قطعنا شوطا من الطريق معاً لفترة وجيزة. ثم نفترق ونختفي بنفس الطريقة المفاجئة وغير المفهومة التي جئنا بها.

ـ هل لي أن أسألك سؤإلا ربما كان فيه بعض الفضول؟

ـ بالطبع يا صوفيا فنحن لم نعد نلعب لعبة القط والفأر.

ـ لماذا سكنت شاليه الضابط العجوز؟

ـ كنا وقتها لا نتخاطب إلابالرسائل يا صوفيا فكان من الأنسب إلاتفصلنا مسافة طويلة، ثم أني كنت أعرف أن الشاليه القديم مهجور.

ـ وهكذا قررت أن تقيم فيه بكل بساطة؟

ـ نعم هكذا قررت أن أقيم فيه بكل بساطة!

ـ لعلك تستطيع إذن أن تفسر لي كيف عرف والد هيلد أنك تقيم هناك.

ـ إذا كان ما أفكر فيه صحيحا فهو يعرف كل شيء تقريبا.

ـ ولكني ما زلت لا أفهم على الاطلاق كيف يمكن إقناع ساعي البريد بأن يسلم الرسائل لشاليه معزول في وسط الغابة!

ابتسم ألبرتو ابتسامة ماكرة وقال:

ـ إن هذا النوع من الأشياء بجرد حركة تافهة من والد هيلد. حيلة عادية من حيل الحواة، إنها ليست سوى خفة يد. فربما كنا نعيش أنا وأنت يا صوفيا تحت أكثر أشكال الرقابة صرامة في العالم!

شعرت صوفيا بالغضب والسخط وقالت:

ـ لو قابلته يوما سأفقأ عينيه اللتين يرصدنا بهما!

مضى ألبرتو وجلس على الأريكة وسارت صوفيا في أثره وجلست على كرسي مريح. وقال ألبرتو:

ـ إن الفلسفة وحدها هي التي يمكن أن تقربنا من فهم ما يفعله والد هيلد، واليوم سأكلمك عن عصر النهضة.

ـ فلنبدأ إذن...

ـ بعد وفاة القديس توما الأكويني بدأت الوحدة الثقافية المسيحية تتصدع. وأخذت الفلسفة من ناحية والعلم من ناحية أخرى ينفصلان أكثر فأكثر عن لاهوت الكنيسة، وأدى هذا الانفصال بدوره إلى قيام علاقة أكثر تحررا بين الشعور الديني والعقل. وفي اطار هذا التحرر تزايدت أعداد من يؤكدون أننا لا نستطيع أن نصل إلى الله من خلال العقل لأن الله حقيقة لا يمكن إدراكها

عن طريق الذهن. فأهم الأشياء بالنسبة للإنسان ليس أن يفهم السر الإلهي وإنما أن يخضع لإرادة الله.

ـ استمر...

ـ ولما قامت بين الدين والعلم علاقة أكثر تحررا انفتح السبيل أمام ظهور منهج علمي جديد وانبعاث صحوة دينية جديدة، أفضيا إلى الانقلابين الكبيرين اللذين وقعا في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. فالمنهج العلمي الجديد أدى إلى بدء **عصر النهضة**، وأما الصحوة الدينية فأدت إلى نشأة **حركة الاصلاح الديني**.

ـ لنأخذهما واحداً واحداً...

ـ إننا نقصد بعصر النهضة هذا التطور الثقافي الغني الذي بدأ في أواخر القرن الرابع عشر في شمال ايطاليا ثم ما لبث أن انتشر سريعا في معظم أنحاء أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

ـ ألم تقل لي من قبل أن كلمة «النهضة» تعني «القيام من جديد»؟

ـ بالضبط، والذي قام من جديد كان فن وثقافة العصر اليوناني الروماني القديم. ونحن نتكلم أيضاً عن «النزعة الإنسانية لعصر النهضة»، لأن الإنسان أصبح من جديد نقطة الانطلاق ومحور كل شيء بعد أن كان كل جانب من جوانب الحياة يفسر في العصور الوسطى من منظور الحقيقة الإلهية. وكان شعار هذه الفترة هو «عد إلى المنبع». وهو يعني أساسا العودة لافكار النزعة الإنسانية التي ظهرت في العصر القديم. وأصبح التنقيب عن التماثيل والنقوش القديمة أشبه بهواية شعبية. كما أصبح تعلم اللغة اليونانية من إمارات العصر. فضلا عن ذلك كان لدراسة النزعة الإنسانية اليونانية هدف تربوي. ذلك أن الاطلاع على التراث اليوناني يكسب المرء «ثقافة كلاسيكية» ويشجعه على تنمية ما يمكن أن يسمى بالصفات الجديرة حقا بالإنسان. وشاعت على

الالسنة عبارة تقول «إن الحصان يولد حصانا أما الإنسان فلا يصبح إنسانا حقا إلابالتعلم».

ـ هل تعني أننا يجب أن نتعلم كي نصبح كائنات إنسانية حقا؟

ـ نعم تلك كانت الفكرة الجوهرية. ولكن قبل أن نلقي نظرة أقرب على أفكار النزعة الإنسانية لعصر النهضة، يجب أن أعرض لك باختصار الخلفية السياسية والثقافية لعصر النهضة.

نهض ألبرتو من فوق الأريكة وأخذ يتجول في الغرفة. وبعد برهة وقف وأشار إلى آلة قديمة موضوعة على أحد الرفوف. وسأل صوفيا:

ـ ما هذه؟

ـ إنها تشبه بوصلة قديمة.

ـ هذا صحيح.

ثم أشار إلى سلاح ناري قديم معلق على الحائط فوق الأريكة. وسأل صوفيا:

ـ وما هذه؟

ـ بندقية قديمة.

ـ بالضبط.

وسحب ألبرتو كتابا ضخما من المكتبة، وسأل صوفيا:

ـ وهذا؟

ـ إنه كتاب قديم.

ـ إنه ليس بمجرد كتاب قديم يا صوفيا، إنه من الكتب التي يطلق عليها اسم «أسفار المهد».

ـ أسفار المهد؟

- نعم ويقصد بها الكتب التي طبعت في الفترة الأولى لاختراع الطباعة، أي قبل عام ١٥٠٠.

- أهو حقا قديم إلى هذه الدرجة؟

- نعم يا صوفيا. وهذه الاختراعات الثلاثة البوصلة، والسلاح الناري، والمطبعة كانت شروطا أساسية لظهور هذه الحقبة الجديدة التي نسميها عصر النهضة.

- ماذا تعني بذلك يا ألبرتو؟

- لقد أدت البوصلة إلى تسهيل الملاحة. ولذلك فإنها كانت عنصرا أساسيا للرحلات الاستكشافية الكبرى. ويصدق نفس الشيء، بمعنى ما، على السلاح الناري الذي أعطى الأوروبيين تفوقا عسكريا على حضارات الأمريكيتين وآسيا. أما الطباعة فقد أسهمت في نشر الأفكار الجديدة لمفكري عصر النهضة ذوي النزعة الإنسانية. كما كانت الطباعة من العوامل التي أزاحت الكنيسة عن مركزها السابق بوصفها الناشر الوحيد للمعرفة. وسرعان ما أخذت تتوالى الاختراعات والأدوات الجديدة. وكان من هذه الأدوات الهامة مثلا التليسكوب الذي أدى إلى تطور علم الفلك وفق أسس جديدة تماماً.

- وأخيرا جاءت الصواريخ وسفن الفضاء!

- أنت تجرين الآن بسرعة كبيرة. ولكن يمكنك أن تقولي إن عصر النهضة قد استهل العملية التي وصلت بالإنسان في نهاية المطاف إلى القمر، أو وصلت به، من زاوية أخرى، إلى هيروشيما وتشيرنوبيل. لقد بدأ كل شيء بتغيرات حدثت على المستوى الثقافي والاقتصادي. إذ كان من التحولات الهامة التي حدثت في تلك الفترة الانتقال من اقتصاد الكفاف إلى الاقتصاد النقدي. فقرب نهاية العصور الوسطى أخذت تنمو المدن، ويتزايد الحرفيون الماهرون وتنتعش التجارة في سلع جديدة مما أدى إلى تداول النقود على نطاق واسع

وظهور النظام المصرفي. وبذلك نشأت طبقة وسطى تجمعت في أيديها ثروات متزايدة فتحررت بقدر ما من ضرورة الكدح لتوفير مطالب الحياة الأساسية. إذ أصبحت تلك المطالب الضرورية شيئاً يمكن أن تشتريه النقود. وشجعت هذه التطورات الناس على اتقان العمل والإبداع والابتكار، وواجهت الفرد بتحديات ومطالب جديدة.

ـ إن هذا يذكر بالطريقة التي نشأت بها المدن اليونانية قبل ذلك بألفي سنة.

ـ نعم هذا صحيح بوجه عام. لقد أخبرتك كيف انفصلت الفلسفة اليونانية عن التصور الاسطوري للعالم الذي كان مرتبطا بالثقافة الريفية البدائية. وبنفس الطريقة، شرعت الطبقة الوسطى التي نشأت في عصر النهضة تستقل عن ملاك الأرض الإقطاعيين وعن سلطة الكنيسة. وفي الوقت ذاته، بدأ بعث الثقافة اليونانية بفضل توثق الصلات مع العرب في اسبانيا ومع الثقافة البيزنطية في الشرق.

ـ ها هي الفروع الثلاثة للعصر القديم تلتقي مرة أخرى لتشكل النهر الكبير من جديد.

ـ أنت تلميذة يقظة يا صوفيا! أعتقد أن لديك الآن فكرة عن السياق الثقافي الذي نشأ في إطاره عصر النهضة. وسأكلمك الآن عن الأفكار الجديدة التي ظهرت في تلك الفترة.

ـ عظيم، ولكن لا تنس أني مضطرة للعودة إلى البيت قبل موعد العشاء.

جلس ألبرتو من جديد على الأريكة ونظر إلى صوفيا وقال:

ـ أسفر عصر النهضة، في المقام الأول، عن **رؤية جديدة للإنسان**. فمفكرو عصر النهضة ذوو النزعة الإنسانية آمنوا بالإنسان وقيمته، في تناقض صارخ مع نظرة العصور الوسطى المتجنية التي لم تبصر في الإنسان سوى أنه أساسا كائن آثم مذنب خطاء. أما الآن فقد أصبح ينظر إلى الإنسان على أنه كائن

عظيم له قدره وقيمته. وقد عبر **مارسيليو فيتشينو** وهو من الشخصيات البارزة في عصر النهضة تعبيرا بليغا عن تلك النظرة الجديدة فقال مخاطبا الإنسان: «اعرف نفسك، أيا سليل الأرباب المتواري في حلة فانية!» كما كتب **بيكو ديللا ميراندولا**، وهو شخصية بارزة أخرى من شخصيات عصر النهضة كتابا عنوانه، **مقال في كرامة الإنسان**، ونزعة تمجيد الإنسان هذه كان من المستحيل تخيلها في العصور الوسطى. فعلى امتداد تلك العصور كانت نقطة الانطلاق في النظر إلى كل شيء هي الله. أما المفكرون المؤمنون بالنزعة الإنسانية في عصر النهضة فقد اتخذوا نقطة انطلاقهم الإنسان ذاته.

ـ ألم يكن هذا ما فعله الفلاسفة اليونانيون.

ـ ولهذا بالتحديد نتكلم عن «نهضة» النزعة الإنسانية للعصر اليوناني القديم. إلاأن المذهب الإنساني لعصر النهضة اتسم **بنزعة فردية** أكثر عمقا ووضوحا. فنحن لسنا مجرد كائنات إنسانية، بل نحن **أيضاً** كائنات متفردة. وأفضت هذه الفكرة إلى ما يشبه تقديس النبوغ وتمجيد العبقرية. فأصبح المثل الأعلى الجديد للإنسان هو ما نسميه «**رجل عصر النهضة**»، وهو رجل فذ نابغ يهتم بجميع جوانب الحياة والفن والعلم. كما تجلت النظرة الجديدة للإنسان في الاهتمام بعلم التشريح وعاد العلماء يعكفون، كما كانوا يفعلون في العصور القديمة، على تشريح الجثث لاكتشاف كيف ينبني جسم الإنسان. وكانت تلك خطوة هامة لكل من الطب والفن. وبدأ الفن يصور من جديد جسم الإنسان بعد ألف عام من الاستحياء. لقد امتلك الإنسان جرأة كافية ليعبر مرة أخرى عن نفسه كما هو، فلم يعد لديه الآن ما يدعوه للخجل من تصوير حقيقته.

استندت صوفيا بذراعيها على مائدة صغيرة موضوعة بينها وبين أستاذ الفلسفة وقالت:

ـ يبدو أنها كانت فترة مفعمة بنشوة ارتياد آفاق جديدة.

- بلا جدال. فالنظرة الجديدة للإنسان أدت إلى إدراك الحياة كلها بطريقة جديدة تماماً. فلم يعد الإنسان موجودا لمجرد عبادة الله بل أصبح يحق للإنسان أن يستمتع أيضاً بحياته هنا على الأرض. فأضحى بوسع الإنسان أن يزدهر ويطور كل ملكاته بحرية كاملة وبذلك انفتحت أمامه امكانيات لا حدود لها. وبات الهدف هو تخطي كل الحدود. وتعد تلك أيضاً فكرة جديدة بالقياس إلى النزعة الإنسانية للعصر القديم التي كانت، على العكس، تؤكد على أهمية الصفاء، والاعتدال، وضبط النفس.

- هل تقصد أن المفكرين المؤمنين بالنزعة الإنسانية في عصر النهضة قد فقدوا قدرتهم على ضبط النفس؟

- إنهم لم يكونوا على الأقل من أنصار الاعتدال. لقد بدا لهم أن العالم بأسره يستيقظ أخيرا من نوم طويل. ودفعهم وعيهم المرهف بروح عصرهم إلى ابتكار مصطلح «العصور الوسطى» ليصفوا به كل القرون الممتدة من نهاية العصر القديم حتى عهدهم الجديد هذا. وحدث ازدهار منقطع النظير في جميع نواحي الحياة، من الفن إلى المعمار، ومن الأدب إلى الموسيقى، ومن الفلسفة إلى العلم. وسأضرب لك مثلا ملموسا. لقد تحدثنا عن روما التي كانت عاصمة لإمبراطورية كبرى. ان تلك المدينة التي عرفت في العصر القديم باسم «أم المدائن» و «قلب العالم» تدهورت تدهورا شديدا خلال العصور الوسطى، وبعد أن كان عدد سكانها يناهز مليون نسمة لم تعد تضم بحلول عام ١٤١٧ سوى ١٧٠٠٠ نسمة.

- أي ما يقرب من عدد سكان ليلسناد، حيث تعيش هيلد.

- وأخذ المؤمنون بالنزعة الإنسانية في عصر النهضة على عاتقهم مهمة ثقافية ضخمة هي إحياء مجد روما. فكان أول وأهم ما شرعوا فيه هو بناء كنيسة القديس بطرس الكبرى فوق قبر بطرس الرسول. وكنيسة القديس بطرس لا تستطيع أن تتباهى لا بالاعتدال ولا بضبط النفس. وقد دعي كثير من كبار فناني عصر النهضة للاشتراك في تشييد هذا المبنى الذي كان يعد

وقتها أكبر مشروع معماري في العالم. لقد بدأت أعمال البناء في عام ١٥٠٦ واستمرت لمدة ١٢٠ سنة، ثم استمر العمل لمدة ٥٠ سنة أخرى في إنجاز ساحة القديس بطرس الفسيحة التي تطل عليها الكنيسة.

ـ لا بد أنها كنيسة عملاقة إذن!

ـ إن طولها يزيد على ٢٠٠ متر وارتفاعها يزيد على ١٣٠ مترا، وهي تغطي مساحة تزيد على ١٦٠٠٠ متر مربع. وفي هذا خير تعبير عن جرأة رجال عصر النهضة. وظهرت أيضاً في هذه الفترة رؤية جديدة للطبيعة. فاحساس الإنسان بأن من حقه أن يستمتع بوجوده وإلايعتبر حياته فوق الأرض مجرد استعداد لحياته في السماء أدى إلى نشأة رؤية جديدة تماماً للعالم المادي. فأصبح ينظر إلى الطبيعة الآن بوصفها شيئاً ايجابيا. وأخذ كثير من المفكرين يؤكدون أن الله موجود في مخلوقاته. فلما كان الله غير محدود فلا بد أنه يوجد في كل شيء. وتسمى هذه الفكرة **مذهب وحدة الوجود**. لقد كان فلاسفة العصور الوسطى يؤكدون أن هناك حاجزا يستحيل عبوره بين الله ومخلوقاته. أما الآن فقد أصبح من الممكن أن يقال إن الطبيعة حقيقة إلهية، بل وإنها مظهر من مظاهر «تجليات الله». ولم تكن الكنيسة تنظر دوما نظرة تسامح إلى هذا النوع من الأفكار. **ومصير جوردانو برونو** يوضح ذلك بطريقة درامية. فإن هذا المفكر لم يزعم أن الله موجود في الطبيعة فحسب، بل آمن أيضاً بأن الكون لانهائي. وقد عوقب عقابا قاسيا على هذه الأفكار التي لم تكن الكنيسة تقرها.

ـ كيف؟

ـ لقد حرق في سوق الزهور بروما في عام ١٦٠٠.

ـ هذا شيء فظيع... وأحمق! هل هذا ما تسميه النزعة الإنسانية؟

ـ كلا بالتأكيد، لست أقصد هذا النوع من الأعمال. إن برونو هو الذي كان المفكر ذا النزعة الإنسانية لا جلاده. لكن عصر النهضة شهد أيضاً تفاقم

ما يمكن أن نسميه النزعة المعادية للإنسانية. وأقصد بها السلطة الاستبدادية للدولة والكنسية. من ذلك مثلا أن عصر النهضة شهد تعسفا مفرطا في محاكمة من اتهموا بممارسة السحر، وفي حرق من أدينوا بتهمة الهرطقة. كما انتشرت في تلك الفترة الخرافات واندلعت حروب دينية دموية، دون أن ننسى الاستيلاء الوحشي على أمريكا. لقد ظهرت النزعة الإنسانية في ظل خلفية بالغة القتامة. والواقع أنه لا يوجد عصر كله خير أو كله شر. إن تاريخ البشرية أشبه بخيطين متداخلين، أحدهما يمثل الخير والثاني يمثل الشر. ويصدق هذا أيضاً على النتائج التي ترتبت على انجاز رئيسي آخر ابتكره عصر النهضة وهو **المنهج العلمي الجديد**.

ـ هل تقصد أن تلك هي الفترة التي ظهرت فيها المصانع الأولى؟

ـ لا ليس بعد. غير أن كل التطور التكنولوجي الذي حدث بعد عصر النهضة قد ارتكز على ذلك الشرط الجوهري الذي نسميه المنهج العلمي الجديد. وأنا أقصد به الموقف الجديد تماماً من العلم. أما الثمار التكنولوجية لهذا المنهج فلن تظهر إلافيما بعد.

ـ وفيم كان يتمثل إذن هذا المنهج الجديد؟

ـ كان يقوم أساسا على دراسة الطبيعة باستخدام الحواس. فاعتبارا من القرن الرابع عشر أخذ عدد متزايد من المفكرين يحذرون من الإيمان الأعمى بالتصورات الراسخة القديمة سواء أكانت هي عقيدة الكنيسة أم فلسفة الطبيعة لأرسطو. كما أخذوا يحذرون من الاعتقاد بأن حل المشكلات يمكن أن يتحقق بواسطة التفكير المجرد. فطوال العصور الوسطى ساد اعتقاد مبالغ فيه بأهمية العقل. أما الآن فأصبح يقال إن أية دراسة للظواهر الطبيعية يجب أن تستند إلى الملاحظة، والتجربة، والاختبار. وهذا ما نسميه **المنهج التجريبي**.

ـ وهو ما يعني...

- إنه يعني ببساطة أننا يجب أن نبني معرفتنا بالأشياء استنادا إلى تجربتنا الخاصة، لا إلى مخطوطات عتيقة أو إلى أوهام وخرافات. لقد كان العلم التجريبي معروفا في العصر القديم، فقد جمع أرسطو مثلا ملاحظات هامة عن الطبيعة، لكن اجراء **التجارب المنهجية** كان أمرا جديدا تماماً.

- ولكنهم لم يكونوا يملكون الآلات التي نعرفها اليوم.

- إنهم لم يكونوا يملكون بطبيعة الحال لا حاسبات آلية ولا أجهزة قياس الكترونية، ولكنهم كانوا يعرفون الرياضيات ويملكون الموازين. وأصبح من المهم الآن التعبير عن جميع الملاحظات العلمية في صيغ رياضية دقيقة. لقد قال **جاليليو**، وهو واحد من أكبر علماء القرن السابع عشر، «قس ما يمكن قياسه، أما ما لا يمكن قياسه فحوله إلى شيء يمكن قياسه». وقال أيضاً إن كتاب الطبيعة مكتوب بلغة رياضية.

- وكل هذه التجارب والقياسات سمحت بإنجاز اكتشافات جديدة، أليس كذلك؟

- كانت المرحلة الأولى هي وضع المنهج العلمي الجديد. وقد جعل هذا المنهج الثورة التكنولوجية نفسها ممكنة، وفتحت هذه الثورة بدورها الطريق أمام كل اكتشاف علمي جاء بعد ذلك. يمكنك أن تقولي إن الإنسان قد بدأ يتحرر من القيود التي تفرضها عليه الطبيعة، ولم يعد يقنع باعتبارنفسه بمجرد جزء من الطبيعية، بل أصبحت الطبيعة شيئاً يستفيد منه ويستثمره. وقد قال الفيلسوف الانجليزي **فرنسيس بيكون** «إن المعرفة قوة»، مؤكدا بذلك على الجدوى العملية للمعرفة، وكان هذا حقا شيئاً جديداً. فمنذ تلك اللحظة بدأ الإنسان يتدخل في الطبيعة ويشرع في تسخيرها والسيطرة عليها.

- ولكن تدخله لم يكن ايجابيا على الدوام، أليس كذلك؟

- كلا، وهذا ما أشرت إليه من قبل عندما حدثتك عن خيط الخير وخيط الشر اللذين يتداخلان في أعمال الإنسان كلها. فإن الثورة التكنولوجية التي

بدأت في عصـر النهضـة أدت إلى اختراع آلات الغزل لكنهـا أدت أيضـاً إلى انتشـار البطالـة، وقـادت إلى استنباط الأدويـة لكنهـا قـادت أيضـاً إلى ظهـور أمراض جديـدة، وأفضـت إلى زيـادة كفـاءة الزراعـة لكنهـا أفضـت أيضـاً إلى استنزاف الموارد الطبيعية، وأسفرت عن ابتكار أجهـزة عمليـة مثـل الغسـالات والثلاجات لكنها أسفرت أيضاً عن تزايد التلوث وتراكم النفايـات الصناعيـة. والتهديد الخطير المحدق بالبيئة الذي نواجهه اليوم جعل كثيراً من الناس ينظرون إلى الثورة التكنولوجية ذاتهـا بوصفهـا تجاوزا خطـيرا لمقتضيـات التكيـف مـع الظروف الطبيعية. وأبدى البعض خشيتهم من أن يكـون الإنسـان قـد استهل عملية لم يعد بوسعه أن يتحكم في مسارها. أما الأكـثر تفـاؤلا فيعتقـدون أننـا مازلنا نعيش في المراحل الأولى للتطور التكنولوجي وأن الإنسان سـوف يتعلـم شيئاً فشيئاً كيف يتحكم في الطبيعة دون أن يلحق بها الضرر.

ـ وما رأيك أنت؟.

ـ ربما كان هناك قدر من الحقيقة في كلا الرأيين. ففي بعض المجالات يجب علينا أن نكف عن التدخل في الطبيعـة ولكـن ثمـة مجـالات أخـرى نستطيع أن نواصل فيها الاستفادة من الطبيعة دون أن نخشى الإضرار بها. الأمر المؤكد هو أننا لن نعـود أبـداً إلى العصـور الوسـطى. فاعتبـارا مـن عصـر النهضـة لم يعـد الإنسان مجرد جـزء مـن الطبيعـة. إذ بـدأ الإنسـان يتدخـل في الطبيعـة ليحولهـا ويشكلها بحيث تفي باحتياجاته. وهو مـا يبـين أن الإنسـان في الحقيقـة كـائن عجيب.

ـ لقد صعدنا بالفعل إلى القمر. هل كان بوسع إنسـان يعيـش في العصـور الوسطى أن يتخيل أن ذلك أمر ممكن؟

ـ لا بالتأكيد. وهذا مـا ينقلنـا إلى **التصـور الجديـد للعالم**. فطـوال العصـور الوسطى كان الناس يرفعون أبصارهم إلى السماء يتطلعون إلى الشمس والقمـر والنجـوم والكواكـب، ولم يكـن بينهـم مـن يشـك في أن الأرض هـي مركـز الكـون. فلـم يحـدث أن سـجلت أي ملاحظـة تثـير الشـك في ثبـات الأرض

ودوران «الأجرام السماوية» حولها. ونحن نسمي هذه الرؤية **تصور الأرض مركز العالم، أو** اعتبار الأرض مركز كل شيء. كما أن الاعتقاد المسيحي الذي صور الله مستويا على عرشه فوق كل الأجرام السماوية قد أسهم في الحفاظ على هذا التصور للعالم.

ـ ليت الأمور بهذه البساطة!

ـ ولكن في عام ١٥٣٤ نشر كتيب عنوانه في **حركة الأجرام السماوية** كتبه عالم فلك بولندي اسمه **نيقولا كوبرنيك**، وشاء القدر أن يموت كوبرنيك في نفس يوم صدور الكتاب. وزعم كوبرنيك أن الشمس ليست هي التي تدور حول الأرض بل العكس أن الأرض هي التي تدور حول الشمس. وتصور أن هذا أمر ممكن تماماً استناداً إلى ملاحظة حركة الأجرام السماوية، وقال إن الناس تصوروا دوما إن الشمس هي التي تدور حول الأرض: أفلا يبصرون الشمس تطلع من الشرق وتختفي في الغرب والارض ثابتة في موقعها؟ لكن الذي أوحى إلى الناس بهذا التصور الواهم هو أن الأرض تدور حول محورها الخاص فيواجه جزء منها الشمس فيسوده النهار ويتوارى الجزء الآخر عن الشمس فيسوده الليل. وأوضح كوبرنيك أن جميع الملاحظات المتعلقة بحركة الأجرام السماوية يصبح فهمها أيسر كثيراً إذا افترضنا أن كلا من الأرض والكواكب الأخرى هي التي تدور حول الشمس. ونحن نسمي هذه الرؤية **تصور الشمس مركز** العالم، ويقصد بذلك أن كل شيء يدور حول الشمس.

ـ وهل كان هذا التصور هو التصور الصحيح للعالم؟

ـ لم يكن كله صحيحا. إن النقطة الرئيسية فيه وهي أن الأرض تدور حول الشمس صحيحة بطبيعة الحال. ولكن كوبرنيك زعم أن الشمس هي مركز الكون. ونحن نعرف اليوم أن الشمس ليست سوى نجم من نجوم لا حصر لها، وأن كل النجوم المحيطة بنا لا تشكل إلا مجرة واحدة من مليارات المجرات. كما كان كوبرنيك يعتقد أن الأرض والكواكب الأخرى تتحرك في مدارات دائرية حول الشمس.

ـ أليس هذا صحيحا؟

ـ لا. فكوبرنيك لم يكن لديه ما يستند إليه في تصوره عن المدارات الدائرية إلاتلك الفكرة القديمة التي تقول إن الأجرام السماوية أجرام مستديرة وإنها تتحرك في دوائر لأنها ببساطة «سماوية»، وكل ما ينتمي «للسماء» لابد أن يكون كاملا. فمنذ أيام أفلاطون كانت الكرة والدائرة تعتبران أكمل شكلين هندسيين. ولكن في أوائل القرن السابع عشر، عرض عالم الفلك الألماني **يوهانس كبلر** نتائج توصل إليها من ملاحظات واسعة فبين أن الكواكب تتحرك في مدارات بيضاوية ذات بؤرتين وأن الشمس توجد في إحدى بؤرتيها، كما أوضح أن سرعة الكوكب تزيد كلما اقترب من الشمس وتقل كلما ابتعد عنها. وكان كبلر هو أول من قال إن الأرض مجرد كوكب كبقية الكواكب. وأكد كبلر أيضاً أن نفس القوانين الفيزيائية تسري في كل أرجاء الكون.

ـ وكيف كان بوسعه أن يؤكد ذلك؟

ـ لأنه درس حركة الكواكب بحواسه هو بدلا من أن يثق ثقة عمياء بالتصورات القديمة. كما قام جاليليو، الذي عاصر كبلر، باستخدام التليسكوب في مراقبة الأجرام السماوية. ودرس فوهات القمر وقال إن بالقمر جبإلاووديانا تشبه جبال ووديان الأرض. كما اكتشف أن لكوكب المشتري أربعة أقمار. ليست الأرض إذن هي الكوكب الوحيد الذي له قمر. لكن أهمية جاليليو الكبرى ترجع إلى أنه أول من صاغ ما يسمى **قانون القصور الذاتي**.

ـ وماذا يقول هذا القانون؟

ـ لقد صاغه جاليليو على النحو التالي: يظل الجسم على حالته، من سكون أو حركة، ما لم تضطره قوة خارجية إلى تغيير حالته هذه.

ـ يبدو هذا القانون ملاحظة بديهية لست أرى ما وجه أهميتها.

ـ ملاحظة بديهية ربما، ولكنها كانت بالغة الأهمية يا صوفيا. فمنذ العصر القديم كانت إحدى الحجج الرئيسية المعارضة لدوران الأرض حول محورها تقول لو كانت نظرية دوران الأرض صحيحة لوقع الحجر الذي نقذفه لأعلى في خط عمودي على مسافة عدة أمتار إلى الوراء من موضع القائه.

ـ ولماذا لا يحدث ذلك؟

ـ إذا كنت جالسة في قطار وتركت تفاحة تسقط من يدك فإن التفاحة لن تسقط، برغم تحرك القطار، إلى الخلف بل ستسقط في خط عمودي. وذلك بسبب قانون القصور الذاتي فالتفاحة تحتفظ بنفس سرعتها قبل أن تسقط من يدك.

ـ لقد بدأت أفهم الآن.

ـ إن القطارات لم تكن موجودة بالطبع في زمن جاليليو لكن إذا دحرجت كرة على الأرض لمسافة معينة ثم تركتها فجأة...

ـ... ستستمر في التدحرج...

ـ... لأنها ستظل محتفظة بسرعتها حتى بعد تركها.

ـ ولكنها ستقف من تلقاء ذاتها في نهاية المطاف.

ـ نعم، لأن هناك قوى أخرى ستبطيء من سرعتها. فهناك أولا أرضية الغرفة، وخاصة إذا كانت من خشب غير مصقول. ثم هناك قوة الجاذبية التي ستقوم عاجلاً أو آجلاً بايقاف الكرة. ولكن مهلا... دعيني أريك شيئاً.

نهض ألبرتو واتجه إلى المكتب القديم. وأخرج لوحة من أحد الأدراج ثم وضعها على منضدة البهو الصغيرة. كانت مجرد لوحة خشبية سميكة من

جانب ورقيقة من الجانب الآخر. وبجوار هذه اللوحة التي كادت تغطي المنضدة كلها، و ضع بلية خضراء. وقال:

ـ إن هذه اللوحة الخشبية تسمى «المستوى المائل». ماذا سيحدث في رأيك إذا و ضعت البلية الخضراء هنا في الموضع الأشد سمكا من المستوى المائل ثم تركتها؟

تنهدت صوفيا بشيء من نفاد الصبر وقالت:

ـ سوف تتدحرج بالتأكيد على هذا المستوى، ثم تقع على المنضدة، وبعد ذلك تسقط على الأرض.

ـ سوف نرى!

ترك ألبرتو البلية فحدث لها بالضبط ما قالته صوفيا. تدحرجت على المستوى المائل ثم وقعت على المنضدة ثم سقطت على الأرض حتى ارتطمت بالحائط.

وقالت صوفيا:

ـ ليس في هذا حقا ما يثير الدهشة!

ـ هذا هو نوع التجارب الذي أجراه جاليليو...

فقاطعته صوفيا متسائلة:

ـ وهل كان غبيا إلى هذا الحد؟

ـ صبرا، صبرا يا صوفيا لقد أراد أن يدرس كل شيء بحواسه. إن ما رأيناه ليس سوى البداية. قولي لي أولا لماذا تدحرجت البلية على المستوى المائل.

ـ لقد بدأت تتدحرج لأنها كانت ثقيلة.

ـ عظيم. ولكن ما هو الثقل يا ابنتي؟

ـ هذا سؤال سخيف.

- إنه ليس سؤإلاسخيفا إن كنت لن تستطيعي الاجابة عليه. لماذا تدحرجت البلية على الأرض؟

- بسبب الجاذبية.

- بالضبط بسبب **الجاذبية**. إن الوزن أو الثقل يرتبط إذن بالجاذبية. وقوة الجاذبية هذه هي بالتحديد ما حرك البلية.

كان ألبرتو قد التقط بالفعل البلية من الأرض وانحنى على المستوى المائل والبلية في يده وقال:

- والآن سأحاول أن أدحرج البلية علي المستوى المائل، لا بالطول مثل المرة السابقة ولكن بالعرض. راقبي بعناية حركة البلية.

انحنى ألبرتو ووضع البلية في أعلى المستوى المائل ثم دفعها دفعة رقيقة. رأت صوفيا أن البلية تنحرف تدريجيا عن مسارها حتى وصلت إلى نهاية المستوى المائل. وسألها ألبرتو:

- ماذا حدث؟

- لقد تدحرجت وهي تنحرف وتميل لأن اللوحة مائلة.

- الآن سألو ن البلية بالحبر... فبهذه الوسيلة سنستطيع أن نرى ماذا تقصدين بالضبط من أنها تدحرجرت وهي تنحرف وتميل.

أخذ ألبرتو ريشة ولون البلية كلها بحبر أسود ثم دحرجها مرة أخرى. واستطاعت صوفيا الآن أن ترى بالضبط الخط الذي تدحرجت فيه البلية على المستوى المائل لأن البلية قد رسمت خطا أسود.

- كيف تصفين يا صوفيا هذا المسار الذي سارت فيه البلية؟

- إنه مسار منحنٍ... إنه يشبه جزءاً من دائرة.

- بالضبط.

نظر ألبرتو إليها ورفع حاجبيه وقال:

ـ ولكنه ليس دائريا تماماً. إنه منحنى ذو شكل خاص يدعى بلغة الهندسة «قطع مكافيء».

ـ اتفقنا.

ـ ولكن لماذا تحركت البلية بهذا الشكل على وجه التحديد؟

أخذت صوفيا تفكر بعمق ثم قالت:

ـ المفروض أن تسير البلية في خط مستقيم ولكن لما كانت اللوحة مائلة فقد جذبت البلية لأسفل بقوة الجاذبية.

ـ صح، صح، صح،! أليس هذا شيئاً رائعا! أ حضر إلى هنا فتاة لم تتم بعد خمسة عشر عاما، فتنجح، بعد تجربة واحدة، في الوصول إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها جاليليو!

وأخذ ألبرتو يصفق لها حتى تصورت صوفيا للحظة أنه جن من فرط الحماس. ومضى يقول:

ـ هل رأيت ماذا حدث عندما أثرت قوتان في آن واحد على نفس الشيء! لقد اكتشف جاليليو أن نفس الشيء ينطبق مثلا على قذيفة المدفع. إنها تقذف في الهواء وتظل تتابع مسارها ولكنها ستسقط عاجلاً أو آجلاً على الأرض وسيشبه مسارها المنحنى الذي رسمته البلية على المستوى المائل. وكان هذا اكتشافا حقيقيا في زمن جاليليو. فقد كان أرسطو يعتقد أن المقذوف الذي يطلق في الهواء يسير أولا في منحنى صغير ثم يسقط عموديا على الأرض. لم يكن هذا صحيحا، ولكن ما كان بوسع أحد أن يعرف أن أرسطو مخطيء قبل أن تتم البرهنة على ذلك.

ـ اتفقنا، ولكن هل هذا الاكتشاف مهم بهذه الدرجة؟

ـ مهم بهذه الدرجة؟ إن له أهمية كونية يا ابنتي! إنه من أهم الاكتشافات العلمية في تاريخ البشرية!

ـ عليك أن تخبرني لماذا.

ـ جاء الدور بعد ذلك على عالم الفيزياء الانجليزي **إسحاق نيوتن** الذي عاش بين عام ١٦٢٤ وعام ١٧٧٢. فقد كان هو الذي قدم لنا الوصف النهائي للنظام الشمسي ولحركة الكواكب. فهو لم يشرح فقط كيف تتحرك الكواكب حول الشمس، بل لقد فسر أيضاً لماذا تفعل ذلك. وقد استطاع أن يقدم هذا التفسير مستعينا بقوانين الحركة التي اكتشفها جاليليو.

ـ هل الكواكب إذن مجرد بلي يتحرك على مستوى مائل؟

ـ نعم، شيء من هذا القبيل. ولكن انتظري قليلا يا صوفيا.

ـ ليس أمامي خيار آخر!

ـ كان كبلر قد أوضح أنه لا بد من وجود قوة تجعل الأجرام السماوية تتجاذب فيما بينها. فلا بد مثلا أن الشمس تمارس قوة تبقي الكواكب تدور في مداراتها. وهذه القوة تفسر كذلك لماذا تقل سرعة الكواكب في مداراتها كلما ابتعدت عن الشمس. وكان كبلر يعتقد أيضاً أن حركة المد والجزر، أي ارتفاع وانخفاض مستوى سطح البحر، تنشأ عن تأثير قوة يمارسها القمر.

ـ وهذا صحيح.

ـ نعم هذا صحيح. ولكنها نظرية رفضها جاليليو وأخذ يسخر من كبلر ويقول إن كبلر يتصور أن «القمر يتحكم في الماء». وذلك لأن جاليليو لم يقتنع بأن قوة الجاذبية يمكن أن تكون مؤثرة على مسافات شاسعة، ناهيك عن تأثيرها فيما بين الأجرام السماوية.

ـ لقد كان مخطئا في هذا.

ـ نعم لقد كان مخطئا في هذه النقطة المحددة. وهو أمر لا يخلو في الحقيقة من طرافة لأنه كان شديد الاهتمام بجاذبية الأرض وبسقوط الأجسام فوقها. بل لقد أوضح كيف تتحكم القوى المختلفة في حركة جسم من الأجسام.

ـ ولكنك كنت تتحدث عن نيوتن.

ـ نعم لقد جاء نيوتن وصاغ ما نسميه **قانون الجاذبية العامة** الذي يقول إن أي جسمين يجذب كل منهما الآخر بقوة تتزايد كلما زادت كتلة الجسمين وتقل كلما بعدت المسافة بينهما.

ـ أعتقد أني أفهم هذا. فمثلا، إن قوة الجاذبية بين فيلين أكبر من قوة الجاذبية بين فأرين. وقوة الجاذبية بين فيلين في حديقة حيوان واحدة أكبر من قوة الجاذبية بين فيل هندي في الهند وفيل افريقي في أفريقيا.

ـ أرى أنك فهمت هذا القانون جيدا! نصل الآن إلى النقطة الرئيسية. لقد أثبت نيوتن أن هذا التجاذب أو الجاذبية قوة كلية عامة، أي أنها تؤثر في كل مكان، حتى في الفضاء بين الأجرام السماوية. ويحكى أن هذه الفكرة قد خطرت في ذهنه بينما هو جالس تحت شجرة تفاح. فعندما رأى تفاحة تسقط على الأرض تساءل عما إذا كان القمر ينجذب إلى الأرض بنفس القوة، وهل هذا هو السبب الذي يجعل القمر يدور بلا انقطاع حول الأرض إلى الأبد.

ـ ليس في هذه الفكرة أية براعة كما تصور.

ـ ولم يا صوفيا؟

ـ لو كان القمر ينجذب إلى الأرض بنفس القوة التي سببت سقوط التفاحة فإن القمر سيسقط مثل التفاحة ذات يوم على الأرض بدلا من أن يظل يدور حولها إلى الأبد.

ـ وهذا ما يقودنا إلى قانون نيوتن عن حركة الكواكب. فيما يتعلق بتأثير الجاذبية الأرضية للقمر معك حق بنسبة ٥٠ في المائة، وهذا معناه أنك أيضاً مخطئة بنسبة ٥٠ في المائة. لماذا لا يسقط القمر على الأرض؟ صحيح أن قوة

الجاذبية الأرضية التي تجذب القمر هائلة. ولكن هل تتذكرين مستوى جاليليو المائل. ماذا حدث عندما تدحرجت البلية عليه؟

ـ هل تقصد أن هناك قوتين تؤثران على القمر؟

ـ بالضبط. فذات يوم في بداية تكون النظام الشمسي، انفصل القمر عن الأرض مقذوفا بقوة هائلة في الفضاء. وسوف يظل القمر محتفظا بهذه القوة للأبد لأنه يتحرك في فراغ لا يواجه فيه أي مقاومة...

ـ ولكنه منجذب أيضاً إلى الأرض بقوة الجاذبية؟

ـ بالضبط. وهاتان القوتان ثابتتان وتؤثران على القمر في وقت واحد. ولذا سيظل القمر يدور حول الأرض إلى الأبد.

ـ وهل الأمر حقا بهذه البساطة؟

ـ نعم وهذه البساطة هي ما كان يريد نيوتن إثباتها. فقد برهن على أن هناك عددا قليلا من القوانين الطبيعية تسري على الكون بأسره. فعند حساب حركة الكواكب اكتفى بتطبيق قانونين طبيعيين كان جاليليو قد اكتشفهما بالفعل. أحدهما هو **قانون القصور الذاتي** الذي صاغه نيوتن بهذا الشكل: «أي جسم يظل على حالته من سكون أو من حركة في خط مستقيم إلى أن تمارس عليه قوة تجبره على تغيير تلك الحالة». أما القانون الآخر فقد برهن عليه جاليليو باستخدام المستوى المائل وهو: «عندما تؤثر قوتان في نفس الوقت على جسم واحد فان هذا الجسم يتحرك في خط بيضاوي».

ـ وبذلك استطاع نيوتن أن يفسر لماذا تدور كل الكواكب حول الشمس.

ـ نعم. إن كل الكواكب تتحرك في مدارات بيضاوية حول الشمس نتيجة قوتين غير متكافئتين: الأولى هي الحركة في خط مستقيم التي اكتسبتها عند نشوء النظام الشمسي، والثانية هي الحركة في اتجاه الشمس بسبب قوة الجاذبية العامة.

ـ إنه تفسير بارع حقا.

ـ معك حق في هذا. لقد برهن نيوتن على أن هذه القوانين التي تحكم حركة الأجسام المتحركة تنطبق على كل مكان في الكون. وبذلك بدد كل المعتقدات القديمة التي سادت في العصور الوسطى عن وجود قوانين خاصة بالسماء وقوانين أخرى خاصة بالأرض. إن تصور أن الشمس هي مركز العالم قد وجد أخيرا تعليله الحاسم وتفسيره النهائي.

نهض ألبرتو وأعاد المستوى المائل إلى موضعه في درج المكتب القديم ثم التقط البلية ووضعها على المائدة القائمة بينهما.

كانت صوفيا لا تصدق أنهما تمكنا من معرفة كل هذه الحقائق غير مستعينين إلابلوحة خشبية مائلة وبلية صغيرة. وظلت جالسة تتطلع إلى البلية الخضراء التي مازالت ملطخة بالحبر فذكرتها بالكرة الأرضية، وتساءلت:

ـ وكان على الناس أن يقبلوا فكرة أنهم يعيشون فوق كوكب من تلك الكواكب التي لا حصر لها السابحة في فضاء لانهائي؟

ـ نعم. وكان التصور الجديد للعالم عبئا ثقيلا من نواح عديدة. وأ وجد هذا التصور حالة مماثلة لما عرفته البشرية فيما بعد عندما أثبت داروين أن الإنسان ينحدر من الحيوان. ففي تلك الحالتين فقدت البشرية جزءاً من إحساسها بمركزها الخاص المتميز في الخليقة. وفي تلك الحالتين واجهت الكنيسة الأفكار الجديدة بمقاومة هائلة.

ـ يمكنني أن أتخيل هذا! فماذا بقي لله مع كل هذه التصورات الجديدة؟ لقد كان الأمر أكثر بساطة عندما كانت الأرض هي المركز وفوقها ا لله والكواكب.

ـ لكن هذا لم يكن هو أكبر التحديات التي واجهت الناس. لقد تصور البعض أن إثبات نيوتن لوجود قوانين طبيعية واحدة تسري في كل أنحاء الكون قد يشكك في ايمان الناس بالقدرة الإلهية المطلقة. لكن إيمان نيوتن نفسه لم

يهتز قط. بل لقد رأى في تلك القوانين الطبيعية العامة دليلا على وجود إله عظيم وقدير. لكن الأمر الأصعب ربما كان هو صورة الإنسان عن نفسه.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ اعتبارا من عصر النهضة، أصبح على الإنسان أن يعتاد على فكرة أنه يعيش فوق كوكب عادي يسبح في مجرة هائلة. ولست متأكدا إن كنا قد تقبلنا هذه الفكرة تماماً حتى في يومنا الحاضر. لكن عصر النهضة قد ظهر فيه من جهة أخرى من يقولون إن كل كائن إنساني أصبح الآن يشغل في الكون مكانا مركزيا ومحوريا أكثر من أي وقت مضى.

ـ أنا لا أفهم هذه النقطة الأخيرة.

ـ كانت الأرض، فيما سبق، هي مركز العالم. ولكن منذ أن أثبت علماء الفلك أن الكون ليس له مركز مطلق راج تصور يقول إن النقاط المركزية قد أصبحت كثيرة بعدد الناس. ويجوز في هذه الحالة لكل شخص أن يتصور أنه مركز الكون.

ـ فهمت قصدك الآن.

ـ وأسفر عصر النهضة عن **نوع جديد من التدين**، أو عن تصور جديد للعلاقة بين الإنسان والله. فمع انفصال الفلسفة والعلم تدريجيا عن اللاهوت أخذ ينمو تصور جديد للتقوى المسيحية. كما ظهرت في عصر النهضة صورة جديدة للإنسان تقوم على الوعي الفردي. وقد أثر هذا على النظر إلى الإيمان الديني. فأصبحت العلاقة الشخصية بين الفرد والله أكثر أهمية من علاقة الفرد بالكنيسة من حيث هي مؤسسة.

ـ وهل أداء صلاة المساء الفردية مثلا نموذج لهذه العلاقة الجديدة؟

ـ نعم، إنها تدخل في هذا الباب. ففي الكنيسة الكاثوليكية خلال العصور الوسطى كانت الطقوس والصلوات تقام باللاتينية وتعد العمود الفقري للقداس الديني. وكان الكهنة والرهبان هم وحدهم من يستطيعون قراءة

الكتاب المقدس لأنه لم يكن متاحا إلاباللاتينية. ولكن في عصر النهضة، ترجم الكتاب المقدس من العبرية واليونانية إلى اللغات القومية المختلفة. وكانت تلك خطوة جوهرية أفضت إلى ما نسميه **حركة الإصلاح الديني**.

ـ مارتن لوثر...

ـ نعم كان مارتن لوثر من شخصيات الإصلاح الديني الهامة، إلاأنه لم يكن المصلح الوحيد. إذ كان هناك أيضاً مصلحون كنسيون اختاروا أن يظلوا داخل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وكان أحدهم ي دعى إراسموس، وهو هولندي من روتردام، ولذا عرف باسم **إراسموس الروتردامي**.

ـ ألم ينفصل لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية لأنه رفض فكرة شراء صكوك الغفران؟

ـ نعم، كان هذا أحد الأسباب. ولكن كان هناك سبب أهم. إذ كان لوثر يرى أن الإنسان لا يحتاج لوساطة الكنيسة أو كهنتها ليحصل على غفران ا لله. كما أن غفران ا لله لا يعتمد على شراء «صكوك الغفران» من الكنيسة. ولنقل، بالمناسبة، إن الكنيسة الكاثوليكية قد حرمت الاتجار بهذه الرسائل التي تسمى صكوك الغفران من منتصف القرن السادس عشر.

ـ لا بد أن هذا قد أسعد ا لله حقا.

ـ ابتعد لوثر بوجه عام عن كثير من التقاليد والمعتقدات التي ترسخت في ممارسات الكنيسة خلال العصور الوسطى. لقد أراد أن يعود إلى المسيحية الأولى التي يعبر عنها العهد الجديد. وكان يقول «الكتاب المقدس وحده». وكان يعني بهذا الشعار العودة إلى منابع المسيحية وأصولها على غرار دعوة المفكرين المؤمنين بالنزعة الإنسانية في عصر النهضة للعودة إلى المنابع والأصول القديمة للفن والثقافة. وقام لوثر بترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية، فأسس بذلك اللغة الألمانية المكتوبة. وكان يعتقد أن كل إنسان ينبغي أن يكون قادرا على قراءة الكتاب المقدس ليصبح بذلك كاهن نفسه بمعنى ما.

ـ كاهن نفسه؟ ألم يكن في هذا كثير من المبالغة؟

ـ إن ما كان يقصده هو أن الكهنة لا يتمتعون بمركز متميز في العلاقة مع الله. لقد استعان أتباع لوثر بالكهنة لأغراض عملية، مثل توجيه القداس والنهوض بالمهام الكنسية اليومية، ولكن لوثر لم يؤمن بأن أداء شعائر الكنيسة وطقوسها هو الذي يجلب للإنسان مغفرة الله والخلاص من الخطيئة. وقال إن الإنسان يحصل على خلاص «مجاني» عن طريق الإيمان وحده. وقد وصل لوثر إلى هذه النتيجة بقراءة الكتاب المقدس، أي بالعودة إلى المنبع الأول.

ـ كان لوثر إذن نموذجا لرجل عصر النهضة؟

ـ نعم ولا. فهو كان يتصف بسمة مميزة لعصر النهضة هي تأكيده على الفرد وعلى العلاقة الشخصية بين كل فرد والله. وكان هذا ما دفعه إلى تعلم اليونانية وهو في الخامسة والثلاثين من عمره وإلى قيامه بترجمة الكتاب المقدس من اليونانية القديمة إلى الألمانية. وكان إعطاء الأسبقية للغة الشعب على اللاتينية سمة أخرى مميزة لعصر النهضة. لكن لوثر لم يكن مفكرا مؤمنا بالنزعة الإنسانية مثل فيتشينو أو **ليوناردو دافنشي**. وقد عارضه مفكرون مؤمنون بالنزعة الإنسانية مثل إراسموس الروتردامي لأنهم اعتبروا نظرته للإنسان سلبية إلى حد بعيد، إذ كان لوثر يؤكد أن الإنسان قد فسد كلية بعد ارتكاب الخطيئة الأصلية خطيئة آدم وأن الأمل في مغفرة تلك الخطيئة القديمة التي حلت بالإنسان معقود على رحمة الله وحدها.

ـ هذه صورة بالغة القتامة.

نهض ألبرتو وأخذ البلية الخضراء من فوق المائدة ووضعها في جيب سترته. وفجأة صاحت صوفيا بفزع:

ـ إن الساعة قد تجاوزت الرابعة!

ـ إن الحقبة الكبرى التالية في تاريخ البشرية هي عصر الباروك. ولكننا سنتكلم عنها في يوم آخر يا عزيزتي هيلد.

نهضت صوفيا منتفضة من كرسيها وصرخت:

ـ ماذا قلت؟ لقد ناديتني هيلد!

ـ هذه حقا زلة لسان خطيرة.

ـ لكن زلة اللسان لا تحدث أبداً بحكم الصدفة وحدها!

ـ قد تكونين على صواب. ها أنت ترين أن والد هيلد قد بدأ يضع الكلمات على ألسنتنا. أعتقد أنه يستغل الوضع عندما يشعر أننا تعبنا، فعندئذ نكون أقل قدرة على الدفاع عن أنفسنا.

ـ لقد قلت ذات مرة إنك لست والد هيلد. هل هذا صحيح حقا؟

هز ألبرتو رأسه مؤمنا على قولها.

ـ ولكن هل أنا هيلد؟

ـ لقد تعبت الآن يا صوفيا وعليك أن تدركي هذا. إننا نجلس هنا منذ أكثر من ساعتين وقد تكلمت معظم الوقت. أليس عليك أن تعودي إلى البيت لتناول العشاء؟

أحست صوفيا أن ألبرتو يتكلم كإنما يريد أن يتخلص منها. وبينما هي تمضي نحو الردهة أخذت تتساءل من جديد لماذا زل لسان ألبرتو وناداها هيلد. وسار ألبرتو وراءها ليرافقها حتى الباب.

كان هرمس نائما أسفل حافظة ثياب علقت فيها ملابس غريبة الشكل أشبه بملابس مسرحية تدور في عصر غابر. أشار ألبرتو إلى الكلب برأسه وقال:

ـ إن هرمس سيأتي ليصطحبك.

فردت صوفيا:

ـ شكرا على درس اليوم الممتع.

وربتت صوفيا على كتف ألبرتو وقالت:

ـ أنت أبرع وأظرف أستاذ للفلسفة عرفته في حياتي!

ثم فتحت صوفيا باب الشقة وخرجت، وسمعت ألبرتو يقول لها وهو يغلق الباب:

ـ سنلتقي قريبا يا هيلد.

ظلت هذه الكلمات ترن في أذنيها.

أهي زلة لسان أخرى! شعرت صوفيا برغبة قوية في أن تستدير وتطرق على الباب لكن شيئاً ما منعها من ذلك.

عندما وصلت إلى الشارع تذكرت أنها لم تحضر معها نقودا. سيكون عليها الآن أن تقطع كل هذا الطريق الطويل سيرا على الأقدام. ما أسخف ذلك! فمن المؤكد أن أمها ستقلق وتغضب إن لم تعد إلى البيت قبل السادسة.

لم تكد صوفيا تسير بضعة أمتار حتى وقعت عيناها فجأة على قطعة عملة ملقاة على الرصيف. إنها عشرة كرونات، أي ثمن تذكرة الأوتوبيس بالضبط. مشت صوفيا حتى محطة الأوتوبيس وانتظرت واحداً يتجه إلى الميدان الكبير. من هناك يمكنها أن تركب أوتوبيسا آخر يحملها قرب بيتها.

عندما وصلت الميدان الكبير ووقفت تنتظر الأوتوبيس الثاني أخذت تتساءل كيف شاء لها حسن الحظ أن تجد ثمن التذكرة بالضبط وقت الحاجة إليه.

هل والد هيلد هو الذي وضع قطعة النقود هناك؟ إنه بارع في ترك الأشياء في أعجب الأماكن!

وكيف له أن يفعل ذلك إذا كان في لبنان؟ ولماذا زل لسان ألبرتو؟ لا مرة واحدة بل مرتين!

ارتعشت صوفيا وأحست بالقشعريرة تسري في كل جسمها.

الفصل السابع عشر

عصر الباروك

... لقد نسجنا من خامة الأحلام...

مرت عدة أيام دون أن تتلقى صوفيا أخبارا من ألبرتو، ولكنها كانت تتطلع إلى الحديقة من حين لآخر عساها تلمح هرمس: أخبرت أمها أن الكلب عرف طريقه إلى بيت صاحبه الذي أراد أن يشكرها فدعاها إلى فنجان من الكاكاو. كما أخبرتها انه أستاذ للفيزياء، وانه كلمها عن النظام الشمسي والتطور العلمي الذي حدث في القرن السادس عشر.

أما نورا فقد أخبرتها صوفيا بالمزيد. فحدثتها عن زيارتها لألبرتو، وعن البطاقة البريدية التي وجدتها ملصقة على صندوق البريد في مدخل بيته، وقطعة النقود التي عثرت عليها في طريق عودتها. ولكنها لم تذكر شيئاً لا عن الحلم الذي رأت فيه هيلد ولا عن الصليب الذهبي.

في يوم الثلاثاء ٢٩ مايو (أيار)، كانت صوفيا واقفة في المطبخ تغسل أطباق العشاء بينما كانت أمها جالسة في البهو تشاهد نشرة أخبار التلفزيون، وفجأة سمعت صوفيا خبرا يقول إن ضابطا بالفصيلة النرويجية للأمم المتحدة قد لقي حتفه من جراء اصابته بإحدى الشظايا.

ألقت صوفيا فوطة الأطباق على المائدة وهرعت إلى البهو فلمحت، لثوان قليلة، صورة ضابط الأمم المتحدة قبل أن تنتقل النشرة إلى الخبر التالي فصرخت:

ـ كلا! مستحيل!

التفتت أمها إليها وقالت:

ـ نعم، إن الحرب شيء فظيع!

وأجهشت صوفيا في البكاء.

ـ هدئي من روعك يا صوفيا!

ـ ألم يذكروا اسمه؟

ـ بلى، ولكني لا أتذكره. أعتقد أنه كان من مدينة جريمستاد.

ـ أليست هذه المدينة قريبة من ليلساند؟

ـ إن الأمور تختلط عليك يا صوفيا.

ـ أليس من الجائز أن تقيمي في جريمستاد وتذهبي إلى مدرسة في ليلساند؟

جزعت الأم لرد فعل ابنتها فنهضت من مقعدها وأغلقت التلفزيون واستدارت إلى صوفيا وسألتها:

ـ ماذا اعتراك يا صوفيا؟

ـ لا شيء...

ـ من الواضح أن هناك ما يقلقك. ثمة شخص تحبينه وقد بدأت أعتقد أنه أكبر منك كثيراً. أجيبيني الآن: هل تعرفين رجلا في لبنان؟

ـ ليس بالضبط...

ـ هل قابلت ابنا لشخص موجود في لبنان؟

ـ لقد قلت لك لا. إني حتى لم أقابل ابنته.

ـ ابنته... ابنة من؟

ـ هذا أمر لا يخصك.

ـ بل أعتقد أنه يخصني تماماً.

- ربما جاء دوري لأسألك أنا بعض الأسئلة أيضاً. لماذا لا يوجد أبي أبداً في البيت؟ هل لأنكما لا تملكان الشجاعة على الانفصال؟ هل في حياتك رجل آخر لا تريدين أن نعرف عنه شيئاً أنا وبابا؟ وغيره وغيره. أنا عندي كما ترين أسئلة كثيرة لأسألها.

- أعتقد أننا بحاجة لأن نتكلم معاً عن أمور كثيرة.

- ربما ولكني مجهدة الآن وسأصعد لأنام!

غادرت صوفيا الغرفة وهي تبكي وصعدت راكضة إلى غرفتها.

أخذت صوفيا حماما سريعا وعادت إلى غرفتها، وما إن تسللت تحت الغطاء حتى جاءت أمها.

تظاهرت صوفيا بأنها نائمة برغم معرفتها بأن أمها لن تصدق ذلك. كانت تعرف أن أمها تعرف أن صوفيا تعرف أن أمها لن تصدق ذلك أيضاً. ومع هذا تظاهرت أمها بأنها تصدق أن صوفيا نائمة. فقد جلست الأم على حافة السرير وجعلت تمرر يدها في شعرصوفيا وتربت عليها في رفق وحنان.

أخذت صوفيا تفكر في مدى صعوبة وتعقيد أن تعيش حياتين في وقت واحد. وبدأت تتطلع إلى نهاية مقرر الفلسفة. ربما يكون قد انتهى عندما يحل عيد ميلادها، أو على الأقل عندما يحل عيد منتصف الصيف، يوم ٢٣ يونيو(حزيران)، يوم وصول والد هيلد من لبنان...

وفجأة قالت صوفيا:

- أريد أن أقيم حفلا يوم عيد ميلادي...

- هذه فكرة رائعة. ومن الذين تريدين دعوتهم؟

- عدد كبير... هل أستطيع؟

- بالطبع، فنحن لدينا حديقة واسعة. وأرجو أن يستمر الجو الصحو الذي نعرفه هذه الأيام.

- ولكني أريد أن أقيم الحفل ليلة عيد منتصف الصيف...

وواصلت صوفيا حديثها وهي لا تفكر في عيد ميلادها وحده:

- إنه يوم هام جداً...

- بالطبع يا حبيبتي.

- ماما... أشعر أني نضجت كثيراً في هذه الفترة الأخيرة...

- إلاتجدين هذا رائعا؟

- لست أدري...

كانت صوفيا تحدث أمها وهي تضع وجهها في الوسادة. ثم سألتها أمها:

- إلاتريدين أن تخبريني يا صوفيا بما يجعلك شديدة الاضطراب في هذه الفترة؟

- ألم تمري بهذه الحالة عندما كنت في سني؟

- غالبا، ولكنك تدركين جيدا ما أتحدث عنه.

حولت صوفيا وجهها فجأة إلى أمها وقالت:

- الكلب اسمه هرمس.

- حقا؟

- وصاحبه اسمه ألبرتو...

- إني أسمعك يا صوفيا. أكملي...

-... إنه يسكن الحي القديم من المدينة.

- هل قطعت كل هذا الطريق الطويل مع الكلب؟

- نعم، ليس في هذا شيء خطير...

- لقد قلت إن الكلب جاء هنا مرارا.

- أقلت هذا حقا؟

كانت صوفيا تريد أن تحكي أكبر قدر ممكن ولكنها لم تكن تستطيع في الوقت نفسه أن تحكي كل شيء، ثم فكرت برهة وقالت:

ـ قلما توجدين في البيت يا ماما...

ـ إني شديدة الانشغال كما تعرفين.

ـ لقد حضر ألبرتو وهرمس إلى هنا عدة مرات.

ـ لماذا؟ وهل دخلا البيت أيضاً؟

ـ ألاتستطيعين أن تسألي سؤالاسؤالا؟ إنهما لم يدخلا إلى البيت. ولكنهما يذهبان في أحيان كثيرة للتنزه في الغابة. هل في هذا شيء غريب؟

ـ لا، على الإطلاق.

ـ لقد مر ألبرتو مثل أي شخص آخر أمـام بوابـة حديقتنـا برفقـة كلبـه في طريقهما إلى الغابة. وذات يـوم داعبـت الكلـب عنـد رجوعـي مـن المدرسـة، وهكذا تعرفت على ألبرتو.

ـ وماذا عن الأرنب الأبيض وكل هذه القصص؟

ـ هذا شيء قاله ألبرتو. إنه فيلسـوف حقيقـي. لقـد حدثـني عـن فلاسـفة كثيرين...

ـ وكل هذا وهو واقف وراء السور؟

ـ لا بالطبع، لقد جلسنا بعد فـترة مـن تعارفنـا نتحـدث ونتنـاقش. ولكنـه كتب لي أيضـاً رسـائل كثـيرة بعضهـا وصلـني بالـبريد، وبعضهـا كـان يضعـه مباشرة في الصندوق وهو في طريقه إلى الغابة.

ـ كانت الرسالة الغرامية التي تحدثنا عنها واحدة من تلك الرسائل إذن.

ـ نعم، باستثناء أنها لم تكن رسالة غرامية.

ـ إلايكتب لك إلافي الفلسفة؟

ـ نعم هل تتخيلين هذا! وقد تعلمت منه أكثر مما تعلمته في المدرسة خلال ثماني سنوات. هل سمعت مثلا عن جوردانو برونو الذي أ عدم حرقا في عام ١٦٠٠؛ أو عن قانون الجاذبية العامة لنيوتن؟

ـ أعترف لك بأني أجهل أشياء كثيرة...

ـ أراهنك أنك لا تعرفين مثلا لماذا تدور الأرض حول الشمس برغم أنها الكوكب الذي تعيشين عليه!

ـ وما عمر هذا الرجل يا صوفيا؟

ـ لست أدري، نحو خمسين عاما على الأرجح.

ـ وما علاقته بلبنان؟

ها قد دخلنا في المنطقة الصعبة! تدافعت الأفكار في رأس صوفيا ثم اختارت أخيرا التفسير الذي بدا لها معقولا أكثر من غيره:

ـ إن لألبرتو أخا يعمل ضابطا في فصيلة الأمم المتحدة. إنه يسكن في ليلساند.

ـ ألبرتو! يا له من اسم ذي وقع غريب!

ـ ربما...

ـ يبدو أنه اسم ايطالي...

ـ إن معظم الأشياء المهمة جاءت إما من اليونان وإما من ايطاليا.

ـ ولكن أهو يتحدث النرويجية؟

ـ نعم، بطلاقة.

ـ أتعرفين فيم أفكر يا صوفيا؟ أعتقد أنك يجب أن تدعي ألبرتو عندنا ذات يوم. فإنني لم أقابل قط فيلسوفا حقيقيا.

ـ لنفكر في هذا...

ـ ربما استطعنا دعوته لحفل عيد ميلادك. فسيكون من الظريف أن يحضر الحفل أشخاص من أجيال مختلفة. وربما حضرت أنا أيضاً لو أردت، على الأقل لأساعدك في خدمة الضيوف. ما رأيك في ذلك؟

ـ لا مانع عندي إذا وافق هو. فالحديث معه أكثر امتاعا من الحديث مع زملائي الأولاد في الفصل. ولكن هناك مسألة مزعجة هي...

ـ ماذا يا صوفيا؟

ـ لست أدري ماذا سيدور في إذهان المدعوين عندما يجدون أبي غائبا عن المنزل ويجدون ألبرتو معنا.

ـ عليك ببساطة أن تخبريهم بحقيقة الأمر.

ـ اتفقنا.

ـ والآن اسمعيني يا صوفيا، من الصحيح أن الأمور لم تكن تمضي دوما في يسر بيني وبين أبيك ولكن لم يكن في حياتي قط رجل آخر...

ـ لا بد أن أنام الآن. إن بي صداعا فظيعا.

ـ أتريدين حبة أسبرين؟

ـ نعم، سأكون شاكرة.

عندما عادت الأم بالأسبرين وكوب الماء وجدت صوفيا قد غابت في نوم عميق.

وافق ٣١ مايو(أيار) يوم الخميس الذي تطول فيه ساعات الدراسة فيتململ معظم التلاميذ وهم يتابعون الحصص الأخيرة. لقد تحسن مستوى صوفيا في معظم المواد منذ بدأت تدرس الفلسفة. كانت درجاتها تتأرجح في معظم المواد بين «جيد» و«جيد جداً » ولكنها في الشهر الماضي حصلت على تقدير «جيد جيدا » في كل المواد، باستثناء الرياضيات.

في الحصة الأخيرة وزع المدرس كراسات التعبير بعد تصحيحها. كانت صوفيا قد اختارت أن تكتب في موضوع «الإنسان والتكنولوجيا». فتكلمت طويلا عن عصر النهضة والتطور العلمي، والرؤية الجديدة للطبيعة وفرنسيس بيكون الذي قال إن المعرفة قوة. وحرصت على توضيح أن المنهج التجريبي هو الذي مهد الطريق أمام كل الاكتشافات التكنولوجية. ثم تكلمت عن الجوانب التي تعتبرها من سلبيات التكنولوجيا، مثل تلوث البيئة. وختمت الموضوع بفقرة قالت فيها إن كل شيء يبتكره الإنسان يمكن أن يستخدم إما في الخير وإما في الشر. فالخير والشر يشبهان خيطا أبيض وخيطا أسود يتداخلان تداخلا وثيقا بحيث يصعب أحيانا فصل أحدهما عن الآخر.

عندما سلمها الأستاذ كراسة الواجب نظر إليها نظرة مشجعة. لقد أعطاها تقدير «ممتاز» وأضاف هذا التعليق: من أين تأتينا بكل هذا؟ وقبل أن يتخطاها الأستاذ أثناء مروره على التلاميذ لتوزيع الكراسات، أخذت قلما وكتبت بخط كبير في هامش الصفحة: «إني أدرس الفلسفة».

وبينما هي تضع الكراسة في حقيبتها رأت شيئاً يسقط من بين صفحاتها. لقد كانت بطاقة بريدية جديدة آتية من لبنان! مالت صوفيا على مكتبها وبدأت تقرأ:

عزيزتي هيلد،

عندما تقرأين هذه السطور سنكون قد تحدثنا بالفعل في التليفون عن الحادث المفجع الذي وقع في صفوفنا هنا. إني لا أكف عن التساؤل: أليست هناك وسيلة تساعد على تجنب الحرب؟ ثم اجدني أجيب: ربما أمكن تجنب الحرب إذا تعلم الناس كيف يفكرون بشكل أعمق. وربما كان أفضل علاج للعنف هو دراسة مقرر صغير في الفلسفة. ما رأيك في أن تصدر الأمم المتحدة شيئاً من قبيل «كتيب الأمم المتحدة في الفلسفة»، وتوزع نسخة منه على كل مواطن في العالم بلغته الأصلية؟ سوف اقترح هذه الفكرة على الأمين العام للأمم المتحدة.

لقد قلت لي في التليفون إنك أصبحت أكثر حرصا على حاجياتك. وأنا سعيد بذلك لأنني لم أصادف قط من هو أكثر شرودا منك. ثم قلت لي إن الشيء الوحيد الذي فقدته منذ أن تكلمنا في المرة الأخيرة هو قطعة عشرة كرونات. وأعدك بأن أبذل ما في وسعي لأساعدك في العثور عليها. فبرغم أني أوجد الآن في مكان بعيد جداً فإن لدي من استطيع الاعتماد عليه في البلد. (وإذا نجحت في العثور على النقود سأضيفها إلى هدية عيد ميلادك).

مع أشواق بابا الذي يشعر أنه بدأ بالفعل رحلة العودة إلى البيت.

ما كادت صوفيا تفرغ من قراءة البطاقة حتى رن جرس الحصة الأخيرة. ومرة أخرى أخذت الأفكار تتدافع في رأسها...

كانت نورا تنتظرها في فناء المدرسة. في طريق العودة فتحت صوفيا حقيبتها وأخرجت البطاقة وأعطتها لصديقتها قائلة:

ـ تفضلي آخر البطاقات العجيبة!

ـ ما هو تاريخ خاتم البريد؟

ـ من المؤكد أنه ١٥ يونيو (حزيران)...

ـ كلا انظري: إنه... ١٩٩٠/٥/٣٠.

ـ هذا تاريخ الأمس: اليوم الذي وقع فيه الحادث في لبنان.

ومضت نورا تقول:

ـ إني أشك في أن تصل بطاقة من لبنان إلى النرويج في يوم واحد.

ـ وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار هذا العنوان غير المعتاد: هيلد مولر كناج، طرف/صوفيا أموندسن، مدرسة فورروليا الثانوية...

ـ ترى هل وصلت بالبريد فوضعها الأستاذ وسط كراستك؟

ـ لست أدري. بل ولست أجرؤ على سؤاله.

وفجأة غيرت صوفيا مجرى الحديث فقالت:

ـ سأقيم حفلا في الحديقة ليلة عيد منتصف الصيف.

ـ وهل ستدعين إليها زملاءنا الأولاد؟

هزت صوفيا كتفيها وقالت:

ـ لست أنوي على أي حال أن أدعو أشدهم بلاهة.

ـ أرجو إلاتنسي دعوة يورجن!

ـ إذا أردت. بالمناسبة ربما دعوت أيضاً ألبرتو كنوكس.

ـ لا بد أنك جننت تماماً؟

ـ أعرف ذلك.

كانت الصديقتان قد وصلتا إلى المركز التجاري فمضت كل واحدة في طريقها.

ما إن اقتربت صوفيا من البيت حتى أخذت تتطلع إلى الحديقة عساها تلمح هرمس. نعم! ها هو يدور حول أشجار التفاح!

ـ هرمس!

وقف الكلب ساكنا للحظة خاطفة. وكانت صوفيا تعرف بالضبط ما يدور في رأسه في تلك البرهة: لقد سمع الكلب نداءها، وعرف صوتها، وهو يريد الآن أن يتأكد من وجودها في الجهة التي جاء منها الصوت. وما إن اكتشفها حتى انطلق يركض سريعا. كل هذا وقع في تلك البرهة الخاطفة.

أخيرا وقف هرمس أمامها يهز ذيله بفرحة غامرة وهو يحاول أن يقف على قدميه الخلفيتين ويقفز نحوها كإنما يريد احتضانها.

ـ هرمس أيها الكلب الحبيب! انزل انزل! هيا يا هرمس! اجلس الآن أيها الكلب الشاطر...

ما كادت صوفيا تفتح بوابة الحديقة حتى لاحت قطتها شيريكان من بين شجيرات توارت خلفها لخشيتها من كلب ضخم لا تعرفه. أعدت لها صوفيا وجبتها، ثم وضعت بعض الحبوب في قفص العصافير، وأعطت بعض أوراق الخس للسلحفاة، وكتبت رسالة لأمها قالت فيها إنها ستصطحب هرمس إلى بيت صاحبه وستتصل بها في التليفون إن تأخرت عن السابعة.

وانطلقا في طريقهما دون أن تنسى صوفيا أن تأخذ معها بعض النقود هذه المرة. فكرت لحظة في أن تركب الأتوبيس مع هرمس ثم عدلت عن فكرتها مفضلة أن تستاذن ألبرتو في ذلك أولا.

وبينما هي تسير وراء هرمس أخذت تفكر في طبيعة الحيوان وفي الفرق بين الحيوان والإنسان. وتذكرت رأي أرسطو. لقد قال إن الإنسان والحيوان كلاهما كائن حي تجمع بينهما سمات مشتركة عديدة. لكن هناك فرقا أساسيا يميز الإنسان عن الحيوان، هو قدرة الإنسان على التفكير.

كيف استطاع أن يتأكد من وجود هذا الفرق؟

ومن جهة أخرى كان ديموقريطس يعتقد أن الإنسان والحيوان متماثلان إلى حد كبير، فكلاهما يتألف من ذرات وكلاهما ليست له روح خالدة. وكان يتصور أن روح الإنسان مؤلفة من ذرات دقيقة وأنها مرتبطة بالمخ ارتباطا لا ينفصم، وما إن يموت الجسم حتى تتفرق تلك الذرات في كل اتجاه.

ولكن كيف يمكن أن تكون الروح مؤلفة من ذرات؟ إن الروح ليست شيئاً يمكن لمسه وتحسسه مثل بقية الجسم. إنها شيء غير مادي، شيء «روحاني».

كانت صوفيا وهرمس قد تجاوزا بالفعل الميدان الكبير ويقتربان من الحي القديم. وعندما وصلا إلى الرصيف الذي وجدت عليه صوفيا قطعة النقود، نظرت بصورة تلقائية إلى الأرض. وهنا في الموقع المحدد الذي انحنت فوقه

والتقطت قطعة العملة، أبصرت بطاقة بريدية عليها صورة حديقة ذات نخيل وأشجار برتقال!

انحنت صوفيا وأخذت البطاقة وراح هرمس يزمجر كأنما لا يريد لصوفيا أن تلمسها.

كانت البطاقة تقول:

عزيزتي هيلد،

إن الحياة سلسلة طويلة من المصادفات. فليس من المستبعد أن تكون قطعة العملة التي فقدتها قد انتهى بها المطاف إلى هذا المكان المحدد. فربما تكون سيدة عجوز قد وجدتها في أحد ميادين ليلساند بينما هي تنتظر الأتوبيس الذي يصطحبها إلى كريستيانساند لزيارة حفيدتها. ولعلها ذهبت بعد ساعات طويلة إلى الميدان الكبير وفقدت قطعة العملة هنا في هذا الموقع بالضبط. ومن الجائز تماماً أن تكون فتاة صغيرة قد التقطت بعد ذلك قطعة العملة نفسها لأنها كانت تحتاجها لشراء تذكرة الأتوبيس الذي سينقلها إلى بيتها. ليس بوسعنا أن نعرف يا هيلد، ولكن إن كان ما حكيت لك عنه قد حدث بالفعل فإن علينا أن نتساءل بالتأكيد عما إن كانت العناية الإلهية تكمن وراء كل هذا.

مع خالص أشواق بابا الذي يتخيل نفسه جالسا معك على المرسى في ليلساند يتأمل البحر.

ملحوظة: لقد قلت لك أني سأساعدك في العثور على قطعة النقود.

هيلد مولر كناج طرف/عابر سبيل...

أما تاريخ خاتم البريد فكان ١٥/٦/١٩٩٠!

صعدت صوفيا السلم ركضا وراء هرمس. وما إن فتح ألبرتو الباب حتى قالت:

ـ افسح الطريق لقد حضر ساعي البريد!

انتحى ألبرتو جانبا وتركها تدخل بينما ذهب هرمس ليتمدد تحت حافظة الثياب كعادته.

ـ هل ترك الضابط بطاقة جديدة يا ابنتي؟

تطلعت صوفيا إليه فاكتشفت أنه يرتدي زيا مختلفا. كان أول ما لفت نظرها هو أنه وضع على رأسه شعرا مستعارا متموجا ملتفا، وأنه يرتدي سترة واسعة مليئة بالثنيات والشرائط، ويلف حول عنقه منديلا حريريا ويضع فوق سترته معطفا أحمر. كما كان يرتدي جوربا أبيض وحذاء لامعاً مزيناً بالشرائط. وذكر هذا الزي صوفيا بالصور التي رأتها لبلاط الملك لويس الرابع عشر، فقالت لألبرتو وهي تعطيه البطاقة:

ـ هل أنت ذاهب إلى حفل تنكري؟

قرأ ألبرتو البطاقة وقال:

ـ وهل وجدت حقا قطعة العملة في نفس المكان الذي و ضعت فيه البطاقة؟

ـ في نفس المكان بالضبط!

ـ إنه يزداد غلظة وسماجة! ولكن ربما كان هذا أفضل.

ـ لماذا؟

ـ لأنه سيجعل من السهل علينا أن نكتشف حقيقته. إلاأن هذه الحيلة تفوح منها رائحة الغرور وانعدام الذوق كإنما هي رائحة عطر رخيص.

ـ عطر؟

ـ أقصد أنه يحاول أن يكون أنيقا بارعا ولكنه ليس في الحقيقة إلامخادعا دجالا. ألا تلاحظين صفاقته وهو يقارن أساليبه الدنيئة في مراقبتنا بالعناية الإلهية؟

أمسك ألبرتو بالبطاقة ومزقها إلى قطع صغيرة مثل البطاقة السابقة. ولما رأت صوفيا أن مزاجه قد اعتل لهذا السبب لم ترد أن تزيده انزعاجا بالإشارة إلى البطاقة التي سقطت من كراسة التعبير في المدرسة.

ـ فلنذهب لنجلس في البهو يا تلميذتي النجيبة. كم الساعة الآن؟

ـ الرابعة تماماً.

ـ إننا سنتكلم اليوم عن القرن السابع عشر.

انتقلا إلى البهو الذي يغمره نور النهار المباشر. ولاحظت صوفيا أن ألبرتو قد وضع أشياء مختلفة محل الأشياء التي رأتها في المرة الماضية. فعلى المائدة الصغيرة رأت صندوقا به مجموعة من العدسات الطبية وبجانبه كتاب مفتوح يبدو عليه أنه بالغ القدم. فسألت صوفيا:

ـ ما هذا الكتاب؟

ـ إنها نسخة من الطبعة الأولى من كتاب مقال في المنهج لديكارت. لقد نشر في عام ١٦٣٧، وهو من أحب مقتنياتي إلى قلبي.

ـ وهذا الصندوق؟

ـ إنه يحتوي مجموعة فريدة من العدسات الطبية. إن الذي صقلها هو الفيلسوف الهولندي سبينوزا في منتصف القرن السابع عشر. لقد كلفتني ثروة طائلة وهي أيضاً من المقتنيات التي أعتز بها بشدة.

ـ ربما فهمت بشكل أفضل لماذا تعتز بالصندوق والكتاب إذا عرفت من يكون سبينوزا ومن يكون **ديكارت**.

ـ بالطبع. ولكن فلنحاول أولا أن نتمثل الفترة التي عاشا فيها. فلنجلس هنا.

وجلسا في نفس مكانهما المعتاد، صوفيا في الكرسي الوثير وألبرتو على الأريكة، وبينهما صفت منضدة القهوة الصغيرة وفوقها الكتاب والصندوق. نزع ألبرتو شعره المستعار ووضعه على المكتب، وقال:

ـ سنتكلم عن القرن السابع عشر، أو ما نشير إليه عامة باسم عصر الباروك.

ـ عصر الباروك؟ يا له من اسم غريب.

ـ إن كلمة «باروك» مشتقة من لفظ استخدم في البداية لوصف اللؤلؤة التي يفتقر شكلها إلى الانتظام. فعدم الانتظام كان السمة المميزة لفن الباروك. فالفن في تلك الفترة كان يتصف بثراء الأشكال وبتنوع التعابير إلى حد التناقض خلافا لفن عصر النهضة الذي تميز بقدر أكبر من البساطة والتناسق والانسجام. فالقرن السابع عشر قد طغى عليه توتر مستمر بين متناقضات يتعذر التوفيق بينها. فمن جهة كان هناك التفاؤل الوثاب وتمجيد الحياة اللذان ميزا عصر النهضة، ومن جهة أخرى كان هناك الإنكار المغالي فيه للعالم والانطواء على حياة النسك الدينية المنعزلة. ولذا نصادف في الفن وفي الحياة الفعلية مظاهر عديدة للإسراف والزخرف والبذخ كما نجد في الوقت ذاته حركات الرهبنة التي أخذت تنشأ وتتطور داعية إلى اعتزال العالم.

ـ أي باختصار قصور فخمة وأديرة معزولة.

ـ نعم يمكنك أن تقولي ذلك بالتأكيد. ومن الأقوال التي شاعت على الألسنة في عصر الباروك عبارة لاتينية تقول «Carpe Diem»، وهي تعني «عش يومك». كما راجت أيضاً عبارة لاتينية أخرى تقول «Memento Mori»، وهي تعني «تذكر أنك ستموت ذات يوم». وفي مجال الفن، كنا نجد مثلا لوحة تصور أسلوب عيش يتميز بالبذخ والترف ولكننا نلمح فيها إلى جانب هذا جمجمة صغيرة منزوية في أحد الأركان. لقد كان عصر الباروك يتميز بلا شك بالميل إلى البذخ والترف، ولكن كثيراً من الناس أخذوا يهتمون في الوقت

ذاته بالوجه الآخر من العملة، وهو الطابع الزائل للحياة. أي إنهم كانوا يركزون على فكرة أن كل الجمال المحيط بنا مقضي عليه بأن يزول ويختفي ذات يوم

ـ وهذا صحيح. ومن المحزن أن نفكر في أن كل شيء سيفنى في يوم من الأيام.

ـ أنت تفكرين الآن مثل كثير من الناس في القرن السابع عشر... لقد كان عصر الباروك أيضاً فترة شهدت صراعا ضاريا على المستوى السياسي. فقد نشبت في أوروبا حروب طاحنة، كان أفظعها حرب الثلاثين عاما التي اجتاحت معظم أنحاء القارة من عام ١٦١٨ حتى عام ١٦٤٨، وألحقت دمارا هائلا بألمانيا على وجه الخصوص. وكان من نتائج هذه الحرب المدمرة الطويلة أن أصبحت فرنسا شيئاً فشيئاً أقوى دولة في أوروبا.

ـ وما كان سبب تلك الحرب؟

ـ كانت إلى حد كبير سلسلة من الحروب بين البروتستانت والكاثوليك. ولكنها كانت أيضاً حروب في سبيل النفوذ السياسي.

ـ مثل الحرب الدائرة في لبنان...

ـ وإلى جانب الحروب الطاحنة كان القرن السابع عشر يتميز بالفوارق الشاسعة بين الطبقات. من المؤكد أنك سمعت عن أرستقراطية النبلاء الفرنسية وبلاط قصر فيرساي. ولكني لست واثقا إن كنت سمعت شيئاً عن فقر الشعب الفرنسي وبؤسه في ذلك الوقت. **وكان استعراض البذخ هذا مظهراً من مظاهر استعراض القوة.** وكثيراً ما قيل:إن حالة الفن والعمارة تعكس الحالة السياسية في عصر الباروك. فمباني عصر الباروك زينت زواياها وأركانها الجانبية بإفراط في الزخارف كإنما هي صورة للساحة السياسية التي سادتها أهواء متضاربة وراحت تحاك في أركانها الدسائس وتدبر المؤامرات وترتكب الاغتيالات.

ـ ألم يقتل ملك من ملوك السويد في أحد المسارح؟

ـ إنك تقصدين جوستاف الثالث. نعم، واغتياله نموذج يوضح ما ذكرت. لقد اغتيل جوستاف الثالث في ١٧٢٩، أي بعد عصر الباروك بفترة طويلة، إلاأن الظروف التي مات فيها تصور عصر الباروك خير تصوير، لأنه قتل في حفل تنكري كبير.

ـ كنت أتصور أنه اغتيل في قاعة مسرح.

ـ لقد أقيم الحفل التنكري في دار الأوبرا. ونستطيع أن نقول إن عصر الباروك قد انتهى في السويد بمقتل جوستاف الثالث. وكان عصره مما يطلق عليه حكم «المستبد المستنير» مثل حكم لويس الرابع عشر قبل ذلك بنحو مائة عام.

ـ وكيف يكون الحكم «مستبدا» ويكون في نفس الوقت «مستنيرا»؟

ـ يقصد بالحكم المستبد الحكم المطلق الذي يكون الحاكم فيه هو مصدر كل السلطات. أما صفة الاستنارة فيقصد بها أن هذا الحاكم قد يشجع مثلاً على ازدهار الفنون والآداب، كما فعل لويس الرابع عشر. وكان جوستاف الثالث بدوره شخصا يتيه خيلاء وزهوا ويولع بتقاليد البلاط الفرنسي بكل طقوسه ومجاملاته. كما كان يحب المسرح...

ـ... وقد قتل فيه.

ـ نعم، إلاأن المسرح في عصر الباروك لم يكن مجرد شكل من أشكال التعبير الفني. لقد كان المسرح رمزا شاع استخدامه لتصوير الزمن.

ـ كان رمزا لأي شيء؟

ـ كان رمزا للحياة يا صوفيا. لا أعرف كم مرة قيل فيها خلال القرن السابع عشر «إن الحياة مسرح كبير»، لكن هذه العبارة ظلت تردد بتكرار لافت للنظر على أي حال. فعصر الباروك هو الذي نشأ فيه المسرح الحديث،

بكل ديكوراته وكواليسه وأجهزته. فالمسرح يقوم على الإيحاء بأن ما يدور فوق خشبته حقيقي فعلي، ثم لا يلبث الجمهور أن يكتشف في النهاية ان كل ما دار على المسرح ليس إلاوهما وخيالا. وبذلك أصبح المسرح صورة لحياة الإنسان الزائلة في جوهرها، فأخذ يبين أن كل شيء آيل إلى زوال وراح يعرض صورا لا ترحم لبؤس الإنسان.

ـ وهل عاش **شكسبير** في عصر الباروك؟

ـ لقد كتب أعظم مسرحياته في نحو عام ١٦٠٠، هو يقف إذن بقدم في عصر النهضة وبقدم أخرى في عصر الباروك. وأعمال شكسبير مليئة بالمقاطع التي تصور الحياة على أنها مسرح كبير. هل تودين أن تسمعي بعضا منها؟

ـ بكل سرور.

ـ في مسرحية **كما تهوى**، يقول:

ما العالم كله سوى مسرح

وما الرجال والنساء جميعا إلاممثلون،

يدخلون في لحظة ويخرجون في لحظة أخرى،

وكل إنسان منهم يمثل في حياته أدوارا كثيرة.

وفي مسرحية **ماكبث**، يقول:

ما الحياة إلاطيف يمر

كممثل بائس يختال ويتمايل ساعة على المسرح

ثم تنقطع أخباره

إنها رواية مليئة بالضجيج والغضب يرويها أحمق

ولا تعني شيئاً.

ـ ما أشد هذا التشاؤم.

ـ نصادف لدى شكسبير في مواضع كثيرة فكرة أن العمر قصير. من المؤكد أنك سمعت أشهر عبارة قالها شكسبير.

ـ **نكون أو لا نكون، هذا هو السؤال.**

ـ نعم، على لسان هاملت. اليوم نسير على الأرض وغدا لن نكون هنا.

ـ شكرا على هذا التفسير!

ـ وعندما كان شعراء عصر الباروك لا يقارنون الحياة بالمسرح كانوا يقارنون الحياة بالحلم. فقد قال شكسبير مثلاً: «لقد نسجنا من خامة الأحلام وحياتنا القصيرة يغلفها الوسن...»

ـ هذه صورة شعرية رقيقة...

ـ كما أن الشاعر المسرحي الأسباني **كلدرون دي لاباركا**، الذي ولد عام ١٦٠٠، كتب مسرحية اسمها الحياة حلم، يقول فيها: «ما الحياة؟ جنون. ماالحياة؟ خدعة، طيف، حكاية، ومهما تسامى الخير يظل ضئيل الشأن، فما الحياة سوى حلم...»

ـ ربما كان على صواب. لقد قرأنا في المدرسة مسرحية اسمها **جيب فوق الجبل**...

ـ نعم التي كتبها **لودفيج هولبرج**. لقد كان هولبرج شخصية أدبية كبرى في اسكيندنافيا جسدت الانتقال من عصر الباروك إلى عصر التنوير.

ـ لقد غلب النعاس الفلاح فنام في المغارة... ثم استيقظ فوجد نفسه في سرير البارون. فتصور أنه كان يحلم فقط بأنه فلاح فقير. وعندما غلبه النعاس

مرة أخرى حملوه إلى المغارة من جديد، وعندما استيقظ تصور أنه كان يحلم بأنه إنما نام في سرير البارون.

ـ لقد استعار هولبرج هذه الفكرة من كالدرون، الذي استعارها بدوره من حكايات **ألف ليلة وليلة** العربية القديمة. فمقارنة الحياة بالحلم موضوع نجده في فترات تاريخية بعيدة ونصادفه حتى في الهند والصين. فقد قال مثلاً الحكيم الصيني القديم **شوانج تسو**: لقد حلمت ذات يوم أني فراشة، والآن لا أعرف إن كنت شوانج تسو الذي حلم بأنه فراشة أو إن كنت فراشة تحلم بأنها شوانج تسو.

ـ من المستحيل إثبات أي الأمرين هو الصحيح.

ـ إن لدينا في النرويج شاعرا نموذجيا من شعراء عصر الباروك هو بيتر داس، الذي عاش من عام ١٦٤٧ حتى عام ١٧٠٧. فقد اهتم بتصوير الطبيعة وتقاليد سكان النرويج وعاداتهم وأزيائهم لكن هذا الوصف الحي للواقع يمتزج لديه في نفس الوقت بشعور قوي بأن الله هو وحده الدائم والباقي.

ـ نعم إنه يقول «يظل الله هو الله حتى إن باتت الأرض يبابا، ويظل الله هو الله حتى إن مات كل البشر».

ـ ولكنه يصور في نفس النشيد الحياة الريفية في شمال النرويج ويتكلم عن أنواع السمك التي يأكلها الناس في هذه المنطقة. وهذه سمة نموذجية من سمات عصر الباروك، حيث يختلط في نص واحد وصف عالم الأرض بوصف عالم السماء. ولعل في هذا ما يذكر بالتفرقة التي أقامها أفلاطون بين عالم الحواس الملموس وعالم المثل الخالد.

ـ وما كان حال الفلسفة في هذه الفترة؟

ـ كانت الفلسفة أيضا تتميز بصراعات ضارية بين أنماط تفكير متعارضة تماماً. لقد قلنا من قبل إن بعض الفلاسفة يعتبرون الوجود ذا طابع روحاني. وتسمى وجهة النظر هذه **المثالية**. أما وجهة النظر المعارضة فتسمى **المادية**، ويقصد بها الفلسفة التي تقول إن كل الأشياء الحقيقية الفعلية تنشأ عن المادة وعن أسباب مادية ملموسة. كما كان للمادية أنصار كثيرون في القرن السابع عشر. وربما كان أوسعهم تأثيرا هو الفيلسوف الانجليزي **توماس هوبز** الذي كان يعتقد أن جميع الظواهر، بما فيها الإنسان والحيوان، لا تتألف إلا من جسيمات مادية، وأن وعي الإنسان ذاته، أو الروح، إنما ينشأ عن حركة جسيمات دقيقة في المخ.

ـ إنه يتفق إذن مع ما قاله ديموقريطس قبله بألفي عام.

ـ إننا نصادف كلا من **المثالية والمادية** على امتداد تاريخ الفلسفة بأكمله. ولكن من النادر أن يكون هذان المفهومان قد وجدا كلاهما بهذا الوضوح في وقت واحد كما وجدا في عصر الباروك. وكانت المادية تحصل على مدد مستمر من العلوم الجديدة. فقد أثبت نيوتن أن نفس قوانين الحركة تنطبق على الكون بأسره، وأن كل التغيرات الحادثة في العالم الطبيعي سواء فوق الأرض أو في الفضاء تفسر بمبادئ الجاذبية العامة وحركة الأجسام. إن كل شيء تحكمه إذن نفس القوانين الثابتة أو نفس الميكانيكا. يمكن إذن من حيث المبدأ حساب أي تغير في الطبيعة بدقة رياضية. وبذلك وضع نيوتن اللمسة الأخيرة فيما نسميه **التصور الآلي للعالم**.

ـ هل كان يتخيل العالم كآلة كبيرة؟

ـ بالضبط. ومن اللافت للنظر أن لا هوبز ولا نيوتن قد رأيا أي تناقض بين التصور الآلي للعالم والإيمان بالله. ولكن هذا لم يكن رأي الماديين في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر. فقد كتب عالم الفيزياء والفيلسوف الفرنسي

لامتري كتاباً في القرن الثامن عشر اسمه **الإنسان الآلة**. قال فيه كما «تملك الساق عضلات تسير بها، يملك المخ «عضلات« يفكر بها». وفي وقت لاحق، عبر عالم الرياضيات الفرنسي **لابلاس** عن رؤية آلية متطرفة بالفكرة التالية: «لو افترضنا أن هناك وعيا أدرك موقع جميع جسيمات المادة في لحظة معينة فلن يصبح هناك شيء مجهول بالنسبة له، فالمستقبل والماضي سيصبحان كلاهما ماثلين أمام عينيه». والمقصود بهذه الفكرة هو أن كل شيء يحدث مقرر ومقدر سلفا وفقا لقوانين صارمة. ويسمى هذا الأسلوب في التفكير **بالرؤية الحتمية**.

ـ هل معنى هذا أن الإنسان ليست لديه إرادة حرة.

ـ نعم، فهذه النظرة ترى أن كل شيء ثمرة لعمليات آلية حتى أفكارنا وأحلامنا. وقد زعم الماديون الألمان في القرن التاسع عشر أن علاقة الفكر بالمخ تشبه علاقة البول بالكليتين أوالعصارة الصفراوية بالكبد.

ـ ولكن البول والصفراء مادتان. أما الأفكار فليست شيئاً مادياً.

ـ إنك تثيرين هنا نقطة بالغة الأهمية. وسأحكي لك نكتة تعبر عن نفس الفكرة. كان رجل فضاء روسي يناقش ذات يوم جراح مخ روسيا عن الدين. وكان جراح المخ مسيحيا مؤمنا أما رجل الفضاء فلم يكن مؤمنا. فقال رجل الفضاء «لقد سافرت في الفضاء مرات عديدة ولكني لم أر ا لله أو الملائكة قط». فرد عليه جراح المخ قائلاً: «وقد أجريت عمليات كثيرة في أمخاخ شديدة الذكاء ولكني لم أر أي فكرة قط».

ـ ولكن هذا لا يثبت أن الأفكار غير موجودة.

ـ بالطبع، إلاأنه يؤكد أن الأفكار ليست من الأشياء التي يمكن تشريحها أو تجزئتها إلى أجزاء أبسط. فليس من السهل مثلاً إزالة وهم من الأوهام عن

طريق الجراحة. إنه أعمق، إذا جاز التعبير، من أن تصل إليه يد الجراحة. وقد أشار فيلسوف كبير من فلاسفة القرن السابع عشر يدعى **ليبنتز** إلى أن الفرق بين ما هو مادي وما هو روحي أن المادة يمكن بالتحديد تقسيمها إلى أشياء أصغر فأصغر، أما الروح فلا يمكن تقسيمها إلى نصفين.

ـ كلا بالطبع، فما هو نوع المشرط الذي سنستخدمه في ذلك؟

اكتفى ألبرتو بهز رأسه. وبعد برهة أشار إلى المائدة الموضوعة بينهما وقال:

ـ إن أعظم فلاسفة القرن السابع عشر هما ديكارت وسبينوزا. لقد اهتما بدورهما بمسائل مثل العلاقة بين «الروح» و«الجسد»، وعلينا الآن أن ندرس كلا منهما عن كثب.

ـ فلنبدأ فورا، ولكن إن لم ننته قبل السابعة يجب أن أكلم ماما في التليفون.

الفصل الثامن عشر

ديكارت

... أراد أن يزيل الانقاض

من موقع البناء...

نهض ألبرتو، ونزع المعطف الأحمر وألقاه على ظهر أحد الكراسي. ثم جلس مرة أخرى في ركن الأريكة.

ـ ولد **رينيه ديكارت** في عام ١٥٩٦ وعاش في عدد من البلدان الأوروبية في فترات متفرقة من حياته. وكانت تراوده منذ مقتبل شبابه رغبة قوية في التوصل إلى معرفة يقينية بطبيعة الإنسان والكون، فأقبل على دراسة الفلسفة ولكنه لم يخرج منها بنتيجة يطمئن اليها فتزايد إحساسه بوطأة جهله.

ـ مثل سقراط إذن؟

ـ نعم، بدرجة أو أخرى. ومثل سقراط أيضاً كان مقتنعا بأن المعرفة اليقينية لا يمكن الوصول إليها إلا بالعقل. فنحن لا نستيطع أن نثق بما تخبرنا إياه الكتب القديمة. بل نحن لا نستطيع أن نثق بما تقوله لنا حواسنا.

ـ كان هذا ما يقوله أفلاطون أيضاً. لقد كان يعتقد أن العقل وحده هو مايتيح لنا الوصول إلى المعرفة اليقينية.

ـ بالضبط. هناك خط نسب يبدأ بسقراط ويمر بأفلاطون فالقديس أوغسطين وصولا إلى ديكارت. فقد كانوا جميعا عقلانيين نموذجيين يؤمنون بأن العقل هو السبيل الوحيد إلى المعرفة. وبعد أن أجرى ديكارت دراسات واسعة ومتعمقة انتهى إلى نتيجة تقول إن معظم المعارف التي وصلتنا من

العصور الوسطى ليست بالضرورة معارف جديرة بالثقة. يمكنك أن تقارنيه بسقراط الذي لم يثق بآراء العامة التي كان يصادفها في ميدان السوق في أثينا. ما الذي ينبغي أن يفعله الإنسان إذن في هذه الحالة يا صوفيا؟ هل تستطيعين أن تدليني على ذلك؟

- عليه أن يحاول البحث بنفسه عن إجابات للأسئلة التي تشغله.

- بالضبط! لقد قرر ديكارت أن يطوف بأوروبا سعيا وراء الحكمة وقال: إن عليه أن يجدها داخل نفسه أو في «كتاب العالم الكبير». فالتحق بالجيش وتنقل معه في بعض مهامه العسكرية مما أتاح له أن يقضي فترات طويلة من الزمن في مختلف أنحاء أوروبا الوسطى. ثم أمضى بعد ذلك بضع سنوات في باريس ولكنه ما لبث أن شد الرحال في عام ١٦٢٩ إلى هولندا فأقام فيها نحو ٢٠ عاماً عاكفاً على كتاباته الرياضية والفلسفية. وفي عام ١٦٤٩ دعته الملكة كريستينا إلى السويد. غير أن إقامته في هذا البلد الذي أسماه «أرض الدببة والجليد والصخور» أصابته بالتهاب رئوي مات من جرائه في شتاء عام ١٦٥٠.

- لم يتجاوز عمره إذن ٥٤ عاماً عندما مات.

- نعم، ولكنه ترك تأثيراً هائلا على الفلسفة حتى بعد مماته. ويمكننا أن نقول دون مبالغة إن ديكارت هو مؤسس الفلسفة الحديثة. فبعد إعادة اكتشاف الإنسان والطبيعة في عصر النهضة في نشوة ألهبت العقول وسحرت الألباب ظهرت الحاجة إلى تجميع أفكار تلك الفترة وصياغتها في نظام فلسفي متماسك. وكان ديكارت هو من بنى نظاماً فلسفياً حقيقياً، ثم جاء بعده سبينوزا، وليبنتز، ولوك، وبيركلي، وهيوم، وكانط.

- ماذا تقصد بالنظام الفلسفي بالضبط؟

- أقصد فلسفة تبنى من مستوى الأساس حتى تنهض كبناء متكامل وتسعى إلى الإجابة عن جميع الأسئلة الفلسفية المحورية. في العصر اليوناني

القديم كان بناة النظم الفلسفية العظام همـا أفلاطـون وأرسـطو. وفي العصـور الوسطى جاء القديس توما الإكويني الذي حاول أن يبني جسـرا يربـط فلسـفة أرسـطو بـاللاهوت المسـيحي. ثـم جـاء عصـر النهضـة بـأخلاط متنـافرة مـن المعتقدات القديمة والجديدة عن الطبيعة والعلـم، وعـن الله والإنسـان. ولم تقـم الفلسفة ببذل أي محاولة لتنسيق الأفكار الجديدة في نظام فلسفي واضـح إلا في القرن السابع عشر، وكان ديكارت هو أول من قام بهذه المحاولة. فرسم بعمله الملامح الأولى لما سيصبح أهم مشروع فلسفي خلال الأجيال المقبلة. لقد كان شغله الشاغل هو ما نستطيع معرفته عن ثقة ويقـين أو، بعبـارة أخـرى، **كيفيـة الوصول إلى المعرفة اليقينية**. وكانت المسألة الأخرى التي اهتم بها هي **العلاقة بين الروح والجسد** وسوف تظل هاتان المسـألتان محـور المناقشـات الفلسـفية علـى امتداد السنوات المائة والخمسين التالية.

ـ لقد سبق زمنه إذن.

ـ كانت هاتان المسألتان تشغلان الأذهان في عصر ديكارت. ففيما يتعلـق بمسألة الوصول إلى المعرفة اليقينيـة، أعـرب كثـير مـن معاصريـه عـن ارتيـابهم الكامل في قـدرة الإنسـان علـى الوصـول إلى تلـك المعرفـة عـن طريـق التـأمل الفلسفي. لقد كانوا يرون أن علـى الإنسـان أن يسـلم بأنـه لـن يسـتطيع أن يعرف شيئا معرفة يقينية، غير أن ديكارت لم يقنع بهذا الاسـتنتاج. ولـو كـان قبل به لما أصبح فيلسوفاً حقيقياً. ويمكننـا هنـا أن نتبـين وجـه شـبه بينـه وبـين سقراط الذي لم يقبل بدوره ارتياب السوفسطائيين وشكهم. ومن جهة أخرى كانت العلوم الطبيعية الجديدة قد توصلت، في زمن ديكارت، إلى منهـج يتيـح الوصف اليقيني والدقيق للعمليات الطبيعية. فكان لا بد لديكـارت أن يتسـاءل عن إمكانية التوصل إلى «منهج» يتيح نفس القدر مـن اليقـين والدقـة في مجـال التفكير الفلسفي.

ـ هذا تساؤل منطقي.

ـ وكانت المسألة الثانية التي شغلت الأذهان في عصر ديكارت هي علاقة الروح بالجسد، إذ إن الفيزياء الجديدة أتاحت تفسير العمليات الفيزيائية الحادثة في الطبيعة، كحركة الأجسام مثلاً. فتزايدت أعداد المؤمنين برؤية ميكانيكية آلية للطبيعة. ولكن كلما رسخ التصور الآلي للعالم المادي أخذت مسألة العلاقة بين الروح والجسد تطرح نفسها بمزيد من الإلحاح. فحتى القرن السابع عشر أي حتى عصر ديكارت شاع النظر إلى الروح على أنها نوع من «نفس الحياة» يسري في كل الكائنات الحية. فكلمة الروح مشتقة من «الريح» وكلمة النفس مشتقة من «النفس» أو «التنفس». وكان أرسطو يعتقد أن الروح موجودة في كل مكان في الجسم لأنها «مبدأ الحياة»، ولذلك لا يمكننا أن نتصورها مستقلة عن الجسم الحي. ولذا تكلم عن النفس المغتذية أو النباتية، وعن النفس الحاسة أو الحيوانية. وظل هذا التصور سائدا حتى القرن السابع عشر حين قام الفلاسفة باستحداث انقسام جذري بين الروح والجسد. إذ أصبح من الممكن الآن تفسير حركة كل الأجسام المادية بما فيها جسم الإنسان أو جسم الحيوان بوصفها مجموعة من عمليات تحدث بطريقة ميكانيكية في تتابع آلي تلقائي أي بمعزل عن تدخل الروح. ليست الروح إذن جزءا من آلة الجسد كما تصور النظرة التي شاعت حتى ذلك الحين. فما الروح إذن؟ وكيف يمكن لشيء روحاني أن يستثير ويحرك عملية ميكانيكية آلية.

ـ إنها فكرة غ يبة بالفعل!

ـ ماذا تقصدين بذلك؟

ـ أقرر أن أرفع ذراعي فيرتفع. أو أقرر أن أركض خلف الأتوبيس وفي الثانية التالية تبدأ ساقاي في الحركة. أو أفكر في شيء محزن وفجأة أشرع في البكاء. لا بد أن هناك إذن صلة ما غامضة بين الجسم والوعي.

- هذه هي بالتحديد المشكلة التي أثارت تفكير ديكارت. لقد كان مقتنعا مثل أفلاطون بأن هناك انقساما حادا بين الروح والمادة. أما كيف يؤثر الذهن على الجسم أو الروح على الجسد فهو سؤال لم يقدم أفلاطون أية إجابة عليه.

- ولم أنجح أنا أيضاً في الوصول إلى أية إجابة. ولذا فإني أتوق لمعرفة كيف استطاع ديكارت حل هذه المسألة.

- فلنتتبع طريقة تفكيره.

أشار ألبرتو إلى الكتاب الموضوع على المائدة القائمة بينهما، وقال:

- لقد أثار ديكارت في كتابه **مقال في المنهج** مسألة المنهج الذي يجب أن يستخدمه الفيلسوف في حل أي مشكلة فلسفية. فالعلم كان لديه بالفعل منهج جديد...

- نعم هذا ما قلته من قبل.

- يقول ديكارت إننا لا نستطيع أن نقبل أي شيء على أنه صحيح ما لم نستطع أن ندركه إدراكا واضحا ومحددا. وهذا يتطلب تقسيم أي مشكلة مركبة إلى أكبر عدد ممكن من العناصر حتى نصل إلى أبسط الأفكار. يمكنك أن تقولي إننا يجب أن نزن كل فكرة ونقيسها، بنفس الطريقة التي أراد بها جاليليو قياس كل شيء وتحويل كل شيء لا يمكن قياسه إلى شيء يمكن قياسه. كان ديكارت يعتقد أن على الفلسفة أن تبدأ من البسيط إلى المركب. فتلك هي الطريقة الوحيدة لتكوين معرفة جديدة. وأخيرا يجب القيام بمراجعة شاملة وتمحيص مستمر للتحقق من عدم إغفال أية مسألة. وعندئذ، وعندئذ فقط، يصبح استخلاص النتيجة الفلسفية أمرا يسير المنال.

- كل هذا يبدو كأنه مسألة رياضية.

- نعم، كان ديكارت عالما في الرياضيات، ويعتبر مؤسس الهندسة التحليلية، كما أنه أضاف إسهامات هامة إلى علم الجبر. وأراد ديكارت أن يستخدم المنهج الرياضي في معالجة المسائل الفلسفية. وأن يثبت الحقائق

الفلسفية بنفس الطريقة التي يمكن بها إثبات أي نظرية رياضية. أي أنه أراد، بعبارة أخرى، أن يستخدم نفس الأداة التي نستعين بها عندما نتعامل مع الأرقام، أي العقل، لأن العقل وحده هو الكفيل بأن يقودنا إلى اليقين. فليس من الفطنة أن نثق بحواسنا أو نعول عليها. وقد رأينا من قبل أن ديكارت يتفق في هذه النقطة مع أفلاطون الذي لاحظ أيضاً أن الرياضيات والعلاقات العددية تقودنا إلى معرفة أصدق من التي تتيحها المعرفة التي ندركها بحواسنا.

- ولكن هل يمكن حل المشكلات الفلسفية بهذه الطريقة؟

- فلنعد إلى طريقة تفكير ديكارت. لقد كان يستهدف أن يصل إلى معرفة يقينية عن طبيعة الحياة، فبدأ بالتأكيد على أننا يجب أولا أن نشك في كل شيء. فهو لم يكن يريد أن يبني نظامه الفلسفي على الرمال.

- بالطبع. فلو انهار الأساس سيقع المبنى كله.

- بالضبط يا ابنتي. إلا أن ديكارت لم يقصد بالشك التردد المستمر والتأرجح المتصل في قبول فكرة من الأفكار، بل اعتبر الشك الخطوة الأولى الضرورية للتحقق من صحة أي فكرة معينة. فليس من المؤكد، في رأيه، أن نتقدم في سعينا الفلسفي بمجرد قراءة أفلاطون أو أرسطو وأخذ ما قاله أحدهما أو الآخر مأخذ الحقيقة المؤكدة. قد تزيد هذه القراءة في معرفتنا بالتاريخ ولكنها لن تزيد في معرفتنا بالعالم. فأهم شيء بالنسبة لديكارت كان أن يطرح جانبا جميع ما تعلمه، أو أن ينظف الساحة قبل أن يبدأ في بناء نظامه الفلسفي.

- أي أنه أراد أن يزيل الأنقاض من موقع البناء قبل أن يشيد بيته الجديد...

- بالضبط. فهو لم يرد أن يستخدم إلا مواد بناء جديدة كي يكون واثقا من أن بناءه الفكري الجديد سيكون متماسكا متينا. غير أن ديكارت مضى

بالشك إلى مدى أعمق. فقال إننا لا نستطيع أن نثق بما تقوله لنا حواسنا، فربما كانت تخدعنا.

- وكيف هذا؟

- عندما نحلم نشعر أننا نعيش تجربة حقيقية. فما الذي يفرق بين انطباعاتنا أثناء اليقظة عن انطباعاتنا أثناء الحلم؟ لقد كتب ديكارت «عندما أتأمل هذه المسألة، لا أجد صفة واحدة تميز تمييزا مؤكدا بين حالة اليقظة وحالة الحلم. فما السبيل إلى التأكد من أن الحياة ليست حلماً متصلاً؟ ».

- عندما عاد جيب إلى مغارته كان يتصور أنه حلم بأنه نام في سرير البارون.

- وعندما كان راقدا في سرير البارون، تصور أن حياته كفلاح فقير لم تكن إلا حلماً. وبنفس الطريقة انتهى ديكارت إلى الشك في كل شيء بصورة مطلقة. وما أكثر الفلاسفة الذين وصلوا قبله إلى هذه النقطة فتوقفوا ولم يكملوا المسير.

- إنهم لم يمضوا بعيدا إذن.

- إلا أن ديكارت حاول أن ينطلق من نقطة الصفر هذه. لقد شك في كل شيء، وكان شكه هذا هو الشيء الوحيد الذي كان متأكدا منه. ولكن عندئذ خطرت له هذه الفكرة: إن هناك حقيقة يقينية مؤكدة هي أنه يشك. وإذا كان يشك فلا بد أنه يفكر، وإذا كان يفكر فلا بد أنه كائن مفكر. أو كما قال هو نفسه: **أنا أفكر إذن فأنا موجود**.

- لست أرى في هذه النتيجة ما يثير الدهشة أو الانبهار.

- لكنها واضحة ومنطقية ومعقولة. ثم لاحظي هذا اليقين المدهش الذي يدرك به نفسه فجأة بوصفه كائنا مفكرا. وربما تذكرت الآن ما قاله أفلاطون من أن ما ندركه بعقلنا حقيقي أكثر مما ندركه بحواسنا. وكان هذا رأي ديكارت أيضاً. إنه لم يدرك أنه «كائن مفكر» فحسب، بل لقد أدرك في

الوقت نفسه أن هذا «الكائن المفكر» حقيقي أكثر من العالم المادي الذي ندركه بحواسنا. ولم يتوقف ديكارت هنا فهذه لم تكن إلا نقطة البداية في سعيه الفلسفي.

ـ وماذا كانت الخطوة التالية؟

ـ تساءل ديكارت بعد ذلك إن كان هناك أي شيء آخر يستطيع أن يدركه بنفس هذا الحدس اليقيني. ووصل إلى نتيجة تقول إن ذهنه يملك أيضاً فكرة واضحة ومحددة عن كائن كامل. وكانت هذه الفكرة موجودة دوما في ذهنه، ورأى ديكارت أن من البديهي ألا تكون فكرة من هذا النوع قد جاءته من تلقاء نفسها. وزعم بأن فكرة الكائن الكامل لا يمكنها أن تصدر عن ذهنه هو لأنه ذهن كائن ناقص غير كامل. إذن لا بد أن فكرة الكائن الكامل قد جاءت من هذا الكائن الكامل نفسه أو، بعبارة أخرى، من الله. كان وجود الله إذن حقيقة بديهية بالنسبة لديكارت شأنها شأن وجود الكائن المفكر.

ـ اعتقد أنه يتسرع الآن في الوصول إلى النتائج. لقد كان أكثر حذرا وتحوطا في البداية.

ـ معك حق في هذا يا صوفيا. وكثيرون قالوا إن هذه هي نقطة الضعف عنده. ولكنك استخدمت كلمة «نتيجة». والواقع إن المسألة لم تكن تتعلق بالبرهنة على شيء ما أو إثباته. كل ما كان يقصده ديكارت هو أننا نملك جميعا فكرة الكائن الكامل، وهذه الفكرة نفسها تفترض بالضرورة وجود هذا الكائن الكامل لأنه إن لم يكن موجودا فلن يكون كائنا كاملا. كما اننا ماكنا بقادرين، من جهة أخرى، على تخيل فكرة الكائن الكامل إذا كان هذا الكائن الكامل غير موجود. فلما كنا نحن كائنات ناقصة غير كاملة فإن فكرة الكمال لا يمكن أن تأتي منا. ورأى ديكارت أن فكرة الله فكرة فطرية طبعت فينا منذ الولادة كما يطبع الفنان إمضاءه على عمله الفني.

ـ ولكنني أملك فكرة « التمســافيل» (أي فكـرة كـائن خيـالي يجمـع بـين صفات التمساح وصفــات الفيـل) دون أن يعـني ذلـك أن التمسـافيل موجـود حقا.

ـ كان ديكارت سيرد عليـك قـائلا إن مفهـوم «التمسـافيل» لا يفـترض ضرورة وجـوده. أمـا مفهـوم الكـائن الكـامل فيفـترض ضـرورة وجـود هـذا الكائن. وكان ديكارت يرى أن هـذا أمـر يقيـني مؤكـد مثلمـا تفـترض فكـرة الدائرة أن جميع النقاط الواقعة على محيطها تبعد عن المركـز بنفـس المسـافة. لا يمكن تصور دائرة تفتقر إلى هذا الشرط. وبالمثل لا نستطيع الكـلام عـن كـائن كامل يفتقر إلى أهم الصفات كلها، ألا وهي الوجود.

ـ هذه طريقة غريبة حقا في التفكير.

ـ إنها بلا ريب نموذج للطريقة العقلانية في التفكـير. وقـد كـان ديكـارت يعتقد، مثَله مثل سقراط وأفلاطون، بأن هنالك صلة بين العقل والوجود.

ـ لقد استنتج حتى الآن أنه كائن مفكر وأن هناك كائنا كاملا.

ـ نعم، واتخذ ديكارت من هاتين الحقيقتين نقطة انطلاقـه ومضـى يواصـل بحثه الفلسفي. وقال إذا نظرنا إلى كل الأفكار التي نملكها عن الواقع الخـارجي كالشمس والقمر مثـلاً ربمـا تصورنـا، في غمـار الشـك، أنهـا مجـرد خيـالات وأوهام. لكن الواقع الخارجي له أيضاً صفات معينة يمكننا أن ندركها بـالعقل. وهذه هي العلاقات الرياضية، أو بعبارة أخرى، الصفـات الـتي يمكننـا قياسـها مثل الطول والعرض والارتفاع. إن هذه الصفات «الكميـة» واضحـة ومحـددة لذهني مثل الحقيقة التي تقول إني كائن مفكـر. أمـا الصفـات «الكيفيـة» مثـل اللون والرائحة والمذاق فهـي ترتبـط، مـن ناحيـة أخـرى، بمـا تدركـه حواسـنا وبالتالي فإنها لا تصف الواقع الخارجي وصفاً صادقاً.

ـ الطبيعة ليست حلماً إذن؟

ـ لا، وديكارت يعود في هذه النقطة مرة أخرى إلى فكرتنا عن الكائن الكامل. فعندما يدرك «عقلنا» شيئا ما بطريقة واضحة ومحددة كما هي الحال بالنسبة للعلاقات الرياضية القائمة في العالم الخارجي فلا بد أن يكون هذا الإدراك بالضرورة تعبيرا عن حقيقة واقعة فعلاً. لأن ا لله الكامل لا يمكن أن يخدعنا. «ضمانة ا لله» إذن هي التي تكفل، في رأي ديكارت، أن يكون كل ما ندركه «بعقلنا» متفقاً أيضاً مع حقيقة الواقع.

ـ لقد استنتج إذن أنه كائن مفكر، ثم أن ا لله موجود، ثم أن هناك واقعا خارجيا.

ـ إلا أن حقيقة الواقع الخارجي مختلفة اختلافا جوهريا عن حقيقة واقع الفكر. اذ أكد ديكارت أن هناك شكلين مختلفين للواقع أو أن هناك «جوهرين» مختلفين. الجوهر الأول هو **الفكر أو الروح**، والجوهر الآخر هو **المادة** أو «**الامتداد**» كما أطلق عليها. إن الروح أو النفس وعي خالص، فهي لا تشغل حيزا في المكان ولذا لا يمكن تقسيمها إلى أجزاء أصغر. لكن المادة هي امتداد خالص، فهي تشغل حيزا في المكان ولذا يمكن دائما تقسيمها إلى أجزاء أصغر فأصغر غير أن المادة لا تملك وعيا. وقال ديكارت إن كلا الجوهرين يصدران عن ا لله، لأن ا لله وحده هو الذي يوجد في استقلال عن أي شيء آخر. ولكن برغم أن الفكر والمادة يصدران كلاهما عن ا لله فليست هناك صلة بين كل جوهر منهما. فالفكر مستقل استقلالاً تماماً عن المادة، كما أن العمليات المادية مستقلة استقلالاً تاماً عن التفكير.

ـ لقد قسم إذن خليقة ا لله إلى قسمين.

ـ بالضبط. ونحن نقول إن ديكارت **ثنائي**، والثنائية هي الفصل القاطع بين الواقع الفكري والواقع المادي. فمثلاً الإنسان وحده هو الذي يملك روحا، أما الحيوانات فتنتمي إلى الواقع المادي، لأن حياتها وحركتها تخضعان للقوانين الميكانيكية أو الآلية. وكان ديكارت يعتبر أن الحيوان آلة معقدة. فقد كان ينظر إلى الواقع المادي الخارجي نظرة آلية تماماً، مثل الفلاسفة الماديين.

ـ إني أشك كثيراً في أن يكون هرمس مجرد آلة مركبة. من المؤكد أن ديكارت لم يكن يحب الحيوانات كثيراً. ولكن ماذا عنا نحن؟ هل نحن أيضاً كائنات آلية معقدة؟

ـ نعم ولا. لقد استنتج ديكارت أن الإنسان مخلوق ثنائي بما أنه يفكر من جهة ويشغل حيزا في المكان من جهة أخرى. الإنسان يملك إذن روحا كما يملك جسما ماديا يتصف بالامتداد. وكان القديس أوغسطين والقديس توما الإكويني قد قالا شيئا مماثلا وهو ان الإنسان يملك جسدا مثل الحيوانات وروحا مثل الملائكة. ويرى ديكارت أن جسم الإنسان آلة متقنة الصنع. لكن الإنسان يملك أيضاً روحاً تتمتع بحيوية مستقلة عن الجسم. والعمليات البدنية التي تحدث في الجسم لا تتمتع بأي حرية بل تخضع لقوانينها الخاصة. لكن مانفكر فيه بعقلنا لا يحدث في الجسم، إنه يحدث في الروح أو النفس، وهي مستقلة استقلالاً تاماً عن الواقع المادي. ويجب أن أضيف بالمناسبة أن ديكارت لم يستبعد احتمال أن تكون الحيوانات قادرة على التفكير. ولكنها إن كانت تتمتع بهذه الملكة فيجب أن تنطبق عليها أيضاً نفس الثنائية التي تفصل بين الفكر من جهة والمادة أو الامتداد من جهة أخرى.

ـ لقد تحدثنا من قبل عن هذه الثنائية: إذا قررت أن أركض خلف الأتوبيس فإن «الآلة» ستأخذ في الجري. فإن لم ألحق بالأتوبيس، ستشرع «الروح» في البكاء.

ـ وحتى ديكارت لم يكن بوسعه أن ينكر أن هناك تفاعلا مستمرا بين الروح والجسم. وكان يعتقد أن الروح ترتبط بالمخ عن طريق عضو خاص موجود في المخ أسماه الغدة الصنوبرية، حيث يحدث تفاعل متصل بين «الروح» و «المادة». ولذا فإن الروح يمكن أن تتأثر باستمرار بالمشاعر والانفعالات المرتبطة باحتياجات الجسم. إلا أن الروح تستطيع أيضاً أن تنفصل عن الدوافع «الوضيعة» وأن تتمتع بحيوية مستقلة عن الجسم. فالهدف هو أن يمسك العقل بدفة القياد. فحتى لو كنت أعاني آلاما مبرحة في معدتي

فإن مجموع زوايا المثلث سيظل دوماً ١٨٠ درجة. يملك الإنسان إذن القدرة على التسامي على احتياجات الجسد والتصرف بشكل عقلاني. وبهذا المعنى تعد الروح أرفع مكانة من الجسم. إن الساق قد تشيخ وتضعف، والظهر قد يتداعى وينحني، والأسنان قد تتلف وتسقط، لكن مجموع ٢ + ٢ سيظل ٤. فالعقل لا يضعف أو ينحني مثل الجسم. ويرى ديكارت أن العقل هو نفسه الروح. أما المشاعر والانفعالات، مثل الرغبة والكراهية، فإنها أشد ارتباطا بوظائفنا البدنية، وبالواقع المادي بالتالي.

ـ لا أستطيع أن أفهم كيف قارن ديكارت الجسم بآلة معقدة أو بإنسان آلي.

ـ كان الناس مولعين في زمن ديكارت بالآلات وبميكانيكا الساعات، التي توحي بأن لديها القدرة على العمل من تلقاء ذاتها. إن عبارة «الإنسان الآلي» تعني بالتحديد شيئا يتحرك من تلقاء ذاته كأنما يتمتع بقدرة مستقلة. وهذا ليس إلا وهما بطبيعة الحال. إن الساعة الفلكية مثلاً قد صنعها وضبطها وملأها بعض الصناع المهرة. فاذا كانت مهارة الإنسان قد ابدعت هذا النوع من الابتكارات البارعة التي تبدو كأنما هي ذاتية الحركة. فهل يستعصي على الله أن يخلق جسم إنسان أو حيوان استنادا إلى القوانين الميكانيكية الآلية؟

ـ يكثر الحديث في هذه الأيام عن «الذكاء الصناعي».

ـ نعم، هذا هو الإنسان الآلي لعصرنا. لقد صنعنا آلات قد تجعلنا نتصور أحيانا أنها تملك بالفعل ذكاء خاصا بها. ومن المؤكد أن هذا النوع من الآلات كان سيفزع ديكارت وربما جعله يشك في أن عقل الإنسان حر ومستقل كما كان يفترض. وهناك من الفلاسفة من يعتقدون أن قدر الحرية الذي يتمتع به الإنسان في حياته الروحية لا يزيد على قدر الحرية الذي يتمتع به إزاء العمليات الفسيولوجية التي تحدث داخل جسمه. من المؤكد أن روح الإنسان أكثر تعقيدا بما لا يقاس من أي برنامج معلومات من برامج الحاسب

الآلي، غير أن بعض المفكرين يعتقدون أننا نفتقر، من حيث المبدأ، إلى الحرية مثلنا مثل برامج المعلومات هذه. ولكن انتظري يا صوفيا سأريك شيئا.

وأشار ألبرتو إلى مكتب واسع في الجهة الأخرى من الغرفة و ضع عليه حاسب آلي صغير. ونهض ألبرتو فتبعته صوفيا وبدأ يدير الجهاز.

ظهر في أعلى الشاشة حرف C فكتب ألبرتو كلمة «ليلى»، وقال لصوفيا:

ـ هذا برنامج محادثة متقدم.

وسرعان ما ظهر على الشاشة نص يقول:

«مرحبا، أنا اسمي ليلى. هل تجلسين في وضع مريح؟»

كتبت صوفيا ثلاثة حروف:

«نعم»، كتبتها حتى قبل أن تكون قد جلست على الكرسي الذي أسرع ألبرتو بإحضاره لها.

وظهرت على الشاشة عبارة «ما اسمك».

وكتبت صوفيا «صوفيا أموندسن». فرد الحاسب الآلي:

«٣ ممر النرجس. يسعدني أن ألتقي بك يا صوفيا. هل أنت سعيدة لأنك ستحتفلين قريبا بعيد ميلادك الخامس عشر؟».

جفلت صوفيا، ولكن ألبرتو ربت على كتفها مطمئناً وقال:

ـ لقد أخبرت «ليلى» باسمك وعنوانك وتاريخ ميلادك فمن الظريف الإلمام مقدما ببعض المعلومات عن الصديق الجديد قبل الالتقاء به.

وكتبت صوفيا «إلى حد ما».

«هل أنت على ما يرام يا صوفيا. أرجوك أن تحاولي الكلام بجمل كاملة».

«شكرا. أنا على خير ما يرام. هل أستطيع أن أسألك شيئا؟»

«يسرني أنك بخير. أرجوك اسألي ما تريدين.»

وكتبت صوفيا «ما عمرك؟»

«لقد صممت في مدينة أطلانطا الامريكية في ٨ أغسطس (آب) ١٩٨٨، ولكني ترجمت إلى اللغة النرويجية في كلية الهندسة النرويجية في ٨ مارس(آذار) ١٩٩٠».

«تحفة!»

«لقد رجوتك أن تتكلمي بجمل كاملة».

«لقد قلت إنك تحفة!»

«لا أفهم قصدك. إن التحفة شيء ثمين يوضع في المتاحف».

«أقصد أنك رائعة كأنك تحفة».

«شكرا! هل تعرفين متى أنشئ متحف المدينة؟»

«لا أعرف»

«إن عدم المعرفة يعد، بصفة عامة، خطوة على طريق المعرفة.»

«من المؤكد أن سقراط كان سيقول نفس الشيء. وكذلك ديكارت».

«سقراط فيلسوف يوناني عاش من عام ٤٧٠ إلى عام ٣٩٩ قبل الميلاد.

إذا أردت معرفة المزيد، اضغطي على المفتاح F7 . أما ديكارت ففيلسوف فرنسي عاش من عام ١٥٩٦ حتى عام ١٦٥٠. إذا أردت معرفة المزيد، اضغطي على المفتاح F7».

«شكرا، إني أكتفي بهذا القدر. هل لي أن أسألك شيئا آخر؟»

«يسعدني أنك تكتفين بهذا القدر. أرجوك اطرحي سؤالك!»

أخذ ألبرتو يراقب هذا المشهد سعيدا مبتسما بينما كتبت صوفيا:

«من هي هيلد مولر كناج؟»

«هيلد مولر كناج فتاة تعيش في ليلساند، وهي من عمر صوفيا أموندسن ضبط».

«وكيف عرفت ذلك؟»

«وجدت هذه المعلومة في الاسطوانة الصلبة للحاسب الآلي».

وضع ألبرتو يده على كتف صوفيا وقال:

ـ لقد زودت برنامج البيانات بالمعلومات القليلة التي نعرفها عن هيلد.

وكتبت صوفيا: «هل تعرفين شيئا آخر عن هيلد؟»

«والد هيلد يعمل مراقبا للأمم المتحدة في لبنان، ويرسل باستمرار بطاقات ـدية إلى ابنته».

«أريدك أن تعثري عليه!»

«لا أستطيع. إنه غير مدرج في ملفاتي وأنا غير متصلة بقواعد بيانات ـرى».

«لقد قلت لك ابحثي عنه!!!!!»

«هل أنت غاضبة يا صوفيا؟ إن كل علامات التعجب هذه دليل على ـاعر عنيفة».

«أريد أن أتحدث مع والد هيلد؟»

«إنك تجدين صعوبة في التحكم في انفعالاتك. إذا أردت أن تتكلمي عن ـلتك، اضغطي على المفتاح F9».

ربت ألبرتو على كتف صوفيا مرة أخرى وقال:

ـ الحق معها يا صوفيا. إنها ليست كرة بلور تستطلع الغيب. فليلى التي ـلبينها ليست إلا برنامج معلومات.

وكتبت صوفيا «اخرسي!»

«كما تريدين يا صوفيا. إن تعارفنا لم يستمر سوى ١٣ دقيقة و٥٢ ثانية. سأتذكر كل ما قلناه. سأنهي البرنامج الآن».

ومرة أخرى ظهر حرف C على الشاشة.

وقال ألبرتو:

ـ هيا نجلس معا الآن لنسأنف حديثنا.

ولكن صوفيا كانت قد ضغطت بالفعل على بعض المفاتيح الأخرى، فكتبت «كناج».

وسرعان ما ظهرت على الشاشة العبارة التالية:

«ها أنا ذا».

كان ألبرتو هو الذي جفل هذه المرة. وكتبت صوفيا:

«من أنت؟»

«الضابط ألبرت كناج في خدمتك. إني آت من لبنان مباشرة. ما هي أوامرك؟»

تنهد ألبرتو وقال:

ـ لم أر شيئا كهذا من قبل! لقد نجح في التسلل إلى الاسطوانة الصلبة للحاسب الآلي!

وأشار إلى صوفيا بأن تنهض وجلس مكانها أمام الجهاز وكتب:

«كيف نجحت في التسلل إلى حاسبي الشخصي؟»

«إنها حيلة بسيطة يا زميلي العزيز. إني أظهر في أي مكان أشاء».

«إنك فيروس لعين من فيروسات الحاسب الآلي!».

«هدىء من روعك يا صاحبي! أنا هنا حقا على هيئة فيروس إلا ان مهمة هذا الفيروس الوحيدة هي تقديم تهنئة خاصة. هل أستطيع أن أبعث بهذه التهنئة الخاصة؟»

«لا شكرا، لقد وصلنا منها ما يكفي ويزيد».

«ولكني سأكون سريعا: **كل هذا من أجلك يا عزيزتي هيلد. مرة أخرى كل سنة وأنت طيبة. أرجو أن تسامحيني لظهوري في هذه الظروف، ولكني أردت أن تصحبك تهنئتي بعيد ميلادك أينما ذهبت. مع تحيات والدك الذي يشتاق لأن يحتضنك ويدور بك في الهواء**».

وقبل أن يهم ألبرتو بكتابة شيء آخر ظهر الحرف C مرة أخرى على الشاشة.

وكتب ألبرتو «كناج»، فظهرت المعلومات التالية على الشاشة:

كناج لبنان	١٤٧٦٤٣	١٩٩٠/٦/١٥	١٢:٤٧
كناج ساند	٣٢٦٤٣٩	١٩٩٠/٦/٢٣	٢٢:٣٤

فكتب ألبرتو «امسح كناج»، وأغلق الجهاز وقال:

ـ أعتقد أننا مسحناه الآن من البرنامج. ولكن من المستحيل أن نقول أين سيظهر في المرة القادمة.

وظل ألبرتو لحظة صامتا يتطلع إلى الشاشة ثم قال:

ـ أسوأ ما في الأمر هو اسمه! ألبرت كناج...

عندئذ فقط لاحظت صوفيا التشابه بين الاسمين ألبرت كناج وألبرتو كونكس. وكان ألبرتو شديد الانزعاج فلم تجرؤ صوفيا على التعليق. ومضيا في هدوء ليأخذ كل منهما مكانه من جديد.

الفصل التاسع عشر

سـبينـوزا

.. إن الله ليس محرك عرائس...

جلسا صامتين فترة طالت. ثم قطعت صوفيا الصمت محاولة أن تصرف ألبرتو عما أزعجه فسألته:

ـ لا بد أن ديكارت كان شخصا من طراز خاص. فهل أصبح فيلسوفا مشهورا؟

أخذ ألبرتو نفسا عميقا قبل أن يجيب:

ـ كان له نفوذ واسع. وكان لأفكاره تأثير حاسم على فيلسوف آخر هو الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا، الذي عاش من عام ١٦٣٢ حتى عام ١٦٧٧.

ـ وهل ستكلمني عنه الآن؟

ـ هذا ما كنت أنتويه، ولن نجعل «الاستفزازات العسكرية» تغير خطتنا.

ـ كلي آذان صاغية كما يقولون.

ـ كان سبينوزا ينتمي إلى الطائفة اليهودية في أمستردام ولكنها اتهمته بالهرطقة ونبذته من صفوفها. ومن النادر أن يكون فيلسوف من فلاسفة العصر الحديث قد لاقى ما واجهه هذا الرجل من إهانة وما تعرض له من ملاحقة. وقد وصلت هذه الملاحقة إلى حد الإقدام على محاولة لاغتياله. وكل ذلك لأنه انتقد التفسير الرسمي للدين. فقد كان سبينوزا يعتقد أن ما يتيح للمسيحية واليهودية أن يستمرا في البقاء ليس سوى تحجر العقائد الجامدة

والطقوس السطحية. وكان هو أول من طبق منهج النقد التاريخي في تفسير الكتاب المقدس.

ـ هذه مسألة تحتاج إلى شرح.

ـ قال سبينوزا إننا يجب أن نضع في اعتبارنا على الدوام، ونحن نقرأ الكتاب المقدس، الفترة التي كتب فيها. وقد أظهرت تلك «القراءة النقدية» التي قام بها سبينوزا عددا من التناقضات بين النصوص المختلفة. ولذلك أنكر سبينوزا أن يكون الله قد أوحى الكتاب المقدس بجميع تفاصيله، ولكنه استشف وراء تناقضات الوحي المسطور في الكتاب المقدس رسالة المسيح، الذي يمكن اعتباره الناطق بوحي الله الفطري المطبوع في القلوب والذي جاء ليحرر الناس من الجمود العقائدي لليهودية ويدعو إلى «دين العقل» الذي يضع المحبة في مكانة أسمى من أي قيمة أخرى. وقد فسر سبينوزا هذه المحبة بأنها محبة الله ومحبة الإنسان. ولكن المسيحية سرعان ما وقعت بدورها في الجمود العقائدي وممارسة الطقوس السطحية.

ـ ليست هذه الأفكار مما يسهل قبوله لا في الكنيسة المسيحية ولا في المعبد اليهودي.

ـ ولذلك تكاثرت الاحتجاجات على سبينوزا حتى أن أسرته تخلت عنه بل حاولت أن تحرمه من الميراث بدعوى هرطقته. ومن المفارقات أن يقع سبينوزا ضحية التعصب وهو الذي كان من أصلب المدافعين عن حرية التعبير والتسامح الديني. وقد أجبرته المعارضة التي واجهها من جميع الجهات على أن يعيش حياة منعزلة كرسها كلية للتأمل الفلسفي. وكان يكسب رزقه المحدود بصقل زجاج النظارات التي نجحت في اقتناء بعض منها.

ـ شيء مدهش حقا!

ـ وربما رأينا في تكسبه من صقل زجاج النظارات دلالة رمزية. فمهمة الفيلسوف هي مساعدة الناس على رؤية الحياة من منظور جديد. ومن الدعائم الرئيسية التي قامت عليها فلسفة سبينوزا «رؤية الأشياء من منظور الأبدية».

ـ منظور الأبدية؟

ـ نعم يا صوفيا. هل تستطيعين تخيل حياتك في سياق كوني؟ يكفي أن تغمضي عينيك الآن وأن تستحضري في خيالك صورة حياتك هنا في هذه اللحظة...

ـ... ليس هذا أمرا سهلا...

ـ... ثم تذكري أنك لا تعيشين إلا جزءا ضئيلا من حياة الكون. أنت تنتمين إلى شيء أكبر منك كثيراً.

ـ أعتقد أني فهمت قصدك...

ـ هل تستطيعين أن تشعري بذلك أيضاً؟ هل تستطيعين أن تدركي الطبيعة كلها في لحظة واحدة، الكون بأسره في لمحة خاطفة؟

ـ أشك في هذا. ربما كنت أحتاج لعدسة خاصة.

ـ أنا لا أقصد فقط الفضاء غير المحدود. بل أقصد أيضاً الزمن اللانهائي. تخيلي مثلاً أنه ذات يوم، منذ ثلاثين ألف عام، كان يعيش في وادي نهر الراين صبي صغير. لقد كان جزءا ضئيلا من الطبيعة، ارتعاشة رقيقة فوق سطح بحر لا نهائي. أنت أيضاً يا صوفيا تعيشين جزءا ضئيلا من حياة الطبيعة الطويلة العريضة. لا فرق بينك وبين ذلك الصبي.

ـ باستثناء أني أعيش الآن.

ـ نعم، وهذا بالتحديد ما أردتك أن تتصوريه. فمن ستكونين بعد ثلاثين ألف عام؟

ـ وهل تلك هي أفكاره التي أتهم عليها بالهرطقة؟

ـ ليس بالضبط... لقد أنكر سبينوزا أن يوجد شيء ما خارج الطبيعة. لكن ذلك لم يقده إلى انكار وجود الله، فقد كان يرى الله في كل الموجودات ويرى كل الموجودات في الله. أي أنه ساوى بين الله والطبيعة.

ـ هل كان مؤمنا إذن بمذهب وحدة الوجود؟

ـ نعم. إن سبينوزا كان يرى أن الله لم يخلق العالم كي يظل خارجه. كلا، إن الله هو العالم. وقد عبّر سبينوزا أحيانا عن هذه الفكرة بطريقة أخرى فقال إن العالم موجود في الله. وهو في هذا يستشهد بما قاله القديس بولس لأهل أثينا على ربوة أريوباغوس: «نحن فيه نحيا ونتحرك ونوجد». ولكن فلنتابع منهج سبينوزا نفسه في التفكير. إن أهم كتبه يسمى **الأخلاق مبرهنة وفقا للنظام الهندسي**.

ـ الأخلاق... والنظام الهندسي؟

ـ ربما كان لهذا العنوان وقع غريب على آذاننا. إن الأخلاق هي فرع من فروع الفلسفة يعنى بدراسة السلوك الإنساني، أو السلوك الأخلاقي الذي يتيح للإنسان أن يحيا حياة سعيدة. وهذا أيضاً ما نقصده عندما نتكلم عن الأخلاق لدى سقراط أو أرسطو مثلاً. أما اليوم فإن الأخلاق قد اختزلت تقريبا إلى مجرد مجموعة من القواعد التي ينبغي مراعاتها تجنبا لإزعاج الآخرين.

ـ وهل غاب المعنى الحقيقي لفكرة الاهتمام بالسعادة الشخصية؟

ـ نعم، لقد توارى إلى حد ما الفهم الفلسفي لفكرة السعادة الشخصية. إلا أننا يجب أن نفهم من كلمة الأخلاق لدى سبينوزا فن العيش أو السلوك الأخلاقي.

ـ ولكن حتى مع ذلك... فن العيش مبرهن هندسيا؟

ـ إن المنهج الهندسي يشير إلى المصطلحات التي استخدمها في صياغاته. لعلك تتذكرين أن ديكارت أراد أيضاً أن يستخدم المنهج الرياضي في التأمل الفلسفي. وكان يعني بذلك شكلا من أشكال التأمل الفلسفي يقوم على

استنتاجات منطقية دقيقة صارمة. وكان سبينوزا ينتمي إلى هذا التيار العقلاني نفسه. لقد أراد، في كتابه عن الأخلاق، أن يبرهن على أن حياة الإنسان خاضعة لقوانين الطبيعة. ولذلك يجب علينا أن نتحرر من سطوة مشاعرنا وانفعالاتنا، فبذلك، وبذلك فقط، يمكننا أن نعرف السكينة والسعادة.

ـ ولكننا لا نخضع لقوانين الطبيعة وحدها...

ـ ليست المسألة بهذه البساطة ففلسفة سبينوزا فلسفة مركبة. ولذلك يجدر بنا أن نأخذها جزءاً جزءاً. لعلك تتذكرين أن ديكارت كان يعتقد أن الواقع يتألف من جوهرين منفصلين تماماً هما الفكر والامتداد (أو المادة).

ـ وكيف أنسى هذا وقد تحدثنا عنه منذ قليل؟

ـ تعنى كلمة «جوهر» «ما يتألف منه شيء ما»، أو «قوام شيء ما»، أو «ما يمكن ان يختزل اليه شيء ما». وقد تكلم ديكارت عن اثنين من هذه الجواهر، فكل شيء لديه هو إما فكر وإما امتداد.

ـ لا أحتاج لأن تكرر ذلك مرة أخرى...

ـ إلا أن سبينوزا قد رفض هذا التقسيم. إذ كان يعتقد أن هناك جوهراً واحداً فحسب. إن كل الموجودات يمكن إرجاعها أو اختزالها إلى شيء واحد أطلق عليه اسم الجوهر. كما أطلق عليه أحيانا اسم ا لله أو الطبيعة. وهكذا فإن سبينوزا لا يتبنى الرؤية الثنائية للواقع التي كان يؤمن بها ديكارت. ولذلك نقول إن سبينوزا واحدي. أي أنه يرجع الطبيعة وكل الموجودات إلى جوهر واحد.

ـ هذان موقفان متعارضان تماماً!

ـ غير أن الفرق بين ديكارت وسبينوزا ليس واسعا كما زعم البعض. فقد أوضح ديكارت أيضاً أن ا لله وحده هو الذي يوجد بذاته أي ان ا لله هو الكائن الوحيد الذي لا يعتمد في وجوده على موجود آخر. ونظرة سبينوزا لا

تبتعد عن رؤية ديكارت وعـن التصـور اليهـودي والمسيحي للعـالم إلا عندمـا يعادلُ سبينوزا أو يوحد بين الله والطبيعة، أو بين الله والخليقة.

ـ هو يرى إذن أن الطبيعة هي الله، هذه هي خلاصة رأيه.

ـ ولكن سبينوزا عندما يستخدم كلمة «الطبيعة»، لا يقصد فقـط الطبيعـة الممتدة إنه يقصد بالطبيعة أو بالجوهر أو بالله، كل ما هو موجود، بما في ذلك كل الأشياء الروحية.

ـ تقصد كلا من الفكر والامتداد.

ـ نعم تماماً يا صوفيا! ويرى سبينوزا أننا نحن البشر ندرك سمتين أو شكلين يتجلى فيهمـا الله. وأطلـق سـبينوزا علـى هـاتين السـمتين **صفـتي الله**. وهاتـان الصفتان تماثلان الفكر والامتداد عند ديكارت. إن الله أو الطبيعـة يتجلـى إمـا على هيئة فكر وإما على هيئة امتداد. وربما كان لله صفـات أخـرى لا حصـر لها غير الفكر والامتداد، ولكن هاتين الصفتين هما وحدهما ما يعرفه الإنسان.

ـ أليست هذه طريقة معقدة للتعبير عن فكرته.

ـ نعم إن الإنسان يكاد يحتاج إلى مطرقة وإزميل ليستخرج المعاني الكامنـة وراء لغة سبينوزا. لكن الجزاء أننا سنجد في النهاية فكرا في نقاء الماس وتألقه.

ـ لقد شوقتني وأثرت فضولي!

ـ إن كل شيء في الطبيعة إذن هو إما فكر وإما امتداد. إن مختلف الظواهر التي نصادفها في حياتنا اليومية سـواء كـانت زهـرة مثـلاً أو قصيـدة عـن هـذه الزهرة ليست إلا أحوالا مختلفة تتجلى فيها صفة الفكـر أو صفـة الامتـداد. إن الجوهر، أو الله أو الطبيعة، يتجلى في **أحوال** مختلفة. فالزهرة هـي حـال لصفـة الامتداد، والقصيدة حال لصفة الفكر. ولكـن كليهمـا تعبـير عـن الجوهـر، أو الله، أو الطبيعة.

ـ ولماذا كل هذا التعقيد؟

ـ إن المسألة ليست معقدة كما تبدو، ربما كانت لغته هي الغامضة بعض الشيء.

ـ بعض الشيء!

ـ إن وراء صياغاته الجامدة الصارمة تكمن حقيقة رائعة، حقيقة تبلغ من البساطة حدا يجعل لغتنا اليومية تعجز عن وصفها.

ـ أنا أفضل من جهتي اللغة اليومية التي اعتدت عليها.

ـ عظيم. فلأبدأ إذن بك أنت. عندما تشعرين بألم في معدتك من الذي يشعر بالألم؟

ـ لقد قلت بنفسك: أنا بالطبع!

ـ عظيم. وعندما تتذكرين بعد فترة من الزمن أنك شعرت ذات مرة بألم في معدتك، فمن الذي يتذكر؟

ـ أنا أيضاً بالطبع!

ـ أنت إذن شخص واحد يشعر بألم مادي في معدته في لحظة ثم تتذكرين هذا الألم بفكرك في لحظة أخرى. وبالمثل قال سبينوزا إن كل الموجودات المادية التي تحيط بنا مظهر من مظاهر الله أو الطبيعة. ويصدق نفس الشيء على كل الأفكار التي نفكر فيها فهي أيضاً أفكار الله أو الطبيعة، لأن كل شيء يصدر عن جوهر واحد. هناك إله واحد، أو طبيعة واحدة، أو جوهر واحد.

ـ ولكن عندما أفكر في شيء فإني أنا من يقوم بالتفكير. وعندما أتحرك فإني أنا من يقوم بالحركة. فلماذا تقحم الله في كل هذا؟

ـ يعجبني إحساسك بالمسؤولية عن تصرفاتك. ولكن من أنت؟ أنت صوفيا أموندسن بالطبع، غير أنك أيضاً تعبير عن شيء أكبر كثيراً. يمكنك إذا شئت أن تقولي إنك تفكرين أو إنك تسيرين، ولكن ألا تستطيعين أن تقولي

أيضاً إن الطبيعة هي التي تفكر أو تتحرك من خلالك؟ إن الأمر يتوقف في الواقع على العدسة التي تختارين النظر من خلالها.

ـ هل تعني أني لا أستطيع أن أقرر ما أفعله؟

ـ نعم ولا. قد يكون من حقك أن تحركي إبهامك كما تريدين. ولكن إبهامك لا يستطيع أن يتحرك إلا وفقا لطبيعته. إنه لا يستطيع أن يقفز من يدك ويرقص في الغرفة. وبالمثل، أنت لك أيضاً مكانك في بنية الوجود، يا ابنتي. أنت صوفيا، ولكنك أيضاً إصبع في جسم الطبيعة أوا لله.

ـ هل ا لله إذن هو الذي يقرر كل ما أفعله؟

ـ أو الطبيعة، أو قوانين الطبيعة. لقد كان سبينوزا يعتقد أن ا لله أو قوانين الطبيعة هو العلة الباطنية أو الداخلية لكل شيء يحدث. إنه ليس علة خارجية، لأن ا لله لا يتجلى إلا من خلال قوانين الطبيعة ومن خلال هذه القوانين وحدها.

ـ لست واثقة بأني أرى هذا الفرق بوضوح.

ـ إن ا لله ليس محرك عرائس يجذب جميع الخيوط ويتحكم في كل ما يحدث. إن محرك العرائس الحقيقي يتحكم في العرائس من الخارج ولذا يعتبر «العلة الخارجية» لحركة العرائس. لكن ا لله لا يتحكم في العالم بهذه الطريقة. إنه يحكم العالم من خلال القوانين الطبيعية. إذن ا لله، أو الطبيعة، هو «العلة الباطنية» لكل شيء يحدث. وهذا يعني أن كل ما يحدث في عالم الطبيعة المادي إنما يحدث وفقا لمقتضيات الضرورة. لقد كان سبينوزا يعتبر أن مبدأ الحتمية هو الذي يوجه العالم المادي أو عالم الطبيعة.

ـ يبدو لي أنك قلت شيئا مماثلا من قبل.

ـ لعلك تفكرين في الرواقيين. فقد زعموا أيضاً أن كل شيء يحدث بحكم الضرورة. ولذلك كان من المهم مواجهة كل ما يقع «بسكينة رواقية» وعدم

الخضوع للمشاعر والانفعالات، وكان هذا باختصار هو مفهوم الأخلاق أيضاً عند سبينوزا.

- اعتقد أني فهمت قصدك، ولكني ما زلت غير مرتاحة لفكرة أني لا أستطيع أن أقرر بنفسي ما أفعله.

- فلنعد إذن إلى الصبي الصغير الذي عاش في العصر الحجري من ثلاثين ألف عام. لقد أخذ يتعلم شيئا فشيئا استخدام الرمح لاصطياد الحيوانات البرية، ثم أحب امرأة كو ن معها أسرة وأنجب منها أولاده، ومن المؤكد أنه كان يعبد آلهة قبيلته هل تعتقدين حقا أنه قرر أن يفعل كل ذلك بنفسه؟

- لست أدري.

- أو تخيلي أسدا في افريقيا. هل تعتقدين أنه قرر أن يعيش حياة وحش مفترس أو أنه اختار أن يكون من أكلة اللحوم؟ هل هذا هو السبب الذي يجعله يفترس غزالة عرجاء؟ هل كان يستطيع أن يقرر بدلا من ذلك أن يصبح نباتيا؟

- لا، إن الأسد أسير طبيعته.

- تقصدين قوانين الطبيعة. وأنت أيضاً يا صوفيا تطيعين قوانين الطبيعة لأنك جزء منها تستطيعين بطبيعة الحال أن تستعيني بديكارت وتقولي إن الأسد حيوان وليس كائنا إنسانيا يملك روحا ويتمتع بالقدرة على التفكير. ولكن حاولي أن تتخيلي رضيعة ولدت لتوها: إنها تنطلق في الصراخ وإن لم يقدم لها اللبن ستقوم بمص إصبعها هل تعتقدين أن هذه الرضيعة لها إرادة حرة؟

- لا

- متى تمتلك إذن هذه الطفلة إرادتها الحرة؟ عندما تبلغ سنتين ستبدأ في التجول في كل أنحاء البيت وتشير لكل شيء تراه. وعندما تبلغ الثالثة سترهق

أمها بكثرة مطالبها، وفي الرابعة ستشعر فجأة بالخوف من الظلام. فأين الحرية في كل هذا يا صوفيا؟

- لست أدري.

- وعندما تتم الخامسة عشرة ستجلس أمام المرآة وتبدأ في تجربة أدوات الزينة. فهل هذه هي اللحظة التي تقرر فيها ما تريد أو تفعل فيها ما يروق لها؟

- أفهم الآن ما تريد أن تقول.

- إنها بالتأكيد صوفيا اموندسن. إلا أنها تعيش أيضاً وفقا لقوانين الطبيعة. إلا أنها لا تدرك ذلك لوجود كثير من الأسباب المعقدة وراء كل شيء نفعله.

- أعتقد أني سمعت ما فيه الكفاية.

- ولكن عليك أن تجيبي عن سؤال أخير. تخيلي شجرتين لهما نفس العمر زرعتا في حديقة واسعة. تنمو إحداهما في موضع مشمس غني التربة وفير الماء. أما الأخرى فتنمو في موضع مظلم فقير التربة شحيح الماء. فأي الشجرتين ستكون أكبر في رأيك؟ وأيها ستطرح ثمارا أكثر؟

- بالطبع الشجرة التي تتوافر لها ظروف نمو أفضل.

- يرى سبينوزا أن هذه الشجرة حرة. إنها تتمتع بحريتها الكاملة في تنمية قدراتها الكامنة. ولكنها إن كانت شجرة تفاح فلن تكون قادرة على طرح ثمار الكمثرى أو البرقوق. إن الصعاب الخارجية قد تعوقنا. وعندما نكون أحرارا في تنمية قدراتنا الفطرية نستطيع عندئذ، وعندئذ فقط، أن نعيش ككائنات حرة. غير أننا محكومون بالامكانيات الداخلية والفرص الخارجية مثلنا في ذلك مثل صبي العصر الحجري الذي يعيش في وادي الراين، أو الأسد الذي يعيش في افريقيا، أو شجرة التفاح التي تنمو في الحديقة.

- لقد أوشكت على الاستسلام! افهم الآن حدود الارادة الحرة.

ـ يؤكد سبينوزا أن هناك كائناً واحداً مكتفيا بذاته كلية وقادراً على التصرف بحرية تامة. إن الله (أو الطبيعة) هو وحده التعبير الحر الذي لا يعتمد على شيء سواه. إن الإنسان يستطيع أن يسعى إلى الحرية كي يعيش دون قيود خارجية، ولكنه لن يتمتع أبدا «بإرادة حرة» حرية مطلقة. فنحن لانتحكم في كل شيء يحدث في أجسامنا، التي تعد حالاً من أحوال صفة الامتداد. كما أننا لا «نختار» كل ما نفكر فيه. وبذلك فإن الإنسان لا يملك «روحا حرة»، إنه سجين لجسم آلي يفرض مقتضياته بدرجة أو أخرى.

ـ هذه نقطة صعبة الفهم إلى حد ما.

ـ لقد قال سبينوزا إن أهواءنا، مثل الطموح أو الرغبة، هي التي تمنعنا من بلوغ السعادة الحقيقية والانسجام الفعلي. غير أننا إذا سلمنا بأن كل شيء يحدث بحكم الضرورة لاستطعنا الوصول إلى معرفة حدسية تدلنا على أن الطبيعة تخضع لقوانين كلية وأننا جزء منها، ولاستطعنا أن ندرك بوضوح تام أن كل شيء مترابط وأن كل شيء ليس إلا واحداً. فالهدف هو أن ندرك كل الموجودات من منظور شامل جامع. وعندئذ فقط نستطيع أن نبلغ السعادة الحقيقية والسكينة الصافية. وهذا ما يدعوه سبينوزا **«رؤية كل شيء من منظور الأبدية»**. ألم يكن هذا ما بدأنا به حديثنا؟

ـ وما يجب أن نختم به حديثنا. إذ يجب أن أعود الآن.

نهض ألبرتو وأحضر سلة فاكهة ووضعها على المائدة وقال:

ـ ألا تريدين أن تأكلي بعض الفاكهة قبل ذهابك؟

تناولت صوفيا ثمرة موز بينما أخذ ألبرتو تفاحة حمراء وبدأت صوفيا في تقشير الموزة ولكنها سرعان ما لاحظت شيئا عجيبا فصاحت بدهشة:

ـ انظر! ثمة شيء مكتوب هنا!

ـ أين!

- هنا داخل قشرة الموزة! ثمة شيء مكتوب بحبر أسود.

مالت صوفيا على ألبرتو ومدت يدها بالموزة. فقرأ ألبرتو بصوت مرتفع: **أنا هنا من جديد يا هيلد. أنا في كل مكان. كل سنة وأنت طيبة!**

وقالت صوفيا بنبرة احتجاج:

- شيء مسل جدا!

- إنه يزداد خداعا بمرور الوقت.

- ولكن كيف نجح في ذلك؟ هل ينمو الموز في لبنان؟

هز ألبرتو رأسه.

- أنا لن آكل هذه الموزة على أي حال.

- نعم هذا أفضل. إن شخصا يكتب لابنته تهنئة بعيد ميلادها داخل قشرة موز لا بد أن يكون مصابا باختلال عقلي. ولكنه يبدو أيضاً شديد البراعة.

- إنه يتصف بالأمرين معا على الأرجح.

- هل نقرر إذن أن لهيلد والدا ذكيا؟

- إن هذا ما ظللت أقوله لك. وربما هو الذي جعلك تناديني هيلد في المرة الماضية عندما حضرت هنا. وربما كان هو من يضع كل هذه الكلمات على ألسنتنا.

- لا نستطيع استبعاد أي احتمال. ولكن يجب علينا أيضاً أن نشك في كل شيء.

- فمن يدري لعل حياتنا كلها تكون مجرد حلم.

- لا تتسرعي في استخلاص النتائج فلكل شيء تفسيره.

- لا بد على أي حال أن أعود سريعا للبيت، فإن ماما في انتظاري.

اصطحبها ألبرتو إلى الباب وما إن همت بالخروج حتى قال لها:

ـ سنلتقي قريبا يا عزيزتي هيلدا!

ثم أغلق الباب وراء صوفيا.

الفصل العشرون

لــوك

... مثل صفحة بيضاء قبل
أن يجــري فوقهـا قلــم...

وصلت صوفيا إلى البيت في الثامنة والنصـف. بذلـك تكـون قـد تـأخرت ساعة ونصف. ألم تكن قد تركت لأمها كلمة تقول فيها إنهـا سـتأتي في نحـو السابعة. لقد تأخرت بالفعل عن موعد العشاء، غير أنها لم تشعر بأنها أخلّـت بالتزام حقيقي.

ـ لا يمكن أن تسير الأمور على هذا النحو يا صوفيا. لقد اشتد قلقي عليك حتى إني اضطررت للاتصـال بالاستعلامات لأسـألهم عـن عنـوان أو تليفـون شخص يدعى ألبرتو ويسكن في الحي القديم. إلا أنهم ضحكوا لغرابـة الاسـم وسخروا من سؤالي.

ـ لم يكن من السهل أن أحضر قبل ذلك. فنحن على وشك اكتشاف حل لسر كبير.

ـ ما الذي تحكين عنه يا صوفيا!

ـ أؤكد لك أنها الحقيقة!

ـ وهل دعوته إلى حفل عيد ميلادك؟

ـ لا، لقد نسيت!

ـ لا بد أن أقابل هذا الرجل. ومن الغد. فليس من الطبيعي لفتاة صغيرة أن تصادق رجلا في عمر أبيها.

ـ ليس هناك ما يدعوك للخوف من ألـبرتو. وربمـا كـان الأحـرى بـك أن تحذري من والد هيلد.

ـ ومن هيلد هذه؟

ـ ابنة الرجل الموجود في لبنان. إنه شخص مريـب، ربمـا كـان يتحكـم في العالم كله.

ـ إذا لم تعرفيني على ألبرتو هذا فورا فلن أسمح لك بأن تقابليه مرة أخرى. إن قلبي لن يستريح قبل أن أرى شكله على الأقل.

خطـرت في ذهـن صوفيـا فكـرة لامعـة فـانطلقت زاكضـة إلى غرفتهـا فصاحت فيها أمها:

ـ ماذا تفعلين بالضبط يا صوفيا؟

في لمح البصر عادت صوفيا مرة أخرى إلى البهو وفي يدها شـريط الفيديـو ووضعته في الجهاز وقالت:

ـ الآن سوف ترين شكله ويرتاح قلبك.

ـ وهل أعطاك أيضاً شريط فيديو؟

ـ نعم، عن أثينا...

وسـرعان مـا ظهـرت صـور الأكروبـول علـى الشاشـة. وجلسـت أمهـا مشدوهة تتطلع إلى ألبرتو وهو يوجه حديثه مباشرة إلى صوفيا.

ولاحظت صوفيا شيئا نسيته بعـد المشـاهدة الأولى. فمـن وسـط مجموعـة سائحين ممن يملأون الأكروبول لاحت لافتة صغيرة كتب عليها **هيلد**...

وواصل ألبرتو جولته في الأكروبول ووقف على ربـوة إريوبـاغوس حيـث خاطب القديس بولس أهل أثينا. ثم ظهر بعد ذلك وهـو يتحـدث إلى صوفيـا من ميدان الأغورا.

ظلت أمها تحدق إلى الشاشة مندهشة مشدوهة تصدر عنها من حين لآخر تعليقات مقتضبة.

ـ شيء لا يصدق... هل هذا هو ألبرتو؟ إنه يتحدث إليك يا صوفيا... ها هو يتكلم عن الأرنب الأبيض... لم أكن أعرف أن القديس بولس قد ذهب إلى أثينا...

كان الشريط قد وصل إلى الجزء الذي يصور كيف نهضت أثينا فجأة من بين الأنقاض. لكن صوفيا أسرعت في اللحظة الأخيرة بايقاف الشريط إذ إنها لم تجد، وقد عرفت أمها على ألبرتو، ما يدعو إلى تعريفها على أفلاطون أيضاً.

وران الصمت على الغرفة. ثم قالت صوفيا بلهجة مازحة:

ـ ما رأيك فيه يا ماما؟ ألا تجدين أنه شخص ظريف.

ـ لا بد أنه شخص غريب الأطوار، فهو يصور فيلما في أثينا لمجرد أنْ يرسله لفتاة لا يكاد يعرفها. متى كان في أثينا؟

ـ ليست لدي أية فكرة.

ـ غير أن هناك أمرا آخر...

ـ ماذا؟

ـ إنه يشبه كثيراً الضابط الذي كان يعيش في الشاليه الموجود بالغابة...

ـ ربما كان هو نفسه يا ماما.

ـ ليس هناك من رآه منذ أكثر من خمسة عشر عاماً...

ـ ربما كان كثير السفر. ولعله ذهب إلى أثينا أيضاً.

ـ عندما رأيته ذات مرة في السبعينات كان يبدو في نفس عمر ألبرتو الذي رأيت صورته الآن. وكان له اسم ذو وقع أجنبي...

- كنوكس؟

- ربما يا صوفيا. ربما كان اسمه كنوكس.

- أو كناج مثلاً؟

- لا أستطيع أن أتذكر الآن... ولكن من هو كنوكس أو كناج الذي تتحدثين عنه؟

- أحدهما هو ألبرتو والآخر هو والد هيلد.

- كل هذه التفصيلات قد أدارت رأسي.

- أما أنا فأشعر بجوع شديد يا ماما...

- بد لي ثيابك بينما أ سخن لك العشاء.

مر أسبوعان دون أن تتلقى صوفيا أي أخبار من ألبرتو. وصلتها بطاقة أخرى لتهنئة هيلد بعيد ميلادها، ولكنها لم تتلق هي بطاقة واحدة برغم اقتراب عيد ميلادها.

وفي عصر أحد الأيام ذهبت صوفيا إلى الحي القديم ووقفت بباب ألبرتو تطرقه. لم تجد ألبرتو إلا أنها رأت قصاصة صغيرة ملصقة على الباب:

كل سنة وأنت طيبة يا هيلدا إننا نقترب الآن من اللحظة الحاسمة. لحظة الحقيقة يا ابنتي الحبيبة. كلما فكرت في هذا لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك. إن المسألة تتعلق طبعا ببيركلي فخذي حذرك.

نزعت صوفيا القصاصة من على الباب ودستها في صندوق بريد ألبرتو وهي تخرج من المبنى.

هل عاد ألبرتو إلى أثينا وكيف يستطيع أن يتركها مع كل هذه الأسئلة والألغاز.

يوم الخميس ٤١ يونيو (حزيران)، عادت صوفيا من المدرسه لتجد هرمس يدور في الحديقة. جرت صوفيا نحوه وعندما لمحها هرمس أخذ يركض نحوها سعيدا يهز ذيله بقوة. احتضنته صوفيا كأنما هو القادر على حل كل هذه الألغاز.

كتبت مرة أخرى رسالة لأمها دون أن تنسى هذه المرة أن تذكر عنوان ألبرتو.

وبينما هما سائران عبر المدينة بدأت صوفيا تفكر في يوم الغد. ليس لأنه عيد ميلادها، الذي سوف تحتفل به في ليلة منتصف الصيف يوم ٣٢ يونيو (حزيران)، بل لأن غدا هو عيد ميلاد هيلد. وكانت صوفيا متأكدة أن شيئا استثنائيا سيحدث. يكفي على أي حال أن يتوقف سيل بطاقات التهاني هذا الذي ينهال عليها من لبنان.

عندما عبرا الميدان الكبير ويمما نحو الحي القديم، مرا بحديقة عامة صغيرة. وقف هرمس أمام دكة خشبية كأنما يريد لصوفيا أن تجلس عليها.

جلست صوفيا وبينما هي تربت على رأس الكلب نظرت في عينيه. وفجأة أخذ الكلب يزمجر بقوة فتصورت صوفيا أنه سيبدأ في النباح. إلا أن فكي هرمس أخذا يهتزان بقوة. لم يزمجر هرمس ولم ينبح. لقد فتح فمه وقال:

ـ كل سنة وأنت طيبة يا هيلدا!

صعقت صوفيا! هل كلمها الكلب؟ مستحيل! لا بد أنها تخيلت هذا بسبب تفكيرها في هيلدا ولكنها كانت متأكدة في قرارة نفسها من أن هرمس كلمها، بل وبصوت غليظ عميق.

في اللحظة التالية عاد كل شيء كما كان. نبح هرمس مرة أو مرتين، هل هذا نباح استعراضي يداري به أنه تكلم توا بصوت إنسان؟

انطلقا يسيران نحو بيت ألبرتو، وبينما هما يدلفان إلى المبنى تطلعت صوفيا إلى السماء فأبصرت سحابا كثيفا يتجمع من بعيد.

ما كاد ألبرتو يفتح الباب حتى ابتدرته صوفيا قائلة:

- لا وقت للسلام والتحية، هل تعرف أنه خدعك؟

- ما الأمر يا ابنتي؟

- إن الضابط علم هرمس الكلام!

- هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟

- نعم، تخيل!

- وماذا قال هرمس؟

- خمن أنت!

- لا بد أنه قال كل سنة وأنت طيبة يا هيلد أو شيئا من هذا القبيل!

- نعم! تخيل!

دعا ألبرتو صوفيا للدخول. كان يرتدي اليوم زيا جديدا. لم يكن شديد الاختلاف عن الزي السابق إلا أنه يكاد يخلو اليوم من التطريز والشرائط. وقالت صوفيا:

- وليس هذا كل شيء.

- ماذا تقصدين؟

- ألم تجد قصاصة الورق في صندوق البريد؟

- بلى، وقد رميتها على الفور.

- لا يهمني أن يضحك كلما فكر في بيركلي. ولكن ماذا فعل هذا الفيلسوف حتى يثير لديه كل هذا الضحك.

ـ سننتظر ونرى.

ـ ألن تحدثني عنه اليوم؟

ـ بلى، اليوم.

جلس ألبرتو على الأريكة ثم قال:

ـ في المرة الماضية عندما جلسنا تحدثنا عن ديكارت وسبينوزا. واتفقنا على أن بينهما سمة مشتركة هي أن كليهما مفكر عقلاني.

ـ والعقلاني هو من يؤمن إيمانا قويا بأهمية العقل.

ـ هذا صحيح، إن العقلاني يؤمن بأن العقل هو المصدر الرئيسي للمعرفة، وربما كان يؤمن أيضاً بأن الإنسان يولد ببعض الأفكار الفطرية التي توجد في ذهنه قبل أن يمر بأي تجربة. وكلما زاد وضوح هذه الأفكار زاد اليقين بصدق تطابقها مع الواقع. ولعلك تذكرين أن ديكارت كانت لديه فكرة واضحة ومحددة عن «الكائن الكامل»، وهي الفكرة التي استند إليها في استنتاج أن الله موجود.

ـ لا تتصور أن ذاكرتي ضعيفة إلى هذه الدرجة.

ـ وكان هذا التفكير العقلاني سمة مميزة للفلسفة في القرن السابع عشر. كما كانت للعقلانية جذور عميقة في العصور الوسطى. ولعلك تذكرين أننا صادفناها أيضاً لدى أفلاطون وسقراط. غير أن العقلانية بدأت تخضع في القرن الثامن عشر لنقد متزايد. إذ أخذ عدد من الفلاسفة يؤكدون أن الذهن يخلو تماماً من أي شيء لم نجربه عن طريق حواسنا. وتسمى هذه النظرة **النزعة التجريبية أو المذهب التجريبي**.

ـ وهل ستكلمني اليوم عن هؤلاء التجريبيين؟

ـ هذا ما سأحاوله يا صوفيا. إن أهم التجريبيين أو فلاسفة التجربة هم **لوك وبيركلي وهيوم**، وثلاثتهم إنجليز، في حين أن أكبر الفلاسفة العقلانيين في

القرن السابع عشر كانوا ديكارت الفرنسي، وسبينوزا الهولندي، وليبنتز الألماني. ولذا جرت العادة على التفرقة بين **النزعة التجريبية الانجليزية، والنزعة العقلانية الأوروبية.**

ـ وما معنى النزعة التجريبية؟

ـ إن التجريبي شخص يستمد كل معرفته عن العالم مما تخبره به الحواس. إن الصياغة القديمة أو الكلاسيكية للمنهج التجريبي ترجع إلى أرسطو الذي قال: «لا يوجد في الذهن إلا ما و جد أولا في الحواس». وهذه النظرة تنطوي على نقد مباشر لأفلاطون الذي قال إن الإنسان يولد بأفكار فطرية يجلبها معه من عالم المثل (أو عالم الأفكار العامة المجردة). وقد كرر لوك ألفاظ أرسطو مستخدما إياها، من جهته، ضد ديكارت.

ـ «لا يوجد بالذهن... إلا ماوجد أولا في الحواس»؟

ـ أي ليست لدينا أي أفكار أو تصورات فطرية عن العالم الذي جئنا إليه، والأفكار التي لدينا لا تنشأ إلا بعد أن نكون قد رأينا هذا العالم بأعيننا أو أدركناه بسائر الحواس. فإذا كانت لدينا فكرة معينة لا يمكن أن نتبين صلتها بوقائع مستمدة من التجربة فإن هذه الفكرة تكون خاطئة. فعندما نستخدم مثلاً كلمات مثل «الله»، أو «الأبدية»، أو «الجوهر»، فإن العقل يعمل عندئذ في فراغ، فلا يوجد من أدرك من خلال **التجربة** الله، أو الأبدية، أو مايسميه الفلاسفة «الجوهر». بالوسع كتابة مؤلفات بارعة عن كل تلك المفاهيم لكننا لن نجد فيها عندما نفحصها فحصا دقيقا أي معرفة جديدة حقا. قد يبدو لنا هذا النظام الفلسفي العقلاني المشيد بمهارة لافتا للنظر أو مثيرا للاعجاب ولكنه ليس في الحقيقة إلا محض أوهام. وقد ورث فلاسفة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر عددا من هذه المؤلفات البارعة، وحان الوقت الآن لفحصها بعدسة مكبرة. إذ يجب أن نخلص أنفسنا من كل المفاهيم الجوفاء. ويمكننا أن نقارن هذه المهمة بالبحث عن الذهب. إن معظم ما تجمعينه ليس سوى رمال وتراب إلا أنك ستلمحين بينها بريق الذهب.

- وبريق الذهب هذا هو التجربة الحقيقية؟

- أو هو على الأقل أفكار يمكن ربطها بالتجربة الإنسانية. وأصبح من المهم للتجريبيين الإنجليز أن يفحصوا جميع تصورات الإنسان ليتبينوا إن كانت تستند إلى تجربة فعلية. ولكنا سنتناول كل فيلسوف منهم على حدة.

- عظيم. تفضل!

- الأول هو الفيلسوف الإنجليزي **جون لوك**، الذي عاش من عام ١٦٣٢ إلى عام ١٧٠٤. وأهم أعماله كتاب يدعى دراسة في **الفهم الإنساني**، نشر في عام ١٦٩٠ وقد حاول في هذه الدراسة أن يوضح مسألتين: الأولى هي من أين نستمد أفكارنا، والثانية هي ما إذا كنا نستطيع التعويل على ما تخبرنا به حواسنا.

- مشروع طموح حقا!

- سنبحث هاتين المسألتين واحدة واحدة. كان لوك مقتنعا بأن كل أفكارنا تنشأ مما أدركناه بحواسنا. فقبل أن نرى أو نسمع أو ندرك بحواسنا أي شيء يكون الذهن خاويا مثل صفحة بيضاء قبل أن يجري فوقها قلم، أو سبورة خالية قبل أن يدخل المدرس إلى الفصل، أو مثل غرفة خالية من الأثاث. ثم نبدأ في إدراك الأشياء بحواسنا، أي بحاسة النظر والسمع والتذوق واللمس والشم. وليس هناك من يفعل هذا بحيوية تفوق حيوية الأطفال الصغار. وبهذه الطريقة تنشأ ما يسميه لوك **الأفكار البسيطة المستمدة من الحواس**. لكن الذهن لا يكتفي بمجرد التلقي السلبي للمعلومات من الخارج. فبعض النشاط يحدث في الذهن أيضاً. وكل فكرة حسية تخضع للتفكير، والتعقل، والتصديق، والترجيح، والشك. ومن هذا الجهد الذهني تنشأ مايسميه لوك **الأفكار التأملية**. لقد فرق إذن بين الإحساس من جهة، والتأمل أو التفكير من جهة أخرى. إن الذهن ليس بمجرد متلق سلبي. إنه يصنف ويعالج جميع

الإحساسات فور دخولها. وهنا بالتحديد ينبغي أن نتوخى أشد الحذر واليقظة.

ـ الحذر واليقظة؟

ـ لقد أكد لوك أن الأشياء الوحيدة التي يمكن أن ندركها بحواسنا هي **الإحساسات أو الانطباعات البسيطة**. فعندما آكل تفاحة مثلاً، لا أدرك التفاحة ككل في إحساس أو انطباع واحد. فالواقع إنني أتلقى مجموعة كاملة من الإحساسات أو الانطباعات البسيطة، مثل لونها الأحمر، ورائحتها الذكية، ومذاقها الطيب. وبعد أن أكون قد أكلت عدة تفاحات أستطيع أن أفكر بوضوح: أنا الآن آكل «تفاحة». إن لوك يقول إننا كونا **فكرة مركبة** عن التفاحة. عندما كنا أطفالا صغارا وذقنا التفاحة للمرة الأولى لم تكن لدينا هذه الفكرة المركبة الجامعة. لقد رأينا شيئا أحمر اللون، وذقنا شيئا طازجا شهيا، وهكذا أخذنا نجمع بالتدريج كثيراً من الإحساسات المماثلة معا وشكلنا تصورات أو أفكارا مركبة مثل «التفاحة»، و«الكمثرى»، و«البرتقالة». ولكن كل المواد التي استخدمناها في تكوين معرفتنا بالعالم تأتي لنا في نهاية المطاف عن طريق الانطباعات الحسية. والمعرفة التي لا يمكن تتبع مسارها انتهاءً إلى انطباع حسي بسيط تعد إذن معرفة زائفة ويجب بالتالي رفضها.

ـ نستطيع على الأقل أن نكون واثقين من أن ما نراه ونسمعه ونشمه ونذوقه مطابق لما هو موجود في الواقع.

ـ نعم ولا. وهذا ما يقودنا إلى المسألة الثانية التي حاول لوك أن يجيب عنها. لقد أجاب أولا عن السؤال الذي يقول من أين نستمد أفكارنا. وهو يسأل الآن عما إذا كان العالم مطابقا حقا للطريقة التي ندركه بها بحواسنا، لأن هذا الأمر ليس بديهيا كما قد يلوح للوهلة الأولى. ولذلك يجب علينا ألا نتسرع يا صوفيا في استخلاص الاستنتاجات. فهذا هو الشيء الوحيد الذي يجب ألا يفعله الفيلسوف الحقيقي أبدا.

ـ إني لا أكاد أفتح فمي بكلمة.

ـ لقد فرق لوك بين ما أسماه **الكيفيات الأولية والكيفيات الثانوية** وهو يعترف بأنه مدين في هذا لكبار الفلاسفة السابقين عليه، ومنهم ديكارت.

ـ وكيف هذا؟

ـ إنه يعني **بالكيفيات الأولية** الحجم (أو الامتداد)، والوزن، والحركة، والعدد، وما إلى ذلك. ونستطيع أن نثق بأن حواسنا تنقل هذه الكيفيات الأولية نقلا موضوعيا. لكننا ندرك بحواسنا أيضاً كيفيات أخرى في الأشياء: فنحن نقول أيضاً عن شيء ما إنه حلو أو مر، أخضر أو أحمر، ساخن أو بارد. ويسمي لوك هذه الصفات «**الكيفيات الثانوية**». وهذه الانطباعات الحسية، مثل اللون والرائحة والمذاق والصوت، لا تعبر عن الصفات الحقيقية الكامنة في الأشياء ذاتها، إنها لا تعبر إلا عن تأثير الواقع الخارجي على حواسنا.

ـ لكل شخص ذوقه، أو كما يقول المثل: وللناس فيما يعشقون مذاهب.

ـ بالضبط. إن الجميع يمكن أن يتفقوا على الكيفيات أو الصفات الأولية مثل الحجم والوزن لأن هذه الصفات كامنة في الأشياء ذاتها. لكن الكيفيات الثانوية مثل اللون والمذاق فإنها تتباين من إنسان لآخر ومن حيوان لآخر، تبعا لطبيعة الجهاز الحسي في كل كائن.

ـ عندما تأكل نورا برتقالة يمتعض وجهها كأنما هي تمضغ ليمونة لاذعة ولا تستطيع أن تكمل أكثر من فص واحد وتقول إنها مرة المذاق. في حين أشعر أنا أنها حلوة شهية.

ـ وليست أي منكما مصيبة أو مخطئة. إنكما تصفان فحسب كيف تؤثر البرتقالة على حواسكما. ويصدق نفس الشيء على الألوان. ربما لا تحبين درجة معينة من اللون الأحمر، ولكن إذا اشترت نورا رداء من هذا اللون فقد يكون من الحكمة أن تحتفظي برأيك فيه لنفسك. إنكما تبصران اللون الواحد بطريقتين مختلفتين، غير أن هذا لا يعني أنه جميل أو قبيح.

ـ ولكن الجميع يتفقون على أن البرتقالة مستديرة.

ـ نعم إذا كنت تمسكين برتقالة في يدك فمن المستحيل «أن تفكري» أنها مكعبة. يمكنك أن تفكري أنها حلوة أو مرة، ولكن لا يمكنك أن تفكري أنها تزن ثمانية كيلوجرامات بينما وزنها الفعلي لا يتجاوز ٢٠٠ جرام. وإذا طلب من عدة أشخاص أن يخمنوا وزن شيء معين فسيوجد دوما بينهم من يخمن الوزن الأقرب وتكون إجابته بالتالي أصح من الإجابات الأخرى. وينطبق نفس الشيء على الأرقام: فهذا الكيس مثلاً إما أن يحتوي على ٦٨٩ حبة فاصوليا وإما لا. كما يصدق أيضاً على الحركة، فإما أن هذه السيارة تتحرك وإما أنها لا تتحرك.

ـ لقد فهمت.

ـ عندما تكون المسألة متعلقة بالامتداد، يتفق لوك مع ديكارت في أن هناك صفات معينة يستطيع الإنسان أن يفهمها بعقله.

ـ ليس من الصعب الاتفاق على هذه النقطة.

ـ كما قبل لوك ما أسماه بالمعرفة «الحدسية» أو «البرهانية» في مجالات أخرى أيضاً. فقد أكد مثلاً أن هناك بعض القواعد الأخلاقية التي تنطبق على جميع الناس. فآمن بفكرة **الحق الطبيعي**، وكان هذا ملمحا عقلانيا في تفكيره. وكان من الملامح العقلانية الأخرى لدى لوك أنه أكد أن العقل الإنساني قادر على معرفة أن الله موجود.

ـ ربما كان على حق.

ـ في أي نقطة؟

ـ عندما أكد أن الله موجود.

ـ من الجائز بطبيعة الحال. ولكنه لم يستند في ذلك إلى الإيمان، بل إلى قدرة عقل الإنسان على التوصل إلى معرفة الله. وذلك ملمح عقلاني آخر في

فلسفته. وينبغي أن أضيف كذلك أن. لوك قد دافع عن حرية الفكر وعن التسامح. كما اهتم بالمساواة بين الجنسين، وقال إن خضوع المرأة للرجل أمر من صنع الإنسان. مما يعني أنه يمكن تغييره.

ـ أنا متفقة معه تماماً في هذا.

ـ كان لوك من أوائل الفلاسفة في الأزمنة الحديثة الذين اهتموا بدور المرأة، وكان له في هذا الصدد تأثير عظيم على مفكر معاصر له هو **جون ستيورات مل**، الذي نهض بدور رئيسي في الكفاح من أجل المساواة بين الجنسين. لقد كان لوك بوجه عام رائدا في الدعوة لكثير من الأفكار الليبيرالية التي ستنتشر وتزدهر فيما بعد خلال عصر التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر. فهو مثلاً أول من دعا إلى **مبدأ الفصل بين السلطات...**

ـ هل تقصد توزيع السلطة في الدولة بين المؤسسات السياسية المختلفة؟

ـ هل تتذكرين ما هي هذه المؤسسات؟

ـ هناك السلطة التشريعية أو البرلمان وهو مجلس مؤلف من نواب ينتخبهم الشعب. وهناك السلطة القضائية التي تمثلها المحاكم. ثم هناك السلطة التنفيذية أو الحكومة.

ـ هذا التقسيم للسلطات دعا إليه **مونتسكيو** وهو من فلاسفة عصر التنوير الفرنسيين. أما لوك فكان قد أكد أساسا على ضرورة فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية إذا أردنا تجنب الاستبداد. فقد عاش لوك في زمن الملك لويس الرابع عشر الذي جمع في يديه كل السلطات وكان يقول «أنا الدولة». ونحن نصف اليوم لويس الرابع عشر بأنه حاكم مطلق. ونصف طريقته في الحكم بأنها لا تستند إلى المبادئ التي يقررها القانون بل ترتكز على التعسف والاستبداد. أما دولة القانون التي كان يدعو إليها لوك فانها تقتضي أن توكل مهمة وضع القوانين إلى ممثلي الشعب، وأن تقتصر مهمة الملك أو الحكومة على تطبيق تلك القوانين.

الفصل الحادي والعشرون

هيــوم

... فلنلق به إذن إلى النار...

جلس ألبرتو يتطلع إلى المائدة ثم استدار أخيرا ونظر من النافذة فسمع صوفيا تقول:

- إن السحب تتجمع...

- نعم، إن الجو ثقيل...

- هل ستحدثني الآن عن بيركلي؟

- إن بيركلي ثاني فيلسوف من التجريبيين الإنجليز الثلاثة الكبار، غير أنه ينتمي من نواح عديدة إلى فئة على حدة. ولذلك سنتناول أولا ديفيد هيوم، الذي عاش من عام ١١٧١ حتى عام ٦٦٧١. ويعتبر هيوم أهم التجريبيين جميعا، كما أنه هو الذي ساعد الفيلسوف الكبير إيمانويل كانط على أن يكتشف طريقه الفلسفي الخاص.

- ولكن ألا يهمك أن أكون أكثر حرصا على معرفة فلسفة بيركلي؟

- لا يا صوفيا، إن ذلك لن يغير شيئا في برنامجنا... لقد نشأ هيوم بالقرب من أدنبره في اسكوتلندا. وأرادت له أسرته أن يدرس القانون ولكنه شعر «بنفور لا يقاوم تجاه كل ما لا يتعلق بالفلسفة والأدب». وقد عاش هيوم في عصر التنوير في زمن مفكرين فرنسيين عظام مثل فولتير وروسو، وتنقل طويلا في أوروبا قبل أن يعود ليستقر في أدنبره قبيل وفاته. وأهم مؤلفات هيوم كتاب يدعى **رسالة في الطبيعة الإنسانية**، نشره وعمره ثمانية وعشرون عاماً، إلا أنه قال إن فكرة الكتاب جاءته وهو في الخامسة عشرة من عمره.

ـ ليس أمامي إذن وقت.أضيعه.

ـ لقد وضعت رجلك بالفعل على أول الطريق.

ـ ولكن إذا قد ر لي أن أضع فلسفتي الخاصة في يوم من الأيام فسوف تكون مختلفة تماماً عن كل ما سمعته حتى الآن.

ـ أهناك جانب معين تعتبرينه غائبا عن الفلسفات التي درسناها؟

ـ أولا، كل الفلاسفة الذين حدثتني عنهم رجال. والرجال يعيشون فيما يبدو في عالم خاص بهم. أنا أكثر اهتماماً بالعالم الحقيقي المليء بالزهور والحيوانات والأطفال الذين.يولدون ويكبرون. إن فلاسفتك يتحدثون دائما عن الإنسان، وها أنت الآن تحدثني عن كتاب اسمه رسالة في الطبيعة الإنسانية ويبدو لي أنه يعني بذلك طبيعة رجل في منتصف العمر. أقصد إن الحياة تبدأ مع الحمل والولادة. إنني لم أسمع حتى الآن شيئا عن بكاء الرضع أو عن رعاية الأطفال. كما أني لم أكد أسمع شيئا لا عن الحب ولا عن الصداقة.

ـ معك حق بطبيعة الحال. ولكن هيوم كان فيلسوفا يفكر بطريقة مختلفة. فقد انطلق أكثر من أي فيلسوف آخر من حقائق عالم الحياة اليومية. بل إني أعتقد أن هيوم كان مهتما اهتماماً قوياً بالطريقة التي يدرك بها الأطفال أي مواطني العالم المقبلين الحياة والوجود.

ـ فلننظر إذن فيما يقول.

ـ رأى هيوم من واجبه، بوصفه مفكرا تجريبيا، أن يرتب كل التصورات والمفاهيم الفكرية المبهمة التي ابتكرها الفلاسفة السابقون عليه. ففي عصر هيوم شاعت في المؤلفات وراجت على الألسنة أفكار مستمدة من فلسفات العصور الوسطى والفلسفة العقلانية للقرن السابع عشر. ودعانا هيوم لأن نرجع إلى تجربتنا المباشرة التلقائية للعالم وأن ندرس في ضوئها كل شيء. وقال ما من فيلسوف «في مقدوره أن يأخذنا بعيدا عن تجاربنا اليومية أو أن يعطينا قواعد سلوك تختلف عن القواعد التي نستمدها من تأمل الحياة اليومية».

ـ يبدو كلامه واعدا حتى الآن. هل يمكن أن تذكر لي مثلاً يبين كيف طبق هيوم هذا المنهج؟

ـ في زمن هيوم كان هناك إيمان واسع النطاق بوجود الملائكة. وكان الناس يقصدون بالملائكة كائنات لها أجسام بشرية مزودة بأجنحة. هل رأيت من قبل كائنا مثل هذا يا صوفيا؟

ـ لا...

ـ وهل رأيت أجساما بشرية؟

ـ وهل هذا سؤال!

ـ وهل رأيت أيضاً أجنحة؟

ـ بالطبع، ولكن ليست مركبة في أجسام بشرية!

ـ يرى هيوم إذن أن «الملاك» هو **فكرة مركبة**. إن الملاك مركب من تجربتين مختلفتين لا صلة بينهما في الواقع ولكن خيال الإنسان هو الذي أقام الصلة بينهما. وهذا معناه انها فكرة زائفة يجب رفضها على الفور. ولذلك يجب علينا أن نرتب أفكارنا وتصوراتنا مثلما نرتب مقتنياتنا من الكتب. إذ يشير علينا هيوم بأنه إذا وقع بين أيدينا كتاب، ولنقل مثلاً في اللاهوت أو الميتافيزيقا، فإن علينا أن نتساءل «هل يحتوي على أي استدلال نظري عن الكم أو العدد؟ لا. هل يحتوي على أي استدلال تجريبي عن مسائل تتعلق بالواقع والوجود؟ لا. فلنلق به إذن إلى النار، فإنه لا يحتوي إلا على سفسطة وأوهام».

ـ أليس في هذا شيء من التطرف؟

ـ إلا أن العالم الذي سيخرج من هذا الترتيب والتنظيم سيكون عالما أكثر نضارة ووضوحا عن أي وقت مضى. لقد أراد هيوم أن يعرف كيف يدرك

الطفل العالم بحواسه. ألم تقولي إن كثيراً من الفلاسفة الذين تكلمنا عنهم كانوا يعيشون في عالمهم الخاص وإنك أكثر اهتماماً بالعالم الحقيقي؟

ـ نعم قلت شيئا بهذا المعنى.

ـ وكان هيوم سيتفق معك في ذلك. ولكن دعينا نتتبع عن قرب طريقته في التفكير.

ـ أنا معك.

ـ يبدأ هيوم بالتأكيد على أن الإنسان لديه نوعان من المدركات هما **الانطباعات والأفكار**. وهو يقصد بالانطباعات الإحساس المباشر بالواقع الخارجي. ويعني بالأفكار ذكرى هذه الانطباعات.

ـ أعطني مثلاً من فضلك...

ـ إذا لسعت يدك بموقد ساخن، تشعرين «بانطباع» فوري. ثم قد يحدث فيما بعد أن تتذكري أنك حرقت يدك. وذكرى ذلك الانطباع هو ما يسميه هيوم الفكرة. والفرق هو أن الانطباع أقوى وأوضح من الذكرى التي تأتي بعد تأمل الانطباع. يمكنك أن تقولي إن الإحساس هو الأصل وإن الفكرة، أو الذكرى، مجرد صورة باهتة. إن الانطباع هو السبب المباشر للفكرة المخزنة في الذهن.

ـ أنا أتابعك حتى الآن.

ـ كما أكد هيوم أن كلا من الانطباعات والأفكار قد تكون **إما بسيطة وإما مركبة**. ولعلك تتذكرين أننا تكلمنا عن التفاحة ونحن ندرس لوك. إن تجربتنا المباشرة مع التفاحة مثل على الانطباع المركب.

ـ آسفة إذا كنت أقاطعك ولكن هل هذه المسألة مهمة لهذه الدرجة؟

ـ مهمة؟ بالطبع يا صوفيا. فحتى لو رأيت الفلاسفة يهتمون بمشكلات قد تبدو لك تافهة، يجب ألا تقللي أبدا من قيمة طريقة الاستدلال ذاتها. ولا بد

أن هيوم كان سيتفق مع ديكارت في ضرورة تشييد أي عملية فكرية انطلاقا من الأساس.

ـ اتفقنا.

ـ أوضح هيوم أننا نكون أحياناً أفكاراً مركبة ليس هناك ما يناظرها في العالم المادي. لقد تكلمنا بالفعل عن تصور الناس للملائكة. وأشرنا قبل ذلك إلى «التمسافيل». كما أن الحصان المجنح مثل آخر. في كل هذه الحالات علينا أن نسلم بأن الذهن قد أخذ يتسلى بلعبة «القص واللصق»، فقد أخذ حصانا من هنا وجناحا من هناك ليكو ن الحصان المجنح مثلاً. لكن كل عنصر منهما قد سبق إدراكه في الواقع على حدة ودخل إلى مسرح الذهن على هيئة «انطباع» حقيقي. إن الذهن لا يخترع شيئا إنه يقص ويلصق الأشياء معا ليكون «أفكارا » زائفة.

ـ نعم الآن أدرك أن طريقة الاستدلال هامة في حد ذاتها.

ـ عظيم. لقد أراد هيوم إذن أن يفحص كل فكرة ليرى هل تم تجميعها بطريقة تناظر الواقع أم لا. وأخذ يتسأل: من أي انطباع جاءت هذه الفكرة؟ إذ كان عليه أولا أن يجد من أي أفكار بسيطة تتألف الفكرة المركبة. وبذلك تسنى له وضع منهج نقدي أخذ يحلل به أفكارنا ويرتب به تصوراتنا ومفاهيمنا.

ـ هل تستطيع أن تذكر لي مثلاً يوضح ذلك؟

ـ في زمن هيوم كان لدى كثير من الناس أفكار واضحة ومحددة عن «الجنة» مثلاً فهل تذكرين كيف قال ديكارت إن الأفكار «الواضحة والمحددة» تناظر بالضرورة شيئا موجودا في الواقع؟

ـ قلت لك إن ذاكرتي ليست ضعيفة بهذه الدرجة.

ـ سبدرك سريعا أن فكرة «الجنة» مؤلفة من عدد هائل من العناصر. فالجنة مؤلفة من «أبواب من اللؤلؤ»، و«شوارع من الذهب» و «جماعات

غفيرة من الملائكة»، وهلم جرا. ونحن لم نفرغ بعد من تقسيم كل شيء إلى عناصر أبسط، فإن أبواب اللؤلؤ وشوارع الذهب والملائكة تعد كلها أفكارا مركبة في حد ذاتها. وعندما نسلم بأن فكرتنا عن الجنة تتألف من أفكار بسيطة مثل «اللؤلؤ»، و «الباب» و «الشارع»، و «الذهب»، و «جسم» و «رداء أبيض»، و «جناح»، علينا أن نتساءل عندئذ هل جاءتنا هذه الأفكار البسيطة من «انطباعات بسيطة» أدركناها في يوم من الأيام؟

ـ نعم لقد أدركنا هذه الانطباعات البسيطة لكننا أخذنا نلعب بذكراها لعبة القص واللصق لتكوين فكرة خيالية.

ـ هذا بالضبط ما فعلناه. وإذا كانت هناك لعبة نلعبها أثناء الحلم فهي بالتحديد لعبة القص واللصق. غير أن هيوم يؤكد أن جميع العناصر التي نجمعها في أفكارنا يجب أن تكون قد دخلت ذهننا على هيئة انطباعات بسيطة. فالشخص الذي لم ير الذهب قط لن يستطيع أبدا أن يتخيل شارعا من الذهب.

ـ لقد كان ذكيا حقا. ولكن ماذا يقول عن فكرة ديكارت الواضحة والمحددة عن ا لله؟

ـ كان لهيوم رد على ذلك أيضاً. فلنقل إننا نتخيل أن ا لله «كائن ذكي وحكيم ورحيم» بلا حدود. إن لدينا إذن «فكرة مركبة» تتألف من كائن ذكي بلا حدود، وكائن حكيم بلا حدود، وكائن رحيم بلا حدود. فإن لم نكن عرفنا قط الذكاء والحكمة والرحمة ما كنا لنستطيع أن نكون هذه الفكرة عن ا لله. وربما كانت لنا فكرة أخرى عن ا لله فنتصور مثلاً «أنه أب قاس لكنه عادل »، وهو مفهوم مؤلف من «الأب» و«القسوة»، و«العدل». وكثير ممن انتقدوا الأديان بعد هيوم قالوا إن أفكار الناس عن ا لله ترجع إلى الطريقة التي تصوروا بها آلهتهم في الصغر، إن فكرة الأب الفعلي قادتهم إلى فكرة «أبانا الذي في السماء».

ـ ربما كان هذا صحيحا، وإن كانت أمي تقول أحيانا، على سبيل إيجاد بعض التوازن، «أمنا التي في السماء».

ـ على أي حال لقد عارض هيوم كل الأفكار والتصورات التي لا يمكن أن نتتبع مسارها حتى نصل إلى انطباعات حسية بسيطة. وقال إنه يريد «أن يبدد كل المقولات الجوفاء التي طالما سيطرت على الفكر الميتافيزيقي (أي الفكر الذي يبحث فيما وراء الطبيعة) وأن ينزع عنها رونقها الزائف». ونحن نستخدم في حياتنا اليومية أفكارا مركبة دون أن نتساءل عن مدى صحتها أو زيفها. خذي مثلاً فكرة «الأنا»، التي يقصد بها عامة نواة ثابتة لشخصية الفرد. ألم يتخذ ديكارت من هذه الفكرة الواضحة والمحددة الأساس الذي شيد عليه فلسفته كلها؟

ـ أرجو ألا يكون هيوم قد حاول أن ينكر أني أملك «أنا» ثابتة خاصة بي وإلا لكان يلقي الكلام على عواهنه!

ـ اسمعي جيداً يا صوفيا: إذا كان هناك شيء واحد أريدك أن تتعلميه من هذه الدروس فهو عدم التسرع في استخلاص النتائج.

ـ اتفقنا، استمر...

ـ كلا، لماذا لا تستخدمين أنت منهج هيوم وتحللين ما تعتبرينه «الأنا» الخاصة بك؟

ـ لا بد أن أتساءل أولا إن كانت «الأنا» فكرة بسيطة أو مركبة.

ـ وماذا تستنتجين؟

ـ لا بد أن أسلم بأني أملك نفسا مركبة. فإني متقلبة المزاج مثلاً. كما أن من الصعب علي أحيانا أن أتخذ قرارا، ناهيك عن أني قد أحمل لشخص من الأشخاص مشاعر متناقضة.

ـ أي بعبارة أخرى إن مفهوم «الأنا» هو «فكرة مركبة».

- اتفقنا. والآن علي أن أتساءل عن مصدر هذه الفكرة المركبة، أي أن أتساءل إن كان لدي «انطباع مركب» أي مجموعة من الانطباعات البسيطة المختلفة أدى إلى تكوين فكرتي عن «الأنا» المركبة الخاصة بي. وأعتقد أن لدي هذا الانطباع المركب عن نفسي. لقد كان عندي دوما هذا الانطباع في الواقع...

- وهل في هذا ما يزعجك؟

- إنني عرضة للتغير المستمر. فأنا لست اليوم كما كنت من أربع سنوات. إن مزاجي وفكرتي عن نفسي يتغيران من فترة لأخرى. فأحيانا أشعر أني أصبحت فجأة شخصا آخر.

- إذا شعر الإنسان إذن أنه يمتلك «أنا» لا تتغير فإن شعوره هذا يكون زائفا. إن فكرة الأنا في الواقع سلسلة طويلة من الانطباعات البسيطة التي لا تعيشينها قط متزامنة في وقت واحد. فالأنا كما قال هيوم «ما هي إلا حزمة من الإدراكات المختلفة التي تتتابع بسرعة فائقة في حركة مستمرة لا تتوقف». والذهن «أشبه بخشبة مسرح تتعاقب عليها إدراكات مختلفة تدخل وتخرج وتختلط في طائفة لا محدودة من المواقف والأوضاع». وأوضح هيوم أننا لا نملك «هوية شخصية» ثابتة تكمن خلف هذه الإدراكات والمشاعر الذاهبة والآتية. إن الأمر أشبه بصور تتحرك على شاشة سينما. إنها تتحرك بسرعة شديدة فلا ندرك أن الفيلم مؤلف من صور فرادى. إن الصور غير متصلة ببعضها في الواقع. والفيلم ليس إلا مجموعة لقطات تتلاحق ولحظات تتوإلى.

- أعتقد أني أعلن التسليم!

- هل معنى ذلك أنك تتخلين عن فكرة أن لديك أنا ثابتة؟

- نعم فقد أقنعتني بذلك.

ـ تذكري أنك كنت تقولين العكس تماماً منذ لحظة واحدة. وعلي أن أضيف الآن أن تحليل هيوم للذهن الإنساني ورفضه لوجود «أنا» لا تتغير كان قد طرح قبله بنحو ٢٥٠٠ عام في الطرف الآخر من العالم.

ـ ومن الذي فعل ذلك؟

ـ بوذا. وتماثل طريقتيهما في التعبير عن أفكارهما أمر لافت للنظر حقا. لقد رأى بوذا أن الحياة سلسلة لا تنقطع من العمليات الذهنية والبدنية التي تترك الإنسان في حالة تغير متصل. إن الطفل الرضيع ليس هو الرجل الرشيد ؛ وأنا اليوم لست الشخص الذي كنته بالأمس. وقال بوذا ليس هناك ما يمكن أن أقول عنه «هذا يخصني»، وليس هناك من أستطيع أن أقول عنه «هذا أنا». ليست هناك بالتالي هذه «الأنا» أو النواة الثابتة للشخصية.

ـ معك حق، إن كلامه شديد الشبه بكلام هيوم.

ـ ولما تصوّر كثير من العقلانيين أن الأنا ثابتة لا تتغير قاموا بمد هذه الفكرة على استقامتها فقادتهم إلى تصور أن للإنسان روحا خالدة، فأخذوا هذه الفكرة أيضاً كحقيقة مسلم بها.

ـ وهل كانت هذه الفكرة زائفة أيضاً؟

ـ في رأي هيوم وبوذا نعم. هل تعرفين ماذا قال بوذا لتلاميذه قبل أن يموت؟

ـ من أين لي أن أعرف؟

ـ «التفكك مصير كل شيء مركب». وربما كان هيوم قد قال نفس الشيء. وربما ديموقريطس أيضاً. إننا نعرف على أي حال أن هيوم قد رفض أي محاولة لإثبات خلود الروح أو وجود الله. إلا أن ذلك لا يعني أنه استبعد احتمال خلود الروح أو امكانية وجود الله، ولكنه كان يعتقد أن إثبات الإيمان الديني بواسطة العقل البشري نوع من الهذيان العقلاني. إن هيوم لم يكن مؤمنا بالمسيحية كما أنه لم يكن ملحدا قاطعا. لقد كان لاأدرياً.

ـ وما هذا؟

ـ اللاأدري هو من يعتقد أن وجود ا لله لا يمكن إثباته أو نفيه. عندما كان هيوم على فراش الموت سأله أحد أصدقائه إن كان يؤمن بوجود حياة بعد الموت. فرد هيوم قائلا: «من الجائز أيضاً ألا تشتعل قطعة فحم ألقيت في النار».

ـ من الجائز فعلاً.

ـ وهذه الإجابة تعبر خير تعبير عن انفتاح ذهنه غير المشروط وعن تحرره من أي أفكار مسبقة أو أحكام متحيزة. إنه لم يكن يقبل إلا ما يدركه بحواسه. وأبقى كل الاحتمالات الأخرى مفتوحة. إنه لم يرفض لا الإيمان بالمسيحية ولا الإيمان بالمعجزات. ولكن يجب أن يكون واضحا أن كلا الأمرين يتعلقان بالإيمان، لا بالمعرفة ولا بالعقل. وربما جاز أن نقول إن الرابطة الأخيرة بين الإيمان والمعرفة قد انقطعت بفلسفة هيوم.

ـ هل قلت إنه لم ينكر أن المعجزات ممكنة الحدوث؟

ـ إلا أن هذا لا يعني في المقابل أنه كان يؤمن بها. لقد لاحظ أن الناس يشعرون فيما يبدو باحتياج قوي إلى ما نسميه اليوم بالخوارق أو الحوادث «فوق الطبيعية» أي التي لا تخضع للقوانين الطبيعية. غير أن كل المعجزات التي نسمع عنها حدثت دوما إما في مكان قصي بعيد وإما في زمن قديم غابر. والواقع إن هيوم لم ينكر المعجزات إلا لأنه لم يجرب قط أي معجزة منها. لكنه أكد في الوقت نفسه أنه لم يجرب قط أيضاً أن المعجزات لا يمكن أن تحدث أبدا.

ـ عليك أن تشرح مرة أخرى هذه النقطة الأخيرة.

ـ يرى هيوم أن المعجزة خرق لقوانين الطبيعة. ولكن لا معنى للزعم بأننا جربنا كل قوانين الطبيعة. لقد جربنا أن الحجر يسقط على الأرض إذا قذفناه إلى لأعلى، ولكن إذا لم يسقط، يكون هذا أيضاً أمرا جديدا نجربه كذلك.

ـ اني أرى من جهتي أن عدم سقوط الحجر معجزة، أو شيئا خارقا ينتمي لما وراء الطبيعة.

ـ هل تعتقدين اذن أن هناك طبيعتين: الطبيعة وما وراء الطبيعة. وهل ما وراء الطبيعة فكرة يمكن تتبعها وصولا إلى انطباع بسيط؟ ألا تعودين بذلك إلى أقاويل العقلانيين الغامضة؟

ـ ربما ولكني ما زلت أعتقد أن الحجر سيسقط على الأرض في كل مرة أرميه فيها.

ـ لماذا؟

ـ أنت حقا لحوح.

ـ أنا لست لحوحا يا صوفيا. فما أخطأ فيلسوف بسبب طرح الأسئلة. فربما كنا نتناول هنا النقطة الجوهرية في فلسفة هيوم كلها. أخبريني كيف يمكنك أن تتأكدي بهذا اليقين القاطع من أن الحجر سيسقط دائما على الأرض؟

ـ لقد رأيته يسقط مرات لا حصر لها ولذا فأنا متأكدة من ذلك بصورة مطلقة.

ـ كان هيوم سيقول لك إنك جربت سقوط الحجر على الأرض مرات عديدة. ولكنك لم تجربي قط أنه سيظل يسقط على الدوام. من الشائع أن نقول إن الحجر يسقط على الأرض بسبب قانون الجاذبية. ولكننا لَم نجرب قط هذا القانون، فاننا لم نجرب إلا الحدود التي يسرى فيها، إننا لم نجرب إلا سقوط الأشياء.

ـ أنا أرى هذه فكرة غامضة.

ـ تقولين إنك متأكدة من أن الحجر سيسقط على الأرض لأنك رأيت ذلك يحدث مرات كثيرة. وهذه هي بالتحديد المسألة التي ينبه إليها هيوم. لقد

اعتدت أن يحدث شيء بعد حدوث شيء آخر فـأصبحت تنتظرين أن يتكـرر حدوثه كلما ألقيت حجراً. ومن هنا نشأ مفهـوم مـا نسـميه «قوانـين الطبيعـة الثابتة ».

ـ هل تقصد حقا أن الحجر لن يسقط؟

ـ كان هيوم على الأرجح مقتنعا مثلك تماماً بأنه سيقع في كل مرة ترمينـه فيها. ولكنه أشار إلى أنه لم يجرب لماذا يحدث هذا.

ـ ألم نبتعد من جديد عن الأطفال والزهور؟

ـ لا على العكس، ويمكنك أن تستعيني بالأطفال كشهود علـى صحـة مـا يقوله هيوم. فمن سيكون في رأيك أكثر اندهاشـا إذا ظـل الحجـر محلقـا فـوق الأرض ساعة أو ساعتين أأنت أم طفل عمره سنتان؟

ـ أعتقد أني من سيكون أكثر دهشة.

ـ ولماذا؟

ـ لأنني أعرف أكثر من الطفل الصغير أن هذا أمر غير طبيعي.

ـ ولماذا لن يفكر الطفل في أنه أمر غير طبيعي.

ـ لأنه لم يتعلم بعد العلاقات بين الأشياء في الطبيعة.

ـ أو ربما لأن الطبيعة لم تصبح بعد عادة لديه؟

ـ أفهم قصدك. إن هيوم أراد للناس أن يظلوا يقظين.

ـ إليك الآن التمرين التالي: لنتخيل أنك ذهبت مـع طفـل صغـير لمشـاهدة بعض الألعاب السحرية حيث تحلق الأشياء في الهواء. من سيكون فيكما أكـثر استمتاعا بهذا العرض؟

ـ أنا غالبا.

ـ ولماذا؟

- لأنني سأعرف مدى استحالة هذا.

- إذن... فاستمتاع الطفل برؤية شيء يتعارض مع قوانين الطبيعة أقل من استمتاعك أنت لأنه لم يعرف بعد الاستحالة التي تتحدثين عنها.

- أعتقد أن هذا صحيح.

- ونحن ما زلنا عند النقطة الجوهرية في الفلسفة التجريبية التي وضعها هيوم. لقد كان سيضيف أن الطفل لم يصبح بعد عبدا للتوقعات التي تكونت لديه بحكم العادة، إن عقله إذن هو الأكثر تحررا من الأفكار المسبقة وهو الأكثر انفتاحا على كل الاحتمالات. وانني لاتساءل إن لم يكن الطفل هو الفيلسوف الأكبر حقا. إنه يأتي دون أي أفكار أو تصورات مسبقة. وتلك يا صوفيا أهم فضيلة يجدر بالفيلسوف أن يتحلى بها. إن الطفل يدرك العالم كما هو، دون أن يضيف إلى ما يعرفه عن طريق التجربة أي أفكار من عنده.

- كل مرة أدرك أن عندي فكرة مسبقة متحيزة أشعر بالأسف، هذا صحيح.

- عندما يناقش هيوم قوة العادة، يركز على «قانون العلية» (أو قانون السببية، أو العلاقة بين العلة والمعلول، أو بين السبب والنتيجة). وهذا القانون يقول إن كل شيء يحدث لا بد له من علة أو سبب. وضرب هيوم مثلاً بكرتين من كرات البلياردو. إذا دحرجت كرة بلياردو سوداء حتى تصطدم بكرة بيضاء ساكنة، ماذا ستفعل الكرة البيضاء؟

- إذا اصطدمت الكرة السوداء بالكرة البيضاء فإن الكرة البيضاء ستبدأ في الحركة.

- صح، ولكن لماذا؟

- لأنها تلقت دفعة الكرة السوداء.

ـ ولذلك فإننا نقول عادة إن دفعة الكرة السوداء هي سبب (أو علة) تحرك الكرة البيضاء. ولكن تذكري أننا لا نستطيع أن نتكلم إلا عما جربناه بالفعل.

ـ لقد جربت هذا مرات ومرات فنورا لديها طاولة بلياردو في بدرون بيتها.

ـ كان هيوم سيقول إن الشيء الوحيد الذي جربته هو أن الكرة البيضاء تبدأ في التدحرج على المائدة ولكنك لم تجربي العلة التي سببت الحركة. لقد جربت أن حدثا يأتي بعد حدث آخر ولكنك لم تجربي أن الحدث الثاني يقع بسبب الحدث الأول.

ـ أليس هذا نوعا من المماحكة والحذلقة؟

ـ لا، هذه مسألة بالغة الأهمية. لقد أكد هيوم أن توقع حدوث شيء بعد حدوث شيء آخر لا يكمن في الأشياء ذاتها، بل يكمن في أذهاننا. وقد رأينا أن هذا التوقع مرتبط بالعادة. فإذا رجعنا للطفل الصغير لوجدنا أنه لن يدهش إذا رأى كرة بلياردو تصطدم بالكرة الأخرى فتظل الاثنتان ساكنتين تماماً. إننا عندما نتحدث عن «قوانين الطبيعة» أو «قانون العلة والمعلول» أو «قانون السبب والنتيجة» فإننا نتحدث في الواقع عما نتوقعه أو ننتظره، وليس عما «هو معقول». إن قوانين الطبيعة لا هي معقولة ولا هي لامعقولة، إنها كما هي ببساطة. إن توقع تحرك كرة البلياردو البيضاء عندما تصطدم بها كرة البلياردو السوداء ليس إذن فكرة فطرية. إننا لا نولد بمجموعة من التوقعات عن طبيعة العالم أو عن كيفية سلوك الأشياء الموجودة في العالم. إن سلوك الأشياء في العالم أمر سندركه بحواسنا يوما بعد يوم،

ـ ما زلت أشعر أن كل هذا ليست له أهمية كبيرة.

ـ إنه مهم إذا كانت توقعاتنا تجعلنا نتسرع في استخلاص النتائج. إن هيوم لم ينكر وجود «قوانين الطبيعة» الثابتة، ولكن لما كنا لا نستطيع أن نجرب

هذه القوانين ذاتها أي اذا لم نترك احتمال عدم انطباقها قائماً في الذهن فإننا قد نصل بسهولة إلى نتائج خاطئة.

ـ هل لديك مثل يوضح ذلك؟

ـ إذا كنت قد رأيت قطيعا ضخما من الخيول السوداء فليس معنى هذا أن كل الخيول سوداء.

ـ لا بالطبع.

ـ وبرغم أنني لم أر في حياتي إلا غربانا سوداء فليس معنى هذا عدم وجود غراب أبيض. فمن المهم لكل من الفيلسوف والعالم ألا يستبعد العثور على غراب أبيض. بل ربما جاز لك أن تقولي إن البحث عن «الغراب الأبيض» هو مهمة العلم الأولى.

ـ نعم أفهم ما تريد قوله.

ـ وفيما يتعلق بمسألة السبب والنتيجة، ربما تخيل كثير من الناس أن البرق هو سبب الرعد لأن الرعد يحدث بعد البرق. وهذا المثل لا يختلف حقا عن مثل كرتي البلياردو. ولكن هل البرق هو سبب الرعد؟

ـيس بالضبط لأنهما يحدثان كلاهما في نفس الوقت.

ـ إن الرعد والبرق يحدثان كلاهما بسبب تفريغ كهربائي. إن عاملا ثالثا هو الذي يسببهما في الواقع.

ـ هذا صحيح.

ـ وقد ضرب أحد التجريبيين المعاصرين، وهو برتراند راسل، مثلاً أشد غرابة عن علاقة السبب بالنتيجة فقال: إذا تلقت دجاجة كل يوم طعامها بعد مرور زوجة الفلاح أمام الحظيرة سوف تستنتج الدجاجة علاقة سبب بنتيجة بين مرور زوجة الفلاح أمام الحظيرة وحصولها على الطعام.

ـ وإن لم تتلق الدجاجة طعامها ذات يوم؟

ـ نعم، سيأتي اليوم الذي تمر فيه زوجة الفلاح حقا أمام الحظيرة لكن مرورها لن تستتبعه النتيجة المنطقية التي تتوقعها الدجاجة وهو الحصول على الطعام إذ ستأتي زوجة الفلاح لتذبحها.

ـ ما أفظع هذا!

ـ إن حدوث شيء بعد شيء آخر لا يعني بالضرورة أن هناك علاقة سببية بينهما. إن من أهم ما تحرص عليه الفلسفة هو تحذير الناس من التسرع في استخلاص النتائج. فربما أدى هذا إلى التطير والايمان بالخرافات.

ـ وكيف هذا؟

ـ إذا رأيت قطة سوداء تعبر الطريق. ثم حدث بعد ذلك أثناء النهار أن سقطت على الأرض وكسر ذراعك، فهذا لا يعني أن هناك أي علاقة سببية بين الحادثين. ومن المهم بوجه خاص في مجال العلم عدم التسرع في استخلاص النتائج. فحتى إذا شفي مثلاً عدد من الناس بعد تناول دواء معين فهذا لا يعني بالضرورة أن هذا الدواء هو سبب شفائهم. ولذا فإن من المهم لدى اختبار أي دواء جديد أن تشمل التجربة مجموعة من المرضى تسمى المجموعة الضابطة تعتقد أنها تأخذ أيضاً نفس الدواء في حين أنها لا تتناول في الواقع إلا برشاماً مؤلفاً من دقيق وماء. فإذا شفي هؤلاء المرضى أيضاً فلا بد أن هناك سبباً ثالثاً هو الذي أدى إلى شفائهم، كالإيمان بتأثير الدواء مثلاً.

ـ أعتقد أني بدأت أفهم ماذا يعني المذهب التجريبي: ترك الباب مفتوحا أمام كل الاحتمالات التي قد تأتي بها التجربة.

ـ كما انتقد هيوم التفكير العقلاني في ميدان الأخلاق أيضاً. لقد أكد العقلانيون دوما على قدرة العقل الإنساني على تمييز الحق من الباطل والصواب من الخطأ. وقد صادفنا هذه الفكرة التي يطلق عليها الحق الطبيعي لدى كثير من الفلاسفة من سقراط حتى لوك. لكن هيوم لا يرى أن العقل هو الذي يقرر ما نقوله أو نفعله دائما.

ـ فما الذي يقرر إذن؟

ـ إنها مشاعرنا أو عواطفنا. إذا قررت أن تساعدي شخصا محتاجا فأنت تفعلين ذلك بدافع من شعورك لا من عقلك.

ـ وإذا لم أكن راغبة في مساعدة هذا الشخص؟

ـ وهذا أيضاً موقف يتعلق بالشعور. قد يكون موقفك هذا بغيضا، غير أننا لا نصفه بأنه معقول أو غير معقول.

ـ ولكن لا بد أن يكون هناك حد واضح. فالجميع يعرفون أن من الخطأ قتل إنسان.

ـ يرى هيوم أن كل الناس يحملون عاطفة تلقائية إزاء خير الآخرين. إن لدينا جميعا القدرة على إظهار التعاطف والمحبة. ولكن ذلك ليست له علاقة بالعقل.

ـ لست متأكدة من اقتناعي بذلك.

ـ من منظور عقلي محض قد يبدو من المفيد أحيانا التخلص من شخص مناويء، فإن كنت تريدين أن تحققي هدفا معينا وذلك الشخص يعترض سبيلك قد تكون فكرة التخلص منه «معقولة» ولا بأس بها على الاطلاق.

ـ كلا مهلا إني أحتج على هذا!

ـ فلتحاولي إذن أن تشرحي لي لماذا لا ينبغي قتل شخص مزعج؟

ـ لأن هذا الشخص يريد أن يعيش أيضاً. ولذلك لا ينبغي قتله.

ـ وهل هذا برهان منطقي؟

ـ لست أدري!

ـ إن ما فعلته هو أنك استخلصت من عبارة وصفية هي «هذا الشخص يريد أن يعيش أيضاً » نتيجة أو عبارة معيارية، أي عبارة تحدد ما يجب فعله

وهي: «ولذلك لا ينبغي قتله». ومن وجهة نظر «العقل» يعد هذا أمرا مخالفا للتفكير المنطقي. فربما جاز لك أيضاً أن تقولي على نفس المنوال «كثير من الناس يحتالون على الضرائب إذن يجب أن أحتال أنا أيضاً على الضرائب». لقد قال هيوم إننا لا يمكن أن نستنتج من عبارات تصف ما هو كائن عبارات تصف ما يجب أن يكون. غير أن هذا أمر شائع على نطاق واسع فنحن نراه في مقالات الصحف، وبرامج الأحزاب السياسية، والمناقشات البرلمانية. أتريدين أن أعطيك بعض الأمثلة؟

- إني أتوق لذلك حقا.

- «يريد عدد متزايد من الناس أن يسافروا بالطائرات (عبارة وصفية تصور ما هو كائن). ولذلك يجب بناء مزيد من المطارات».(عبارة معيارية تقرر ما يجب أن يكون) هل تعتقدين أن هذا استنتاج سليم؟

- لا، فلا بد أن نفكر في البيئة. والأجدر بنا أن نبني مزيدا من السكك الحديدية.

- أو يقولون: «إن استغلال حقول بترول جديدة سيرفع مستوى المعيشة بنسبة ١٠ في المائة. ولذلك يجب أن نبدأ في استغلالها في أسرع وقت ممكن».

- كلا بالتأكيد. فعلينا أن نفكر في البيئة مرة أخرى ثم أن مستوى المعيشة في النرويج عال بما فيه الكفاية.

- وأحيانا يقال «هذا القانون أصدره مجلس الشيوخ، ولذلك يجب أن يخضع له جميع المواطنين». في حين أن الخضوع لهذا النوع من القوانين قد يتعارض مع أعمق قناعات الناس.

- نعم إني أفهم قصدك الآن.

- لقد أوضحنا إذن أننا لا يمكن أن نتخذ من العقل مقياسا يدلنا على ما يجب أن نفعله. إن السلوك المسؤول لا يتعلق بتقوية ملكاتنا العقلية بل بتعميق

مشاعرنا وعواطفنا إزاء خير الآخرين. لقد قال هيوم «ليس مما يخالف العقل تفضيل دمار العالم كله على تحمل خدش إصبع واحد».

ـ هذا قول فظيع!

ـ لعلك تعلمين مثلاً أن النازيين قد قتلوا الملايين. فهل تقولين إن الخطأ كان في عقل النازيين ومنطقهم، أم كان في مشاعرهم وعواطفهم؟

ـ من المؤكد أن الخطأ كان في مشاعرهم وعواطفهم.

ـ كان كثيرون منهم شديدي الذكاء. وليس من النادر أن نجد خلف أقسى القرارات وأكثرها فظاظة حسابات عقلية باردة. لقد تمت إدانة كثير من النازيين بعد الحرب، على أنهم لم يدانوا لأنهم تصرفوا بطريقة غير منطقية. لقد أدينوا لأنهم كانوا قتلة غلاظ القلوب. قد يحدث أن تُبرَّأ ساحة ضعاف العقول وألا يدانوا على جرائمهم. سيقال إنهم «غير مسؤولين عن أفعالهم». ولكن لم يحدث قط أن يُبرِّىء شخص من جريمة ارتكبها لأنه فاقد الحس أو عديم الشعور.

ـ لم يبق إلا هذا.

ـ غير اننا لا ينبغي أن نقتصر على أشد الأمثلة فظاعة. فإذا أدى أحد الفيضانات إلى تشريد ملايين البشر فإن مشاعرنا هي التي ستقرر إن كنا سنهب لمساعدة هؤلاء المنكوبين أم لا. فإن كنا قساة غلاظ القلوب وتركنا كل شيء «للعقل البارد»، فربما تصورنا أنه ليس من السيء في نهاية المطاف أن يموت ملايين البشر في عالم تهدده الزيادة السكانية.

ـ إن مجرد نطقك بهذا الكلام يصيبني بالجنون!

ـ ولكن لاحظي أن هذا لا يصدم عقلك وإنما يصدم مشاعرك!

ـ شكرا لقد فهمت!

الفصل الثاني والعشرون

بيركلي

... مثل كوكب يدور

حول شمس تلتهب...

سار ألبرتو إلى النافذة المطلة على المدينة فتبعته صوفيا ووقفت إلى جانبه. وبينما هما يتطلعان إلى البيوت القديمة ظهرت طائرة صغيرة تطير فوق أسطح المنازل. وأبصرت صوفيا لافتة طويلة معلقة في ذيلها فتصورت أنها إعلان عن إحدى السلع أو عن حفل موسيقي. لكن عندما اقتربت الطائرة رأت صوفيا على اللافتة عبارة تقول:

كل سنة وأنت طيبة يا هيلدا!

ـ إنه حقا عنيد!

كان هذا هو تعليق ألبرتو الوحيد.

أخذت السحب القاتمة تتوافد من جهة التلال الجنوبية وبدأت تتجمع فوق المدينة. وسرعان ما اختفت الطائرة الصغيرة وسط السحاب الداكن. وقال ألبرتو:

ـ أخشى أن تكون العاصفة وشيكة.

ـ سآخذ الأتوبيس إذن عند عودتي للبيت.

ـ أرجو ألا يكون الضابط وراء هذه العاصفة أيضاً.

ـ هل هو قادر على كل شيء إذن؟

لم يجب ألبرتو وسار ليجلس على الأريكة بجوار المائدة الصغيرة. وما لبث أن قال:

ـ علينا أن نتحدث الآن عن بيركلي.

كانت صوفيا قد عادت إلى مكانها وعندما سمعت ما قال ألبرتو عن الضابط تنبهت إلى أنها مستغرقة في قرض أظافرها. وقال ألبرتو:

ـ كان جورج بيركلي أسقفاً ايرلندياً عاش من عام ١٦٨٥ حتى عام ١٧٥٣.

وسكت ألبرتو لحظة فكررت صوفيا ما قاله:

ـ كان بيركلي أسقفا ايرلنديا...

.ولكنه كان فيلسوفا أيضاً...

ثم؟

ـ لقد شعر بأن كلا من العلم والفلسفة السائدة في عصره يهددان بتقويض التصور المسيحي للعالم، وبأن النزعة المادية الآخذة في الانتشار تزعزع الإيمان المسيحي با لله، خالق الطبيعة وحافظها.

ـ استمر...

ـ وفي الوقت ذاته كان بيركلي أكثر التجريبيين اتساقا مع المذهب التجريبي.

ـ هل كان يعتقد أننا لا نستطيع أن نعرف من العالم إلا ما ندركه من خلال حواسنا؟

ـ لقد مضى إلى مدى أبعد فقال إن الأشياء الموجودة في العالم مطابقة تماماً للصورة التي ندركها بها، ولكنها ليست «أشياء».

ـ هذه مسألة تحتاج إلى شرح!

ـ لعلك تذكرين أن لوك قال إننا لا نستطيع أن نقطع برأي في الكيفيات أو الصفات الثانوية للأشياء. فنحن لا نستطيع أن نقول إن التفاحة حمراء

وحلوة. كل ما نستطيع قوله هو إننا ندركها على هذا النحو. لكن لوك قال من جهة أخرى إن الصفات الأولية مثل الشكل والوزن والكثافة والحجم تنتمي بالفعل إلى الواقع الخارجي المحيط بنا. فالواقع الخارجي له في الحقيقة «جوهر مادي».

ـ أتذكر هذا وأعتقد أن تقسيم لوك للأشياء كان بالغ الأهمية.

ـ نعم يا صوفيا، هذا إن كانت الأشياء موجودة أصلا...

ـ استمر!

ـ كان لوك يعتقد، مثله مثل ديكارت وسبينوزا، أن العالم المادي حقيقة واقعة.

ـ وإذن!

ـ وهذا هو بالتحديد ما شكك فيه بيركلي، وقد فعل ذلك بمنطق المذهب التجريبي نفسه. إذ قال إن الشيء الوحيد الموجود هو الشيء الذي ندركه بحواسنا. ولكننا لا ندرك «المادة» أو «الجوهر المادي». فافتراض أن ما ندركه له «جوهر» سابق يعني التسرع في استخلاص النتائج: فنحن نفتقر افتقارا مطلقا لأي تجربة نستند إليها في زعم كهذا.

ـ هذا هراء. انظر!

قالت صوفيا هذا ثم هوت بقبضتها على الطاولة وصاحت:

ـ آه!! ألا يثبت هذا أن هذه الطاولة طاولة حقيقة مصنوعة من المادة وأنها شيء مادي؟

ـ بم أحسست؟

ـ أحسست بأن يدي اصطدمت بشيء صلب.

ـ لقد تولد لديك انطباع أو ادراك حسي واضح بشيء صلب ولكنك لم تدركي المادة ذاتها للطاولة. وبالمثل، قد تحلمين بأنك اصطدمت بشيء صلب ولكن أتوجد في الحلم أية مادة؟

ـ لا، ليس في الحلم.

ـ يمكن أيضاً أن يشعر شخص ما تحت تأثير ما يسمى التنويم المغناطيسي شعورا فعليا بالحرارة أو البرودة أو بلمسة رقيقة أو بلكمة قوية.

ـ ولكن إن لم تكن الطاولة مادة صلبة حقا فما الذي جعلني أشعر بأني اصطدمت بشيء صلب؟

ـ إن بيركلي يؤمن بأن السبب في هذا هو «الإرادة» أو «الروح». إنه يعتقد أن كل أفكارنا لها سبب خارجي يتجاوز وعينا، ولكن هذا السبب ليست له طبيعة مادية وانما طبيعة روحانية.

بدأت صوفيا تقرض أظافرها مرة أخرى. وواصل ألبرتو حديثه:

ـ يرى بيركلي أن روحي قد تكون سبب أفكاري، كما يحدث عندما أحلم مثلاً. ثم يمد هذا المنهج على استقامته فيقول إن كل الأشياء التي تؤلف عالمنا المادي ما هي إلا أفكار لإرادة أو روح هي التي ينشأ عنها كل شيء. فهي كما قال سبب كل شيء، وهي الفاعلة في كل شيء، وهي ما يتألف منها كل شيء.

ـ وعن أي روح كان يتكلم؟

ـ كان بيركلي يفكر في الله بالطبع. بل لقد قال «إننا نستطيع أن ندرك وجود الله بوضوح يفوق ادراكنا لوجود الإنسان».

ـ وهل ذهب إلى حد التشكيك في وجودنا نفسه؟

ـ نعم ولا. لقد قال بيركلي إن كل ما نراه ونحسه هو «مظهر من مظاهر قدرة الله». كما قال «إن الله كامن في صميم وعينا يخلق هذا الحشد الهائل

من الأفكار والانطباعات التي تعرض لنا بصفة مستمرة». إن كل العالم المحيط بنا وكل حياتنا توجد في الله، إنه السبب الوحيد لكل ما هو موجود، إننا لا نوجد إلا في ذهن الله.

ـ إنه أمر يصيب بالذهول حقا.

ـ إذن «نكون أو لا نكون» ليس هو كل السؤال. إن السؤال أيضاً هو من نحن؟ هل نحن حقا بشر من لحم ودم؟ هل عالمنا يتألف من أشياء حقيقية، أم أننا محاطون بالوعي من كل الجهات؟

استمرت صوفيا تقرض أظافرها، ومضى ألبرتو يقول:

ـ لم يكن الواقع المادي هو الشيء الوحيد الذي شكك فيه بيركلي. فقد تساءل أيضاً عما إذا كان «الزمان» و «المكان» يتمتعان بأي وجود مطلق أو مستقل. فربما كان إدراكنا للزمان والمكان ليس سوى تصور خلقه الذهن. إن أسبوعا أو أسبوعين بالنسبة لنا ليس بالضرورة اسبوعا أو اسبوعين بالنسبة لله...

ـ لقد قلت إن هذه الروح التي يوجد فيها كل شيء هي، بالنسبة لبيركلي، الله.

ـ نعم أعتقد أني قلت ذلك. أما بالنسبة لنا نحن...

ـ نحن؟

ـ بالنسبة لنا نحن أي أنا وأنت فإن هذه «الارادة أو الروح» التي هي سبب كل شيء يحدث في عالمنا قد تكون والد هيلد!

هبط على صوفيا صمت مطبق. واتخذت ملامحها هيئة علامة استفهام كبيرة إلا أنها قد فهمت فورا معنى كلام ألبرتو.

ـ هل هذا ما تظنه؟

ـ لا أستطيع أن أرى أي احتمال آخر. لعل هذا هو التفسير الوحيد لكل ما يحدث لنا. كل هذه البطاقات البريدية وكل المصادفات الغريبة التي تحدث هنا وهناك، ثم هرمس الذي يبدأ في الكلام، ثم لساني الذي يزل فأناديك باسم آخر.

ـ أنا...

ـ تخيلي أني ظللت أناديك صوفيا بينما أنت هيلد! لقد كنت أعرف طول الوقت أن اسمك ليس صوفيا.

ـ ماذا تقول؟ يبدو أن رأسك يلف، فقد بدأت الأمور تختلط عليك.

ـ نعم إن رأسي يلف يا ابنتي مثل كوكب يدور حول شمس تلتهب...

ـ وهل تلك الشمس هي والد هيلد؟

ـ يمكنك أن تقولي هذا.

ـ هل تقصد أنه نوع من الله بالنسبة لنا؟

ـ إذا أردت الصراحة نعم. ولكنه يجب أن يخجل من نفسه!

ـ وماذا عن هيلد نفسها؟

ـ إنها ملاك يا صوفيا.

ـ ملاك؟

ـ إن هيلد هي من تتوجه إليها هذه «الروح».

ـ هل تقصد أن ألبرت كناج يحدث هيلد عنا؟

ـ أو أنه يكتب عنا. لأننا لا نستطيع أن ندرك بحواسنا المادة التي صنع منها عالمنا. هذا ما تعلمناه توا من بيركلي. إننا لا نستطيع أن نعرف إن كان واقعنا الخارجي مصنوعا من موجات صوتية أو من ورق وكلمات. إن كل ما نعرفه، في رأي بيركلي، هو أننا مخلوقون من روح.

ـ وهيلد ملاك إذن...

ـ نعم وهذه الكلمة هي خير ختام. كل سنة وأنت طيبة يا هيلد!

وفجأة غمر الغرفة ضوء أزرق وما لبث أن سمع صوت الرعد يهز المبنى كله. فقالت صوفيا:

ـ لا بد أن أعود الآن إلى البيت.

ونهضت ومضت إلى الباب وبينما هي تهم بالخروج أفاق هرمس من غفوته وخيل لها أنها سمعته يقول «إلى اللقاء يا هيلد».

نزلت صوفيا السلم مسرعة وركضت إلى الشارع. كان خاليا تماماً من المارة، وسرعان ما أخذ المطر يهطل مدرارا.

رأت سيارة أو سيارتين تشقان طريقهما تحت المطر المنهمر ولكنها لم تلمح أي أتوبيس في مجال البصر. جرت صوفيا عبر الميدان الكبير في اتجاه المدينة. وبينما هي تجري ظلت فكرة واحدة تدور في رأسها: «إن غدا عيد ميلادي». أليس من القسوة أن اكتشف عشية عيد ميلادي الخامس عشر أن الحياة مجرد حلم؟ كأنما تحلم بأنك فزت بجائزة ضخمة وما إن تهم بتسلمها حتى تفيق من النوم.

أخذت صوفيا تركض ما وسعها الركض عبر الملعب المليء بالمياه وما لبثت أن رأت شخصا يجري نحوها، ثم تبينت من بعيد طيف أمها. وعادت السماء تبرق وترعد من جديد.

عندما تلاقتا احتضنتها أمها وقالت:

ـ ما الذي يحدث لنا يا حبيبتي؟

فأجابت صوفيا والدموع تنهمر من عينيها:

ـ لست أدري، إنه حلم فظيع.

الفصل الثالث والعشرون

باركلي

... مرآة سحرية قديمة اشترتها
جدتها من امرأة غجرية...

استيقظت هيلد مولر كناج في غرفتها العلوية ذات السقف المائل بالبيت القديم الذي يقع في احدى ضواحي مدينة ليلساند الصغيرة. نظرت في الساعة. كانت السادسة لكن أشعة الشمس كانت تغمر الغرفة بنور الصباح.

نهضت من فراشها ومضت إلى النافذة. في طريقها وقفت أمام المكتب ونزعت ورقة من نتيجة الحائط: الخميس ١٤ يونيو (حزيران) ١٩٩٠. طوت الورقة ثم ألقتها في سلة المهملات...

الجمعة ١٥ يونيو (حزيران) ١٩٩٠، هذا ما تقول النتيجة. الآن تتذكر أنها كتبت منذ شهر يناير (كانون الثاني) على هذه الصفحة «١٥ سنة». كانت سعيدة بيوم ميلادها وسعيدة لأنها تتم ١٥سنة في يوم ١٥ من الشهر: فهذه المصادفة لن تتكرر مرة أخرى!

١٥ سنة! أليس هذا هو أول يوم في أولى سنوات النضج؟ لا يجوز لها اليوم أن تعود متثائبة كسلى إلى سريرها. كما أنه آخر يوم دراسي قبل عطلة الصيف. إن كل التلاميذ سيلتقون أمام الكنيسة في الواحدة تماماً للاحتفال بنهاية الدراسة. والأهم من كل ذلك أن أباها سيعود من لبنان بعد أسبوع واحد. فقد وعدها أن يحضر ليلة عيد منتصف الصيف.

وبينما تتطلع من النافذة إلى الخليج الصغير، تذكرت كيف نجحت، وهي فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها ست سنوات، في أن تركب في القارب وكيف أخذت تجدف وحدها داخل الخليج. غير أنها ما لبثت أن سقطت في الماء

ولاتدري بأي معجزة نجحت في الوصول إلى الشاطىء. وتذكرت كيف تمكنت وهي مبتلة تماماً من عبور الصخور والنباتات المتكاثفة التي تحيط بالشاطيء والوصول إلى حديقة البيت. وكيف لمحتها أمها وجرت تركض نحوها بينما كان التيار يدفع بالقارب والمجدافين إلى أعلى الخليج. وما زالت تحلم أحيانا بالقارب المهجور وسط الخليج فقد كانت تجربة تركت في نفسها أثرا لا يمحى.

لا تستطيع أن تقول إن حديقتها بارعة التنميق أو فائقة التنسيق، ولكنها فسيحة واسعة، ثم هي قبل كل شيء الحديقة التي نشأت في ربوعها. لم يصمد أمام عواصف الشتاء إلا شجرة التفاح وبعض أشجار التوت. وكانت تتوسط بساط النجيل الممتد بين صخور الجرانيت التي تحف بالشاطىء والنباتات الشعثاء التي تحيط بالحديقة أرجوحة قديمة تلوح مهجورة في ضوء الصباح، ولعل ما جعلها تبدو معزولة متنائية أن الوسادات قد جمعت من عليها. لا بد أن أمها قد سارعت بلمها مساء أمس عندما أحست بمقدم العاصفة.

الحديقة الواسعة محاطة بأشجار البتولا التي توفر لها بعض الحماية، على الأقل من العواصف العادية. وبسبب هذه الأشجار، سمي البيت منذ أكثر من مائة عام: «باركلي»، أي في «حمى البتولا».

كان جد هيلد الأكبر قد بنى البيت في السنوات الأخيرة من القرن الماضي. كان يعمل قبطانا لواحدة من أخريات السفن الشراعية الكبيرة. ولذا ما زال كثير من الناس يطلقون على هذا المنزل القديم «بيت القبطان».

الحديقة ما زالت تحمل في هذا الصباح آثار الأمطار الغزيرة التي هطلت فجأة مساء الأمس. لقد أيقظ دوي الرعد الشديد هيلد عدة مرات تلك الليلة. أما اليوم فلم تكن في السماء سحابة واحدة.

في هذا الصباح كان كل شيء يشع بالنضارة بعد أن اغتسل بأمطار الصيف التي تنهمر في عاصفة مبرقة مرعدة ثم لا تلبث السماء أن تنكشف من

جديد عن زرقتها الصافية. لقد استمر الجو حارا جافا عـدة أسـابيع حتى بـدأ الإصفرار يظهر على أطراف أوراق شجر البتولا. أما الآن فكأنما العالم كله قد تحمم فأصبح متألقا طلقا. في هذا الصباح أحست هيلد أن عاصفة الأمـس قـد غسلت طفولتها فكأنما ولدت من جديد.

«نعم، ينتعش حنين غامض عندما تتفتح براعم الربيع...» ألم تكن شاعرة سويدية هي التي قالت شيئا بهذا المعنى؟ أم كانت شاعرة فنلندية؟

وقفت هيلد أمام المرآة الكبيرة ذات الإطار النحاسي المعلقـة على الحـائط فوق صوان جدتها القديم.

أهي جميلة؟ إنها ليست قبيحة الشكل على أي حـال. ربمـا هـي متوسـطة الجمال...

شعرها أشقر طويل. تمنت هيلد دوما أن يكون شعرها إمـا أفتـح قليـلا أو أدكن قليلا. فهـذا اللـون الوسـط لم يكـن يـروق لهـا. إلا انـه كـان في المقـابل متموجا في رقة. وما أكـثر صديقاتهـا اللاتـي حـاولن بكـل الحيـل أن يكسـبن شعرهن هذا التموج اللين لكـن شـعر هيلـد كـان يتمتـع بطبيعتـه دومـا بتلـك الحركة المتثنية الرقيقة. أما عيناها فمـا أروع خضرتهمـا الداكنـة. وهـي تذكـر كيف كان أعمامها وعماتها يبدون دهشتهم كلما انحنوا يقبلونها وهي صغيرة ويقولون: «من أين جئت بهذه الخضرة العجيبة يا هيلد؟»

حاولت هيلد أن تتبين ما إذا كانت الصورة التي تتطلـع إليهـا هـي صـورة فتاة أم صورة إمرأة شابة. ثم اسـتقر رأيهـا علـى أنهـا لا هـذه ولا تلـك، ربمـا أصبح جسمها حقا جسم امرأة غير أن وجههـا مـا زال مستديرا كوجـه فتـاة صغيرة.

في هذه المرآة القديمة شيء يذكرها دوما بأبيها. إذ كانت معلقة من قبـل في «المكتب». وهذا المكتب غرفة واسعة مشيدة فوق حظـيرة القـارب، تضـم «خلوة» أبيها ومكتبته والمكتب الذي يعمل عليه. وكان ألـبرت، كمـا تناديـه

هيلد عند وجوده بالبيت، يريد دوما أن يؤلف كتابا له قيمته. وقد حاول ذات مرة أن يكتب رواية لكنه لم يتمها قط. كان ينشر من حين لآخر في إحدى المجلات بعض القصائد والمقالات عن الحياة في المنطقة. وكانت هيلد تشعر بفخر شديد كلما رأت اسمه مطبوعاً **ألبرت كناج**. على أن هذا الاسم كان معروفا على أي حال في ليلساند إذ كان هو أيضاً اسم جدها الأكبر.

يا لها حقا من مرآة! تتذكر هيلد أن جدها قد مزح معها منذ سنوات بعيدة قائلا إنها المرآة الوحيدة التي يستطيع المرء أن يبصر نفسه فيها وهو يغمز بكلتا عينيه. فتلك مرآة فريدة، بل هي مرآة مسحورة شديدة القدم اشترتها جدتها الكبرى، بعد زواجها بفترة قصيرة، من امرأة غجرية.

وقد حاولت هيلد أن تجرب مرارا ما قال جدها ولكن النتيجة التي تنشدها كانت مستحيلة كاستحالة ان يفلت الإنسان من خياله. ولما لاحظ أبوها شغفها هذا بالمرآة أهداها إليها فوضعتها في غرفتها ولا يكاد شهر يمضي دون أن تجرب محاولة جديدة، مرة ومرات.

ليس من المدهش أن تكون مستغرقة اليوم في أفكارها. وليس من الغريب أن تكون مشغولة بنفسها: ١٥ سنة...

في هذه اللحظة وقع بصرها على المائدة الصغيرة المجاورة لسريرها فلمحت لفة كبيرة مغلفة بورق أزرق جميل ومربوطة بشريط حريري أحمر. لا بد أنها هدية عيد ميلادها!

أيمكن أن تكون هذه هي «الهدية»؟ أهي هدية والدها الكبيرة التي أحاطت بها أسرار كثيرة؟ لقد أشار إليها إشارات عابرة في البطاقات التي أرسلها من لبنان. ولكنه كان كما قال قد «فرض على نفسه رقابة صارمة» فلم يفصح عن طبيعتها.

كما كتب أن هذه الهدية «تكبر شيئا فشيئا ». ثم قال شيئا عن فتاة ستقابلها قريبا وإنه كان يرسل إليها نسخا من جميع بطاقاته البريدية. وقد

حاولت هيلد أن تعرف المزيد من أمها إلا أن أمها لم تكن تدري بدورها ما الذي يقصده ألبرت.

أما أغرب إشارة قالها فهي ان الهدية ربما أمكن «اقتسامها مع الآخرين». ليس من الغريب أن يعمل أبوها في الأمم المتحدة! إذا كان عند أبيها فكرة ثابتة، وما أكثر ما عنده من أفكار ثابتة، فهي أن الأمم المتحدة يجب أن تنهض بمسؤولية شاملة عن العالم بأسره. ألم يكتب في إحدى البطاقات «كم أتمنى أن تنجح الأمم المتحدة في توحيد البشرية كلها».

هل يجوز لها أن تفتح هديتها قبل أن تأتي أمها لغرفتها حاملة لها الإفطار والحلوى وهي تغني «سنة حلوة يا جميل»؟ بالتأكيد، وإلا لما وضعت الهدية بجانب سريرها.

مشت هيلد بهدوء نحو المائدة وأخذت هديتها. ما أثقلها! وجدت عليها قصاصة صغيرة تقول: «إلى هيلد في عيد ميلادها الخامس عشر من بابا».

جلست على السرير وفكت بعناية الشريط الحريري الأحمر ثم فكت الورق الأزرق. إنه ملف كبير!

هل هذه هي هديتها؟ هل هذه هدية عيد ميلادها الخامس عشر التي لم يتوقف الحديث عنها؟ هل هذه هي الهدية التي تكبر شيئا فشيئا ويمكن اقتسامها مع الآخرين؟

اكتشفت هيلد بلمحة سريعة أن الملف مليء بأوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة. وعرفت على الفور أنها كتبت بالآلة الكاتبة الخاصة بأبيها التي اصطحبها معه إلى لبنان.

هل كتب كتابا من أجلها؟

رأت على الصفحة الأولى العنوان مكتوبا بخط اليد:

وفي أسفل الصفحة كتب بالآلة الكاتبة بيت من الشعر يقول:

نور العقل للإنسان كنور الشمس للأرض

جروندفيج

قلبت هيلد الصفحة فرأت بداية الفصل الأول. كان عنوانه «**جنة عدن**». جلست في سريرها ووضعت الملف على ركبتيها وبدأت تقرأ:

كانت صوفيا اموندسن عائدة من المدرسة. الشوط الأول من الطريق تقطعه صوفيا مع صديقتها نورا، وقد ألفت هذه الصحبة اليومية بينهما فأصبحت نورا أحب صديقة إلى قلبها. تخرجان من المدرسة فلا تكفان عن الحديث والثرثرة. في ذلك اليوم أخذت نورا تحكي عن فيلم شاهدته، بطله إنسان آلي يأتي بالأعاجيب واندفعت تقول في حماسة إن عقل الإنسان ما هو إلا حاسب آلي مركب معقد، غير أن صوفيا لم توافقها تماماً على هذا الرأي، وقالت أليس الإنسان أيضاً مشاعر وروحا؟ فكيف يمكننا يا نورا اختزال الإنسان إلى مجرد آلة صماء؟

استمرت هيلد في القراءة وسرعان ما نسيت كل شيء آخر، لقد نسيت حتى أن اليوم هو عيد ميلادها. وبين حين وآخر كانت فكرة تتسلل إلى خاطرها كأنما خرجت من بين السطور فتتساءل: هل كتب أبوها رواية؟ هل بدأ أخيرا روايته الكبرى وأنهاها في لبنان؟ لقد كان كثيراً ما يشكو من ساعات الفراغ الطويلة هناك...

والد صوفيا أيضاً يطوف بأقاصي العالم. لا بد أنها الفتاة التي ستتعرف هيلد عليها...

ما إن تتقبل فكرة أن حياتها ستنتهي يوما حتى تشعر أكثر من أي وقت مضى بأي نعمة كبرى تنعم بها إذ تتردد فيها أنفاس الحياة... من أين جاء العالم... كان لا بد في لحظة معينة أن ينبثق شيء ما من العدم. فهل هذا أمر يمكن تصوره؟ ولكن أليس من المستحيل، في المقابل، تصور أن العالم قد وجد من قديم الأزل؟

أخذت هيلد تقلب الصفحة وراء الأخرى وما لبثت أن أصابتهـا الدهشـة عندما قرأت عن تلقي صوفيا أموندسن بطاقة بريدية من لبنان:

هيلد مولر كناج

طرف/صوفيا اموندسن

٣ ممر النرجس...

عزيزتي هيلد،

ها أنت تتمين خمسة عشر ربيعا، فلك كل أمنياتي الطيبة. أنت تعرفين اني حريص على أن أقدم اليك بهذه المناسبة هدية غير تقليدية، هدية تستعينين بها وانت تتهيأين لخوض تحولات النمو والنضوج. سامحيني لارسالي هذه البطاقة على عنوان صوفيا، فقد كان من الأسهل التصرف على هذا النحو.

قبلاتي.

بابا

الماكر! تعرف هيلد أن أباها كان دوما بارعـاً في ابتكـار الحيـل أمـا اليـوم فقد عرف حقا كيف يفاجئها! فبدلا من أن يضع بطاقة الاهداء مع لفة الهديـة أدخلها في نسيج الرواية!

لكن صوفيا المسكينة! لا بد أن الأمور قد اختلطت عليها تماماً!

لأي غرض يرسل أب لابنته بطاقة للتهنئـة بعيـد ميلادهـا علـى عنـوان صوفيـا؟ وأي أب هذا الذي ترد علي باله تلك الفكرة الخرقاء التي تجعله يحرم ابنته من تسـلم بطاقة عيد ميلادها بارسالها عمدا إلى عنوان آخر؟ ولماذا «كان من الأسهل التصـرف على هذا النحو»؟ وقبل هذا وذاك كيف يمكنها أن تعثر على هيلد هذه؟

حقا كيف ستفعل هذا؟

وبدأت هيلد تقرأ الفصل الثاني، **القبعـة الطويلـة**. ثـم وصلـت إلى الرسـالة الطويلة التي كتبها الشخص الغامض لصوفيا.

إن الرغبة في معرفة لماذا نعيش ليست اذن شاغلا «جانبيا» أو ثانويا مثل الاهتمام بجمع الطوابع. ومن يطرحون هذا النوع من الأسئلة يهتمون بقضايا ما برح الناس يناقسونها منذ أن عاش الإنسان فوق هذا الكوكب...

ظلت صوفيا مأخوذة دهشة.

وكذلك كانت هيلد. إن أباها لم يكتب لها مجرد كتاب في عيد ميلادها الخامس عشر وإنما كتب كتابا عجيبا ورائعا.

خلاصة القول: إن أرنبا أبيض قد خرج من قبعة طويلة، ولكنه لما كان أرنبا ضخما فان هذه الحيلة السحرية قد استغرقت عدة مليارات من السنين. كل الناس يولدون على طرف الشعيرات الدقيقة لفراء الأرنب، ويتيح لهم موقعهم هذا الفرصة للتعجب من براعة الحيلة السحرية. ولكن كلما تقدم بهم العمر أخذوا ينزلقون شيئا فشيئا داخل فراء الارنب إلى أن يمكثوا في القاع...

ليست صوفيا هي الوحيدة التي شعرت أنها على وشك أن تجد لنفسها مكانا مريحا في أعماق فراء الأرنب. اليوم عيد ميلاد هيلد الخامس عشر وهي تشعر أن الوقت قد حان لتختار الطريق الذي تريد أن تسير فيه.

وقرأت هيلد عن فلاسفة الطبيعة اليونانيين. كانت تعرف أن والدها مهتم بالفلسفة. وكان قد كتب مقالة في إحدى الصحف يقترح فيها أن تصبح الفلسفة مادة إجبارية في المدرسة. وكان عنوانها «لماذا ينبغي أن تصبح الفلسفة جزءا من المناهج المدرسية؟». بل لقد أثار هذه المسألة في اجتماع لمجلس آباء فصل هيلد. وتذكر هيلد كيف أن تحمسه المفرط في هذا الاجتماع قد سبب لها حرجا بالغا.

نظرت إلى الساعة إنها السابعة والنصف. من حسن الحظ أن أمها لن تحضر الإفطار قبل نصف ساعة لأنها الآن مستغرقة تماماً في تتبع مغامرات صوفيا وجميع تلك المسائل الفلسفية. قرأت الفصل المخصص لديموقريطس. كان على صوفيا أولا أن تفكر في السؤال الذي يقول: لماذا تعتبر لعبة اللوحو أبرع لعبة في العالم؟ ثم وجدت بعد ذلك ظرفا كبيرا أصفر في صندوق البريد؟

كان ديموقريطس متفقاً مع الفلاسفة الذين سبقوه في أن التغيرات التي نلاحظها في الطبيعة ليست نتيجة «تحول» حقيقي. فافترض أن كل الأشياء لا بد أن تكون اذن مشكلة من وحدات بنائية ضئيلة غير مرئية، وأن كل وحدة منها تعتبر إذا اخذناها على حدة سرمدية أبدية وثابتة لا تتغير. واطلق ديموقريطس على هذه الوحدات متناهية الدقة اسم الذرات.

شعرت هيلد باستياء شديد عندما وجدت صوفيا الشال الحريري الأحمر تحت سريرها. لقد ضاع هناك إذن! ولكن كيف يمكن أن يختفي الشال هكذا في رواية؟ لا بد أنه موجود حقا في مكان ما...

وبدأ الفصل الخاص بسقراط وصوفيا تقرأ في الجريدة خبرا عن **الفصيلة النرويجية من قوات الأمم المتحدة في لبنان.** هذا هو أسلوبك يا أبي! لقد كان شديد الانزعاج لأن الناس في النرويج لم يكونوا مهتمين اهتماماً كافيا بما تقوم به قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة. فإن لم يكن هناك من يهتم بذلك فليكن هذا قدرك ونصيبك يا صوفيا. فبهذه الطريقة يمكنه أن يكتب عن تلك المسألة في روايته عله يجتذب بذلك بعض اهتمام وسائل الإعلام.

و لم تملك إلا الابتسام وهي تقرأ ملحوظة استاذ الفلسفة في رسالته لصوفيا:

إن كنت قد عثرت على شال حريري احمر، أرجو أن تحتفظي به بكل عناية إذ يحدث أحيانا أن تختلط الأمتعة الشخصية عن غير قصد، وخاصة في المدارس والأماكن المماثلة. ولا تنسى أن هذه هي أيضاً مدرسة يا صوفيا، مدرسة فلسفة.

سمعت هيلد وقع أقدام أمها على السلم. وقبل أن تدق أمها الباب كانت هيلد قد بدأت تقرأ عن اكتشاف صوفيا لشريط الفيديو الذي يصور أثينا، موضوعا في مخبئها السري بالحديقة. ووصل إليها صوت أمها وهي تقترب تغني:

«سنة حلوة يا جميل...»

وقالت هيلد:

ـ تفضلي يا ماما.

وكانت هيلد قد وصلت إلى المقطع الذي يتحدث فيه أستاذ الفلسفة إلى صوفيا مباشرة من الأكروبول. لقد كان يشبه تماماً والد هيلد بما له من «لحية سوداء منسقة» وبيريه أزرق.

ـ كل سنة وأنت طيبة يا هيلد!

ـ نعم...

ـ هيلد؟

ـ ضعيه عندك من فضلك.

ـ ألا تريدين أن...؟

ـ ألا ترين أني مشغولة بالقراءة.

ـ أتخيل تماماً فعمرك الآن خمسة عشر عاماً!

ـ هل زرت أثينا من قبل يا ماما؟

ـ لا، لم تسألين؟

ـ من المدهش حقا أن تكون تلك المعابد القديمة ما زالت قائمة بعد ٢٥٠٠ عام. إن أكبرها يدعى بالمناسبة البارثينون، أي منزل العذراء.

ـ هل فتحت هدية بابا؟

ـ أي هدية؟

ـ هيلد أرجوك انظري لي عندما أحدثك. أنت لست في حالتك الطبيعية.

تركت هيلد الملف الكبير يسقط في حجرها.

وانحنت أمها على السرير وهي تحمل في يديها صينية عليها شموع مضاءة وبعض الحلوى والفطائر. كما كانت عليها لفافة صغيرة.

ـ شكرا جزيلا يا ماما أنت حقا لطيفة جدا ولكني بالفعل مشغولة، وليس عندي وقت...

ـ ولكنك لن تذهبي إلى الكنيسة قبل الواحدة.

عندئذ فقط تذكرت هيلد أين هي. ووضعت أمها الصينية على المائدة المجاورة للسرير.

ـ أنا آسفة يا ماما لقد كنت مستغرقة تماماً في القراءة.

ـ ما الذي كتبه لك بابا يا هيلد؟ إني شغوفة مثلك بمعرفة ذلك. فقد حاولت خلال شهور طويلة أن أعرف منه أي شيء عن ما يكتب فلم أنجح في استدرار كلمة واحدة.

شعرت هيلد بقدر من الحرج ربما لهذا الاهتمام البالغ الذي خصها به أبوها فقالت:

ـ إنها مجرد رواية.

ـ رواية؟

ـ نعم رواية عن تاريخ الفلسفة، أو شيء من هذا القبيل.

ـ ألن تفتحي هديتي؟

لم تجد هيلد من الإنصاف أن تميز بين والديها ففتحت هدية أمها على الفور، فوجدت بداخلها سواراً ذهبياً.

ـ انه رائع يا ماما أشكرك كثيراً!

هبت هيلد من السرير واحتضنت أمها وقبلتها.

جلستا تتحدثان لبرهة من الزمن، ثم قالت هيلد:

ـ لا بد أن استكمل الكتاب يا ماما. إنه يقف الآن على قمة الأكروبول.

ـ ومن هو؟

ـ لست أدري ولا صوفيا أيضاً. هذه هي حبكة الرواية كلها.

ـ عظيم. لا بد أن أذهب إلى العمل الآن. لا تنسي أن تأكلي شيئا ياهيلد، إن ثوبك معلق في الدور الأسفل.

أخيرا هبطت أم هيلد السلم مثلما هبط أستاذ صوفيا الأكروبول ثم وقف على ربوة الأريوباغوس قبل أن يظهر بعد ذلك في ميدان أثينا القديم.

سرت القشعريرة في جسد هيلد عندما قرأت عن المباني القديمة وهي تنهض فجأة من بين الأطلال. كانت من أفكار أبيها الثابتة كذلك أن تتعاون كل بلدان الأمم المتحدة على إعادة إنشاء نسخة دقيقة من ميدان أثينا القديم ليكون محفلا للمناقشات الفلسفية ومباحثات نزع السلاح. وكان يشعر أن مشروعا عملاقا كهذا كفيل بأن يشجع على توحيد كل البشر. وكان يقول «ألم ننجح في بناء منشآت بترولية ضخمة وصناعة سفن فضاء تطير إلى القمر».

ثم بدأت هيلد تقرأ الجزء الخاص بأفلاطون.

وعلى أجنحة المحبة تطير الروح إلى مستقرها في عالم المثل متحررة من «سجن الجسد»...

كانت صوفيا قد زحفت خارجة من الكوخ وسارت وراء هرمس، لكن الكلب فر منها كي لا تقتفي أثره. وبعد أن قرأت صوفيا عن أفلاطون أخذت تتوغل في الغابة حتى رأت الشاليه الأحمر المطل على البحيرة. وقد علقت داخل الشالية لوحة تصور باركلي والواضح من وصف اللوحة أنها تصور بيت هيلد المطمئن «في حمى البتولا». كما كان هناك بورتريه لرجل يدعى بيركلي.

بيركلي وباركي يا له من أمر غريب!

وضعت هيلد الملف الكبير بجانبها على السرير وذهبت إلى مكتبتها ونظرت في دائرة المعارف المكونة من ثلاثة مجلدات والتي كانت هدية عيد ميلادها الرابع عشر. بيركلي... ها هو!

جورج بيركلي، ١٦٨٥ ١٧٥٣، فيلسوف انجليزي، أسقف كلوين. أنكر وجود العالم المادي خارج ذهن الإنسان. إدراكاتنا الحسية تصدر عن الله. مؤلفه الرئيسي: **دراسة في مبادئ المعرفة الإنسانية** (١٧١٠).

«انكار العالم المادي خارج ذهن الإنسان» يا له من أمر غريب حقا. وقفت هيلد برهة تفكر قبل أن تعود إلى سريرها وتستأنف القراءة.

إن والدها هو الذي قام، بمعنى ما، بتعليق اللوحتين على الجدار. فهل يمكن أن تكون بينهما صلة بخلاف تشابه الأسماء؟

لقد كان بيركلي فيلسوفا أنكر وجود العالم المادي خارج ذهن الإنسان. علينا أن نسلم بأن هذا أمر بالغ الغرابة. ولكن ليس من السهل أيضاً تفنيد هذه المزاعم. ألا تعتبر صوفيا نموذجا يؤكد هذا الزعم، ما دامت كل انطباعاتها الحسية ليست إلا ثمرة خيال والد هيلد.

ليس أمامها الآن كي تعرف المزيد سوى أن تواصل القراءة. رفعت هيلد عينيها عن الملف وابتسمت عندما قرأت كيف اكتشفت صوفيا صورة فتاة تغمز لها بكلتا عينيها.

وغمزت الفتاة الأخرى بعينيها لصوفيا كأنما تقول لها: إني آراك يا صوفيا. إني هنا في الجهة الأخرى.

لقد وجدت صوفيا أيضاً المحفظة الخضراء في الشاليه، مع النقود وكل الأشياء الأخرى! كيف وصلت إلى هناك؟

هذا عبث مطلق! تصورت هيلد للحظة أن صوفيا وجدت المحفظة حقا. وحاولت هيلد أن تتخيل نفسها مكان صوفيا وأن تتساءل عن شعورها وهي تعيش كل هذه المغامرات الغامضة والمدهشة في آن واحد.

وللمرة الأولى راودت هيلد رغبة قوية في مقابلة صوفيا وجها لوجه. كانت تريد أن تخبرها بالحقيقة الفعلية للقصة كلها.

على صوفيا الآن أن تخرج من الشاليه قبل أن تضبط متلبسة. كان القارب قد ابتعد داخل البحيرة بطبيعة الحال. وكيف كان أبوها يستطيع أن يقاوم عدم تذكيرها بتلك الحكاية القديمة.

رشفت هيلد بعضا من عصير البرتقال وقضمت إحدى الفطائر بينما هي تقرأ الرسالة التي وصلتها عن أرسطو «رجل النظام الدقيق» الذي نقد نظريات أفلاطون.

وأشار أرسطو إلى أن الوعي لا يوجد به شيء لا يكون قد سبق لنا إدراكه بحواسنا أولا. أما أفلاطون فكان سيقول غالبا إن الطبيعة ليس بها شيء لا يكون قد سبق أن وجد أولا في عالم المثل. وقال أرسطو إن أفلاطون «يضاعف» بهذه الطريقة عدد الأشياء.

لم تكن هيلد تعرف أن أرسطو هو الذي اخترع لعبة «الحيوان، أو النبات، أو الجماد».

هل ترين ما فعله أرسطو يا صوفيا: انه كان يريد أن يرتب «غرفة» الطبيعة ترتيبا دقيقا. وسعى أرسطو إلى إثبات أن كل شيء في الطبيعة ينتمي إلى مجموعات معينة تنقسم بدورها إلى مجموعات فرعية.

عندما قرأت عن رأي أرسطو في المرأة شعرت بالاستياء وخيبة الأمل، فكيف يمكن لفليسوف بارع على هذا المستوى أن يقول بهذا الرأي السخيف الأحمق!

لقد ألهم أرسطو صوفيا أن ترتب غرفتها وبينما هي تقوم بذلك وجدت فردة الجورب الأبيض الذي اختفى من خزانة هيلد من شهر تماماً! وضعت صوفيا كل الصفحات التي تلقتها من ألبرتو في ملف كبير.

لقد تجمع لديها الآن أكثر من خمسين صفحة.

أما هيلد فقد وصلت إلى صفحة ٤٢١، إذ إن عليها أيضاً أن تقرأ قصة صوفيا بالاضافة إلى دروس الفلسفة التي يرسلها ألبرتو كنوكس.

وكان الفصل التالي عن «الهيلينية»، ويبدأ بعثور صوفيا على بطاقة بريدية عليها صورة عربة جيب بيضاء رفع فوقها علم الأمم المتحدة، وتحمل خاتم بريد فصيلة الأمم المتحدة وتاريخ ٥١ يونيو (حزيران). بطاقة أخرى من تلك «البطاقات» التي أدخلها أبوها في نسيج القصة بدلا من أن يرسلها إليها بالبريد.

عزيزتي هيلد

أعتقد أنك ما زلت تحتفلين الآن بعيد ميلادك الخامس عشر. الا اذا كانت هذه البطاقة قد تأخرت في الوصول وأصبحنا الآن في صباح اليوم التالي لاحتفالك. إن كان حدث هذا التأخير البسيط الذي لا أرجوه، فسوف أعزي نفسي وأقول ما أهمية يوم يزيد أو ينقص لهدية ستصحبك في مشوار عمرك بأكمله. ودعيني الآن أقول لك مرة أخرى كل سنة وأنت طيبة. ولعلك فهمت الآن يا هيلد لماذا أرسل البطاقات على عنوان صوفيا. فاني واثق أنها ستنقلها إليك.

ملاحظة: ماما قالت لي إنك فقدت محفظتك الخضراء. وأعدك أن أعطيك ١٥٠ كرونا بدلا من التي ضاعت مع المحفظة. أما عن بطاقة المدرسة فيمكنك أن تستخرجي بطاقة أخرى بدلا منها قبل أجازة الصيف.لك خالص أشواقي ومحبتي.

بابا

هائل! لقد ربحت إذن ١٥٠ كرونا بينما تتناول إفطارها. ربما كان أبوها يتصور أن الهدية التي ابتكرها بنفسه ليست كافية!

وها قد اتضح أن ١٥ يونيو (حزيران) هو عيد ميلاد صوفيا أيضاً. إلا أن نتيجة صوفيا تقول إنها ما زالت في منتصف مايو (أيار). لا بد أن هذا هو الوقت الذي كان أبوها يكتب فيه هذا الفصل ولذلك وضع تاريخا لاحقا على «بطاقة التهنئة بعيد الميلاد» الموجهة إلى هيلد. ولكن صوفيا المسكينة! ها هي تركض نحو المركز التجاري لتقابل نورا في طريقهما إلى المدرسة.

من هي هيلد هذه؟ وكيف يكون أبوها واثقا أن صوفيا ستنجح في الوصول اليها؟ وما هذا الحمق أو هذا الهزل الذي يجعله يبعث بالبطاقات اليها هي بدلا من إرسالها إلى ابنته مباشرة؟

كما شعرت هيلد أنها تطير في السماء عندما قرأت الجزء الخاص بأفلوطين.

إنني أقول إن السر الالهي منبث في جميع المخلوقات بقدر مقدور. فنحن نبصر هذا السر ساجيا في زهرة الفل أو زهرة السوسن. ثم نستشعره منعكسا بقوة أكبر عندما نرى فراشة تطير من زهرة لأخرى أو حين نراقب سمكة حمراء تسبح في وعاء من زجاج. إلا أن هذا السر الذي لا تسبر أغواره يسطع بأبهى تجلياته في أرواحنا. ففي الروح نكون أقرب شيء إلى الله، وفي الروح وحدها نستطيع أن نتوحد مع سر الحياة العظيم، بل قد يمكننا في أحوال نادرة أن *نشعر أننا لسنا سوى هذا السر الإلهي ذاته.*

حتى الآن لم تكن قد قرأت شيئا أثار فيها هذا الشعورالساحر المؤثر بالرغم أنه يتكلم عن أبسط الأمور: إن كل شيء «واحد» وهذا الواحد هو السر الإلهي الذي يقتسمه الجميع. وفكرت هيلد، إن الإنسان ليس مضطرا حقا لأن يؤمن بذلك. فتلك هي الحقيقة ببساطة، الحقيقة البديهية. ويستطيع كل إنسان أن يفسر عبارة «السر الإلهي» كما يريد.

وانتقلت سريعا إلى الفصل التالي. لقد ذهبت صوفيا ونورا لتقضيا ليلة في الغابة قبل العيد الوطني في ١٧ مايو (أيار). ثم ذهبتا إلى شاليه الضابط العجوز...

وما كادت هيلد تقرأ بضع صفحات حتى أزاحت غطاء السرير بغضب ونهضت وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وهي تمسك الملف الكبير في يدها.

هذه حقا قمة المبالغة في الاعتداء على خصوصياتها! ففي ذلك الشاليه الصغير المنزوي في أعماق الغابة، جعل أبوها هاتين الفتاتين تعثران على كل البطاقات التي أرسلها في أول أسبوعين من مايو (أيار). بل لقد ذكرها

بالحرف. لقد اعتادت أن تقرأ رسائل والدها مرات عديدة ولـذا فإنها تتذكر كل كلمة فيها عن ظهر قلب.

حبيبتي هيلد

لقد بدأت أضيق بكتمان كل هذه الاسرار بخصوص عيد ميلادك إلى درجة أني أمنع نفسي عدة مرات كل يوم من أن أحدثك في التليفون لأخبرك بالحقيقة كلها دفعة واحدة. انه شيء لا يكف عن النمو والنمو. وعندما يصبح الشيء أكبر فأكبر يغدو من الأصعب على المرء أن يتحفظ به لنفسه...

تلقت صوفيا دروسا جديدة من ألبرتو. إنها تتحدث عن ثقافة اليونان ذات الأصول الهندية الاوروبية وعن المسيحية ذات الأصول السامية وعن تصادم هاتين الثقافتين الكبيرتين. وكانت هيلد تشعر باستمتاع شديد وهي تطالع أحداث التاريخ من هذا المنظور الواسع العريض، فهذه الرؤية لم تدرسها قط في المدرسة. إنهم يحشون رأسك بالتفصيلات حتى تكاد الصورة العامة تغيب عنك. إنها ترى الآن المسيح والمسيحية في ضوء جديد تماماً.

وأعجبت هيلد بالاستشهاد المنقول عن جوته:

«من لم ينتفع بدروس ثلاثة آلاف عام لم يتجاوز زاده خبرة يوم بيوم».

وبدأ الفصل التالي ببطاقة تلتصق بنافذة المطبخ في بيت صوفيا. وكانت بالطبع بطاقة تهنئة جديدة لهيلد بعيد ميلادها.

عزيزتي هيلد،

لست أدري إن كنت ستتسلمين هذه البطاقة واليوم لا يزال هو يوم عيد ميلادك. هذا ما أرجوه يا هيلد. وإلا فأرجو على الأقل ألا تكون ايام كثيرة قد مرت على عيد ميلادك. فالواقع أن الزمن بالنسبة لصوفيا ليس هو نفسه بالنسبة لنا. إني سأعود ليلة عيد منتصف الصيف، وعندئذ سنظل جالسين طويلا على الأرجوحة يا هيلد نتأمل البحر الفسيح. فما أكثر الأشياء التي نحتاج لأن نتكلم عنها. قبلاتي.

ثم كلم ألبرتو صوفيا في التيليفون وكانت هذه هي أول مرة تسمع صوته.

ـ من يسمعك يتصور أنك تتكلم عن حرب حقيقية.

ـ أنا أفضل أن أسميها صراع إرادات. فعلينا أن نجتذب اهتمام هيلد ونأخذها في صفنا قبل أن يعود أبوها إلى ليلساند.

وبعد ذلك قابلت صوفيا ألبرتو كنوكس، المتنكر في زي راهب من العصور الوسطى، في كنيسة حجرية قديمة بنيت في القرن الثاني عشر.

الكنيسة! نظرت في ساعتها إنها الواحدة والربع... لقد فقدت إحساسها بالوقت تماماً!

ربما كان لا يهم كثيراً أن يفوتها الموعد المضروب عند الكنيسة، فاليوم عيد ميلادها ولعل في هذا عذرا يسوغ لها التخلف عن آخر يوم في المدرسة. إلا أن ذلك سيعني أن زملاءها في الفصل لن يحتفلوا معها بهذه المناسبة. ولكن ما أكثر التهاني التي تلقتها هذا العام!

وأثار دهشتها أن ألبرتو أخذ يتصرف كراهب حقيقي من رهبان العصور الوسطى.

ثم قرأت كيف ظهرت صوفيا رمز الحكمة لهيلدجارد في إحدى الرؤى، وعندئذ ذهبت تطالع دائرة المعارف مرة أخرى. ولكنها في هذه المرة لم تجد شيئا لا عن صوفيا رمز الحكمة ولا عن هيلدجارد. أليس هذا هو الموقف المألوف! فما أن يتعلق الأمر بإحدى النساء أو بشيء له علاقة بالمرأة حتى تصبح دائرة المعارف بكماء خرساء كتمثال من حجر. هل تخضع دائرة المعارف لرقابة «جمعية حماية الرجل»؟

كانت هيلد جارد امرأة اشتغلت بالوعظ، والتأليف، والتطبيب، وبدراسة النباتات والطبيعة. وكانت نموذجا «لميل المرأة، حتى في العصور الوسطى، إلى الاهتمام بالمسائل المعرفية وبالجوانب التطبيقية العملية». ومع ذلك فان دائرة المعارف لا تذكر عنها كلمة واحدة. إنه حقا موقف مخز!

لم تكن هيلد قد سمعت من قبل أن الله له «جانب أنثوي» أو «طبيعة أمومية» وان هذا الجانب يدعى صوفيا. ولكن يبدو أن دائرة المعارف رأت هي أيضاً ان صوفيا تلك لا تستحق حتى سطراً واحداً.

كان أقرب ما وجدته عن صوفيا هو الإشارة إلى كنيسة آية صوفيا في القسطنطينية (اسطنبول الآن) وتعني آية صوفيا «الحكمة المقدسة».وتذكرت هيلد ان هذا الإسم كان اسما حمله عدد كبير من الملكات مستلهمات بذلك هذه الحكمة بمعنى ما ومع ذلك فان دائرة المعارف لا تشير بكلمة واحدة عن أصل الحكمة من حيث هي رمز أنثوي. أليست هذه رقابة حقيقية؟

من جهة أخرى، كان من الصحيح أن صوفيا الصغيرة قد تراءت لها هي هيلد. إنها لم تكف عن تصور صوفيا تلك الفتاة ذات الشعر المرسل الداكن...

وعندما عادت صوفيا من كنيسة السيدة العذراء، وقفت أمام المرآة النحاسية التي أخذتها من شاليه الضابط العجوز.

طالعها وجهها مجهدا شاحبا. ظلت تحدق إلى ملامحها حتى خيل إليها أنها تلمح، خلف وجهها، صورة باهتة لوجه فتاة أخرى. أخذت صوفيا تتنفس تنفسا عميقا محاولة أن تهدئ من روعها، فلا ينبغي أن تتخيل أشياء لا وجود لها.

تطلعت من جديد إلى وجهها المرهق وإلى شعرها الداكن المتهدل، ولكن صورة الفتاة الأخرى كانت هناك تتراءى وراء ملاح صوفيا. وفجأة أخذت الفتاة الأخرى تغمز بكلتا عينيها بسرعة شديدة كأنما تريد أن تقول إنها موجودة هناك حقا في الجهة الأخرى. لم يدم هذا كله إلا لحظة خاطفة ثم اختفت الصورة فجأة كما ظهرت.

كم مرة وقفت هيلد أمام المرآة كأنما تبحث عن شخص آخر يقف من الجهة الأخرى؟ ولكن كيف استطاع والدها أن يعرف هذا؟ ألم تكن تبحث هي أيضاً عن امرأة داكنة الشعر؟ ألم تشتر جدتها الكبرى تلك المرآة من امرأة غجرية؟ أحست هيلد بيديها ترتعشان وهي تمسك بالكتاب. كانت تشعر أن صوفيا موجودة حقا في مكان ما «في الجهة الأخرى».

صوفيا تحلم الآن بهيلد وبباركلي البيت المطمئن في حمى البتولا، إلا أن هيلد لم تكن تراها أو تسمعها... ثم وجدت صوفيا صليب هيلد الذهبي على المرسى، وعند يقظتها من الحلم وجدت في سريرها نفس هذا الصليب الذي يحمل الحروف الأولى من اسم هيلد!

وأخذت هيلد تمعن في التفكير هل فقدت أيضاً صليبها الذهبي! ذهبت إلى خزانتها وأخرجت علبة حليها الصغيرة. غير أن الصليب الذهبي الذي ورثته عن جدتها لم يكن موجودا بها!

ولم يكن هذا هو كل شيء: فقد حلمت صوفيا برجوع والد هيلد من لبنان. ولكن ما زال هناك أسبوع كامل حتى يحين موعد عودته. هل كان حلم صوفيا نوعا من النبوءة؟ هل يقصد والدها أن صوفيا ستكون موجودة بشكل ما عند عودته؟ لقد كتب أنها ستتعرف على صديقة جديدة...

وفي رؤية خاطفة ولكنها جلية الوضوح خطر لهيلد أن صوفيا ليست مجرد كائن خلق من ورق وحبر وإنما هي موجودة حقا.

الفصل الرابع والعشرون

عصر التنوير

... من طريقة صنع إلى
طريقة سبك المدفع...

كانت هيلد قد بدأت تقرأ الفصل الخاص بعصر النهضة عندما سمعت أمها تدخل من باب البيت. نظرت في ساعتها: إنها الرابعة بعد الظهر.

رأت أمها ثوب هيلد معلقا مكانه في الطابق الأسفل فصعدت السلم ركضا وفتحت غرفة هيلد:

ـ ألم تذهبي إلى موعد الكنيسة؟

ـ بلى ذهبت.

ـ ولكن... ماذا كنت ترتدين؟

ـ ما أرتدي الآن.

ـ أذهبت بقميص النوم؟

ـ إنها كنيسة قديمة من العصور الوسطى.

ـ هيلد!

تركت الملف الكبير يقع في حجرها ونظرت إلى أمها وقالت:

ـ لقد فقدت إحساسي تماماً بالوقت يا ماما. أنا آسفة، ولكن ما أقرأه شائق للغاية.

لم تملك أمها إلا الابتسام، فأضافت هيلد:

ـ إنه كتاب سحري.

ـ كل سنة وأنت طيبة مرة أخرى يا هيلد!

ـ لا أعتقد أني قادرة على سماع هذه الجملة مرة أخرى!

ـ ولكنني لم أقصد أن... سأذهب لأستريح قليلا ثم أبدأ في إعداد وجبة شهية لك في هذا اليوم. لقد أحضرت معي بعض الفراولة.

ـ أما أنا فسأواصل القراءة.

نزلت أمها وشرعت هيلد تقرأ من جديد.

تسير صوفيا الآن وراء هرمس عبر المدينة. في مدخل بيت ألبرتو تجد بطاقة أخرى مرسلة من لبنان وتاريخها أيضاً ٥١ يونيو (حزيران(.

وبدأت هيلد تفهم نظام التواريخ. البطاقات التي تحمل تاريخا يسبق ١٥ يونيو (حزيران) هي نسخ لبطاقات تسلمتها هيلد بالفعل من والدها. أما البطاقات التي تحمل تاريخ اليوم ١٥ يونيو (حزيران) فهي تقرأها لأول مرة في الملف الكبير.

عزيزتي هيلد،

إن صوفيا تصل الآن إلى بيت الفيلسوف. إنها أوشكت أن تتم خمسة عشر عاماً، أما أنت فقد أتممت الخمسة عشر ربيعا أمس، أم لعلك ستتمينها اليوم يا هيلد؟ إن كان اليوم هو عيد ميلادك فإن هذه البطاقة تصلك أغلب الظن في وقت متأخر من النهار. إلا أن ساعاتنا لا تشير إلى نفس التوقيت.

قرأت هيلد كيف عرض ألبرتو على صوفيا عصر النهضة وكلمها عن العلم الجديد، وعن العقلانيين الذين ظهروا في القرن السابع عشر، ثم عن النزعة التجريبية الإنجليزية.

كانت تنتفض من الدهشة كلما ظهرت بطاقة جديدة أو تهنئة بعيد الميلاد دسها والدها في طيات الرواية. فقد جعل هذه البطاقات والتهاني تسقط من كراسة مدرسة، أو تظهر داخل قشرة موز، أوتطل من برنامج حاسب آلي.

وكان يستطيع، دون أدنى مجهود، أن يجعل لسان ألبرتو يزل وينادي صوفيا المسكينة بهيلد. غير أن أغرب ما فعله هو أنه جعل هرمس يقول **«كل سنة وأنت طيبة يا هيلدا!»**

اتفقت هيلد مع ألبرتو على أن أباها قد بالغ حقا عندما قارن ما يفعله بالعناية الإلهية. ولكنها تتفق مع من في واقع الأمر؟ أليس أبوها هو الذي وضع هذا اللوم أو هذا اللوم الذاتي على لسان ألبرتو؟ ثم تبينت أن هذه المقارنة مع الله ليست حمقاء تماماً، فوالدها أشبه بإله قدير بالنسبة لما يدور في عالم صوفيا.

عندما انتقل ألبرتو إلى بيركلي، كانت هيلد مأخوذة تترقب مثلها مثل صوفيا تماماً. ماذا سيحدث الآن؟ فما أكثر الإشارات التي ألمحت إلى أن شيئا خاصا سيحدث عندما يصلان إلى ذلك الفيلسوف، الذي أنكر وجود العالم المادي خارج وعي الإنسان، كما عرفت هيلد من موسوعتها.

يبدأ الفصل بألبرتو وصوفيا يقفان بالنافذة يشاهدان الطائرة الصغيرة التي أرسلها والد هيلد تمر أمامها وهي تجر خلفها تهنئة لهيلد بعيد ميلادها. وفي الوقت ذاته بدأت السحب الداكنة تتجمع فوق المدينة.

إذن «نكون أو لا نكون» ليس هو كل السؤال. إن السؤال أيضاً هو من نحن؟ هل نحن حقا بشر من لحم ودم؟ هل عالمنا يتألف من أشياء حقيقية، أم أننا محاطون بالوعي من كل الجهات؟

ليس من الغريب أن يكون القلق قد اعترى صوفيا فأخذت تقرض أظافرها. إن قرض الأظافر لم يكن قط عادة تعودتها هيلد، ولكنها لم تكن تشعر هي أيضاً بالارتياح الآن. وأخيرا قيل كل شيء صراحة:

... بالنسبة لنا نحن أي أنا وأنت فإن هذه «الإرادة أو الروح» التي هي سبب كل شيء يحدث في عالمنا قد تكون والد هيلدا

ـ هل تقصد أنه نوع من الله بالنسبة لنا؟

- إذا أردت الصراحة نعم..ولكنه يجب أن يخجل من نفسه!

- وماذا عن هيلد نفسها؟

- إنها ملاك يا صوفيا.

- ملاك؟

- إن هيلد هي من تتوجه إليها هذه «الروح».

في هذه اللحظة تترك صوفيا بيت ألبرتو مسرعة وتعود إلى بيتها وهي تجري تحت المطر المنهمر. أيمكن أن تكون هي نفس العاصفة التي هبت على باركلي ليلة أمس بعد أن ركضت صوفيا عبر المدينة ببضع ساعات؟

ظلت فكرة واحدة تدور في رأسها: «إن غدا عيد ميلادي». أليس من القسوة أن اكتشف عشية عيد ميلادي الخامس عشر أن الحياة مجرد حلم؟ كأنما تحلم بأنك فزت بجائزة ضخمة وما إن تهم بتسلمها حتى تفيق من النوم.

أخذت صوفيا تركض ما وسعها الركض عبر الملعب المليء بالمياه وما لبثت أن رأت شخصا يجري نحوها، ثم تبينت من بعيد طيف أمها. وعادت السماء تبرق وترعد من جديد.

عندما تلاقتا احتضنتها أمها وقالت:

- ما الذي يحدث لنا يا حبيبتي؟

فأجابت صوفيا والدموع تنهمر من عينيها:

- لست أدري، إنه حلم فظيع.

شعرت هيلد بالدموع تسيل على خدها. «نكون أو لا نكون، هذا هو السؤال». رمت الملف في نهاية السرير ثم نهضت وأخذت تسير في الغرفة ثم وقفت أخيرا أمام المرآة النحاسية وظلت تتطلع إلى وجهها حتى جاءت أمها تدعوها إلى تناول العشاء.

عندما سمعت هيلد دقات أمها على الباب لم تكن تدري كم ظلت واقفة أمام المرآة. ولكنها متأكدة، بل واثقة تماماً، أن صورتها أخذت تغمز بكلتا العينين معا في آن واحد.

طوال العشاء حاولت هيلد أن تتصرف كفتاة تقدر ما تفعله أمها لإشاعة جو البهجة في عيد ميلادها، إلا أنها لم تكف طول الوقت عن التفكير في صوفيا وألبرتو.

ماذا سيحدث لهما الآن وهما يعرفان أن والد هيلد هو الذي يقرر كل شيء؟ برغم أن من المبالغة القول: إنهما «يعرفان». فهما لا يعرفان في الحقيقة أي شيء على الإطلاق. أليس والدها هو الذي يوحي بأنهما يعرفان؟ على أي حال إن المشكلة تظل كما هي: فما دامت صوفيا وألبرتو أصبحا يعرفان كيف تسير الأمور حقا فلا بد أنهما يقتربان بمعنى ما من نهاية الطريق.

كادت هيلد تغص بلقمة من الطعام إذ أدركت فجأة أن نفس المشكلة ربما انطبقت على عالمها هي أيضاً. فالبشرية أصبحت بمعنى ما «تعرف» هي كذلك، ألم يحرز الإنسان تقدماً مطرداً في فهمه للقوانين الطبيعية؟ فهل يظل التاريخ مستمرا إلى الأبد بعد أن تنجح الفلسفة والعلم في حل آخر ما تبقى من ألغاز؟ هل هناك «علاقة بين تطور الأفكار والعلوم من جهة وبين تدهو البيئة بما يصحبه من دمار الغابات وارتفاع درجة حرارة العالم من جهة أخرى»؟ ربما لم يكن من الخطأ أن يرى البعض في تعطش الإنسان للمعرفة وفضوله الدائم السبب الذي دفعه إلى ارتكاب «خطيئته الأصلية»؟ ألم يقدم وهو في جنة عدن على أكل ثمرةٍ من شجرة المعرفة؟

كان هذا السؤال هائلا ومفزعا فارتعبت هيلد وحاولت أن تتناساه. ثم إنها ستعرف المزيد على الأرجح عندما تستأنف القراءة. بعد أن أكلت كعكة عيد الميلاد سألتها أمها:

ـ الآن نفعل ما تشاءين!

ـ أعرف أن هذا قد يبدو غريبا بعض الشيء يا ماما، ولكن كل ما أريد أن أفعله الآن هو أن أقرأ هدية بابا.

ـ لك هذا يا هيلد، بشرط ألا يشيع الاضطراب في أفكارك.

ـ اطمئني يا ماما.

ـ ربما استطعنا فيما بعد أن نشاهد معا الحلقة البوليسية التي يذيعها التلفزيون هذا المساء.

ـ نعم، إنها فكرة ظريفة.

وتذكرت هيلد الطريقة التي كانت صوفيا تكلم بها أمها. هل جرؤ أبوها أن يستعين بأمها في رسم شخصية والدة صوفيا؟ قررت هيلد، إيثاراً للسلامة اليوم على الأقل، ألا تذكر حكاية الأرنب الأبيض الذي خرج من القبعة الطويلة! وقالت وهي تنهض عن المائدة:

ـ بالمناسبة يا ماما...

ـ ماذا؟

ـ إني لا أجد سلسلتي الذهبية في أي مكان.

تطلعت إليها أمها بنظرة مندهشة، ثم قالت وقد بدا عليها أنها تذكرت أمرا:

ـ لقد وجدتها على المرسى منذ عدة أسابيع. لا بد أنك نسيتها هناك أيتها المهملة العظيمة!

ـ وهل أخبرت بابا بذلك؟

ـ دعيني أفكر... نعم، أعتقد أني قلت له.

ـ أين هي إذن؟

نهضت أمها وذهبت لتحضر علبة حليها. وسمعت هيلد صيحة دهشة صغيرة آتية من غرفة النوم. وعادت أمها سريعا إلى البهو.

ـ لا أستطيع أن أجدها الآن!

ـ هذا ما كنت أنتظره...

قبلت أمها وصعدت إلى غرفتها. أخيراً تستطيع الآن أن تتابع مغامرات صوفيا وألبرتو. جلست في السرير وأسندت الملف الكبير على ركبتيها وبدأت الفصل التالي.

استيقظت صوفيا في الصباح التالي عندما شعرت بأمها تدخل غرفتها حاملة صينية مليئة بالهدايا.

ـ كل سنة وأنت طيبة يا صوفيا!

فركت صوفيا عينيها كأنما تزيح عنهما النعاس وحاولت أن تتذكر ما حدث ليلة أمس. غير أن أفكارها كانت مشتتة كأنما هي لوحة «بازيل» بعثرت أجزاؤها وتعجز عن تجميعها معا. قطعة كانت ألبرتو وأخرى كانت هيلد، وثالثة كانت الضابط، ورابعة كانت بيركلي، وخامسة كانت باركلي. أما أكثر القطع قتامة فكانت عاصفة الأمس العاتية. كادت تصاب بانهيار من شدة الفزع والبلل والركض. تذكر أن أمها قد جففت لها جسمها وبدلت لها ثيابها وأدخلتها في السرير وأعطتها كوبا من اللبن الساخن والعسل. ثم غفت من فورها.

قالت صوفيا وهي تتثاءب:

ـ أعتقد أني ما زلت على قيد الحياة.

ـ بالطبع يا حبيبتي! واليوم هو عيد ميلادك الخامس عشر.

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ طبعا متأكدة! وهل تنسى أم متى ولدت طفلتها الوحيدة؟ كان يوم ١٥ يونيو (حزيران) ١٩٧٥... الساعة الواحدة والنصف يا صوفيا. كانت أسعد لحظة في حياتي.

ـ أواثقة أن كل هذا ليس حلماً؟

ـ هو حلم رائع إذن: تستيقظين فتجدين إفطارا شهيا وهدايا لعيد ميلادك.

وضعت أمها صينية الهدايا على أحد المقاعد وغابت لحظة عن الغرفة ثم عادت وهي تحمل صينية أخرى وضعتها في طرف السرير عليها شراب دافيء وفطائر ساخنة.

وكان هذا إيذانا ببدء الطقوس الصباحية التقليدية لكل عيد ميلاد. أخذت صوفيا تفك أوراق الهدايا بينما تقص أمها كيف جاءتها أولى آلام المخاض من خمسة عشر عاماً. كانت هدية أمها مضربا للتنس. لم تكن صوفيا قد لعبت التنس من قبل ولكن كانت هناك بعض ملاعب للتنس على مسافة قريبة من ممر النرجس. أما أبوها فقد أهداها جهاز تلفزيون بالغ الصغر لا يزيد حجم شاشته على حجم صورة فوتوغرافية عادية وكان مزودا أيضاً بجهاز راديو. كما تلقت صوفيا هدايا من بعض أقاربها وأصدقائها وأصدقاء العائلة. وما لبث أن سألتها أمها:

ـ أتفضلين ألا أذهب للعمل وأظل في البيت اليوم؟

ـ لا، لماذا؟

ـ لقد كنت شديدة الاضطراب أمس. إذا استمر هذا الحال فربما كان من الصواب أن نرى طبيبا نفسيا.

ـ لا أعتقد أن هذا ضروري على الإطلاق.

ـ وهل كان هذا الاضطراب كله بسبب العاصفة... أم بسبب ألبرتو هذا؟

ـ وأنت كيف كان حالك أمس؟ ألم تسأليني: ماذا يحدث لنا يا حبيبتي؟

ـ كنت أفكر في أنك تتجولين في المدينة وتقابلين أناسا غريبة الأطوار... ربما كان هذا خطأي أنا.

ـ ليس خطأ أحد إذا كنت أتابع دروسا في الفلسفة في أوقات فراغي. أرجوك اذهبي إلى العمل. إن المدرسة لن تبدأ قبل العاشرة واليوم ستتسلم الشهادات ثم سنلهو قليلا معا.

ـ وكيف تتوقعين أن تكون درجاتك؟

ـ ستكون أفضل على أي حال من درجات نصف السنة الأول.

ما كادت أمها تغادر البيت حتى رن جرس التليفون.

ـ آلو، من يتكلم؟

ـ أنا ألبرتو...

ـ أهلا!

ـ كل سنة وأنت طيبة يا صوفيا!

ـ وأنت طيب يا ألبرتو...

ـ إن الضابط لم يقتصد في قصف القنابل ليلة أمس كأنما يتباهى بقدرته.

ـ لست أفهم قصدك.

ـ إني أتحدث عن العاصفة يا صوفيا.

ـ لا أعرف ماذا أقول عن ذلك.

ـ هذه خير فضائل الفيلسوف الحقيقي. أنا حقا فخور بك يا صوفيا، فقد تعلمت أشياء كثيرة في وقت قصير جدا.

ـ كم أخشى ألا يكون كل هذا حقيقياً!

ـ هذا ما نسميه القلق الوجودي وهو بصفة عامة مجرد مرحلة تقود إلى وعي جديد.

ـ أعتقد أني أحتاج لفترة استراحة من الدروس.

ـ هل أفهم إذن أن لديك الآن ضفادع كثيرة في الحديقة؟

أخذت صوفيا تضحك، وواصل ألبرتو حديثه قائلا:

ـ اعتقد أن الأفضل لنا أن نستمر يا صوفيا. إذ يجب علينا أن ننهي الدروس قبل ليلة منتصف الصيف فتلك هي فرصتنا الأخيرة.

ـ فرصتنا الأخيرة لأي شيء؟

ـ اخبريني أولا، هل أنت مستريحة في جلستك؟ أقصد أن حديثنا قد يطول بعض الوقت.

ـ ها أنا قد جلست، تفضل...

ـ هل تذكرين ديكارت؟

ـ «أنا أفكر إذن فأنا موجود».

ـ يجب أن نخضع كل شيء للشك المنهجي وأن نبدأ من الصفر. إننا لا نعرف حتى إن كنا نفكر. فربما اتضح أننا مجرد أفكار، وهذا أمر مختلف تماماً عن التفكير ذاته. إن لدينا أسبابا قوية تدعونا للاعتقاد بأننا مجرد ثمرة خيال والد هيلد، ابتكرنا لنكون تسلية تتلهى بها ابنته في عيد ميلادها. هل تتابعيني يا صوفيا؟

ـ نعم...

ـ ولكن هذا الوضع ينطوي أيضاً على تناقض. فإذا كنا مخلوقات خيالية فلن يكون من حقنا أن «نعتقد» في أي شيء على الاطلاق. وفي هذه الحالة فإن هذه المحادثة التليفونية تكون كلها خيال في خيال.

ـ ولن تكون لدينا أي إرادة حرة لأن الضابط هو الذي يخطط كل شيء نقوله أو نفعله. ولذلك نستطيع أيضاً أن ننهي هذه المكالمة الآن.

ـ لا، أنت تبالغين الآن في تبسيط الأمور.

ـ اشرح لي إذن.

ـ أتستطيعين أن تقولي إن الناس يخططون كل ما يحلمون به؟ ربما كان والد هيلد يعرف كل شيء نفعله. وربما كان من الصعب علينا الإفلات من وعيه الكلي الذي يحيط بنا مثلما من الصعب أن يفلت الإنسان من ظله. ولكن ليس هناك ما يؤكد أن الضابط قد قرر بالفعل كل الأحداث اللاحقة، وفي هذه النقطة بالتحديد بدأت في وضع خطة. فلعله لا يقرر مسار الأحداث إلا في اللحظة الأخيرة. لحظة الخلق ذاتها، لحظة كتابة أفكاره على الورق. وربما جاز لنا أن نتصور أننا نملك في هذه اللحظات القصيرة بالتحديد مبادرة ذاتية أو استقلالاً نسبياً يجعلنا نوجه ما نقوله أو نفعله. ولا شك في أن هذه المبادرة ستكون أشبه بنبضات ضعيفة واهنة بالقياس إلى المدفعية الثقيلة للضابط وطريقة تصرفه المباشرة. إننا سنكون عاجزين تماماً أمام ظروف

خارجية مثل الكلاب الناطقة، والرسائل المدسوسة في الموز، والعواصف المحجوزة مقدماً. ولكننا لا نستطيع أن نستبعد تماماً تأثير إرادتنا مهما كانت ضعيفة.

ـ وكيف يمكننا أن نفعل هذا؟

ـ إن والد هيلد يعرف بطبيعة الحال كل شيء عن عالمنا الصغير، على أن هذا لايعني أن قوته بلا حدود. ويجب علينا على أي حال أن نعيش كأنه غير موجود.

ـ أعتقد أني أفهم ما تريد أن تقوله.

ـ الفكرة كلها هي أن ننجح في أن نفعل شيئا من تلقاء أنفسنا بمبادرتنا الخاصة، شيئاً لا يستطيع الضابط أن يكتشفه.

ـ وكيف نستطيع أن نفعل ذلك. إن كنا غير موجودين أصلا؟

ـ ومن قال إننا غير موجودين؟ إن السؤال ليس هو إن كنا موجودين أم لا، بل هو من نحن وماذا نفعل. وحتى إن تبين أننا مجرد نبضات في الوعي المزدوج للضابط فإن ذلك لا يحرمنا من وجودنا الصغير.

ـ أو من إرداتنا الحرة أيضاً؟

ـ إني افكر في هذه المسألة يا صوفيا.

ـ ولكن لا بد أن والد هيلد يعرف تماماً أنك تفكر في هذه المسألة.

ـ ربما كان يعرف أين تتجه نيتي ولكنه لا يعرف بالتأكيد أي شيء عن الخطة نفسها. إني أحاول أن أجد نقطة أرشميدس...

ـ نقطة أرشميدس؟

ـ أرشميدس كان عالماً يونانياً قال «أعطني نقطة ثابتة أقف عليها وسوف أحرك الأرض». تلك هي النقطة التي علينا أن نجدها لنفلت من العالم الداخلي لوالد هيلد.

ـ سيكون هذا عملاً فذاً حقاً.

ـ إلا أننا لن ننجح في الإفلات قبل أن ننتهي من دروس الفلسفة. فهو الآن يسيطر علينا سيطرة قوية، إذ إنه قرر فيما يبدو أن يتخذ مني دليلا يرشدك في ترحالك عبر القرون حتى نصل إلى عصرنا الحاضر. وليس أمامنا سوى أيام قليلة قبل

أن يركب طائرته من مكان ما في الشرق الأوسط ويحضر إلى هنا. فإن لم ننجح في أن ننتزع أنفسنا من خياله اللزج قبل أن يصل إلى باركلي نكون قد ضعنا تماماً.

- إنك تخيفني!

- لا بد أن أكلمك أولا عن الملامح الرئيسية لعصر التنوير في فرنسا. ثم سنتعرف على الإطار العام لفلسفة كانط حتى نستطيع أن ننتقل إلى الرومانسية. كما أن هيجل سيكون مرحلة حاسمة في تطور الفلسفة، وبعد بذلك سننتقل إلى النقد الذي وجهه كيركجارد لفلسفة هيجل. ثم سنتكلم بإيجاز عن ماركس، وداروين، وفرويد. وإذا نجحنا في أن نتناول بإيجاز سارتر والوجودية لأمكننا أن نضع خطتنا موضع التنفيذ.

- كل هذا في أسبوع واحد؟

- ولذلك يجب أن نبدأ فورا هل تستطيعين أن تحضري الآن؟

- لا بد أن أذهب للمدرسة. إن فصلنا ينظم حفلا صغيرا ثم إننا سنتسلم شهاداتنا.

- دعك من كل هذا! إذا كنا وعيا خالصا فإن طعم العصير والحلوى ليس سوى وهم وخيال!

- ولكن شهادتي...

- اسمعيني يا صوفيا! إما أنك تعيشين حقا في عالم رائع فوق كوكب صغير في واحدة من مليارات المجرات، وإما أنك ثمرة نبضات كهربائية مغناطيسية في ذهن والد هيلد! ثم تأتين، قبل أن تعرفي حقيقة وجودك، لتحدثيني عن الدرجات والشهادات! يجب حقا أن تخجلي من نفسك!

- أنا آسفة...

-... لكن لعل من الأفضل أن تذهبي إلى المدرسة قبل أن نلتقي. فقد يكون لتخلفك عن اليوم الدراسي الأخير تأثير سيء على هيلد. فمن المؤكد أنها تحرص على الذهاب إلى المدرسة حتى في يوم عيد ميلادها. إنها ملاك كما تعرفين.

- إذن سأحضر اليك بعد خروجي من المدرسة.

ـ فلنتقابل في شاليه الضابط العجوز.

ـ في شاليه الضابط العجوز؟

ـ...

تركت هيلد الملف يسقط في حجرها. لقد نجح والدها في أن يجعلها تشعر بالذنب لأنها تخلفت عن المدرسة في اليوم الأخير. يا له من ماكر!

جلست لحظة تفكر في الخطة التي يدبرها ألبرتو. هل تلقي نظرة على الصفحة الأخيرة؟ لا، هذا سيكون غشا. الأفضل أن تسرع بقراءة بقية الحكاية.

كانت هيلد مقتنعة بأن ألبرتو على حق في نقطة مهمة. فربما كانت لدى والدها فكرة عامة عما سيحدث لصوفيا وألبرتو غير أنه لا يعرف على الأرجح بينما هو عاكف على الكتابة كل ما يمكن حدوثه. فربما ترك قلمه يجري على الورق ليكتب شيئا قد لا يلاحظه إلا بعد ذلك بفترة طويلة. في حالة كهذه سيكون لدى صوفيا وألبرتو قدر من حرية التصرف.

وراود هيلد من جديد شعور قوي بأن صوفيا وألبرتو موجودان حقا. وقالت حتى إن كان سطح البحر ساكنا تماماً فإن أعماقه تضطرب بحركة لا تتوقف.

لماذا خطرت على بالها هذه الفكرة؟ وما الذي أوحى بها؟

إنها ليست بالتأكيد من الأفكار التي تطفو فوق سطح الوعي.

في المدرسة، كانت صوفيا محل اهتمام جميع زملائها الذين اقبلوا عليها يهنئونها بعيد ميلادها. وكانت النشوة تغمر الجميع وقد تسلموا شهاداتهم وانطلقوا يحتسون بعض المشروبات ويفكرون في أجازة الصيف.

وبعد أن انتهى الحفل الصغير وتمنى المدرس للجميع عطلة طيبة انطلقت صوفيا تركض إلى البيت بأسرع ما وسعها الركض. حاولت نورا أن تستبقيها ولكن صوفيا اخبرتها صائحة أن لديها شيئا عاجلا لا بد أن تفعله.

في صندوق البريد وجدت بطاقتين مرسلتين من لبنان. كانتا كلتاهما بطاقتي تهنئة بعيد الميلاد كتب عليهما: عيد ميلاد سعيد ١٥ سنة. كانت إحداهما مرسلة إلى «هيلد مولر كناج، طرف/صوفيا أموندسن» أما الأخرى فكانت مرسلة إلى صوفيا شخصيا! وكانت البطاقتان تحملان خاتم بريد «فصيلة الأمم المتحدة ١٥ يونيو (حزيران)».

بدأت صوفيا بقراءة بطاقتها:

عزيزتي صوفيا

أريد اليوم أن أهنئك بعيد ميلادك أنت أيضاً. فكل سنة وأنت طيبة يا صوفيا. ولك شكري الصادق على كل ما فعلته لهيلد حتى الآن. أطيب تحياتي،

ألبرت كناج

لم تدر صوفيا بأي مشاعر تستقبل هذه البطاقة التي أرسلها إليها شخصيا والد هيلد أخيرا، ولكنها شعرت بالتأثر في قرارة نفسها.

ثم قرأت بطاقة هيلد:

عزيزتي هيلد،

لا أعرف ما هو اليوم أو ما هي الساعة الآن في ليلساند. ولكن ما أهمية هذا في واقع الأمر؟ وإن كنت أظن، بحكم معرفتي بك أنك ما زلت تقرأين هديتي وأن الوقت لم يتأخر بعد لأبعث لك بتهنئة أخيرة (أو قبل أخيرة) بعيد ميلادك. ولكن لا تتأخري كثيراً في النوم! إن ألبرتو سيكلمك قريبا عن عصر التنوير الفرنسي وسيركز في حديثه على النقاط السبع التالية:

١ـ التمرد على السلطة.

٢ـ المذهب العقلاني.

٣ـ حركة التنوير.

٤- التفاؤل الثقافي.

٥- العودة إلى الطبيعة.

٦- الدين الطبيعي.

٧- حقوق الإنسان.

من الواضح أن الضابط ما زال يتابع حركتهما.

دخلت صوفيا البيت ووضعت شهادتها على مائدة المطبخ لترى والدتها فور عودتها أنها حصلت على تقدير «جيد جدا» في جميع المواد. ثم تسللت عبر السياج وجرت نحو الغابة.

وسرعان ما كانت صوفيا في القارب تعبر البحيرة الصغيرة. كان ألبرتو يجلس في انتظارها أمام البيت وعندما أقبلت حياها وأشار لها بأن تجلس إلى جواره. كان الجو صحوا ولكن نسمة باردة كانت تهب من جهة البحيرة كأنما أثر العاصفة لم يتلاش تماماً. وقال ألبرتو:

ـ لندخل فورا في صميم الموضوع. كان الفيلسوف الكبير الذي جاء بعد هيوم هو الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط. غير أن فرنسا ظهر فيها أيضاً كثير من المفكرين الكبار في القرن الثامن عشر. ونستطيع أن نقول إن مركز الثقل الفلسفي في أوروبا في القرن الثامن عشر كان موجودا في إنجلترا في النصف الأول، ثم انتقل إلى فرنسا في منتصف القرن، ثم انتقل إلى ألمانيا قرب نهايته.

ـ أي بعبارة أخرى هو انتقال من الغرب إلى الشرق.

ـ بالضبط. أريد الآن أن أعرض لك بعض الأفكار التي اشترك في الدعوة إليها كثير من فلاسفة التنوير الفرنسيين. وأهم هؤلاء المفكرين هم مونتسكيو، وفولتير، وروسو، ولكنّ هناك كثيرين غيرهم. وسوف أركز في كلامي على سبع نقاط.

قدمت إليه صوفيا البطاقة التي وصلتها من والد هيلد وقالت:

ـ شكرا أنا أعرف ما تنويه بالفعل.

تنهد ألبرتو في ضجر ثم قال:

ـ كان بوسعه أن يوفر على نفسه هذه المشـقة... على أي حـال، النقطة الأولى هي إذن *التمرد على السلطة*. لقد زار كثير من فلاسفة التنوير الفرنسيين إنجلترا التي كانت من نواح كثيرة بلدا يتمتع بقدر أوفر من الحرية بالقياس إلى فرنسا، وسحرت ألبابهم مكتشفات العلوم الطبيعيـة في إنجلـترا، وخاصـة قوانـين الفيزيـاء العامـة الـتي وضعها نيوتن. كما استهلموا الفلسفة الانجليزية، ولا سيما فلسـفة لـوك السياسـية. وعندما عادوا إلى فرنسا أصبحوا أشد تمردا على السلطة القديمة. وكـانوا يعتقـدون أن من الأمور الجوهرية اتخاذ موقف نقدي من جميـع الحقـائق الموروثـة: فـاليوم يجـب على الفرد أن يجد بنفسه إجابته عن أي سؤال. ويتجلـى هنـا بـالطبع تأثـير ديكـارت الواضح.

ـ لأنه هو من بنى كل شيء من الأساس.

ـ تماماً. وهذا التمرد على السلطة بجميع أشكالها كان موجها إلى سلطة الكنيسة كما كان موجها إلى سلطة الملك والنبلاء. فخلال القرن التاسـع عشـر كـانت هـذه المؤسسات تتمتع في فرنسا بنفوذ يفوق نفوذها في إنجلترا.

ـ ثم اندلعت الثورة الفرنسية.

ـ نعم في عام ١٧٨٩. غير أن الأفكار الثورية كانت قد أخذت تشيع قبل ذلك بكثير... النقطة الثانية التي سنتحدث عنها هي *المذهب العقلاني*.

ـ كنت أتصور أن العقلانية انتهت بعد النقد الذي وجهه إليها هيوم.

ـ إن هيوم لم يمت إلا في عام ١٧٧٦، أي بعد مونتسـكيو، بنحـو عشـرين عامـاً وقبل عامين فقط من وفاة فولتير وروسو اللذين ماتا كلاهمـا في عـام ١٧٧٨. لكـن ثلاثتهم زاروا إنجلترا وكانوا ملمين بفلسفة لوك. ولعلك تتذكرين أن لوك كان مؤمنا بقدرة العقل الفطرية على معرفة الله وعلـى التوصـل إلى بعـض القواعـد الأخلاقيـة. وكان الإيمان بتلك القدرة الفطرية للعقل هو لب فلسفة التنوير الفرنسية.

ـ لقد قلت أيضاً إن الفرنسيين كانوا دوما أكثر عقلانية من الإنجليز.

ـ نعم، وهو فرق يرجـع إلى العصـور الوسـطى. وعندمـا يتحـدث الإنجليـز عـن «الحس المشـترك»، يتكلـم الفرنسـيون عـادة عـن «البداهـة» أو «الوضـوح». فأمـا التعبـير الإنجليـزي فيعنـى «مـا يدركـه النـاس جميعـا بـالفطرة السـليمة أو بالتجربـة

المباشرة». في حين أن العبارة الفرنسية تعني «الشيء الواضح» أي الذي يستدل عليه بواسطة «العقل».

ـ فهمت الآن.

ـ وكان معظم فلاسفة التنوير يؤمنون إيمانا لا يتزعزع بعقل الإنسان، شأنهم شأن المفكرين المؤمنين بالنزعة الإنسانية في العصر القديم مثل سقراط والرواقيين. وكانت هذه سمة بالغة الوضوح في تلك الفترة حتى أن عصر التنوير الفرنسي يطلق عليه في أحيان كثيرة عصر العقل. فقد أوضحت العلوم الطبيعية الجديدة أن الطبيعة تخضع للعقل. والآن جاء فلاسفة التنوير واعتبروا أن واجبهم هو إرساء أسس الأخلاق والدين وفقا لعقل الإنسان الثابت. وهذا يقودنا إلى فكر حركة التنوير.

ـ هذه هي النقطة الثالثة.

ـ لقد حان الوقت الآن للشروع في «تنوير» الجماهير. فهذا هو الشرط الرئيسي لإقامة مجتمع أفضل. إذ نظر إلى الفقر والقمع على انهما نتيجة للجهل والخرافة، ولذا أولي اهتمام كبير لتعليم الأطفال والشعب. وليس من قبيل الصدفة أن يكون علم التربية قد تأسس أثناء عصر التنوير.

ـ المدارس ترجع إذن إلى العصور الوسطى، وعلم التربية يرجع إلى عصر التنوير...

ـ يمكنك أن تقولي هذا. ومما يعبر تعبيرا واضحا عن هذه النزعة التنويرية أن من أهم المؤلفات التي انتجتها حركة التنوير موسوعة هائلة تضم ٢٨ مجلدا توالى نشرها من عام ١٧٥١ حتى عام ١٧٧٢. وقد أسهم في إنتاجها كبار الفلاسفة والأدباء جميعا. وكان يقال عنها: «يوجد فيها كل شيء من طريقة صنع الإبرة إلى طريقة سبك المدفع».

ـ النقطة التالية هي *التفاؤل الثقافي*.

ـ ألا تستطيعين أن تتركي هذه البطاقة جانبا حينما نتكلم؟

ـ إني آسفة...

ـ كان فلاسفة التنوير يعتقدون أن انتشار التفكير العقلاني والمعرفة كفيل بدفع البشرية سريعا على طريق التقدم. فما المسألة إلا مسألة وقت ثم ينزاح الجهل والخرافة مفسحين الطريق أمام بشرية «مستنيرة». وقد ظلت هذه النظرة سائدة في أوروبا الغربية حتى بضعة عقود مضت. أما اليوم فلم يعد هناك هذا الاقتناع المتفائل بأن كل مظاهر «التقدم» لها دائما تأثير إيجابي. ونقد «الحضارة» هذا كان قد طرحه بالفعل بعض فلاسفة التنوير الفرنسيين...

ـ ما كان أجدرنا بأن نستمع إليهم.

ـ... فقد نادى بعض فلاسفة التنوير *بالعودة إلى الطبيعة*، وكانت «الطبيعة» في مفهومهم تكاد ترادف «العقل»، إذ إن العقل الإنساني هبة من الطبيعة أكثر مما هو ثمرة من ثمرات الدين أو الحضارة. ولاحظ بعض مفكري التنوير أن الشعوب التي يطلق عليها اسم الشعوب البدائية تعد في أحيان كثيرة أوفر صحة وأسعد حالا من الشعوب الأوروبية وذلك لأنها لم تعرف هذا النوع من «التحضر». ورفع روسو شعار «العودة إلى الطبيعة». لأن الطبيعة خيرة، والإنسان خير «بطبيعته»، والحضارة هي التي تفسده. كما آمن روسو بأن الطفل يجب أن يترك على سجيته «الطبيعية» أطول فترة ممكنة. وليس من الخطأ أن نقول إن فكرة النظر إلى الطفولة بوصفها مرحلة لها قيمتها الذاتية الخاصة فكرة ترجع إلى عصر التنوير. فقبل ذلك كانت الطفولة تعتبر مجرد مرحلة إعداد للحياة الراشدة. غير أننا إذا كنا نعتبر أن لحياتنا فوق هذه الأرض قيمة كبرى فان هذه القيمة لا بد أن تنسحب أيضاً على مرحلة الطفولة.

ـ أوافق على هذا تماماً.

ـ كما أنهم رأوا أن من مهام العقل تخليص الدين وتنقيته من كل العقائد والأفكار اللاعقلانية التي لصقت بتعاليم المسيح البسيطة على امتداد تاريخ الكنيسة. إلا أن كثيراً من فلاسفة التنوير دعوا أيضاً إلى ما يسمى *الدين الطبيعي*.

ـ وما هو الدين الطبيعي؟

ـ على عكس الماديين الذين تزايدت أعدادهم في تلك الفترة وراحوا يعلنون انكارهم لوجود الله ويجاهرون بإلحادهم، كان معظم فلاسفة التنوير يعتقدون أن من غير المعقول تصور عالم بغير الله. لأن العالم منظم تنظيما عقلانيا، وكان هذا نفس

رأي نيوتن مثلاً. كان وجود الله يرتكز لديهم إذن على العقل لا على أي رسالة سماوية. كما اعتبروا أن العقل يفرض الإيمان بخلود الروح، واتفقوا مع ديكارت في أن تلك مسألة يقرها العقل أكثر مما يفرضها الإيمان.

- هذا موقف غريب في رأيي لأن خلود الروح نموذج لأمر يتعلق بالإيمان لا بالمعرفة.

- إلا أنه موقف مفهوم في اطار المناخ الفكري العقلاني الذي ساد القرن الثامن عشر في فرنسا والذي قاد كثيراً من الناس إلى إعلان إيمانهم بما يسمى *التأليه الطبيعي*، تمييزا لموقفهم عن التأليه الديني.

- وما هذا التأليه الطبيعي؟

- يقصد بالتأليه الطبيعي الإيمان بأن الله خلق العالم من قديم الزمان ولكنه لم يتجل بعد ذلك للعالم لا بوحي أو برسل. وهو بالتالي مفهوم يختزل الله إلى «كائن أعلى» لا يتجلى للبشرية إلا من خلال القوانين الطبيعية وآثاره في الطبيعة، لا بأي طريقة «فوق طبيعية». ونحن نجد نفس هذا «الإله الفلسفي» في كتابات أرسطو. فقد كان أرسطو يرى أن الله هو «العلة الأولى» أو «المحرك الأول».

- تتبقى لنا الآن نقطة واحدة هي *حقوق الإنسان*.

- ولعلها أهم النقاط جميعا. ويمكنك أن تقولي بصفة عامة أن فلسفة التنوير الفرنسية كانت أكثر اهتماماً من الفلسفة الإنجليزية بالتطبيق العملي للأفكار الفلسفية.

- هل تقصد أن فلاسفة التنوير الفرنسيين قد عاشوا وفقا لفلسفتهم وحاولوا تطبيقها؟

- نعم، إن فلاسفة التنوير الفرنسيين لم يكتفوا بإبداء الآراء النظرية عن مكانة الإنسان في المجتمع. لقد كافحوا في سبيل الاعتراف بما أسموه «الحقوق الطبيعية للمواطن». في البداية خاضوا حملة ضد الرقابة، أي في سبيل حرية الصحافة. كما دعوا إلى ضمان حق الفرد في حرية التفكير في المسائل الدينية والأخلاقية والسياسية وفي حرية التعبير عن آرائه في تلك المسائل. وناضلوا أيضاً في سبيل الغاء الرق وتحسين معاملة المجرمين.

ـ من الصعب عدم الاتفاق معهم في كل هذه النقاط.

ـ وقد كرس مبدأ «حرمة الفرد» في إعلان *حقوق الإنسان والمواطن* الذي اعتمدته الجمعية الوطنية الفرنسية في عام ١٧٨٩. وكان إعلان حقوق الإنسان هذا هو الأساس الذي استند إليه دستورنا النرويجي الذي وضع عام ١٨٤١.

ـ لكن كثيراً من الشعوب ما زال عليها أن تكافح في سبيل نيل هذه الحقوق.

ـ نعم للأسف. وكان فلاسفة التنوير يريدون أن يقرروا حقوقا معينة يحق لكل إنسان أن يتمتع بها بحكم أنه ولد إنسانا. كان هذا ما يقصدونه بالحقوق الطبيعية. ولحن ما زلنا نتكلم عن الحقوق الطبيعية التي تتعارض في كثير من الأحيان مع قوانين سائدة في هذا البلد أو ذاك. وباسم هذا «الحق الطبيعي» يهب الأفراد، بل تنهض أمم بأسرها أحيانا، لمقاومة الطغيان والاضطهاد والقمع.

ـ وماذا عن حقوق المرأة؟

ـ قررت الثورة الفرنسية في عام ١٧٩٨ عددا من الحقوق لجميع «المواطنين»، على أن المقصود بالمواطن كان هو الرجل بوجه عام. لكن الثورة الفرنسية كانت هي الفترة التي ظهرت فيها الحركات الأولى المدافعة عن حقوق المرأة.

ـ لقد تأخر ذلك كثيراً!

ـ قبل عامين من الثورة أي في عام ١٧٨٧ *كان كوندرسيه*، وهو من فلاسفة التنوير، قد نشر بالفعل دراسة عن حقوق المرأة قال فيها إن المرأة تتمتع «بنفس الحقوق الطبيعية» مثل الرجل. وعندما اندلعت الثورة الفرنسية، اضطلعت النساء خلالها بدور شديد الفعالية في مكافحة النظام الاقطاعي القديم. فكانت النساء، مثلاً، هن اللاتي قدن المظاهرات التي أجبرت الملك على الفرار من قصره في فرساي. ثم تشكلت في باريس جماعات نسائية مختلفة طالبت بالمساواة في الحقوق السياسية مع الرجال، بالاضافة إلى تعديل قوانين الزواج، وتحسين الظروف الاجتماعية للمرأة.

ـ وهل حصلت المرأة على هذه الحقوق؟

ـ لا، فكما حدث في مناسبات كثيرة لاحقة استغلت قضية حقوق المرأة في إذكاء لهيب الصراع في السياق العام للثورة، ولكن بمجرد أن هدأت فورة الثورة تمت العودة إلى النظام الاجتماعي التقليدي القائم على سيطرة الرجل.

ـ هذا ما يحدث على الدوام!

ـ ومن بين اللاتي كافحن كفاحا ضاريا في سبيل حقوق المرأة خلال الثورة الفرنسية إمرأة تدعى *أوليمب دي جوج*. ففي عام ١٧٩١، أي بعد عامين من الثورة، نشرت إعلانا لحقوق المرأة. فإعلان حقوق الإنسان والمواطن لم يتضمن أي مادة بشأن الحقوق الطبيعية للمرأة. فجاءت أوليمب دي جوج تطالب الآن للمرأة بنفس حقوق الرجل.

ـ وماذا حدث؟

ـ تم إعدامها بالمقصلة في عام ١٧٩٣. ثم حظر كل النشاط السياسي للنساء.

ـ يا له من أمر مخزٍ لا يصدق!

ـ وتعين الانتظار حتى القرن التاسع عشر لتظهر حركة نسائية جديدة؛ لا في فرنسا وحدها بل في بقية أنحاء أوروبا كذلك، وشيئا فشيئا نجح كفاح هذه الحركة في أن يؤتي ثماره. غير أن النساء في النرويج مثلاً لم يحصلن على حق التصويت إلا في عام ١٩١٣. وما زال أمام النساء في أنحاء كثيرة من العالم أن يخضن كفاحا طويلا في سبيل حقوقهن.

ـ أنا أؤيدهن في هذا.

جلس ألبرتو يتطلع إلى البحيرة وبعد برهة قال:

ـ هذا ما أردت أن أقوله لك عن التنوير بصفة عامة.

ـ ماذا تقصد بصفة عامة؟

ـ أشعر أن ليس لدي ما أضيفه.

في هذه اللحظة بدأ شيء غريب يحدث في وسط البحيرة، إذ أخذ الماء يضطرب وظهر من أعماق البحيرة مخلوق ضخم مخيف. فصرخت صوفيا:

ـ إنه ثعبان البحر!

صعد المخلوق المخيف عدة مرات خارج الماء قبل أن يغوص في الأعماق ويترك سطح البحيرة ساكنا كما كان. وعندئذ قال ألبرتو الذي كان قد حول نظره بعيدا:

ـ هيا بنا الآن!

ثم نهضا ودخلا إلى الشاليه الصغير. ووقفت صوفيا تتطلع إلى لوحتي بيركلي وباركلي، وأشارت إلى لوحة باركلي وقالت:

ـ أعتقد أن هيلد تعيش في مكان ما داخل تلك اللوحة.

كانت قد علقت الآن بين اللوحتين قطعة نسيج مطرزة كتب عليها: *الحرية والمساواة والإخاء*.

استدارت صوفيا وقالت لألبرتو:

ـ هل أنت من علق هذا؟

اكتفى ألبرتو بهز رأسه بفتور كأنما يربأ بنفسه أن يقوم بهذه «الحيل». ثم اكتشفت صوفيا ظرفا صغيرا فوق المدفئة كتب عليه «إلى هيلد وصوفيا». لم تشعر بحاجة للتساؤل عمن أرسله. فتحت الظرف وقرأت الرسالة بصوت عال:

عزيزتي هيلد وصوفيا،

كان من واجب أستاذ الفلسفة أن يؤكد على أهمية فلسفة التنوير الفرنسية بالنسبة للمبادئ والمثل العليا التي أسست عليها الأمم المتحدة. منذ مائتي عام كان شعار «الحرية والمساواة والإخاء» هو الذي وحد الشعب الفرنسي. واليوم ينبغي لنفس الشعار أن يوحد العالم بأسره. فمن المهم أكثر من أي وقت مضى أن تصبح البشرية جمعاء أسرة واحدة. إن من سيأتون بعدنا هم أولادنا وأحفادنا. فأي عالم سنترك لهم؟

سمعت هيلد صوت أمها يناديها بأن الفيلم البوليسي سيبدأ بعد عشر دقائق. كان التعب قد نال من هيلد بعد كل ما قرأت. ثم أنها قد استيقظت في السادسة صباحا. ولذا قررت هيلد أن تمضي بقية المساء تحتفل بعيد ميلادها مع أمها. إلا أن عليها أولا أن تبحث عن شيء في موسوعتها.

«جوج»... غير موجودة فلتبحث عنها تحت «دي جوج»؟ لا يوجد هذا الاسم أيضاً. فلتبحث عن «اوليمب دي جوج»؟ ولا الاسم كاملا. إن هذه الموسوعة لم تكتب سطرا واحداً عن امرأة فصل رأسها عن جسدها بسبب موقفها السياسي. أليس هذا شيئا مخزيا!

من المؤكد أنها ليست شخصية من اختراع أبيها!

نزلت هيلد السلم مسرعة لتبحث في الموسوعة الكبيرة. تطلعت إليها أمها بدهشة فقالت لها هيلد:

ـ أريد فقط أن أتحقق من شيء هام.

أخذت المجلد الذي يضم حرف الجيم من الموسوعة الكبيرة التي تحتفظ بها الأسرة ثم عادت مسرعة إلى غرفتها.

جوج... ها هي أخيرا

جوج، ماري أوليمب (١٧٤٨ ـ١٧٩٣)، كاتبة فرنسية، أدت دورا بارزا خلال الثورة الفرنسية بنشر كتيبات عديدة عن المسائل الاجتماعية وبعض المسرحيات. من النساء القليلات اللاتي طالبن خلال الثورة بالمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة. نشرت في عام ١٧٩١ «إعلان حقوق المرأة». حكم عليها بالإعدام بالمقصلة في عام ١٧٩٣ لأنها جرؤت على الدفاع عن لويس السادس عشر وتوجيه النقد لروبسبير. (ل. لاكور، «أصول الحركة النسائية المعاصرة»، ١٩٠٠).

الفصل الخامس والعشرون

كانــط

... السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي

والقانون الأخلاقي داخل نفسي...

كان الوقت قد اقترب مـن منتصـف الليـل عندمـا اتصـل الضـابط ألـبرت كناج بالتليفون ليهنئ هيلد بعيد ميلادها. كانت أم هيلد هي التي ردت على التليفون وبعد محادثة هامسة، تصنعت الأم البراءة فنادت على ابنتها:

ـ إنها مكالمة لك يا هيلد.

ـ آلو؟

ـ أنا بابا يا هيلد!

ـ بابا! لقد انتظرت مكالمتك طـول النهـار حتـى كـدت أيـأس، فنحـن في منتصف الليل تقريبا!

ـ وكيف يفوتني أن أقول لك كل سنة وأنت طيبة يا هيلد...

ـ انك لم تتوقف عن ذلك طول اليوم!

ـ... ولكني لم أرد أن أتصل بك إلا في الدقائق الأخيرة من هذا اليوم.

ـ لماذا؟

ـ هل تسلمت هديتي؟

ـ نعم، شكرا جزيلا حقا.

ـ أردت أن اترك لك الفرصة لقراءة أكبر جزء منهـا والآن لا أطيـق صـبرا على سماع رأيك فيها.

ـ إنها مفاجأة رائعة حقا. إنني لم أكد آكل طول اليوم من شدة استغراقي في القراءة إنها شائقة ومثيرة جدا.

ـ وإلى أين وصلت الآن؟

ـ إلى حيث دخلت صوفيا وألبرتو شاليه الضابط العجوز بعد أن بدأت تمزح معهما وتخيفهما بثعبان البحر!

ـ آه! عصر التنوير إذن.

ـ نعم، وأوليمب دي جوج.

ـ إذن لعلني لم أخطىء تماماً.

ـ تخطىء بأي معنى؟

ـ تبقى هناك تحية أخرى واحدة لك بعيد ميلادك. إلا أنها ستكون تهنئة موسيقية هذه المرة.

ـ سأقرأ قليلا قبل أن أنام.

ـ هل فهمت شيئا مما كتبته؟

ـ لقد تعلمت في يوم واحد أكثر مما تعلمته طول حياتي. لا أكاد أصدق أنه قد مر أقل من أربع وعشرين ساعة منذ أن قرأت عن عثور صوفيا على الظرف الصغير عند عودتها من المدرسة وها أنا ذا قد وصلت إلى عصر التنوير...

ـ ما أقل ما يحتاجه الإنسان أحيانا.

ـ ولكني أشعر بالشفقة عليها.

ـ تشعرين بالشفقة على ماما لانصرافك عنها إلى القراءة؟

ـ لا، بل على صوفيا.

ـ لماذا؟

ـ لأن الأمور قد اختلطت عليها تماماً، المسكينة!

ـ ولكنها مجرد...

ـ... تريد أن تقول إنها مجرد شخصية قمت باختراعها؟

- نعم، شيء من هذا القبيل....

- أما أنا فأعتقد أن صوفيا وألبرتو موجودان حقا.

- سنتحدث في هذا عند عودتي.

- اتفقنا...

- والآن، نهارك سعيد يا هيلد.

- ماذا قلت؟

- أقصد تصبحين على خير.

- تصبح على خير يا بابا.

عندما عادت هيلد إلى سريرها بعد نحو نصف ساعة كان ضوء النهار ما زال، على خفوته، يغمر الحديقة والخليج الصغير، ففي هذا الوقت من السنة لا تعتم الدنيا تماماً في بلدان الشمال.

تخيلت هيلد نفسها داخل لوحة تصور هذه الحديقة وهذا الخليج معلقة على حائط شاليه صغير قابع في أعماق الغابة. ثم تساءلت هل تستطيع من موقعها داخل الصورة أن تلقى نظرة على ذلك المكان السحري الذي ابتكره أبوها؟ وهل تستطيع أن ترى صوفيا وألبرتو؟

قبل أن تنام، قرأت بعض صفحات أخرى في الملف الكبير.

وضعت صوفيا رسالة والد هيلد في مكانها فوق المدفأة. وقال ألبرتو:

- إن ما يقوله عن الأمم المتحدة قد يكون مهما، لكني لا أحب طريقة تدخله في عرض الأمور.

- لا ينبغي أن تزعج نفسك لهذا السبب.

- لقد نويت من الآن أن أتجاهل كل الظواهر العجيبة التي يتسلى بها كثعابين البحر وما إلى ذلك. فلنجلس بجوار النافذة فإني أريد أن أكلمك عن كانط.

لاحظت صوفيا نظارة موضوعة على المائدة التي صفت بين المقعدين الكبيرين. كما لاحظت أن عدسات النظارة حمراء! لا بد أنها نظارة شمسية توفر حماية قوية من ضوء الصيف الساطع. وقالت صوفيا:

- الساعة الآن الثانية ويجب أن أعود إلى البيت قبل الخامسة، فلا بد أن ماما تنوي أن نحتفل معا احتفالا صغيرا بعيد ميلادي.

- أمامنا ثلاث ساعات...

- فلنبدأ إذن...

- ولد *إيمانويل كانط* في عام ١٧٤٢ في مدينة كونجيسبرج في بروسيا الشرقية بالمانيا وكان أبوه يعمل سرّاجاً. وقد عاش في هذه المدينة الشطر الأعظم من حياته إلى حين وفاته وهو في الثمانين من عمره. وكانت أسرته شديدة التدين والتقوى فتأثر بهذه النشأة، وكان لإيمانه تأثير حاسم في تشكيل فلسفته. فقد رأى، مثل بيركلي، أن من الجوهري صون دعائم العقيدة المسيحية.

- يكفيني ما سمعت عن بيركلي!

- كان كانط أول فيلسوف سمعنا به حتى الآن يقوم بتدريس الفلسفة في الجامعة. أي نستطيع أن نقول إنه اتخذ من الفلسفة مهنة له.

- الفلسفة مهنة؟

- إن كلمة «فيلسوف» أصبح لها في عصرنا الحالي معنيان مختلفان، فهي تشير من جهة إلى المفكر الذي يحاول أن يجد إجاباته الخاصة عن الأسئلة الفلسفية، وتشير من جهة أخرى إلى الخبير في تاريخ الفلسفة دون أن يكون قد أنتج بالضرورة فلسفة خاصة به.

- ومن أي نوع كان كانط؟

- كان كانط من النوعين معا. فلو كان مجرد أستاذ لامع وخبير في أفكار الفلاسفة الآخرين لما كان له أي مكان في تاريخ الفلسفة. ولكن من المهم أن نلاحظ أن كانط كانت له معرفة واسعة بالتراث الفلسفي السابق. فقد كان ملما بكل من عقلانية ديكارت وسبينوزا، وتجريبية لوك وبيركلي وهيوم.

- لقد رجوتك ألا تذكر لي اسم بيركلي مرة أخرى.

- لعلك تتذكرين أن العقلانيين كانوا يؤمنون بأن العقل هو أساس كل معرفة إنسانية، في حين أن التجريبيين كانوا يؤمنون بأن الحواس هي مصدر كل معرفتنا بالعالم. وكان هيوم قد أوضح، علاوة على ذلك، أن هناك حدودا واضحة للاستنتاجات التي نستطيع استخلاصها من انطباعاتنا الحسية.

ـ ومع من اتفق كانط؟

ـ لقد رأى أن هناك قدرا من الصواب وقدرا من الخطأ في كل موقف منهما. فالمسألة التي تشغل الطرفين هي ما الذي نستطيع أن نعرفه عن العالم؟ وكانت محاولة الإجابة عن هذا السؤال هي المشروع الفلسفي الذي اهتم به جميع الفلاسفة منذ ديكارت. وكان هناك احتمالان: إما أن العالم هو بالضبط كما ندركه بحواسنا، وإما هو بالضبط كما نتصوره بعقلنا.

ـ وما كان رأي كانط؟

ـ رأى كانط أن كلا من الادراك الحسي والعقل يسهمان في تكوين مفهومنا عن العالم. ولكنه كان يعتقد أن العقلانيين بالغوا في تأكيدهم على إسهام العقل وأن التجريبيين قد بالغوا في التأكيد على أهمية التجربة الحسية.

ـ إن لم تعطني مثلاً سيظل ما تقوله مجرد كلام جميل.

ـ اتفق كانط مع هيوم والتجريبيين في أن كل معرفتنا بالعالم تأتينا عن طريق الحواس. ولكنه مد يدا أخرى إلى العقلانيين وقال إن عقلنا به أيضاً عوامل حاسمة تحدد الطريقة التي ندرك بها عن طريق حواسنا العالم المحيط بنا. أي بعبارة أخرى إن عقل الإنسان ينطوي على شروط معينة تسهم في تكوين مفهومنا عن العالم.

ـ وهل تعتبر هذا مثلاً؟

ـ فلنقم إذن بتجربة صغيرة. هلا أحضرت هذه النظارة الموضوعة على المائدة هناك؟ شكرا... ضعيها الآن على عينيك.

وضعت صوفيا النظارة فتلوّن كل ما حولها باللون الأحمر. الألوان الفاتحة أصبحت وردية والألوان الداكنة أصبحت قرمزية.

ـ والآن قولي لي ماذا ترين؟

ـ أرى ما كنت أراه من قبل ولكن كل شيء أصبح أحمر اللون.

ـ وذلك لأن النظارة تحدد الطريقة التي تبصرين بها الواقع. إن كل شيء تبصيرنه جزء من العالم المحيط بك، أما كيف تبصيرنه، فأمر تحدده النظارة التي تضعينها على عينيك.

ـ نعم، هذا ما ألاحظه!

ـ والآن إذا خرجت تتنزهين في الغابة أو إذا عدت إلى بيتك فسوف ترين كل شيء كما كان موجودا من قبل ولكنه سيكون أحمر اللون.

ـ نعم، إذا لم أخلع النظارة.

ـ وهذا بالتحديد ما كان يقصده كانط عندما قال إن عقلنا ينطوي على شروط أو استعدادات أو ملكات معينة تؤثر على تجاربنا الحسية.

ـ وما هذه الشروط أو الاستعدادات؟

ـ أيا كان ما نراه فإننا سنظل ندركه بوصفه ظاهرة موجودة في *الزمان والمكان*. وأطلق كانط على الزمان والمكان شكلي الحدس أو التصور. وأكد أن هذين الشكلين موجودان في ذهننا قبل أي تجربة. أي أننا، بعبارة أخرى، نعرف قبل أن نجرب الأشياء أننا سندركها بوصفها ظواهر تقع في الزمان والمكان لأننا لا نستطيع أن نخلع «نظارة العقل».

ـ كان يعتقد إذن أن إدراك الأشياء في الزمان والمكان مسألة فطرية؟

ـ نعم بمعنى ما. إن ما نراه قد يعتمد على ما إذا كنا نعيش في الهند أو النرويج، ولكن أينما نكن فإن تجربتنا للعالم هي مجموعة عمليات تحدث في الزمان والمكان. وهذا أمر نستطيع أن نقوله سلفا.

ـ ولكن ألا يوجد الزمان والمكان خارج أنفسنا؟

ـ لا. عندما وضعت النظارة أبصرت حقا كل شيء أحمر اللون إلا أن هذا لا يجيز لك ان تؤكدي أن العالم أحمر. إن فكرة كانط هي أن الزمان والمكان ينتميان للطبيعة الإنسانية، إن الزمان والمكان هما في المقام الأول نمطين للإدراك خاصين بالإنسان وليسا صفتين من صفات العالم المادي.

ـ طريقة جديدة تماماً في رؤية الأمور.

ـ إن ذهن الإنسان ليس مجرد صفحة بيضاء تتلقى سلبيا ما يدون فوقها من انطباعات تنقلها حواسنا عن العالم الخارجي. بل إن ذهن الإنسان يؤدي دورا إيجابيا إذ إنه يؤثر على تصورنا عن العالم. تخيلي ما يحدث عندما تصبين الماء في أحد الأواني: إن الماء سيأخذ شكل الإناء. وبالمثل تتكيف انطباعاتنا الحسية مع شكلي الحدس القائمين في الذهن: وهما الزمان والمكان.

ـ أعتقد أني أفهم الآن ما تريد أن تقول.

ـ وقد شبه كانط هذا التصور الجديد لمسألة المعرفة الإنسـانية بثـورة كوبرنيـك. وكانَ يقصد بذلك أن هذا التصور جديد تماماً ومختلـف اختلافـا جذريـا عـن طريقـة التفكير السابقة، شأنه شأن نظرية كوبرنيك التي أكـدت أن الأرض هـي الـتي تـدور حول الشمس وليس العكس كما كان يتصور الناس.

ـ أفهـم الآن كيـف رأى خطـأ كـل مـن العقلانيـين والتجريبيـين. فقـد كـاد العقلانيون ينسون أهمية التجربة، في حـين أن التجريبيـين قـد غضـوا أبصـارهم عـن الطريقة التي يؤثر بها ذهننا على رؤيتنا للعالم.

ـ كما أكد كانط أن *قانون العلية* (أو السببية أو علاقة السبب بالنتيجة) الـذي تصور هيوم أن الإنسان لا يمكن أن يجربه يشكل جزءا من ذهن الإنسان.

ـ أرجوك أن تشرح هذا!

ـ لعلك تذكرين أن هيوم زعم أن قوة العادة وحدها هي مـا تجعلنـا نـرى علاقـة سببية وراء كل العمليات الطبيعية. إذ كان يرى أننا لا نستطيع أن ندرك بحواسنا أن كرة البلياردو السوداء هي سبب حركة الكـرة البيضـاء، ولـذا فإننـا لا نسـتطيع أن نثبت أن الكرة السوداء ستؤدي دائما إلى تحريك الكرة البيضاء إن اصطدمت بها.

ـ نعم، أتذكر هذا.

ـ لكن ما لا نستطيع أن نثبته في رأي هيوم قد جعل منـه كـانط إحـدى صفـات العقل الإنساني. إن قانون العليـة قـانون أبـدي ومطلـق لأن العقـل الإنسـاني يـدرك ببساطة كل شيء يحدث بوصفه علاقة سبب بنتيجة.

ـ كنت أتصور أيضاً أن قانون العلية كامن في العالم المادي ذاته وليس في عقولنا.

ـ يقول كانط إنه كامن في عقلنا. إنه يتفق مع هيوم في أننا لا نستطيع أن نعـرف بشكل مؤكد ما هو العالم «في ذاته». فنحن لا نستطيع أن نعرف إلا العـالم «بالنسـبة لي» أو بالنسبة لسائر الناس. إن أهم إسهام لكانط في الفلسفة هو هذه التفرقـة الـتي وضعها بين *«الأشياء في ذاتها»* و*«الأشياء كما تبدو لنا»*. فنحن لا نستطيع أبـدا أن نعرف عن يقين الأشياء «في ذاتها». كل ما نستطيع أن نعرفه هـو الأشـياء «كمـا تبدو» لنا. ومن جهة أخرى نستطيع، قبل أن نقوم بأي تجربة محددة، أن نكوّن مقدما تصورا عن الطريقة التي سيدرك بها العقل الإنساني الأشياء.

ـ وهل نستطيع حقا؟

ـ قبل أن تخرجي من البيت في الصباح لا تستطيعين أن تعرفي ما سوف ترينه أو تجربينه أثناء النهار. ولكنك تستطيعين أن تعرفي أن ما سوف ترينه أو تجربينه سيتم إدراكه حتما بوصفه شيئا يحدث في الزمان والمكان. ويمكنك أيضاً أن تثقي بأن قانون السبب والنتيجة سينطبق على مدركاتك، لأنك ببساطة تحملينه داخلك بوصفه جزءا من وعيك.

ـ هل تقصد أنه كان من المحتمل أن نخلق بطريقة مختلفة؟

ـ نعم، فربما كنا خلقنا بجهاز حسي مختلف. وربما كان لنا إحساس مختلف بالزمان وشعور مختلف بالمكان. بل وربما أيضاً كنا خلقنا بطريقة لا تجعلنا نفتش عن سبب الأشياء التي تحدث حولنا.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ تخيلي قطة مستلقية على أرض البهو، ثم إذ بها ترى كرة تتدحرج في الغرفة. ماذا ستفعل القطة في رأيك؟

ـ لقد جربت هذا مرات كثيرة: إن القطة ستجري وراء الكرة.

ـ اتفقنا.

ـ تخيلي الآن أنك جالسة في نفس تلك الغرفة. إذا رأيت فجأة كرة تتدحرج على الأرض هل ستأخذين في الجري وراءها؟

ـ لا، سألتفت أولا حولي لأرى من أين جاءت الكرة.

ـ نعم، لأنك كائن إنساني، ولذلك فإنك ستفتشين عن سبب كل حدث يقع لأن قانون العلية جزء من تكوينك.

ـ هذا ما يقوله كانط!

ـ لقد أوضح هيوم أننا لا نستطيع أن ندرك بحواسنا القوانين الطبيعية ولا أن نبرهن عليها. أما كانط فقال إنه يستطيع أن يبرهن على صحتها المطلقة لأننا نتكلم في الحقيقة عن قوانين تتعلق بملكة الفهم لدى الإنسان.

ـ هل الطفل الصغير سيلتفت حوله أيضاً ليرى من أين جاءت الكرة؟

ـ ربما لا، لكن كانط أشار إلى أن عقل الطفل لا يتطور تطورا كاملا حتى تتجمع لديه ادراكات حسية كافية يعالجها وينظمها. فلا معنى للحديث عن ذهن فارغ.

ـ لا بالطبع، وإلا لكان ذهنا بالغ الغرابة.

ـ لنلخص ما قلناه إذن. يرى كانط أن هناك عنصرين يسهمان في معرفة الإنسان بالعالم. العنصر الأول هو الشروط الخارجية التي لا نستطيع أن نعرفها قبل أن ندركها بواسطة حواسنا. ويمكننا أن نسمي هذه الشروط *مادة المعرفة*. أما العنصر الثاني فهو الشروط الداخلية الكامنة في الإنسان، مثل تصور الأحداث في الزمان والمكان وتصور العمليات وفقا لقانون العلية الثابت. ونحن نسمي هذه الشروط الداخلية *شكل المعرفة*.

ظل ألبرتو وصوفيا صامتين برهة يتطلعان عبر النافذة. وفجأة لمحت صوفيا فتاة صغيرة بين الأشجار من الجهة الأخرى للبحيرة، فقالت:

ـ انظر! من تكون هذه الفتاة؟

ـ لست أدري...

ظهرت الفتاة لثوان معدودة ثم اختفت. ولاحظت صوفيا أنها كانت ترتدي رداء أحمر وتضع على رأسها قبعة حمراء.

ـ يجب ألا ندع أي ظروف تشتت انتباهنا.

ـ استمر إذن...

ـ كان كانط يعتقد أن هناك حدودا واضحة لما يمكننا معرفته. وربما أمكنك أن تقولي إن «نظارة» العقل هي التي تضع هذه الحدود.

ـ وكيف هذا؟

ـ لعلك تذكرين أن الفلاسفة قبل كانط كانوا يناقشون المسائل الفلسفية «الكبرى»، مثل ما إذا كانت للإنسان روح خالدة، وما إذا كان الله موجودا، وما إذا كانت الطبيعة تتألف من جسيمات أخيرة، أي من جسيمات غير قابلة للانقسام بعد حد معين، وما إذا كان الكون محدودا أو لامحدودا.

ـ نعم.

ـ وكان كانط يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى معرفة يقينية عن هذه المسائل. غير أن هذا لا يعني أنه رفض بحث هذه المسائل، بل على العكس فلو كان نحاها جانبا لما أمكن اعتباره فيلسوفاً حقيقياً.

ـ فما الذي فعله إذن؟

ـ اصبري قليلا يا صوفيا. فيما يتعلق بهذه الأسئلة الفلسفية الكبرى، كان كانط يعتقد أن العقل يعمل خارج حدود ما يستطيع الإنسان معرفته. ولكن في الوقت ذاته توجد في طبيعتنا الإنسانية رغبة أساسية في طرح هذا النوع من الأسئلة. غير أننا عندما نتساءل مثلاً عما إذا كان الكون محدودا أو لامحدودا فإننا نتساءل عن واقع لا نكوّن إلا جزءا ضئيلا منه، ولذا فإننا لن نستطيع أن نعرف أبدا هذا الواقع معرفة كاملة.

ـ ولماذا؟

ـ عندما وضعت النظارة الحمراء على عينيك أثبتنا أن هناك، في رأي كانط، عنصرين يسهمان في معرفتنا بالعالم.

ـ الإدراك الحسي، والعقل.

ـ نعم، مادة معرفتنا تأتينا عن طريق الحواس، إلا أن هذه المادة يجب أن تتكيف مع صفات العقل. ومن صفات العقل هذه مثلاً البحث عن السبب وراء كل حدث.

ـ مثل معرفة السبب وراء تدحرج الكرة على أرض الغرفة.

ـ إذا شئت. ولكن عندما نتساءل من أين جاء العالم ثم نتناقش في الإجابات الممكنة فإن العقل يدور في فراغ بمعنى ما. لأن العقل لا يملك عن هذه الأسئلة مادة مدركة بالحواس يقوم بمعالجتها، ولا تتوافر لديه تجربة يصوغها، لأننا لم نجرب قط لا من حيث الزمان ولا المكان الواقع الكبير الذي لا نشكل سوى جزء ضئيل منه. إننا، بمعنى ما، لسنا سوى جزء ضئيل من الكرة التي تتدحرج على الأرض ولذا لا نستطيع أن نعرف من أين جاءت. ولكن سيظل دوما من صفات العقل الإنساني أن يتساءل مع ذلك من أين جاءت الكرة. وهذا ما يجعلنا نسأل ونسأل لنحاول أن نجد إجابات عن جميع الأسئلة العميقة. غير أننا لن نجد أبدا شيئا راسخا نستند إليه ؛ إننا لن نجد إجابة مرضية لأن العقل يعمل في فراغ.

ـ أدرك تماماً هذا الشعور، فشكرا جزيلا!

ـ وأوضح كانط أن هذه الأسئلة الكبرى المتعلقة بطبيعة الواقع الكلي ستظل توجد بشأنها دوما وجهتا نظر متعارضتان، كل منهما محتملة أو غير محتملة كالأخرى تماماً.

ـ أمثلة من فضلك!

ـ يمكننا أن نقول، مثلاً، إن العالم لا بد أن تكون له بداية في الزمان كما يمكننا أن نقول أيضاً إنه موجود من قديم الأزل دون بداية. إن العقل لا يمكن أن يفصل بين هذين الاحتمالين. يمكننا أن نزعم أن العالم قد وجد دوما من قديم الأزل، ولكن هل يمكن لشيء أن يكون قد وجد دوما من قديم إن لم تكن هناك قط أية بداية؟ وعندئذ نصبح مضطرين لتبني وجهة النظر المضادة. فنقول إن العالم لا بد قد بدأ في لحظة معينة، ولا بد أنه قد بدأ من العدم. ولكن هل يمكن لشيء أن يوجد من العدم يا صوفيا؟

ـ لا، كل احتمال منهما صعب التصور كالآخر تماماً. ولكن لا بد أن أحدهما صحيح والآخر خاطئ.

ـ لعلك تذكرين أن ديموقريطس والماديين قالوا إن الطبيعة مؤلفة من عناصر ضئيلة غير قابلة للانقسام تتجمع لتكوين الأشياء المختلفة. كما تذكرين أن فلاسفة آخرين، مثل ديكارت، قد أكدوا أن الواقع المادي يمكن تقسيمه باطراد إلى أجزاء أصغر فأصغر إلى ما لا نهاية. فأي الطرفين على حق؟

ـ كلاهما على حق... لا كلاهما مخطئ...

ـ كما أكد فلاسفة كثيرون أن الحرية من أهم ملكات الإنسان. ولكننا رأينا في الوقت نفسه فلاسفة آخرين كالرواقيين مثلاً وسبينوزا، يقولون إن كل الأشياء تحدث بحكم ضرورة القانون الطبيعي. وهذا مثل آخر على عجز العقل الإنساني في رأي كانط على التوصل لحكم يقيني قاطع.

ـ إن كل رأي منهما معقول وغير معقول بنفس الدرجة.

ـ ثم هناك مسألة أخيرة وهي أننا سنفشل حتما إن حاولنا أن نثبت وجود ا لله بمعونة العقل. فقد حاول العقلانيون، مثل ديكارت، أن يثبتوا وجود ا لله بمجرد وجود فكرة «الكائن الأعلى» في أذهاننا. كما رأى فلاسفة آخرون، مثل أرسطو والقديس توما الإكويني، أن ا لله موجود لأن كل شيء لا بد له من علة أولى.

ـ وما كان رأي كانط في هذا؟

ـ لقد رفض كلا البرهانين على وجود ا لله. فلا العقل ولا التجربة يوفران، في رأيه، أساسا مؤكدا يمكن الاستناد إليه في القول بوجود ا لله. ففي نظر «العقل» يتساوى احتمال وجود ا لله واحتمال عدم وجوده.

- ولكنك قلت في بداية حديثك أن كانط أراد أن يحفظ دعائم الإيمان المسيحي.

- نعم، لقد أفسح المجال لبعد ديني جديد، فحيثما يعجز العقل والتجربة عن تقديم الإجابة ينشأ فراغ لا يملؤه سوى الإيمان.

- وتلك هي الطريقة التي أنقذ بها المسيحية!

- من المهم أن نلاحظ أن كانط كان بروتستانتيا. وقد تميزت البروتستانتية، منذ بداية حركة الإصلاح الديني، بتأكيدها على الإيمان. أما الكنيسة الكاثوليكية فقد كانت ترى منذ مطلع العصور الوسطى أن العقل هو ركيزة الإيمان. على أن كانط لم يكتف بمجرد الزعم بأن هذه الأسئلة الكبرى ينبغي تركها لإيمان الفرد. لقد كان يعتقد أن من الجوهري للاخلاق الإنسانية افتراض أن للإنسان *روحا خالدة*، وأن *الله موجود*، وأن للإنسان *إرادة حرة*.

- لقد فعل إذن نفس ما فعله ديكارت تماماً. فهو يبدأ بنقد كل ما يمكننا معرفته ثم يلجأ بطرق ملتوية إلى التسليم بوجود الله.

- ولكنه، على عكس ديكارت، يؤكد بوضوح شديد أن العقل ليس هو الذي قاده إلى هذه النقطة، بل الإيمان. وقد أطلق هو نفسه على الإيمان بخلود الروح، ووجود الله، والإرادة الحرة للإنسان *مسلمات عملية*.

- وما المقصود بها؟

- المسلمة فكرة نأخذها على علاتها دون برهان، والمقصود في رأي كانط *بالمسلمة العملية* مبدأ يتصل بالسلوك العملي ويعتبر ضرورة أولية يقتضيها قيام الأخلاق الإنسانية. ومن هذا المنطلق كان كانط يقول إن افتراض وجود الله ضرورة أخلاقية.

وفجأة سمعا دقا على الباب. نهضت صوفيا فورا، ولكن لما ظل ألبرتو ساكنا سألته:

- ألن نفتح الباب؟

هز ألبرتو كتفيه بلا اكتراث ثم قام متباطئا. ولما فتحا الباب وجدا فتاة صغيرة تقف أمامهما في ثوب صيفي أحمر وتضع على رأسها قبعة حمراء. كانت هي الفتاة

التي تجاها في الجهة الأخرى من البحيرة. وكانت تحمل في أحد ذراعيها سلة مليئة بالطعام. حيتها صوفيا قائلة:

ـ أهلا، من أنت؟

ـ ألا ترين أني ذات الرداء الأحمر؟

نظرت صوفيا إلى ألبرتو:

ـ أسمعت ما قالت؟

اكتفى ألبرتو بهز رأسه. وقالت الفتاة الصغيرة:

ـ إني أبحث عن بيت جدتي. إنها عجوز ومريضة ولذا فإني أحضر لها بعض الطعام.

فأجابها ألبرتو:

ـ إنها ليست هنا، عليك أن تبحثي عنها في مكان آخر.

قال هذا وهو يشير بيده كمن يحاول إبعاد ذبابة مزعجة.

واستمرت ذات الرداء الأحمر تقول:

ـ ولكن عندي رسالة أسلمها لها.

ناولت صوفيا ظرفا صغيرا وانطلقت في اللحظة التالية تجري نحو الغابة، فصاحت صوفيا خلفها:

ـ احذري الذئب!

وعاد ألبرتو مرة أخرى إلى البهو، وسارت صوفيا في أثره ليواصلا حديثهما.

ـ هل تتخيل هذا! ذات الرداء الأحمر!

ـ ولكن ما جدوى تحذيرها، إنها ستذهب إلى بيت جدتها وسوف يأكلها الذئب. إنها لا تتعلم أبدا. وسوف تتكرر حكايتها إلى ما لا نهاية.

ـ ولكني لم أسمع في حكايتها أنها طرقت باب بيت آخر قبل أن تذهب إلى بيت جدتها.

ـ إنها حيلة أخرى يا صوفيا.

عند ذكر «الحيل» تنبهت صوفيا للرسالة التي أخذتها. كان مكتوبا على الظرف *«إلى هيلد»* ففتحتها وقرأتها بصوت مرتفع:

عزيزتي هيلد،

مهما زادت بساطة مخ الإنسان سيظل ذكاؤنا أعجز من أن يفهمه.

مع تحيات بابا

هز ألبرتو رأسه وقال:

- هذا صحيح. أعتقد أن كانط كان سيقول نفس الشيء. إن ما لا نستطيع أن نتوقعه هو أن نفهم من نحن. ربما استطعنا أن نفهم إحدى الزهور أو الحشرات، ولكننا لا نستطيع أبدا أن نفهم أنفسنا، دعك من أن نفهم الكون.

ظلت صوفيا تحدق صامتة إلى الجملة الغامضة التي كتبها والد هيلد حتى قال ألبرتو:

- يجب ألا نترك ثعابين البحر والمخلوقات المماثلة تشتت انتباهنا. فقبل أن ننهي حديثنا اليوم أريد أن أكلمك عن الأخلاق لدى كانط.

- عجل إذن، فلا بد أن أعود إلى البيت بعد قليل.

- إن تشكك هيوم فيما يدلنا عليه العقل والحواس أجبر كانط على أن يفكر من جديد في كثير من أسئلة الحياة الهامة وفي مقدمتها مسألة الأخلاق.

- ألم يقل هيوم إننا لا نستطيع أبدا أن «نثبت» ما هو صحيح وما هو خاطئ؟ ولا نستطيع أن نستخلص من عبارات تصف ما هو كائن عبارات تقرر ما يجب أن يكون.

- كان هيوم يرى أن ما يحدد الفرق بين الحق والباطل أو الصواب والخطأ ليس لا عقلنا ولا تجاربنا. إنها مشاعرنا ببساطة. غير أن كانط رأى أن هذا أساس ضعيف واهن يصعب الاستناد إليه.

- أتخيل هذا.

- لقد رأى كانط دوما أن الفرق بين الحق والباطل أو الصواب والخطأ مسألة تتعلق بالعقل لا بالمشاعر. وهو يتفق في هذا مع العقلانيين الذين قالوا إن القدرة على تمييز الحق من الباطل كامنة في العقل الإنساني. إن الجميع يعرفون ما هو حق وما هو باطل، ليس لأننا تعلمناه ولكن لأن هذا التمييز كامن في العقل كملكة فطرية.

ويرى كانط أن كل إنسان يتمتع *بعقل عملي*، أي بذكاء يتيح له القدرة على تمييز الصواب من الخطأ في كل حالة.

ـ وهل هذه القدرة فطرية؟

ـ إن القدرة على تمييز الحق من الباطل أو الصواب من الخطأ قدرة فطرية مثل كل الصفات الأخرى للعقل. فكما أننا جميعا كائنات تتمتع بنفس العقل ونستطيع بالتالي أن نتصور مثلاً وجود علاقة سببية بين الأشياء، فإننا نستطيع جميعا أن نتبين نفس *القانون الأخلاقي* العام. وهذا القانون الأخلاقي يتمتع بصلاحية مطلقة شأنه شأن القوانين الطبيعية. وأهمية القانون الأخلاقي بالنسبة لحياتنا الأخلاقية لا تقل عن أهمية قانون السببية أو عن صحة الحقيقة الحسابية التي تقول إن مجموع ٥ + ٧ يساوي ١٢، بالنسبة لعقلنا وفهمنا.

ـ وما يقول هذا القانون الأخلاقي.

ـ لما كان هذا القانون يسبق أي تجربة فهو يسمى *قانوناً صورياً* أي غير مرتبط بأي حالة معينة أو اختيار أخلاقي محدد. إنه ينطبق على الناس كافة في كل المجتمعات وجميع العصور. وبالتالي فإنه لا يقول لك ما يجب أن تفعليه أو لا تفعليه إن وجدت نفسك في حالة بعينها. إنه يقول لك كيف يجب أن تسلكي في جميع الحالات.

ـ ولكن ما جدوى قانون أخلاقي لا يدلنا على ما يجب أن نفعله في حالات محددة؟

ـ يصوغ كانط القانون الأخلاقي بوصفه *أمرًا مطلقاً*. وهو يقصد بذلك أن القانون الأخلاقي يتسم بطبيعة مطلقة، أي أنه ينطبق على جميع الأحوال. ويقصد بكونه أمرا أنه قاعدة واجبة ملزمة يجب الإذعان لها.

ـ أفهم قصدك.

ـ ويصوغ كانط هذا الأمر المطلق بطرق مختلفة. فهو يقول أولا: «*تصرف وفقا للقاعدة التي تريد لها أن تصبح قانونا عاماً*».

ـ إذن عندما أفعل شيئا ما يجب أن أتأكد أني أريد أن يفعل الآخرون نفس الشيء إن كانوا في نفس وضعي.

ـ بالضبط. وعندئذ فقط تتصرفين وفـق القـانون الأخلاقـي الكـامن في نفسـك. كما صاغ كانط هذا «الأمر المطلق» بتلك الطريقة أيضاً: «*تصـرف بحيـث تعـامل الإنسـانية في شـخصك أو في شـخص كـل إنسـان سـواك بوصفهـا غايـة ولا تعاملها أبدا كما لو كانت مجرد وسيلة*».

ـ إذن يجب علينا ألا نستغل الآخرين لتحقيق مصلحتنا.

ـ كلا، لأن كل إنسان غاية في حـد ذاتـه. إلا أن هـذا لا ينطبـق علـى الآخريـن فحسب وإنما ينطبق عليك أنت أيضاً. إذ يجب عليك ألا تستغلي نفسـك وتتخذينهـا وسيلة للحصول على شيء ما.

ـ هذا يذكرني بالقاعدة الذهبية الـتي تقـول: لا تفعـل للآخريـن مـا لا تريـد أن يفعلوه لك.

ـ نعم، تلـك أيضـاً قـاعدة «صوريـة» للسـلوك، أي أنهـا تغطـي كـل الخيـارات الأخلاقية. ونستطيع أن نقول إن هذه القاعدة الذهبية تعبر عن مضمون قانون كانط الأخلاقي الكلي.

ـ ربما كانت هذه القواعد مجرد وصايا طيبة ولكنها لا تجسد حكم العقل، وربمـا كان هيوم على حق عندما أكد أننا لا نستطيع أن نثبت بالعقل ما هو صواب وما هو خطأ.

ـ يرى كانط أن القانون الأخلاقي قانون مطلق وكلي مثل قانون العلية تماماً. إن قانون العلية لا يمكن إثباته بالعقل هو أيضاً ولكنه مطلق وثابت.

ـ عندي انطباع بأن ما نتكلم عنـه في الحقيقـة هـو الضمـير. فكـل إنسـان لديـه ضمير، أليس كذلك؟

ـ نعم، وعندما يصف كانط القـانون الأخلاقـي فإنـه يصـف في الواقـع الضمـير الإنساني. إننا لا نستطيع أن نبرهن على ما يقوله لنا ضميرنا الأخلاقي إلا أننا نعرفـه مع ذلك تماماً.

ـ معك حق فأحيانا أحاول أن أكون لطيفة مع الآخرين وخدومة لهم لأني أعرف أن هذا سلوك مفيد، فهو مثلاً وسيلة لاكتساب تقدير الآخرين.

- غير أن هذا الأسلوب في التصرف لا يتفق بصورة كاملة مع القانون الأخلاقي. ربما كان سلوك ما متفقاً من الناحية الشكلية أو السطحية مع القانون الأخلاقي وهذا أمر طيب في حد ذاته، ولكن كي يستحق سلوك ما إن يوصف بأنه سلوك أخلاقي يجب أن يكون ثمرة لانتصارك على نفسك. عندما تتصرفين بوحي من الواجب وحده، أي وأنت تشعرين أن واجبك يقضي بأن تتبعي القانون الأخلاقي، عندئذ فقط يمكن أن يعتبر تصرفك عملا أخلاقيا. ولذا فإن أخلاق كانط تسمى أحياناً *أخلاق الواجب*.

- كأن أشعر أن من واجبي مثلاً أن أجمع النقود للصليب الأحمر أو لعمل من الأعمال الخيرية.

- نعم، والأمر المهم أن تفعلي ذلك لانك تعرفين أنه صواب. فحتى إن ضاعت النقود التي جمعت ها أو إن لم تكف لإطعام كل الجائعين، فالمهم أنك أطعت القانون الأخلاقي. لقد تصرفت بوحي من الإرادة الخيرة، والإرادة الخيرة هي التي تحدد في رأي كانط إن كان عمل من الأعمال صحيحا من الناحية الأخلاقية أم لا، وليس النتائج المترتبة على ذلك العمل. ولذا فإن أخلاق كانط تسمى أيضاً *أخلاق الإرادة الخيرة*.

- ولماذا كان مهتما إلى هذه الدرجة بأن يعرف على وجه الدقة متى يتصرف الإنسان بوحي من احترام القانون الأخلاقي؟ أليس المهم أن يؤدي مانفعله إلى مساعدة الآخرين.

- بالتأكيد، ولا شك في أن كانط كان سيتفق معك. غير أننا عندما نعرف في قرارة أنفسنا أننا نتصرف بوحي من احترام القانون الأخلاقي فعندئذ فقط نتصرف بحرية.

- نتصرف بحرية فقط عندما نطيع قانونا معينا؟ أليس هذا غريبا بعض الشيء؟

- ليس في رأي كانط. قد تذكرين أنه قال إن الأخلاق تفترض ثلاث مسلمات منها علاوة على وجود الله وخلود الروح تمتع الإنسان بإرادة حرة. ولكنه قال من جهة أخرى إن كل شيء يخضع لقانون العلية. فكيف يمكن إذن أن تكون إرادة الإنسان حرة مع خضوع الإنسان لقانون العلية؟

ـ هذا مأزق عويص!

ـ في تلك النقطة يقسم كانط الإنسان إلى جزأين بطريقة تذكرنا بطريقة ديكارت الذي قال إن الإنسان «كائن ثنائي» لأنه يملك عقلا وجسدا. إذ قال كانط إننا نخضع، بوصفنا كائنات حسية لقانون العلية: فنحن لا نقرر ما ندركه بحواسنا، فإن الانطباعات الحسية تأتينا بحكم الضرورة وتؤثر علينا شئنا أم أبينا. ولكننا لسنا كائنات حسية فحسب إننا أيضاً كائنات عاقلة.

ـ اشرح هذا من فضلك.

ـ إننا ننتمي، بوصفنا كائنات حسية، إلى عالم الطبيعة وبالتالي فإننا نخضع للعلاقات السببية وللقوانين الطبيعية التي تتحكم فينا، ونحن بهذه الصفة لا نملك على ذلك المستوى إرادة حرة. غير أننا أيضاً كائنات عاقلة ونشكل بالتالي جزءا مما أسماه كانط العالم المعقول أي الذي يجب أن تنظم العلاقات فيه استنادا إلى العقل. وعندما نتبع «عقلنا العملي»، الذي يتيح لنا أن نقرر الاختيارات الأخلاقية السليمة، فإننا نمارس إرادتنا الحرة لأننا نكون عندئذ خاضعين للقانون الأخلاقي، الذي وضعناه بأنفسنا واخترنا أن نخضع له بملء ارادتنا. أي ان الحرية هي الخضوع الارادي للقانون الأخلاقي.

ـ نعم هذا صحيح بمعنى ما، فإن شيئا في قرارة نفسي هو الذي يحضني على مساعدة الآخرين.

ـ عندما تختارين إذن أن تساعدي الآخرين حتى وإن كان هذا على حساب مصلحتك فأنت تتصرفين في هذه الحالة بطريقة حرة.

ـ إنك لا تكون حرا أو مستقلا على أي حال إذا اكتفيت باتباع رغباتك.

ـ بالتأكيد، إذ قد يصبح الإنسان عبدا لهذا الشيء أو ذاك. بل قد يصبح الإنسان عبدا لأنانيته الذاتية. ويحتاج الإنسان للاستقلال والحرية بالتحديد كي يسمو فوق رغباته وأهوائه.

ـ وماذا عن الحيوانات؟ أتصور أنها تتبع رغباتها واحتياجاتها وأنها لا تتمتع بأية حرية تتيح لها اتباع القانون الأخلاقي.

ـ كلا، وهذا هو الفرق بين الحيوان والإنسان.

ـ فهمت الآن.

ـ وكي نلخص حديثنا ربما جاز لنا أن نقول إن كانط قد نجح في إخراج الفلسفة من المأزق الذي وجدت فيه بسبب الخلاف بين المذهب العقلاني والمذهب التجريبي. وبذلك تنتهي مع كانط حقبة من تاريخ الفلسفة. لقد مات في عام ١٨٠٤ في الوقت الذي بدأت تبزغ فيه حقبة ثقافية أخرى نسميها الرومانسية. وقد نقشت على قبر كانط في كونجيسبرج إحدى مأثوراته الشهيرة: «شيئان يملآن الوجدان إعجابا وإجلالا كلما تأملهما الفكر: السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي والقانون الأخلاقي داخل نفسي».

تمدد ألبرتو في مقعده وقال:

ـ اعتقد أنني كلمتك عن أهم الجوانب في فلسفة كانط.

ـ كما أن الساعة الرابعة والربع وقد حان وقت عودتي.

ـ ولكن هناك مسألة أخرى... انتظري لحظة من فضلك.

ـ أنا لا أترك أبدا الفصل قبل أن ينهي المدرس شرحه.

ـ هل قلت لك إننا سنفتقر الحرية، في رأي كانط، إن عشنا فقط ككائنات حسية؟

ـ أجل، قلت شيئا من هذا القبيل.

ـ ولكن إن نحن أطعنا العقل الكلي نكون أحرارا ومستقلين. هل قلت هذا أيضاً؟

ـ أجل، لماذا تكرر كلامك الآن؟

مال ألبرتو نحو صوفيا ونظر في عينيها وهمس:

ـ لا تصدقي كل ما ترينه يا صوفيا.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ عندما ترين هذه الخدع الغريبة أنظري إلى الجهة الأخرى يا ابنتي.

ـ أنا لا أفهم شيئا مما تقول على الإطلاق.

ـ يقول الناس عادة «لا تصدق إلا ما تراه». ولكني أطلب منك ألا تصدقي كل ما ترينه.

ـ لقد قلت شيئا مثل هذا من قبل.

ـ نعم، عندما تكلمنا عن بارمنيدس.

ـ أني مازلت لا أعرف عمَّ تتحدث ،

ـ لقد كنا جالسين أمام البيت نتكلم ثم أخذ ما يسمى بثعبان البحر يقفز وسط الماء.

ـ ألم يكن هذا غريبا؟

ـ لا، على الإطلاق. ثم جاءت ذات الرداء الأحمر وطرقت على الباب. وقالت «إني أبحث عن بيت جدتي». إنها حيل حمقاء، كلها ألاعيب والد هيلد يا صوفيا. مثل الرسالة المدسوسة في الموز والعاصفة التي هبت دون مقدمات.

ـ هل تعتقد ذلك...؟

ـ ولكني قلت لك إني أدبر خطة محكمة. فما دمنا متمسكين بعقلنا لن يستطيع أن يخدعنا لأننا نكون أحرارا بمعنى ما. إنه يستطيع أن يجعلنا «ندرك بحواسنا» هذا الشيء أو ذاك، ولكن الآن لم يعد شيء يدهشني. فحتى لو جعل السماء تمتلىء بالعواصف أو جعل الأفيال تطير في الهواء فلن أقابله إلا بابتسامة ساخرة. إن مجموع ٧ + ٥ يظل ١٢، وهذه حقيقة تتجاوز كل خدعه الشبيهة بأفلام الكرتون. إن الفلسفة شيء مختلف تماماً عن الحكايات الخرافية.

جلست صوفيا لحظة تتطلع إليه في دهشة، فمضى يقول:

ـ حان وقت عودتك يا ابنتي. وسوف أتصل بك لأخبرك بموعد لقائنا المقبل الذي سنتكلم فيه عن الرومانسية. كما سنتكلم عن هيجل وكيركجارد. فليس أمامنا سوى أسبوع قبل عودة الضابط إلى ليلساند. وعلينا قبل ذلك أن نخلص أنفسنا من خيالاته اللزجة. اذهبي الآن يا صوفيا ولكن اعلمي أني أدبر خطة رائعة محكمة لنا معا.

ـ إني ذاهبة إذن.

ـ بل انتظري، فلعلنا نسينا أهم الأشياء كلها.

ـ وما هذا؟

ـ أغنية عيد الميلاد يا صوفيا، إن هيلد عمرها اليوم ١٥ سنة.

ـ وأنا أيضاً...

ـ وأنت أيضاً نعم. فلنغنِ إذن معا. وقفا وأخذا يغنيان:

سنة حلوة يا جميل. سنة حلوة يا جميل.

كانت الساعة الرابعة والنصف. جرت صوفيا إلى حافة الماء وركبت القارب وأخذت تجدف حتى وصلت إلى الضفة الأخرى فجذبت القارب إلى البر ومضت مسرعة داخل الغابة.

عندما وصلت إلى الممشى لاحظت فجأة شيئا يتحرك بين الأشجار وتساءلت إن كانت ذات الرداء الأحمر ما زالت تبحث عن بيت جدتها في الغابة، إلا أن الطيف الذي رأته كان أصغر كثيراً.

اقتربت صوفيا فرأت دباً صغيرا أشبه بالدمية. كان بني اللون وعليه سترة حمراء. تسمرت صوفيا في موقفها. ليس من الغريب أن ينسى طفل دمية على هيئة دب في الغابة. لكن أن يكون هذا الدب حيا، بل ويبدو عليه انه قلق جدا، فهذا أمر عجيب حقا. قالت له صوفيا:

ـ أهلا...

أجاب الدب:

ـ اسمي دبدوب وقد تهت للأسف في الغابة في هذا اليوم الجميل. من المؤكد أني لم أرك من قبل.

قالت صوفيا:

ـ لعلني أنا التي لم ترك هنا من قبل. ولذلك يجدر بك أن تعود إلى غابتك يا دبدوب، إلى غابة الوديان المائة.

ـ أنا لا أستطيع أن أعد حتى مائة. ولا تنسي أني دب صغير وأني لست شديد الذكاء.

ـ لقد سمعت عنك...

ـ لا بد أنك إذن آليس التي تسكن بلاد العجائب. لقد حدثني كريستوفر روبن عنك ذات يوم، فقال لي إنك شربت زجاجة مسحورة وأصبحت صغيرة جدا ثم شربت زجاجة أخرى وبدأت تكبرين مرة أخرى. عليك أن تنتبهي لما تشربينه يا آليس. فقد أسرفت أنا في الأكل ذات يوم فلم أستطع أن أخرج من جحر الأرنب.

ـ أنا لست آليس.

ـ لا يهمني من أنت المهم أننا موجودون. هذا ما تقوله البومة. وهي حكيمة جدا كما تعرفين. إن ٧ + ٤ = ١٢هذا ما قالته البومة ذات مرة في يوم مشمس. فشعرت أنا ودبدوبة بمدى غبائنا لأن من الصعب علينا أن نجمع ونطرح لكننا نستطيع بسهولة أن نتنبأ بالجو.

ـ أنا اسمي صوفيا.

ـ أنا سعيد بلقائك يا صوفيا. أعتقد أنك جديدة في هذه الأنحاء كما قلت لك. ولكن دبدوب الصغير عليه الآن أن يذهب في سبيله ليقابل صديقه السنجاب. فنحن ذاهبان إلى حفل كبير عند أرنوب وأصدقائه.

رفع إحدى يديه يحيي صوفيا مودعا فلاحظت أنه يحمل في يده الأخرى ورقة صغيرة مطوية فسألته:

ـ ماذا تحمل معك يا دبدوب؟

لوح دبدوب بالورقة وقال:

ـ هذا ما جعلني أتوه في الغابة.

ـ ولكنها مجرد ورقة.

ـ كلا إنها ليست مجرد ورقة إنها رسالة موجهة إلى «هيلد المطلة من المرآة».

ـ أستطيع إذن أن آخذ هذه الرسالة.

ـ وهل أنت الفتاة المطلة من المرآة؟

ـ لا، ولكن...

ـ إن الرسالة يجب دائما تسليمها لصاحبها شخصيا. هذا ما علمني إياه كريستوفر روبن بالأمس فقط.

ـ ولكني أعرف هيلد.

ـ هذا لا يغير شيئا. حتى إن كنت تعرفين شخصا معرفة جيدة يجب ألا تقرأي رسائله أبدا.

ـ أقصد أني أستطيع أن أسلمها لهيلد.

ـ آه، هذا أمر مختلف. تفضلي يا صوفيا. إذا إستطعت أن أتخلص من هذه الرسالة ربما نجحت في العثور على صديقي السنجاب. فكي أجد هيلد المطلة من المرآة يجب أولا أن أجد مرآة كبيرة. وهذا ليس أمرا سهلا في هذه الغابة.

أعطى الدب الصغير صوفيا الورقة المطوية وانطلق يركض في الغابة بخطواته الصغيرة، وما إن غاب عن بصر صوفيا حتى فتحت الورقة وقرأتها:

عزيزتي هيلد

من المؤسف ألا يكون ألبرتو قد أخبر صوفيا أيضاً بأن كانط قد دعا إلى إنشاء «جمعية الشعوب». فقد كتب في «رسالة السلام الدائم» أن جميع البلدان ينبغي أن تتحد لتكو ن جمعية للشعوب تسهر على صون السلام بين الأمم جميعا. وبعد نحو ١٢٥ عاماً من طرح تلك الفكرة الأولى في عام ١٧٩٥، أنشئت عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى. ثم حلت محلها الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. يمكنك أن تقولي إذن إن كانط كان أول من طرح فكرة الأمم المتحدة. كان كانط يرى أن العقل العملي للإنسان كفيل بأن يخرج الأمم من حالتها الطبيعية البدائية التي تدفعها إلى الحروب، وأن يجعلها تتفق على صون السلام. لقد كان الطريق الذي أفضى إلى انشاء تلك الهيئة العالمية شاقا ومضنيا، وواجبنا الآن أن نعمل في سبيل إحلال السلام الشامل والدائم. إن إنشاء منظمة من هذا النوع كان هدفا بعيد المنال بالنسبة

لكانط. وربما جاز لك أن تقولي إنه كان الهدف النهائي للفلسفة. إنني ما زلت في لبنان حتى الآن.

مع تحيات بابا.

وضعت صوفيا الورقة في جيبها ومضت في طريقها إلى البيت. لقد حذرها ألبرتو من هذا النوع من اللقاءات في الغابة. ولكنها كانت لا تستطيع أن تترك الدب الصغير تائها في الغابة يبحث بلا جدوى عن هيلد المطلة من المرآة.

الفصل السادس والعشرون

الرومانسية

... طريق الأسرار يقود

إلى أعماق النفس...

تركت هيلد الملف الثقيل ينزلق في حجرها ثم جعلته ينزلق على الأرض. سحبت الغطاء فوقها وتهيأت للنوم. لماذا زج أبوها في روايته بذات الرداء الأحمر وبالدب الصغير...؟

نامت حتى الحادية عشرة من صباح اليوم التالي وعندما استيقظت كان لديها انطباع قوي بأنها ظلت تحلم طوال الليل. لم تنجح هيلد في أن تتذكر شيئا مما رأت، ولكنها شعرت أنها كانت في عالم آخر تماماً.

هبطت الدرج وذهبت إلى المطبخ لإعداد إفطارها. كانت أمها قد ارتدت «ثياب العمل» واستعدت للذهاب إلى حظيرة القوارب لصيانة القارب واختبار المحرك. فحتى إن لم تكن أمها تنوي إنزاله إلى الماء إلا أنه يجب أن يكون جاهزا عند عودة البرت من لبنان.

- هل ستأتين لتساعديني يا هيلد؟

- لا بد أولا أن أقرأ قليلا يا ماما، وسألحق بك بعد قليل. هل أحضر لك معي فنجان شاي وتصبيرة صغيرة؟

- «تصبيرة»! متى تنوين الحضور بالضبط؟

بعد أن تناولت هيلد إفطارها رجعت إلى غرفتها. رتبت سريرها وجلست عليه ووضعت الملف على ركبتيها وأخذت تقرأ من جديد.

تسللت صوفيا عبر السياج ووقفت في الحديقة الكبيرة التي تصورت يوما أنها جنة عدن...

كانت الأرض مغطاة بأوراق وأغصان صغيرة أسقطتها عاصفة الأمس العاتية. وتذكرت أن هناك علاقة بين العاصفة وهذه الأوراق المتساقطة ولقائها بذات الرداء الأحمر والدب الصغير. أليست كلها خدع يقوم بها والد هيلد كما يقول ألبرتو؟ مضت صوفيا نحو الأرجوحة وأخذت تنظف الأوراق التي تساقطت عليها، من حسن الحظ إن الوسائد مكسوة بالبلاستيك فبذلك لا يكون من الضروري جمعها كلما سقط المطر.

دخلت صوفيا البيت فوجدت أن أمها قد عادت توا من العمل وأنها تقوم بوضع بعض زجاجات المياه الغازية في الثلاجة، كما رأت على مائدة المطبخ كعكة كبيرة. ويبدو أن صوفيا قد نسيت عيد ميلادها إذ سألت أمها:

ـ هل تنتظرين ضيوفا؟

ـ حتى إن كنا سنقيم حفلا حقيقياً يوم السبت المقبل فإننا يجب أن نقيم احتفالا ولو بسيطا اليوم أيضاً.

ـ وفيم تفكرين؟

ـ لقد دعوت نورا وأهلها إلى فنجان شاي.

ـ شكرا يا ماما، هذه لفتة رقيقة منك.

وصل الضيوف في نحو السابعة والنصف. كان الجو متكلفا في البداية بعض الشيء لأن والدة صوفيا نادرا ما تتزاور مع أهل نورا.

بعد برهة صعدت صوفيا ونورا إلى غرفة صوفيا لكتابة الدعوات للحفل الذي سيقام في الحديقة يوم السبت المقبل. ولما كان ألبرتو كنوكس مدعوا، فكرت صوفيا في أن تدعو الضيوف إلى «حفل فلسفي في الحديقة». ولم تعترض نورا فهو في النهاية حفل صوفيا، كما أن اختيار موضوع معين للحفلات كان تقليدا بدأ يروج في الفترة الأخيرة. وبعد نحو ساعتين ونوبات ضحك لا تنقطع فرغتا أخيرا من كتابة الدعوة التالية:

عزيزي/عزيزتي...

نتشرف بدعوتك إلى حفل فلسفي سنقيمه في حديقة منزلنا يوم السبت ٢٣ يونيو (حزيران) ليلة عيد منتصف الصيف في الساعة السابعة مساء، ٣ ممر النرجس. ونرجو أن ننجح هذا المساء في حل أسرار الحياة. رجاء إحضار سترات ثقيلة على سبيل الاحتياط، ولكن الأهم هو إحضار كثير من الأفكار اللامعة لحل ألغاز الفلسفة. لن نستطيع للأسف أن نشعل نارا في الخلاء كما هو التقليد المتبع في هذه الليلة لاننا نسكن بالقرب من الغابة ونخشى أن تمتد إليها ألسنة النار. أما لهيب الخيال فيمكنه أن ينطلق بكل حرية. سيكون بين المدعوين فيلسوف حقيقي ولذلك فإن الحفل سيكون خاصا (لن يسمح بدخول مندوبي وسائل الإعلام)

أطيب التمنيات

نورا برجستون
(المشرفة على التنظيم)
صوفيا اموندسن
(مضيفة الاستقبال)

انضمت الفتاتان إلى أهلهما الذين كانوا قد انطلقوا الآن يتحدثون ويضحكون. أعطت صوفيا أمها نسخة من الدعوة مكتوبة بخط جميل. وقالت لها:

١٨ـ نسخة من فضلك.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تطلب فيها من أمها أن تصور لها بعض الأوراق بالمكتب الذي تعمل فيه.

قرأت أمها الدعوة ثم مررتها إلى والد نورا وهي تقول:

ـ احكم بنفسك، لقد اختل عقل ابنتي.

قرأ والد نورا الدعوة ثم مررها إلى زوجته وهو يقول:

- إن الفكرة تبدو لي طريفة حقا، وكان سيسرني أن أحضر هذه الحفلة أنا أيضاً.

ثم جاء دور والدة نورا التي تدعوها صوفيا «بالعروسة باربي»، فقرأت الدعوة ثم قالت:

- لا بد أن أعترف أنها فكرة ظريفة وجديدة! هل نستطيع أن نحضر نحن أيضاً يا صوفيا؟

قالت صوفيا لأمها:

- لنجعلها إذن ٢٠ نسخة يا ماما.

فهمست نورا في أذن صوفيا:

- لقد جننت حقا!

قبل أن تمضي صوفيا إلى سريرها في تلك الليلة وقفت طويلا تتطلع إلى الحديقة من نافذة غرفتها. وتذكرت كيف أنها رأت ذات مرة طيف ألبرتو وهو يتسلل في الظلام. كان هذا منذ أكثر من شهر مضى. أما الآن فان الليلة مضيئة كليالي الصيف في بلاد الشمال برغم أننا في ساعة متأخرة من الليل.

لم تسمع صوفيا أي أخبار من ألبرتو حتى صباح الثلاثاء، حين اتصل بها في التليفون بمجرد خروج أمها للعمل.

- ألو؟ من يتكلم؟

- أنا ألبرتو.

- أين اختفيت؟

- أنا آسف يا صوفيا لأني لم أتصل قبل ذلك، إذ كنت مستغرقا في تدبير خطتنا. فأنا لا أستطيع أن أعمل بلا إزعاج إلا عندما يكون الضابط مهتما بك أنت.

- هذا أمر غريب!

ـ عندئذ أستطيع أن أغتنم الفرصة وأختفي، أتفهمين. إن أفضل جهاز مخابرات في العالم له حدوده، خاصة إذا كان لا يضم إلا شخصا واحداً... بالمناسبة، لقد وصلتني رسالتك.

ـ تقصد الدعوة؟

ـ هل لديك الشجاعة حقا لأن تفعلي شيئا كهذا؟

ـ ولم لا؟

ـ كل شيء يمكن أن يحدث في حفل من هذا النوع.

ـ ألن تأتي؟

ـ سآتي بالطبع. إلا أن هناك شيئا آخر. هل فكرت في أن الحفل سيصادف اليوم الذي يعود فيه والد هيلد من لبنان؟

ـ لا، لم يخطر هذا ببالي.

ـ ليس من الصدفة، في رأيي، أن يجعلك تنظمين حفلا فلسفيا في الحديقة في نفس يوم عودته إلى باركلي.

ـ قلت لك إني لم أفكر في هذا.

ـ كل هذا من تدبيره يا صوفيا. ولكننا سنتحدث عن ذلك فيما بعد على أي حال. هل تستطيعين الحضور إلى شاليه الضابط العجوز هذا الصباح؟

ـ كان من المفروض أن اقوم هذا الصباح بإزالة الأعشاب الضارة من أحواض الزهور.

ـ فلنقل الساعة الثانية إذن. هل يناسبك هذا الموعد؟

ـ يناسبني تماماً.

كان ألبرتو ينتظر صوفيا جالسا أمام البيت مثل المرة الماضية. وعندما جاءت صوفيا قال لها:

ـ اجلسي يا صوفيا لا بد أن نبدأ اليوم فورا. لقد تحدثنا من قبل عن عصر النهضة، وعصر الباروك وعصر التنوير. واليوم سنتكلم عن الرومانسية، التي يمكن

أن نصفها بأنها آخر حقبة ثقافية أوروبية كبرى. إننا نقترب من نهاية حكاية طويلة ياابنتي.

ـ هل استمرت الرومانسية كل هذه الفترة الطويلة؟

ـ لقد بدأت قرب نهاية القرن الثامن عشر واستمرت حتى منتصف القرن التاسع عشر. ولكن بعد عام ١٨٥٠ لم نعد نستطيع أن نتكلم عن «عصور» بأكملها تشمل الشعر والفلسفة والفن والعلم والموسيقى.

ـ وهل كانت الرومانسية عصرا من هذا النوع؟

ـ يقال إن الرومانسية كانت آخر حركة أوروبية تصوغ موقفا مشتركا من الحياة. وبدأت الرومانسية في ألمانيا كرد فعل لمغالاة عصر التنوير في التركيز على العقل، ولنزعة كانط العقلية الصارمة الجافة. إذ بدا كأن الشباب الألماني يتوق لأن يتنفس الآن بمزيد من الحرية.

ـ وبماذا استعاضوا عن هذه النزعة العقلية الصارمة؟

ـ كانت الشعارات الجديدة هي «الشعور»، و«الخيال»، و«الحنين». كان بعض مفكري التنوير، مثل روسو، قد لفتوا الانتباه إلى أهمية الشعور، ولكن ذلك كان لمجرد معادلة التركيز الشديد على العقل. غير أن هذا التيار الذي كان يجري تحت السطح أصبح الآن المجرى الرئيسي للثقافة الألمانية والعنصر الجوهري فيها.

ـ وهل فقد كانط شعبيته؟

ـ فقدها ولم يفقدها في آن واحد. إذ اعتبر كثير من الرومانسيين أنفسهم خلفاء له. فكانط كان قد وضع حدودا لما يمكننا أن نعرفه عن «الشيء في ذاته»، وأكد على أهمية إسهام «الأنا» في المعرفة. وجاء الرومانسيون فغالوا في ابراز دور «الانا» هذا في المعرفة حتى أصبح كل فرد لديهم حرا تماماً في أن يفسر الوجود كيفما شاء. واستغل الرومانسيون «تقديس الأنا» هذا استغلالا مفرطا مسرفا حتى بدا أن جوهر الروح الرومانسية هو النبوغ الذاتي في مجال الفكر والفن.

ـ وهل كان هناك كثير من هؤلاء المبدعين؟

ـ كان *بيتهوفن* واحداً منهم. فنحن نجد في موسيقاه شخصية تعبر عن مشاعرها وعواطفها الذاتية. وبهذا المعنى نستطيع أن نقول إن بيتهوفن كان فنانا «حرا» على عكس كبار ممثلي موسيقى الباروك ومنهم باخ وهندل الذين ألفوا أعمالهم تمجيداً لله، وصاغوها في قوالب موسيقية صارمة في كثير من الأحيان.

ـ أنا لا أعرف من موسيقى بيتهوفن إلا سوناتا *«في ضوء القمر» والسيمفونية الخامسة*.

ـ تستطيعين إذن أن تتبيني الطابع الرومانسي الذي يظهر في سوناتا في ضوء القمر، وأن تشعري بالطريقة الدرامية التي عبر بها بيتهوفن عن نفسه في السيمفونية الخامسة.

ـ لقد قلت إن المفكرين الذين آمنوا بالنزعة الإنسانية في عصر النهضة قد آمنوا أيضاً بالنزعة الفردية.

ـ نعم هناك سمات مشتركة كثيرة بين عصر النهضة والرومانسية، منها مثلاً الأهمية الكبيرة المعلقة على الفن بوصفه وسيلة للمعرفة الإنسانية. ونحن نتبين هنا أيضاً تأثير كانط، إذ حاول كانط في كتابه *«نقد ملكة الحكم»* الذي عالج فيه قضايا علم الجمال، أن يفسر ما يحدث لنا عندما نفتتن بسحر الجمال، في عمل فني على سبيل المثال. فقال إننا عندما نستغرق في تأمل عمل فني متخلين عن أي غرض إلا معايشة التجربة الجمالية ذاتها نتجاوز حدود ما نستطيع أن نعرفه بعقلنا.

ـ هل تريد أن تقول إن الفنان يستطيع إذن أن يعبر عن أشياء لا تستطيع الفلسفة التعبير عنها؟

ـ كانت هذه هي فكرة كانط ثم فكرة الرومانسيين من بعده. فهو يرى أن الفنان يعبر بحرية عن ملكاته المعرفية كأنما هو يلهو ويلعب بها. وجاء الشاعر الألماني *شيلر* فطور فكرة كانط وقال إن عمل الفنان أشبه باللعب، وإن الإنسان لا يكون حرا إلا عندما يلعب، لأنه هو الذي يحدد عندئذ القواعد الخاصة به. وآمن الرومانسيون بأن الفن وحده هو القادر على تقريبنا من «المستعصي على الوصف». بل لقد مضى بعضهم إلى حد مقارنة الفنان بالله.

ـ لأن الفنان يخلق الواقع الخاص به كما خلق الله العالم.

ـ لقد قيل إن الفنان يملك «خيالاً خلاقاً». ففي سورة نشوته الفنية يستطيع أن يشعر بتلاشي الحد الفاصل بين الحلم والحقيقة. ويقول *نوفاليس*، وهو واحد من الرومانسيين المبدعين الشباب، إن «الواقع أصبح حلماً والحلم أصبح واقعاً». كما كتب رواية تسمى *هنريش فون أوفتردنجن* (أي هنري الذي ينتسب لمدينة أوفتردنجن) تدور أحداثها في العصور الوسطى، وقد مات نوفاليس في عام ١٨٠١ قبل أن يتمها. ومع ذلك تركت روايته تأثيراً كبيرا، وخاصة على الشعراء الرومانسيين. وتحكي هذه الرواية كيف انطلق الشاب هنري يبحث عن «الزهرة الزرقاء» التي رآها في الحلم فافتتن بها. وقد عبر الشاعر الإنجليزي الرومانسي *كولريدج* عن نفس الفكرة فقال:

ماذا لو غفوت؟ ثم ماذا لو في غفوتك حلمت؟ ثم ماذا لو في حلمك ذهبت إلى الجنة وقطفت زهرة زرقاء فاتنة؟ ثم ماذا لو أفقت فوجدت الزهرة في يدك؟ ثم، ثم ماذا بعد؟

ـ كلام ساحر رقيق!

ـ كان هذا الحنين لشيء ناء بعيد المنال سمة مميزة للرومانسيين. إذ كانوا يتوقون إلى العصور الماضية، كالعصور الوسطى مثلاً، التي قُيّمت الآن تقييما جديدا حماسيا يحاول أن يعرضها في هيئة مغايرة للصورة السلبية التي عرفت بها في عصر التنوير. كما هفت أشواق الرومانسيين إلى الحضارات البعيدة مثل حضارات الشرق وأفكاره الصوفية. وانجذبوا كذلك إلى أجواء الليل وأضواء الشفق والأطلال القديمة وعالم ما وراء الطبيعة. وافتتنوا بما نسميه عادة الجوانب الغامضة للحياة، أي كل ما هو غريب أو خفي أو صوفي.

ـ تبدو لي فترة جذابة حقا. ولكن من كان هؤلاء الرومانسيون الذين تتحدث عنهم؟

ـ الرومانسية ظاهرة نشأت في المدن أساسا. ففي النصف الأول من القرن الماضي بزغت ثقافة مزدهرة في معظم مدن أوروبا، وخاصة في ألمانيا. وكان الرومانسيون «النموذجيون» شبابا، بل وطلاب جامعة في أحيان كثيرة برغم أنهم لم يكونوا يأخذون دوما دراستهم مأخذا جادا. كما كان لديهم تصور للحياة معاد

للطبقة الوسطى وأسلوب حياتها، فكانوا مثلاً يصفون المدافعين عن النظام القائم أو الملاك الموسرين كأصحاب المنازل التي يستأجرونها بأنهم «محافظون» أو «رجعيون»، بل وأحيانا بأنهم «أعداء».

ـ لم أكن لأجرؤ في هذه الظروف على تأجير غرفة لطالب رومانسي!

ـ في مستهل القرن التاسع عشر، كان أفراد الجيل الأول من الرومانسيين في صدر شبابهم، ونستطيع في الواقع أن نقول إن الحركة الرومانسية كانت أول انتفاضة طلابية في أوروبا. ونحن نجد بالفعل سمات مشتركة كثيرة بين الرومانسيين وجماعات الهيبيز التي ظهرت بعدهم بمائة وخمسين عاماً.

ـ هل تقصد الشعر الطويل، وآلات الجيتار التي تتدلى من الأعناق، والنوم في الحدائق العامة، وعدم الاكتراث بالعمل.

ـ نعم بمعنى ما، وقد قيل «إن التعطل عن العمل هو المثل الأعلى للعبقري المبدع، والكسل هو أسمى فضائل الرومانسي الحقيقي». واعتبر الرومانسيون أن واجبهم هو أن يعيشوا حياتهم بالطول والعرض فيخوضون كل أنواع التجارب، أو أن يهربوا من العالم الواقعي عن طريق الأحلام. أما العمل اليومي فيمكن أن يتركوه للمحافظين والرجعيين.

ـ وهل ظهر رومانسيون في النرويج أيضاً؟

ـ نعم كان هناك هنريك فرجلاند، *ويوهان فلهافن* الذي كان أيضاً مؤمنا بكثير من المثل العليا لعصر التنوير إلا أن حياته كانت حياة رومانسي نموذجي. فقد كان دائما عاشقا ولهان، ولكن حبيبته «ستلا» التي نظم لها كل قصائده وأشعاره ظلت دوما، في تجسيد حي للرومانسية، صورة نائية بعيدة المنال مثل «الزهرة الزرقاء» لنوفاليس. وبالمناسبة، لقد خطب نوفاليس فتاة عمرها ١٤ عاماً لكنها ماتت بعد أربعة أيام من عيد ميلادها الخامس عشر. إلا أن نوفاليس ظل مخلصا لها طول عمره.

ـ هل قلت أنها ماتت بعد أربعة أيام من عيد ميلادها الخامس عشر؟

ـ نعم...

ـ أنا عمري اليوم خمسة عشر عاماً وأربعة أيام بالضبط.

ـ هذا صحيح.

ـ وما كان اسمها؟

ـ كان اسمها صوفيا.

ـ ماذا؟

ـ نعم كان اسمها...

ـ إنك تخيفني بهذا الشكل! أيمكن أن تكون هذه مصادفة؟

ـ لست أدري يا صوفيا. ولكن اسمها كان حقا صوفيا.

ـ استمر...

ـ نوفاليس نفسه مات وعمره لا يتجاوز التاسعة والعشرين. لقد كان واحداً من هؤلاء «الموتى الشباب» الذين تفخر بهم الرومانسية. فكثير من الرومانسيين ماتوا في شبابهم بمرض الدرن عادة، وإن كان بعضهم قد أقدم على الانتحار...

ـ ما أفظع هذا!

ـ أما الذين تقدم بهم العمر فقد تخلوا عادة، عندما ناهزوا الثلاثين، عن الأفكار الرومانسية، بل وأصبح بعضهم محافظين ورجعيين وممثلين مخلصين للطبقة الوسطى.

ـ لقد انتقلوا إذن إلى «معسكر العدو».

ـ ربما، ولكننا كنا نتحدث عن الحب الرومانسي. وموضوع الحب الذي يستحيل لأسباب شتى أن يتوج بارتباط الحبيبين نجده بالفعل في وقت مبكر عند *جوته* في روايته «*آلام فرتر*»، التي نشرت في عام ١٧٧٤. وينتهي هذا الكتاب بانتحار فرتر الشاب لأنه لا يستطيع أن يحصل على محبوبته...

ـ أليس في هذا شيء من المبالغة؟

ـ لقد ارتفعت نسبة الانتحار بعد نشر هذه الرواية، وظل الكتاب محظورا لفترة من الزمن في الدانمارك والنرويج. فالاسراف الشديد في التمسك بالأفكار الرومانسية لا يخلو إذن من خطر، فقد ينطوي هذا الاسراف على مشاعر قوية وعواطف عنيفة.

ـ عندما تتكلم عن الرومانسية أفكر على الفور في اللوحات التي تصور المناظر الطبيعية بأسلوب معين، فالغابات تكون قاتمة عادة، والطبيعة البرية يلفها الضباب في أحيان كثيرة.

ـ نعم، إن من السمات الهامة للرومانسية التعلق بالطبيعة والحنين إلى غموضها وأسرارها. وكما قلت لك إن الرومانسية كانت ظاهرة مدن أساسا، والواقع أن الشعور بالطبيعة على هذا النحو إنما ينشأ في المدن أكثر مما ينشأ في الريف لأنه يعبر أيضاً عن الحنين لشيء بعيد. ولعلك تذكرين أن روسو قد نادى «بالعودة إلى الطبيعة»، غير ان هذا الشعار لم يجد صدى واسعا إلا مع ظهور الرومانسيين. كما كانت الرومانسية رد فعل للرؤية الآلية للعالم التي ميزت عصر التنوير، وليس من الغريب أن يرى البعض في الرومانسية بعثا لنوع من الاحساس بالطبيعة ساد في عصور سابقة.

ـ هذه مسألة تحتاج إلى شرح!

ـ المقصود بهذا الاحساس النظر إلى الطبيعة بوصفها كلا لا يتجزأ. لقد كان الرومانسيون يلتمسون جذورهم لا عند سبينوزا فحسب بل أيضاً عند أفلوطين وفلاسفة عصر النهضة مثل جاكوب بوهم، وجوردانو برونو. وكانت السمة المشتركة بين هؤلاء المفكرين جميعا أنهم كانوا يستشعرون «ذاتا » إلهية في الطبيعة.

ـ كانوا مؤمنين إذن بمذهب وحدة الوجود...

ـ كان كل من ديكارت وهيوم قد ميزا تمييزا واضحا بين «الذات» أو الأنا من جهة والواقع المادي أو «الإمتداد» من جهة أخرى. كما كان كانط قد ترك وراءه تقسيما واضحا بين «الأنا» العارفة والطبيعة «في ذاتها». والآن أصبح يقال إن الطبيعة ليست سوى «أنا» واحدة كبيرة. كما استخدم الرومانسيون أيضاً عبارتي «روح العالم» أو «نفس العالم».

ـ استمر...

ـ وأعظم الفلاسفة الرومانسيين تأثيراً هو *شيلنج* الذي عاش من عام ١٧٧٥ حتى ,١٨٦٤ وقد أراد أن يوحد الروح والمادة، وكان يعتقد أن الطبيعة كلها أي روح الإنسان والواقع المادي تعبير عن مطلق واحد، أو عن إله واحد، أو عن روح

العالم. وقال شيلنج «إن الطبيعة روح مرئية، والروح طبيعة غير مرئية» وأكد أننا نستطيع أن نستشف في كل مكان في الطبيعة «روحا ترتب وتنظم». كما قال «إن المادة روح ناعسة».

- لا أفهم هذه النقطة جيداً.

- رأى شيلنج أن «روح العالم» تتجلى حسب درجة سكون المادة أو درجة حيوية الروح إذا جاز التعبير في مظهرين هما الطبيعة وعقل الإنسان. من هذه الزاوية تصبح الطبيعة والعقل تعبيرين عن شيء واحد.

- نعم، ولم لا؟

- وبذلك يمكن أن نبحث عن روح العالم في الطبيعة وفي أرواحنا على السواء. ولذلك قال نوفاليس مثلاً «إن طريق الأسرار يقود إلى أعماق النفس». وهو يعني بذلك أن الإنسان يحمل العالم كله في داخله، ويكفيه أن يغوص في أعماق نفسه حتى يقترب من سر العالم.

- هذه فكرة رقيقة جميلة.

- وكان كثير من الرومانسيين يعتبرون أن الفلسفة، ودراسة الطبيعة، والشعر عناصر تشكل توليفة واحدة. فأن تكتبي الشعر وأنت جالسة في غرفتك أو أن تدرسي حياة النبات أو تكوين الصخور ليسا سوى جانبين لشيء واحد، لأن الطبيعة ليست شيئا ميتا وإنما هي روح العالم الحي.

- كلمة أخرى وأصبح رومانسية!

- إن هنريك *استيفنس* عالم التاريخ الطبيعي الذي ولد في النرويج ثم استقر في ألمانيا، ولذلك وصفه فرجلاند بأنه «ورقة الغار النرويجية التي حملتها الريح» قد ذهب إلى كوبنهاجن في عام ١٨٠١ ليلقي بعض المحاضرات عن الرومانسية الألمانية، فوصف الحركة الرومانسية بقوله: «لقد أعيتنا المحاولة الأبدية لاختراق المادة فاخترنا سبيلا آخر لنقترب من اللانهائي. لقد غصنا في أعماق نفوسنا وخلقنا عالما جديدا...»

- كيف تستطيع أن تتذكر كل هذا؟

ـ هذه مجرد حيلة بسيطة يا ابنتي.

ـ استمر إذن...

ـ كما رأى شيلنج أن هناك تطورا في الطبيعة يبدأ من التراب والحجر وينتهي بالوعي الإنساني. واسترعى الانتباه إلى التحولات الانتقالية التدريجية من المادة الجامدة إلى الأشكال الحية التي يتزايد تعقيدها باطراد. وكان مما يميز الرؤية الرومانسية بوجه عام أن الطبيعة قد نظر إليها على أنها كل مركب أو على أنها، بعبارة أخرى، كائن يطور بصفة مستمرة امكانياته الفطرية. إن الطبيعة أشبه بزهرة تتفتح أوراقها، أو أشبه بشاعر تنبثق في خياله أبيات الشعر.

ـ ألا يذكرك ذلك بأرسطو، وسلم تصنيف الطبيعة؟

ـ نعم بالتأكيد. فنحن نجد في الفلسفة الطبيعية الرومانسية تأثيرات فلسفة أرسطو والفلسفة الأفلاطونية الجديدة. وكان أرسطو أكثر ميلا من الماديين الآليين إلى تصور العمليات الطبيعية من وجهة نظر عضوية.

ـ نعم هذا ما كنت أفكر فيه...

ـ ونجد هذه النظرة أيضاً في ميدان التاريخ، حيث كان لأفكار الفيلسوف *يوهان هردر* الذي عاش من عام ١٧٤٤ إلى عام ١٨٠٣ تأثير كبير في تكوين رؤية الرومانسيين للتاريخ. فقد كان هردر يرى أن مسيرة التاريخ تتميز بالاستمرارية والتطور ونشدان غاية محددة. ولذلك نقول إن له رؤية «ديناميكية» للتاريخ، على عكس فلاسفة عصر التنوير الذين كانت لهم في أحيان كثيرة رؤية «ساكنة» أو جامدة للتاريخ. إذ أوضح هردر أن كل فترة تاريخية لها قيمتها الذاتية وخصوصيتها النوعية وأن كل شعب له شخصيته أو «روحه» الخاصة. والقضية هي ما إذا كنا قادرين على استحضار وتمثل روح الثقافات المختلفة لنستطيع فهمها.

ـ إذا أردت أن تفهم ظروف شخص ما فهما أفضل عليك أن تضع نفسك مكانه، ونفس الشيء ينطبق على الثقافات الأخرى.

ـ لقد أصبحت هذه حقيقة مسلماً بها في عصرنا الحاضر، أما في فترة الرومانسية فإنها كانت فكرة جديدة، ولذا ساعدت الرومانسية على تقوية الشعور بالهوية القومية. وليس من قبيل المصادفة أن يكون كفاح النرويج في سبيل استقلالها

الوطني قد ازدهر في تلك الفترة بالتحديد، إذ كان عام ١٨١٤ من السنوات الهامة في هذا الكفاح.

- أتذكر هذا...

- ولما كانت الرومانسية قد جاءت باتجاهات جديدة في مجالات كثيرة، جرى العرف على التمييز بين شكلين للرومانسية. فهناك ما نسميه *الرومانسية الكلية أو العامة*، ويقصد بها الاهتمام بالطبيعة وروح العالم، والإبداع الفني. وهذا الشكل من الرومانسية هو الذي ازدهر أولا، وخاصة لحو عام ١٨٠٠ في ألمانيا بمدينة يينا.

- والشكل الآخر؟

- هو ما نسميه *الرومانسية القومية* التي ازدهرت في فترة لاحقة، وخاصة في مدينة هيدلبرج. وكان الرومانسيون القوميون مهتمين أساسا بتاريخ «الشعب»، وبلغة «الشعب»، وبثقافة «الشعب» بوجه عام. ونظر إلى «الشعب» بوصفه كائنا يطور الإمكانيات الكامنة فيه، مثل الطبيعة والتاريخ تماماً.

- قل لي أين تعيش أقل لك من أنت...

- وكان ما وحد هذين الجانبين من الرومانسية مفهوم محوري جامع هو مفهوم «الكائن». لقد اعتبر الرومانسيون أن كل شيء نباتا كان أو أمة من الأمم كائن حي. ويصدق نفس الشيء على القصيدة أو اللغة أو العالم المادي. ولذلك فليس هناك خط فاصل واضح بين الرومانسية القومية والرومانسية الكلية. فإن روح العالم موجودة في الشعب كما هي موجودة في الطبيعة، وموجودة في ثقافة الشعب مثلما هي موجودة في الفن.

- استمر...

- وكان هردر رائدا سباقا في هذا المجال، إذ قام بجمع الأغاني الشعبية الفولكلورية من بلدان كثيرة وأخرجها في كتاب ذي عنوان بليغ هو «أصوات الشعوب» قال فيه إن الشعر الشعبي هو اللغة الأم للشعوب. وفي مدينة هيدلبرج بدأ جمع الأغاني الفولكلورية والحكايات الشعبية والخرافية. ولا شك أنك سمعت عن الحكايات الخرافية أو الخيالية التي جمعها *الأخوان جريم*.

ـ طبعا، الأميرة والأقزام السبعة، وذات الرداء الأحمر، وسندريللا...

ـ وحكايات أخرى كثيرة. وفي النرويج قام كل من بيتر أزبيورنسن ويورجن مو بالتطواف في كل أنحاء البلاد لجمع الأدب الشعبي الحقيقي. كان الأمر أشبه بجمع ثمرة شهية اكتشف الناس فجأة أنها لذيذة ومغذية. وكان الأمر ملحاً لأن الثمرة كانت قد بدأت تسقط بالفعل ويخشى عليها من الضياع. وهكذا جمعت الأغاني الشعبية وأعيد اكتشاف الأساطير والملاحم الوثنية القديمة، وبدأ مؤلفون موسيقيون في كل أنحاء أوروبا يدمجون ألحانا شعبية في مؤلفاتهم في محاولة للتقريب بين الموسيقى الشعبية والموسيقى الرفيعة.

ـ وما هي الموسيقى الرفيعة؟

ـ الموسيقى الرفيعة هي الموسيقى التي يؤلفها شخص معين مثل بيتهوفن. أما الموسيقى الشعبية فلم يضعها شخص بعينه، إن الشعب هو الذي أبدعها. ولذلك فإننا لا نعرف على وجه الدقة متى وضعت الألحان الشعبية المختلفة. ونحن نفرق بنفس الطريقة بين الحكايات الشعبية والحكايات ذات القالب الأدبي.

ـ وما الحكايات ذات القالب الأدبي هذه؟

ـ إنها حكايات يكتبها مؤلف بعينه، مثل هانز كريستيان أندرسن. وكان الرومانسيون مولعين بهذا النوع الأدبي الذي ينسج على منوال الحكايات الشعبية الخرافية. ومن أشهر من أبدعوا في هذا المجال الكاتب الألماني *هوفمان*.

ـ أعتقد أني سمعت عن حكايات هوفمان.

ـ لقد كانت القصة الخرافية هي النموذج الأدبي الأعلى في أعين الرومانسيين، مثلما كان المسرح هو الشكل الفني المفضل في فترة الباروك. فالقصة الخرافية تعطي الكاتب مجالاً واسعاً ليمارس قدراته الإبداعية بحرية كاملة.

ـ كان يمكن أن يتصور نفسه إلهاً لعالم خيالي.

ـ بالضبط. وهذه هي لحظة مناسبة تماماً كي نوجز ما قلناه.

ـ تفضل...

ـ لقد نظر الفلاسفة الرومانسيون إلى «روح العالم» على أنها «ذات» خلقت كل شيء في العالم وهي في حالة أقرب إلى الحلم. ويقول الفيلسوف *فشته* إن الطبيعة نشأت عن خيال سام لاواع. ويقول شيلنج صراحة إن العالم موجود «في الله». وكان يعتقد أن الله لا يدرك إلا جزءاً من العالم، لأن هناك جوانب من الطبيعة تمثل اللاوعي عند الله.

ـ هذه فكرة مدهشة ومخيفة في آن واحد. إنها تذكرني ببيركلي.

ـ كما نظر إلى العلاقة بين الفنان وعمله بالطريقة نفسها. فالقصة الخرافية تعطي الكاتب الحرية كي يستغل «خياله الخلاق». ولكن العمل الإبداعي ذاته لا يعتبر عملاً واعياً تماماً. فالكاتب قد يشعر أن حكايته تكتبها قوة فطرية ذاتية. وقد يشعر أثناء الكتابة أنه أشبه بمنوم تنويماً مغناطيسياً.

ـ هذا أمر غريب...

ـ ولكنه عندئذ يقوم فجأة بتبديد الوهم. فيتدخل في الحكاية ويوجه بعض التعليقات التهكمية إلى القارئ حتى يذكره، ولو مؤقتا، بأن هذه هي حكاية في نهاية المطاف.

ـ أفهم الآن.

ـ وفي الوقت نفسه يستطيع الكاتب أن يذكر القارىء بأن المؤلف هو الذي كان يتحكم في العالم الخيالي. وهذا الشكل من تبديد الوهم يسمى «التهكم الرومانسي». ومن الأمثلة الطريفة على هذا التهكم الرومانسي أن *هنريك ايبسن* جعل إحدى شخصياته في مسرحية *بير جينت* تقول «إن الشخص لايموت في منتصف الفصل الخامس».

ـ إنه تعبير طريف حقا فهو يبدد الوهم المسرحي تماماً، فالشخصية تنبه إلى أنها من صنع الخيال.

ـ إن جملتك الأخيرة مفارقة حقيقية تستحق بالتأكيد أن نبرزها ونؤكد عليها بقسم جديد.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ لا شيء يا صوفيا. ولكننا قلنا إن خطيبة نوفاليس كانت تدعى صوفيا مثلك وإنها ماتت وعمرها خمسة عشر عاماً وأربعة أيام بالضبط...

ـ أنت تخيفني، هل تعرف هذا؟

جلس ألبرتو جامد الملامح ثم قال:

ـ يجب ألا تخشي يا صوفيا من أن تواجهي نفس مصير خطيبة نوفاليس.

ـ ولماذا؟

ـ لأن أمامنا عدة فصول أخرى.

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إن أي شخص يقرأ حكاية صوفيا وألبرتو سيعرف أن الحكاية لن تنتهي قبل صفحات كثيرة فنحن لم نصل إلا إلى المرحلة الرومانسية.

ـ إنك تدير رأسي!

ـ إن الضابط هو الذي يحاول في الحقيقة أن يدير رأس هيلد. لا يصح أن يفعل ذلك، ألا تتفقين معي؟ هيا، قسم جديد!

ما كاد ألبرتو ينهي حديثه حتى جاء صبي يجري من الغابة. كان يرتدي زيا عربيا ويحمل مصباحا زيتيا في يده. ذعرت صوفيا فتعلقت بذراع ألبرتو وسألته:

ـ ما هذا؟

أجاب الصبي بنفسه: ـ اسمي علاء الدين وقد جئت رأسا من لبنان.

فرد عليه ألبرتو وهو يحدق إليه بنظرة قاسية:

ـ وما معك في هذا المصباح؟

فرك الصبي المصباح فخرج منه دخان كثيف تشكل في صورة إنسان. كان رجلاً ذا لحية سوداء مثل ألبرتو ويضع على رأسه بيريها أزرق. وقال وهو يحلق فوق المصباح:

ـ « أتسمعيني يا هيلد؟ أعتقد أن الوقت قد تأخر لأهنئك مرة أخرى بعيد ميلادك. أريد أن أقول لك فقط إن باركلي تبدو لي رائعة كروعة مشهد في حكاية خيالية. سأراك في باركلي بعد عدة أيام».

بعد أن قال الجني هذا تحول مرة أخرى إلى دخان كثيف ثم دخل ثانية إلى المصباح، فوضع الصبي المصباح تحت ذراعه وجرى في اتجاه الغابة واختفى. وقالت صوفيا:

ـ أنا لا أصدق هذا!

ـ إنها حيلة خادعة يا ابنتي.

ـ إن الجني الذي خرج من المصباح تكلم مثل والد هيلد بالضبط.

ـ إنها روح والد هيلد.

ـ لكن...

ـ أنا وأنت وكل شيء حولنا نعيش في أعماق ذهن الضابط. إن ساعته تشير الآن إلى العاشرة من مساء يوم السبت ٢٨ أبريل (نيسان) وجميع جنود الأمم المتحدة المحيطين بالضابط نائمون، وهو برغم يقظته أوشك أن يغفو بدوره. ولكنه يجب أن ينهي الكتاب ليهديه إلى هيلد في عيد ميلادها. ولذلك فإن عليه أن يعمل معظم الوقت يا صوفيا، إنه لا يكاد يحصل على أية راحة.

ـ لقد استسلمت.

ـ قسم جديد!

جلس ألبرتو وصوفيا ينظران إلى البحيرة الصغيرة. كان ألبرتو يبدو شاردا كأنه يحلم. وبعد برهة تشجعت صوفيا وهزت كتفه برفق وسألته:

ـ هل تحلم يا ألبرتو؟

ـ لقد تدخل مباشرة هذه المرة. إن الفقرات الأخيرة هو الذي أملاها حرفيا. يجب أن يخجل من نفسه. ولكنه الآن قد كشف نفسه. إننا نعرف الآن أننا نعيش حياتنا بوصفنا شخصيتين في كتاب سيهديه والد هيلد إلى ابنته في عيد ميلادها. هل سمعت ما قلت؟ لست «أنا» الذي يتكلم في الواقع.

ـ إذا كان ما تقوله صحيحا فسوف أفر من الكتاب وأمضي إلى حال سبيلي.

ـ هذا بالضبط هو جوهر خطتي. ولكن قبل أن نشرع في تنفيذ الخطة يجب أن نسعى إلى الحديث مع هيلد. إنها تقرأ كل كلمة نقولها. فبمجرد نجاحنا في الخروج من هنا سيكون من الصعب جدا أن نتصل بها. وهذا يعني أننا يجب أن نغتنم الفرصة الآن.

ـ وماذا سنقول لها؟

ـ أعتقد أن والدها على وشك أن ينام فوق آلته الكاتبة، برغم أن أصابعه مازالت تنقر عليها بسرعة محمومة...

ـ يا لها من فكرة عجيبة.

ـ هذه هي اللحظة التي قد يكتب فيها شيئا يندم عليه بعد ذلك. ثم إنه لا يملك أي مادة يصحح بها ما يكتبه. وذلك جزء حيوي في خطتي. الويل لمن يعطي الضابط ألبرت كناج مادة يمحو بها ما يكتبه!

ـ لن أكون أنا هذا الشخص على كل حال!

ـ إنني أدعو تلك الفتاة المسكينة إلى أن تتمرد على والدها. ويجب عليها أن تشعر بالخجل لأنها تتسلى بالأطياف التي يحركها. لو كان هنا لأريناه عاقبة أعماله!

ـ ولكنه ليس هنا.

ـ إن روحه هنا ولكنه جالس آمنا في لبنان. فكل ما يحيط بنا هو «الأنا» الخاصة بوالد هيلد.

ـ ولكنه أيضاً أكبر مما نراه حولنا.

ـ لأننا لسنا سوى ظلال في روحه. وليس من السهل على ظل أن يهاجم سيده يا صوفيا. إن ذلك يحتاج إلى دهاء وتدبير. إلا أن أمامنا فرصة للتأثير على هيلد. فالملاك وحده هو الذي يستطيع أن يتمرد على الله.

ـ يمكننا أن نطلب من هيلد أن تعرب له عن استيائها فور عودته إلى البيت، وأن تقول له إنه فظ غليظ. كما يمكنها أن تفسد قاربه أو أن تحطم مصباح القارب على الأقل.

هز ألبرتو رأسه موافقا صوفيا ثم أضاف:

ـ يمكنها أيضاً أن تهرب منه. إن ذلك أسهل عليها منا. يمكنها أن تترك بيته ولا تعود إليه أبدا. أليس هذا عقابا مناسبا لمن يلهو «بخياله الخلاق» على حسابنا؟

ـ إني أتخيل بالفعل هذا المشهد. الضابط يسافر في كل أنحاء العالم بحثا عن هيلد. لكن هيلد تلاشت تماماً لأنها لا تستطيع أن تتحمل الحياة مع أب يستظرف على حساب ألبرتو وصوفيا.

ـ نعم إنه «يستظرف» على حسابنا! هذا ما قصدته عندما قلت إنه يتخذ منا تسلية عيد ميلاد. ولكن الأجدر به أن يأخذ حذره يا صوفيا. ونفس الشيء ينطبق على هيلد!

ـ ماذا تقصد!

ـ هل أنت جالسة جيداً؟

ـ نعم، ما لم يحضر جني آخر على الأقل.

ـ حاولي أن تتخيلي أن كل ما نعيشه يحدث في ذهن شخص آخر. نحن في ذلك الذهن. هذا يعني أننا لا نملك روحا، إننا روح شخص آخر. حتى الآن ليس هناك ما يدعو للدهشة من الزاوية الفلسفية، باستثناء أن بيركلي وشيلنج ربما أصاخا السمع لما نقول.

ـ وماذا بعد؟

ـ يجوز لنا أن نظن أن هذه الروح هي روح والد هيلد، وانه جالس في لبنان يؤلف كتابا عن الفلسفة ليهديه لابنته في عيد ميلادها. وعندما تستيقظ هيلد في صباح ١٥ يونيو (حزيران)، ستجد الكتاب على المائدة المجاورة لسريرها. وعندئذ تستطيع هي، وأي شخص آخر، أن يقرأ عنا فقد أشار والدها مراراً إلى أن هذه «الهدية» يمكن اقتسامها مع الآخرين.

ـ نعم أتذكر هذا.

ـ إن ما أقوله لك الآن سوف تقرأه هيلد بعد أن كتبه والدها في لبنان وتخيل أني أروي لك أنه في لبنان وأنه كتب هذا.

دارت رأس صوفيا تماماً. حاولت أن تتذكر ما سمعته عن بيركلي والرومانسيين. واستمر ألبرتو يقول:

ـ ولكنهما يجب ألا يشعرا بالغرور ويتصوروا أنهما قادران على الاكتفاء بالضحك، لأن هذا الضحك قد يغص به حلقاهما.

ـ عمن تتحدث بالضبط؟

ـ عن هيلد وأبيها. ألم نكن نتكلم عنهما؟

ـ ولماذا يجب ألا يشعرا بالزهو والغرور؟

ـ لأن من المحتمل أيضاً ألا يكونا هما بدورهما سوى روح.

ـ وكيف هذا؟

ـ لعل الضابط ليس إلا طيفا في كتاب يتكلم عنه وعن هيلد، ويتكلم عنا بالتالي ما دمنا جزءاً من حياتهما.

ـ ذلك يعقد الأمور. فهو يجعلنا مجرد ظلال لظلال أخرى.

ـ من المحتمل أن يكون مؤلف مختلف تماماً جالسا الآن في مكان ما يكتب كتابا عن ألبرت كناج ضابط الأمم المتحدة، ويتصور فيه هذا المؤلف أن البرت كناج يكتب بدوره رواية لأبنته هيلد. وهذه الرواية عن شخص يدعى ألبرتو كنوكس يقوم فجأة بإرسال دروس متواضعة في الفلسفة إلى صوفيا أموندسن، ٣ ممر النرجس.

ـ هل تعتقد هذا؟

ـ أنا أقول فقط إنه جائز. بالنسبة لنا سيكون ذلك المؤلف «إلها خفيا» يا صوفيا. وحتى إن كان كل ما نفعله وكل ما نقوله يصدر عنه فإننا لن نستطيع أبدا أن نعرف أي شيء عنه. إننا مطموران في الطبقة الأخيرة يا صوفيا.

ـ جلس ألبرتو وصوفيا صامتين لفترة طويلة. ثم قطعت صوفيا الصمت قائلة:

ـ ولكن إذا كان هناك حقا مؤلف يكتب رواية عن والد هيلد الموجود في لبنان مثلما يكتب والد هيلد عنا...

ـ نعم وماذا بعد؟

ـ... فمن الجائز أيضاً في هذه الحالة ألا يكون من حق هذا المؤلف أن يشعر بالغرور والزهو.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ إنه جالس في مكان ما يخفيني أنا وهيلد في أعماق رأسه. أليس من الجائز أن يكون هو أيضاً جزءا من عقل أكبر؟

هز ألبرتو رأسه وقال:

ـ من الجائز بالطبع يا صوفيا. هذا أيضاً احتمال وارد. ولو كان ذلك صحيحا فمعناه أنه سمح لنا بأن نجري هذه المناقشة الفلسفية كي يستطيع أن يشير إلى هذا الاحتمال. إنه يريد أن يؤكد أنه هو أيضاً ظل لا حول له ولا قوة وأن هذا الكتاب الذي تظهر فيه هيلد وصوفيا هو في الحقيقة مرجع في الفلسفة.

ـ مرجع في الفلسفة؟

ـ لأن كل مناقشاتنا... كل حواراتنا...

ـ نعم؟

ـ... هي في الواقع حديث طويل من طرف واحد.

ـ يبدو لي أن كل شيء يتبدد فلا يصبح سوى عقل وروح. من حسن الحظ أن أمامنا بعض الفلاسفة الآخرين. فالفلسفة التي بدأت بداية جريئة مع طاليس وإنبادوقليس وديموقريطس لا يمكن أن تتوقف هنا، أليس كذلك؟

ـ لا بالطبع. فمازال علي أن أحدثك عن هيجل. إنه أول فيلسوف يحاول أن ينقذ الفلسفة بعد أن حول الرومانسيون كل شيء إلى روح.

ـ إنني أتوق لمعرفة ما سيقول...

ـ فلنجلس بالداخل إذن حتى لا يقطع حديثنا جني خفي أو ظلال عابرة في الغابة.

ـ «فصل جديد!».

الفصل السابع والعشرون

هيجـــل

... إن المعقـــول هـــو

ما يكتب له البقاء...

تركت هيلد الملف الكبير يسقط على الأرض وتمددت على سريرها تحدق إلى السقف ورأسها يضطرب بالأفكار.

لقـد عـرف والدهـا كيـف يدير رأسـها حقـاً. يـا لقدرتـه على الخــداع والمراوغة! كيف جرؤ على هذا؟

ففي الرواية تحاول صوفيا أن تخاطبهـا مباشـرة. إذ طلبـت منهـا أن تتمـرد على والدها وقد نجحت حقاً في زرع فكرة معينة في رأس هيلد. إن ثمـة خطـة تفكر فيها...

إن صوفيا وألبرتو لا يستطيعان أن يمسا شـعرة في رأس والدهـا، ولكنهمـا يستطيعان من خلال هيلد أن يصلا إلى أبيها الذي يحرك كل الخيوط.

اتفقت هيلد مع صوفيا وألبرتو في أن والدها قد بالغ في لعبة الشـخصيات الخيالية. فحتى إذا كان خلقهما بوحـي خيالـه فـإن هنـاك حـدودا لاسـتعراض القوة الذي انطلق يمارسه.

يا لصوفيا وألبرتو المسكينين! فهمـا لا يملكـان شـيئا أمـام خيـال والدهـا، مثلهما مثل شاشة السينما أمام جهاز العرض.

إن هيلد ستعرف كيف تجعله يجرب شعور صوفيا وألــبرتو هـذا. بـل لقـد بدأت تتبين بالفعل ملامح خطة بارعة حقاً!

نهضت من سريرها ونظرت إلى الخليج، كانت الساعة قد قاربت الثانية. فتحت النافذة ونادت في اتجاه حظيرة القارب:

ـ ماما!

خرجت أمها على الفور.

ـ سأنزل وأحضر لك بعض الطعام خلال ساعة. معقول؟

ـ عظيم. إني انتظرك يا هيلد.

وهمهمت هيلد:

ـ لا بد أولا أن أقرأ ما كتب عن هيجل.

جلس ألبرتو وصوفيا في المقعدين الكبيرين المجاورين للنافذة المطلة على البحيرة. ثم بدأ ألبرتو يقول:

ـ كان جورج فيلهلم فريدريش هيجل الابن الحقيقي للرومانسية. وربما استطعنا أن نقول إنه تابع عن كثب الروح الألمانية وهي تتطور شيئا فشيئا في مختلف أرجاء ألمانيا. فقد ولد هيجل في شتوتجارت في عام ١٧٧٠، وبدأ دراسة اللاهوت في توبنجن وعمره ثمانية عشر عاماً. واعتبارا من ١٧٩٩، عمل مع شيلنج في يينا خلال الفترة التي بلغت فيها الحركة الرومانسية أوج ازدهارها، وما لبث أن أصبح هيجل أستاذاً مساعداً للفلسفة في جامعة يينا. وبعد فترة أصبح أستاذا في جامعة هيدلبرج، التي كانت حينذاك مركز الرومانسية القومية الألمانية. وفي عام ١٨١٨ عين أستاذا في برلين في الوقت الذي بدأت فيه هذه المدينة تصبح المركز الثقافي والروحي لألمانيا بأسرها. وقد مات هيجل بالكوليرا في عام ١٨١٣ غير أن «الهيجلية» كانت قد أصبحت حينذاك فلسفة التف حولها كثيرون في معظم جامعات ألمانيا.

ـ يبدو أن حياته كانت حافلة.

ـ نعم، ويصدق نفس الشيء على فلسفته الغنية العميقة. فقد استوعب هيجل وطور معظم الأفكار التي ظهرت في صفوف الرومانسيين، إلا أنه وجه من ناحية أخرى نقدا حادا لعدد من جوانب الرومانسية، بما فيها فلسفة شيلنج.

ـ وما هي الجوانب التي وجه إليها النقد؟

ـ كان شيلنج وغيره من الرومانسيين يرون أن جوهر الوجود هو مايسمونه «روح العالم». وقد استخدم هيجل بدوره عبارة «روح العالم» في كتاباته لكن بمعنى جديد تماماً. فعندما يتحدث هيجل عن «روح العالم» أو «عقل العالم» فإنه يعني محصلة أشكال التعبير الإنساني، لأن الإنسان وحده هو من يملك «روحا» أو عقلا. وبهذا المعنى، تكلم عن تقدم روح العالم على امتداد مسيرة التاريخ. ولكننا يجب ألا ننسى أبدا أنه إنما يقصد بذلك تقدم الحياة الإنسانية، والفكر الإنساني، والثقافة الإنسانية.

ـ لم تعد هذه الروح إذن شيئا غامضا خفيا مثل «الروح الناعسة» في الصخور والأشجار.

ـ لعلك تتذكرين أن كانط قد تحدث عما أسماه «الشيء في ذاته»، وقال إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف عن يقين الحقيقة العميقة للشيء في ذاته، أي لطبيعة الوجود. ولكن حتى إن كان الإنسان لا يستطيع الوصول إلى هذه الحقيقة فإن ذلك لا ينفي أن تلك الحقيقة موجودة «في ذاتها». أما هيجل فقال إن «الحقيقة ذاتية»، فرفض بذلك وجود أي «حقيقة» تتجاوز العقل الإنساني أو توجد خارجه، وأكد أن كل معرفة هي معرفة إنسانية.

ـ أي أنه أراد أن يجعل الفلاسفة ينزلون إلى الأرض مرة أخرى؟

ـ نعم، ربما استطعت أن تقولي هذا. ولما كانت فلسفة هيجل شاملة ومتنوعة ومركبة فسوف نقتصر على تناول بعض من جوانبها الرئيسية. ونحن عندما نتحدث عن «الفلسفة الهيجيلية» نقصد في المقام الأول منهجا لفهم مسيرة التاريخ وحركته. قد لا تعلمنا فلسفة هيجل شيئا عن الطبيعة العميقة للوجود، ولكنها تعلمنا أن نفكر بطريقة فعالة خصبة ومثمرة.

ـ ليس هذا شيئا بسيطا.

ـ إن كل النظم الفلسفية السابقة على هيجل كانت تجمع بينها سمة مشتركة هي محاولة وضع معايير أبدية لما يستطيع الإنسان أن يعرفه عن العالم. ألم يكن هذا ما قام به ديكارت، وسبينوزا، وهيوم، وكانط؟ لقد سعى كل منهم إلى اكتشاف الأساس

الذي تقوم عليه المعرفة الإنسانية. إلا أنهم فعلوا ذلك وهم يفترضون أن المعرفة الإنسانية بالعالم معرفة «لازمنية» أي معرفة لا ترتبط بزمن معين.

ـ أليست هذه هي مهمة الفيلسوف؟

ـ يرى هيجل أن ذلك غير ممكن، وكان يعتقد أن الأساس الذي تقوم عليه المعرفة الإنسانية يتغير من جيل إلى آخر. ومعنى هذا انه ليست هناك أي «حقائق أبدية»، أو «عقل لازمني». إن النقطة الثابتة الوحيدة التي يستطيع الفيلسوف أن يستند إليها وتستطيع الفلسفة أن تدرسها هي التاريخ ذاته.

ـ مهلا، أرجوك أن تشرح هذه النقطة، فالتاريخ في حالة تغير مستمر فكيف يمكن أن يعتبر نقطة ثابتة؟

ـ إن النهر أيضاً في حالة تغير مستمر، إلا أن هذا لا يمنعك من أن تتكلمي عنه. ولكن لا معنى بطبيعة الحال لأن تقفي في مكان معين من النهر وتقولي هنا فقط النهر «الحقيقي».

ـ كلا بالطبع لأن النهر يظل نهرا على امتداد مسيرته، بل لولا أنه ممتد لمسافة معينة لما استطعنا أن نسميه نهرا.

ـ وكان هيجل يرى أن التاريخ أشبه بمجرى نهر متدفق. إن كل حركة دقيقة للمياه في نقطة معينة من النهر تحددها طبيعة الشلالات والتيارات والدوامات الموجودة في منبع النهر، ولكنها تعتمد أيضاً على الصخور التي تعترض المجرى أو المنحنيات التي ينثني فيها النهر عند النقطة المحددة التي تراقبينه فيها.

ـ أعتقد أني بدأت أفهم...

ـ وتاريخ الفكر أو العقل أشبه بهذا النهر. إن الأفكار التي تنحدر إليك مع تيار التراث الإنساني، بالاضافة إلى ظروف الحياة المادية السائدة في الفترة التي توجدين فيها، يشتركان معاً في صياغة طريقة تفكيرك. ولذا لا تستطيعين أن تزعمي أن فكرة معينة من أفكارك ستظل صحيحة إلى الأبد، حتى وان كانت صحيحة في اللحظة التي توجدين فيها.

ـ أتتساوى إذن كل الأشياء من حيث الصواب أو الخطأ؟

ـ لا بالتأكيد، المقصود هو أن أي شـيء يمكـن أن يكـون صحيحـاً أو خاطئـاً في علاقته بالسياق التاريخي الذي ينتمي إليه. فإذا انطلقت تدافعين اليوم عن نظام الـرق فسوف ينظر إلى دفاعك على أنه حماقة في أفضل الأحوال. ولكن دفاعك هذا ماكـان لينظر اليه من ٢٥٠٠ سنة على أنه حماقة، حتى وإن وجـدت بـالفعل في ذلـك الزمـن البعيد أصوات تقدمية تطالب بإلغاء الرق والعبودية. ولكن لنأخذ مثـلاً محليـاً أقـرب عهداً. فمنذ نحو مائة عام لم يكن حرق مساحات واسعة من الغابـات لزراعـة الأرض يعتبر عملا «منافيا للعقل». أما اليوم فهو يعتبر بكل تأكيد عملا «منافيا للعقل» لأن لدينا أسسا مختلفة تماماً بل وأفضل وأدق لتقييم هذا العمل.

ـ الآن أفهم قصدك.

ـ وفيما يتعلق بالتأمل الفلسفي أيضاً أوضح هيجل أن العقل عمليـة ديناميكيـة، وما «الحقيقة» إلا التطور الذي تمضي فيـه هـذه العمليـة نفسـها. فليسـت هنـاك أي معايير خارج العملية التاريخية ذاتها تستطيع أن تقرر ما الذي يعبر عن قدر أكبر مـن «الحقيقة» أو «العقل».

ـ أمثلة من فضلك!

ـ إنك لا تستطيعين أن تستخرجي أفكارا معينة مـن العصـر القديـم أو العصـور الوسطى أو عصر النهضة أو عصر التنوير وتجرديها من سياقها التاريخي وتقـولي هـذه صحيحة بشكل مطلق، وتلك خاطئة بشكل مطلق. وبالمثل لا تستطيعين أن تقولي إن أفلاطون أخطأ وإن أرسطو أصـاب، ولا إن هيـوم أخطـأ وإن كـانط أصـاب، هكـذا بشكل مطلق. فنحن لا نسـتطيع أن نفهـم حـدود الخطـأ أو حـدود الصـواب إلا إذا أخذنا في اعتبارنا الظروف التاريخية السائدة في عصر كـل فيلسـوف، دون أن تنسـي أنك ستكونين أنت نفسك متأثرة في الأحكام التي تصدرينها بمعايير الخطأ والصـواب التي تنتمي لعصرك وإلا لكانت طريقتك في التفكير «لاتاريخية».

ـ معك حق، لن يكون ذلك تفكيرا سليما.

ـ نحن لا نستطيع، في الواقع أن ننتزع أي فيلسوف، أو أي فكرة على الإطلاق، من سياقهما التاريخي. ولكن وتلك نقطة هامة لما كانت هناك أفكار جديدة دائما فإن العقل يعتبر «تقدميا» أي، بعبارة أخرى، إن المعرفة الإنسـانية تتسـع بـاطراد وتتقـدم دوما إلى الامام.

ـ وهل يعني هذا أن فسلفة كانط أكثر صحة من فلسفة أفلاطون؟

ـ لنقل إن روح العالم قد تطورت واتسعت من أفلاطون حتى كانط وكان لا بد لهذا التطور أن يتجلى في فلسفة كانط. وهذا أضعف الإيمان! وإذا عدنا للمثل الخاص بالنهر، نستطيع أن نقول إن مياها جديدة قد جرت فيه، فهو يتدفق منذ أكثر من ألفي عام. لكن كانط يجب ألا يتصور بدوره أن «حقائقه» ستظل رابضة على ضفاف النهر كصخور ثابتة لا تهتز. فإن «أفكار كانط» لا بد أن تخضع لنقد الأجيال التي تأتي بعده، وهو ما حدث بالضبط.

ـ لكن النهر الذي تتكلم عنه...

ـ نعم؟

ـ إلى أين يتجه؟

ـ يرى هيجل أن «روح العالم» تتجه نحو معرفة متزايدة بنفسها. وهي تشبه في هذا أيضاً الأنهار التي تزداد اتساعا كلما اقتربت من البحر. ويقول هيجل إن التاريخ هو قصة وعي «روح العالم» بنفسها شيئا فشيئا. فمن خلال تطور البشرية وتقدم الثقافة الإنسانية تصبح روح العالم أكثر وعيا بذاتها على نحو مطرد.

ـ وكيف أمكنه أن يكون متأكدا إلى هذه الدرجة من صحة فكرته؟

ـ يعتبر هيجل هذه الفكرة حقيقة تاريخية لا نبوءة يتكهن بها. فأي شخص يدرس التاريخ سيبصر أن البشرية قد تقدمت دوما نحو معرفة متزايدة بنفسها. فدراسة التاريخ تبين، في رأي هيجل، أن البشرية تتحرك صوب مزيد من العقلانية والحرية. فالتطور التاريخي يمضي، برغم كل تعرجاته، إلى الأمام. فنحن نقول إن التاريخ له غاية يسعى إلى بلوغها، وهذه الغاية هي أن يتجاوز الوعي ذاته باستمرار.

ـ من الواضح الآن أن هناك تطورا مستمرا، وهذا أمر يناسبني تماماً.

ـ نعم، إن التاريخ سلسلة طويلة من الأفكار. وقد كشف هيجل أيضاً بعض القواعد التي تحكم هذه السلسلة الطويلة من الأفكار. ومن يدرس التاريخ بعناية سيلاحظ أن كل فكرة تطرح انطلاقا من فكرة سابقة عليها. ولكن ما إن تطرح هذه الفكرة الجديدة حتى تظهر فكرة أخرى تعارضها. وبهذه الطريقة ينشأ توتر بين أسلوبين متعارضين أو متناقضين في التفكير. غير أن هذا التوتر سيبدده طرح فكرة

ثالثة تستوعب خير ما في وجهتي النظر السابقتين كلتيهما. ويطلق هيجل على هذه الطريقة التي تتقدم بها الأفكار في تطور متصل اسم الجدل.

ـ هل تستطيع أن تضرب لي مثلاً على ذلك؟

ـ لعلك تتذكرين أن الفلاسفة السابقين على سقراط قد بحثوا مسألة المادة الأولية وتحولاتها أو ما يسمى بقضية التغير؟

ـ نعم، أتذكر ذلك بصورة عامة...

ـ لقد جاء الفلاسفة الإيليون أولا وقالوا إن العقل ينكر التغير، وانتهوا بالتالي إلى انكار التي كل التغيرات التي تدركها الحواس. لقد طرح الإيليون إذن موقفا أو زعماً معيناً، وهيجل يسمي وجهة نظر من هذا النوع قضية.

ـ وماذا بعد؟

ـ وكلما طرحت قضية واضحة المعالم اجتذبت نقيضها، فتظهر عندئذ قضية مناقضة لها يسميها هيجل النفي. وكان الذي طرح هذه القضية المناقضة لفلسفة الإيليين هو هيراقليطس الذي قال إن كل الأشياء في تغير متصل. وعندئذ نشأ توتر بين هذين الرأيين المتعارضين تماماً. لكن هذا التوتر قد أزاله إنبادوقليس الذي أوضح أن كلا الزعمين صحيح جزئياً وخاطئ جزئياً.

ـ نعم، إني أبدأ الآن في رؤية المسألة بوضوح أكبر...

ـ كان الإيليون على حق عندما أكدوا أن ما من شيء يتغير تغيراً حقيقياً، ولكنهم كانوا مخطئين عندما زعموا أننا لا نستطيع أن نثق بحواسنا. وكان هيراقليطس على حق عندما قال إننا نستطيع أن نثق بحواسنا ولكنه كان مخطئا عندما زعم أن كل الأشياء في تغير مستمر.

ـ لأن هناك أكثر من مادة واحدة وامتزاجها وتجمعها هو الذي يتغير لا المادة ذاتها.

ـ صح تماماً! وكانت وجهة نظر إنبادوقليس التي حسمت التوتر القائم بين الرأيين المتعارضين هي ما أسماه هيجل نفي النفي.

ـ يا لها من مصطلحات رهيبة!

- كما أطلق هيجل على هـذه المراحـل الثلاث الـتي تمـر بهـا المعرفـة: القضيـة، ونقيـض القضيـة أي عمليـة نفـي القضيـة الاولى والـتركيب اي عمليـة نفـي النفـي. ويمكننا أن نقول مثلاً على سبيل التبسيط إن عقلانيـة ديكـارت كـانت بهـذا المعنـى «قضية» ظهرت تعارضها أو تنفيها قضية أخرى، هي مذهـب هيـوم التجريـبي. لكـن هذا التناقض، أو التوتر بين منهجي التفكير، قد أزاله ورفعه «التركيب» الذي صاغه كانط. فقد اتفق كانط مع العقلانيين في بعض الأمور واتفق مـع التجريبيـين في أمـور أخرى. لكن القصة لا تنتهي مع كانط. فالـتركيب الـذي توصـل إليـه كـانط أصبـح الآن نقطة إنطلاق لسلسلة أخرى من الأفكار تؤلف من جديد هذه المراحل الثلاث، لأن التركيب سيعتبر بدوره قضية ستقوم تواجههـا قضيـة مضـادة ثـم ينشـأ تركيـب جديد وهكذا...

- كلام نظري جدا!

- نعم، من المؤكد أنه كلام نظري. غير أن هيجل لم يرد أن يفرض على التـاريخ أي تصور معين. لقد كان يعتقد أن التـاريخ نفسـه هـو الـذي يتطـور بهـذه الطريقـة الجدلية التي تتجلي للعيان عند دراسة مسيرة التاريخ. ولذلك قال إنه اكتشـف بعـض القوانـين الـتي تحكـم تطـور العقـل، أو مسـيرة وحركـة «روح العـالم» علـى امتـداد التاريخ.

- استمر...

- لكن الجدل الهيجلي لا ينطبق علـى التـاريخ وحـده. فعندمـا نـاقش أمـرا مـن الأمور، ونحن تحدونا الرغبة في تبين الحقيقة، نفكر بطريقة جدلية. فنحن نحـاول أثنـاء النقـاش أن نكتشـف العيـوب في حجـة معينـة أو في طريقـة التفكـير أو الاسـتدلال. ويسمي هيجل هذا الأسلوب «التفكير السلبي» (أي التفكير بغـرض نفـي القضيـة)، ولكننـا بعـد أن نكتشـف العيـوب ننحيهـا جانبـا ونحتفـظ بـأفضل مـا في الحجـة مـن جوانب.

- أعطني مثلاً من فضلك.

- عندما يجلس رجل اشتراكي ورجل محافظ معاً لحل مشـكلة اجتماعيـة سـرعان ما ينشأ توتر بين منهجيهما المتعارضين في التفكير. غـير أن هـذا لا يعـني أن أحدهمـا محق بصورة مطلقة والآخر مخطئ بصورة كاملة. فمن الجائز أن يكون كل منهما محقاً

في بعض الأمور ومخطئا في أمور أخرى. ولكن مع تقدم المناقشة سيدرك الاثنان، إن كانا على درجة كافية من الذكاء، ما في وجهة نظر الآخر من جوانب ايجابية وربما خرجا «بتركيب» يجمع أفضل ما في الموقفين.

ـ أرجو ذلك.

ـ إلا أننا عندما نكون طرفا في مناقشة من هذا النوع لا يكون من السهل دوما أن نقول هذا الأمر معقول أكثر من ذاك. والتاريخ هو، بمعنى ما، الذي سيقرر ما هو صحيح وما هو خطأ. إن المعقول هو ما يكتب له البقاء.

ـ أي إن ما يستمر في البقاء يكون هو الصحيح؟

ـ والعكس صحيح أيضاً: إن ما هو صحيح يستمر في البقاء.

ـ ألا تستطيع أن تضرب لي مثلاً بسيطا؟

ـ من مائة وخمسين عاما كان كثير من الناس يكافحون ببسالة في سبيل حقوق المرأة. كما كان كثير من الناس يعارضون بضراوة، من جهة أخرى، أن تكون للمرأة حقوق مساوية للرجل. وعندما نقرأ اليوم حجج كلا الطرفين، لن يكون من الصعب علينا أن نتبين الطرف الذي كانت آراؤه «معقولة» أكثر من آراء الطرف الآخر. ولكن يجب ألا ننسى أننا نحكم على الأحداث بعد وقوعها: لقد «ثبت» أن المكافحين في سبيل المساواة كانوا على حق. ولا شك في أن كثيراً من الناس سيشعرون اليوم بشيء من الحرج إن قرأوا ما قاله أجدادهم عن هذا الموضوع.

ـ أوافقك في هذا. فماذا كان رأي هيجل؟

ـ عن المساواة بين الرجل والمرأة؟

ـ أليس هذا ما نتكلم فيه؟

ـ هل تودين أن تستمعي إلى شيء مما قاله في هذا الموضوع؟

ـ بكل سرور.

ـ يقول هيجل: «إن الفرق بين الرجل والمرأة أشبه بالفرق بين الحيوان والنبات. فالحيوان يناظر بدرجة أكبر شخصية الرجل، في حين أن النبات يناظر بدرجة أكبر شخصية المرأة. فنمو المرأة أكثر وداعة وهدوءا ويقوم على مبدأ الارتباط الغامض

بالشعور والعاطفة. وإذا تولت المرأة رئاسة الحكومة تصبح الدولة في خطر، لأن المرأة لا تتصرف وفقا لمقتضيات الرؤية الشاملة بل خضوعا للميول الطارئة والآراء العارضة. إن تعلم المرأة يحدث ولكن من يعرف كيف؟ كأنما هو تشبع سلبي بأفكار تستقيها من الحياة أكثر مما هو تحصيل فعلي للمعرفة. أما مرتبة الرجولة فلا يتم بلوغها إلا بالتأمل الفكري والجهد العملي المتخصص».

ـ شكرا جزيلا، يكفيني هذا! إني أفضل ألا أسمع استشهادات أخرى من هذا النوع!

ـ ولكن هذا الاستشهاد مثل واضح على أن آراء الناس فيما هو معقول تتغير بمضي الزمن، لأنه يوضح لك أن هيجل كان أيضاً ابنا لعصره. وهذا ينطبق علينا نحن أيضاً. إن مفاهيمنا «البديهية الواضحة» لن تصمد بدورها لاختبار الزمن.

ـ هل تستطيع أن تعطيني مثلاً؟

ـ لا... لا أستطيع.

ـ ولماذا؟

ـ لأني سأتكلم عن أشياء تخضع بالفعل للتغير. أستطيع، مثلاً، أن أقول إن من الحمق استخدام السيارات لانها تلوث البيئة كما قال كثيرون غيري بالفعل مؤكدين على أن تلك حقيقة بديهية واضحة ومن جهة أخرى، يرى معظم الناس في الوقت الراهن أن الحقيقة البديهية هي على العكس ضرورة استخدام السيارات. وعلى أي حال فالتاريخ هو الذي سيتكفل بإثبات أن بعضا من حقائقنا البديهية لن يصمد لاختبار الزمن. إن المعقول من منظور التاريخ هو ما يكتب له البقاء.

ـ إني أفهم هذا.

ـ إلا أننا نستطيع أن نلاحظ أيضاً مسألة أخرى: إن التأكيد القوي لكثير من الرجال في عصر هيجل على أن المرأة أدنى مكانة من الرجل كان من العوامل التي أسهمت في تطور الحركة النسائية.

ـ وكيف ذلك؟

ـ لقد اضطروا إلى طرح «القضية» لأن المرأة كانت قد بدأت بالفعل كفاحها في سبيل نيل حقوقها. فليس هناك ضرورة لأن نعلن رأيا في أمر يتفق عليه الجميع.

وكلما ازدادت حدة الرجال في التأكيد على اتضاع مكانة المرأة زادت حدة النضال النسائي أو زادت قوة «القضية المناقضة» أو النفي.

ـ نعم بالطبع.

ـ يمكنك إذن أن تقولي أن أفضل شيء لفكرة معينة هو أن يتصدى لها معارضون نشطون. فكلما كان تطرفهم في نفي الفكرة الاولى شديدا كان رد الفعل الذي سيضطرون إلى مواجهته، أي «نفي النفي»، قويا. ومن وجهة نظر منطقية أو فلسفية محضة سينشأ في كثير من الأحيان توتر جدلي بين أي مفهومين متعارضين.

ـ اعطني مثلاً من فضلك.

ـ إذا تأملت مفهوم «الوجود»، سأكون مضطرا للنظر في المفهوم المقابل وهو «العدم». فأنت لا تستطيعين التفكير في وجودك دون أن تفكري في أنك لن تظلي موجودة إلى الأبد. ولكن التوتر بين مفهوم «الوجود» ومفهوم «العدم» سيتم حله في مفهوم «الصيرورة» أو التحول. ومرور شيء ما بعملية التحول أو الصيرورة يعني أن هذا الشيء موجود وانه في نفس الوقت غير موجود.

ـ أفهم قصدك.

ـ وهذا نموذج آخر يوضح أن العقل لدى هيجل عملية ديناميكية، كما قلت لك من قبل. ولما كان الواقع لا يتألف إلا من أضداد متناقضة فإن وصف هذا الواقع يجب أن يظهر أيضاً وجود هذه المتناقضات. وسأعطيك مثلاً: يحكى أن عالم الفيزياء النووية الدانماركي الشهير نيلس بوهير كان يضع حدوة حصان على باب بيته.

ـ لتجلب له حسن الحظ!

ـ ليس هذا إلا تطيرا، وبوهير هو آخر من يمكن وصفهم بالتطير. ويحكى أن صديقا زاره ذات يوم فسأله: «هل تعتقد حقاً في هذه الأمور؟». فأجابه بوهير «لا، ولكني لم أسمع من يقول أنها غير فعالة».

ـ لست أدري ماذا أقول حقاً!

ـ عرف عن نيلس بوهير أنه يتميز بقدرته على رؤية الأمور من وجهات نظر متعددة، وقد قال ذات يوم: «هناك نوعان من الحقائق: الحقائق السطحية التي يكون

نقيضها خاطئاً بشكل واضح لا لبس فيه، والحقائق العميقة التي يكون نقيضها صحيحاً مثلها تماماً».

ـ وما هو نوع هذه الحقائق العميقة؟

ـ إذا قلت مثلاً: إن الحياة قصيرة!

ـ أتفق معك في هذا.

ـ إلا أني في مناسبة أخرى قد أرفع يدي إلى السماء وأقول: ما أطول هذه الحياة!

ـ معك حق. هذا صحيح أيضاً بمعنى ما.

ـ وساعطيك أخيراً مثلاً يبين كيف يؤدي التوتر الجدلي إلى تصرف تقتضيه الضرورة يسفر عن تغير مفاجئ.

ـ أرجوك.

ـ تخيلي فتاة صغيرة تفرط في إطاعة أمها إفراطا مسرفا فتجيبها دائما: نعم ياماما،... حاضر يا ماما... كما تشاءين يا ماما... فورا ياماما...

ـ ليس إلى هذه الدرجة!

ـ ويوما بعد يوم تمل الأم من هذه الطاعة العمياء التي تجعل الأم عاجزة عن التعرف على إرادة إبنتها فيفيض بها الكيل ذات مرة وتصيح فيها: «كفي عن هذه الطاعة البلهاء!» فتجيبها البنت: «حاضر يا ماما».

ـ لو كنت مكان أمها لصفعتها.

ـ حقاً؟ إذن افرضي أنها أجابت: «كلا لن أكف يا ماما».

ـ هذه تكون حقاً إجابة غريبة، إلا أني ربما كنت صفعتها أيضاً.

ـ أي بعبارة أخرى إن الحالة وصلت إلى مأزق متأزم. فالتوتر الجدلي وصل إلى نقطة لا بد معها أن يحدث شيء.

ـ هل تقصد الصفعة؟

ـ نعم. والآن يجب أن نتكلم عن جانب أخير في فلسفة هيجل.

- إني مصغية.

- أتذكرين أننا قلنا إن الرومانسيين كانوا مؤمنين بالنزعة الفردية؟

- «إن طريق الأسرار يقود إلى أعماق النفس...»

- ان هذه النزعة الفردية وجدت نفيها، أو نقيضها، في فلسفة هيجل. فقد أكد هيجل على ما أسماه «القوى الموضوعية»، وكان يقصد بها الأسرة، والمجتمع، والدولة. لا أريد أن أقول إنه تجاهل أهمية الفرد ولكنه عامله على أنه جزء عضوي من المجتمع. إن العقل، أو روح العالم، يتجلى أساساً في العلاقات بين البشر.

- أرجوك اشرح هذا بمزيد من الوضوح!

- إن العقل يتجلى مثلاً في اللغة. وعندما نولد تكون اللغة هي الاطار الذي ننمو في اطاره فاللغة النرويجية مثلاً تستطيع أن تعيش دون هانسن ولكن هانسن لايستطيع أن يعيش دون اللغة النرويجية، اي لا يستطيع أن يعيش كشخص نرويجي دون اللغة النرويجية (ويصدق نفس الشيء على اللغة العربية مثلاً فهي تستطيع أن تعيش دون زيد أو عمرو ولكن زيداً أو عمراً لايستطيعان أن يعيشا دون اللغة العربية). فالفرد ليس هو إذن الذي يكون اللغة وإنما اللغة هي التي تكون الفرد.

- اعتقد أننا نستطيع أن نقول هذا بالفعل.

- وكما يولد الطفل في إطار لغوي معين فإنه يولد أيضاً في سياق تاريخي محدد. ولا يملك أحد علاقة «حرة» مع ذلك السياق. ومن لا يجد مكانه في إطار الدولة هو بالتالي شخص «لاتاريخي». ولعلك تذكرين أن هذه الفكرة كانت مهمة أيضاً بالنسبة لفلاسفة أثينا الكبار. فكما لا يمكن تصور دولة دون مواطنين، لا يمكن تصور مواطنين دون دولة.

- مسألة واضحة!

- ويرى هيجل ان الدولة شيء «أكبر» من الفرد، بل أنها في الواقع شيء أكبر من مجموع مواطنيها. كما يرى هيجل ان من المستحيل «اعتزال المجتمع». ومن يدير ظهره للمجتمع الذي يعيش فيه ويريد في نفس الوقت «أن يجد ذاته» شخص واهم.

- لست أدري إن كنت أوافق تماماً على هذا الرأي ولكني فهمت.

ـ إن من يجد «ذاته» ليس، في رأي هيجل، هو الفرد وإنما هي «روح العالم».

ـ روح العالم تجد ذاتها؟.

ـ يقول هيجل إن «روح العالم تعود إلى ذاتها على ثلاثة مستويات». وهو يقصد بذلك أنها تعي ذاتها على ثلاثة مستويات.

ـ وهي؟

ـ أولا تعي الروح ذاتها في الفرد، وهو ما يسميه هيجل الروح الذاتية. ثم تدرك روح العالم مستوى أعلى من الوعي في الأسرة، والمجتمع المدني، والدولة، ويسمي هيجل هذا المستوى الروح الموضوعية لأن هذه الروح تتجلى في العلاقة بين البشر. ولكن هناك مستوى آخر ثالثاً...

ـ يملؤني الفضول الآن حقاً...

ـ تصل روح العالم إلى أرقى أشكال الوعي بالذات في الروح المطلقة. وهذه الروح المطلقة تتجسد في الفن، والدين، والفلسفة. ومن بين هذه الميادين الثلاثة تعد الفلسفة أرفع أشكال المعرفة، إذ من خلال الفلسفة تتأمل روح العالم تأثيرها في التاريخ. ففي الفلسفة وحدها تلتقي روح العالم بذاتها. وربما جاز لك أن تقولي إن الفلسفة هي المرآة التي تتجلى فيها روح العالم.

ـ هذه مسألة غامضة أعتقد أنني أحتاج لفترة من الزمن لأفكر فيها. ولكن أعجبتني آخر جملة قلتها.

ـ لقد قلت إن الفلسفة هي المرآة التي تتجلى فيها روح العالم.

ـ تعبير جميل، هل تعتقد أن له علاقة بالمرآة النحاسية؟

ـ ما دمت تسأليني أقول لك نعم.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ إني افترض أن المرآة النحاسية لها دلالة خاصة مادامت تظهر على غير انتظار من وقت لآخر.

ـ ألديك فكرة ما عن هذه الدلالة؟

ـ لا، لقد قلت ببساطة إنها لا يمكن أن تظل تظهر بلا توقف دون أن تكـون لهـا دلالة خاصة لهيلد ووالدها. أما هذه الدلالة فهيلد وحدها التي تعرفها.

ـ هل ما تقوله يدخل في باب التهكم الرومانسي؟

ـ لا أمل في الإجابة عن هذا السؤال يا صوفيا.

ـ ولماذا؟

ـ لسنا من يتحكم في الأمور يا صوفيا، فما نحن إلا ضحايا لهذا التهكم. إذا خط طفل رسما على قصاصة ورق، لا تستطيعين أن تسألي قصاصة الورق مـا المقصـود بمـا رسم عليها.

ـ إن جسمي ليقشعر...

الفصل الثامن والعشرون

كيركجارد

... أوروبا كلها تمضي
في طريق الإفلاس...

نظرت هيلد إلى ساعتها: لقد تجاوزت الرابعة! وضعت الملف الكبير على مكتبها ونزلت مسرعة إلى المطبخ. عليها أن تذهب إلى حظيرة القارب ببعض الطعام قبل أن تيأس أمها من انتظارها. ولاحظت هيلد انها نظرت بصورة تلقائية إلى المرآة النحاسية عندما مرت أمامها.

وضعت الماء على النار لإعداد الشاي، وجهزت سريعاً بعض الشطائر.

بدأت هيلد تشعر أنها تنضم شيئا فشيئا إلى صف صوفيا وألبرتو. وقررت أن تستقبل أباها ببعض الحيل اللائقة حقاً به. وسوف تبدأ خطتها لدى هبوطه في مطار كوبنهاجن، عاصمة الدانمارك، ليركب طائرة أخرى تقله إلى النرويج.

بعد برهة كانت قد وصلت إلى حظيرة القارب وهي تحمل صينية كبيرة، وقالت:

ـ ها هو الأكل قد حضر!

كانت أمها تمسك بفرخ من ورق السنفرة فأزاحت عن جبينها خصلة من شعرها وأجابت هيلد بشيء من التهكم:

ـ سنتناول عشاءنا متأخرتين إذن.

جلستا خارج الحظيرة على المرسى وبدأتا في تناول الطعام. وبعد برهة سألت هيلد:

ـ متى سيصل بابا؟

ـ يوم السبت، كنت أتصور أنك تعرفين هذا.

ـ أقصد في أي ساعة؟ ألم يقل إنه سيتوقف أولاً في كوبنهاجن؟

ـ هذا صحيح...

تناولت أمها شريحة من الخبز وقالت:

ـ سيصل إلى كوبنهاجن في نحو الخامسة. ثم يأخذ طائرة أخرى تقلع من كوبنهاجن في الساعة الثامنة والربع وتصل إلى كريستيانساند في التاسعة والنصف.

ـ سينتظر إذن في مطار كوبنهاجن نحو ثلاث ساعات...

ـ نعم. لماذا؟

ـ لا شيء. كنت أتساءل فقط عن طريق عودته.

عندما شعرت هيلد أن فترة مناسبة مضت سألت أمها ببراءة كأنها تتحدث حديثاً عابراً غير مقصود:

ـ هل عندك أخبار عن آن وأوليه؟

ـ إنهما يتصلان من وقت لآخر. وهما ينويان العودة من كوبنهاجن في شهر يوليو (تموز).

ـ ألن يعودا قبل ذلك؟

ـ لا أعتقد هذا.

ـ سيكونان إذن في كوبنهاجن هذا الأسبوع...؟

ـ لماذا كل هذه الأسئلة يا هيلد؟

ـ لا شيء إنها مجرد ثرثرة.

ـ لقد ذكرت كوبنهاجن ثلاث مرات.

ـ هل فعلت؟

ـ لقد تكلمنا عن وصول بابا أولا إلى كوبنهاجن...

ـ هذا غالبا ما جعلني أفكر في آن و أوليه.

بعد أن انتهيتا من تناول الطعام وضعت هيلد الأطباق والأكواب على الصينية ونهضت قائلة:

ـ لا بد أن أستأنف القراءة يا ماما.

ـ نعم، لا بد أن تقرأي...

أكانت هناك نبرة عتاب في صوت امها؟ كانتا اتفقتا على اصلاح القارب معاً قبل عودة أبيها.

ـ لقد جعلني بابا أعده بأن أنهي الكتاب قبل عودته.

ـ إنه يبالغ في هذا حقاً. فعندما يكون بعيدا لا ينبغي له أن يتدخل فيما يجري في البيت ويحاول أن يوجه كل شيء من آخر الدنيا.

قالت هيلد بنبرة غامضة:

ـ لو تعرفين كيف يتحكم في كل ما حوله، انت لا تتخيلين مدى استمتاعه بهذا.

ثم عادت إلى غرفتها وواصلت القراءة.

سمعت صوفيا فجأة دقا على الباب. فنظر إليها ألبرتو نظرة حازمة وقال:

ـ لن نترك أحدا يعطلنا.

وتواصل الدق بصوت أقوى، فقال ألبرتو:

ـ سأكلمك الآن عن فيلسوف دانماركي كان شديد الاستياء من فلسفة هيجل.

ازداد الدق على الباب عنفا حتى أخذ الباب يهتز بقوة، فقال ألبرتو:

ـ إنه الضابط بـالطبع يرسـل لنـا بعـض الأشبـاح لـيرى إن كنـا مـا زلنـا أسـرى شباكه، إن ذلك لا يكلفه أي عناء على الإطلاق.

ـ ولكن إن لم نفتح الباب ونرَ من الطارق فلـن يكلفـه أي عنـاء أيضـاً أن يهـدم البيت كله على رؤوسنا.

ـ ربما كان معك حق... لنفتح الباب إذن.

مضيا ليفتحا الباب. وتوقعت صوفيا من شدة الطـرق أن تـرى شـخصا ضخمـا هائلا. ولكنها وجدت أمام العتبة فتاة صغـيرة ذات شـعر طويـل أشـقر ترتـدي ثوبـا أزرق وتمسك في كل يـد بزجاجـة صغـيرة، واحـدة حمـراء والأخـرى زرقـاء. حيتهـا صوفيا قائلة:

ـ أهلا، من أنت؟

أجابت الطفلة بخجل وهي تنحني بأدب:

ـ اسمي آليس.

فقال ألبرتو وهو يهز رأسه:

ـ هذا ما كنت أتصوره إنها آليس الآتية من بلاد العجائب.

ـ وكيف وجد ت طريقها إلينا؟

فشرحت آليس:

ـ بلاد العجائب لا تعرف حدودا. وهذا يعني أن بلاد العجائب موجودة في كـل مكان، مثل الأمم المتحدة تقريبـا. ولذلـك ينبغـي أن تصبـح عضـوا شـرفيا في الأمـم المتحدة، ويجب أن يكون لنا ممثلون في جميع هيئاتها، لأن الأمم المتحـدة نشـأت أيضـاً من أحلام الناس عن بلاد العجائب.

وتمتم ألبرتو:

ـ إني أشم رائحة الضابط!

وسألت صوفيا:

ـ ولماذا جئت إلى هنا؟

ـ جئت لأعطي صوفيا هاتين الزجاجتين الفلسفيتين الصغيرتين.

وأعطت آليس الزجاجتين لصوفيا. كان في واحدة سائل أحمر وفي الأخرى سائل أزرق. وكان مكتوبا على الحمراء: اشربيني، وعلى الزرقاء: اشربيني أنا أيضاً.

وفي اللحظة التالية مر أرنب أبيض أمام الشاليه، كان يجري على قدمين ويرتدي صديريا ومعطفا. وعندما مر أمام البيت أخرج ساعة من جيب الصديري وقال:

ـ يا إلهي! يا إلهي! لقد تأخرت حقاً!

ثم استمر في الجري، وانحنت آليس مرة أخرى ثم ركضت وراء الأرنب في اتجاه الغابة وهي تقول:

ـ الآن يبدأ كل شيء مرة أخرى.

فصاحت صوفيا كي تسمعها:

ـ آليس، بلغي سلامي لدينا والملكة!

ظل ألبرتو وصوفيا واقفين على عتبة الباب يفحصان الزجاجتين. قرأت صوفيا ما كتب عليهما:

ـ «اشربيني، واشربيني أنا أيضاً».

ثم أردفت قائلة:

ـ لا أعرف إن كنت أملك الشجاعة على ذلك، فاني أخشى أن تكونا سامتين.

اكتفى ألبرتو بهز كتفيه وقال:

ـ إنهما تأتيان من الضابط، وأي شيء يأتي من الضابط هو وعي خالص. هذا مجرد «عصير أفكار» يا صوفيا.

نزعت صوفيا سدادة الزجاجة الحمراء ووضعتها بحذر على شفتيها كان مذاق العصير حلوا وغريبا. ولكن المذاق لم يكن أهم ما في الموضوع: فعندما أخذت صوفيا ترشف العصير بدأت تشعر أن كل ما يحيط بها يتغير.

أحست بأن البحيرة والغابة والشاليه قد اندمجت كلها معاً وسرعان ما بدا لها أن كل شيء تراه قد أصبح شخصا واحداً، وأن ذلك الشخص هو صوفيا نفسها. تطلعت إلى ألبرتو ولكنه بدا لها أيضاً جزءا من روح صوفيا، فقالت:

ـ أمر عجيب! إني أرى كل شيء كما هو من قبل، إلا أن كل شيء يبدو الآن مرتبطا بالأشياء الأخرى، أشعر بأن كل شيء أصبح فكرة واحدة.

هز ألبرتو رأسه مؤمناً على كلامها، ولكن صوفيا شعرت أنها هي التي تهز رأسها لنفسها. وقال ألبرتو:

ـ إنه مذهب وحدة الوجود. هذه هي روح العالم التي تصورها الرومانسيون. لقد شعروا بأن العالم كله ليس سوى «أنا» كبيرة. كما أنه منهج هيجل الذي قلل من أهمية الفرد ورأى أن العالم يعبر عن العقل الكلي الواحد.

ـ هل يجب أن أشرب من الزجاجة الأخرى أيضاً؟

ـ هذا ما كتب عليها.

نزعت صوفيا سدادة الزجاجة الزرقاء وتناولت حسوة كبيرة. كان مذاق العصير أكثر لذوعة من الآخر ولكنه أكثر إنعاشا. ومرة أخرى بدأ كل شيء حولها يتغير فجأة.

اختفت فوراً آثار الزجاجة الحمراء ورجع كل شيء مرة أخرى إلى مكانه الطبيعي. كان ألبرتو هو ألبرتو، والأشجار عادت إلى مكانها في الغابة، والمياه اتخذت من جديد شكل البحيرة.

ولكن ذلك لم يستمر سوى ثانية واحدة، إذ استمرت الأشياء في التباعد والانفصال عن بعضها بعضا. الغابة لم تصبح غابة بل بدا كأنما كل شجرة صغيرة قد باتت عالماً في حد ذاتها. وكل غصن صغير لاح كعالم سحري يذكر بأجواء القصص الخرافية تستطيع لو شئت أن تحكي عنه ألف حكاية وحكاية.

وفجأة أصبحت البحيرة الصغيرة محيطا لا آخر له، لا في العمق والاتساع فحسب، وإنما في بريق الأضواء العجيبة المتلألئة على سطحه وفي الأشكال الدقيقة لموجاته الرقراقة. وشعرت صوفيا أنها قد تقضي عمرا بأكمله تتأمل البحيرة ومع ذلك تظل المياه سرا غامضا.

ونظرت صوفيا إلى إحدى الأشجار فرأت ثلاث عصافير صغيرة تلهو في لعبة عجيبة. هل هذه لعبة الاستغماية؟ كانت صوفيا تعرف على أي حال أن هناك طيورا في هذه الشجرة حتى بعد أن شربت من الزجاجة الحمراء، إلا أنها لم تكن قد رأتها حقاً بهذا الوضوح. فالعصير الأحمر كان قد محا كل الفواصل والفروق الفردية.

هبطت صوفيا من السلمة الحجرية العريضة التي كانا يقفان عليها وانحنت تتطلع إلى الأعشاب التي تكسو الأرض، فاكتشفت عالما جديدا آخر، كأنما تغوص لأول مرة وهي مفتوحة العينين داخل بحر عميق. كانت الوريقات الصغيرة تتبدى حافلة بالتفصيلات الدقيقة. وشاهدت صوفيا عنكبوتا يشق طريقه فوق الطين كأنه يعرف إلى أين يتجه بالضبط، ورأت حشرة حمراء صغيرة تصعد وتهبط بسرعة كبيرة فوق ورقة عشب، وجيشا كاملا من النمل يعمل في اتفاق باهر ولكن كل نملة صغيرة كانت تحرك أرجلها بطريقة خاصة تماماً.

إلا أن أغرب ما رأته كان عيني ألبرتو عندما نهضت مرة أخرى وتطلعت إليه وهو مازال واقفا على عتبة الشاليه. فهي تراه الآن شخصا عجيبا مسحورا، أشبه بساكن كوكب آخر أو بشخصية سحرية من شخصيات القصص الخرافية. وفي الوقت ذاته أحست صوفيا، بطريقة بدت لها جديدة تماماً، أنها ليست مجرد كائن إنساني، ليست فتاة ما في الخامسة عشرة من عمرها، بل إنها شخص فريد متميز هو صوفيا أموندسن. وسألها ألبرتو:

- ماذا ترين يا صوفيا؟

- أرى أنك شخص عجيب.

- حقاً؟

- أعتقد أنني من شدة احساسي بفرديتي لن أستطيع أبدا أن أتخيل نفسي مكان شخص آخر. فلا يوجد شخصان متماثلان في العالم بأسره.

- والغابة؟

- إنها لم تعد كما كانت من قبل كلاً متحداً، لقد أصبحت عالماً مسحوراً تدور فيه مغامرات عجيبة.

ـ هذا يؤكد ما كنت أفكر فيه. إن الزجاجة الزرقاء هي الفردية. أي انها تعبر مثلاً عن موقف سورين كيركجارد من مذهب وحدة الوجود الذي آمن به الرومانسيون. كما إنها تعبر عن رؤية مفكر دانماركي آخر معاصر لكيركجارد، هو مؤلف الحكايات الخرافية المشهور هانز كريستيان أندرسن. فقد كانت له نظرة دقيقة للتفاصيل الغنية التي تزخر بها الطبيعة. وهو يشترك في هذه الصفة مع الفيلسوف الألماني ليبنتز الذي قام، قبلهما بمائة عام، بنقد فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا، مثلما نقد كيركجارد فيما بعد فلسفة هيجل.

ـ إني أسمع ما تقول ولكنك تبدو غريبا إلى درجة تدفعني إلى الضحك.

ـ هذا مفهوم يا صوفيا. يكفي أن تأخذي حسوة أخرى من الزجاجة الحمراء. وهيا بنا نجلس على السلم لنتحدث عن كيركجارد.

جلست صوفيا على السلم إلى جوار ألبرتو وشربت بعضاً من العصير الأحمر وبدأت الأشياء تتلاقى وتتآلف من جديد مرة أخرى. بل لقد تآلفت في الواقع بقدر من الإفراط حتى شعرت صوفيا بأن كل الفروق تتلاشى من جديد. فكان عليها أن تبلل شفتيها من الزجاجة الزرقاء مرة أخرى. وسرعان ما عاد العالم حولها كما كان عندما وصلت آليس تحمل الزجاجتين. فسألت ألبرتو:

ـ ولكن أي الصورتين هي الصحيحة، هل الصورة التي تظهرها الزجاجة الحمراء أو الصورة التي تبينها الزجاجة الزرقاء؟

ـ كلتا الصورتين صحيحة يا صوفيا. لا يمكننا أن نقول إن الرومانسيين قد أخطأوا، فليس هناك سوى واقع واحد لا غير، ولكنهم ربما ركزوا على جانب واحد دون سواه.

ـ والزجاجة الزرقاء؟

ـ أعتقد أن كيركجارد قد تناول منها جرعة كبيرة، فأعلى بحرارة من مكانة الفرد وأهميته، وقال إننا لسنا مجرد «أبناء عصرنا»، بل إن كل واحد منا كائن فريد لا يعيش إلا مرة واحدة.

ـ وهي وجهة نظر لم يهتم بها هيجل كثيراً، أليس كذلك؟

ـ كان هيجل أكثر اهتماماً بالخطوط العريضة للتاريخ وهـذا بـالتحديد مـا كـان يثير استياء كيركجارد الشديد. فكان يرى أن كلا مـن فلسـفة وحـدة الوجـود الـتي يعتنقها الرومانسيون وكذلك «النزعة التاريخيـة» هيجـل تسـلبان مـن الكـائن الفـرد مسؤوليته عن حياته الذاتية. وكان كيركجارد يرى أن هيجـل والرومانسـيين يمثلان نفس الشيء.

ـ بوسعي أن أتصور لماذا كان مستاء إلى هذه الدرجة.

ـ ولد سورين كيركجارد في عام ١٨١٣ وقد اورثته نشأته والتربية القاسية التي تلقاها على يد والده، شعوراً دينياً مشوباً بالحزن.

ـ وهذا لا يبشر بخير.

ـ وقد اضطره هذا المزاج الميـال للحـزن إلى فسـخ خطبتـه، وهـو أمـر استنكره مجتمع كوبنهاجن الراقي. ومنذ ذلك الحين أصبـح كيركجـارد منبـوذا وموضـع نقـد واستهزاء. ولكن كيركجار تعلم تدريجيا كيف يدافع عن نفسه ويـرد علـى مهاجميـه، إلا انه ما لبث أن أصبح نموذجا لما أسماه ايبسن «عدو الشعب».

ـ كل هذا بسبب خطبة فسخت؟

ـ لا، ليس هـذا فقـط. فقـرب نهاية حياتـه، بصفـة خاصـة، زادت حـدة نقـده للمجتمع. وقال «إن أوروبا كلها تمضي في طريق الإفلاس». وكان يـرى أنـه يعيـش في عصر مجرد من العاطفة والالتزام. وحمل حملة عنيفة على فتور الحياة الدينية داخـل الكنيسية الدانماركية اللوثرية، ووجـه نقـدا لا يرحـم لما قـد نسـميه «مسـيحية يـوم الأحد».

ـ إننا نتكلم اليوم عن «مسيحية المناسبات».

ـ معك حق يا صوفيا، وكـان كيركجـارد يـرى أن المسـيحية عقيـدة تسـتند إلى المعجزة المبهرة أكثر مما تستند إلى العقل الصارم ولذلك يجب أن يكون الموقـف منهـا هو إما/أو. فلا يمكن أن يكون المرء مسيحيا «بقدر ما» أو «حتى نقطة معينة». فإمـا أن المسيح قام من بين الأموات في يوم الفصح، وإما أنه لم يقم. فإن كان قام مـن بـين الأموات، إن كان مات حقاً ليفتدينا، فإن هذه الحقيقة المبهرة المعجزة يجب أن تتخلل كل حياتنا وتوجهها.

ـ نعم، أعتقد أني أفهم قصده.

ـ لكن كيركجارد رأى أن الكنيسة ومعظم المسيحيين يتناولون المسائل الدينية بمنهج مائع وموقف خال من الجدية الواجبة. وكان يعتقد أن الدين والعقل مثل النار والماء. فلا يكفي الاقتناع العقلي بأن المسيحية «صحيحة». إن الإيمان المسيحي الحقيقي يعني اتباع خطى المسيح وانتهاج السلوك المسيحي الحقيقي.

ـ وما علاقة هذا بهيجل؟

ـ لعلي بدأت بداية خاطئة، معك حق.

ـ فلنعد إذن إلى الوراء ونبدأ من جديد.

ـ بدأ كيركجارد دراسة اللاهوت وعمره سبعة عشر عاما، ولكن اهتمامه أخذ يتزايد، بمضي الوقت، بالمسائل الفلسفية. وتخرج في السابعة والعشرين وكان موضوع رسالة تخرجه هو «مفهوم التهكم». وهي رسالة انتقد فيها مفهوم التهكم الرومانسي وعبث الرومانسيين بمسألة خلق الوهم ثم تبديده. وعارض كيركجارد هذا النوع من التهكم «بالتهكم السقراطي»، وأشار إلى أن سقراط قد استخدم بدوره التهكم ولكن بهدف لفت أنظار محدثيه إلى جدية الحياة وحقائقها الأساسية. فسقراط كان، على عكس الرومانسيين، «مفكراً وجودياً» في نظر كيركجارد، أي مفكراً يدرج كل جوانب وجوده في إطار تفكيره الفلسفي.

ـ استمر...

ـ وبعد أن فسخ كيركجارد خطبته في عام ١٨١٤، ذهب إلى برلين حيث أخذ يتردد على محاضرات شيلنج.

ـ وهل قابل هيجل؟

ـ لا، كان هيجل قد مات منذ عشر سنوات، لكن نفوذه كان مازال سائدا في برلين وفي بعض أنحاء أوروبا. وكان «نظامه» الفلسفي يستخدم بوصفه أداة قادرة على تقديم تفسير شامل لجميع المسائل. وأوضح كيركجارد أن هذا النوع من «الحقائق الموضوعية» التي تهتم بها الفلسفة الهيجلية ليست له أي أهمية للحياة الشخصية للفرد.

ـ ما هي الحقائق الهامة إذن؟

ـ يرى كيركجارد أن من المهم بدلا من البحث عن الحقيقة المطلقة الوقوف على الحقائق التي لها دلالتها وأهميتها لحياة الفرد. وكان يقول إن من المهم أن أجد «ماهو حقيقي بالنسبة لي». ولذا فإنه و ضع الفرد، أي آحاد الناس، في مواجهة «النظـام». وقال إن هيجل نسى أنه إنسان. وكتب كيركجارد عـن النمـوذج النمطي للأستاذ الهيجلي يقول: «بينما يقف حضرة الأستاذ يفسر سـر الحيـاة كلهـا ينسى في غمـرة انشغاله ما هو اسمه، بل وينسى حتى أنـه إنسـان لا مجـرد مقطـع لامـع مـن فصـل في كتاب».

ـ وما هو الإنسان في رأي كيركجارد؟

ـ لا يمكن أن نعطي إجابة عامة عن هذا السؤال. إن كيركجارد لا يهتـم مطلقـا بوضع تعريف شامل يصف طبيعة الإنسـان. إن الشـيء الوحيـد الهـام هـو «الوجـود الخاص» بكل إنسان. والإنسان لا يعيش وجوده الخاص جالسا خلف أحد المكـاتب، لأن الإنسان لا يدرك وجوده الخاص إلا عندما يعمل ويتصرف وخاصة عندمـا يقـرر اختياراته الحياتية الهامة. وهناك حكاية تروى عن بوذا توضح ما يقصده كيركجارد.

ـ عن بوذا؟

ـ نعم، لأن فلسفة بوذا تتخذ أيضاً من وجود الإنسان نقطة انطلاقها. يحكـى أن راهبا قال لبوذا إنه لا يقدم إجابات واضحة عن الأسئلة الجوهرية مـن قبيـل: مـا هـو العالم، أو ما هو الإنسان. فما كان من بوذا إلا أن ضرب للراهب مثلاً لرجل أصابـه سهم مسموم. إن الرجل الجريح لن يسأل أبدا، بدافع من اهتمام نظري محـض، مـمَ صنع السهم؟ وما نوع السم الذي غمس فيه؟ ومن أي جهة جاء؟.

ـ بل سيريد أن يهب أحد إلى نجدته فينزع السهم ويداوي جرحه.

ـ بالضبط. هذا هو الأمر المهم بالنسبة له من الناحية الوجودية. إن كلا من بوذا وكيركجارد كان عندهما إحساس قوي بأن وجود الإنسـان لا يستمر سـوى برهـة خاطفة. وكما قلت لك فإن الإنسان لا يجلس في هذه الحالة يتفلسف خلـف المكتـب عن الطبيعة وروح العالم.

ـ كلا بالطبع.

ـ كما قال كيركجارد إن الحقيقة «ذاتية». وهو يقصد بهذا أن الحقيقة المهمة حقاً لا بد أن تكون حقيقة «شخصية». فهذه الحقيقة وحدها هي «الحقيقة بالنسبة لي».

ـ هل تستطيع أن تضرب مثلاً عن حقيقة ذاتية؟

ـ قد تتعلق إحدى الحقائق الذاتية بالتساؤل مثلاً عما إن كانت المسيحية صحيحة صادقة. إزاء سؤال من هذا النوع من المستحيل تقديم إجابة نظرية أو أكاديمية. فبالنسبة لإنسان «يدرك أنه كائن منغمس في الوجود» يعد هذا السؤال قضية حياة أو موت. إنه ليس موضوعاً ينـاقش لمجرد الاستمتاع بالجدل، وإنما هو مسألة يقترب الإنسان منها بأكبر قدر من الحماسة والإخلاص.

ـ هذا أمر مفهوم.

ـ إذا سقطت في الماء لن يكون لديك اهتمام نظري بمعرفة إن كنت ستغرقين أم لا. ولا يمكن أن نصف أيضاً السؤال الخاص بمعرفة إن كانت بالماء تماسيح أم لا بأنه سؤال شائق أو غير شائق. إنها مسألة حياة أو موت.

ـ لقد فهمت هذه النقطة تماماً.

ـ ولذا يجب علينا أن نميز بين السؤال الفلسفي عن وجود الله من جهة، وعلاقة الفرد بهذا السؤال نفسه من جهة أخرى، لأن كل إنسان يجد ذاته في هذا الوضع وحيدا تماماً. إن هذا النوع من الأسئلة الجوهرية لا يمكن التعامل معه إلا من خلال الإيمان. إذ إن كيركجار يرى أن الأشياء التي نستطيع أن نعرفها عن طريق العقل ليست لها أي أهمية مطلقا.

ـ هذه مسألة صعب قبولها فأرجو أن تشرحها بمزيد من الوضوح.

ـ إن مجموع ٨ + ٤ يساوي ١٢. نحن نعرف هذا معرفة يقينية مؤكدة. وهذا نموذج للحقائق التي يمكن استخلاصها بالعقل والتي تكلم عنها جميع الفلاسفة منذ ديكارت. ولكن هل هو أمر نكرره في صلواتنا اليومية؟ هل هو حقيقة نتأملها ونحن على فراش الموت؟ لا على الإطلاق، إن هذا النوع من الحقائق قد يكون في آن واحد «موضوعياً» و «كلياً عاماً»، ولكن لا أهمية له مطلقاً بالنسبة لوجود كل فرد.

- وماذا عن الإيمان؟

- إذا أسأت لإنسان فانت لا تستطيعين أن تعرفي إن كان قد سامحك أم لا: هـذا سؤال له أهمية وجودية بالنسبة لك ولهذا تهتمين اهتماماً شديدا بمعرفة إجابته. كما انك لا تستطيعين أن تعرفي إن كان شخص ما يحبك أم لا. هذا أمر ليس أمامك سوى الإيمان به أو الأمل فيه. لكن هذه الأشياء أهم كثيراً بالنسبة لك من الحقيقة التي تقول إن مجموع زوايا المثلث يساوي ١٨٠ درجة. فأنت لا تستطيعين أن تفكري في قانون السبب والنتيجة أو في أشكال الادراك الحسي وأنت تمرين بتجربة شعورية قوية سواء كانت تتعلق بالفرح أو الحزن أو الخوف.

- إن هذا سيكون أمرا شديد الغرابة.

- إن الإيمان هو أهم عامل لدى تناول المسائل الدينية. وقد كتب كيركجارد: «إذا كنت أستطيع أن أدرك الله بطريقة موضوعية فلن أكون محتاجا للإيمان. وعجزي عن هذا الإدراك الموضوعي هو بالتحديد ما يلجئني إلى الإيمان. وإذا أردت أن أحافظ على إيماني يجب علي دوما أن أتمسك بالجهل الموضوعي، فقد تغيم علي الرؤية كأني قابع في قاع البحر حيث يصل عمق الماء إلى سبعين ألف متر وأظل مع ذلك محتفظاً بإيماني».

- طريقة غريبة في التعبير.

- حاول كثيرون في الماضي أن يثبتوا وجود الله، أو أن يدركوه بواسطة العقل. ولكن إذا اكتفيت بهذه البراهين أو الاستدلالات المنطقية فإنك تفقدين إيمانك وتفقدين معه حرارة العاطفة الدينية الحميمة. فالمهم ليس إن كانت المسيحية صحيحة وصادقة، بل المهم هو إن كانت صحيحة وصادقة بالنسبة لك أنت. وقد شاع في العصور الوسطى التعبير عن هذه الحقيقة بقول مأثور يقول: «إني أؤمن لأن ما أؤمن به معارض للعقل». ولو كانت المسيحية قد خاطبت عقولنا لتقنعنا بصدقها، لما كانت هناك حاجة إلى الإيمان. فالمسيحية عندما تطالبنا بالايمان تطالبنا بشيء لاينتمي إلى العقل.

- نعم بطبيعة الحال، أنا أفهم الآن.

- لقد رأينا إذن ما يقصده كيركجارد «بالوجود»، و «الحقيقة الذاتية»، و«الإيمان». وقد صيغت هذه المفاهيم الثلاثة بوصفها نقدا للتراث الفلسفي بوجه

عام، ولفلسفة هيجل بوجه خاص. غير أنها كانت أيضاً «نقدا للحضارة» إذ قال كيركجارد إن الفرد في المجتمع المعاصر قد ضاع وسط «عامة الجمهور»، والسمة الرئيسية للجماهير أو العامة هي «الثرثرة» أو «اللغو». وربما استعملنا اليوم في وصف ما يقصده كيركجارد كلمة «الاتباعية»، أي «أن يفكر» و «يؤمن» كل فرد على منوال الآخرين دون أن يربطه أي شعور عميق بما يفكر فيه أو يؤمن به.

ـ إني أتساءل ماذا كان يقول لو رأى والدي نورا.

ـ لم يكن كيركجارد مجاملا في أحكامه دوما. لقد كان له قلم حاد لاذع وقدرة على التهكم المرير. فأنت تصادفين لديه مثلاً عبارات من قبيل «الجموع معادية للحقيقة» أو «الحقيقة دائما في صف الأقلية» أو «معظم الناس يتعاملون مع الحياة بمنهج سطحي».

ـ ربما كان من الجائز جمع عرائس «باربي»، لكن الكارثة هي تقمص شخصية «باربي»...

ـ وهذا يقودنا إلى ما يسميه كيركجارد المراحل الثلاث على طريق الحياة.

ـ ماذا تقول؟

ـ يعتقد كيركجارد أن الإنسان يمكن أن يتخذ من الحياة ثلاثة مواقف مختلفة، واستخدم في وصف هذه المواقف كلمة «مراحل». وهو يسميها «المرحلة الجمالية»، و «المرحلة الأخلاقية»، و «المرحلة الدينية». وقد استخدم لفظ «مرحلة» ليؤكد أن الإنسان قد يعيش في مرحلة دنيا ثم ينتقل إلى مرحلة أعلى، حتى إن كان كثير من الناس يعيشون في نفس المرحلة طول حياتهم.

ـ أترقب شرحك لأني بدأت أتساءل في أي مرحلة أعيش.

ـ من يعيش في المرحلة الجمالية يعيش اللحظة الراهنة ويبحث عن اللذة بصفة مستمرة. إن الخير بالنسبة له هو الشيء الجميل، والممتع، والجذاب. وفي هذه الحالة يعيش الإنسان في عالم الحواس بصورة كاملة، ويكون عبدا لرغباته وأهوائه. ويرى في أي شيء رتيب أمراً سلبياً مزعجاً.

ـ شكراً، أعتقد أني أعرف هذا النوع من السلوك.

ـ ولذا يعد الرومانسي نموذجا للشخص الجمالي لأن كيركجارد لا يشير إلى الاستمتاع الحسي فحسب، وإنما يقصد أيضاً اتخاذ موقف عابث من الواقع أو من الفن أو الفلسفة. بل قد يتخذ الإنسان موقفا جماليا من الألم والمعاناة. ففي المرحلة الجمالية تكون السمة الأساسية هي الزهو العابث. وقد صور ايبسن شخصية الجمالي النموذجي في مسرحيته بير جينت.ـ أعتقد أني أفهم قصدك.

ـ هل تعرفين أحدا من هذا النوع؟

ـ ليس تماماً، ولكن ربما كان هذا النموذج يشبه الضابط.

ـ ربما يا صوفيا... وإن كان هذا مثلاً آخر على ميله الشرير للتهكم الرومانسي. وعليك أن تمسحي فمك الآن بعد هذه الزلة.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء، انها لم تكن غلطتك على أي حال.

ـ فلتستمر إذن...

ـ إن من يعيش في المرحلة الجمالية معرض لأن يعاني مشاعر القلق والفراغ الداخلي. فإذا حدث أن عانى تلك المشاعر فإن هناك أملا أيضاً. إذ يرى كيركجارد أن مشاعر القلق أمر إيجابي فهي تعبير عن أن الفرد يعيش «حالة وجودية»، ويستطيع أن يختار الآن أن يقفز إلى المرحلة الأعلى. إلا أن هذا أمر قد يحدث وقد لايحدث. فليس من المفيد أن يكون المرء على وشك أن يخطو خطوة كبرى ثم لايخطوها إلى النهاية. إن المسألة هي مسألة إما/أو. ولكن لا يستطيع شخص آخر أن يخطو تلك الخطوة بدلا منك. إنها اختيارك الشخصي.

ـ إن الأمر يذكرني بمن يختار أن يتوقف عن التدخين مثلاً.

ـ نعم إلى حد ما. وعندما يصف كيركجارد هذا القرار القاطع يخطر على البال رأي سقراط الذي يقول إن كل معرفة حقيقية تأتي من الباطن. إن الاختيار الذي يجب أن يدفع إنسان ما إلى الانتقال من المرحلة الجمالية إلى المرحلة الأخلاقية أو إلى المرحلة الدينية يجب أن يأتي من الباطن. وقد شرح ايبسن هذا في مسرحيته بير جينت. كما قدم ديستويفيسكي وصفا رائعا لكيفية ظهور الاختيار الوجودي من باطن الإنسان وسط حالة من اليأس الداخلي في روايته العظيمة الجريمة والعقاب.

ـ إن أفضل ما يمكن أن نفعله هو أن نختار منهجا مختلفا في الحياة.

ـ وربما استطاع الإنسان عندئذ أن ينتقل إلى المرحلة الأخلاقية. وتتميز هذه المرحلة بالجدية وباتساق الخيارات الأخلاقية. وربما ذكرت هذه المرحلة بأخلاق الواجب لدى كانط، فالإنسان سيحاول أن يعيش وفقا للقانون الأخلاقي. وقد استرعى كيركجارد، مثل كانط، الانتباه إلى أن ذلك سيعتمد أساساً على مشاعر الإنسان. فالمهم ليس أن يملك المرء معرفة دقيقة بما هو صواب وما هو خطأ بل أن يبني اختياراته في الحياة على ما يعتقد أنه صواب أو خطأ. ولا تنسي أن من يعيش في المرحلة الجمالية لا يهتم إلا بأن يفرق بين ما هو «مسل» وبين ما هو «ممل».

ـ ولكن ألا يخاطر الإنسان إن هو عاش بهذه الطريقة بأن يصبح شخصا مفرطا في الجدية إفراطا مسرفا؟

ـ بالتأكيد! وكيركجارد لم يزعم قط أن المرحلة الأخلاقية مرحلة مرضية. فإن الشخص الذي يراعي أخلاق الواجب سيضجر في نهاية المطاف من التفاني المتصل والصرامة الدائمة. وكثير من الناس يعرفون رد الفعل هذا عندما يتقدم بهم العمر، فيرتد بعضهم إلى المرحلة الجمالية. غير أن البعض الآخر قد يقفز قفزة جديدة ويصل إلى المرحلة الدينية. إنهم يقدمون على القفز في أحضان الإيمان «حيث يزيد عمق المياه على سبعين ألف متر». إنهم يفضلون الايمان على اللذة الجمالية التي يمليها الحس وعلى نداء الواجب الذي يمليه العقل. وبالرغم من أنه قد يكون «من الرهيب القفز بين ذراعي الإله الحي المفتوحين»، كما قال كيركجارد، فإن هذا هو سبيل الخلاص الوحيد.

ـ عن طريق المسيحية، إذن.

ـ نعم، لأن المرحلة الدينية تعني عند كيركجارد المسيحية. غير أن أفكاره كان لها أيضاً تأثير كبير على مفكرين غير مسيحيين. إذ ازدهرت في القرن العشرين فلسفة تدعى «الوجودية» استلهمت بعض أفكار هذا الفيلسوف الدانماركي.

نظرت صوفيا في ساعتها وقالت:

ـ الساعة الآن السابعة تقريبا. لا بد أن أعود فورا إلى البيت إن أمي ستكون شديدة الانزعاج.

حيت صوفيا الفيلسوف وركضت نحو القارب.

الفصل التاسع والعشرون

ماركس

... إن شبحاً يخيم على أوروبا...

نهضت هيلد من سريرها ومضت إلى النافذة المطلة على الخليج. لقد بدأت القراءة صباح اليوم السبت والرواية تتكلم عن عيد ميلاد صوفيا والاحتفال البسيط الذي د عيت اليه نورا وأهلها. أما هيلد فقد كان عيد ميلادها أمس الجمعة، ذلك اليوم المشهود الذي تلقت فيه هدية أبيها.

يبدو أن أباها كان يضع في حساباته أن تتمكن من الوصول إلى المقطع الذي يتناول عيد ميلاد صوفيا يوم أمس الجمعة، أي في عيد ميلاد هيلد أيضاً. لقد كان يريد، بمعنى ما، أن يتصادف العيدان في يوم واحد ولكنه لم يكن واقعيا بالتأكيد في هذا التقدير. إلا أنه كان محقاً عندما قال لها في التليفون أن أمامها تهنئة واحدة بعيد ميلادها. وكان ذلك عندما غنى لها ألبرتو وصوفيا أغنية عيد الميلاد. لقد أحست هيلد بحرج شديد لذلك.

أما الحفل الفلسفي الذي ستقيمه صوفيا في حديقتها فسيصادف نفس اليوم الذي يعود فيه أبوها من لبنان. وكان لدى هيلد احساس بأن ذلك اليوم سيشهد شيئا لا تتوقعه هي أو أبوها.

غير أن هناك أمرا مؤكدا: فقبل أن يعود أبوها إلى باركلي سيتعرض لمقلب حقيقي. فهذا أقل ما تستطيع أن تفعله من أجل صوفيا وألبرتو، وخاصة بعدما طلبا مساعدتها...

لاحظت هيلد أن أمها لا تزال في حظيرة القوارب، فنزلت هيلد بسرعة إلى الدور الأسفل لتتكلم في التليفون قبل عودة أمها. وجدت رقم آن وأوليه في كوبنهاجن واتصلت بهما.

ـ آلو، من يتكلم؟

ـ صباح الخير أنا هيلد. كيف حالك يا آن.

ـ بخير وأنت يا هيلد؟ هل كل شيء في ليلساند على ما يرام؟

ـ نعم شكرا، خاصة أني أخذت أجازة الصيف وانتظر عودة بابا من لبنان بعد أسبوع.

ـ لابد أنك في قمة السعادة يا هيلد.

ـ نعم إني شديدة الشوق إليه، والواقع أني أتصل بك لهذا السبب...

ـ حقاً؟

ـ أعتقد أنه سيصل في نحو الساعة الخامسة يوم السبت القادم «٢٣» هل ستكونين في كوبنهاجن في ذلك الوقت؟

ـ أعتقد هذا.

ـ إني أتساءل إن كنت تستطيعين أن تقدمي لي خدمة بسيطة...

ـ طبعاً يا هيلد.

ـ إنها في الحقيقة خدمة من نوع خاص، بل إني لست متأكدة من أنها ممكنة.

ـ أنت الآن تثيرين فضولي...

وبدأت هيلد تصف خطتها. أخبرت آن عن الملف الكبير وعن صوفيا وألبرتو وبقية الحكاية. واضطرت أن تعاود ما تحكيه عدة مرات لأن حديثهما

كان يقطعه استغراق هيلد أو خالتها آن في الضحك، ولكن عندما انتهت المكالمة كانت الخطة قد أصبحت متقنة محكمة.

عليها الآن أن تستكمل الخطة ببعض الاستعدادت «المحلية» في البيت، ولكن لا داعي للعجلة فما زال أمامها وقت طويل.

أمضت هيلد بقية النهار والمساء مع أمها. قصدتا مدينة كريستيإنساند المجاورة وذهبتا إلى السينما وشعرتا أنهما تعوضان، بمعنى ما، عدم القيام في الأمس بأي شيء خاص للاحتفال بعيد ميلاد هيلد. وعندما مرت السيارة أمام المطار، قبل الوصول إلى وسط كريستيانساند، خطرت على بال هيلد بعض اللمسات الأخيرة التي ستجعل لخطتها وقعاً مؤثراً.

مضت هيلد في تلك الليلة إلى سريرها في ساعة متأخرة من الليل إلا أنها أخذت الملف وشرعت تقرأ:

كانت الساعة قد قاربت الثامنة عندما تسللت صوفيا خارجة من كوخها عبر السياج فوجدت نفسها أمام أمها التي كانت مكبة على تنسيق أحواض الزهور بجوار مدخل البيت.

- من أين ظهرت هكذا يا صوفيا؟

- لقد أتيت عبر السياج.

- عبر السياج؟

- ألا تعرفين أن هناك ممراً يقود من الحديقة إلى الغابة؟

- ولكن أين ذهبت يا صوفيا؟ هذه هي المرة الثانية التي تختفين فيها فجأة دون أن تتركي أي رسالة.

- إني آسفة يا ماما. كان الجو جميلا فذهبت في نزهة طويلة.

نهضت أمها وهي ترمقها بنظرة قاسية:

- وهل قابلت ذلك الفيلسوف من جديد؟

- نعم. قلت لك إنه يحب التنزه في الخلاء.

- وهل سيأتي إلى الحفل؟

- بالتأكيد، إنه ينتظر هذه المناسبة بفارغ الصبر.

- وأنا أيضاً. إني أعد الأيام.

هل كانت هناك نبرة غضب في صوت أمها؟ فضلت صوفيا، على سبيل الاحتياط، أن تضيف:

- إني سعيدة لأن والدي نورا سيحضران أيضاً. وإلا لكان الوضع محرجاً بعض الشيء.

- لست أدري... لكني سأتناقش على أي حال مع ألبرتو وجها لوجه عندما أراه لأعرف قصة دروس الفلسفة هذه.

- إني متأكدة أنك سترتاحين له.

- هناك شيء آخر. فقد وصلت رسالة باسمك.

- حقاً؟

- إنها تحمل خاتم قوات الأمم المتحدة.

- لا بد أنها من شقيق ألبرتو.

- أعتقد أن كل هذا قد آن له أن يتوقف يا صوفيا.

بدأ عقل صوفيا يعمل بأقصى طاقته وسرعان ما وقعت على رد مقنع، كأن هناك روحا تلهمها.

- كل ما في الأمر أني أخبرت ألبرتو أني أجمع الطوابع النادرة، والأشقاء الحقيقيون يمكن الاعتماد عليهم كما ترين.

نجحت هذه الإجابة في طمأنة أمها، اذ ما لبثت أن قالت لصوفيا بنبرة ودية:

- العشاء في الثلاجة ياصوفيا.

- وأين الرسالة؟

: فوق الثلاجة.

ركضت صوفيا إلى الداخل، كان تاريخ خاتم البريد يشير إلى ١٥/٦/١٩٩٠. فتحت صوفيا الرسالة فوجدت على قصاصة صغيرة كلمة تقول:

لم الخلق الدائم إذن

إن كان المخلوق صائرا للعدم؟

لم تعرف صوفيا كيف تجيب عن هذا السؤال، وقبل أن تتناول عشاءها وضعت الرسالة في الرف العلوي مع الأشياء التي جمعتها في الأسابيع الماضية. إنها ستعرف عما قريب لماذا وجه إليها هذا السؤال.

في صباح اليوم التالي جاءت نورا لزيارتها. لعبتا تنس الريشة حتى نال منهما التعب ثم بدأتا في تنظيم الحفل. وكان عليهما أن تتفقا على مفاجآت بديلة تشيع البهجة في الحفل إن فقد حيويته في أي لحظة.

وعندما عادت أم صوفيا من العمل وجدتهما ما زالتا تتحدثان عن الحفل. وظلت أمها تردد: «لا ينبغي أن نوفر في هذا... لا ينبغي أن نقتصد في ذاك...». ولم تكن تقول هذا على سبيل التهكم. إذ كانت مقتنعة فيما يبدو أن هذا الحفل سيكون

أفضل وسيلة لإعادة التوازن إلى حياة صوفيا بعد استغراقها الكامل خلال الأسابيع الأخيرة في دراسة الفلسفة.

قبل أن يحل المساء كانت الصديقتان قد اتفقتا على كل شيء من كعكة عيد الميلاد إلى الفوانيس الورقية والألغاز الفلسفية التي ستكون جائزتها كتاب أولي في الفلسفة، بشرط أن يكون هذا الكتاب موجودا أصلا! لم تكن صوفيا متأكدة من ذلك على الإطلاق.

وقبل عيد منتصف الصيف بيومين، أي في يوم الخميس ١٢ يونيو (حزيران)، اتصل ألبرتو بصوفيا مرة أخرى.

: آلو؟

: صوفيا، أنا ألبرتو.

: أهلا كيف حالك؟

: بخير شكرا، أعتقد أني وجدت مخرجاً ممتازاً.

: مخرجاً من ماذا؟

: أنت تعرفين من ماذا... مخرجا للإفلات من الأسر الذهني الذي نعيش فيه من فترة طويلة للغاية.

: نعم...

: إلا أني لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة قبل أن نبدأ في تنفيذ الخطة.

: ألن يكون ذلك متأخرا للغاية... اذ يجب أن أعرف ما أنا مقدمة عليه.

: أنت الآن ساذجة. إن كل محادثاتنا يتم التنصت عليها. إن أفضل شيء هو ألا نقول شيئاً على الإطلاق.

: هل الأمر سيء إلى هذه الدرجة؟

: بالطبع يا ابنتي. إن أهم الأشياء يجب أن تحدث ونحن صامتان لا نتكلم.

: معك حق...

: إننا نعيش حياتنا في واقع خيالي خلف الكلمات في قصة طويلة. وكل حرف يكتب فيها بآلة كاتبة قديمة يدق عليها الضابط. ولذلك لا يوجد شيء مطبوع يفلت من التباهه.

: إني أدرك ذلك. ولكن كيف سنتوارى عن أنظاره إذن في هذه الظروف؟

: هس!

: ماذا؟

: إن هناك أموراً تحدث أيضاً بين السطور. وهنا بالتحديد أمارس كل البراعة الممكنة لأمرر كلمات لها أكثر من معنى.

: فهمتك الآن.

: ولكننا يجب أن نستفيد إلى أقصى حد من اليوم وغدا. فالسبت هو ساعة الصفر يا صوفيا. هل تستطيعين أن تأتي حالاً؟

: إني في طريقي إليك.

أطعمت صوفيا الطيور والأسماك ووضعت ورقة خس كبيرة في صندوق جوفيندا وبعض الطعام في إناء قطتها شيريكان وتركت الإناء على السلم أمام البيت.

تسللت صوفيا عبر السياج ومضت في الطريق الذي يقودها إلى البحيرة. وبعد أن سارت برهة أشرفت فجأة على مرج يتوسطه مكتب كبير يجلس خلفه رجل عجوز. كان يبدو منهمكاً في العد والحساب. تقدمت صوفيا نحوه وسألته عن اسمه فأجابها:

: اسمي سكروج.

وما لبث أن غاص في أوراقه من جديد، فقالت صوفيا:

: وأنا اسمي صوفيا. يبدو أنك رجل أعمال؟

هز العجوز رأسه وأضاف:

: وعندي مال قارون، وأنا حريص على كل مليم من ثروتي، ولذلك أهتم بالحسابات اهتماماً شديداً.

: إنه هم ثقيل...

ثم حيته صوفيا بإشارة من يدها ومضت في طريقها. إلا أنها ما كادت تخطو بضعة أمتار حتى رأت فتاة صغيرة تجلس وحيدة تحت شجرة عالية. كانت ترتدي ثوباً بالياً رثاً وتبدو شاحبة عليلة. وعندما مرت صوفيا أمامها أدخلت الفتاة يدها في كيس صغير وأخرجت علبة ثقاب قدمتها لصوفيا وسألتها:

: هلا اشتريت مني بعض الثقاب؟

فتشت صوفيا في جيوبها لترى إن كان معها نقود فوجدت كروناً واحداً.

: وما ثمن هذه العلبة؟

: كرون واحد.

أعطتها صوفيا قطعة النقود وأخذت علبة الثقاب.

: أنت أول من يشتري مني شيئا منذ أكثر من مائة عام. أحيانا أكاد أموت جوعا وأحيانا أكاد أتجمد من قسوة البرد.

وتعجبت صوفيا لجلوس الفتاة هنا في أعماق الغابة لبيع علب الثقاب. لكنها مالبثت أن فكرت في رجل الأعمال الثري الذي مرت به توا. فليس من الطبيعي أن تشرف هذه الفتاة الصغيرة على الموت جوعا بينما يتمتع هو بهذا الثراء العريض فقالت لها صوفيا:

: تعالي معي.

وأخذت الفتاة من يدها وسارتا في اتجاه الرجل الغني، وقالت له صوفيا:

: يجب أن تفعل شيئا حتى تعيش هذه الفتاة الصغيرة حياة أفضل.

رمقهما الرجل بنظرة سريعة وهو منهمك في أوراقه وقال:

: إن هذه الأشياء تكلف نقودا، وقد قلت لك إنني يجب أن أصون كل مليم.

إلا أن صوفيا تمسكت برأيها وقالت:

: ولكن ليس من العدل أن تكون غنيا بهذا القدر والفتاة فقيرة إلى هذه الدرجة. هذا ظلم!

: حماقات وكلام فارغ! إن العدل لا يوجد إلا بين الأنداد.

: ماذا تقصد بذلك؟

: لقد شققت طريقي بنفسي والثروة جزاء الجهد، هذا ما يسمونه التقدم.

فردت الفتاة الفقيرة:

: إن لم تساعدني سأموت.

رفع رجل الأعمال رأسه من بين دفاتره وحدقهما بنظرة قاسية ورمى قلمه فوق المائدة وقال وقد نفد صبره:

: أنت لست مسجلة في دفاتري! ابعدي الآن! اذهبي إلى ملجأ الفقراء!

فردت الفتاة وقد ازداد يأسها:

: إن لم تساعدني سأشعل النار في الغابة.

وعندئذ نهض الرجل من وراء مكتبه، إلا أن الفتاة كانت قد أشعلت عود ثقاب ورمته في كومة من العشب الجاف فاندلعت فيه النيران على الفور. رفع الرجل يديه وصاح:

: ساعدني يا رب! النجدة! لقد عاد الحمر!

فنظرت إليه الفتاة الصغيرة نظرة ساخرة وقالت:

: ألم تكن تعرف أني شيوعية؟

في اللحظة التالية اختفت الفتاة الفقيرة، والرجل الغني، والمكتب الكبير. ووجدت صوفيا نفسها مرة أخرى وحدها أمام اللهب الذي يشتعل في العشب الجاف. فجاهدت في أن تطفيء النار بقدميها حتى نجحت أخيراً. الحمد لله! نظرت صوفيا إلى بقايا العشب المحترق، ثم لاحظت انها تمسك بعلبة الثقاب في يدها.

لا يعقل أن تكون هي من أشعل النار!

عندما رأت صوفيا ألبرتو جالسا أمام الشاليه قصت عليه ما حدث، فقال:

: سكروج هو الرأسمالي البخيل في رواية قصة عيد الميلاد التي كتبها تشارلز ديكنز. أما الفتاة الصغيرة التي تبيع الثقاب فمن المؤكد أنك تعرفينها من القصة الشهيرة التي ألفها هانس كريستيان أندرسون.

: ولكني لم أتوقع أن أقابلهما في الغابة.

: ولم لا؟ فهذه الغابة ليست غابة عادية، وسوف نتحدث الآن عن كارل ماركس. ومن المفيد أن تكوني قد رأيت مثلاً للفوارق الطبقية الشاسعة التي كانت قائمة في منتصف القرن التاسع عشر. ولكن لنجلس بالداخل، فربما كنا هناك أقل تعرضا لمضايقات الضابط. جلسا في مكانهما المعتاد بجانب النافذة المطلة على البحيرة تتوسطهما المائدة الصغيرة. ألقت صوفيا نظرة على البحيرة وتذكرت كيف رأتها عندما شربت من العصير الأزرق. إن الزجاجة الزرقاء والزجاجة الحمراء موضوعتان الآن فوق المدفأة. إلا أنها لاحظت على المائدة نموذجا لمعبد يوناني، فسألت صوفيا ألبرتو:

: ما هذا؟

: كل شيء في أوانه يا ابنتي.

وبدأ ألبرتو حديثه:

: عندما ذهب كيركجارد إلى برلين في عام ١٨١٤، ربما يكون قد جلس بجوار كارل ماركس يستمعان إلى محاضرات شيلنج. وقد كتب كيركجارد رسالة تخرجه عن سقراط، بينما كتب كارل ماركس رسالة دكتوراه عن ديموقريطس وأبيقور، أي

عن المذهب المادي في العصر اليوناني القديم. كانت هذه إذن الخطوة الأولى التي بدأ بها كل منهما في وضع الفلسفة الخاصة به.

: هل أصبح كيركجارد فيلسوفا وجوديا، وأصبح ماركس فيلسوفا مادياً؟

: أصبح مـاركس يعرف في تاريخ الفلسفة بأنه فيلسوف «مادي تاريخي». وسوف نصل إلى هذه النقطة ولكن لنعد إلى ما كنا فيه.

: استمر...

: انطلق كيركجار وماركس من فلسفة هيجل، إلا أن كلا منهما فعل هذا بطريقته الخاصة. فقد تأثر كلاهما بمنهج هيجل في التفكير ولكنهما رفضا فكرة «روح العالم»، التي تكلم عنها هيجل أو فلنقل أنهما رفضا «المثالية الهيجلية».

: هل بدت لهما فكرة شديدة الغموض؟

: نستطيع أن نقول بصفة عامة إن فترة النظم الفلسفية الكبرى قد انتهت مع هيجل. فبعد هيجل أخذت الفلسفة اتجاها جديدا تماماً. فبدلا من النظم الكبرى ظهرت فلسفات جديدة مثل فلسفة العمل أو الفعل. وهذا ما كان ماركس يقصده عندما قال «لقد اكتفى الفلاسفة حتى الآن بتفسير العالم في حين أن المطلوب هو تغييره». وكانت هذه العبارة بالتحديد نقطة تحول حاسمة في تاريخ الفلسفة.

: بعد أن قابلت سكروج والفتاة الفقيرة التي تبيع الثقاب لا أجد من الصعب أن أفهم ما يقصده ماركس.

: كان لتفكير ماركس إذن هدف عملي، أو سياسي. ويجب ألا ننسى أنه لم يكن فيلسوفا فحسب بل كان أيضاً مؤرخا، وعالم اجتماع، وعالم اقتصاد.

: وهل كان رائدا في هذه المجالات كلها؟

: ليس هناك على أي حال فيلسوف آخر قام بدور مؤثر كدور ماركس فيما يتعلق بتطبيق الفلسفة في المجال السياسي. إلا أننا ينبغي أن نحرص على التفرقة بين أفكار ماركس نفسه والتفسيرات التي تقدمها لتلك الأفكار المدارس التي تدعي الانتساب إلى الماركسية. وهذا أمر دفع ماركس لأن يؤكد أحيانا أنه ليس ماركسيا، قاصدا بذلك أن يميز أفكاره عن بعض التفسيرات التي أعطيت لها أو عن بعض القوالب التي صيغت فيها.

: وبالمناسبة، هل كان المسيح مسيحياً؟

: هذه أيضاً مسألة قابلة للنقاش.

: عظيم، استمر...

: وقد أسهم صديقه فريدريك إنجلز، منذ البداية، في صياغة ما أصبح يعرف بعد ذلك باسم «الماركسية». وفي القرن العشرين، أسهم أيضاً لينين وستالين وماو تسي تونج وغيرهم في صياغة الماركسية التي أصبح يشار اليها عادة بعد لينين باسم «الماركسية اللينينية».

: هل نستطيع أن نركز على ماركس نفسه؟ قلت أنه كان فيلسوفاً «مادياً تاريخياً»...

: هذا صحيح، إنه لم يكن فيلسوفا ماديا مثل الفلاسفة المؤمنين بنظرية الذرة في العصر اليوناني القديم، ولا مثل الفلاسفة المؤمنين بالمادية الميكانيكية الآلية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولكنه كان يعتقد أن الظروف المادية القائمة في المجتمع هي التي تحدد طريقة تفكيرنا، وان هذه الظروف هي العنصر الحاسم في التطور التاريخي.

: هذه مسألة مختلفة تماماً عن روح العالم التي تحدث عنها هيجل.

: كان هيجل يزعم أن التطور التاريخي ينشأ عن التوتر الحادث بين المتناقضات التي يتم حلها في لحظة معينة بتغير مفاجئ. وقد طو ر ماركس هذه الفكرة غير أنه نظر إليها نظرة مختلفة فقال إن «هيجل الطيب» قلب كل شيء وجعله يقف على رأسه.

: أرجو ألا يكون قد بقي طويلا في هذا الوضع العجيب.

: لقد سمى هيجل القوة التي تدفع التاريخ إلى الأمام روح العالم أو عقل العالم أو العقل الكلي. وكان ماركس يقول إن هذه النظرة للأمور تقلب كل شيء رأسا على عقب. وأراد أن يبين أن التغيرات التي تطرأ على الظروف المادية هي العنصر الحاسم في تحريك التاريخ. إن الظروف الروحية لا تخلق تغيرا ماديا إنما العكس هو الصحيح. فالتغير المادي يخلق ظروفا روحية جديدة. وأكد ماركس على أن القوى الاقتصادية

في المجتمع هي على وجه الخصوص التي تسبب التغير وتدفع بالتالي التاريخ إلى الأمام.

: هل لديك مثل يوضح هذا؟

: في العصر القديم لم يكن للفلسفة والعلم سوى غاية نظرية محضة. فلم يكن لدى المشتغلين بالفكر النظري اهتمام خاص بتحويل ثمار المعرفة إلى تحسينات تطبيقية الغرض منها تخفيف عبء العمل.

: حقاً؟

: ويرجع هذا إلى طريقة تنظيم الحياة الاقتصادية في المجتمع. فالانتاج كان يعتمد أساساً على عمل العبيد ولذلك لم يشعر المواطنون الأحرار بالحاجة إلى زيادة الانتاج عن طريق استنباط ابتكارات عملية. وهذا نموذج يوضح كيف أن العلاقات المادية تؤثر على التفكير الفلسفي في المجتمع.

: هذا واضح تماماً الآن.

: وقد أطلق ماركس على هذه الظروف المادية والاقتصادية والاجتماعية عبارة البنية التحتية للمجتمع. أما طريقة تفكير المجتمع، ونوع مؤسساته السياسية، وطبيعة قوانينه، والملامح الأساسية لدينه وأخلاقه وفنه وفلسفته وعلومه فقد أسماها ماركس البنية الفوقية للمجتمع.

: البنية التحتية والبنية الفوقية إذن.

: والآن أعطيني نموذج المعبد اليوناني.

: تفضل.

: هذا نموذج لمعبد البارثينون في الأكروبول. وقد رأيته في صورته الحقيقية الكاملة.

: تقصد في شريط الفيديو؟

: نعم. تستطيعين أن تري أن للمبنى سقفا أنيقا مزخرفا. ولعل السقف بواجهته المزينة هو أول ما يلفت النظر، وهذا ما نسميه «البنية الفوقية». ولكن هذا السقف لا يستطيع أن يحلق في الهواء.

: إنه يستند إلى الأعمدة.

:.إن المبنى يرتكز على أساس قوي، هـو «البنيـة التحتيـة»، الـتي ينهـض فوقهـا المبنى بأكمله. وبالمثل كان ماركس يعتقـد أن الظـروف والعلاقـات الماديـة هـي الـتي تنهض فوقها كل الأفكار والتصورات السائدة في المجتمع.

: هل أفهم من ذلك أن نظرية المثل لدى أفلاطون ليست سوى انعكاس لإنتـاج الخزف وزراعة الكروم في ذلك الوقت؟

: لا، ليست المسألة بهذه البساطة. وقد حذر ماركس نفسه من تفسـير نظريتـه بهذه الطريقة. إن هناك تفـاعلا مسـتمرا بـين البنيـة التحتيـة والبنيـة الفوقيـة في كـل مجتمع. ولو كان ماركس قد أنكر هذا التفـاعل لكـان مجـرد فيلسـوف «مـادي آلي» آخر. ولكن لما كان ماركس قد أخـذ في حسـبانه هـذا التفـاعل المتصـل، أي بعبـارة أخرى هذه العلاقة الجدلية بين البنية التحتية والبنية الفوقية فإننا نسميه أيضاً فيلسوفا ماديا جدليا. وبالمناسبة، لم يكن أفلاطون لا خزافا ولا زارع كروم.

: أنا أفهم قصدك الآن. هل لديك ما تضيفه عن المعبد؟

: نعم، انظري جيـدا إلى البنيـة التحتيـة الـتي يرتكـز عليهـا سـقف المبنـى، هـل تستطيعين أن تصفيها لي؟

: ترتكز الأعمدة على قاعدة تتألف من ثلاث درجات أو ثلاثة مستويات.

: وبنفس الطريقة نستطيع أن نميز ثلاثة مستويات في البنيـة التحتيـة للمجتمـع. المستوى القاعدي الأولي هو ما نسميه ظروف الإنتاج في المجتمع. أي بعبارة أخـرى، الظروف الطبيعية أو الموارد الطبيعية الموجودة في مجتمع ما. وأنا أقصد هنـا الظـروف المرتبطة بأشياء من قبيل المنـاخ أو المـواد الخـام. فهـذه هـي أسـاس أي مجتمـع، ومـن الواضح أن هذا الأساس يحدد نوع الإنتاج الذي يستطيع المجتمع أن يعمل بـه. وهـو يحدد بالتالي طبيعة ذلك المجتمع وثقافته بوجه عام.

: لا يمكن مثـلاً الاشـتغال بصيـد السـمك في الصحـراء ولا بزراعـة التمـور في النرويج.

: لقد فهمت قصدي تماماً. وبالتالي فإن الطريقة التي يفكر بها النـاس في مجتمـع بدوي تختلف عن الطريقة التي يفكر بها الناس في قريـة تعيـش علـى الصيـد بشـمال

الترويج. والمستوى الثاني من البنية التحتية هو وسائل الانتاج في المجتمع ويقصد بها ماركس مختلف أنواع المعدات والأدوات والآلات التي يستخدمها الناس في الانتاج.

: كان الناس يذهبون للصيد في قوارب صغيرة ذات مجدافين أما اليوم فإنهم يستخدمون سفن صيد ضخمة.

: نعم، ونصل الآن إلى المستوى الثالث من البنية التحتية للمجتمع وهو من يملك هذه السفن مثلاً أو غيرها من المعدات، أي من يملك وسائل الإنتاج. إن ملكية هذه الوسائل وبالتالي تقسيم العمل بين أفراد المجتمع، أي بين من يملكون هذه الوسائل ومن يعملون بها هو ما يسميه ماركس علاقات الإنتاج.

: أفهم ذلك.

: نستطيع أن نستنتج إذن أن أسلوب الإنتاج أو نمط الإنتاج في مجتمع ما هو الذي يحدد الظروف السياسية والجوانب الفكرية لذلك المجتمع. وليس من قبيل الصدفة إذا كنا نفكر اليوم بطريقة مختلفة إلى حد ما، وإذا كانت لنا معايير أخلاقية مختلفة إلى حد ما، بالقياس إلى المجتمع الإقطاعي القديم.

: لم يكن ماركس يؤمن إذن بأن هناك حقاً طبيعيا صالحا لجميع العصور.

: لا، كان ماركس يرى أن البنية التحتية لكل مجتمع هي التي تحدد ما هو صحيح من الوجهة الأخلاقية. فليس من الصدفة مثلاً أن يكون الأهل في المجتمع الزراعي القديم هم الذين يختارون أزواج أولادهم، فقد كان الأمر يتعلق بمن سيرث الأرض. أما في مدينة حديثة فإن العلاقات الاجتماعية أصبحت مختلفة. فاليوم يمكنك أن تقابلي زوجك المقبل في إحدى الحفلات وإذا كنتما متحابين ليس من الصعب عليكما أن تجدا مكانا تعيشان فيه، فالحرية المكتسبة في هذا المجال انعكاس للتحرر الاقتصادي ازاء الأهل في المجتمع الحديث.

: أنا لا أقبل أبدا أن يكون أهلي هم من يختارون الشخص الذي أتزوجه.

: وذلك لأنك ابنة عصرك يا صوفيا. كما أكد ماركس على أن الطبقة الحاكمة أو السائدة في مجتمع معين هي التي تحدد أساساً المعايير الأخلاقية للصواب والخطأ، أو الحق والباطل، وهي تنطلق في تحديد هذه المعايير من رغبتها في الحفاظ على مصالحها

ومركزها المسيطر. ولذلك فإن مسيرة التاريخ ليست سوى قصة الصراع بين الطبقات، أي الصراع على ملكية وسائل الانتاج.

: ولكن ألا تسهم أفكار الناس وتصوراتهم في تغيير التاريخ؟

: نعم ولا. لقد أدرك ماركس أن البنية الفوقية للمجتمع يمكن أن تؤثر في بنيته التحتية إلا أنه أنكر أن يكون تطور البنية الفوقية مستقلا عن تطور المجتمع. فإن ما حرك التطور التاريخي من المجتمع العبودي في العصر القديم وصولا إلى المجتمع الصناعي المعاصر هو في المقام الأول التغيرات التي حدثت في البنية التحتية في المجتمع.

: نعم، لقد قلت ذلك من قبل.

: وكان ماركس يعتقد أن جميع مراحل التاريخ قد تميزت بالصراع بين طبقتين اجتماعيتين. ففي المجتمع العبودي في العصر القديم كان هناك الصراع بين العبيد والمواطنين الأحرار. وفي المجتمع الإقطاعي في العصور الوسطى كان هناك الصراع بين الأقنان (عبيد الأرض) وملاك الأرض الإقطاعيين، ثم تلا ذلك الصراع بين طبقة النبلاء والطبقة الوسطى (أو البرجوازية). أما في عصر ماركس الذي وصف فيه المجتمع بأنه مجتمع رأسمالي أو برجوازي، أي المجتمع الذي تحكمه طبقة الرأسماليين أو الطبقة الوسطى التي أزاحت طبقة النبلاء وأصبحت هي الطبقة المسيطرة، فإن الصراع يقوم بين الرأسماليين والعمال (أو البروليتاريا). الصراع يقوم إذن بين من يملكون وسائل الإنتاج ومن لا يملكونه. ولما كانت «الطبقة الحاكمة» لا تريد أن تتنازل عن سلطتها وسيطرتها فإن التغيير لا يمكن أن يحدث إلا عن طريق الثورة.

: وماذا عن المجتمع الشيوعي؟

: كانت مشكلة الانتقال من المجتمع الرأسمالي إلى المجتمع الشيوعي مسألة اهتم بها ماركس اهتماماً شديدا. فأجرى تحليلا تفصيليا لأسلوب الإنتاج الرأسمالي. ولكن قبل أن نتناول هذا التحليل يجب أن نتكلم أولا عن رؤية ماركس للعمل الإنساني.

: تفضل، إني أسمعك.

: قبل أن يصبح ماركس الشاب شيوعيا كان مهتما بما يحدث للإنسان عندما يخوض تجربة العمل. وكانت هذه مسألة حللها هيجل أيضاً. فكان هيجل يرى، أن

هناك علاقة تفاعلية، أوعلاقة جدلية، بين الإنسان والطبيعة. فعندما يغير الإنسان الطبيعة فإنه يتغير بدوره، أو بعبارة أخرى، عندما يتدخل الإنسان في الطبيعة ويحولها فإن الطبيعة أو نوعية نشاط العامل تتدخل بدورها، في أثناء عملية العمل هذه، وتحول وعي الإنسان.

ـ قل لي ماذا تعمل أقل لك من أنت.

ـ هذا باختصار ما كان يريد ماركس أن يعبر عنه. إن طريقة عملنا تؤثر على وعينا، إلا أن وعينا يؤثر أيضاً على طريقة عملنا. يمكنك أن تقولي أن هناك علاقة تفاعلية بين «اليد» و«الوعي». إذ إن الطريقة التي تفكرين بها ترتبط ارتباطا وثيقا بالعمل الذي تؤدينه.

ـ لا بد إذن أن عدم العثور على عمل يعد تجربة قاسية محبطة.

ـ نعم، إن شخصا لا يعمل هو بمعنى ما شخص خاو فارغ، وهذا أمر كان هيجل قد استرعى إليه الإنتباه. كان العمل إذن، في رأي كل من هيجل وماركس، شيئا ايجابيا، شديد الارتباط بجوهر الإنسان.

ـ من الأمور الإيجابية إذن أن يكون الإنسان عاملا.

ـ نعم، هذا هو المفترض. ولكن في هذه النقطة بالتحديد وجه ماركس نقدا لاذعا لأسلوب الإنتاج الرأسمالي.

ـ وماذا كان هذا النقد؟

ـ في النظام الرأسمالي يشتغل العامل لحساب شخص آخر. إن نتاج عمله يصبح شيئا مستقلا عنه، أو شيئا لا ينتمي إليه. وبذلك يصبح العامل غريبا عن نتاج عمله وبالتالي غريبا عن نفسه أيضاً ويفقد من ثم الصلة بواقعه كإنسان. وعندما يصف ماركس هذه الحالة، يستخدم تعبيرا هيجليا، فيقول إن العامل قد أصبح «مغتربا»، ويصف العمل في المجتمع الرأسمالي بأنه اغتراب.

ـ احدى قريباتي تعمل في مصنع لتغليف الحلوى من أكثر من عشرين عاما، ولذا أفهم بسهولة ما تقصده. لقد قالت لي إنها تستيقظ كل صباح وهي تكره الذهاب إلى العمل.

ـ ولكنها إن كانت تكـره عملهـا ياصوفيـا فـلا بـد أن تنتهـي أيضـاً إلى كراهيـة نفسها بمعنى ما.

ـ إنها تكره الحلوى على أي حال.

ـ في المجتمع الرأسمالي، ينظم العمل بطريقـة تجعـل العـامل يشتغل كعبـد لصـالح طبقة اجتماعية أخرى. وبهـذه الطريقـة يتنـازل العـامل للرأسمـالي لا عـن قـوة عملـه فحسب بل وعن وجوده أيضاً كإنسان.

ـ هل الحالة فظيعة بهذه الدرجة؟

ـ إننا نتكلم عن ماركس، ولذلك يجب أن ننطلق من الظروف الاجتماعيـة التي كانت سائدة في منتصف القرن الماضي. وبالتالي فإن الرد على سؤالك يجب أن يكون نعم مع الأسف، لأن الظروف كانت بالفعل فظيعـة. فيوم العمـل كـان يمتـد أحيانـا لاثنتي عشرة ساعة في عنابر شديدة البرودة وكـان الأجـر منخفضـا جـدا ممـا اضطـر كثيراً من الأسر الفقيرة إلى دفع الأطفال بل والنساء الحوامل إلى سوق العمل التي لا ترحم فكانوا يكدحون كدحا مضنيا لساعات طويلة. وانتشر بؤس اجتماعي يجل عن الوصف. وفي أماكن كثيرة كان جزء من الأجور يدفع على هيئة خمر رخيصة رديئـة. وقاد هذا العوز القاسي بعـض النسـاء إلى ممارسـة البغـاء للحصـول علـى مـا يمسـك الرمق. أي باختصار إن ما كان يفترض فيه أن يرتقي بالإنسان ويكون مظهرا لسموه ونبله، وهو العمل، قد جرد الإنسان من آدميته والحط به إلى درك الكائن البهيمي.

ـ إنه أمر يدعو للسخط والغضب!

ـ ذلك كـان موقـف مـاركس أيضـاً. وفي هـذه الأثنـاء، كـان أبنـاء الرأسمـاليين يعزفون على الكمان في غرف فسيحة دافئة بعد حمام منعـش، أو يجلسـون إلى البيـانو في انتظار إعداد الولائم الفـاخرة. فالكمـان والبيـانو ينـاسبـان تمامـاً التسـلية في آخـر المساء بعد نزهة طويلة على ظهر حصان...

ـ هذا أمر فظيع! هذا ظلم شديد!

ـ كان ماركس سيتفق معك. ففي عام ١٨٤٨ أصدر هو وصديقه إنجـلز البيـان الشيوعي الذي تقول أول جملة فيه.. «إن شبحا يخيم على أوروبا شبح الشيوعية».

ـ هذا تصوير يثير الخوف.

ـ وقد أخاف الرأسماليين أيضاً. لأن العمال كانوا قد بدأوا يثورون. هل تحبين أن تسمعي خاتمة البيان الشيوعي؟

ـ نعم بكل سرور.

ـ «ليس لدى العمال ما يخسرونه سوى الأغلال وأمامهم عالم يفوزون به. ياعمال العالم اتحدوا!».

ـ إذا كانت الظروف رهيبة كما وصفتها فأعتقد أني كنت سأوقع على هذا البيان. لكن الحالة قد تغيرت اليوم كثيراً، أليس كذلك؟

ـ لقد تغيرت في النرويج نعم، ولكنها لم تتغير في كل مكان. فما زال كثير من الناس يعيشون في ظروف غير إنسانية وينتجون سلعا تزيد الرأسماليين غنى على غنى، وهذا ما يسميه ماركس الاستغلال، والاستغلال لدى ماركس ليس وصفا أدبيا إنه وصف اقتصادي بناه على نظريته المسماة «فائض القيمة».

ـ هل تستطيع أن تشرح لي هذه العبارة؟

ـ يستطيع الرأسمالي بامكانياته أن يشتري سلعة ذات طبيعة خاصة هي «قوة عمل» إناس آخرين: والثمن الذي يدفعه الرأسمالي مقابل هذه السلعة «الإنسانية» هو الأجر الذي يعطيه للعامل. ولكن العامل ينتج قيمة أكبر من قيمة أجره: وهذه القيمة الزائدة يحصل عليها الرأسمالي مجانا وماركس يسميها «فائض القيمة». وإذا طرحنا من فائض القيمة هذا أجر العامل وتكاليف الإنتاج الأخرى يتبقى «الربح». وهذا الربح الذي يحصل عليه الرأسمالي هو التعبير عن استغلاله للعامل.

ـ المسألة واضحة تماماً الآن.

ـ ويستطيع الرأسمالي الآن أن يستثمر جزءاً من ربحه على هيئة رأسمال جديد، في تحديث الآلات مثلاً، وهو يتوقع أن يؤدي ذلك إلى خفض تكاليف الإنتاج وبالتالي إلى زيادة أرباحه في المستقبل.

ـ هذا يبدو أمراً منطقياً من وجهة نظر الرأسمالي.

ـ نعم قد يبدو أمرا منطقيا. غير أن الأمور في هذا المجال وفي مجالات أخرى لن تسير في الأجل الطويل كما كان الرأسمالي يتمنى أو يتخيل.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ يعتقـد مـاركس أن هنـاك عـدداً مـن التناقضـات الكامنـة في صميـم اسـلوب الإنتاج الرأسمالي. فهو يرى أن الرأسمالية نظام اقتصادي يدمر نفسه بنفسه لأنه يفتقـر إلى رؤية رشيدة.

ـ أليس دماره هذا في مصلحة المستغَلين؟

ـ نعم في رأي ماركس. فهو يعتقد أن النظام الرأسمالي يحمـل في داخلـه العنـاصر المؤدية إلى دماره. ومن هذه الزاوية تعتبر الرأسمالية نظاماً «تقدميـاً» أي نظامـاً يتجـه نحو المستقبل، لأنه خطوة ضرورية على طريق الشيوعية.

ـ هل يمكن أن تعطيني مثلاً يوضح أن الرأسمالية تدمر نفسها بنفسها.

ـ لقد قلنا إن الرأسمالي يحقق ربحـا معينـا وأنـه يوظـف جـزءاً مـن هـذا الربـح في تحديث مصنعه.

ـ وبعد ذلك؟

ـ وهو يشتري آلات جديدة أكثر كفاءة فيحتاج بالتالي لعدد أقـل مـن العمـال، وهو يفعل ذلك لزيادة قدرته التنافسية في السوق.

ـ أتصور ذلك.

ـ إلا أنه ليس الوحيد الـذي يفكـر بهـذه الطريقـة، ممـا يعـني أن الإنتـاج ككـل ستزداد كفاءته وربحيته بصورة مستمرة. فتصبح المصانع أكبر فأكبر وتتركز في أيدي عدد أقل وأقل من الرأسماليين. فماذا سيحدث عندئذ يا صوفيا؟

ـ ماذا؟...

ـ يقل عدد العمال المطلوبين للعمـل وبالتـالي تزيـد البطالـة وتنتشـر المشـكلات الاجتماعية. وهذا النوع من الأزمات مؤشـر علـى أن الرأسماليـة تسـير نحـو نهايتهـا. على أن هناك عناصر أخرى تؤدي إلى تدمير النظام الرأسمالي لنفسه. فعندمـا تخصـص حصة متزايدة من الربح لتحديث وسائل الإنتاج دون أن تولد مع ذلك فائضاً يكفي لمواصلة الإنتاج بأسعار تنافسية يحدث...

ـ ماذا يحدث؟

ـ... نعم ماذا يحدث عندئذ يا صوفيا؟ هل تستطيعين أن تخبريني؟

ـ لست أدري حقاً.

ـ تخيلي أنك صاحبة مصنع وأنك لا تستطيعين تغطية مصروفاتك فتعجزين عن شراء المواد الخام التي تحتاجين اليها لمواصلة الإنتاج. إنك تواجهين في هذه الحالة خطر الافلاس. والآن أسألك: ماذا تفعلين لتحقيق بعض الوفورات؟

ـ ربما استطعت أن أخفض الأجور؟

ـ ذكية حقاً! نعم، تلك هي أذكى وسيلة يمكن أن تلجأي إليها. ولكن إذا كان كل الرأسماليين أذكياء مثلك، وتأكدي أنهم كذلك، فإن العمال سيزدادون فقرا إلى درجةيعجزون معها عن شراء السلع. إننا نسمي ذلك انخفاض القوة الشرائية. وعندئذ تركد السلع وتقل أرباح الرأسماليين. وندخل بذلك في حلقة مفرغة. وكان ماركس يرى في ذلك علامة على دنو أجل الملكية الخاصة الرأسمالية والاقتراب السريع من حالة ثورية.

ـ يبدو لي ذلك منطقياً.

ـ وكي لا أطيل عليك أقول إن العمال سينجحون أخيراً في الاستيلاء على وسائل الإنتاج.

ـ وما سيحدث بعد ذلك؟

ـ سيكون هناك لفترة من الزمن مجتمع طبقي جديد يسيطر فيه العمال على الرأسماليين بالقوة. وقد سمى ماركس هذا المجتمع ديكتاتورية البروليتاريا أو حكم العمال. ولكن بعد فترة انتقالية، ستزول ديكتاتورية البروليتاريا بدورها ويحل محلها «مجتمع غير طبقي»، هو ما يطلق عليه ماركس المجتمع الشيوعي الذي تصبح فيه وسائل الإنتاج مملوكة للجميع أي للشعب نفسه. والمبدأ الذي يقوم عليه هذا المجتمع الشيوعي هو «من كل حسب قدراته ولكل حسب حاجاته». فضلا عن ذلك، فإن العمل أصبح ينتمي الآن للعمال أنفسهم وبالتالي تزول ظاهرة الاغتراب المصاحبة للعمل في المجتمع الرأسمالي.

ـ كل هذا يبدو رائعا، ولكن... ما الذي حدث في الواقع؟ هل قامت الثورة حقاً؟

ـ نعم ولا. فاليوم يستطيع الاقتصاديون أن يؤكدوا أن ماركس قد أخطأ في عدد من القضايا الحيوية ليس أقلها تحليله لأزمات الرأسمالية. كما أنه لم يول اهتماماً كافياً لاستنزاف البيئة الطبيعية التي نواجه اليوم عواقبه الخطيرة. ولكن مع ذلك...

ـ نعم؟

ـ لقد أدت الماركسية إلى تحولات هائلة. ومما لا شك فيه أن الاشتراكية قد نجحت إلى حد بعيد في مكافحة الجوانب غير الإنسانية في المجتمع. فنحن نعيش في أوروبا على الأقل في مجتمع أكثر عدلا وتكافلا من المجتمع الذي عاش فيه ماركس. والفضل في هذا يرجع إلى ماركس نفسه وإلى الحركة الاشتراكية كلها.

ـ وكيف هذا؟

ـ بعد ماركس، انقسمت الحركة الاشتراكية إلى اتجاهين رئيسيين هما: الاشتراكية الديمقراطية، والماركسية اللينينية. فالاشتراكية الديمقراطية، التي تميل إلى السير نحو الاشتراكية بوسائل تدرجية وسلمية، انتشرت أساساً في أوروبا الغربية. وربما استطعنا أن نطلق على هذا الاتجاه الثورة البطيئة. أما الماركسية اللينينية التي تمسكت بفكرة ماركس القائلة إن الثورة هي السبيل الوحيد لمكافحة المجتمع الطبقي فقد كان لها نفوذ واسع في أوروبا الشرقية وآسيا وأفريقيا. وقد كافح كلا التيارين أشكال البؤس والقمع السائدة.

ـ ولكن ألم يولّد هذا أحيانا أشكالا جديدة من القمع كما حدث مثلاً في روسيا وأوروبا الشرقية؟

ـ لا جدال في هذا، ونحن نرى هنا مرة أخرى أن كل شيء يلمسه الإنسان يتحول إلى مزيج من الخير والشر. ومن جهة أخرى، لن يكون من المعقول تحميل ماركس كل الأخطاء والسلبيات التي وقعت، في البلدان التي تسمى البلدان الاشتراكية، بعد وفاته بخمسين عاما بل ومائة عام. لعل ماركس لم يفكر كثيراً في أن من المجتمع الشيوعي هم بشر في نهاية المطاف. والأرجح ألا ينجح الناس أبدا في إقامة الجنة على الأرض لأنهم سيخلقون دوما مشكلات جديدة.

ـ هذا أمر مؤكد.

ـ وبهذا نسدل الستار على ماركس يا صوفيا.

ـ انتظر لحظة! ألم تقل إن العدل لا يوجد إلا بين الأنداد؟

ـ لا، لست أنا من قال هذا بل سكروج.

ـ وكيف عرفت أنه قال ذلك؟

ـ إن لنا مؤلفاً واحداً يا صوفيا. والواقع أننا أوثق ارتباطا أنا وأنت مما قد يبدو للوهلة الأولى.

ـ ألن تكف عن تهكمك!

ـ لقد كان هذه المرة تهكماً مزدوجاً يا صوفيا!

ـ فلنعد إلى الحديث عن العدالة. لقد قلت إن ماركس كان يعتقد أن المجتمع الرأسمالي مجتمع غير عادل، فما هو المجتمع العادل في رأيك؟

ـ حاول فيلسوف أخلاقي تأثر بماركس يدعى جون راويلس أن يعطي تعريفاً للمجتمع العادل مستعيناً بالمثل التالي: تخيلي أنك عضو في هيئة تشريعية منوط بها وضع جميع القوانين لمجتمع المستقبل.

ـ لن أمانع على الإطلاق في الاشتراك في هذه الهيئة.

ـ وكان أعضاء الهيئة مضطرين لأن يدرسوا كل أنواع العلاقات والظروف لأنهم بمجرد أن يتوصلوا إلى اتفاق ويصدقون عليه سيموتون من فورهم.

ـ ما أفظع هذا...

ـ غير أنهم سيبعثون على الفور مرة أخرى في المجتمع الذي وضعوا قوانينه بأنفسهم. ولكن النقطة هي أنهم لا يعرفون أي موقع سيشغلون في المجتمع الجديد.

ـ أفهم الآن.

ـ ذلك المجتمع سيكون مجتمعاً عادلاً لأن من تصوروه أنداد متساوون.

ـ وهل سيكون عادلاً بالنسبة للنساء؟

ـ هذا غني عن البيان. فلا يعرف أحد إن كان سيبعث رجلاً أو امرأة. ولما كان الاحتمالان قائمين بنسبة متساوية فلا بد أن يكون هذا المجتمع عادلا بالنسبة للرجال والنساء على السواء.

ـ هذه صورة جذابة حقاً.

ـ أجيبيني الآن: هل كانت أوروبا في عصر كارل ماركس مجتمعاًمن هذا النوع؟

ـ لا بالتأكيد!

ـ فهل تستطعين أن تدليني على مجتمع من هذا النوع يوجـد اليـوم في أي مكـان في العالم؟

ـ هذا سؤال يحتاج إلى تفكير...

ـ فكري فيه إذن. إن الفصل الخاص بماركس قد انتهى الآن.

ـ ماذا قلت؟

ـ فصل جديد!

الفصل الثلاثون

داروين

... سفينة تخوض في بحر الحياة

حاملة شحنتها من الجينات...

في صباح الأحد استيقظت هيلد على صوت ارتطام مفاجئ: لقد وقع ملفها على الأرض. كانت مستلقية في سريرها تقرأ حديث صوفيا وألبرتو عن ماركس ثم غلبها النعاس. وظل المصباح المجاور لسريرها مضاء طول الليل. وبجانب المصباح، رأت هيلد الأرقام الخضراء للمنبه الصغير تشير إلى ٥٩: ٨.

كانت تحلم بمصانع ضخمة ومدن ملوثة، وفتاة صغيرة تجلس في ركن الطريق تبيع علب ثقاب، ويمر أمامها رجال ونساء يرفلون في معاطف أنيقة طويلة دون أن يعيروها التفاتا.

عندما نهضت هيلد من سريرها تذكرت أعضاء هذه الهيئة التشريعية الذين يستيقظون في مجتمع صاغوه بأنفسهم. وكانت هيلد سعيدة لأنها استيقظت في باركلي على أي حال.

أكانت ستجرؤ على فتح عينيها إن لم تكن واثقة من أنها تستيقظ في موقع محدد تعرفه؟

لكن المسألة ليست فقط في أي موقع تفيق. أكان يمكن أن تستيقظ مثلاً في عصر آخر تماماً؟ في العصور الوسطى مثلاً، أو في العصر الحجري قبل عشرة آلاف أو عشرين ألف عام؟ حاولت هيلد أن تتخيل نفسها جالسة أمام مدخل كهف تنظف جلد أحد الحيوانات. كيف ستكون حياة فتاة في الخامسة عشرة من عمرها قبل ظهور أي شيء يمكن أن يطلق عليه اسم الحضارة؟ وما الذي كان يمكنها أن تفكر فيه؟

ارتدت هيلد صدارة خفيفة وأخذت الملف من الأرض وجلست في سريرها وواصلت القراءة.

ما كاد ألبرتو ينطق عبارة «فصل جديد!» حتى سمعا طرقا على باب الشاليه. فقالت صوفيا:

ـ لا أعتقد أن أمامنا أي خيار.

ـ فغمغم ألبرتو قائلا:

ـ كلا، لا أعتقد.

كان يقف على عتبة الباب رجل عجوز هرم أبيض الشعر ذو لحية طويلة. وكان يمسك بإحدى يديه عصا يتوكأ عليها ويحمل في الأخرى لوحة تصور باخرة عتيقة مزدحمة بكل أنواع الحيوانات. سأله ألبرتو:

ـ ومن أنت أيها العجوز الطيب؟

ـ إني جدك دوح، من الذين نجوا على سفينة نوح.

ـ لقد خمنت هذا.

ـ أنا جدك الأكبر يا بني. يبدو أن الناس لم تعد تعرف أسلافها هذه الأيام.

وسألته صوفيا:

ـ وما الذي تحمله في يدك أيها الجد الطيب؟

ـ هذه صورة جميع الحيوانات التي نجت من الطوفان، خذيها يا ابنتي إنها لك.

أخذت صوفيا الصورة الكبيرة، وقال لها الشيخ العجوز:

ـ لا بد أن أعود الآن لأروي بستان الكروم...

قال الشيخ هذا ومضى في خطوة متئدة نحو الغابة.

عادت صوفيا وألبرتو إلى مجلسهما، وبدأت صوفيا تتطلع إلى اللوحة ولكنها ما لبثت أن استغرقت تماماً في تتبع تفاصيلها، وعندئذ انتزعها ألبرتو من يديها قائلا:

ـ فلنركز أولا على الخطوط العريضة.

ـ اتفقنا! تفضل...

ـ نسيت أن أذكر لك أن ماركس عاش آخر ٣٤ سنة من حياته في لندن. إذ انتقل إليها في عام ١٨٤٩ ومات هناك في عام ١٨٨٣. وفي تلك الفترة كان *شارلز داروين* يعيش في إحدى ضواحي لندن. وقد مات داروين في ١٨٨٢ ودفن في احتفال مهيب بكنيسة وستمينستر بوصفه واحداً من أبناء إنجلترا العظام. عاش ماركس وداروين إذن في مدينة واحدة في نفس الفترة، لكن طريقيهما تقاطعا بطريقة أخرى: إذ أراد ماركس أن يهدي داروين الطبعة الإنجليزية من كتابه الرئيسي *رأس المال*، إلا أن داروين اعتذر عن قبول هذا التكريم. وعندما مات ماركس، بعد عام واحد من وفاة داروين، لخص فريدريك إنجلز المجاز صديقه ماركس بقوله: مثلما اكتشف داروين قوانين التطور العضوي للطبيعة، اكتشف ماركس قوانين التطور التاريخي للبشرية.

ـ استمر...

ـ وهناك مفكر كبير آخر ربط أيضاً مكتشفاته بمكتشفات داروين هو عالم النفس *سيجموند فرويد* الذي أمضى بدوره آخر سنوات حياته في لندن، ولكن ذلك كان بعد وفاة داروين وماركس بنحو خمسين عاما. إذ قال فرويد إن نظرية داروين في التطور ونظريته هو في التحليل النفسي قد جرحتا الإنسان في كبريائه الساذج.

ـ هذه أسماء كثيرة في نفس الوقت، هل نحن نتحدث عن ماركس، أو داروين، أو فرويد؟

ـ نستطيع أن نتحدث بوجه عام عن *المذهب الطبيعي*، الذي ظهر في منتصف القرن التاسع عشر وظل مستمرا لفترة غير قليلة في القرن العشرين. ونحن نقصد «بالمذهب الطبيعي» التصور الذي لا يعترف بوجود أي واقع آخر خارج الطبيعة أو خارج العالم الذي ندركه بحواسنا. والمؤمن بالمذهب الطبيعي يعتبر الإنسان إذن جزءا من الطبيعة ولا ينطلق في أبحاثه وأفكاره إلا من الوقائع والظواهر الطبيعية، لا من افتراضات أو مسلمات عقلانية ولا من أي شكل من أشكال الوحي الإلهي.

ـ وهل هذا ينطبق على ماركس وداروين وفرويد؟

ـ بكل تأكيد، فقد أشار ماركس إلى أن أفكار الإنسان وتصوراته نتاج للبنية التحتية للمجتمع. وأظهر داروين كذلك أن البشرية هي نتاج تطور بيولوجي بطيء، كما أوضح فرويد بدوره أن أعمال الإنسان نتاج لغرائز بيولوجية أو لدوافع لاواعية. لقد كانت الكلمات المحورية التي أخذت تشيع وتتردد من منتصف القرن الماضي هي «الطبيعة» و «البيئة» و «التاريخ» و «التطور» و «النمو».

ـ أعتقد أني أفهم ما تقصده بالمذهب الطبيعي، ولكن أليس من الأفضل أن نتكلم عن كل شخص على حدة؟

ـ لقد تكلمنا عن ماركس، والآن سنتكلم عن داروين يا صوفيا. ولعلك تذكرين أن الفلاسفة السابقين على سقراط كانوا يحاولون التوصل إلى *تفسيرات طبيعية* للعمليات أو الظواهر التي تحدث في الطبيعة. ومثلما كان عليهم أن يتحرروا من التفسيرات الأسطورية القديمة، كان على داروين أن يتحرر من تصورات الكنيسة عن خلق الإنسان والحيوان.

ـ وهل كان داروين فيلسوفا حقيقيا؟

ـ كان داروين عالما في الأحياء وباحثا في العلوم الطبيعية. إلا أن اكتشافاته كانت لها انعكاسات فكرية هائلة. ويمكننا أن نقول إنه استكمل الثورة العلمية التي استهلها كوبرنيكِ وجاليليو ونيوتن والتي قادت إلى نشأة العلوم الحديثة. فقد أثبت هؤلاء العلماء أن العالم المادي تحكمه قوانين الطبيعة. ثم جاء داروين وأثبت أن عالم الكائنات الحية يخضع بدوره لحكم قوانين طبيعية معينة. ومثلما بددت ثورة كوبرنيك التصور القديم عن مركزية الارض ومكانتها المتميزة في الكون، فإن اكتشافات داروين قد تحدت الرؤية الواردة في الكتاب المقدس عن مكانة الإنسان في الخليقة.

ـ فلتحدثني إذن عن نظرية التطور التي وضعها داروين.

ـ فلنبدأ بالحديث عن داروين نفسه. لقد ولد في عام ١٨٠٩ في مدينة شروزبري الصغيرة. وكان والده الدكتور روبرت داروين طبيبا شهيرا وكان بالغ الصرامة في تنشئة ابنه. وعندما كان شارلز تلميذا في مدرسة شروزبري الإعدادية وصفه ناظر المدرسة بأنه صبي دائم التجوال والتسكع، يتحدث في أشياء لا معنى لها دون أن يفعل شيئا مفيدا. وكان الناظر يقصد بالشيء «المفيد» حفظ الأفعال

اليونانية واللاتينية. اما «التجوال والتسكع» فكان يقصد بهما ولع شارلز بـالطواف في الخلاء لجمع أنواع شتى من الخنافس والحشرات.

ـ لا بد أن هذا الناظر قد ندم على ما قال.

ـ والتحق داروين بجامعة كمبريدج لدراسة الطب ولكنه ترك دراسته بعد سنتين نفورا من العمليات الجراحية التي تجرى دون تخدير. ولم تكن جامعة كمـبريدج تمنـح في ذلك الحين درجة علمية في العلوم الطبيعة، فألحقه والده بكليـة اللاهـوت. ولكـن اهتمامه بمراقبة الطيور وجمع الحشرات كان أكبر من اهتمامـه بـاللاهوت، ولذلـك لم تكن درجاته في دراسة اللاهوت بأفضل من درجاته إبان دراسة الطب. إلا أن صيتـه كان قد ذاع، حتى قبل تخرجه، بوصفه عالما طبيعيا. وأظهر داروين اهتماماً شـديداً بالجيولوجيا التي كانت من العلوم التي أحرزت تقدما هائلا في تلـك الفـترة. ولذلـك فإنه ما إن أنهى دراسة اللاهـوت في جامعـة كمـبريدج في أبريـل (نيسـان) ١٨١٣، حتى ذهب إلى شمال ويلز لدراسـة تكويـن الصخـور، وللبحـث عـن الحفريـات. وفي أغسطس (آب) من نفس السنة تلقى داروين، وعمره اثنان وعشـرون عامـا، رسـالة غيرت مسار حياته كلها...

ـ وماذا كانت تقول هذه الرسالة؟

ـ كانت رسالة بعث بها إلى داروين صديقه وأستاذه *جون ستيفن هنزلو* وقـال فيها: «لقد طلب مني... أن أرشح باحثا في العلوم الطبيعية ليرافق القبطان فيـتزروي في رحلة كلفته بها الحكومة لرسم خريطة للسواحل الجنوبية لأمريكا الجنوبيـة. وقـد قلت إنني أعتبرك أكفأ شخص أعرفه لأداء هذه المهمة. أما بخصوص الأجر فلا أعلـم عنه شيئا. ومن المنتظر أن تدوم الرحلة سنتين...».

ـ كيف تتذكر كل هذا وتحفظه عن ظهر قلب؟

ـ إنها حيلة بسيطة يا صوفيا.

ـ وماذا كان رد داروين؟

ـ كان يتوق بكل قواه إلى اغتنام هـذه الفرصـة، إلا أن الشـباب كـانوا في تلـك الأيام لا يفعلون شيئا دون موافقة آبائهم. وبعد مناقشات مضنيـة، وافـق أبـوه علـى سفره بل وعلى تمويل رحلته، فقد تبين أن «الأجر» لم يكن أمرا مطروحا أصلا.

- حقاً؟

- كانت السفينة إحدى قطع البحرية الانجليزية وتسمى *بيجل*، وقد أبحرت من ميناء بلايموث يوم ٢٧ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٨١٣ قاصدة أمريكا الجنوبية، ولكنها لم ترجع إلا في أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٨٣٦. أي أن الرحلة التي كان يفترض أن تستمر سنتين طالت إلى خمس سنوات. والرحلة التي كان يفترض أن تقتصر على أمريكا الجنوبية تحولت إلى رحلة حول العالم. ونحن نتكلم الآن عن واحدة من أهم الرحلات الاستكشافية العلمية في العصر الحديث.

- وهل حقاً أبحروا حول العالم؟

- نعم بالمعنى الحرفي. فمن أمريكا الجنوبية عبروا المحيط الهادي إلى نيوزيلندا فأستراليا فجنوب أفريقيا. ثم أبحروا مرة أخرى قاصدين أمريكا الجنوبية قبل أن يعودوا إلى إنجلترا. وقد كتب داروين أن رحلته على متن السفينة بيجل كانت بلا شك أهم حدث في حياته.

- وهل كان من السهل عليه إجراء أبحاث في العلوم الطبيعية وهو في عرض البحر؟

- في السنوات الأولى، أبحرت السفينة بيجل حول سواحل أمريكا الجنوبية صعودا وهبوطا، مما أتاح لداروين الفرصة للتعرف على سواحل هذه القارة وكذلك على مناطقها الداخلية. والرحلات الاستكشافية الكثيرة التي قام بها إلى جزر جلاباجوس الواقعة في المحيط الهادي غربي أمريكا الجنوبية كانت لها أهمية حاسمة لأبحاثه. إذ أتاحت له أن يجمع عينات بيولوجية وجيولوجية وفيرة وأن يرسلها تباعا إلى إنجلترا. غير أنه احتفظ لنفسه بالأفكار العديدة التي كانت تدور في رأسه عن الطبيعة وتاريخ الكائنات الحية. وعندما عاد إلى بلده كان قد أصبح بالفعل باحثا ذائع الصيت وعمره لا يتجاوز سبعة وعشرين عاما. وكان لدى داروين آنذاك فكرة واضحة عما سيصبح فيما بعد نظريته في التطور. ولكنه لم ينشر مؤلفه الرئيسي إلا بعد عودته بسنوات طويلة، لأن داروين كان رجلاً حذرا في استنتاجاته، كما يليق بعالم حقيقي.

- وما كان كتابه الرئيسي هذا؟

ـ نشر داروين أكثر من كتاب هام، إلا أن الكتاب الذي أثار أعنف المناقشات في إنجلترا كان أصل الأنواع، الذي صدر في عام ١٨٥٩. وكان عنوانه الكامل هو *في أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي، أو استمرار أصلح السلالات في الصراع من أجل البقاء*. وهذا العنوان الطويل يلخص في الواقع نظرية داروين كلها.

ـ من الواضح أنه قال أشياء كثيرة في عنوان واحد.

ـ فلنتناول نحن ما قاله مسألة مسألة. لقد طرح داروين في كتاب أصل الأنواع نظريتين أو فرضيتين رئيسيتين: الأولى، أن كل الأشكال النباتية والحيوانية الموجودة تنحدر من أشكال أبسط وأقدم، مما يعني انها خضعت لعملية تطور بيولوجي. والثانية، أن هذا التطور حدث نتيجة *الانتخاب الطبيعي*.

ـ لأن الأصلح هم من نجحوا في البقاء كما يفهم من العنوان؟

ـ هذا صحيح، ولكن دعينا نركز أولا على فكرة التطور. إن هذا المفهوم لم يكن في حد ذاته مفهوما جديدا مبتكرا. فإن فكرة التطور البيولوجي كانت قد بدأت تنتشر على نطاق واسع في بعض الدوائر العلمية منذ مطلع القرن التاسع عشر. وكان من أهم المدافعين عن هذه الفكرة عالم الحيوان الفرنسي لامارك. بل حتى قبل *لامارك* كان جد داروين نفسه، *إراسموس داروين*، قد طرح فكرة تقول إن النباتات والحيوانات قد تطورت انطلاقا من بعض الأنواع البدائية القليلة. ولكن لا لامارك ولا جد داروين قد تمكنا من تفسير كيف حدث هذا التطور. ولذلك لم يعتبرهما رجال الكنيسة عدوين خطيرين.

ـ على عكس شارلز داروين؟

ـ نعم، ومن السهل فهم السبب. إذ كان رجال الكنيسة وعديد من العلماء يتمسكون برؤية الكتاب المقدس التي تقول إن الأنواع النباتية والحيوانية المختلفة ذات طبيعة ثابتة لا تتغير، فكل نوع من الأنواع النباتية والحيوانية قد خلق بصورة مستقلة ونهائية بعملية خلق خاصة به وحده. وعلاوة على ذلك، كانت هذه الرؤية المسيحية تتفق مع أفكار أفلاطون وأرسطو.

ـ وكيف هذا؟

ـ كانت نظرية أفلاطون عن عالم المثل تفترض أن جميع الأنواع الحيوانية ثابتة لأنها خلقت وفقا لقوالب المثل أو الأشكال الخالدة. كما كان ثبات الأنواع الحيوانية من الأفكار الجوهرية في فلسفة أرسطو. فسلم تصنيف الطبيعة لدى ارسطو لا يقوم على فكرة التطور، بل هو سلم مستقر على حالة واحدة، كل جنس فيه قائم بذاته ولا ينتج إلا ذاته. أي هو سلم وصفي تصنيفي للكائنات الحية حسب درجة تعقدها. ولكن في عصر داروين أخذت تسجل بعض الملاحظات وتظهر بعض الاكتشافات التي شككت في صحة هذا التصور التقليدي.

ـ وما كانت هذه الملاحظات والاكتشافات؟

ـ كان هناك أولا العثور على عدد متزايد من الحفريات وعلى بقايا عظام حيوانات منقرضة.

ـ وما هي الحفريات؟

ـ عندما يموت كائن حي فان جسمه يفترس بواسطة كائنات حية أخرى أو يتحلل بواسطة عوامل الجو. ولكن يحدث في حالات نادرة أن تحفظ بعض أجزاء الجسم ولا سيما الأجزاء الصلبة مثل الأصداف والأسنان والعظام لأنها تكون قد طمرت في الطين مثلاً أو نجت بأي شكل آخر من الكائنات المفترسة أو من عوامل الجو. ثم قد يحدث في نهاية المطاف أن تتحجر أجزاء الجسم هذه وتحفظ كما هي دون تغيير داخل الصخور فترقد فيها لأزمان بالغة الطول. هذه هي الحفريات ياصوفيا.

ـ وما أهمية تلك الحفريات؟

ـ اذا قسنا عمر الصخور التي توجد فيها الحفريات استطعنا أن نعرف تاريخ وجود كائنات معينة. وتباين عمر الصخور يسمح لنا بتتبع تطور الكائنات الحية أو انتقالها من شكل لآخر عبر الزمن. انها أشبه بصورة فوتوغرافية سجل عليها التاريخ.

ـ استمر...

ـ وكان مما أدهش داروين نفسه أنه عثر في انجلترا على بقايا حيوانات بحرية في مناطق مرتفعة داخل اليابسة. كما وجد في أمريكا الجنوبية حفريات مماثلة في جبال

الأنديز مثلاً. فما الذي يفعله حيوان بحري على قمة جبال الأنديز يا صوفيا؟ هل تستطيعين أن تقولي لي؟

ـ لا للأسف.

ـ كان البعض يتصورون أنها أ لقيت في تلك الأماكن من جانب الإنسان أو تركت هناك من جانب بعض الحيوانات. وكان البعض الآخر يؤمنون بأن ا لله خلق حفريات هذه الحيوانات البحرية وبقاياها ليضلل غير المؤمنين ويحيرهم.

ـ وماذا كان رأي العلماء؟

ـ كان معظم الجيولوجيين يعتقدون في «نظرية الكوارث الطبيعية»، التي تقول إن الأرض قد تعرضت لفيضانات هائلة وزلازل مدمرة وكوارث طبيعية أخرى دمرت كل أشكال الحياة. ويصف الكتاب المقدس إحدى هذه الكوارث الطبيعية عندما يروي قصة الطوفان وسفينة نوح. وبعد كل كارثة تقع، كان ا لله يجدد الحياة على الأرض ويخلق أنواعا نباتية وحيوانية جديدة أكثر كمالا.

ـ هل كانت الحفريات إذن آثارا لأشكال حياة سابقة قضت عليها هذه الكوارث الطبيعية العنيفة؟

ـ بالضبط. كانت الحفريات هي «الطبعات» أو الآثار التي تركتها على الصخور الحيوانات التي لم تنجح في ركوب سفينة نوح. إلا أن داروين عندما أبحر على متن السفينة بيجل كان يحمل معه الجزء الأول من كتاب *مبادئ الجيولوجيا* الذي وضعه الجيولوجي الإنجليزي *شارلز ليل*. وكان ليل يعتقد أن الجيولوجيا الحالية للأرض، بجبالها ووديانها، هي ثمرة تطور طويل وتدرجي لم ينقطع. وكانت الفكرة الجوهرية في تصور ليل هي أن ذلك حدث بسبب تغيرات تبدو صغيرة ضئيلة إلا أنها قد تسبب اضطرابات جيولوجية كبيرة إذا نظرنا إليها من منظور زمني بالغ الطول.

ـ وما هذه التغيرات التي كان يقصدها؟

ـ كان يفكر في نفس العوامل التي تسود اليوم مثل: الرياح والطقس، وذوبان الجليد، والزلازل، وارتفاع الأرض في بعض المواقع. هل سمعت المثل الذي يقول «إن قطرة الماء تبلي الحجر»؟ إن قطرة الماء تفعل ذلك لا لقوة اندفاعها بل لتوالي سقوطها حتى ولو بوقع واهن ضعيف. وكان ليل يعتقد أن التغيرات الضئيلة

والتدريجية التي تحدث على مدى عصور طويلة يمكن أن تغير الطبيعة تماماً. وبرغم أن هذه النظرية لا تستطيع أن تفسر وحدها لماذا وجد داروين بقايا الحيوانات البحرية على قمم جبال الأنديز، فانها أوحت إليه بالفكرة التي تقول إن التغيرات الضئيلة التدريجية يمكن أن تسبب تحولات ضخمة إذا أتيح لها الزمن الكافي.

- لا بد أنه فكر في إمكانية استخدام نفس التفسير لفهم تطور الحيوانات.

- نعم، كان هذا ما فكر فيه. إلا أن داروين كان، كما قلت لك من قبل، رجلاً حذرا. فكان يطرح السؤال ولكنه يفكر طويلا قبل أن يجرؤ على الاجابة عنه. وبهذا المعنى استخدم داروين نفس منهج جميع الفلاسفة الحقيقيين: فمن المهم طرح السؤال ولكن يجب عدم التعجل في الإجابة عنه.

- أفهم ذلك.

- وكان من العوامل الحاسمة في نظرية ليل تقديره لعمر الأرض بمدى زمني بالغ الطول، خلافا للرأي الشائع في عصر داروين. إذ كان التصور التقليدي يفترض أن الله قد خلق الأرض من نحو ٦٠٠٠ عام، وقد تم التوصل إلى هذا الرقم بجمع عدد الأجيال التي تعاقبت منذ آدم وحواء.
- يا له من تصور ساذج!

- من السهل توجيه النقد بعد معرفة الحقيقية. أما داروين فكان يقدر عمر الأرض بنحو ٣٠٠ مليون سنة. على أي حال، كان هناك أمر واضح وهو أنه لا نظرية ليل عن التطور الجيولوجي التدريجي ولا نظرية داروين ذاته عن التطور الطبيعي يمكن أن يكون لهما أي معنى إذا لم نأخذ في اعتبارنا فترات زمنية بالغة الطول.

- وما عمر الأرض؟

- إننا نعرف اليوم أن عمر الأرض هو ٤,٦ مليار سنة.

- اعتقد أن هذه فترة كافية لنظرية داروين...

- لقد أشرنا حتى الآن إلى إحدى الحجج التي استند إليها داروين في نظريته عن التطور البيولوجي، وهي وجود *صلة* بين شكل الحفرية أو مستوى تطورها من جهة وعمر التكوينات الصخرية التي توجد بها من جهة أخرى. فقد اتاحت له هذه

الملاحظة أن يستنتج أن الكائنات الحية ليست ثابتة وانما تتغير على مر الزمن. وكان من حجج داروين الأخرى *التوزيع الجغرافي* للأنواع الحية. الذي سمح له بأن يتبين أيضاً عدم ثبات الكائنات الحية بل اختلافها من مكان لمكان. وقد أتاحت له رحلته العلمية أن يجمع مواد وبيانات جديدة وشديدة التنوع عن هاتين الحقيقتين: أي عن تباين الكائنات الحية في الزمان وفي المكان. واستطاع داروين بهذه الطريقة أن يرى رأي العين كيف تختلف بعض أفراد نوع حيواني واحد تعيش في نفس المنطقة عن بعضها الآخر في تفصيلات طفيفة ضئيلة. وسجل داروين في هذا الصدد بعض الملاحظات المثيرة، وخاصة في جزر جلاباوس التي تقع غربي إكوادور.

ـ فما كانت هذه الملاحظات؟

ـ جزر جلاباجوس مجموعة متجاورة من الجزر البركانية. ولذلك لا تلاحظ فروق كبرى في الأنواع النباتية والحيوانية التي تعيش فيها. إلا أن داروين اهتم بالتحديد بملاحظة الفروق الضئيلة الطفيفة. فوجد في كل الجزر سلاحف ضخمة تختلف اختلافا طفيفا من جزيرة لأخرى. فهل خلق ا لله حقاً سلالة مختلفة لكل جزيرة من الجزر؟

ـ سؤال يستحق البحث.

ـ كما كانت ملاحظات داروين لحياة الطيور في جزر جلاباجوس أكثر إثارة للدهشة. فقد درس نوعا من العصافير المغردة تعرف باسم «الشرشور»، فلاحظ وجود اختلافات طفيفة فيما بينها من جزيرة لأخرى وخاصة في شكل المنقار. وأثبت داروين أن هناك علاقة بين شكل المنقار ونوع الطعام الموجود على كل جزيرة. فالعصفور ذو المنقار المدبدب يقتات على الحبوب الموجودة في ثمار الصنوبر، والعصفور ذو المنقار الرفيع الدقيق يقتات على الحشرات، والعصفور ذو المنقار السميك يقتات على النمل الموجود في جذوع الأشجار وأغصانها. كل نوع إذن كان له منقار متكيف تماماً مع نوع غذائه. فهل كل هذه العصافير تنحدر من نوع واحد أخذ يتكيف على مر الزمن مع البيئة المختلفة في كل جزيرة بحيث تطور في كل جزيرة نوع جديد من هذا الطائر؟

ـ هل كان هذا هو الاستنتاج الذي وصل إليه؟

ـ نعم، كما لاحظ أن الحيوانات الـتي تعيـش في هـذه الجـزر يجمعهـا شـبه قـوي بأنواع كثيرة رآها في أمريكا الجنوبية. فهل خلق الله حقاً هذه الحيوانات وكل منهـا يختلف اختلافا طفيفا عن الآخـر أم ان هـذا الاختـلاف الدقيـق حـدث نتيجـة تطـور طبيعي؟ كما أن هناك حجة أخرى تثبت أن جميع الحيوانات الثديية تنحدر مـن أصـل مشترك وتربط بينها صلات وثيقة.

ـ وما هي تلك الحجة؟

ـ إنها تتعلق بتطور الجنين في الثدييات. فإذا قـارنت أجنـة الكلـب، والوطـواط، والأرنب، والإنسان في مرحلة مبكرة لوجدت أن بينها شبها قويا، وأن من الصعوبـة بمكان تمييز جنين أحدها عن الأجنة الأخرى. فلن تستطيعي تمييز جنـين الإنسـان عـن جنين الأرنب مثلاً إلا في مرحلة متأخرة، أفلا يشـكل هـذا دليـلا علـى وجـود قرابـة بعيدة؟

ـ لقد قال داروين ان تطورا قد حدث في الكائنات الحية، لكن كيف حدث هذا التطور؟

ـ هذه مسألة حيرت داروين طويلا، اذ كان يسعى إلى اكتشـاف القـانون العـام الذي يحكم هذا التطور. وظلت تلح على ذهنه نظرية ليل عن التغيرات الطفيفة الـتي يمكن أن تسفر عن تأثير كبير على امتداد فترة طويلة من الزمـن. كمـا كـان داروين يعرف نظرية عالم الحيوان الفرنسي لامارك الذي زعم أن الأنواع المختلفة قد طورت الصفات التي تحتاجها. فالزرافة مثلاً قد طورت الرقبة الطويلة لأنها ظلت على مـدى أجيال عديدة تمد رقبتها للوصول إلى أوراق الأشجار المرتفعة. وكـان لامـارك يعتقـد أن الصفات التي يكتسبها كل فرد بجهده الخاص تنتقل إلى الجيل التالي. لكن داروين رفض هذه النظرية الخاصة بوراثـة «الصفـات المكتسبـة» لأن لامـارك لم يقـدم دليـلا يثبت به نظريته الجريئة هـذه. غير أن داروين كـان يفكـر أيضـاً في مسألة أخرى: ويمكننا أن نقول إن الآلية الفعلية الكامنة وراء تطور الأنواع كانت قائمة هناك أمـام عينيه مباشرة.

ـ إني أتوق لمعرفة ما ترمي إليه!

ـ أفضل أن تكتشفي أنت بنفسك هذه الآلية. ولذلك أسألك السؤال التالي: إذا كان لديك ثلاث أبقار ولكن ما عندك من أعلاف لا يكفي إلا لإطعام اثنتين منها فماذا تفعلين في هذه الحالة؟

ـ أعتقد أني مضطرة لذبح واحدة منها.

ـ وأي بقرة ستذبحين؟

ـ أعتقد أني سأذبح أقلها إدرارا للبن.

ـ حقاً؟

ـ نعم، إن هذا يبدو منطقيا، ألا تتفق معي في ذلك؟

ـ وهذا هو بالتحديد ما فعله الناس على امتداد آلاف السنين. ولنعد الآن إلى البقرتين اللتين بقيتا عندك. لنفترض أنك تريدين أن تنتجي عجولا من إحداهما فأيهما ستختارين أو تنتخبين؟

ـ أكثرهما إدرارا للبن، فبذلك يكون مولودها مدرا جيدا للبن على الأرجح.

ـ أنت تفضلين إذن الأبقار الأكثر إدرارا للبن على غيرها. والآن أسألك سؤالا ثانيا: إذا ذهبت للصيد وكان لديك كلبا صيد وعليك أن تتنازلي عن أحدهما، فأيهما ستختارين أو تنتخبين؟

ـ سأختار طبعا أمهرهما في تتبع الطريدة التي أبحث عنها.

ـ أنت تفضلين إذن الكلب الأكثر مهارة. وتلك هي بالتحديد الطريقة التي اتبعها الناس لتربية الحيوانات المستأنسة خلال أكثر من عشرة آلاف سنة يا صوفيا. إن الدجاج لم يكن يبيض دوما خمس بيضات في الاسبوع ولا الخراف كانت تنتج دوما كل هذا الصوف، ولا الخيول كانت تتمتع دوما بهذه القوة والسرعة اللتين تتمتع بهما الآن. لقد استخدم الناس *أسلوب الانتخاب الصناعي* (أي الانتخاب البشري) في تربية الحيوانات لتحسين الصفات المطلوبة فيها. وينطبق نفس الشيء على المملكة النباتية أيضاً. فأنت لن تزرعي بطاطس رديئة إذا كانت بذور البطاطس الجيدة متاحة، ولن تبددي وقتك في حصاد قمح لا يغل حبوبا. وأوضح داروين أنه لا توجد أبقار، أو حبوب قمح، أو كلاب، أو عصافير متماثلة تماماً. فالطبيعة تنتج

تنويعات لا حصر لها. وحتى داخل النوع الواحد لا يوجد فردان متماثلان تماماً. ولعلك جربت هذا بنفسك يا صوفيا عندما شربت من الزجاجة الزرقاء.

ـ أنا أقر بذلك.

ـ وعندئذ سأل داروين نفسه السؤال التالي: هل يمكن أن توجد في الطبيعة آلية مماثلة لآلية الانتخاب الصناعي التي يمارسها المزارعون لتحسين صفات النبات والحيوان؟ وهل يمكن تصور أن الطبيعة تمارس «انتخابا طبيعيا» لأفراد النوع التي يجب أن تستمر في البقاء؟ وهل يمكن لمثل هذه لآلية أن تؤدي على مدى زمن شديد الطول إلى خلق أنواع جديدة من النبات والحيوان؟

ـ سؤال وجيه.

ـ لم يكن داروين أثناء رحلته قادرا على تصور كيف يمكن أن يحدث هذا الانتخاب الطبيعي. ولكن في أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٨٣٨، أي بعد عامين تماماً من عودته مع السفينة بيجل وقع صدفة على كتاب صغير عنوانه *دراسة في مبادئ السكان* كتبه عالم الدراسات السكانية *توماس مالتوس*. وكان مالتوس قد استوحى فكرة دراسته من *بنيامين فرانكلين* المخترع الأمريكي الذي ابتكر عدة اختراعات منها مانعة الصواعق. فقد طرح فرانكلين فكرة أن الطبيعة إن لم تكن تنطوي على بعض العوامل الكابحة الضابطة لكان نوع واحد من الأنواع النباتية أو الحيوانية قد انتشر في الأرض كلها. غير أن وجود أنواع كثيرة يحتم وجود حالة من التوازن فيما بينها.

ـ أتصور هذا.

ـ استوحى مالتوس إذن هذه الفكرة ثم طبقها على سكان العالم. فقال إن قدرة البشرية على التكاثر قدرة هائلة تؤدي دائما إلى انجاب أطفال يزيد عددهم على عدد من يمكنهم الاستمرار في البقاء، ولما كان انتاج الغذاء لن يستطيع أبدا أن يواكب وتيرة الزيادة في السكان فإن أعدادا غفيرة من البشر مقضي عليها، في رأي مالتوس، بالهلاك في الصراع في سبيل البقاء. والذين سينجحون في البقاء، وبالتالي في إنجاب أجيال أخرى، هم من خرجوا منتصرين من الصراع في سبيل البقاء. أي أن تحديات البقاء ومنها في هذه الحالة توافر الغذاء تؤدي إلى تقليص عدد أفراد النوع

وإلى إبقاء هذا العدد ضمن الحدود التي تسمح بها مقومات الحياة فبمن ستحتفظ الطبيعة يا صوفيا عندما تضطر للاختيار؟

ـ ستحتفظ بأقدر الأنواع على مواجهة تحديات البقاء.

ـ بالضبط، وكان هذا هو القانون العام الذي يبحث عنه داروين: فقد وجد فيه تفسيرا يوضح كيفية حدوث التطور. فالتطور يحدث نتيجة الانتخاب الطبيعي في الصراع من أجل الحياة. فالصفات الأصلح ستزيد على مر الاجيال لأن الافراد التي تحملها ستزيد فرصها في البقاء وستترك بالتالي مزيدا من النسل. أما الصفات الاخرى فستتوارى تدريجيا لأن الافراد التي تحملها ستقل فرصها في البقاء وسيندثر نسلها على مر الاجيال. كانت هذه هي النظرية الثانية التي اقترحها في كتابه أصل الأنواع الذي كتب فيه: «إن الفيل هو الحيوان الذي يتكاثر بأبطأ المعدلات، ولكن إذا قدر لكل الأفيال الوليدة أن تستمر في البقاء لكان لدينا بعد فترة تتراوح بين ٧٤٠ و ٧٥٠ عاما نحو ١٩ مليون فيل تنحدر كلها من زوج واحد».

ـ دون أن نتكلم عن الآلاف من بيض الأسماك الذي تضعه سمكة واحدة.

ـ نعم يا صوفيا. والطبيعة مضطرة إلى الاختيار كما فعلت أنت مع الابقار والكلاب. وهي تنتخب مثلك أفضل الابقار وأمهر الكلاب.

ـ افهم من كلامك ان الصراع يحدث اذن بين أفراد النوع الواحد، مثلاً بين الابقار أو الكلاب أو الافيال.

ـ هذا مظهر رئيسي من مظاهر الصراع. لا يمكن لافراد النوع الواحد أن تتكاثر إلى ما لا نهاية وتحديات البقاء هي التي تجعل أصلحها هو القادر على الاستمرار. كما أوضح داروين أن الصراع من أجل البقاء يكون أشد ضراوة في كثير من الأحيان بين الأنواع الأكثر تماثلا، إذ إن عليها أن تتنازع نفس الغذاء. وعندئذ تتضح أهمية المزايا الصغيرة، أو التنويعات الضئيلة التي تعتبر مفيدة بالقياس إلى المستوى المتوسط العام. وكلما اشتدت ضراوة الصراع من أجل البقاء زادت سرعة تطور الأنواع الجديدة بحيث لا يبقى إلا أقدر الأنواع على التكيف في حين تهلك الأنواع الأخرى.

ـ أكلما قل الغذاء وزاد النسل زادت سرعة التطور؟

ـ نعم، بسبب احتدام الصراع. غير أن المسألة ليست مسألة غذاء فحسب. فقد يكون من المهم كذلك عدم التعرض للافتراس من حيوانات أخرى. وربما توقف البقاء مثلاً على التمتع بلون يسمح بالاختفاء والتمويه، أو بالقدرة على العدو، أو بالمهارة في اكتشاف الحيوانات المعادية، أو على التمتع في أسوأ الأحوال بمذاق كريه منفر. كما أن السم القادر على قتل المفترسات قد يكون مفيدا أيضاً. وليس من قبيل الصدفة أن يكون كثير من أنواع الصبار سامة قاتلة. فالصبار يكاد يكون النبات الوحيد الذي ينمو في الصحراء وبالتالي فإنه يصبح عرضة لاعتداء الحيوانات آكلة النبات.

ـ ومعظم أنواع الصبار لها أشواك أيضاً.

ـ كما أن القدرة على التكاثر لها بطبيعة الحال أهمية جوهرية لبقاء النوع وزيادة سرعة التطور. وقد درس داروين نظام التلقيح في النبات دراسة تفصيلية. فالزهور تجتذب بألوانها الساطعة وروائحها الذكية الحشرات اللازمة لنقل حبوب اللقاح وتخصيب النباتات الأخرى. كما أن تغريد الطيور يقوم بوظيفة هامة في تكاثرها. ولذلك فإن الثور الوديع الحزين الذي لا تجتذبه الأبقار ليست له أي أهمية لتاريخ نوعه، لأن هذه الصفات حرية بأن تؤدي إلى اختفاء سلالته. فالمهمة الوحيدة للثور من هذا المنظور هي أن يصل إلى حالة النضج الجنسي ويتكاثر ليحافظ على النوع. إن الأمر أشبه بسباق التتابع. إن من لا يستطيعون لسبب أو لآخر أن ينقلوا جيناتهم يستبعدون بصفة مستمرة. وبهذه الطريقة يتواصل تحسين النوع. كما أن مقاومة الأمراض من أهم الصفات التي اكتسبت تدريجيا وتوارثتها السلالات التي نجحت في البقاء.

ـ كل شيء إذن يتحسن بصفة مستمرة؟

ـ إن نتيجة هذا الانتخاب المستمر هي أن أقدر الأفراد على التكيف مع بيئة معينة هم الذين سينجحون في الأجل الطويل في ضمان بقاء النوع في تلك البيئة. غير أن الصفة التي قد تشكل ميزة في بيئة معينة قد لا تكون بالضرورة ميزة في بيئة أخرى. فالقدرة على الطيران كانت صفة حيوية لبعض عصافير جزر جالاباجوس. لكن البراعة في الطيران تفقد تلك الأهمية الهائلة إذا كان يمكن التقاط الغذاء من الأرض في أماكن لا توجد بها حيوانات مفترسة. والسبب الذي أدى إلى ظهور

عديد من الأنواع الحيوانية المختلفة على مر العصور هو بالتحديد وجود عديد من البيئات الطبيعية المختلفة.

ـ ولكن ليس هناك سوى نوع إنساني واحد.

ـ وذلك لأن الإنسان له قدرة فريدة على التكيف مع ظروف الحياة المختلفة. ومن الأشياء التي أثارت دهشة داروين قدرة الهنود في المنطقة المسماة «أرض النار» على الحياة في ظروف مناخية بالغة القسوة. وتلك القدرة على التكيف هي السبب في اختلاف بعض الصفات في الإنسان. فان من يعيشون بالقرب من خط الاستواء تكون بشرتهم أدكن ممن يعيشون في المناطق الشمالية لأن البشرة الداكنة تقي من أشعة الشمس فوق البنفسجية. ولذلك فإن ذوي البشرة البيضاء يكونون أكثر عرضة للإصابة بسرطان الجلد إذا تعرضوا للشمس فترات طويلة.

ـ وهل من المفيد بالمثل أن تكون بشرة من يعيشون في المناطق الشمالية فاتحة؟

ـ نعم، فالبشرة الفاتحة لاتحتاج إلا لكمية ضئيلة من ضوء الشمس حتى تتمكن من تخليق فيتامين «د». وهذه الصفة لم تعد بالغة الأهمية في عصرنا الحاضر لأننا نستطيع الآن أن نعوض هذا الفيتامين عن طريق الغذاء. ان تنوع الصفات التي نشاهدها في الطبيعة لا يحدث عبثا. فكل شيء يرجع إلى تغيرات ضئيلة حدثت على امتداد أجيال لا حصر لها.

ـ إنه حقاً شيء مذهل عندما تفكر فيه.

ـ هذا صحيح، وأعتقد أننا نستطيع الآن أن نلخص نظرية داروين في التطور في بضع جمل.

ـ تفضل!

ـ نستطيع أن نقول إن «المادة الخام» المسؤولة عن تطور الحياة فوق الأرض هي التنوع المستمر بين الأفراد داخل النوع الواحد وقد اقترن هذا التنوع *بارتفاع عدد المواليد* وفرضت تحديات الحياة ألا يستمر من تلك المواليد إلا عدد محدود فكانت النتيجة هي بقاء أكثر الأفراد صلاحية. إن الآلية الفعلية، أو القوة المحركة الكامنة وراء التطور هي إذن الانتخاب الطبيعي في الصراع من أجل البقاء. وكانت نتيجة هذا الانتخاب هي بقاء الأقوى أو الأفضل تكيفا، أي الأصلح.

ـ هذا يبدو منطقيا كمسألة رياضيات. فكيف استقبل كتاب أصل الأنواع؟

ـ لقد أثار جدلا عنيفا. فاحتجت الكنيسة احتجاجا قويا عليه وانقسمت الأوساط العلمية بسببه انقساما حادا. ولم يكن في ذلك ما يثير الدهشة حقاً إذا أخذنا في اعتبارنا أن نظرية داروين قد جعلت الله أقل ارتباطا بعملية خلق الكائنات الحية. إلا أن البعض كانوا أكثر استنارة فقالوا إن خلق شيء يتمتع بقدرته الذاتية على التطور أعظم كثيراً من خلق كل شيء بصورة نهائية حتى أدق التفصيلات.

ـ ألم يكن داروين يعتقد أن الإنسان ينحدر من الحيوان؟

ـ في عام ١٨١٧ نشر داروين كتابه *أصل الإنسان* الذي أظهر فيه أوجه التماثل القائمة بين الإنسان والحيوان، وطرح فيه النظرية التي تقول إن الإنسان والقرد الشبيه بالإنسان، ينحدران حتما من سلف مشترك. وفي تلك الفترة تم العثور على الحفريات الاولى لجماجم سلالة إنسانية منقرضة، أولا في صخور جبل طارق ثم في منطقة نياندرتال في المانيا بعد ذلك بعدة سنوات. والغريب أن هذا الكتاب أثار احتجاجات أقل في عام ١٨١٧ بالقياس إلى الاحتجاجات التي ثارت في عام ١٨٥٩ عندما نشر داروين كتابه أصل الأنواع. ذلك أن فكرة انحدار الإنسان من الحيوان كانت كامنة ضمنا في الكتاب الأول أيضاً. وكما قلت لك من قبل، عندما مات داروين في عام ١٨٨٢، دفن بكل المراسم الجديرة برائد من رواد العلم.

ـ لقد وجد إذن التكريم اللائق به في نهاية المطاف.

ـ نعم في نهاية المطاف، إلا أنه كان قد و صف قبل ذلك بأنه أخطر رجل في إنجلترا.

ـ إلى هذه الدرجة!

ـ نعم، فقد كتبت مثلاً إحدى نساء الطبقة العليا تقول «فلنأمل ألا يكون كل هذا صحيحاً، ولكن إن تبينت صحته فلنأمل ألا يعرف على نطاق واسع». وعبر أحد العلماء المرموقين عن فكرة مماثلة فقال: «إنه اكتشاف مهين، وكلما قل عنه الكلام كان ذلك أفضل».

ـ إن هذا يثبت أن الإنسان لا ينحدر من القرد بل ينحدر من النعامة، فهو يدفن رأسه في الرمال لا يريد مواجهة الحقيقة.

ـ معك حق في هذا تماماً. ولكن هذا أمر سهل علينا قوله الآن. فما أكثر الذين اضطروا فجأة لأن يعيدوا النظر في تصورهم لقصة الخلق الواردة في الكتاب المقدس. وقد عبر الكاتب الشاب جون روسكن عن هذا الموقف فقال: «كم أرجو أن يتركني الجيولوجيون في حالي. فكلما قرأت آية في الكتاب المقدس دوت في أذني ضربات مطارقهم».

ـ وضربات المطارق هذه كانت شكوكه في كلمة الله؟

ـ كان هذا ما يقصده. فنظرية داروين هزت التفسير الحرفي لقصة الخلق كما وردت في الكتاب المقدس، ولكنها لم تقف عند هذا الحد. فجوهر نظرية داروين هو أن التغيرات *العشوائية* الطفيفة هي التي أنتجت الإنسان في نهاية المطاف. أي أن داروين قد اختزل الإنسان إلى ثمرة شيء غير نبيل أو غير شاعري يسمى الصراع من أجل البقاء.

ـ وهل شرح داروين طريقة ظهور هذه التغيرات العشوائية العرضية؟

ـ لقد وضعت إصبعك على أضعف نقطة في نظريته. فداروين لم تكن له إلا فكرة غامضة مبهمة عن الوراثة. إن بعض الصفات تنتقل بالفعل أثناء التزاوج. فالأب والأم لن ينجبا أبدا طفلين متماثلين تماماً، ونحن نلاحظ على هذا المستوى بالفعل بعض التغير الطفيف. ولكن من الصعب أن ينتج هذا النوع من التزاوج شيئا جديدا حقاً. أما تفسير كيفية حدوث تلك التغييرات العشوائية فقد تكفل بالإجابة عنها ما يسمى «بالداروينية الجديدة» التي استكملتْ نظرية داروين نفسه بمكتشفات علم الوراثة.

ـ وكيف هذا؟

ـ إن كل مظاهر الحياة وجميع أشكال التكاثر تعتمد أساساً على انقسام الخلايا. وعندما تنقسم خلية إلى اثنين تنتج خليتين متطابقتين تحتويان على نفس العوامل الوراثية تماماً. ولذلك يمكننا أن نقول إن الخلية تنتج بهذا الانقسام نسخة أخرى من نفسها.

ـ وعندئذ؟

ـ ولكن تحدث أحيانا في هذه العملية بعض الأخطاء الطفيفة فلا تكون الخلية الناتجة مماثلة تماماً للخلية الأم. وتسمى هذه الأخطاء الطفيفة في علم البيولوجيا الحديث الطفرة. وهذه الطفرات إما أن تكون بلا أي أهمية تماماً، وإما أن تؤدي إلى ظهور بعض التغيرات الملحوظة في صفات الفرد. وقد يكون بعضها واضح الضرر، وفي هذه الحالة فإن الأفراد الذين تظهر فيهم هذه الطفرات سيستبعدون على مر الأجيال، وكثير من الأمراض تنتج في الواقع عن هذا النوع من الطفرات. غير أن الطفرة قد تزود الفرد أحيانا بتلك الصفة الايجابية الإضافية التي يحتاجها كي ينجح في صراعه من أجل البقاء.

ـ كالرقبة الطويلة مثلاً؟

ـ لقد فسر لامارك طول رقبة الزرافة باضطرارها المستمر إلى مد رقبتها لأعلى لتصل إلى أوراق الأشجار العالية. إلا أن داروين لم يقتنع بأن هذا النوع من الصفات المكتسبة بحكم العادة ينتقل من جيل إلى آخر، لأن لامارك لم يبرهن على ذلك. وقد بينت الداروينية الجديدة سببا واضحا لحدوث ذلك النوع المحدد من التغير.

ـ تقصد الطفرات؟

ـ نعم، إن تغيرات عرضية تماماً في العوامل الوراثية قد زودت أسلاف الزرافة برقبة أطول قليلا من المتوسط. وعندما قل الغذاء المتاح كانت لهذه الميزة الإضافية أهمية حيوية. فالزرافة طويلة الرقبة استطاعت أن تصل إلى الأوراق والأغصان الأعلى فزادت فرصها في البقاء، بالقياس إلى الزرافة قصيرة الرقبة.

ـ أفهم ذلك الآن.

ـ ولننظر الآن إلى بعض الأمثلة الأقرب عهدا منا والتي توضح طريقة عمل هذا الانتخاب الطبيعي... إنه مبدأ في غاية البساطة.

ـ إني مصغية.

ـ يوجد في انجلترا نوع معين من الفراش يسمى *فراش البتول*، وهو يعيش كما يتضح من اسمه، على جذوع أشجار البتولا، وهي ذات لون فاتح. وإذا عدنا إلى القرن الثامن عشر لوجدنا أن معظم هذا الفراش كان لونه رماديا فاتحا. هل تعرفين لماذا يا صوفيا؟

ـ حتى لا تكتشفها بسهولة الطيور الجائعة.

ـ ولكن كان يحدث من حين لآخر أن تولد بعض الفراشات الأدكن لونا لنتيجة الطفرات التي تكلمنا عنها. فما الذي سيحدث في رأيك لهذه الفراشات الداكنة؟

ـ سيكون من الأسهل رؤيتها، وبالتالي ستكون فريسة أسهل للطيور الجائعة.

ـ نعم، في هذه البيئة حيث جذوع أشجار البتولا فاتحة فضية اللون كان اللون الداكن صفة غير مواتية للبقاء. ولذلك كانت الفراشات الفاتحة هي التي يتزايد عددها باستمرار. ولكن حدث بعد ذلك أن تغيرت تلك البيئة. فقد أدى التلوث الصناعي في عدة أماكن إلى تغيير لون شجر البتولا فاسودت جذوعها. فما الذي سيحدث في رأيك للفراشات في هذه الحالة؟

ـ إن الفراشات الداكنة ستزيد فرصها في البقاء.

ـ نعم، وسرعان ما أخذ عددها يتزايد. ومن عام ١٨٤٨ حتى ١٨٤٩، زادت نسبة الفراشات الداكنة من ١ في المائة إلى ٩٩ في المائة في بعض الأماكن. لقد تغيرت البيئة ولم يعد اللون الفاتح صفة مواتية بل على العكس. فالفراشات البيضاء «الخاسرة» كانت تلتهم بواسطة الطيور بمجرد أن تظهر على الجذوع الداكنة. ثم حدث مرة أخرى تغير مهم. فقد قل استعمال الفحم وزودت المصانع بمعدات تساعد على تقليل التلوث من أجل حماية البيئة.

ـ فهل عاد لون جذوع البتولا فضيا من جديد؟

ـ نعم، ولذلك فإن فراشات البتولا بدأت تعود إلى لونها الفضي مرة أخرى. وهذا ما نسميه *التكيف*. إنه قانون طبيعي.

ـ نعم أفهم ذلك جيدا.

ـ وهناك أمثلة عديدة أخرى على كيفية تدخل الإنسان في البيئة.

ـ فيم تفكر عندما تقول هذا؟

ـ لقد حاول الناس مثلاً أن يستأصلوا الآفات الحشرية بواسطة مبيدات كيميائية مختلفة. وبهذه الوسيلة نستطيع في البداية تحقيق نتائج ايجابية. ولكننا عندما نرش حقلا أو بستانا بالمبيدات، فاننا نتسبب في الواقع في إحداث كارثة إيكولوجية

صغرى للآفات التي نحاول استئصالها. وقد تؤدي الطفرات المستمرة التي تحدث في الآفة إلى ظهور نوع منها يتمتع بصفة مقاومة المبيد المستخدم. وهذه الحشرات «الفائزة» أمامها فرص أكبر في التكاثر الواسع ويصبح من الأصعب القضاء عليها، وذلك بالتحديد لأن الإنسان حاول أن يستأصلها بالمبيد الكيميائي، و«الأنواع» التي تتمتع بمقاومة أعلى هي التي ستستمر في البقاء بطبيعة الحال.

ـ هذا أمر مخيف حقاً!

ـ هو يستحق التفكير على أي حال. كما أننا نحاول أن نكافح الطفيليات الضارة في أجسامنا أيضاً، وأنا أقصد البكتيريا.

ـ نعم إننا نستخدم البنسلين وأنواعا أخرى من المضادات الحيوية.

ـ وجرعة البنسلين تعد أيضاً كارثة إيكولوجية لهذه الشياطين الصغيرة. إلا أننا كلما تناولنا هذا البنسلين زادت مقاومة البكتيريا ونكون بذلك قد ساعدنا على ظهور مجموعة من البكتيريا تعد مكافحتها أكثر صعوبة. ونضطر إلى استخدام مضادات حيوية أقوى فأقوى حتى...

ـ حتى تنجح هذه الطفيليات في الخروج من أفواهنا ونضطر لإطلاق النار عليها؟

ـ يا لها من صورة! في هذا كثير من المبالغة يا صوفيا. ولكن من الواضح أن الطب الحديث قد خلق مأزقا خطيرا. فالمشكلة لا تقتصر على ظهور مجموعة من البكتيريا أشد ضررا وأقوى مقاومة. في الماضي كان كثير من الأطفال يتعرضون للموت بأمراض مختلفة. وكان هذا بالطبع أمرا مؤسفا نجح الطب في التغلب عليه. إلا أن الطب الحديث قد استبعد بذلك دور الانتخاب الطبيعي بمعنى ما. فالدواء الذي يساعد فردا في التغلب على مرض خطير قد يسهم على المدى البعيد في إضعاف مقاومة الجنس البشري كله لأمراض معينة. وإذا لم نهتم بما يسمى الصحة الوراثية قد نجد أنفسنا مواجهين بتدهور القدرة الوراثية للجنس البشري على مقاومة بعض الأمراض.

ـ هذا أفق مخيف!

ـ إلا أن الفيلسوف الحقيقي يجب ألا يمتنع عـن الإشـارة إلى شـيء «مخيـف» إذا كان يعتقد أنه صحيح. فلنحاول الآن أن نلخص ما قلناه.

ـ نعم، تفضل.

ـ يمكننا أن نقول إن الحياة أشبه بيانصيب كبير لا تظهر فيه إلا الأرقام الفائزة.

ـ ماذا تقصد بالتحديد؟

ـ إن من خسروا في الصراع مـن أجل البقـاء قـد اختفـوا. لقـد تطلـب اختيـار الأرقام الفائزة من كل نوع نباتي أو حيواني فوق الأرض ملايين السنين. أما الأرقـام الخاسرة فلم تظهر سوى مرة واحدة. يمكننا أن نقول إذن إن جميع الأنـواع الحيوانيـة أو النباتية الموجودة اليوم هي الأرقام الفائزة في يانصيب الحياة الكبير.

ـ لأن الأصلح هم من استمروا في البقاء.

ـ نعم، يمكننا أن نقول هذا. والآن أعطيني اللوحة التي أحضرها الشيخ العجوز.

أعطته صوفيا اللوحة التي كانت تصور من جهة سفينة نوح ومن الجهة الأخرى «شجرة النسب» (أو «شجرة العائلة») وعليها أنواع الحيوانـات المختلفـة. وكـانت هذه الجهة هي التي يريد ألبرتو أن يريها لصوفيا.

ـ إن هذا الرسم يوضح تقسيم الأنواع النباتية والحيوانية المختلفة. تستطيعين أن تري كيف تنتمي الأنواع المختلفة إلى مجموعات ورتب وفصائل.

ـ نعم.

ـ وينتمي الإنسان، هو والقرد، إلى ما يسمى رتبة الرئيسيات، وكل الرئيسـيات تنحدر، كما ترين، من الثدييات، وكل الثدييات تنحدر من الفقاريات، التي تنحـدر بدورها من الحيوانات متعددة الخلايا.

ـ إن ذلك يذكرني بأرسطو، وسلم تصنيف الطبيعة.

ـ نعم هذا صحيـح. ولكـن دعيـني ألفـت نظـرك لفـارق جوهـري. لقـد تصـور ارسطو «سلما». والسلم نموذج جامد يعبر عن التزايد الظاهري في مستوى التعقـد درجة بعد درجة. أما داروين فقد رسم لنا «شجرة». والشجرة كيان عضوي ترتبط أعلى أوراقه بأعمق جذوره. ولذلك فـان هـذه الشـجرة لا توضـح تقسيم الأنـواع

المختلفة اليوم فحسب، بل إنها تبين أيضاً شيئا من تاريخ التطور. يمكنك أن تلاحظي مثلاً إن الطيور قد انفصلت في مرحلة معينة عن الزواحف، وأن الزواحف قد انفصلت في مرحلة معينة عن البرمائيات، وأن البرمائيات قد انفصلت في مرحلة معينة عن الأسماك.

ـ نعم هذا واضح جدا.

ـ وكل مرة تنقسم فيها سلالة إلى اثنتين يكون السبب هو حدوث طفرات تؤدي إلى نشأة نوع جديد. وهذا هو السبب في ظهور الفصائل والرتب الحيوانية المختلفة على مر العصور. ولكن هذا الرسم شديد البساطة، إذ يوجد اليوم أكثر من مليون نوع حيواني، وكل هذه الأنواع ليست سوى نسبة ضئيلة من أنواع لا حصر لها عاشت ذات يوم فوق الأرض. يمكنك أن تلاحظي مثلاً أن مجموعة حيوانية مثل ثلاثيات الفصوص قد انقرضت تماماً.

ـ وفي أسفل الشجرة نرى حيوانات وحيدة الخلية.

ـ وبعض هذه الحيوانات لم تتغير منذ ملياري عام. وتستطيعين أن تري أن هناك خطا يمتد من هذه الكائنات وحيدة الخلية ويصل إلى المملكة النباتية لأن النباتات تنحدر على الأرجح من نفس الخلية الأولية التي انحدرت منها الحيوانات، فهناك نباتات وحيدة الخلية وهناك كذلك حيوانات وحيدة الخلية، ومن هذه الكائنات الأولى بدأت كلتا المملكتين.

ـ نعم أرى هذا، ولكن هناك أمرا يحيرني.

ـ وما هو؟

ـ من أين جاءت هذه الخلية الأولية؟ هل أجاب داروين عن هذا السؤال؟

ـ قلت لك إنه كان رجلاً شديد الحذر. إلا أنه فيما يتعلق بهذا السؤال سمح لنفسه بأن يطرح ما يمكننا أن نسميه تخمينا مشروطا. فقد كتب: «... *لو (ويا لها من لو!) استطعنا تخيل بركة صغيرة بها ماء ساخن تحتوي على جميع أملاح الأمنيوم والفوسفور، ويتوافر لها الضوء والحرارة والكهرباء وغيرها من العوامل المساعدة، ويتكون فيها مركب بروتيني مهيأ لأن يمر بتحولات أكثر تعقيدا...*».

ـ وعندئذ؟

ـ إن داروين كان يتخيل هنا كيف تكونت أول خلية حية انطلاقا من مواد غير عضوية. وكان داروين صادقا في حدسه مرة أخرى. فالعلماء يعتقدون اليوم أن أول أشكال الحياة البدائية قد ظهر بالتحديد في هذا النوع من «بركة الماء الساخن» التي تخيلها داروين.

ـ استمر...

ـ سأعرض لك تصورا مبسطا، ولكن لا تنسي اننا نترك داروين الآن وننتقل إلى الحديث عن آخر النتائج التي توصلت اليها البحوث عن أصل الحياة على الأرض.

ـ إن هذه المسألة تصيبني بالارتباك. هل هناك من يعرف حقاً كيف ظهرت الحياة على الأرض؟

ـ قد لا يكون هناك من يعرف، إلا أن أجزاء عديدة من الصورة أخذت تتجمع شيئا فشيئا لتكو ن تصورا عن البداية المحتملة للحياة.

ـ استمر...

ـ فلنقل أولا إن جميع أشكال الحياة على الأرض، نباتية كانت أو حيوانية، تتكون من نفس المواد بالضبط. إن أبسط تعريف للحياة هو أن الحياة «مادة لها القدرة على الانقسام إلى جزأين متطابقين». وعملية الانقسام هذه تتحكم فيها مادة نسميها د ن ا (وهذه هي الأحرف الأولى من اسمها الكامل: ديوكسي ريبونيوكليك آسيد)، توجد في نواة الخلية، وتكوّن الكروموزومات أو المادة الوراثية الموجودة في كل الخلايا الحية. كما أننا نطلق على هذه المادة اسم جزيء د ن ا لأنها تشكل في الواقع جزيئا مركبا أو جزيئا كبيرا. والسؤال هو إذن كيف نشأ الجزيء الأول.

ـ كيف؟

ـ لقد تكونت الأرض عند نشأة النظام الشمسي منذ ٤ر٦ مليار سنة. وكانت في البداية كتلة مشتعلة، ثم أخذت القشرة الأرضية تبرد شيئا فشيئا. ويعتقد العلم الحديث أن الحياة قد ظهرت من ثلاثة أو أربعة مليارات سنة.

ـ يبدو هذا أمرا لا يصدق!

ـ وستزداد دهشتك عندما تسمعين البقية. فأولا كان كوكبنا مختلفا كثيراً عن شكله اليوم. فلما لم تكن هناك حياة لم يكن هناك أوكسجين في الجو. فالأوكسجين لم يتكون إلا مع قيام النباتات بعملية التمثيل الضوئي. وعدم وجود الأوكسجين مسألة بالغة الأهمية: فمن الصعب تصور أن تظهر الخلايا الحية، التي تستطيع أن تكون حمض د ن ا في جو يحتوي على الأوكسجين.

ـ ولماذا؟

ـ لأن الأوكسجين مادة تتميز بقدرة فائقة على التفاعل الكيميائي مع المواد الأخرى: ولو كان الاوكسجين موجودا لتفاعل مع العناصر التي يتألف منها جزيء د ن ا قبل أن يتاح لها أن تتحد لتكوين هذا الجزيء المركب.

ـ حقاً!

ـ ولذلك فإننا نعرف عن يقين أنه لا يمكن أن تظهر اليوم أي أشكال جديدة للحياة، حتى ولو كانت أشكالا أولية كالبكتيريا أو الفيروسات. إن كل أشكال الحياة الموجودة فوق الأرض لها نفس العمر تماماً، والفرق، من هذه الزاوية، هو أن بعضها تطور بسبب حدوث الطفرات كما رأينا وبعضها ظل كما هو. فالفيل الضخم له شجرة نسب من نفس عمر شجرة النسب الخاصة بأصغر أنواع البكتيريا. ويمكننا أن نقول إن الفيل، أو الإنسان، ما هو في الحقيقة إلا مستعمرة من الكائنات وحيدة الخلية، لأن كل خلية من خلايا جسمنا تحتوي على نفس المادة الوراثية. إن «الوصفة» التي تحدد تكويننا كامنة في كل خلية من خلايا جسمنا.

ـ هذا حقاً أمر غريب عندما تفكر فيه.

ـ ومن أسرار الحياة الكبرى أن خلايا الحيوان متعدد الخلايا تملك القدرة على التخصص في وظيفة محددة كأن تصبح احداها خلية عصبية والأخرى خلية رئوية مثلاً لأن الصفات الوراثية لا تكون فعالة كلها في الخلايا جميعا. فبعض هذه الصفات، أو الجينات، تنشط وبعضها لا تنشط: فإن الخلية الكبدية مثلاً تنتج بروتينا مختلفا عن البروتين الذي تنتجه الخلية العصبية أو الخلية الجلدية. إلا أن هذه الخلايا الثلاث تملك نفس جزيء د ن ا الذي يحتوي على كل «الوصفة» التي تحدد تكوين هذا الكائن.

ـ استمر...

ـ ولما كان لا يوجد أوكسجين في الجو لم تكن توجد أيضاً حول الأرض طبقة الأوزون الواقية، لأن الأوزون عنصر نشأ عن تحول الاوكسجين. وعدم وجود طبقة الأوزون معناه عدم وجود أي عائق يحجز الأشعة الآتية من الكون. وكان هذا أيضاً عاملا مهما لأن هذه الأشعة قامت على الأرجح بدور حاسم في تكوين أول جزيء مركب. فتلك الأشعة الكونية هي التي وفرت الطاقة الفعلية التي جعلت المواد الكيميائية المختلفة الموجودة في الأرض تبدأ في التجمع والتفاعل لتكوين الجزيئات المركبة.

ـ اتفقنا.

ـ دعيني ألخص مرة أخرى: قبل أن تستطيع هذه الجزيئات المركبة، التي نشأت عنها كل أنواع الحياة، أن تتكو ن يجب أن يوجد على الأقل شرطان هامان أولا: يجب ألا يوجد أوكسجين في الجو، وثانيا، يجب ألا يوجد حاجز يحول دون نفاذ الأشعة الكونية.

ـ لقد فهمت هذا جيدا.

ـ وفي «بركة الماء الساخن» هذه أو في «الحساء البدائي» كما يسميه بعض العلماء اليوم تكو ن ذات يوم جزيء كبير شديد التعقيد يتمتع بخاصية عجيبة هي قدرته على الانقسام إلى جزأين متماثلين. ومنذ هذه اللحظة بدأت يا صوفيا عملية التطور الطويل. وإذا أردنا أن نبسط الأمور بعض الشيء لاستطعنا أن نقول إننا نتكلم الآن عن أول مادة وراثية، عن أول جزيء د ن ا، أو عن أول خلية حية. واستمرت هذه الخلية في الانقسام، ومنذ اللحظة الأولى حدثت طفرات متصلة. وبعد أزمنة بالغة الطول تجمعت بعض الكائنات وحيدة الخلية لتكوين كائنات متعددة الخلايا أكثر تعقيدا. ثم بدأ التمثيل الضوئي للنباتات فظهر الأوكسجين في الجو. وأدى هذا إلى نتيجتين: أولا، أن الجو سمح بتطور حيوانات تستطيع أن تتنفس عن طريق الرئة، وثانيا، أن الجو أصبح يقي الحياة من الأشعة الكونية الضارة. لأن هذه الأشعة، التي كانت الشرارة الحيوية التي ساعدت على تكوين الخلية الأولى، تعد أيضاً ضارة بجميع أشكال الحياة.

ـ ولكن هذا الجو لم يتكون بين عشية وضحاها، فكيف نجحت الأشكال الأولى من الحياة في البقاء؟

- لقد بدأت الحياة في «البحار» البدائية، أو ما نسميه بالحساء البدائي. فاستطاعت أن تعيش هناك في بيئة تحميها من الأشعة الضارة. وكان لا بد من انتظار فترات بالغة الطول حتى تتمكن الحياة في البحار من أن تكو ن الغلاف الجوي، وعندئذ خرجت أولى البرمائيات من الماء وزحفت للمرة الأولى على اليابسة. أما بقية القصة فقد تكلمنا عنها بالفعل. وها نحن الآن نجلس في بيت صغير في أعماق الغابة ننظر إلى الوراء ونتأمل عملية بدأت منذ فترة تتراوح بين ثلاثة وأربعة مليارات سنة. ففينا نحن أصبحت هذه العملية الطويلة واعية بنفسها.

- وما زلت تظن أن كل هذا قد حدث بالصدفة؟

- أنا لم أقل هذا. إن الصورة التي أعطاك إياها الشيخ العجوز تبين أن هذا التطور كان له اتجاه يمضي فيه. فعلى امتداد أزمنة بالغة الطول تزايد تعقد الأجهزة العصبية للحيوانات وتزايد باطراد حجم المخ. أنا لا أعتقد شخصيا أن هذا يمكن أن يحدث بحكم الصدفة. وأنت ما رأيك؟

- لا يمكن أن تكون الصدفة البحتة هي التي خلقت عين الإنسان. ألا تعتقد أن هناك معنى وراء قدرتنا على رؤية العالم المحيط بنا؟

- إن تطور العين بالتحديد قد حير داروين أيضاً. فهو لم يستطع تخيل أن ينشأ شيء في دقة العين وحساسيتها نتيجة الانتخاب الطبيعي وحده.

- جلست صوفيا تتطلع إلى ألبرتو في صمت. وأخذت تفكر في أن من الغريب أن تكون على قيد الحياة في هذه اللحظة المحددة، وألا تعيش سوى هذه الحياة القصيرة، ثم لا تعود من جديد إلى الحياة أبدا. ثم تساءلت فجأة:

لم الخلق الدائم إذن

إن كان المخلوق صائرا للعدم؟

رمقها ألبرتو بنظرة قاسية وقال لها:

- يجب ألا تتكلمي هكذا يا ابنتي، فتلك كلمات الشيطان.

- كلمات الشيطان؟

ـ أو مفيستوفيلس، في مسرحية *فاوست* لجوته.

ـ ولكن ما معنى هذه الكلمات بالتحديد؟

ـ تأمل فاوست عندما شعر بدنو الموت ما قام به في حياته ثم قال بنبرة انتصار:

الآن... أقول لهذه اللحظة:

«تمهلي قليلا، أيا رائعة الجمال!

فأيامي الفانية أثمرت أثراً

لن يمحوه مر الزمان»

الآن أتشوف سعادة عظمى

وتقر عيني بأسمى اللحظات.

ـ تعبير رائع...

ـ ثم يأتي بعد ذلك دور الشيطان، فما كاد فاوست يموت حتى يهتف:

«انتهى»! كلمة خرقاء!

لماذا انتهى؟

سيان «انتهى» والعدم سيان!

لم الخلق الدائم إذن

إن كان المخلوق صائرا للعدم؟

«انتهى»: لغز كيف نفهمه؟

كأن شيئا ما كان يوما أو وجد

لكنها دورة بلا انقطاع تتجدد

كلا، بل أؤثر الخواء الأبدي

ـ هذا كلام شديد التشاؤم. إني أفضل المقطع الأول فقد رأى فاوست، حتى عندما أدرك نهاية حياته، أن هناك معنى للآثار التي تركها وراءه.

ـ أليس من نتائج نظرية داروين أيضاً أن نشعر بأننا ننتمي لشيء كبير يكتسب فيه كل شكل من أشكال الحياة، مهما بلغت ضآلته، معناه ودلالته؟ إننا نحن هذا الكوكب الحي يا صوفيا! إننا السفينة الكبرى التي تبحر حول الشمس الملتهبة في هذا الكون الفسيح. ولكن كل فرد منا هو أيضاً سفينة تخوض في بحر الحياة حاملة شحنتها من الجينات. وعندما ننقل هذه الشحنة بأمان إلى الميناء التالي لا نكون قد عشنا حياتنا عبثا. لقد عبر الشاعر النرويجي الكبير *ديورنسن* عن هذه الفكرة نفسها في قصيدته المزمور الثاني التي يقول فيها:

مجد ربيع الحياة القصير

ففيه كل حي خلق

وفيه كل مخلوق بعث

وحدها الأشكال تختفي

جيل يغيب وجيل يجيء

فتنمو الإنسانية كلها

والنوع يخرج منه نوع جديد

على امتداد آلاف السنين

عوالم تتلاشى وأخرى تقوم

انهل من فرحة الحياة

فأنت من زهور هذا الربيع

واهنأ بيومك فهو تحية

الخلود للإنسان

ـ جميل جدا.

ـ لن نتكلم الآن أكثر من هذا، أقول فقط: «فصل جديد!»

ـ كلا، كف عن كل هذا التهكم!

ـ لقد قلت «فصل جديد»، ويجب أن أطاع!

الفصل الحادي والثلاثون

فرويد

... هذه الرغبة الأنانية البغيضة التي

انبثقت في نفسها...

نهضت هيلد من سريرها وهي تحمل الملف في يديها ثم وضعته على مكتبها. التقطت بعض ملابسها وأسرعت إلى الحمام فأخذت حماماً سريعاً ثم ارتدت ثيابها ونزلت إلى الدور الأسفل.

ـ الإفطار جاهز يا هيلد!

ـ أريد أن أقوم بجولة في القارب أولا.

ـ ولكن يا هيلد...!

جرت هيلد خارج المنزل وعبرت الحديقة ومضت إلى المرسى الصغير. فكت حبل القارب وقفزت فيه وراحت تجدف حول الخليج الصغير وهي تحرك المجدافين بقوة حتى بدأ يعود إليها هدوءها.

إننا نحن هذا الكوكب الحي يا صوفيا! السفينة الكبرى التي تبحر حول الشمس الملتهبة في هذا الكون الفسيح. ولكن كل فرد منا هو أيضاً سفينة تخوض في بحر الحياة حاملة شحنتها من الجينات. وعندما ننقل هذه الشحنة بأمان إلى الميناء التالي لانكون قد عشنا حياتنا عبثا...

إنها تتذكر هذا المقطع عن ظهر قلب. ان الكلام موجه فيه إليها هي لا إلى صوفيا، إن كل كلمة في هذا الملف الكبير كتبها بابا من أجل هيلد.

وضعت المجدافين داخل القارب الذي أخذ يتأرجح على صفحة الماء تهدهده الموجات الرقيقة.

مثل هذا القارب الصغير الذي يطفو على سطح خليج صغير في ليلساند، تسبح هي أيضاً كورقة شجر على سطح الحياة.

أين صوفيا وألبرتو في هذه الصورة؟ نعم أين هما الآن؟

إنها لا تستطيع أن تقبل أنهما مجرد «نبضات كهربائية مغناطيسية» في مخ والدها. لا تستطيع أن تفهم أنهما مجرد آثار حبر تركتها آلة أبيها الكاتبة على الورق. أليست هي أيضاً في هذه الحالة مجرد مزيج من مركبات بروتينية ظهرت فجأة للحياة ذات يوم في «بركة ماء ساخن». ولكن كلا، إنها شيء أكبر من هذا، إنها هيلد مولر كناج.

كان عليها أن تسلم بأن الملف الكبير هدية رائعة وأن والدها عرف كيف يمس داخلها وتراً حساساً، وان لم يرق لها أن يتباهى بقدرته على التحكم في صوفيا وألبرتو.

إنها ستجعله يجرب شعور من يدرك أن هناك شخصا آخر يتحكم فيه. فقد أحست أن عليها أن تفعل ذلك من أجل صوفيا وألبرتو. وبدأت تتخيل أباها في مطار كوبنهاجن وهو يجري هنا وهناك كمن فقد صوابه.

شعرت هيلد الآن أنها استعادت هدوءها فأخذت تجدف مرة أخرى عائدة إلى المرسى. تناولت الإفطار مع أمها ثم جلستا طويلا تستمتعان بتذكر كيف أمضت هذه الأسرة الصغيرة عيد منتصف الصيف الماضي.

لم تعد هيلد إلى القراءة مرة أخرى حتى مساء ذاك اليوم، فلم يتبق على أي حال سوى صفحات قليلة.

مرة أخرى سمعا دقا على الباب فقال ألبرتو:
ـ ماذا لو سددنا آذاننا فيمل الطارق ويمضي في حال سبيله.
ـ كلا، إني أريد أن أعرف من هو.
نهضت صوفيا وسار ألبرتو في أثرها حتى الباب.

على عتبة الباب رأيا رجلا عاريا يقف وقفة رسمية ويتصنع هيئة مهيبة ويضع على رأسه تاجا، وما إن انفتح الباب حتى قال:

ـ ما رأي الجمع الكريم إذن في حلة الامبراطور الجديدة؟

عقدت الدهشة لساني صوفيا وألبرتو فأزعج صمتهما الرجل العاري فصاح:

- إنكما حتى لا تنحنيان احتراما!

استجمع ألبرتو شجاعته وقال:

- هذا صحيح، اننا لا ننحني لأن الامبراطور عار.

ظل الرجل محتفظا بوقاره فمال ألبرتو نحو صوفيا وهمس في أذنها:

- إنه يعتقد أنه رجل رفيع المقام.

عندئذ عبس الرجل وسأل:

- هل فقدتما صوابكما في هذا البيت فلم تعودا تراعيان الاصول؟

فأجابه ألبرتو:

- إننا في هذا البيت في منتهى اليقظة ونتمتع بكل قوانا العقلية. ولذلك فإن الإمبراطور لا يستطيع أن يخطو عتبة هذا البيت وهو في تلك الهيئة الفاضحة.

وجدت صوفيا زهو هذا الرجل العاري عبثيا فأخذت تضحك. وكأنما كان هذا الضحك إشارة سرية إذ يبدو أن الرجل ذا التاج قد أدرك فجأة أنه عار فقد اعتراه الخجل وانطلق راكضا يختبيء وسط الأشجار، ثم اختفى في الغابة لينضم على الأرجح إلى ذات الرداء الأحمر وآليس في بلاد العجائب ودبدوب الصغير.

ظل ألبرتو وصوفيا واقفين أمام الباب لا يملكان نفسهما من الضحك. وأخيراً قال ألبرتو:

- ربما كان من الأفضل أن نجلس في الداخل فسوف أحدثك الآن عن فرويد ونظريته في اللاوعي.

وعادا مرة أخرى بجوار النافذة ونظرت صوفيا في ساعتها وقالت:

- إن الساعة الثانية والنصف وما زال أمامي أشياء كثيرة أقوم بها قبل حفل الحديقة.

- وأنا أيضاً يا صوفيا، فلنتكلم إذن قليلا عن *سيجموند فرويد*.

- أكان فرويد فيلسوفا؟

- كان فرويد عالم نفس ساعدت أبحاثه على كشف جوانب عديدة من نفس الإنسان وتركت تأثيرا كبيرا على الفلسفة. ولد فرويد في عام ١٨٥٦ ودرس الطب في جامعة فيينا وقضى الجزء الأكبر من حياته في هذه المدينة التي كانت آنذاك مركزا

ثقافيا مزدهرا. وتخصص فرويد في الأمراض العصبية ووضع خلال الفترة الممتدة من أواخر القرن الماضي حتى ثلاثينات القرن العشرين نظريته في *التحليل النفسي*.

ـ أنتظر أن تشرح لي هذا.

ـ إن التحليل النفسي منهج يتيح تحليل الظواهر النفسية وبالتالي تقديم وصف لنفس الإنسان بوجه عام، وهو كذلك أسلوب لعلاج الاضطرابات العصبية والنفسية. ولست أنوي أن أقدم لك صورة كاملة عن فرويد وأعماله، ولكني أريد أن احدثك عن نظريته في اللاوعي لأنها ضرورية لفهم الإنسان.

ـ لقد نجحت في إثارة فضولي فاستمر إذن.

ـ يرى فرويد أن هناك توترا مستمرا بين الإنسان وبيئته، وبصفة خاصة، توترا أو صراعا بين دوافعه وحاجاته من جهة، والمطالب التي يفرضها المجتمع من جهة أخرى. وليس من المبالغة أن نقول إن فرويد قد اكتشف دور الغرائز في تشكيل نفس الإنسان وقد جعله هذا الاكتشاف من أهم ممثلي المذهب الطبيعي الذي كان سائدا في نهاية القرن الماضي.

ـ وما الذي تقصده بدور الغرائز.

ـ إن أعمالنا لا يوجهها العقل دوما، فالإنسان ليس في الحقيقة هذا الكائن العقلاني الذي كان يتخيله العقلانيون في القرن الثامن عشر. ففي أحيان كثيرة تحدد دوافع غير عقلانية ما نفكر فيه، وما نحلم به، وما نفعله. وهذه الدوافع غير العقلانية يمكن أن تكون تعبيرا عن غرائز أو حاجات أساسية. فالغريزة الجنسية لدى الإنسان تعد مثلاً حاجة أساسية مثل حاجة الوليد إلى الرضاعة.

ـ لقد فهمت.

ـ ولم يكن هذا في حد ذاته اكتشافا جديداً، ولكن فرويد أوضح أن هذه الحاجات الأساسية قد يتم إخفاؤها أو حجبها خلف أقنعة شتى فتوجه بالتالي أعمالنا على غير وعي منا. كما أوضح فرويد أن لدى الأطفال الصغار بدورهم نوعا من الشعور الجنسي. وهذه الملاحظة عن الشعور الجنسي الطفولي أثارت عاصفة من الاستياء في صفوف الطبقة الوسطى في فيينا، وجعلت فرويد شخصا لا ينظر إليه بارتياح.

ـ هذا أمر لا يثير الاستغراب.

ـ نعم يا صوفيا، فنحن نتكلم عن فترة يطلق عليها «العصر الفيكتوري» (نسبة لحكم الملكة فيكتوريا في إنجلترا)، وهي فترة اعتبر فيها الاقتراب من المسائل المتصلة بالجنس أمراً محرماً محظوراً. وقد لاحظ فرويد وجود هذا الشعور الجنسي الطفولي أثناء ممارسة التحليل النفسي، وهذا يعني أنه استند في رأيه إلى أساس تجريبي. كما قادته خبرته العلاجية إلى تتبع تاريخ عدد كبير من الاضطرابات النفسية فوجد أنها ترجع إلى صراعات نشأت في فترة الطفولة. واستنبط فرويد تدريجيا نوعا من العلاج يمكن أن نسميه علم آثار النفس.

ـ ماذا تقصد بذلك.

ـ إن عالِم الآثار يبحث عن الآثار التي خلفتها من ماض بعيد الحضارات المتعاقبة. فقد يجد مثلاً، أثناء تنقيبه، سكينا من القرن الثامن عشر، ثم يجد في طبقة أعمق مشطا من القرن الرابع عشر، وقد يجد في طبقة أعمق وأعمق إناء من القرن الخامس قبل الميلاد.

ـ وماذا بعد؟

ـ وبطريقة مماثلة يستطيع المحلل النفسي، بمساعدة المريض، أن ينقب في أعماق نفس المريض حتى يعثر على التجارب التي سببت الاضطراب النفسي للمريض، لأن فرويد يرى أن نفوسنا تختزن في أعماقها ذكرى كل ما مر بنا من تجارب.

ـ أفهم الآن بشكل أفضل.

ـ وربما استطاع المحلل النفسي أن يكتشف تجربة مؤلمة حاول المريض أن يتناساها على مدى سنين طويلة، ولكنها ظلت مع ذلك مدفونة في أعماق نفسه فأخذت تقوض قدرات المريض وتبدد طاقاته. والمحلل النفسي يسعى إلى اخراج هذه التجربة المؤلمة إلى حيز الوعي ووضعها أمام عيني المريض حتى يستطيع أن يتحرر منها ويشفى.

ـ هذا يبدو منهجا بارعا.

ـ ولكني أستبق المراحل، دعينا أولا ننظر في وصف فرويد لنفس الإنسان. هل سبق لك أن راقبت طفلاً وليداً؟

نعم، ابن خالتي، وهو الآن في الرابعة من عمره.

ـ عندما نأتي للعالم نعبر عن حاجاتنا البدنية والنفسية بطريقة مباشرة وبلا أي حرج. إذا لم نحصل على اللبن نبكي ونصرخ، كما نبكي ونصرخ إذا ابتلت ملابسنا. ونعبر كذلك بطريقة مباشرة وصريحة عن احتياجنا للعطف والدفء الإنساني. *ومبدأ*

اللذة هذا يكاد يكون المبدأ الوحيد الذي يوجه تصرفات الطفل الوليد. وهو يشكل أول جانب يتكون في نفس الإنسان أي الجزء الذي يسميه فرويد *«الهذا»*.

ـ استمر!

ـ ونحن نحتفظ بمبدأ اللذة هذا طول حياتنا، ولكننا نتعلم تدريجيا كيف نتحكم في رغباتنا ونتواءم مع بيئتنا. أي نتعلم كيف نكيف مبدأ اللذة مع *«مبدأ الواقع»*. يقول فرويد إننا نكون، في غمار عملية التطويع والتكيف هذه، الجانب الثاني من نفس الإنسان وهو *«الأنا»* الخاصة بكل منا، فالأنا هي التي تقوم بهذه الوظيفة التحكمية الضابطة. فعندما نتقدم في العمر لا نستطيع، إن كنا نريد شيئا أو نحتاج إليه، أن نأخذ في الصياح حتى تلبى رغبتنا أو حاجتنا.

ـ كلا بالطبع.

ـ واذا كانت حاجتنا إلى شيء ما حاجة شديدة لكن العالم الخارجي يرفض تلبيتها لنا، نضطر عندئذ إلى قمع رغبتنا أو كبتها. وهذا يعني أننا نحاول إبعادها أو نسيانها.

ـ أفهم ذلك.

ـ وعلاوة على «الهذا» الذي يعمل وفقا لمبدأ اللذة، ثم «الانا» التي تسعى إلى التكيف مع مبدأ الواقع، أظهر فرويد جانبا ثالثا في نفس الإنسان. فنحن نواجه منذ طفولتنا الرواد ع الأخلاقية لأهلنا وللمجتمع. إن فعلنا شيئا خاطئاً يقول الأهل «لاتفعل هذا!»، أو «اسمع الكلام»، أو «هذا أمر سيء». وهكذا نتقدم في العمر ونحن محتفظون في داخلنا بصدى هذه المطالب والأحكام الأخلاقية. ويبدو الأمر كما لو أن الرواد ع الأخلاقية للعالم الخارجي قد أصبحت جزءا منا، ولذا يسمي فرويد هذا الجانب *«الأنا العليا»*.

ـ هل يقصد بذلك الضمير؟

ـ إن الضمير جزء من الأنا العليا ولكن الذي اهتم به فرويد هو أن الأنا العليا تقول لنا متى تكون رغباتنا «سيئة» أو «غير لائقة»، وخاصة في حالة الرغبات الشبقية أو الجنسية. وكما قلت لك يعتقد فرويد أن هذه الرغبات« غير اللائقة»تكون موجودة بالفعل في مرحلة مبكرة من الطفولة.

ـ وكيف هذا؟

ـ إننا نعرف اليوم أن الأطفال الصغار ميالون إلى تحسس أعضائهم الجنسية، وهذا أمر نستطيع أن نلاحظه على أي شاطىء. أما في زمن فرويد فإن هذا السلوك كان يسفر عن ضربة تهوي على أصابع طفل عمره سنتان أو ثلاث سنوات، وربما قالت له أمه «لا تفعل هذا!»، أو «كف عن هذه الشقاوة!».

ـ هذا ما نلاحظه فعلا.

ـ وهنا يبدأ الشعور بالذنب إزاء كل شيء يرتبط بالجنس. ولما كان هذا الشعور بالذنب يبقى كامنا في الأنا العليا فإن كثيراً من الناس، بل ومعظم الناس في رأي فرويد، يحملون هذا الشعور بالذنب إزاء الجنس طول حياتهم. كما أوضح في الوقت ذاته أن الرغبات والحاجات الجنسية دوافع طبيعية وحيوية لدى الإنسان. وبالتالي يحدث صراع بين الرغبة والشعور بالذنب طول العمر.

ـ ألا تعتقد أن هذا الصراع قد قلت حدته الآن عن أيام فرويد؟

ـ بكل تأكيد، لكن عددا كبيرا من مرضى فرويد قد عانوا هذا الصراع معاناة عنيفة إلى درجة أنهم أصيبوا بنوع من الاضطرابات النفسية أسماه فرويد *«العصاب»*. فإحدى مريضاته مثلاً كانت تحب سرا زوج أختها. وعندما ماتت أختها من مرض أصابها راحت تفكر: «لقد تحرر الآن من ارتباطه وأصبح بوسعه أن يتزوجني!». ولكن هذه الفكرة اصطدمت، بطبيعة الحال، مع الأنا العليا لديها، إذ إنها كانت فكرة رهيبة، ألم تكن تعني انها تتمنى بمعنى ما موت أختها؟ ولذلك حاولت أن تقمع هذه الفكرة على الفور كما روى فرويد. اي أن هذه الفتاة قد دفنت، بعبارة أخرى، هذه الفكرة بعيدا في أعماق اللاوعي. وكتب فرويد يقول «مرضت هذه الفتاة الشابة وظهرت عليها أعراض هيستيرية خطيرة. وعندما بدأت علاجها بدا أنها نسيت تماماً المشهد الذي خطر على ذهنها وهي واقفة بجوار سرير أختها الراحلة وأنها نسيت كذلك هذه الرغبة الأنانية البغيضة التي انبثقت في نفسها. ولكنها تذكرت هذه الفكرة خلال التحليل فاعتراها اضطراب شديد حين عاشت هذه اللحظة المرضية مرة ثانية. غير أن هذه المعايشة الجديدة كانت هي العلاج الذي قادها إلى الشفاء».

ـ أفهم الآن بشكل أفضل ما كنت تقصده بعلم آثار النفس.

ـ يمكننا إذن أن نقدم وصفا عاما لنفس الإنسان. فبعد سنوات طويلة قضاها فرويد في علاج المرضى استنتج أن الوعي لا يشكل إلا جزءا صغيرا من نفس الإنسان. إن الوعي يشبه قمة جبل الجليد الظاهرة فوق سطح الماء. أما تحت سطح البحر، أو تحت سطح الوعي، فيوجد الجزء المختفي أو *اللاوعي*.

ـ اللاوعي إذن هو كل شيء موجود داخلنا ونسيناه أو لا نتذكره.

ـ إن تجاربنا لا تظل حاضرة كلها في وعينا طول الوقت. فبعض هذه التجارب نستطيع تذكره إذا بذلنا قليلا من الجهد. والحيز الذي تحتله هذه التجارب التي يسهل تذكرها يسميه فرويد *ما قبل الوعي*. أما الأشياء التي كبتناها، أي الأشياء التي بذلنا جهدا لنسيانها لأننا نعتبرها إما مؤلمة، وإما سيئة، وإما وضيعة فانها تشكل ما أسماه فرويد اللاوعي. فإذا شعرنا برغبات لا يقرها الوعي فإن الأنا العليا تدفعها إلى أسفل أو إلى الدور تحت الأرضي، إذا جاز التعبير، لتتخلص من وجودها المزعج.

ـ أفهم ذلك.

ـ وهذه الآلية تعمل عند جميع الأشخاص الأصحاء. ولكن قد يضطر بعض الناس إلى بذل جهود هائلة لإبقاء الأفكار المؤلمة أو المحرمة بعيدا عن الوعي، الأمر الذي قد ينتهي إلى إصابتهم باضطرابات عصبية أو نفسية. فأي شيء يجري كبته على هذا النحو سيحاول أن يتسلل بطريقته الخاصة ليعود مرة أخرى إلى حيز الوعي، مما سيضطر بعض الناس إلى بذل طاقة أكبر لإبقاء هذه الدوافع بعيدة عن العين الناقدة للوعي. وعندما كان فرويد في أمريكا عام ١٩٠٩ يحاضر في التحليل النفسي، ضرب المثل التالي ليوضح الطريقة التي تعمل بها آلية الكبت.

ـ لا بد أنه مثل شائق!

ـ لقد قال: «لنتخيل أن في هذه القاعة شخصا لا يكف عن المقاطعة والضحك وضرب الأرض بقدميه فيشتت انتباهي ولا أستطيع أن أواصل محاضرتي. فأتوقف وأقول للحضور إني لا أستطيع إتمام حديثي في هذه الظروف. وعندئذ ينهض عدة رجال أقوياء من بين الحضور ويسحبون هذا الرجل المزعج ويطردونه خارج القاعة. لقد أصبح الآن *مكبوتا* مقموعا، وأستطيع آنذاك أن أستمر في محاضرتي. وحتى لايتكرر هذا الإزعاج إذا حاول هذا الرجل المزعج أن يعود إلى القاعة مرة أخرى فإن نفس الرجال الأشداء الذين أخرجوه سيظلون واقفين على الباب مشكلين حاجز مقاومة يحافظ على حالة الكبت أو القمع. فإذا تصورنا الآن أن القاعة هي الوعي، وأن الممر الخارجي هو اللاوعي، تكون لدينا صورة توضح لنا عملية *الكبت*».

ـ أعترف بأنها صورة موفقة فعلا.

ـ إلا أن الرجل المزعج لا يكف عن محاولة التسلل يا صوفيا. أو هـذا مـا يحدث على الأقل مع الأفكار والرغبـات المكبوتـة. إننـا نعيـش في ظـل «الضغـط» المستمر للأفكار المكبوتة التي تحاول أن تشق طريقهـا وتخـرج مـن اللاوعـي إلى حـيز الوعـي. وهذا ما يفسر أننا قد نقول أو نفعل في أحيان كثيرة أشياء لا ننتويها، كزلـة اللسـان مثلاً. وبهذه الطريقة توجه ردود الأفعال اللاواعية مشاعرنا وتصرفاتنا.

ـ هل تستطيع أن تعطيني مثلاً على هذا؟

ـ لقد كشف فرويد عن كثير مـن هـذه الآليـات، ومنهـا مثـلاً التصرفـات غـير المقصودة. أي أننا قد نقول أو نفعل عن غير قصد أشياء حاولنا أن نكبتها مـن قبـل. ويضرب فرويد مثلاً طريفا عن رئيس لعمال أحد المحلات كان عليه أن يدعو زملاءه ليشـربوا نخبـا في صحـة صـاحب المحـل. والمشـكلة هـي أن صـاحب المحـل هـذا كـان مكروها من الجميع، وكان كل العمال يعتبرونه شخصا حقيرا.

ـ وماذا بعد؟

ـ قام رئيس العمال ورفع كأسـه وقـال «والآن لنشـرب في صحـة هـذا الرجـل الحقير».

ـ حقاً!

ـ ولا تتخيلي مدى ارتباك رئيس العمال. فبرغم أنه لم يكن ينوي على الإطـلاق أن يتفوه بما قاله، فإنه لم يقل إلا ما كان يفكر فيـه بـالفعل. هـل تريديـن أن تسـمعي مثلاً آخر؟

ـ نعم من فضلك.

ـ كانت أسرة قسيس إحدى القرى الصغيرة تنتظر زيارة أسقف كبير قـادم مـن العاصمة. ولكن المشكلة أن هذا الأسقف الكبير كـان لـه أنـف مفـرط الطـول، وان أسرة الراهب تضم عددا كبيرا من البنات الصغيرات. ولذلك تم التنبيـه مـرارا علـى الفتيات الرقيقات ألا يشرن من قريب أو بعيد إلى أنف الأسـقف المبجـل. فالأطفـال يتفوهون في أحيان كثيرة بملاحظات تلقائية عما يلاحظونـه لـدى الآخريـن لأن آليـة الكبت لم تتطور بعد تماماً لديهم. ووصـل الأسـقف وحـاولت الفتيـات المهذبـات ألا يشرن إلى أنفه، بل حاولنا في الواقع ألا ينظرن إليه وأن يتجاهلنـه تمامـاً. إلا أن أنهـن كن يفكرن في هذا الأنف الضخم طول الوقت. وعندما طلب من إحداهـن أن تقـوم بتمرير السكرية ليضع الضيوف بعضا من السكر في أقداحهم، كـل حسـب رغبتـه، نظرت الفتاة الرقيقة إلى الأسقف المحترم وقـالت «هـل تريـد يـا حضـرة الأسـقف أن تضع بعض السكر في أنفك؟».

ـ هذا موقف محرج حقاً!

ـ ومن الآليات الأخرى محاولة *عقلنة الأمور*. وهذا يعني أننا لا نذكر السبب الحقيقي لما نفعله بل نحاول مدارة هذا السبب لا عن الآخرين فحسب وإنما عن أنفسنا أحيانا، لأن السبب الحقيقي يكون في رأينا مزعجا مرفوضا.

ـ أعطني مثلاً من فضلك!

ـ أستطيع مثلاً أن أنومك تنويما مغناطيسيا وأقول لك: كلما سمعت طرقات أصابعي على المكتب عليك أن تقومي بفتح النافذة، ثم أنهي جلسة التنويم المغناطيسي. وبينما نحن جالسان نتحدث بعد ذلك أبدأ في النقر على المكتب فتقومين وتفتحين النافذة، وعندئذ أسألك لماذا فتحت النافذة فتجيبين أنك شعرت بأن الغرفة شديدة الحرارة. ليس هذا هو السبب الحقيقي، إلا أنك لا تريدين أن تعترفي أمام نفسك بأنك إنما تنفذين شيئا أمرتك به تحت تأثير التنويم المغناطيسي. أنت إذن تحاولين «عقلنة» تصرفك، أو أن تجدي له تفسيرا تستطيعين قبوله.

ـ فهمت قصدك.

ـ ونحن نصادف هذا النوع من المواقف في حياتنا اليومية وكثيراً ما نقول شيئا لنخفي به شيئا آخر.

ـ انك تذكرني بابن خالتي الصغير الذي حدثتك عنه. أنا لا أظن أن لديه كثيراً من الأصدقاء ليلعب معهم، ولذلك يكون سعيدا عندما أزوره فلا يحب أن أتركه. وذات يوم أخبرته أني مضطرة للإسراع بالعودة إلى البيت لأن أمي تنتظرني. فهل تعرف ماذا قال؟

ـ وماذا قال؟

ـ قال إنها غبية!

ـ نعم، هذا مثل جيد على عقلنة الأمور. إنه لم يقصد أن يصف أمك بذلك لقد أراد أن يقول إن من الغباء أن تتركيه بهذه السرعة، ولكنه رفض أن يعترف أمام نفسه بشدة احتياجه إليك. ومن الآليات الأخرى آلية *الإسقاط*.

ـ وما هذا؟

ـ المقصود بالإسقاط هو أن ننسب إلى الآخرين الصفات التي نحاول كبتها في أنفسنا. إن الشخص البخيل مثلاً يميل إلى وصف الآخرين «بالحرص على المليم». والشخص الذي ينكر أنه يهتم بالجنس سيكون أول من يتهم الآخرين بأنهم مهووسون بالجنس.

ـ أفهم قصدك.

ـ يرى فرويد أن حياتنا اليومية مليئة بآليات لاواعية من هذا النوع. فنحن ننسى باستمرار اسم شخص معين، أو لا نكف عن اصلاح هندامنا أثناء الكلام، أو نغير مواقع أشياء تبدو لنا بلا أهمية في الغرفة. كما أننا قد نتلعثم عند نطق كلمات معينة أو نتعرض لزلات لسان أو قلم قد تبدو في ظاهرها بريئة تماماً. لكن فرويد يبين أن هذه الزلات والهفوات ليست صدفا عرضية ولا هي بريئة كما قد نظن. فإن هذه التصرفات قد تفضح في الواقع أعمق أسرارنا.

ـ من الآن فصاعدا سأبذل عناية شديدة في مراقبة ما أقول أو أفعل.

ـ حتى إن فعلت فلن تنجحي في الهروب من دوافعك اللاواعية. بل إن المهارة تتمثل بالتحديد في عدم بذل جهد زائد لمواراة الأشياء البغيضة في اللاوعي. لأن تلك المواراة غير مجدية وغير ذكية. فهي أشبه بمحاولة سد جحر الفئران في الحديقة ببعض الطين. فمن المؤكد أن الفأر سيظهر في جزء آخر من الحديقة. لذلك فإن من الصحي ترك الباب مواربا بين الوعي واللاوعي.

ـ لأننا إن أغلقنا الباب نصاب بمرض نفسي؟

ـ نعم، إن «العصابي» هو الشخص الذي يستخدم طاقة كبيرة في محاولة إبقاء التجارب التي يعتبرها بغيضة بعيدة عن وعيه. وفي أغلب الأحيان تكون هذه التجارب أهمية خاصة ولذلك يسعى هذا الشخص بكل قواه إلى كبتها. ويسمي فرويد هذا النوع من التجارب بالجروح النفسية.

ـ فهمت قصدك.

ـ وقد حاول فرويد أثناء علاج مرضاه أن يفتح هذا الباب بحذر. فإن لم يستطع كان يحاول أن يفتح بابا آخر. ثم يسعى بمساعدة المريض إلى إخراج هذه التجارب المكبوتة إلى حيز الوعي. إن المريض لا يعرف ما هو مكبوت ولكنه يستطيع أن يشارك في محاولة المحلل النفسي الرامية إلى إظهار هذه الجروح النفسية الدفينة.

ـ وكيف يقوم الطبيب أو المحلل النفسي بذلك؟

ـ لقد ابتكر فرويد أسلوبا علاجيا أطلق عليه اسم *التداعي الحر* للأفكار، حيث يستلقي المريض في وضع مريح ويتكلم بحرية عن كل ما يجول بخاطره مهما كان عرضيا، أو تافها، أو بغيضا، أو محرجا. ففكرة العلاج هي النفاذ من هذا الغطاء المحكم واختراق الرقابة المفروضة على الجروح النفسية. لأن هذه الجروح هي التي تسبب الأعراض التي يعاني منها المريض، إذ إنها تمارس تأثيرها طول الوقت حتى وإن كان المريض لا يشعر بذلك على مستوى الوعي.

ـ كلما حاولت أن تنسى شيئا زاد تفكيرك فيه بشكل لاواع؟

ـ بالضبط، ولذلك من المهم الإنصات جيدا للإشارات الآتية من اللاوعي. ويرى فرويد أن الأحلام هي الطريق الملكي الذي يقودنا إلى اللاوعي. والواقع أنه كتب مؤلفه الأكبر عن هذا الموضوع بالتحديد، ويدعى هذا الكتاب *تفسير الأحلام*، وقد نشره فرويد عام ١٩٠٠ وأوضح فيه أن أحلامنا لا تحدث صدفة واعتباطا. فالحلم هو اللغة التي يحاول اللاوعي أن يخاطب بها الوعي.

ـ استمر...

ـ بعد أن قضى فرويد سنوات طويلة يراكم خبرات قيمة في علاج مرضاه وفي تحليل أحلامهم وأحلامه هو كذلك، انتهى إلى نتيجة بالغة الأهمية تقول إن جميع الأحلام تسعى إلى *تحقيق رغبات* معينة. وقال يكفينا أن نلاحظ الأطفال فهم يحلمون بالحلوى والفاكهة. أما الكبار فإن رغباتهم التي تسعى أحلامهم إلى تحقيقها تكون مقنعة في أحيان كثيرة. ذلك لأننا نمارس، حتى أثناء النوم، رقابة على ما نجيزه لأنفسنا. وبالرغم من أن هذه الرقابة، أو آلية الكبت، تكون أضعف كثيراً أثناء النوم عنها أثناء اليقظة، فإنها تكون قوية بقدر يكفي لجعل الأحلام تخفي الرغبات التي لا نستطيع قبولها، فتعرضها في صورة رمزية مقنعة.

ـ ومن هنا ضرورة تفسير الأحلام.

ـ بالضبط، وقد أوضح فرويد أننا يجب أن نميز عند تفسير الحلم بين الحلم الفعلي كما نتذكره في الصباح والمعنى الحقيقي لهذا الحلم. وقد سمى فرويد الصور الفعلية للحلم، أو الفيلم الذي نحلم به، *المحتوى الظاهري* للحلم. وهذا المحتوى الظاهري يستعير مادته من أحداث الماضي القريب، وفي أحيان كثيرة من أحداث

اليوم السابق. لكن الحلم ينطوي أيضاً على معنى عميق محجوب عن الوعي. ويسمي فرويد هذا المعنى *المحتوى الكامن* للحلم، أو المحتوى الخفي للحلم، وهو محتوى قد يعود إلى ماض بعيد بل إلى الطفولة المبكرة أحيانا.

ـ ولذلك يجب تحليل الحلم أولا كي نفهم معناه.

ـ نعم، وفي حالة المريض النفسي فإن هذا التفسير يتم بمساعدة المحلل المعالج. ولكن الطبيب لا يفسر الحلم بمفرده إنه يفعل ذلك بمعونة المريض. ففي هذه الحالة يقوم الطبيب النفسي بوظيفة «المولدة»، بالمعنى السقراطي للكلمة، لانه هو الذي يساعد على استخراج معنى الحلم.

ـ إني أفهم قصدك.

ـ وتحويل المحتوى الكامن إلى المحتوى الظاهري للحلم عملية أطلق عليها فرويد اسم *عمل الحلم*، ويقصد به محاولة الحلم التعبير عن محتوى خفي في صورة رمزية مقنعة. وعند تفسير الحلم يجب علينا أن نعكس هذه العملية فنفك الرموز وننزع الأقنعة التي تتنكر وراءها الدوافع حتى نكشف موضوع الحلم المتواري.

ـ هل تستطيع أن تعطي مثلاً على ذلك؟

ـ إن كتاب فرويد حافل بالأمثلة. إلا أننا نستطيع أن نتخيل بأنفسنا مثلاً بسيطا وفرويديا تماماً. فلنقل مثلاً أن شابا رأى في الحلم أن إحدى قريباته الشابة تهديه بالونتين...

ـ وماذا بعد؟

ـ هيا، حاولي أن تفسري الحلم بنفسك.

ـ... المحتوى الظاهري للحلم هو كما قلت: شاب يتلقى بالونتين من قريبته الشابة.

ـ استمري..

ـ لقد قلت إن السيناريو، أو عناصر الحلم، تستعار من أحداث الماضي القريب. يمكننا أن نتصور إذن أنه قد ذهب إلى حديقة عامة يباع فيها هذا النوع من البالونات، أو ربما يكون رأي صورها في إحدى الصحف.

ـ هذا جائز بالطبع، وإن كان يكفيه كذلك أن يرى كلمة بالون، أو شيئا يذكره بالبالون.

ـ ولكن ما هو المحتوى الكامن أو الخفي للحلم؟

ـ أنت من تقومين بالتفسير. ـ لقد قلت إن الحلم تحقيق لرغبة، فربما كان يريد ببساطة أن يحصل على بالونتين.

ـ كلا، هذا تفسير غير مقنع. أنت محقة في أن الحلم تحقيق لرغبة. إلا أن من الصعب أن نتخيل شابا لديه رغبة قوية في الحصول على بالونتين. إذا كانت هذه رغبته حقاً لم يكن بحاجة لكبتها ولأن يحلم بها بالتالي.

ـ أعتقد أني فهمت الآن معنى الحلم: إنه يريد قريبته الشابة في الحقيقة، وما البالونتان سوى رمز لنهديها.

ـ نعم، هذا تفسير أقرب للتصديق. فهو تفسير يفترض أنه شعر بالخجل من رغبته هذه فكبتها. وعندما عبر عنها في الحلم كان من الصعب كشفها صراحة بسبب الرقابة التي نفرضها على انفسنا، فصاغ الحلم الرغبة في صورة رمزية.

ـ نحن إذن نستخدم في أحلامنا تلميحات غير مباشرة؟

ـ نعم، إذ كان فرويد يعتقد أن الحلم هو *تحقيق مقنع لرغبة مكبوتة*. وربما كان ما نكبته قد تغير كثيراً بالقياس إلى الفترة التي كان فرويد يمارس خلالها علاجه النفسي في فيينا. غير أن آلية إخفاء معنى الحلم ما زالت كما هي.

ـ نعم، إني أفهم ما تقصده.

ـ كان أسلوب التحليل النفسي الذي ابتكره فرويد بالغ الأهمية في العشرينات، وخاصة لعلاج بعض المرضى النفسيين. كما كان لنظريته عن اللاوعي تأثير واسع أيضاً في مجال الفن والأدب.

ـ هل أصبح الفنانون مهتمين بالحياة اللاواعية للنفس؟

ـ بالضبط، بالرغم أن هذا الاهتمام كان قد تجلى بالفعل في الأدب في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أي قبل أن يصبح منهج التحليل النفسي الذي ابتكره فرويد معروفا. وهذا يوضح أن ظهور التحليل النفسي في ذلك الوقت بالتحديد لم يكن من قبيل الصدفة.

ـ هل تقصد أنه كان يعبر عن روح تلك الفترة؟

ـ إن فرويد نفسه لم يزعم أنه اكتشف ظواهر مثل الكبت، أو الآليات النفسية الدفاعية، أو العقلنة، غير أنه كان أول من طبق هذه الظواهر والتجارب الإنسانية في مجال علم النفس. كما كان بارعا في التدليل على نظرياته باقتباسات واستشهادات

أدبية. لكن التحليل النفسي الفرويدي كان له، كما قلت لك من قبل، تأثير مباشر واضح على الفن والأدب اعتبارا من العشرينات.

ـ بأي معنى؟

ـ لقد حاول الشعراء والرسامون، ولا سيما السيرياليين، أن يسخروا قوة اللاوعي في ابداع أعمالهم الفنية.

ـ ومن هم هؤلاء السيرياليون؟

ـ *السيريالية* كلمة من أصل فرنسي وتعني «ما فوق الواقعية» أو «ما يتجاوز الواقعية». ففي عام ١٩٤٢ نشر *أندريه بروتون* *«البيان السيريالي»* الذي أعلن فيه أن الفن ينبغي أن ينبثق من اللاوعي. وقال إن الفنان عليه أن يستلهم بأكبر قدر من الحرية صور أحلامه وأن يسعى نحو واقع أعلى تتلاشى فيه الحدود بين الحلم والواقع. فالفنان عليه أيضاً أن يحطم الرقابة التي يفرضها الوعي حتى تنطلق الكلمات والصور بكل حرية.

ـ أفهم ما تريد أن تقول.

ـ لقد أثبت فرويد بمعنى ما إن كل إنسان فنان. فالحلم في نهاية المطاف عمل فني صغير، ونحن ننتج كل ليلة أحلاما جديدة. وقد استعان فرويد في تفسير أحلام مرضاه بطائفة واسعة من الرموز كأنما هو يفسر لوحة أو نصا أدبيا.

ـ وهل نحلم كل ليلة دون استثناء؟

ـ أوضحت البحوث الحديثة أننا نحلم خلال عشرين في المائة تقريبا من ساعات نومنا، أي ما بين ساعة وساعتين كل ليلة. وإذا حدث أن تعرضنا للإزعاج لسبب ما أثناء الفترات التي نحلم فيها لأصابنا التوتر. ويعني هذا أن كل إنسان لديه حاجة فطرية لأن يبدع تعبيرا فنيا عن حالته الوجودية. فنحن ذاتنا مادة أحلامنا. اذ اننا من يخرج الفيلم، ومن يكتب السيناريو، ومن يمثل جميع الأدوار. والشخص الذي يقول إنه لا يهتم بالفن يفتقر إلى المعرفة الحقيقية بنفسه، ويجهل انه يبدع كل يوم عملا فنيا جديدا يعبر به عن أعمق مشاعره.

ـ هذا تعبير موفق.

ـ كما قدم فرويد أدلة لافتة للنظر عن القدرات العجيبة لنفس الإنسان. فقد أقنعته تجاربه العلاجية بأننا نحتفظ بكل شيء رأيناه وعشناه كامنا في أعماق وعينا،

وبأن كل هذه الانطباعات يمكن إخراجها إلى السطح من جديد. فعندما نقول «هـذا يذكرني بشيء ما»، ثم نقول «إنه على طرف لساني»، ثم نقول بعد ذلك «لقد تذكرته الآن فجأة»، فإننا نتكلم عن شيء كان مطمورا في اللاوعي ثم وجد أخيراً باباً موارباً يتسلل منه إلى حيز الوعي.

ـ ولكن هذا يستغرق فترات طويلة أحيانا.

ـ نعم، وهذا أمر يعرفه كل الفنانين جيدا، ولكن يحدث أيضاً أن تنفتح جميع الأبواب وجميع الأدراج فجأة فيتدفق كل شيء من تلقاء ذاته، ونستطيع عندئذ أن نجد كل الكلمات والصور التي نحتاجها. ويحدث هذا عندما نرفع قليلا غطاء اللاوعي. ونحن نسمي هذا «الإلهام». فنشعر أن ما نرسمه أو نكتبه لا يأتي من أنفسنا وإنما من مصدر خارجي.

ـ لا بد أنه شعور رائع.

ـ ولا بد أنك قد جربته بنفسك. ويكفي أن تراقبي حالة الإلهام هذه عند الأطفال عندما يبلغ بهم التعب منتهاه. إذ يبدأون فجأة في حكاية قصة ويستخدمون كلمات لم يتعلموها بعد. وان كنا نستطيع أن نقول انهم قد تعلموها في الواقع، فهذه الكلمات والأفكار تشربوها من البيئة المحيطة بهم وظلت كامنة في لاوعيهم، وعندما رفعت كل أشكال الحظر والرقابة أخذت تلك الكلمات والافكار تخرج إلى السطح. وقد يكون من المهم للفنان أيضاً ألا يدع العقل أو التفكير يتحكم فيما يصدر عن اللاوعي من تعبير تلقائي. هل أقص عليك قصة صغيرة توضح هذا؟

ـ تفضل أرجوك.

ـ إنها قصة جادة جدا وحزينة جدا.

ـ احكها مع ذلك.

ـ كانت هناك حشرة من النوع الذي يسمى أم أربع وأربعين وكانت ترقص بمهارة بارعة بجميع أرجلها الأربع والأربعين. وكلما رقصت اجتذبت كل حيوانات الغابة التي تأتي لتشاهدها وتتأمل رقصها البديع. ولكن كان هناك حيوان واحد لا يروق له أن يشاهد أم أربع وأربعين وهي ترقص: انها السلحفاة.

ـ كانت تغار منها على الأرجح.

ـ وأخذت السلحفاة تفكر: ماذا أفعل حتى تكف أم أربع وأربعين عن الرقص؟ لم تكن السلحفاة تستطيع أن تقول إنها لا تحب طريقة رقصها، ولا إنها ترقص بأسلوب أبرع منها، فمن كان سيصدقها؟ ولذلك كان عليها أن تدبر خطة شيطانية.

ـ وما هذه الخطة؟

ـ جلست وكتبت رسالة لأم أربع وأربعين قالت فيها: «أنت أبرع راقصة في الغابة يا أم أربع وأربعين، وأنا معجبة مخلصة برقصك الرائع. ولذلك اسمح لنفسي بأن أسألك كيف تحركين أرجلك أثناء الرقص. هل ترفعين قدمك اليسرى رقم ٢٨ ثم قدمك اليمنى رقم ٣٩؟ أم هل تبدأين برفع قدمك اليمنى رقم ١٧ ثم ترفعين قدمك اليسرى رقم ٤٤؟ إني أنتظر ردك بفارغ الصبر.السلحفاة المعجبة».

ـ فماذا كان رد أم أربع وأربعين؟

ـ عندما قرأت أم أربع وأربعين الرسالة بدأت فوراً في التفكير فيما تفعله عندما ترقص. أي قدم ترفعها أولا؟ وأي قدم ترفعها بعد ذلك؟ فما الذي حدث في النهاية في رأيك يا صوفيا؟

ـ أعتقد أن أم أربع وأربعين فقدت قدرتها على الرقص مرة أخرى.

ـ وتلك هي النهاية الحزينة، وهذا ما يحدث عندما يخنق العقل الخيال.

ـ إنها قصة حزينة حقاً.

ـ ولذلك فمن المهم للفنان أن يترك نفسه على سجيتها. وقد حاول السيرياليون أن يستغلوا قوة الخيال بأن يضعوا أنفسهم في حالة يبدو فيها كأنما الأشياء تحدث من تلقاء ذاتها. فكانوا يضعون ورقة بيضاء أمامهم ويبدأون في الكتابة دون تفكير فيما يكتبون. وكانوا يسمون هذه الطريقة «الكتابة الآلية»، وهي عبارة استعاروها ممن يدعون تحضير الأرواح، حيث يجلس الوسيط أمام ورقة فيجري قلمه بما تمليه روح أحد الراحلين. ولكني أعتقد أننا سنتكلم عن هذا النوع من الامور غدا.

ـ هذا موضوع مثير.

ـ إن الفنان السيريالي هو أيضاً وسيط بمعنى ما، فهو وسيط اللاوعي الخاص به. ولكن ربما كان هناك عنصر من اللاوعي في كل عملية إبداعية. إذ ما الذي نقصده في الواقع بكلمة إبداع؟

ـ لست متأكدة، أليس المقصود بها هو خلق شيء ما؟

ـ نعم، وهذا يحدث في عملية تفاعل بالغة الحساسية والدقة بين الخيال والعقل. ولكن كثيراً ما يحدث أن يخنق العقل الخيال وهذا أمر خطير، فبدون الخيال لن يخلق أبدا شيء جديد. إنني أعتقد أن الخيال أشبه بنظام دارويني، أقصد انه يعمل بطريقة تذكرنا ببعض القوانين التي اكتشفها داروين.

ـ أنا آسفة لا أستطيع أن أتابعك هنا.

ـ لقد أوضحت نظرية داروين أن الطفرات تحدث في الطبيعة بصفة مستمرة إلا أن الطبيعة لا تحتفظ إلا بعدد قليل منها هو الذي يزيد فرص الكائن في البقاء.

ـ وماذا بعد؟

ـ وهذا ما يحدث عندما نستوحي الإلهام وتتدفق علينا أعداد هائلة من الأفكار الجديدة. إن الطفرات تحدث في الوعي واحدة وراء الأخرى، على الأقل إذا توقفنا عن فرض رقابة صارمة على أنفسنا.غير أن بعض هذه الأفكار فقط هو الذي يمكن استخدامه. وعندئذ يأتي العقل ليقوم بدوره. فهو أيضاً له مهمة حيوية يؤديها. وعندما نضع حصيلة اليوم على المكتب يجب أن نقوم بعملية فرز أو «انتخاب».

ـ هذا تشبيه موفق.

ـ تخيلي إذا كان كل ما يمر برؤوسنا يجري على ألسنتنا! ناهيك عما نكتبه في مفكراتنا أو في مذكرات نتركها في أدراج مكاتبنا! إن العالم كان سيغرق في بحر من الأفكار الاعتباطية ولن يكون هناك أي «انتخاب» يا صوفيا.

ـ وهل العقل هو الذي يختار وينتخب بين هذه الأفكار كلها؟

ـ نعم ألا تعتقدين ذلك؟ ربما كان الخيال هو الذي يخلق الجديد، إلا أن الخيال ليس هو من يقوم بالاختيار الفعلي. إن الخيال وحده لا «يؤلف». إن التأليف وهو جوهر كل عمل فني هو ثمرة تفاعل عجيب بين الخيال والعقل، أو بين الشعور والتفكير. كيف تربي قطيعاً سليماً معافى عليك أولا أن تتركي الخراف ترعى حرة طليقة.

جلس ألبرتو ساكنا يتطلع من النافذة. وفجأة لاحظت صوفيا بجوار البحيرة مجموعة كبيرة من شخصيات والت ديزني تسير متضاحكة في ملابسها ذات الألوان الزاهية. فصاحت:

ـ انظر يا ألبرتو هذا بندق!... وهذا بطوط وهؤلاء أولاد أخيه! انظر يا ألبرتو هذا عم ذهب! وهذا ميكي...

التفت ألبرتو نحوها وقال:

ـ أجل، هذا أمر مؤسف يا ابنتي.

ـ ماذا تقصد بهذا؟

ـ إننا نجلس هنا ضحيتين بلا حول ولا قوة لهذا الضابط الذي يطلق قطيعه. ولكن هذا خطأي أنا بالطبع، فقد انطلقت في الحديث عن التداعي الحر للأفكار.

ـ يجب ألا تلوم نفسك...

ـ كنت أريد أن أقول شيئا عن أهمية الخيال بالنسبة لنا معشر الفلاسفة. فكي نفكر في شيء جديد يجب أن تكون لدينا شجاعة كافية للتعبير عن أنفسنا على سجيتها. لكنه الآن يبالغ حقاً.

ـ لا تشغل بالك بهذا.

ـ كنت على وشك الكلام عن أهمية التأمل، ثم ها هو يرسل إلينا مهرجيه. عليه أن يخجل من نفسه!

ـ هل أنت تتهكم الآن؟

ـ إنه هو الذي يتهكم لا أنا. ولكن هناك أمرا يعزيني وهو حجر الزاوية في خطتي.

ـ أنا لا أفهم شيئا مما تقول.

ـ لقد تكلمنا عن الأحلام. وهناك قدر من التهكم في هذا أيضاً، فما نحن في نهاية المطاف إلا صور خلقها خيال الضابط؟

ـ وهل أحتاج لأن تذكرني بهذا...

ـ غير أن هناك أمرا لم يأخذه في اعتباره.

ـ وما هذا؟

ـ ربما كان واعيا بحلمه ويعرف كل ما نقوله ونفعله، بالضبط كما يتذكر الحالم المحتوى الظاهر لحلمه. فهو من يمسك القلم ويكتب. ولكن حتى إن كان يتذكر كل شيء فهو ما زال لم يفق تماماً.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ إنه لا يعرف الأفكار الكامنة في حلمه يا صوفيا. إنه ينسى أن هذا أيضاً حلم مقنع.

ـ إنك تتكلم بطريقة غريبة جدا.

ـ والضابط يفكر بهذه الطريقة أيضاً. وذلك لأنه لا يفهم اللغة الخاصة بحلمه. وهذا أمر في صالحنا فهو يعطينا هامشا للحركة حتى وإن كان ضيقا. وهامش الحركة هذا هو الذي سنتسلل من خلاله خارجين من وعي هذا الضابط الموحل كما تخرج فئران الحديقة من جحورها لتستمتع بالشمس في يوم دافيء من أيام الصيف.

ـ هل تعتقد أننا سننجح في هذا؟

ـ يجب علينا أن ننجح. في خلال أيام قليلة سأفتح أمامك سماء جديدة وعندئذ لن يعرف الضابط أين ذهبت فئران الحديقة أو أين ستطل برأسها في المرات المقبلة.

ـ ولكن حتى إن كنا مجرد صور في حلم، فإني ما زلت ابنة أمي والساعة الآن الخامسة ويجب أن أعود إلى بيتي في ممر النرجس، وأن أعد الحفل الذي سأقيمه في الحديقة.

ـ هل... هل تستطيعين أن تقدمي لي خدمة صغيرة في طريق عودتك؟

ـ أية خدمة؟

ـ حاولي أن تجتذبي انتباهه قليلا. حاولي أن تجعلي الضابط يتابعك بنظره حتى تصلي إلى البيت. وحاولي أن تفكري فيه عندما تصلين هناك فعندئذ سيفكر هو أيضاً فيك.

ـ وما فائدة هذا؟

ـ عندئذ أستطيع أن أمضي في تدبير خطتي السرية بلا إزعاج. فإني سأغوص في أعماق لاوعي الضابط. وسأظل هناك حتى نلتقي من جديد.

الفصل الثاني والثلاثون

عصرنا الحاضر

...حكم على الإنسان بأن يكون حراً...

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل. ظلت هيلد مستلقية في سريرها تتطلع إلى سقف الغرفة. حاولت أن تترك أفكارها تتداعى بحرية، وكلما توقفت سلسلة من الأفكار حاولت أن تفهم لماذا لا تنجح في مواصلتها.

أهناك شيء تحاول أن تكبته؟

لو استطاعت أن تنحي جانبا كل رقابة وتحكم ربما استطاعت أن تحلم دون أن تنام. وشعرت بشيء من الرهبة وهي تقدم على هذه التجربة الجديدة.

كلما زاد استرخاؤها وتركت أفكارها وخيالاتها تنبثق حرة على سجيتها تخيلت أنها موجودة في شاليه الضابط العجوز الذي يطل على البحيرة وتحيط به الغابة من كل مكان.

ما الذي يدبره ألبرتو. إن والدها هو الذي قرر في الحقيقة أن يقوم ألبرتو بالتفكير في خطة معينة. هل يعرف بالفعل ما سيقوم به ألبرتو؟ من يدري ربما كان يحاول أن يرخي أعنة خياله، لعل ما يحدث في النهاية يكون أمرا يفاجئه هو أيضاً.

لم تتبق الآن صفحات كثيرة. هل تلقي نظرة على الصفحة الأخيرة. لا، سيكون هذا غشا. كما أنها لم تكن في الحقيقة واثقة من أن ما سيحدث في الصفحة الأخيرة قد تقرر بالفعل.

أليست هذه فكرة غريبة حقاً؟ إن الملف هنا ووالدها لا يستطيع أن يعود الآن ليضيف إليه شيئا. اللهم إلا إن كان ألبرتو قد فعل شيئا بمبادرة خاصة منه. هل قام ألبرتو بمفاجأة؟...

إن هيلد تدخر من جهتها عدة مفاجآت على أي حال. إن والدها لا يستطيع أن يتحكم فيها هي. ولكن أتستطيع هي أن تتحكم في نفسها تحكما كاملا.

ما هو الوعي؟ أليس هذا لغزا من ألغاز الكون الكبرى؟ وما هي الذاكرة؟ ما الذي يجعلنا «نتذكر» ما رأيناه أو عشناه؟

وما هي الآلية التي تجعلنا نخلق أحلاما عجيبة ليلة بعد ليلة؟

كانت تغلق عينيها من وقت لآخر ثم تفتحهما من جديد وتنظر إلى السقف وفي النهاية نسيت أن تفتحهما مرة أخرى.

لقد أخلدت إلى النوم.

عندما أيقظها في الصباح صياح طيور النورس المحلقة فوق الشاطيء، نهضت من سريرها ومضت كعادتها، صيفا أو شتاء، نحو النافذة تتطلع إلى الخليج.

وبينما هي تنظر إلى الحديقة والمرسى أحست فجأة كأن باقة من الألوان تنفجر في رأسها. إنها تتذكر الآن ما رأته في منامها. لم يكن حلما عاديا ما رأت، فقد كان شديد الوضوح بأشكاله وألوانه...

رأت والدها لحظة عودته من لبنان، وكان كل الحلم استمرارا للحلم الذي رأته صوفيا عندما وجدت الصليب الذهبي على المرسى.

كانت هيلد تجلس على حافة المرسى في نفس مكانها في حلم صوفيا، ثم سمعت صوتا ضعيفا يهمس «أنا صوفيا!» وظلت هيلد جالسة في مكانها ساكنة تحاول أن تسمع من أين يأتي الصوت. واستمر الصوت خافتا واهنا كأنما يصدر عن حشرة ضئيلة: «ألا تسمعيني يا هيلد! لا بد أنك صماء وبكماء!» وعندئذ دخل والدها إلى الحديقة يرتدي زي الأمم المتحدة وصاح «هيلد!». وجرت هيلد نحوه وطوقته بذراعيها. وكانت هذه هي نهاية الحلم.

وتذكرت بعض أبيات من قصيدة للشاعر النرويجي **أرنولف أوفرلاند**:

استيقظت ذات ليلة على حلم غريب
وصوت يكلمني
كصدى آت من أعماق الأرض
فأفقت وسألت: ماذا تريد مني؟

كانت ما زالت واقفة بجوار النافذة عندما دخلت أمها الغرفة.

ـ صباح الخير يا هيلد، هل استيقظت بالفعل؟

ـ لست متأكدة...

ـ سأعود في نحو الرابعة كالمعتاد.

ـ حاضر يا ماما...

ـ أرجو لك يوم أجازة سعيدا يا هيلد!

ـ وأنا أتمنى لك نهارا سعيدا.

عندما سمعت أمها تغلق باب البيت عادت إلى سريرها وفتحت الملف الكبير.

نعم، كانت قد وصلت إلى هنا. قبل أن تعاود هيلد القراءة، مررت أناملها على ما تبقى من أوراق: لم تبق سوى صفحات قليلة.

عندما تركت صوفيا شاليه الضابط العجوز رأت أن بعض شخصيات والت ديزني مازالت تسير بالقرب من البحيرة. إلا أن هذا الموكب الاستعراضي كان يمضي متباعدا كلما اقتربت صوفيا من البحيرة. وما كادت صوفيا تصل إلى القارب حتى كانت تلك الشخصيات قد توارت كلها داخل الغابة.

وبينما هي تجدف، أخذت تقوم بحركات مضحكة بوجهها لاسترعاء انتباه الضابط حتى لا يزعج ألبرتو وهو جالس في الشاليه يدبر الخطة.

سحبت صوفيا القارب إلى الشاطىء، وأخذت ترقص على الطريق ثم تحجل وتقفز وتثب. ثم حاولت أن تمشي كدمية آلية. وكي لا يمل الضابط بدأت تغني. وبعد برهة توقفت لحظة وفكرت فيما عساها تكون خطة ألبرتو. غير أنها سرعان ما تنبهت لغلطتها فشعرت بتأنيب ضميرها وفكرت في تصرف سريع تشغل به الضابط فوجدت أمامها شجرة فراحت تتسلقها بكل همتها.

تسلقت صوفيا إلى أعلى ما تستطيع وعندما اقتربت من قمة الشجرة أدركت بعد أن بلغت هذا العلو الشاهق أنها لن تستطيع أن تنزل بسهولة. حاولت مرة ومرتين. ثم قررت في يأسها أن تنتظر قليلا قبل أن تجرب مرة أخرى، إلا أنها لا تستطيع أن تبقى، بالطبع، ساكنة في مكانها هذا. فالضابط قد يضجر من مراقبتها ويعود للاهتمام بألبرتو ليرى ما يفعله.

أخذت صوفيا تحرك ذراعيها كأنما هي ديك يرفرف جناحيه ثم بدأت تقأقيء مثله بصوت مرتفع. كانت أول مرة تفعل ذلك ورأت أن النتيجة لا بأس بها خاصة إذا أخذنا في الاعتبار موقعها العجيب هذا في قمة شجرة عالية.

حاولت أن تهبط مرة أخرى ولكنها تبينت أنها انحشرت بين الأغصان. وفجأة حطت على غصن قريب منها وزة كبيرة. ولما كانت صوفيا قد رأت توا الاستعراض الذي قامت به شخصيات والت ديزني فإنها لم تفاجأ كثيراً عندما بدأت الوزة تتكلم فتقول:

ـ أنا اسمي الوزة مارتين. وأنا في الحقيقة وزة مستأنسة، إلا أني جئت مع الوز البري من لبنان من أجل هذه المناسبة الخاصة. إذ يبدو أنك تحتاجين إلى مساعدة لتهبطي من الشجرة.

فردت صوفيا:

ـ ولكنك أصغر من أن تساعديني.

ـ إنك تتسرعين في استخلاص النتائج أيتها السيدة الصغيرة، إنك أنت الضخمة الحجم.

ـ أليس هو نفس الشيء؟

ـ أريدك أن تعرفي أني حملت صبيا صغيرا من عمرك تماماً عبر السويد كلها. كان اسمه نيلس هولجرسون.

ـ أنا عمري ١٥ سنة.

ـ ونيلس كان عمره ١٤ سنة، إن سنة تزيد أو تنقص لا أهمية لها بالنظر إلى طول المسافات التي أقطعها.

ـ وكيف استطعت أن تحمليه؟

ـ لقد ضربته ضربة خفيفة بجناحي ففقد الوعي. وعندما أفاق كان حجمه لايزيد على حجم عقلة الإصبع.

ـ ربما استطعت أن تضربيني هذه الضربة الخفيفة أيضاً لأني لا أستطيع أن أبقى في مكاني هنا للأبد. ثم أني سأقيم حفلا فلسفيا في حديقة منزلي يوم السبت المقبل.

ـ هذا أمر طريف، إني أفترض إذن أن هذا كتاب فلسفي. فعندما كنت أطير فوق السويد مع نيلس هبطنا في مدينة مارباكا في منطقة فارملاند، وهناك قابل نيلس امرأة عجوزاً كانت تفكر في تأليف كتاب عن السويد للأطفال. وقالت إنها تريد للكتاب أن يكون مفيدا ومسليا في الوقت نفسه. وعندما سمعت عن مغامرات نيلس قررت أن تجعل منها موضوع كتابها. وهكذا روت فيه كل ما رآه نيلس وهو فوق ظهر الوزة مارتين.

ـ هذه حكاية غريبة جدا.

ـ أقول لك الحقيقة، كان في هذا بعض التهكم لأننا كنا موجودين بالفعل في ذلك الكتاب.

وفجأة شعرت صوفيا بضربة خفيفة على خدها وفي اللحظة التالية لم يكن حجمها يزيد على عقلة الإصبع. أصبحت الشجرة كأنها غابة كاملة والوزة كأنها حصان كبير. وقالت الوزة:

ـ هيا اصعدي.

سارت صوفيا على فرع الشجرة وتسلقت على ظهر الوزة. كان ريش الوزة ناعما، ولكن لما كانت صوفيا صغيرة جدا فإن الريش كان يوخزها أكثر مما كان يدغدغها.

وما إن استوت في وضع مريح حتى حلقت الوزة في الهواء. طارت عاليا فوق قمم الأشجار ورأت صوفيا البحيرة والشاليه الصغير حيث يجلس ألبرتو يدبر خطته الماكرة. وقالت الوزة وهي ترفرف جناحيها:

ـ إن نزهة قصيرة فيها الكفاية اليوم.

وسرعان ما حطت على الأرض بجوار الشجرة التي كانت صوفيا قد تسلقتها. وانزلقت صوفيا من فوق الوزة وما إن لمست الأرض وتدحرجت عدة مرات على العشب حتى اكتشفت أنها استعادت طولها الطبيعي. وأخذت الوزة تطير حولها عدة مرات فقالت لها صوفيا:

ـ أشكرك على معونتك.

- هذه مجرد حيلة بسيطة يا عزيزتي، ألم تقولي إن هذا كتاب فلسفة؟

- لا، هذا ما قلته أنت.

- إنه نفس الشيء، على أي حال لو أن الأمر بيدي لكنت طرت بك عبر تاريخ الفلسفة كله كما طرت بنيلس عبر السويد بطولها. كنا سنحلق فوق ملطية وأثينا وأورشليم والاسكندرية وروما وفلورنسا ولندن وباريس وبينا وهيدلبرج وبرلين وكوبنهاجن...

- شكرا يكفيني هذا القدر.

- لكن الطيران عبر القرون لم يكن بالعمل السهل حتى بالنسبة لوزة تهوى التهكم، إن عبور أقاليم السويد أسهل كثيراً.

ما إن قالت الوزة هذه الكلمات حتى جرت بضع خطوات ثم حلقت في الهواء واختفت.

كان التعب قد بلغ من صوفيا منتهاه ولكنها فكرت، وهي تزحف خارجة من كوخها عبر سياج الحديقة، أن ألبرتو سيكون مسرورا بمناوراتها التضليلية. فلم يكن بوسع الضابط أن يفكر كثيراً في ألبرتو خلال الساعة الماضية، ولو كان فعل فمعنى هذا أنه مصاب بانفصام كامل في الشخصية.
وصلت صوفيا إلى البيت قبل عودة أمها من العمل بلحظة قصيرة، وقد أعفاها هذا من أن تروي لأمها كيف ساعدتها وزة مستأنسة على الهبوط من شجرة عالية.

بعد أن تناولتا العشاء بدأتا في إعداد كل شيء لحفل الحديقة. ذهبتا إلى مخزن البيت وأحضرتا لوحا خشبيا طويلا لتتخذا منه مائدة تسع كل الضيوف، فوضعتا لوح الخشب في الحديقة، ثم صعدتا ثانية لتحضرا المساند التي سيرتكز عليها.

قررتا أن تضعا المائدة الطويلة تحت أشجار الفاكهة. آخر مرة استخدمت فيها هذه المائدة كانت عيد الزواج العاشر لوالدي صوفيا. كان عمر صوفيا آنذاك لايتجاوز الثامنة، إلا أنها تتذكر بوضوح تام الحفل الكبير الذي حضره كل الأقارب والأصدقاء.

كانت نشرات الأحوال الجوية تتنبأ بجو صحو في الأيام المقبلة. وبرغم عدم سقوط نقطة مطر واحدة منذ العاصفة المرعبة التي حدثت عشية عيد ميلاد صوفيا، فقد قررتا أن تتركا الترتيب النهائي للمائدة حتى صباح السبت.

بعد ذلك قامتا بخبز نوعين مختلفين من الخبز، واستقرتا على ما ستقدمانه من طعام: دجاج مشوي، وأنواع مختلفة من السلطة والمشروبات الخفيفة. ثم بالطبع الحلوى وكعكة عيد الميلاد.

وعندما نهضت صوفيا لتنام سألتها أمها مرة أخرى إن كان ألبرتو ينوي حضور الحفل.

- إنه سيحضر بالطبع، بل لقد وعد أن يقوم بحيلة فلسفية.

- حيلة فلسفية؟ وماذا ستكون هذه الحيلة؟

- لست أدري... لو كان ساحرا لقام بحيلة سحرية ولربما كان أخرج أرنبا أبيض من قبعة طويلة سوداء...

- هذه القصة من جديد؟

- ولكنه لما كان فيلسوفا فسوف يقوم بحيلة فلسفية. فالحفل حفل فلسفي في نهاية الأمر. هل تدخرين لنا مفاجأة أنت كذلك؟

- نعم إن لدى فكرة صغيرة.

- هل ستلقين كلمة؟

- لن أقول لك، والآن تصبحين على خير يا صوفيا!

في صباح اليوم التالي استيقظت صوفيا عند دخول أمها تودعها قبل ذهابها للعمل. أعطت الأم صوفيا قائمة بآخر الأشياء التي ينبغي شراؤها لحفل الحديقة. وما كادت أمها تغادر البيت حتى رن التليفون، إنه ألبرتو، يبدو أنه يعرف كيف يجدها في البيت بمفردها.

- كيف حال خطتك السرية؟

- هس! ولا كلمة واحدة، لا تعطه أية فرصة ليفكر في هذا.

- أعتقد أني عرفت كيف أستحوذ على انتباهه أمس.

- عظيم!

- هل انتهى مقرر الفلسفة؟

- إني أكلمك لهذا السبب بالتحديد. لقد غطينا تاريخ الفلسفة من بدايته حتى مشارف العصر الراهن. ان هذا الأساس كان بالغ الأهمية يا صوفيا، واعتبارا من

الآن ينبغي أن تكوني قادرة على أن توجهي نفسك بنفسك. إلا أننا يجب أن نلتقي لحديث قصير عن الفلسفة المعاصرة.

- ولكن علي أن أذهب لوسط المدينة...

- هذا شيء رائع. ألم أقل لك إننا سنتكلم عن عصرنا الحاضر؟

- لا أفهم قصدك يا ألبرتو...

- أقصد أن من المناسب تماماً أن نتقابل في وسط المدينة في هذه الحالة.

- هل أحضر إلى بيتك في الحي القديم؟

- لا ليس هناك. فالمكان في حالة فوضى شاملة. إذ إني قلبت متاع البيت أفتش كل شيء خشية أن يكون قد دس لنا ميكروفونات خفية.

- نعم؟

- هناك مقهى فتح مؤخراً في الميدان الكبير، اسمه مقهى باريس. هل تعرفينه؟

- نعم. فمتى نتقابل هناك؟

- هل نستطيع أن نلتقي في الثانية عشرة؟

- اتفقنا، مع السلامة!

في الثانية عشرة ودقيقتين دخلت صوفيا إلى مقهى باريس. كان واحدا من المقاهي الجديدة المصممة على طراز المقهى الفرنسي التقليدي بموائده المستديرة الصغيرة ومقاعده الخيزران. وكان مقهى باريس يبيع طائفة من المأكولات الفرنسية ويقدم بعض الوجبات الخفيفة.

لم تكن صالة المقهى كبيرة، إلا أن أول ما لفت نظر صوفيا هو أن ألبرتو لم يكن موجودا. كان المقهى مليئا بالجلوس الذين يتحلقون الموائد الصغيرة، فأخذت تتفحصهم جيدا. كلا، ليس ألبرتو بينهم.

لم يكن من عادتها أن تذهب إلى المقاهي بمفردها، ولذلك حارت صوفيا ولم تدر ماذا تفعل. هل تخرج ثم تعود بعد قليل لترى إن كان ألبرتو وصل؟

ثم استقر عزم صوفيا على انتظاره. طلبت فنجانا من الشاي بالليمون وجلست على إحدى الموائد الخالية تحدق إلى باب المقهى. كان الناس يجيئون ويروحون طول الوقت ولكن ألبرتو لا يظهر.

لو كان معها إحدى الصحف!

ثم بدأت صوفيا تتطلع حولها إلى الجالسين في المقهى. فراحت بعض العيون تنظر إليها كذلك. ولبرهة خاطفة أحست صوفيا أنها أصبحت أشبه بامرأة شابة. إن عمرها لا يتجاوز حقاً خمسة عشر عاما ولكن من المؤكد أنها تبدو كشابة في السابعة عشرة، أو فلنقل في السادسة عشرة ونصف على أقل تقدير.

وتساءلت كيف ينظر كل هؤلاء الأشخاص إلى مسألة وجودهم في الحياة. يبدو أنهم موجودون هنا بحكم الصدفة، كأنما وجدوا بابا مفتوحا فدخلوا وجلسوا. كانوا يتحدثون ويومئون برؤوسهم ويشيرون بأياديهم، ولكن لا يبدو عليهم أنهم يتكلمون في شيء له أهميته.

وخطر على بالها فجأة ما قاله كيركجارد من أن أهم صفة تميز الجمهور هي هذه الثرثرة المتصلة. هل كل هؤلاء الناس يعيشون في المرحلة الجمالية؟ أم أن لديهم شاغلا وجوديا يهتمون به؟

لقد حدثها ألبرتو في إحدى رسائله الأولى عن التماثل بين الأطفال والفلاسفة. وشعرت صوفيا مرة أخرى بالخوف من أن تصبح مثل هؤلاء الكبار فينتهي بها الأمر لأن تزحف في أعماق فراء الأرنب الأبيض الذي خرج لتوه من القبعة الطويلة!

كانت تفكر في كل هذا دون أن تحول عينها عن باب المقهى. وفجأة دخل ألبرتو فلمحها وتقدم نحوها. وبرغم أن الوقت كان صيفا فإن ألبرتو كان ما زال يضع على رأسه البيريه الأزرق ويرتدي سترة طويلة. وتنبهت صوفيا إلى أن هذه هي المرة الأولى التي تقابله فيها في مكان عام.

- إنها الثانية عشرة والربع!

- إنها ما نسميه «ربع الساعة الأكاديمي» أو «ربع الساعة المسموح به». هل أستطيع أن أدعو الآنسة إلى وجبة خفيفة؟

وجلس ألبرتو ونظر إليها، فاكتفت صوفيا بهز كتفيها وقالت:

- يكفيني سندويتش صغير.

قام ألبرتو وطلب سندويتشين وفنجان قهوة ثم عاد إلى مقعده.

- هل الأسعار غالية في هذا المقهى؟

- لا تشغلي بالك بهذا يا صوفيا.

- هل لديك على الأقل عذر يبرر هذا التأخير؟

ـ لا، لقد تأخرت عمدا، سأشرح لك كل شيء الآن.

بدأ ألبرتو يأكل سندويتشه ثم قال:

ـ إننا سنتكلم اليوم عن عصرنا الحاضر.

ـ وهل حدث فيه شيء مهم في مجال الفلسفة؟

ـ أشياء كثيرة يا صوفيا... حركات تمضي في كل اتجاه. سنبدأ بالكلام عن فلسفة مهمة جدا هي *الوجودية*. والوجودية لفظ يطلق على عدة تيارات فلسفية تتخذ من الحالة الوجودية للإنسان نقطة انطلاق لها. وكثير من فلاسفة القرن العشرين الوجوديين لم يستندوا في أفكارهم إلى كيركجارد وحده، بل استندوا إلى هيجل وماركس أيضاً.

ـ استمر...

ـ وهناك فيلسوف آخر مارس تأثيرا كبيرا على القرن العشرين هو الفيلسوف الألماني *فريدريش نيتشه*، الذي عاش من عام ١٨٤٤ حتى عام ١٩٠٠. فقد انتقد نيتشه أيضاً فلسفة هيجل و «النزعة التاريخية» الألمانية، أي الاهتمام النظري المجرد بالتاريخ على حساب الحياة الواقعية الفعلية.ودعا نيتشه إلى «تغيير كل القيم» رافضا في المقام الأول الأخلاق المسيحية التي أسماها *أخلاق العبيد*. فقد رأى أن الضعفاء يحاولون باسم هذه القيم تعويق تقدم الأقوياء، لانها قيم تحض على الصبر والتسليم والطاعة. كما رأى أن كلا من المسيحية والفلسفة التقليدية قد ابتعدتا عن العالم الفعلي واتجهتا نحو عالم «السماء» أو «عالم المثل»، الذي ليس في رأي نيتشه سوى عالم زائف. وقال نيتشه «كن مخلصا للأرض ولا تنصت إلى من يعدك بحياة أفضل في عالم آخر».

ـ ثم...؟

ـ وكان هناك فيلسوف وجودي آخر تأثر بكيركجارد ونيتشه هو الفيلسوف الألماني *مارتن هيدجر*. غير أننا سنركز على الفيلسوف الوجودي الفرنسي *جون بول سارتر* الذي عاش من عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩٨٠. إذ كان هو أوسع الفلاسفة الوجوديين نفوذا، على الأقل بالنسبة لعامة الجمهور. وقد صاغ سارتر أفكاره الوجودية في الاربعينات أساساً، في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ثم اقترب

بعد ذلك من الحركة الماركسية في فرنسا، ولكنه لم ينضم قط إلى أي حزب من الأحزاب.

ـ وهل لهذا السبب التقينا في مقهى فرنسي؟

ـ اعترف بأنني لم أختر هذا المقهى عبثا، فسارتر نفسه كان كثير التردد على المقاهي. بل لقد التقى بشريكة حياته *سيمون دي بوفوار* في أحد المقاهي. وكانت هي أيضاً فيلسوفة وجودية.

ـ فيلسوفة أخيراً؟

ـ نعم، هذا صحيح. أخيراً يا صوفيا.

ـ يسعدني حقاً أن أعرف أن الإنسانية قد بدأت تتحضر أخيراً.

ـ إلا أن عصرنا الحاضر ظهر فيه من جهة أخرى عدد كبير من المشكلات الجديدة...

ـ كنا سنتكلم عن الوجودية.

ـ قال سارتر «إن الوجودية نزعة إنسانية». وكان يقصد بذلك أن الوجوديين لا يبدأون إلا من الإنسان ذاته. ولكني يجب أن أضيف أن النزعة الإنسانية التي يشير إليها تنظر إلى حالة الإنسان نظرة أكثر قتامة من النزعة الإنسانية التي صادفناها في عصر النهضة.

ـ ولم حدث هذا؟

ـ كان كيركجارد وبعض الفلاسفة الوجوديين في القرن العشرين مفكرين مسيحيين. غير أن سارتر ينتمي إلى فلسفة وجودية لا مكان فيها للدين. ويمكن اعتبار فلسفته تحليلا لحالة الإنسان الذي يواجه مصيره دون سند من الدين أو عزاء.

ـ استمر.

ـ إن الكلمة الرئيسية في فلسفة سارتر، كما في فلسفة كيركجارد هي «الوجود». ولكن الوجود لا يعني فقط أن نكون أحياء. فالنباتات والحيوانات كائنات حية بدورها، أي أنها موجودة أيضاً، إلا أنها لا تفكر في معنى وجودها هذا. فالإنسان هو الكائن الوحيد الواعي بوجوده. وقد عبر سارتر عن ذلك بقوله إن الشيء المادي هو مجرد «شيء في ذاته»، لكن الإنسان «شيء لذاته»، أي انه شيء

يحاول أن يفهم معنى وجوده. ولذلك فان وجود الإنسان يختلف عن وجود الشيء المادي.

ـ لا يمكن أن أختلف على هذا.

ـ وقال سارتر إن وجود الإنسان يسبق وجود أي تصورات تطرح عن طبيعته. أي أن الإنسان يسبق أي معنى أو مدلول يمكن أن يضفي علي وجوده. إن وجودي الفعلي يسبق التساؤل عمن أكون. وقد عبر سارتر عن هذه الفكرة بقوله «إن الوجود يسبق الماهية».

ـ هذا تعبير معقد جدا.

ـ يقصد سارتر بماهية شيء ما طبيعة هذا الشيء. ويرى سارتر أن الإنسان ليست له أي «طبيعة» فطرية. ولذلك يجب على الإنسان أن يخلق نفسه بنفسه، أي أن يخلق طبيعته الخاصة أو «ماهيته» الخاصة لأنها غير محددة مقدما.

ـ أعتقد أني أفهم قصده.

ـ طوال تاريخ الفلسفة، حاول الفلاسفة أن يكتشفوا ما هو الإنسان، أو ما هي طبيعة الإنسان. غير أن سارتر كان يعتقد أن الإنسان ليست له «طبيعة» أبدية من هذا النوع. فلا طائل إذن من البحث عن معنى للحياة بوجه عام. فنحن مقضي علينا بأن نرتجل. إننا أشبه بممثلين دفع بهم إلى خشبة المسرح دون أن يخبرهم أحد بأدوارهم أو يزودهم بنص يؤدونه، ودون أن يلقنهم أحد ما عليهم أن يفعلوه. نحن وحدنا علينا أن نقرر بأنفسنا كيف نريد أن نعيش.

ـ هذا صحيح في واقع الأمر. فلو كان يكفي أن يفتح الإنسان الكتاب المقدس أو كتاباً في الفلسفة ليعرف كيف يجدر به أن يعيش لكانت المسألة سهلة للغاية.

ـ لقد فهمت المقصود تماماً. وعندما يدرك الإنسان أنه كائن حي وأنه سيموت في يوم من الأيام ولا يجد أي معنى يتعلق به، فإنه يعاني قلقا وجوديا، كما يقول سارتر. ولعلك تذكرين أن هذا *«القلق الوجودي»* كان من السمات الهامة في الوصف الذي قدمه كيركجارد للحالة الوجودية للإنسان.

ـ نعم.

ـ يقول سارتر إن الإنسان يشعر بأنه غريب في عالم بلا معنى. وعندما يتكلم سارتر عن «غربة» أو «اغتراب» الإنسان فإنه يتحدث عن مسألة كانت محورية لكل من هيجل وماركس. وشعور الإنسان بالاغتراب في العالم يؤدي إلى احساسه باليأس والملل والتقزز والعبث.

ـ كثير من الناس يشعرون باليأس أو الإحباط.

ـ نعم هذا صحيح. فسارتر كان يصف إنسان المدينة في القرن العشرين. ولعلك تذكرين أن المفكرين المؤمنين بالنزعة الإنسانية في عصر النهضة قد أكدوا، فيما يشبه إعلان الانتصار، على حرية الإنسان واستقلاله. أما سارتر فقد شعر بأن حرية الإنسان لعنة شديدة الوطأة، وقال «لقد حكم على الإنسان بأن يكون حرا، حكم عليه لأنه لم يخلق نفسه ومع ذلك فهو حر. لأنه ما إن يدفع به إلى العالم حتى يصبح مسؤولا عن كل ما يفعله».

ـ ولكننا لم نطلب أن نخلق أفراداً أحراراً.

ـ الا أن هذا لا ينفي أننا أفراد أحرار، وتلك الحرية تفرض علينا ألا نكف عن الاختيار طول حياتنا. فليست هناك لا قيم أبدية ولا معايير خالدة نسترشد بها، وذلك أمر يزيد في أهمية الخيارات التي نقوم بها. لأننا *مسؤولون* تماماً عن كل مانفعله. وأكد سارتر أن على الإنسان ألا يتنصل من مسؤوليته عن أفعاله، بل يجب أن يتحمل مسؤولية خياراته وألا يتخلى عن هذه المسؤولية بزعم أن «الواجب» يقضي بالذهاب إلى العمل أو أن «الواجب» يقضي بأن نراعي نظرة الطبقة الوسطى للطريقة «الواجب» العيش بمقتضاها. ومن ينزلق ضمن صفوف الجموع سيصبح مجرد فرد في جمهور بلا ملامح هرب من ذاته إلى حياة كاذبة قائمة على خداع النفس. إن *الحرية* الإنسانية تفرض علينا، من جهة أخرى، أن نخلق أنفسنا ونبدعها، أن نعيش بطريقة أصيلة وحقيقية.

ـ نعم أفهم ذلك.

ـ ويتعلق هذا أساساً بخياراتنا الأخلاقية. فنحن لا نستطيع أبدا أن نلقي اللوم على «الطبيعة الإنسانية» أو على «الضعف الإنساني» أو على أي عذر من هذا النوع. ويرى سارتر أن التعلل بهذه الأعذار هروب من تحمل المسؤولية عن أفعالنا.

ـ هذه مسألة منطقية تماماً.

ـ واذا كان سارتر قد أكد على أن الوجود لا ينطوي على معنى فطري موجود فيه سلفا فإنه قال من جهة أخرى اننا نحن من يصنع هذا المعنى. فهولم يقصد أن كل الأمور تتساوى أو أن لا شيء يهم. فهو لم يكن ممن يطلق عليهم اسم العدميين.

ـ ومن هو الشخص *العدمي*؟

ـ إنه شخص يرى أن كل شيء لا معنى له، أي أنه «عديم» المعنى، وأن كل شيء جائز بالتالي. أما سارتر فكان يعتقد أن الحياة يجب أن يكون لها معنى. غير أننا نحن الذين يجب أن نخلق هذا المعنى في حياتنا. فمعنى أن نوجد هو أن نخلق وجودنا الخاص أو معنى حياتنا.

ـ هل يمكن أن تشرح ذلك بمزيد من الوضوح؟

ـ حاول سارتر أن يبين أن الوعي هو دوما وعي بشيء معين. وهذا «الشيء» يتوقف علينا مثلما يتوقف على ظروفنا الخارجية. فنحن نسهم بنصيب في تحديد ماندركه وذلك باختيارنا لما نعتبره مهما بالنسبة لنا.

ـ هل تستطيع أن تضرب لي مثلاً على هذا؟

ـ قد يجلس شخصان في نفس المقهى ويشعران بهذا المقهى بطريقتين مختلفتين تماماً. وذلك لأننا عندما ندرك العالم الخارجي فإننا ندركه من وجهة نظرنا ومن زاوية ما يهمنا. فالمرأة الحامل مثلاً قد ترى نساء حوامل أينما التفتت، وليس هذا لأن النساء الحوامل لم يكن موجودات من قبل، إلا انها لما أصبحت حاملا الآن بدأت ترى العالم بعين مختلفة. وبالمثل قد يرى سجين هارب رجال الشرطة في كل مكان...

ـ أتخيل هذا...

ـ إن حياتنا تؤثر على الطريقة التي ندرك بها ما حولنا. فإذا كان هناك شيء لايهمني فلن أراه. وربما استطعت الآن أن أشرح لك لم تأخرت.

ـ لقد فعلت ذلك عمدا أليس كذلك؟

ـ اخبريني أولا ماذا رأيت عندما دخلت هذا المقهى.

ـ أول شيء رأيته هو أنك لم تكن هنا.

ـ ألا تجدين من الغريب أن يكون أول ما تلاحظينه شيئا غير موجود؟

ـ ربما، ولكن موعدي كان معك أنت.

ـ لقد استخدم سارتر لقاء في مقهى ليبين الطريقة التي «نلغي» بها وجود أي شيء ليست له أهمية بالنسبة لنا.

. هل تأخرت لمجرد أن تشرح لي هذه النقطة؟

ـ نعم، حتى أشرح لك هذه النقطة المركزية في فلسفة سارتر. أعتبري هذا تمرينا صغيرا.

ـ إنك حقاً تبالغ!

ـ إذا كنت مغرمة بشخص ما وتنتظرين أن يكلمك في التليفون، ربما ظللت طول المساء «تسمعين» أن التيلفون لا يرن. فأنت ستستمعين إلى «صمت» التليفون الدائم. وبالمثل إذا كنت ستقابلين هذا الشخص في محطة قطار وكانت المحطة مزدحمة بالرائحين والغادين فلن تري أحدا منهم لأنهم لا يعنونك في شيء. إن الشيء الوحيد الذي ستبصرينه هو أنه ليس هناك.

ـ أفهم قصدك.

ـ وقد حاولت سيمون دي بوفوار أن تطبق الوجودية على أدوار كل جنس من الجنسين. وتذكرين أن سارتر قال إن الإنسان ليست له «طبيعة» خالدة وإننا الذين نخلق أنفسنا.

ـ وماذا بعد؟

ـ ويصدق هذا أيضاً على الطريقة التي ننظر بها لكل جنس من الجنسين. وقد أنكرت سيمون دي بوفوار وجود «طبيعة أنثوية» أو «طبيعة ذكرية» ثابتة خالدة خلافا للرأي الشائع. فقد شاع مثلاً الزعم بأن الرجل له طبيعة فعالة أو «متجاوزة» ولذلك فإنه يسعى دوما إلى هدف أو معنى «يتجاوز» حدود بيته. أما المرأة فكان يزعم أن لها موقفا معاكسا من الحياة لانها ذات طبيعة «كمونية» أي أنها تحب أن تكمن في بيتها وتظل حيث هي. فمجالها «لايتجاوز» إذن رعاية الأسرة والاهتمام بالبيئة والأشياء المحيطة بها. وقد يجري اليوم التعبير عن هذه الرؤية التقليدية فيقال إن المرأة ربما كانت أكثر اهتماماً «بالقيم الأنثوية» من الرجل، ويقصد عندئذ بهذه القيم الجوانب الرقيقة في الحياة.

ـ هل كانت سيمون دي بوفوار تعتقد ذلك حقاً؟

ـ لا، إنك لم تستمعي إلي بانتباه يا صوفيا. إن سيمون دي بوفوار لم تكن تؤمن في الحقيقة بوجود هذه الطبيعة الأنثوية أو الطبيعة الذكرية الثابتة. بل كانت تعتقد على العكس أن على المرأة والرجل أن يتحررا من هذه الأفكار المتحيزة.

ـ أتفق معها في هذا.

ـ وقد صدر أهم كتبها في عام ١٩٤٩، وكان عنوانه *الجنس الثاني*.

ـ وماذا تقصد بهذا؟

ـ إنها تقصد المرأة التي ينظر إليها في ثقافتنا على أنها تأتي في المرتبة الثانية بعد الرجل. فالرجل وحده يبدو عنصرا فاعلا، وهو يعامل المرأة على أنها كائن سلبي تابع له، مما يحرمها من مسؤوليتها عن حياتها.

ـ هل تقصد بمسؤولية المرأة عن حياتها أن المرأة هي التي تحدد إلى أي مدى تريد أن تكون حرة ومستقلة؟

ـ نعم، يمكنك أن تقولي هذا. كما كان للوجودية تأثير كبير على الأدب من الأربعينات حتى اليوم، ويصدق هذا على المسرح بصفة خاصة. وقد كتب سارتر نفسه عددا من المسرحيات والروايات. وكان من الكتاب المهمين الآخرين الفرنسي ألبير كامو، والأيرلندي *صمويل بيكيت*، والروماني *يوجين يونسكو*، والبولندي *فيتولد جومبروفيتش*. والسمة المشتركة التي جمعت بينهم، وبين كثير من الكتاب المعاصرين الآخرين، هي ميلهم إلى ابراز وجود العبث أو اللامعقول في الحياة، وقد أصبح هذا اللفظ يطلق بصفة خاصة على المسرح، فيوصف بمسرح العبث أو اللامعقول.

ـ حقاً؟

ـ هل تعرفين ما المقصود بالعبث؟

ـ أليس هو الشيء غير المعقول أو غير العقلاني؟

ـ بالضبط. إن مسرح العبث كان يمثل نقيضا للمسرح الواقعي. وكان هدفه هو إظهار عبث الحياة وخلوها من المعنى لدفع أفراد الجمهور إلى الاختلاف مع هذا الرأي واستثارة رد فعل لديهم. لم يكن الغرض هو تصوير العبث من أجل العبث. بل على العكس، كان المقصود من إظهار وكشف العبث الموجود في أحداث الحياة اليومية حث المتفرجين على البحث عن معنى للحياة أشد صدقا وأكثر أصالة.

ـ يبدو هذا أمرا مبتكرا.

ـ وكان مسرح العبث يصور في أحيان كثيرة مواقف وأحداثا عادية تافهة. ولذلك يمكن اعتباره أيضاً نوعا من الواقعية المفرطة. فالناس يصورون كما هم على وجه الدقة. ولكن إن قدمت على المسرح ما يحدث بالضبط في حمام بيت عادي في صباح يوم عادي فإن الجمهور سيستغرق في الضحك. ويمكن تفسير هذا الضحك

بوصفه وسيلة دفاعية يتجنب بها المتفرجون رؤية وقائع حياتهم اليومية معروضة على خشبة المسرح.

- نعم، هذا صحيح.

- وقد يكون مسرح العبث متميزا أحيانا ببعض السمات السيريالية. فشخصيات مسرح العبث تجد أنفسها في أحيان كثيرة في ظروف غير معقولة أشبه بالأحلام. وعندما تقبل هذه الظروف دون دهشة أو احتجاج، يضطر الجمهور لأن يشعر هو بالدهشة والاحتجاج محل شخصيات المسرحية. وكان هذا هو الأسلوب الذي اتبعه *شارلي شابلن* في أفلامه الصامتة. إذ كان التأثير الكوميدي لهذه الأفلام الصامتة يرجع في أحيان كثيرة إلى عدم دهشة شارلي شابلن من الأحداث العبثية التي تقع له او عدم احتجاجه عليها. وكان هذا يضطر أفراد الجمهور لأن ينظروا في أنفسهم بحثا عن شيء أكثر صدقا وأصالة.

- من المدهش أن ترى الناس يتحملون ظروفا غريبة دون احتجاج.

- قد يكون من المهم أحيانا أن نشعر بضرورة الابتعاد عن موقف معين حتى إن كنا لا نعرف إلى أين نمضي.

- إذا اشتعلت النار في البيت، فعليك أن تغادره حتى إن لم يكن لديك مكان آخر تعيش فيه.

- نعم، هذا صحيح.

- هل تريدين فنجانا آخر من الشاي؟ أم لعلك تفضلين زجاجة كوكاكولا؟

- نعم، أكون شاكرة لو طلبت لي زجاجة كوكاكولا، ولكني مازلت أرى أنك كان يجب ألا تتأخر عن موعدنا.

- الأجدر بك أن تفكري في الدرس الذي تعلمته.

عاد ألبرتو بفنجان قهوة وزجاجة كوكاكولا. وفي هذه الأثناء كانت صوفيا قد اعتادت جو المقهى وبدأت تفكر في أن المناقشات التي تدور حولها في الموائد الأخرى قد لا تكون كلها ثرثرة فارغة.

وضع ألبرتو زجاجة الكوكاكولا على المائدة محدثا صوتا مقصودا فالتفت بعض الجلوس في المقهى. ثم قال لصوفيا:

- هكذا نكون قد وصلنا إلى نهاية الطريق.

- هل تقصد أن تاريخ الفلسفة توقف عند سارتر والوجودية؟

ـ لا، سيكون في هذا قدر من المبالغة. لقد كان للفلسفة الوجودية تأثير هائل في جميع أنحاء العالم. فجذورها تمتد كما رأينا بعيدا في التاريخ ويمكن أن نقتفي تاريخ الوجودية من كيركجارد حتى نصل إلى سقراط. غير أن القرن العشرين قد شهد كذلك ازدهارا أو تجديدا لاتجاهات فلسفية أخرى تكلمنا عنها من قبل.

ـ مثل ماذا؟

ـ منها مثلاً الاتجاه المسمى *التومية الجديدة*، الذي يستعيد الأفكار التي طرحها القديس توما الإكويني. وهناك تيار آخر يسمى *الفلسفة التحليلية أو التجريبية المنطقية* التي تمتد جذورها إلى هيوم والمذهب التجريبي الإنجليزي، بل وربما إلى منطق أرسطو. كما تأثر القرن العشرون أيضاً بما يسمى *الماركسية الجديدة* على اختلاف تياراتها. وقد تكلمنا من قبل عن *الداروينية الجديدة* وعن أهمية *التحليل النفسي*.

ـ نعم.

ـ وينبغي أن نذكر أيضاً اتجاهاً أخيراً هو المادية، الذي له بدوره جذوره التاريخية. فكثير من جوانب العلم الحديث يمكن تتبع جذورها وصولا إلى الجهود التي بذلها الفلاسفة السابقون على سقراط. من ذلك مثلاً الاهتمام بمعرفة «الجسيمات الأولية» غير القابلة للانقسام التي تتألف منها جميع المواد. فحتى اليوم لم ينجح أحد في تقديم تفسير مقنع لما هي «المادة». إن العلم الحديث، ولنأخذ مثلاً الفيزياء النووية أو الكيمياء الحيوية، قد بات مثيرا يفتن الألباب بما يكشفه من حقائق حتى أصبح له دوره الهام في رؤية كثير من الناس للحياة.

= إن القديم والجديد يمتزجان إذن...

ـ نعم، لأن الأسئلة التي بدأنا مقررنا بها ما زالت مطروحة دون إجابة. وربما كان سارتر على صواب حين قال إن الأسئلة الوجودية لا يمكن تقديم إجابة نهائية عليها. فالسؤال الفلسفي هو بحكم تعريفه ذاته سؤال يجب أن يسأله كل جيل وكل فرد المرة بعد الأخرى.

ـ ليس في هذه الفكرة عزاء كبير.

ـ لست متأكدا إن كنت أتفق معك في هذا يا صوفيا. أفلا نشعر أننا نعيش من خلال طرحنا لهذا النوع من الأسئلة؟ وكيف ننسى أن الإنسان في سعيه إلى الإجابة عن الأسئلة الكبرى قد توصل إلى حلول واضحة ونهائية لكثير من المشكلات الأخرى. أفليست العلوم والبحوث والتكنولوجيا قد ولدت، إذا جاز التعبير، بفضل التأمل الفلسفي؟ ألم يكن اندهاش الإنسان إزاء الكون هو الذي حمله إلى القمر؟

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ وعندما وضع رجل الفضاء نيل أرمسترونج قدمه على القمر قال «إنها خطوة صغيرة لإنسان واحد لكنها خطوة كبيرة للإنسانية جمعاء». فبهذه الكلمات لخص شعور أول إنسان يضع قدمه على القمر، فقد أحس أنه يتوج بهذه الخطوة جهود كل البشر الذين سبقوه. أفليسوا هم الذين أتاحوا له، بمعنى ما، أن يضع قدمه على القمر. فالفضل لا يرجع إليه وحده بطبيعة الحال.

ـ كلا بالتأكيد.

ـ إن عصرنا الحاضر يواجه أيضاً مشكلات جديدة تماماً، لعل أخطرها هي المشكلات البيئية. وهذا ما ساعد على ظهور اتجاه فلسفي جديد هو الفلسفة *الإيكولوجية أو البيئية*. وكثير من فلاسفة البيئة في العالم الغربي قد حذروا من أن الحضارة الغربية ككل تمضي في طريق خاطئ، لأنه طريق يتعارض مع ما يستطيع كوكبنا تحمله. وحاول هؤلاء الفلاسفة أن يكتشفوا لهذه الازمة البيئية أسبابا أكثر عمقا من مجرد الآثار الملموسة للتلوث وتدهور البيئة، وقالوا إن طريقة التفكير الغربية تنطوي في أساسها على منطلقات خاطئة.

ـ وما هي تلك المنطلقات الخاطئة في رأيهم.

ـ شكك فلاسفة البيئة مثلاً في فكرة التقدم ذاتها التي تستند إلى تصور أن الإنسان هو أرقى ما في الطبيعة وسيدها. وقالوا إن هذه الطريقة في التفكير قد تكون شديدة الخطر على بقاء الكوكب.

ـ إني أشعر بالغضب كلما فكرت في الأخطار التي تهدد بيئة الكوكب.

ـ واستند كثير من فلاسفة البيئة، في نقدهم لهذا التصور، إلى أفكار وتصورات الحضارات الأخرى مثل الحضارة الهندية مثلاً. كما درسوا أفكار وتقاليد الشعوب التي تسمى «بالشعوب الأصلية» أو «الشعوب البدائية»، مثل هنود الأمريكيتين، كي يكتشفوا من جديد ما قد نكون فقدناه.

ـ أفهم قصدك.

ـ بل إننا نجد في الأوساط العلمية أصواتا راحت ترتفع في السنوات الأخيرة لتؤكد أن منهجنا العلمي يواجه تغيرا أساسيا في منطلقاته وتصوراته. وقد بدأ هذا

التغير يؤتي ثماره في بعض المجالات، ومن أمثلة ذلك ما يسمى «*الحركات البديلة*» التي تدعو إلى تناول المشكلات بمنهج كلي شامل وإلى اتباع نمط جديد في الحياة.

ـ وهذا شيء إيجابي.

ـ إلا أننا نجد في كل محاولة إنسانية الصالح والطالح. فالبعض يزعمون أننا ندخل «عصرا جديدا»، ولكن الجديد لا يكون حتما خيرا كله. كما ان القديم ليس بالضرورة شرا كله يجب نبذه والتخلص منه. وهذا سبب من الأسباب التي جعلتني أعطيك هذا المقرر في الفلسفة، فالآن أصبحت تملكين الخلفية التاريخية التي تساعدك على اختيار اتجاهك في الحياة.

ـ وكانت هذه لفتة رقيقة حقاً من جانبك...

ـ أعتقد أنك ستجدين أن كثيراً من أفكار الاتجاهات التي تنتسب للتيار العريض المسمى *العصر الجديد* (New Age) مجرد أوهام خادعة. فقد ظهرت في العالم الغربي في العقود الأخيرة أفكار ما يسمى *التدين الجديد*، أو *العلوم الخفية* الجديدة. لقد ضعف تأثير المسيحية، وخلق هذا الضعف فراغا تحاول أن تشغله هذه الإتجاهات الجديدة التي أخذت تنتشر انتشارا سريعا بدعوى تقديم رؤى روحية غير تقليدية.

ـ هل تستطيع أن تضرب لي بعض الأمثلة على تلك الاتجاهات؟

ـ إن القائمة طويلة إلى درجة أني لست أدري من أين أبدأ. وليس من السهل على أي حال أن يصف الإنسان العصر الذي يعيش فيه. لم لا نقوم بجولة صغيرة في المدينة؟ فهناك شيء أريد أن أريك إياه.

ـ ليس أمامي وقت طويل، وأرجو ألا تكون قد نسيت حفل الحديقة غدا.

ـ كلا بالطبع، فغدا سيحدث شيء رائع. ولكن علينا أن نختتم أولا مقرر الفلسفة الخاص بهيلد. فوالدها سيتوقف عن هذا الحد. ولهذا السبب سيفقد أيضاً بعضا من سيطرته علينا.

ومرة ثانية رفع ألبرتو زجاجة الكوكاكولا التي أصبحت فارغة الآن ونقر بها على المائدة.

خرجا إلى الشارع الذي كان مزدحما بالمارة المسرعين في كل اتجاه كأنهم جيش من النمل. وأخذت صوفيا تتساءل عما يريد ألبرتو أن يريها إياه.

مرا أمام محل كبير يبيع كل أنواع الأجهزة الالكترونية من تلفزيونات، واج
فيديو، وأجهزة تليفون محمولة، وأجهزة فاكس، فأشار ألبرتو إلى واجهة المحل وة

ـ ها هو القرن العشرون أمامك يا صوفيا. في عصر النهضة بدأ العالم ينفجر
جاز التعبير. فقد كان عصر الرحلات الاستكشافية الكبرى الذي انطلق ،
الأوروبيون يجوبون جميع أنحاء العالم. أما اليوم فنحن نشهد حركة في الاتج
العكسي. ربما استطعنا أن نصفها بأنها انفجار نحو الداخل.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ أقصد أن العالم يتزايد ترابطه ضمن شبكة اتصالات واحدة عظمى. منذ فترة
غير بعيدة كان على الفلاسفة أن يسافروا أياما طويلة على ظهر حصان أو بالقطار
ليقابلوا الفلاسفة الآخرين أو ليتعرفوا على العالم. أما اليوم فنستطيع أن نجلس في أي
مكان في العالم ونحصل على ما نريد معرفته فورا، فيكفي أن نضغط على مفتاح
حاسب آلي حتى تتتابع أمامنا على الشاشة حصيلة المعرفة البشرية كلها.

ـ وهذا شيء رائع عندما تفكر فيه، ولكنه يثير شيئا من الخوف في الوقت نفسه.

ـ والمسألة هي معرفة ما إن كان التاريخ يقترب من نهايته، أو إن كنا على
العكس نقف على عتبة عصر جديد تماماً. إننا لم نعد مجرد مواطني مدينة من المدن ولا
بلد من البلدان، إننا نعيش حضارة كونية يا صوفيا.

ـ هذا صحيح.

ـ إن التقدم الذي حققه التطور التكنولوجي، وخاصة في مجال الاتصالات، في
السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية يفوق ما تحقق على مدى التاريخ كله. وربما كنا
ما زلنا في البداية...

ـ هل هذا هو ما كنت تريد أن تريني إياه؟

ـ لا، إنه في الجهة الأخرى من الكنيسة.

بينما هما يبتعدان عن واجهة المحل، لاحت على شاشة أحد أجهزة التلفزيون
الكبيرة صورة لبعض جنود الأمم المتحدة. فصاحت صوفيا:

ـ انظر!

اقتربت الكاميرا من وجه ضباط يرتدي بيريها مثالا لبيريه ألبرتو الأزرق. وفجأة أخرج الضابط ورقة كبيرة كتب عليها: «*سأعود قريبا يا هيلد!*» ولوح بيديه ثم اختفى. فصاح ألبرتو:

- يا له من دجال!

- هل كان هذا الضابط هو والد هيلد؟

- لا أريد حتى أن أجيب عن هذا السؤال!

سارا عبر الحديقة العامة المواجهة للكنيسة ودلفا إلى شارع رئيسي آخر. وكان يبدو على ألبرتو شيء من الانزعاج لظهور الضابط بهذه الطريقة، إلا انه ما إن لمح المكتبة الكبيرة حتى أشار إليها بيده وقال لصوفيا:

- هيا بنا ندخل هنا.

داخل المحل أشار ألبرتو إلى الجدار الأطول الذي كان مقسما إلى ثلاثة أقسام هي: العصر الجديد، والحركات البديلة، والعلوم الخفية.

كانت الكتب تحمل عناوين جذابة محيرة مثل «*الحياة بعد الموت*»، «*العلوم الروحية*»، «*العلاج الروحي*»، «*عودة الأرواح*»، «*الحيوات السابقة*»، «*ما هو التنجيم*»؟ كانت هناك مئات الكتب من هذا النوع.

- هذا أيضاً هو القرن العشرون يا صوفيا. هذا هو معبد عصرنا الحديث

- هل تؤمن بهذه الأشياء؟

- كثير منها مليء بالدجل والشعوذة. ولكنها صناعة مربحة والناس تبحث عن الأفكار المثيرة لها. هيا بنا نجلس قليلا في الحديقة.

خرجا من المكتبة ووجدا دكة خشبية خالية أمام الكنيسة. كان الحمام يطير ويروح ويجيء تحت الأشجار، وكنت تستطيع أن تلمح بينها عصفوراً أو اثنين يثبان أو يلتقطان اللب. وقال ألبرتو:

- كل هذا يطلق عليه اسم جامع هو «*الباراسيكولوجي*»، أي البحث في مسائل التخاطر، أو الرؤى التنبؤية، أو تحريك الأشياء بالقوى النفسية، وكذلك تحضير الأرواح، والتنجيم، والأجسام الغريبة الطائرة في الهواء، التي تعرف باسم الاطباق الطائرة.

- ولكن قل لي بأمانة هل تعتقد أن كل هذا دجل وشعوذة؟

- ليس من اللائق بفيلسوف حقيقي أن يضعها جميعا في مستوى واحد. إلا أني أرى أن كل هذه المؤلفات تحاول أن ترسم خريطة تفصيلية لأرض غير موجودة

أصلا، ومعظم ما تحتويه هذه الكتب هو من نسج الخيال الذي ما كان هيوم ليتردد في إلقائه إلى النار. فأكثر هذه الكتب لا تحتوي على أي تجربة حقيقية.

- فكيف تفسر إذن هذا العدد الهائل من الكتب الذي يؤلف عن تلك الموضوعات؟

- إن نشر هذا النوع من الكتب تجارة مربحة، لانها تحتوي على مسائل مثيرة لكثير من الناس.

- ولماذا في رأيك؟

- من الواضح أن هناك حنينا إلى شيء روحاني أو صوفي مختلف يسمح لهم بالافلات من روتين حياتهم اليومية الرتيبة. لكن هؤلاء الناس يبحثون عن شيء موجود أمام أعينهم.

- ماذا تقصد بذلك؟

- أقصد مغامرة الحياة الرائعة يا صوفيا. فأمام أعيننا تدور عملية خلق بديعة. أليس هذا شيئا ساحرا يا صوفيا!

- إني أتفق معك في هذا.

- لماذا نذهب لقارئي البخت أو لمحاضرات عن موضوعات غريبة بحثا عن شيء مثير، وأمامنا هذه المعجزة؟

- هل تقصد أن من يكتبون هذه الكتب مجرد دجالين وكذابين؟

- لا، إني لم أقل هذا. إلا اننا نتكلم هنا عن نظام دارويني قائم على الانتخاب أيضاً.

- عليك أن تشرح هذا إذن.

- فكري في كل الأشياء المختلفة التي يمكن أن تقع في يوم واحد. بل يمكنك حتى أن تأخذي يوما واحدا من حياتك أنت. فكري في كل الأشياء التي ترينها وتعيشينها.

- نعم، وماذا بعد؟

ـ قد يحدث من حين لآخر أن تقع مصادفة غريبة. فقد تدخلين محلا وتشترين شيئا ثمنه ٢٨ كرونا، وبعد فترة تأتي نورا وترد إليك ٢٨ كرونا كانت قد اقترضتها منك. ثم تقرران الذهاب إلى السينما وعندما تنظرين في تذكرتك تجدين أن رقم المقعد هو ٢٨.

ـ نعم، هذه تكون مصادفة غريبة.

ـ إنها مصادفة على أي حال. والمسألة هي أن الناس يجمعون هذا النوع من المصادفات. إنهم يجمعون تجارب غريبة، أو تجارب يصعب تفسيرها. وعندما تضاف هذه التجارب، المأخوذة من حياة ملايين البشر، جنبا إلى جنب في الكتب تلوح كأنما هي أدلة حقيقية. ثم يأخذ حجمها يزيد على مر الزمن. إلا اننا نجد أنفسنا في هذه الحالة أيضاً أمام لعبة يانصيب كبير لا تظهر فيها إلا الأرقام الفائزة وحدها.

ـ ولكن ألا يوجد من يقولون إنهم يستطيعون رؤية الغيب؟ ثم هناك هؤلاء الوسطاء الذين يؤكدون أنهم يمرون طول الوقت بهذا النوع من التجارب الغريبة؟

ـ هذا صحيح. وإذا استبعدنا الدجالين سنجد تفسيرا آخر لما يسمى بهذه التجارب الغريبة.

ـ وما هو هذا التفسير؟

ـ لعلك تتذكرين أننا تكلمنا عن نظرية فرويد في اللاوعي...

ـ بالطبع.

ـ أوضح فرويد أننا يمكن أن نقوم في أحيان كثيرة بدور «الوسيط» إزاء اللاوعي الخاص بنا. فقد نجد أنفسنا فجأة نفكر في شيء أو نفعل شيئا دون أن نعرف الدافع وراء ذلك. والسبب هو أننا نملك داخل نفوسنا حشدا من التجارب والأفكار والذكريات يفوق ما نظن أننا نعرفه.

ـ حقاً.

ـ إن الناس قد يسيرون أو يتكلمون أحيانا أثناء نومهم. ونستطيع أن نقول إن هذا نوع من «التفكير الآلي». كما أن الناس قد يقولون تحت تأثير التنويم المغناطيسي أشياء أو يؤتون أفعالا «ليست من عندياتهم». وقد حاول السيرياليون، كما تذكرين، أن يبدعوا ما يسمى بالكتابة الآلية. لقد كانوا يحاولون فقط أن يقوموا بدور الوسطاء للاوعي الخاص بهم.

ـ نعم أتذكر هذا.

ـ وقد شاهدنا خلال هذا القرن تجدد هذه الاتجاهات الروحانية من وقت لآخر، فكان يأتي وسيط يزعم أنه قادر على الاتصال بأرواح الموتى، فيتحدث إما بأصواتهم وإما باستخدام الكتابة الآلية ناقلا رسالة من شخص رحل من خمس سنوات أو خمسين سنة أو أكثر. وقد اتخذ البعض من هذا دليلا على وجود حياة بعد الموت أو على أن الإنسان يعيش أكثر من حياة واحدة.

ـ نعم، سمعت عن هذا.

ـ إنني لا أقول إن كل هؤلاء الوسطاء دجالون. فمن الواضح أن بعضهم يتصرف بحسن نية. إنهم حقاً وسطاء، ولكنهم ليسوا إلا وسطاء للاوعي الخاص بهم. وقد درست عدة حالات لبعض الوسطاء أثناء حالة الانجذاب المعهودة لديهم فكشفت عن تمتعهم بمعارف وقدرات لم يستطيعوا هم أو غيرهم أن يعرفوا كيف اكتسبوها. ففي إحدى هذه الحالات نقلت امرأة لاتعرف العبرية رسالة بتلك اللغة. فكانت النتيجة التي تصورها البعض أنها إما عاشت حياة سابقة تتحدث فيها هذه اللغة وإما أنها أقامت اتصالا بروح ميت يتكلم العبرية.

ـ وما رأيك أنت؟

ـ لقد اتضح أن هذه السيدة كانت ترعاها مربية يهودية في صغرها.

ـ حقاً؟

ـ هل خاب ظنك؟ إن هذه التجربة تبين القدرة العجيبة لبعض الناس على تخزين التجارب في اللاوعي الخاص بهم.

ـ أفهم ما تقصده.

ـ إن كثيراً من الأحداث الغريبة التي تمر بنا كل يوم يمكن تفسيرها بنظرية فرويد عن اللاوعي. فقد أتلقى فجأة مكالمة من صديق انقطعت عني أخباره منذ سنوات طويلة في ذات اللحظة التي أتطلع فيها إلى رقم تليفونه في مفكرتي.

ـ إن جسمي ليقشعر!

ـ ولكن قد يكون التفسير أن كلينا سمع نفس الأغنية القديمة في الراديو، وهي أغنية كنا سمعناها آخر مرة معا. والمسألة هي أننا لسنا على وعي بالصلة الكامنة وراء هذه الصدفة الظاهرية التي جعلت كلا منا يفكر في الاتصال بالآخر.

ـ إذن المسألة إما دجل، وإما مصادفة أو ما تسميه الأرقام الفائزة في اليانصيب، وإما تأثير اللاوعي، أليس-هذا ما تقول؟

ـ من الأفضل على أي حال التعامل مع هذا النوع من الكتب بشيء من الشك، وخاصة إذا كان الإنسان فيلسوفاً إن هناك رابطة للمتشككين في إنجلترا. وقد عرض هؤلاء المتشككون منذ سنوات طويلة منح جائزة كبيرة لأول شخص يستطيع أن يقدم لهم أبسط دليل على وجود أي ظاهرة تخرج عن النظام الطبيعي المألوف. وهم لم يطلبوا معجزة كبرى بل أعلنوا أنهم يكتفون بنموذج بسيط لعملية تخاطر مثلاً. وحتى الآن لم يتقدم أحد.

ـ أفهم قصدك.

ـ وهناك من جهة أخرى أشياء كثيرة لا نستطيع أن نفهمها نحن البشر. وربما كنا لا نفهم بعض قوانين الطبيعة أيضاً. فخلال القرن الماضي كان كثير من الناس يتصورون أن ظواهر مثل المغناطيسية أو الكهرباء ما هي إلا نوع من السحر. ولا شك في أن جدتي الكبرى كانت ستحملق في وجهي بدهشة إذا أخبرتها عن جهاز التلفزيون أو الحاسب الآلي.

ـ أنت لا تؤمن إذن بأي شيء ينتمي لما وراء الطبيعة.

ـ لقد تكلمنا من قبل عن هذا. فحتى عبارة «ما وراء الطبيعة» عبارة غريبة. كلا، إني أؤمن بأن هناك طبيعة واحدة فحسب، ولكنها من ناحية أخرى، مثيرة للدهشة إلى أبعد الحدود.

ـ وماذا عن كل الظواهر الغريبة التي تتكلم عنها هذه الكتب التي أريتني إياها؟

ـ إن كل الفلاسفة الحقيقيين يجب أن يتحلوا باليقظة والحذر. فحتى إن لم نكن قد رأينا قط غرابا أبيض فلا ينبغي أن نكف أبدا عن البحث عنه. فقد يضطر متشكك مثلي أن يقبل ذات يوم ظاهرة لم يكن يؤمن بها من قبل. وإن لم أبق هذا الاحتمال مطروحا سأكون ضيق الأفق جامد التفكير لا فيلسوفا حقيقيا.

ظل ألبرتو وصوفيا جالسين على الدكة الخشبية صامتين. وظل الحمام يدور أمامهم في الحديقة هانئا مطمئنا لا تفزعه إلا حركة سائر يقترب أو دراجة تمر. وأخيراً قالت صوفيا:

ـ لا بد أن أعود إلى البيت لأستكمل إعداد الحفل.

ـ ولكن قبل أن نفترق سأريك غرابا أبيض. إنه أقرب مما تتصورين.

نهض ألبرتو وأشار في اتجاه المكتبة. وعندما دخلاها هذه المرة لم يتوقفا عند رفوف العلوم الخفية، بل استكملا سيرهما إلى أن وقف ألبرتو أمام رف صغير في آخر المكتبة. رأت صوفيا على الرف بطاقة صغيرة كتب عليها: «فلسفة».

وأشار ألبرتو إلى كتاب محدد فشهقت صوفيا لما قرأت عنوانه:

عالم صوفيا!

ـ هل تريدين أن أشتريه لك؟

ـ لست أعرف إن كنت أجرؤ على قراءته.

غير أن صوفيا كانت بعد قليل تمضي في طريقها عائدة إلى البيت وهي تحمل الكتاب في يد وكيسا صغيرا به الأشياء التي اشترتها لحفل الحديقة في اليد الأخرى.

الفصل الثالث والثلاثون

حفل الحديقة

... غراب أبيض...

جلست هيلد في سريرها لا تستطيع حراكا، وأخذت يداها ترتعشان وهي تمسك بالملف الكبير.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، إنها تقرأ منذ أكثر من ساعتين. وكانت ترفع عينيها أحيانا عن الورق وتستغرق في الضحك، كما كانت تدير أحيانا وجهها جانبا وتتنهد. من حسن الحظ أنها كانت وحدها في البيت.

وما كل هذا الذي قرأت في هاتين الساعتين! في البداية حاولت صوفيا أن تجتذب انتباه الضابط في طريق عودتها إلى بيتها من الشاليه الموجود في وسط الغابة. ثم تسلقت شجرة عالية وأنقذتها الوزة مارتين التي وصلت من لبنان رأسا كملاك حارس.

برغم أن فترة طويلة مرت فإن هيلد لم تنس قط كيف قرأ لها والدها وهي صغيرة كتاب رحلة **نيلس العجيبة**. وقد ظلا بعد ذلك بسنوات عديدة يستخدمان لغة سرية ترتبط بهذا الكتاب لا يعرفها سواهما. وها هو الآن يلجأ من جديد إلى هذه الوزة العجوز.

ثم مرت صوفيا بأول تجربة لها في الجلوس على المقهى بمفردها. وشعرت هيلد أنها انجذبت بوجه خاص إلى ما قاله ألبرتو عن سارتر والوجودية. لقد كاد ينجح في اقناعها بوجهة النظر هذه كما كاد يفعل مرات كثيرة قبل ذلك وهي تقرأ ما قاله في هذا الملف الكبير.

وتذكرت هيلد أنها كانت قد اشترت في العام الماضي كتابا عن التنجيم، ثم أنها جلبت معها إلى البيت في مرة أخرى مجموعة من أوراق اللعب المستخدمة في قراءة الغيب، وأنها اشترت في مرة ثالثة كتابا عن تحضير

الأرواح. وفي كل مرة كان والدها يحذرها من الانزلاق إلى تصديق الخرافات ويدعوها إلى استخدام «حسها النقدي». والآن جاءت ساعة تصفية الحساب. وقد جاءت ضربته قوية في الصميم. من الواضح أنه كان لا يريد لابنته أن تتعرض لهذا النوع من التجارب دون أن تتلقى تحذيرا كافيا. وكي ينبهها تنبيها إضافيا إلى مقصده أطل عليها من شاشة تلفزيون كبير في واجهة أحد المحلات ولوح لها. هنا، كان يمكنه حقاً أن يوفر على نفسه هذا العناء...

غير أن أكثر ما يدهشها هي الفتاة ذات الشعر الداكن، صوفيا. من أنت يا صوفيا؟ ومن أين خرجت؟ ولماذا دخلت حياتي؟

وأخيراً تلقت صوفيا كتابا يتحدث عنها فيما يبدو.. هل هو نفس الكتاب الذي تحمله هيلد الآن بين يديها؟ إن ما معها ليس كتابا بل ملف كبير، ولكن ما أهمية هذا الفارق؟ وكيف يمكن أن تجد صوفيا كتابا يروي قصتها داخل كتاب آخر يروي قصتها بدوره؟ وماذا سيحدث لو بدأت صوفيا تقرأ ذلك الكتاب؟

ما الذي سيحدث الآن؟ ما الذي يمكن أن يحدث الآن؟ أحست هيلد بأطراف أناملها أن الملف لم يتبق فيه إلا صفحات قليلة.

ما إن صعدت صوفيا الأتوبيس الذي يعود بها إلى البيت حتى رأت أمها جالسة فيه. ليس هذا وقته حقاً! ماذا ستقول لأمها إذا رأت الكتاب الذي تحمله في يدها؟

حاولت صوفيا أن تدس الكتاب في الكيس مع أوراق الزينة والبالونات التي اشترتها للحفل ولكنها لم تنجح في ذلك.

ـ أهلا يا صوفيا! لقد أخذنا نفس الأتوبيس، يا لها من صدفة سعيدة!

ـ نعم يا ماما!

ـ هل اشتريت كتابا؟

ـ ليس بالضبط...

ـ *عالم صوفيا*... ما أغرب هذا العنوان!

أدركت صوفيا سريعا أنه ليس أمامها أدنى فرصة للتخلص من هذا المأزق بالكذب على أمها.

- لقد أهداني إياه ألبرتو.

- نعم هذا ما تخيلته. إني أتلهف كما قلت لك على مقابلة هذا الرجل. هل أستطيع أن ألقي نظرة على الكتاب؟

- ألا تستطيعين أن تنتظري حتى نصل إلى البيت؟ إنه كتابي أنا يا ماما.

- بالطبع إنه كتابك أنت يا صوفيا، أريد فقط أن ألقي نظرة على الصفحة الأولى... ماذا؟... «كانت صوفيا أموندسن عائدة من المدرسة. الشوط الأول من الطريق تقطعه صوفيا مع صديقتها نورا وقد ألفت هذه الصحبة اليومية بينهما فأصبحت نورا أحب صديقة إلى قلبها...»

- أهذا هو المكتوب حقاً؟

- نعم هذا هو المكتوب يا صوفيا والذي ألفه شخص يدعى ألبرت كناج. انا لم أسمع عنه من قبل، يبدو أنه كاتب مبتديء. بالمناسبة ما لقب ألبرتو؟

- كنوكس.

- أنا واثقة ان هذا الشخص الغريب هو الذي كتب عنك كتابا مستخدما اسما مستعارا هو البرت كناج.

- ليس هو يا ماما. دعك من هذا، إنك لا تدركين شيئا من حقيقة الأمر.

- ها أنت تعترفين بنفسك... غدا على أي حال هو حفل الحديقة، وبعد ذلك سيعود كل شيء كما كان من قبل.

- إن ألبرت كناج، مؤلف الكتاب، يعيش في واقع مختلف تماماً، ولذلك فإن هذا الكتاب يشبه غرابا أبيض.

- الآن يكفي كل هذا يا صوفيا، كنت أتصور أنه أرنب أبيض!

- دعنا من كل هذا، اتفقنا!

انقطع الحوار بين الأم وابنتها بوصول الأتوبيس إلى المحطة الواقعة في طرف ممر النرجس. وما إن هبطتا حتى وجدتا مظاهرة تتقدم خارجة من شارعهما الصغير. فصاحت أم صوفيا:

- يا إلهي! كنت أعتقد أننا بمنأى عن المظاهرات في هذا الحي الهادئ.

لم يكن عدد المتظاهرين يزيد على عشرة أشخاص وكانوا يرفعون لافتات تقول:

قريبا يعود الضابط
لتحيا مأكولات عيد منتصف الصيف اللذيذة
نفوذ أكبر للأمم المتحدة

كادت صوفيا ترثي لحالة أمها فقالت لها:

- لا تشغلي بالك بهم.

- ولكنها مظاهرة عجيبة حقاً يا صوفيا إنها أشبه بمسرح العبث.

- لا تهتمي بذلك يا ماما.

- العالم يتغير بسرعة شديدة، إن هذا لا يدهشني في الواقع.

- يجب أن تندهشي في الحقيقة لعدم دهشتك هذه.

- أكان يبدو عليهم العنف؟ كل ما أرجوه ألا يكونوا قد ساروا فوق أحواض الورد في حديقتنا. لا أعتقد أنه يمكن تنظيم مظاهرة في حديقة خاصة. هيا بنا نعود إلى البيت لنرى.

- إنها مظاهرة فلسفية يا ماما! إن الفلاسفة الحقيقيين لا يسيرون فوق أحواض الورد.

- حقاً يا صوفيا؟ أما زال هناك فلاسفة حقيقيون؟ لا أعتقد ذلك، إن كل شيء أصبح اصطناعيا هذه الأيام.

واصلت صوفيا وأمها إعداد الحفل حتى آخر النهار ثم اختتمتا الإعداد في صباح اليوم التالي بتجهيز المائدة وتزيينها. وجاءت نورا «المشرفة على التنظيم» تساعد صديقتها.

- أعرفت آخر الأخبار يا صوفيا؟ إن بابا وماما ينويان الحضور بالفعل! هذه غلطتك أنت!

كان كل شيء جاهزا قبل حضور الضيوف بنصف ساعة. علقت الزينات والفوانيس الورقية على الأشجار، ووضعت بالونات ملونة على بوابة الحديقة وعلى الأشجار التي تحف بالممر. كما زينت واجهة المنزل بالأوراق والبالونات الملونة التي ظلت صوفيا ونورا تنفخانها طوال العصر.

صفت على المائدة أطباق الدجاج والسلطة وأصناف مختلفة من الخبز المصنوع في البيت. أما الحلوى فقد تركت في المطبخ الذي احتشد بأصناف مختلفة من الفطائر، وبكعكة شوكولاتة كبيرة. وترك وسط المائدة الممدودة في الحديقة خاليا لتوضع فيه كعكة عيد الميلاد المصنوعة من عجينة اللوز. كان الطعام وفيراً وظلت أم صوفيا تردد:

- إننا لم نقتصد في أي شيء كما ترين يا صوفيا.

وبدأ الضيوف يتوافدون. في البداية جاءت ثلاث من صديقات صوفيا في الفصل يرتدين ثيابا صيفية ويضعن حول أكتافهن صدارات قطنية وقد زين وجوههن زينة لا تكاد ترى. ثم جاء زميلاها في الفصل يورجن وجيرمي فدخلا من باب الحديقة يبدو عليهما مزيج من الخجل وزهو الشباب.

- كل سنة وأنت طيبة يا صوفيا!

- لقد أصبحت كبيرة أنت أيضاً الآن!

أحضر الجميع معهم هدايا لصوفيا، ولما كان هذا حفلا فلسفيا فقد حاول بعض الضيوف أن يحضروا لها هدايا فلسفية. غير أن ضيوف صوفيا لم ينجحوا كلهم في العثور على هدية فلسفية، فاكتفى معظمهم بكتابة عبارات لها معنى فلسفي على البطاقات التي وضعوها في هداياهم. تلقت صوفيا قاموسا فلسفيا كما جاءتها مفكرة خاصة لها مفتاح تقفل به وكتب على غلافها «خواطر فلسفية شخصية». وكانت أم صوفيا، هيلين أموندسن، تستقبل كل ضيف يفد وتقدم له كوبا من عصير التفاح.

- أهلا وسهلا... ما اسمك يا حبيبتي؟... لا أعتقد أني رأيتك من قبل... يسعدني أن تحضري يا أريانا...

بعد أن وصل كل المدعوين الشباب الذين أخذوا يتجولون في الحديقة تحت الأشجار وهم يحملون أكواب العصير، وقفت أمام بوابة الحديقة سيارة والدي نورا المرسيدس البيضاء. كان المستشار المالي يرتدي حلة رمادية ويبدو شديد التأنق. أما زوجته فكانت ترتدي ثوبا أحمر مطرزا بخرز أحمر وأسود. وكانت صوفيا متأكدة أن أم نورا قد اشترت دمية من دمى باربي ترتدي مثل هذا الثوب وأنها طلبت من أحد الخياطين أن يفصل لها ثوبا مماثلا تماماً. إلا أن هناك احتمالا آخر: فربما يكون المستشار المالي هو الذي اشترى الدمية ثم أعطاها لساحر ليحولها إلى امرأة حية. ولكن لما كان هذا احتمالا ضعيفا فقد استبعدته صوفيا وهي تضحك في سرها.

نزلا من سيارتهما الفارهة ودخلا إلى الحديقة وعيون كل الضيوف الشباب معلقة بهما في دهشة من هذا التأنق الزائد الذي لا يناسب حفلا شبابيا في حديقة. قدم المستشار المالي علبة طويلة رفيعة إلى صوفيا باسم أسرته. وعندما فضتها صوفيا واكتشفت ما بها حاولت أن تظل هادئة وتكظم حنقها، فقد كانت الهدية نعم عروسة باربي! إلا أن نورا لم تستطع أن تحتفظ بهدوئها:

- هل هذا معقول؟ إن صوفيا ليست في سن اللعب بالعرائس!

عندما سمعت زوجة المستشار المالي ما قالته نورا جاءت مسرعة بكل خشخشة ملابسها وقالت:

- إنها لمجرد تزيين غرفتها يا نورا.

حاولت صوفيا أن تهدئ الجميع فقالت:

- شكرا جزيلا، الآن أستطيع أن أبدأ في تكوين مجموعة عرائس.

بدأ الضيوف يتقدمون نحو المائدة. فقالت أم صوفيا لابنتها بنبرة لم تنجح في إخفاء قلقها:

- إننا ما زلنا ننتظر ألبرتو! والمدعوون بدأوا يسألون عن ضيف الشرف، عن «الفيلسوف الحقيقي».

- لقد وعد أن يأتي، ولذلك فهو سيأتي حتما.

- أتعتقدين أننا نستطيع أن ندعو الضيوف الآن للجلوس إلى المائدة.

- بالطبع، هيا بنا.

بدأت هيلين، ام صوفيا، تجلس المدعوين حول المائدة الطويلة، وحرصت على أن يكون المقعد القائم في وسط المائدة بينها وبين صوفيا خاليا في انتظار وصول ألبرتو. وراحت هيلين تتبادل بعض العبارات مع الجالسين حولها عن الجو الجميل، وعن الطعام الشهي، وعن صوفيا التي أصبحت الآن فتاة كبيرة. وبينما الجلوس يتبادلون أحاديثهم ظهر عند باب الحديقة رجل في أواسط العمر يضع بيريها فوق رأسه ويحمل في يده باقة بها خمس عشرة وردة حمراء.

- ألبرتو!

نهضت صوفيا عن المائدة وجرت تستقبله وأخذت منه باقة الورد. وكانت استجابة ألبرتو لهذا الاستقبال الحار هو أنه بدأ يفتش في جيوب سترته ثم أخرج صاروخين ملونين وأشعلهما وقذف بهما في الهواء، وتقدم نحو المائدة يحمل في يده لعبة نارية تطلق شرارات ملونة وثبتها على قمة كعكة عيد الميلاد. ثم اتجه إلى الكرسي الخالي وجلس بين صوفيا وأمها وقال مخاطبا المدعوين:

- إني سعيد جدا لوجودي معكم في هذه المناسبة السارة.

كان كل الضيوف يتطلعون إليه مشدوهين ونظرت أم نورا إلى زوجها نظرة مستنكرة ذات مغزى بينما حاولت صوفيا أن تكتم ضحكاتها. أما والدة صوفيا فقد هدأ بالها لوصول ألبرتو أخيراً بعد هذا التأخير فكانت مستعدة لأن تغفر له أي شيء. وطلبت من الضيوف أن يحيوا ألبرتو وقدمته لهم قائلة:

- فلنرحب جميعا بألبرتو كنوكس في هذا الحفل الفلسفي. إن هذا الشخص المدهش هو الاستاذ الجديد الذي يعلم صوفيا الفلسفة، ولذلك فإن قدراته تتجاوز إشعال الصواريخ الملونة والألعاب النارية. فهو يستطيع مثلاً أن يخرج أرنباً حياً من قبعة طويلة، أم أنه يخرج غرابا أبيض يا صوفيا؟

قال ألبرتو وهو يجلس:

- شكراً، شكراً، شكراً!

فقالت صوفيا:

- فلنشرب في صحة ألبرتو!

رفع المدعوون أقداحهم المليئة بالكوكاكولا أو العصير وشربوها في صحته، ثم بدأوا في تناول الطعام المؤلف من الدجاج والأنواع المختلفة من السلطة. وبعد ذلك جاء الدور على الكعك والحلوى والقهوة والشاي. وكان ألبرتو قد بدأ يعطي الأولاد بعضا من ألعابه عندما نهضت أم صوفيا وأخذت تنقر بملعقة على قدح القهوة ثم قالت:

- لا أنوي أن ألقي خطبة طويلة، إلا أن صوفيا هي ابنتي الوحيدة وقد اتمت منذ ثمانية أيام تماماً خمسة عشر عاما. ولا تدرون مدى سعادتي إذ أراها الآن وسط أصدقائها الذين كانوا يمرحون معاًوهم صغار في هذه الحديقة. إن السنوات تمر

سريعا وها أنتم قد كبرتم جميعا وأصبحتم شبابا. إننا نقـول لـك يـا صوفيـا كـل سـنة وأنت طيبة!

وصاحت والدة نورا:

ـ رائعة!

لم تكن صوفيا متأكدة إن كانت، والدة نورا تقصد بهذه الكلمة هيلـين أمهـا، أو الخطبة، أو كعكة عيد الميلاد، أو صوفيا نفسها!

أخذ الضيوف يصفقون والأولاد يتراشقون بالألعاب النارية. ثم مال ألبرتو على صوفيا وقال:

ـ لا بد أن نترك هذا المكان بأسرع ما يمكن، ولكـن لا بـد أولا أن أقول كلمة قصيرة.

صفقت صوفيا بيديها فجذبت اهتمام الجميع، وقالت:

ـ فلينتبه الجميع: إن ألبرتو سيلقي كلمة صغيرة!

وصاحت هيلين والدة صوفيا:

ـ ما أروع هذا!

ـ شكراً!

ـ لقد عرفت أنك تهوي التنزه في الغابة. يبدو أنك حريـص علـى الحفـاظ علـى رشاقتك. كما عرفت أن لديك كلبا ذكيا تصطحبه في جولاتك اسمه هرمـس، أليـس كذلك!

نهض ألبرتو وبدأ حديثه قائلا:

ـ عزيزتي صوفيا، بما أن هذا حفل فلسفي فستكون كلمتي كلمة فلسفية.

واستقبل الضيوف قوله بعاصفة من التصفيق.

ـ غير أني أود أولا أن أهنيء صوفيا بعيد ميلادها الخامس عشر.

وما كاد يقول هذا حتى سمع صوت طائرة صغيرة تحلـق علـى ارتفـا ع منخفـض فـوق الحديقـة وفي ذيلهـا لافتـة طويلـة كتـب عليهـا: *«كـل سـنة وأنـت طيبـة ياصوفيا!»*.

أثارت هذه الطائرة عاصفة أقوى من التصفيق والصياح. وارتفع صوت والدة صوفيا وهي تقول للضيوف:

- ألم أقل لكم إن قدراته لا تقتصر على إشعال الألعاب النارية!

- شكرا، إنها مجرد حيلة بسيطة. خلال الأسابيع القليلة الماضية أجريت أنا وصوفيا بحثا فلسفيا مهما ونحن نريد أن نطلعكم الآن على النتائج التي توصلنا إليها. إننا سنكشف لكم أعمق أسرار وجودنا جميعا.

خيم الصمت على كل الضيوف فلم يعد يسمع سوى أصوات الطيور وحفيف الهواء بين الأشجار. وقالت صوفيا:

- استمر يا ألبرتوا

- بعد هذا البحث الفلسفي المتعمق الذي امتد من الفلاسفة اليونانيين الأوائل حتى يومنا الحاضر، اكتشفنا أننا نعيش حياتنا في ذهن ضابط يعمل في الوقت الحاضر مراقبا ضمن قوة الأمم المتحدة في لبنان. وقد كتب هذا الضابط كتابا عنا لابنته الموجودة في ليلساند. إن ابنته اسمها هيلد مولر كناج وقد أتمت خمسة عشر عاما هي وصوفيا في نفس اليوم. وهذا الكتاب الذي يتكلم عنا جميعا وجدته هيلد على المائدة المجاورة لسريرها عندما استيقظت من نومها في صباح يوم ١٥ يونيو (حزيران). وكي أكون دقيقا أقول إن الكتاب كان على هيئة ملف كبير. وحتى هذه اللحظة التي أحدثكم فيها تشعر هيلد بأطراف أناملها أن الملف لم يتبق فيه سوى صفحات قليلة.-

وبدأ شعور من القلق يسري بين الجلوس.

- إن وجودنا إذن ليس إلا تسلية من تسالي أعياد الميلاد قدمت لهيلد، لا أكثر ولا أقل. لقد اخترعنا جميعا كديكور لمقرر فلسفي كتبه الضابط لابنته. وهذا يعني مثلاً أن المرسيدس البيضاء الواقفة أمام بوابة الحديقة لا تساوي مليما واحدا. إنها مجرد حيلة خادعة. فهي من هذه الزاوية لا تساوي أكثر من كل السيارات المرسيدس التي تدور في ذهن ضابط الأمم المتحدة المسكين هذا الذي جلس لتوه في ظل نخلة ليتجنب الإصابة بضربة شمس. فالجو شديد الحرارة في لبنان هذه الأيام يا أصدقائي.

فصاح المستشار المالي:

ـ كلام فارغ! ما هذا العبث الذي تقوله!

وواصل ألبرتو حديثه وهو محتفظ بكل هدوئه:

ـ حرية التعبير مكفولة للجميع بطبيعة الحال، لكن الحقيقة هي أن هذا الحفل هو العبث المطلق. إن جرعة العقل الوحيدة في هـذا الحفـل كلـه هـو هـذه الكلمـة الـتي ألقيها.

وعندئذ نهض المستشار المالي وصاح قائلا:

ـ اننا نبذل كل جهدنا ليزدهر نشاطنا الاقتصادي كمـا نشـترك في جميـع أنـواع التأمين لنواجه المستقبل ناعمين براحة البال، ثم يأتي هذا الشخص المدعـي المتحذلـق ويحاول تدمير كل شيء بمزاعمه «الفلسفية».

أومأ ألبرتو برأسه موافقا ومضى يقول:

ـ ليست هناك في الواقـع أي بوليصـة تـأمين تسـتطيع أن تغطي إزاء خطـر هـذا النوع من المعرفة الفلسفية. إننا يا حضرة المستشـار المـالي نتحـدث عـن شـيء أفظـع بكثير من الكارثة الطبيعية، التي لا تغطيها أي بوليصة تأمين، كما تعرف بالتأكيد.

ـ ولكن هذه ليست كارثة طبيعية!

ـ كلا، إنها كارثة وجودية!. وانت لا تسـتطيع أن تؤمـن علـى نفسـك ضدهـا، فهل تستطيع مثلاً أن تؤمن على نفسك ضد غروب الشمس؟

وتطلع والد نورا إلى زوجته وسألها:

ـ هل من المفروض علينا أن نقبل بهذا؟

فهزت رأسها بالنفي، وكذلك فعلت أم صوفيا التي قالت:

ـ يا له من أمر مؤسف، أن يكون وجودنا وهماً بعد كل ما أنفقناه على الحفل.

أما المدعوون الشباب فقد ظلوا يتطلعون إلى ألـبرتو، وقـال شـاب مجعـد الشـعر يضع نظارة على عينيه:

ـ نريد أن نسمع بقية حديثك.

ـ شكرا، لم يعد هناك كثير يقال. فعندما يدرك الإنسان أنه مجرد صـورة في حلـم يدور في الوعي الناعس لشخص آخر فإن أحكم شـيء يفعلـه في هـذه الحالـة هـو أن

يبقى صامتا. وربما كان خير ما أنهي به كلمتي هو أن أوصيكم بدراسة مقرر قصير في تاريخ الفلسفة. فإنه يساعد الإنسان على تكوين موقف نقدي من العالم الذي يعيش فيه، وخاصة من قيم الأجيال السابقة. وإذا كان هناك شيء حاولت أن أعلمه لصوفيا فهو بالتحديد أن تفكر بطريقة نقدية. إن هيجل يسمي هذه الطريقة «التفكير السلبي».

كان المستشار المالي ما زال واقفا ينقر بأصابعه على المائدة بعصبية ظاهرة.

- إن هذا المحرض المثير للفتن يحاول أن يهدم كل القيم الرفيعة التي نسعى مع المدرسة والكنيسة إلى غرسها في نفوس الأجيال الشابة. إنهم هم الذين يملكون المستقبل أمامهم وهم الذين سيرثون يوما كل شيء بنيناه وإذا لم يجر فورا إبعاد هذا الشخص من الحفل فسوف أتصل بمحامي الخاص وهو الذي سيتكفل بالتعامل مع هذا الموقف.

- لا يهم في شيء أن تتعامل أو لا تتعامل مع هذا الموقف، لأنك لست سوى خيال خالص. وعلى أي حال فإني سأترك مع صوفيا هذا الحفل لأن مقرر الفلسفة لم يكن بالنسبة لنا مجرد مشروع نظري، إن له أيضاً جانبه العملي. وعندما يحين الأوان سأقوم أمامكم بلعبة بارعة لنختفي بواسطتها. هكذا سننجح في الإفلات من وعي الضابط.

أمسكت هيلين بيد ابنتها بقوة وقالت:

- إنك لن تتركيني يا صوفيا؟

احتضنت صوفيا أمها وتطلعت إلى ألبرتو وقالت:

- إن أمي ستحزن...

- كلا، هذا عبث. لا تنسي ما علمتك إياه يا صوفيا. إن هذا النوع من العبث هو الذي يجب أن نتحرر منه. إن أمك سيدة لطيفة ورقيقة، مثلها مثل ذات الرداء الأحمر التي جاءت تحمل الطعام لجدتها.

- اني أفهم قصدك يا ألبرتو.

ثم تحولت صوفيا إلى أمها وقالت:

- لذلك يجب أن أفعل ما يقوله يا ماما، وكان لا بد أن نفترق على أي حال في يوم من الأيام.

فردت أمها:

- سأفتقدك كثيراً يا ابنـتي، ولكـن إن كـانت هنـاك سمـاء فـوق هـذه فعليـك أن تطيري إليها يا صوفيا. أعدك بأن أحسن رعاية جوفينـدا. أهـي تـأكل ورقـة خس أم ورقتين في اليوم؟

وضع ألبرتو يده على كتف ام صوفيا رقال:

- لن يشعر بفقداننا لا أنت ولا أحد غيرك لأنك ببسـاطة غـير موجـودة. أنـت لست سوى خيال.

فقالت والدة نورا:

- هذه أسوأ إهانة سمعتها في حياتي.

فأومأ زوجها برأسه مؤيدا وقال:

- يمكننا أن نرفع عليه دعوى إهانة. إنه يريد أن يجردنا من كل عزيـز لدينـا، بـل من وجودنا ذاته إنه وضيع! إنه دنيء!

بعد أن قال المستشار المالي هذا جلس مكانه وهو يغلـي بـالغضب، كمـا جلـس ألبرتو الذي مال على صوفيا ونظر إليها نظرة جادة وقال:

- لقد حان الوقت.

فسألت هيلين ابنتها:

- ألا تستطيعين يا صوفيا أن تحضري لنا مزيدا من القهوة قبل أن تذهبي؟

- بالطبع يا ماما، سأحضرها فورا.

شعرت صوفيا أن أمها تريد أن تتحدث إلى ألبرتو على انفراد كي يطمئن قلبها. أخذت صوفيا إبريق القهوة من فوق المائدة ومضت إلى المطبخ. وبينما هي تنتظـر أن يسخن المـاء قـامت باطعـام عصفوريهـا الملونـين وأسماكهـا، كمـا ذهبـت إلى الحمـام ووضعت ورقة خس كبيرة لجوفيندا. لم تجـد أثـرا لقطتهـا إلا أنهـا وضعـت في إنائهـا بعضا من طعام عيد الميلاد، ثم تركت الإناء بجوار عتبة الباب وقد اغرورقـت عيناهـا بالدموع.

عندما عادت صوفيا بـ القهوة وجدت الحفل أقرب لعيد ميلاد طفلة صغيرة منه لحفل فلسفي أقيم للشباب. إذ كانت زجاجات المياه الغازية مبعثرة هنا وهناك، وآثار كعكة الشكوكولاته تملأ مفرش المائدة، والأولاد قد انطلقوا في إشعال الألعاب النارية، في حين أخذ بعض الضيوف يرقصون على موسيقى صاخبة.

كانت أمها وألبرتو يجلسان فوق الأرجوحة بعيدا عن بقية الضيوف وما إن وضعت صوفيا إبريق القهوة على المائدة حتى لوّحا لها كي تنضم إليهما. فمضت صوفيا نحو الأرجوحة وقالت:

ـ هل نجحتما أخيراً في الحديث وجها لوجه، أرجو أن تكوني قد اطمـأننتِ الآن يا ماما.

فردت أمها وصوتها يشي بالارتياح:

ـ وكان معك حق تماماً يا صوفيا. إن ألبرتو شخص جدير بكل ثقة، وسأكون مطمئنة عليك في رعايته.

جلست صوفيا بينهما. وكان المستشار المالي في هذه الأثناء قد نهض من على المائدة وأخذ يشارك الشباب رقصهم ولهوهم.

فقال ألبرتو مشيرا إلى هذا الصخب:

ـ تلك هي الحشرجات الأخيرة يا صوفيا. علينا أن نسرع بالفرار قبل أن يكتب الضابط الكلمة الأخيرة وتغلق هيلد الملف الكبير.

ـ سيكون عليك أن ترتبي كل شيء وحدك يا ماما.

ـ لا يهم يا حبيبتي. إن هذه ليست حياة لك فإذا استطاع ألبرتو أن يعطيك حياة أفضل فلن يكون هناك من هو أسعد مني. ألم تقولي إن عنده حصانا أبيض؟

أخذت صوفيا تتطلع إلى الحديقة تودعها وقالت لألبرتو:

ـ هذه الحديقة كانت جنتي الصغيرة ذات يوم.

فرد ألبرتو قائلا:

ـ وأنت ستخرجين الآن من الجنة.

كان أحد الأولاد قد جلس في المرسيدس البيضاء وأدار المحرك فانطلقت السيارة وأزاحت بوابة الحديقة ومضت على الممر المكسو بالحصى داخل الحديقة. وشعرت صوفيا بيد قوية تسحبها إلى داخل كوخها السري، ثم سمعت صوت ألبرتو يقول:

- الآن!

في هذه اللحظة ذاتها كانت المرسيدس البيضاء قد اصطدمت بشجرة التفاح التي أخذت ثمارها تتساقط فوق السيارة. وصرخ المستشار المالي:

- هذا كثير! هذا كثير! سوف أطالبكم بتعويض هائل!

وهبت زوجته تؤيده:

- إنها غلطة هذا الفيلسوف المدعي! أين هو؟ ثم أين صوفيا؟ هل انشقت الأرض وبلعتهما؟

فأجابت والدة صوفيا بنبرة ارتياح:

- لقد تلاشيا في الهواء.

نهضت والدة صوفيا ومضت نحو المائدة الطويلة وراحت ترتب المكان بعد أن بدأ ينفض هذا الحفل الفلسفي، وهي تسأل من بقي من الضيوف:

- هل يريد أحد مزيدا من القهوة؟

الفصل الرابع والثلاثون

لحنان متصاحبان

... لحنان... تتصاحب نغماتهما...

اعتدلت هيلد وجلست في سريرها. أهكذا تنتهي إذن قصة صوفيا وألبرتو؟ ولكن ما الذي حدث بالضبط؟

لماذا كتب أبوها هذا الفصل الأخير؟ هل لمجرد أن يثبت سيطرته على عالم صوفيا؟

أخذت هيلد حماما سريعا وارتدت ملابسها وهي مستغرقة تماماً في أفكارها. تناولت إفطارا سريعا وخرجت تتمشى في الحديقة ثم جلست على الأرجوحة.

ما الذي حدث لصوفيا وألبرتو وما مصير خطتهما السرية؟ وهل نجحا حقاً في الإفلات من الرواية؟ وأين هما الآن؟

وفجأة خطرت على بالها فكرة لم تدر كيف فاتت عليها. ان نجاح ألبرتو وصوفيا في الإفلات من الرواية يعنى أن الملف الكبير كان لا بد أن ينتهي كما حدث بالضبط قبل أن يشرعا في تنفيذ خطتهما. لأن نجاح الخطة معناه خروجهما من حدود رواية الملف. ثمة أمل إذن في أن يكونا موجودين.

أهناك شيء خفي قيل بين السطور؟ لقد أشار ألبرتو إلى هذا أكثر من مرة. وأدركت هيلد أن عليها أن تقرأ الرواية كلها مرة أخرى أو ربما مرتين، علها تكتشف ما ألمح إليه ألبرتو.

في اللحظة التي كانت المرسيدس البيضاء تقتحم الحديقة، سحب ألبرتو صوفيا إلى داخل كوخها السري، وتسللا عبر السياج وانطلقا يجريان نحو الغابة في اتجاه شاليه الضابط العجوز. وصرخ ألبرتو:

- بسرعة يا صوفيا! يجب أن يحدث هذا قبل أن يبدأ في التفتيش عنا.

ـ هل خرجنا من وعي الضابط الآن؟

ـ نحن في منطقة الحدود.

ركبا في القارب وعبرا البحيرة وركضا إلى داخل الشاليه. فتح ألبرتو بوابة في أرضية الغرفة ثم دفع صوفيا إلى داخل القبو فأصبح كل شيء معتما مظلما...

في الأيام التالية انصرفت هيلد إلى الاهتمام بخطتها. أرسلت عدة رسائل إلى خالتها آن في كوبنهاجن، بالدانمارك، وكلمتها بالتليفون مرتين أو ثلاثا. كما طلبت مساعدة أصدقائها ومعارفها، حتى أنها استعانت بأكثر من نصف زملائها في الفصل.

ومن حين لآخر كانت تقرأ من جديد عالم صوفيا. فهي ليست رواية تدرك كل جوانبها من قراءة واحدة. وظلت تخطر على بالها أفكار جديدة عما حدث لصوفيا وألبرتو عندما تركا حفل الحديقة.

في يوم السبت ٢٣ يونيو (حزيران) أفاقت من نومها في نحو التاسعة. كانت هيلد تعرف أن والدها قد ترك الآن معسكره في لبنان. لم يتبق عليها إلا الانتظار، فبقية يوم والدها قد رتبتها هيلد حتى أدق التفصيلات.

في أول الصباح بدأت تستعد مع أمها لليلة عيد منتصف الصيف. و لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في أن صوفيا وأمها كانتا مشغولتين مثلها هي وأمها في الاستعداد لحفل ليلة منتصف الصيف أيضاً، إلا أن هذا كان يحدث في الزمان الخاص بصوفيا.

جلست صوفيا وألبرتو على النجيل في حديقة عامة أمام مبنيين كبيرين تطل من واجهتهما فتحات قبيحة الشكل للتهوية والتكييف. خرج شاب وفتاة من أحد المبنيين. كان الشاب يحمل حافظة أوراق بنية أما الفتاة فكانت تحمل حقيبة يد حمراء تتدلى من كتفها. وفي هذه اللحظة مرت إحدى السيارات في شارع جانبي. فسألت صوفيا ألبرتو:

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد نجحت خطتنا!

ـ ولكن أين نحن الآن؟

ـ نحن في أوسلو عاصمة النرويج يا صوفيا.

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟

ـ متأكد تماماً، إن أحد هذين المبنيين يسمى «شاتو نوف» أي القصر الجديد. إنه معهد الموسيقى يا صوفيا. أما المبنى الآخر فهو كلية اللاهوت. وعلى الربوة هناك يدرسون العلوم والآداب والفلسفة.

ـ هل خرجنا من كتاب هيلد وأصبحنا خارج سيطرة الضابط؟

ـ نعم يا صوفيا، وهو لن يجدنا أبدا هنا.

ـ ولكن أين كنا عندما عبرنا الغابة راكضين؟

ـ بينما كان الضابط مشغولا بسيارة المستشار المالي الفاخرة التي اصطدمت بشجرة التفاح، اغتنمنا الفرصة واختفينا في كوخك. كانت هذه هي لحظة الميلاد يا صوفيا. كنا داخل هذا الكوخ مثل جنينين في رحم الأم، ننتمي إلى العالم القديم والعالم الجديد في نفس الوقت. إلا أن الضابط لم يفكر في أننا قد نختفي هناك.

ـ ولماذا؟

ـ لم يكن ليتركنا أبدا نفلت بسهولة. إن خطتنا نجحت كأنها حلم. إلا أنه ربما يكون قد شارك أيضاً في إنجاح الخطة.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ أليس هو الذي أدار محرك المرسيدس البيضاء؟ ربما أراد أن يتشاغل عنا إلى أقصى درجة بهذا الصخب الختامي ليعطينا الفرصة كي نغيب عن نظره.

كان الشاب والفتاة قد اقتربا الآن منهما فشعرت صوفيا بالخجل من أن يراها الناس وهي جالسة على النجيل مع رجل أكبر منها كثيراً. ثم انها كانت تريد أن يؤكد لها أحد ما قاله ألبرتو، فنهضت ومضت نحوهما وقالت:

ـ عفوا، هل تستطيعان أن تخبراني باسم هذا الشارع؟

ولكنهما تجاهلاها تماماً فأحست صوفيا أن موقفهما مستفز، فسألتهما مرة أخرى:

ـ أليس من المفروض أن يرد الإنسان على من يحدثه؟

ولكن الشاب كان مستغرقا في شرح أمر ما للفتاة:

ـ إن الموسيقى المؤلفة باسلوب تقابل الألحان تعزف على مستويين: مستوى أفقي أو نغمي، ومستوى رأسي أو هارموني. هناك دائما بالتالي لحنان، أو أكثر، تتصاحب نغماتهما...

ـ أنا آسفة إن كنت أقطع حديثكما ولكن...

ـ إن النغمات تمتزج بطريقة تجعل كلا منها تمضي في مسارها مستقلة عن الأخرى بقدر الإمكان. إلا أن النغمات يجب أن تكون متوافقة. إن أسلوب تقابل الالحان هو في حقيقة الأمر نغمة مقابل نغمة.

يا لها من قلة ذوق! إنهما ليسا أصمين ولا أبكمين. حاولت صوفيا مرة ثالثة. حشرت نفسها بينهما، فأحست بدفعة رقيقة تنحيها جانبا. وقالت الفتاة:

ـ كأنما الريح ستهب.

جرت صوفيا عائدة إلى ألبرتو وقالت بيأس وهي تتذكر حلمها بهيلد والصليب الذهبي:

ـ إنهما لا يستطيعان أن يسمعاني!

ـ هذا هو الثمن الذي علينا أن ندفعه يا صوفيا. لقد تسللنا خارجين من كتاب، فكيف نتوقع أن تنطبق علينا قوانين الواقع الذي يعيش فيه المؤلف؟ ولكننا موجودان حقاً هنا وهذا هو المهم. واعتبارا من الآن لن يزيد عمرنا أبدا يوما واحدا عن عمرنا لحظة أن تركنا الحفل الفلسفي في الحديقة.

ـ أتقصد أننا لن نستطيع أبدا أن نقيم علاقة حقيقية مع الناس من حولنا؟

ـ إن الفيلسوف الحقيقي لا يقول أبدا كلمة «أبدا». كم الساعة الآن؟

ـ إنها الثامنة.

ـ إنها نفس الساعة التي تركنا فيها حفل الحديقة.

ـ واليوم يعود والد هيلد من لبنان.

ـ ولذلك علينا أن نسرع، ليس أمامنا وقت نضيعه.

ـ لماذا، ماذا تقصد؟

ـ ألا تريدين أن تعرفي ماذا سيحدث عندما يعود الضابط إلى بيته في باركلي؟

ـ طبعا...

ـ هيا بنا إذن!

بدا يسيران نحو وسط المدينة. وكان يصادفان من حين لآخر بعض المارة في طريقهما. غير أن الناس كانوا يسيرون جميعا دون أن يلاحظوا وجود صوفيا وألبرتو كأنما قد صنعا من هواء.

كانت السيارات تقف بجوار الرصيف بطول الشارع. وفجأة وقف ألبرتو أمام سيارة مكشوفة صغيرة حمراء وقال:

ـ أعتقد أن هذه ستفي بالغرض. يكفي أن نتأكد أنها سيارتنا.

ـ لا أفهم على الإطلاق ما تقول.

ـ دعيني أشرح لك يا صوفيا. إننا لا نستطيع أن نأخذ سيارة عادية لواحد من سكان المدينة. فكيف سيتصرف الناس في رأيك إن لاحظوا أن هناك سيارة تسير بمفردها دون سائق؟ ثم أننا لن نستطيع أن نديرها على أي حال.

ـ وهل لهذا السبب تختار سيارة مكشوفة؟

ـ أعتقد أني رأيتها من قبل في فيلم قديم.

ـ أنا آسفة، ولكني بدأت أضجر من كل هذه التلميحات الغامضة.

ـ إنها سيارة خيالية يا صوفيا، أي إنها مثلنا تماماً. إن الناس لا يرونها وإنما يرون في هذا الموضع مكانا خاليا. وهذا ما يجب أن نتأكد منه قبل أن ننطلق بها.

وقفا بجوار السيارة ينتظران، وبعد برهة جاء صبي يركب دراجة فوق الرصيف ثم استدار فجأة ونزل إلى الشارع وهو يعبر من خلال السيارة الحمراء.

ـ هل رأيت؟ إنها سيارتنا!

فتح ألبرتو باب السيارة وقال لصوفيا:

ـ تفضلي يا آنستي!

ركبت صوفيا ودار ألبرتو وركب من الباب الآخر. كان المفتاح في موضعه فأداره ألبرتو وبدأت السيارة الحمراء تتحرك.

انطلقا في طريقهما خارج المدينة في اتجاه ليلساند. على طول الطريق كانا يبصران الزينات المعلقة بمناسبة عيد منتصف الصيف. فقال ألبرتو:

ـ انها ليلة عيد يا صوفيا! أليس هذا مشهدا رائعا؟

ـ والهواء منعش في هذه السيارة المكشوفة. أواثق حقاً أن أحدا لا يرانا؟

ـ إلا من هم مثلنا، وقد نلتقي ببعضهم. كم الساعة الآن؟

ـ الثامنة والنصف.

ـ لا بـد إذن أن نـأخذ طريقـاً مختصـراً. لا يمكـن أن نظـل سـائرين خلـف هـذه الشاحنة البطيئة.

انحرف ألبرتو إلى حقل قمح على يمين الطريـق، ونظـرت صوفيـا وراءهـا فـرأت أنهما تركا خلفهما شريطا من سنابل القمح مـائلا علـى الأرض. فقـال ألـبرتو وهـو يعود إلى الطريق الرئيسي بعد أن تخطى الشاحنة:

ـ غدا سيقول الناس إن الريح قد هبت على الحقول.

هبطت طائرة الضابط ألبرت كناج في مطار كوبنهاجن في الساعة الرابعـة والنصف من يوم السبت ٢٣ يونيو (حزيران). لقد قضى بالفعل يومـا طويـلا. إذ أخذ الطائرة من بيروت إلى روما ثم من روما إلى كوبنهاجن.

مر بإجراءات الجوازات وهو يرتدي زي قوات الأمم المتحدة الذي يفخـر به. فهو لا يمثل نفسه أو بلده فحسـب بـل منظمـة دوليـة يعـترف العـالم كلـه بأهميتها.

كان يحمل حقيبة يد صغيرة لأنه سجل بقية حقائبه في روما ليتسلمها عند وصوله إلى مطار كريستيانساند بالنرويج، أقرب مدينة كبـيرة لليلسـاند حيـث يقيم.

كان على ألبرت كناج أن ينتظر في كوبنهاجن نحو ثلاث ساعات قبل أن تقلع طائرته إلى كريستيانساند. أمامـه إذن متسـع مـن الوقـت ليشـتري بعـض الهدايا الصغيرة لأسرته. كان قد أرسل هديـة حياتـه إلى هيلـد منـذ أسـبوعين. وكانت زوجته ماريت قد وضعتهـا علـى الطاولـة المجـاورة لسـرير هيلـد كـي تلمحها فور استيقاظها في يوم عيد ميلادها.

اشترى ألبرت جريدتين نرويجيتين وجلس في مقهى المطـار وطلـب فنجانـا من القهوة. وما كادت عيناه تمران على عناوين الجريدة حتى سمـع إعلانـا عـن طريق مكبرات الصوت:

«رسالة شخصية للسيد ألبرت كناج. يرجى من السيد ألبرت كناج الحضور إلى مكتب شركة الخطوط الجوية الاسكنديناقية ساس».

ما الأمر؟ ولماذا هذا النداء على اسمي؟ اضطرب ألبرت وتساءل: أهو أمر صدر بأن يعود إلى لبنان؟ أحدث شيء في البيت؟

وذهب مسرعا إلى مكتب شركة الطيران وقال:

ـ أنا ألبرت كناج.

ـ تفضل يا سيدي هذه رسالة عاجلة لك.

فتح ألبرت الظرف فوجد داخله ظرفا أصغر كتب عليه *«الضابط ألبرت كناج، طرف/مكتب شركة ساس، مطار كوبنهاجن»*.

فتح ألبرت الظرف الصغير متعجلا فوجد فيه القصاصة التالية:

عزيزي بابا،

مرحبا بعودتك سالما من لبنان. إني لم اطق صبرا كما ترى حتى تعود إلى البيت. سامحني لإبلاغك هذه الرسالة عن طريق مكبرات الصوت. فقد كان «من الأسهل التصرف على هذا النحو».

ملاحظة أولى: وصلنا للأسف طلب من المستشار المالي برجستون لتعويضه عن سيارة مرسيدس بيضاء سرقت وتعرضت لتلفيات شديدة في حادث فلسفي.

ملاحظة ثانية: قد أكون جالسة على المرسى عند عودتك. ولكن ربما وصلتك بعض أخباري قبل ذلك.

ملاحظة ثالثة: شعرت فجأة بالخوف من البقاء طويلا في الحديقة فمن السهل أن «أن تنشق الأرض وتبتلع الإنسان» في هذا النوع من الأماكن.

مع تحيات ابنتك هيلد التي كان أمامها وقت طويل تستعد فيه لاستقبالك.

لم يملك ألبرت إلا أن يبتسم لأول وهلة. إلا أن لم يرحب في قرارة نفسه بأن يكون هناك من يتحكم فيه بهذه الطريقة. إنه يجب أن يكون هو المتحكم في تصرفاته. والآن تأتي هذه العفريتة الصغيرة لتوجه من ليلساند تصرفاته في مطار كوبنهاجن! كيف نجحت في هذا؟

وضع الرسالة في جيب سترته وبدأ يتجول في السوق الحرة بالمطار. وما كاد يدخل المحل الذي يبيع المأكولات الدانماركية حتى رأى ظرفا صغيرا

ملصوقا على واجهة المحل ومكتوبا عليه بقلم سيمك «الضابط ألبرت كنـاج». فأخذه وفضه سريعا:

رسالة شخصية للضابط البرت كناج، طرف/محل المأكولات الدانماركيـة، مطـار كوبنهاجن.

عزيزي بابا،

أرجو ان تشتري لي كيلو أو اثنين من سمك السلامون المدخن الفاخر. ولا تنـس أن ماما تحب كثيراً الكافيار الدانماركي أيضاً.

مع تحيات هيلد

أخذ ألبرت يتلفت حوله أهي موجودة بالقرب منه يـاترى؟ هـل أهدتهـا زوجته ماريت رحلة إلى كوبنهاجن حتـى تقابلـه هنـا؟ فهـذا خـط هيلـد، انـه يعرفه...

وفجأة أحس مراقب الأمم المتحدة أنه هو نفسـه يتعـرض للمراقبـة. كأنمـا هناك من يتحكم عن بعد في كـل تصرفاته. وأحـس كأنـه دميـة في يـد طفـل صغير.

ذهـب إلى المحـل واشـترى مـا طلبتـه هيلـد واسـتمر في طريقـه يتطلـع إلى واجهات المحلات المختلفة. وفكر في شراء هدية لهيلد. آلة حاسبة مثلاً؟ أو ربما جهاز راديو صغير؟ نعم ربما كان الراديو فكرة مناسبة.

غير أنه عندما وصل أمام المحل الذي يبيع الأجهزة الكهربائية، وجد أيضـاً ظرفا مثبتـا علـى واجهـة المحـل ومكتوبـا عليـه بـالطبع **«الضـابط ألـبرت كنـاج، طرف/أروع محل في مطار كوبنهاجن»**. وداخل الظرف وجد الرسالة التالية:

عزيزي بابا،

إن صوفيا تبعث إليك بتحياتها وتشكرك على جهـاز التلفزيـون الصغـير المـزود براديو الذي أهداه إليها أبوها الكريم بمناسبة عيد ميلادها. لقـد كـانت هديـة رائعـة إلا انها كما تعرف مجرد حيلة بسيطة. ولكني يجب أن أعترف لك بأني أشارك صوفيا ولعها بهذا النوع من الخدع.

ملاحظة أولى: إن لم تكن قد وصلت إلى محل المأكولات الدانماركية ومحل الحلوى، فارجوك أن تذهب إلى هناك حيث ستجد تعليمات أخرى في انتظارك.

ملاحظة ثانية: لقد تلقيت بعض النقود في عيد ميلادي، ولذلك أستطيع أن أساهم بمبلغ ٣٥٠ كرونا في شراء جهاز التلفزيون الصغير.

مع تحيات هيلد التي أعدت لك بالفعل الوجبة التقليدية لعيد منتصف الصيف: الديك المحشو وسلطة والدورف التي تحبها.

وجد ألبرتو أن ثمن جهاز التلفزيون الصغير يساوي ٩٨٠ كرونا دانماركيا. لم يزعجه ارتفاع الثمن بل الحالة التي وجد نفسه فيها وهو يتحرك من متجر لآخر بناء على تعليمات ابنته. هل هي هنا أم لا؟

بعد ذلك أخذ ألبرت يتلفت حوله يمنة ويسرة أينما ذهب. كان يشعر أنه جاسوس يبحث خفية عن هيلد، وأنه في نفس الوقت دمية تحركها هيلد في كل اتجاه. ألم تنتزع منه حريته كإنسان؟

أحس أنه مضطر للذهاب إلى محل الحلوى كما طلبت ابنته. فوجد هناك ظرفا جديدا يحمل اسمه. كأنما المطار أصبح كله شاشة حاسب آلي يتحرك فوقها بأوامر تصدرها أصابع هيلد. وقرأ الرسالة:

الضابط كناج، طرف/محل الحلوى بمطار كوبنهاجن.

كل ما أريده من هنا هو علبة لبان كبيرة وبعض باكوات الشوكولاته فكل هذا أغلى ثمنا في النرويج!

ملاحظة: يجب أن تحتفظ بانتباهك الكامل على طريق العودة فإني واثقة أنك لن تريد أن تفوتك أي رسائل هامة.

ابنتك هيلد التي تعلمت منك

الكثير كما ترى.

تنهد ألبرت بيأس، إلا أنه دخل المحل واشترى ما طلبته هيلد. ثم مضى وهو يحمل ثلاثة أكياس بلاستيك كبيرة بالإضافة إلى حقيبة يده نحو بوابة

السفر رقم ٢٨ في انتظار إقلاع طائرته. إن كانت هيلد قد تركت مزيدا من الرسائل فوق واجهات أي محلات أخرى فلتظل مكانها!

إلا أنه ما كاد يصل عند بوابة السفر رقم ٢٨ حتى لمح ظرفا أبيض آخر لصق على أحد الأعمدة: «**إلى الضابط كناج، طرف/بوابة السفر رقم ٢٨، مطار كوبنهاجن**». كان هذا خط هيلد أيضاً باستثناء رقم بوابة السفر: إذ يبدو أن شخصا آخر كتب رقم البوابة في اللحظة الأخيرة عند الإعلان عنها. ولكنه لم يستطع أن يقطع برأي من مجرد رقمين. أخذ الظرف وفتحه فوجد قصاصة لم يكتب عليها سوى:

لن يستمر الانتظار طويلا.

جلس ألبرت على مقعد بمحاذاة أحد الحيطان ووضع أكياس المشتريات على ركبتيه. هكذا جلس الضابط المعتز بنفسه ساكنا يتطلع إلى المسافرين كأنه طفل يسافر وحده لأول مرة في حياته. فلو كانت هيلد هنا لن يدعها تستمتع باكتشافه أولا قبل أن يكتشفها هو.

وأخذ يتطلع قلقاً إلى جميع المسافرين وهم يدخلون قاعة الانتظاروهو يشعر أنه يخضع لرقابة صارمة. وعندما سمح للمسافرين أخيراً بأن يصعدوا إلى الطائرة تنفس بارتياح. كان آخر راكب يدخل الطائرة، إلا انه ما كاد يسلم بطاقة الركوب حتى رأى ظرفا آخر يحمل اسمه ملصوقا على مكتب شركة الطيران.

كان ألبرتو وصوفيا يقتربان من ليلساند، ومع ذلك ظل ألبرتو ينطلق مسرعا بالسيارة المكشوفة، فقالت صوفيا:

ـ أنت تقود السيارة بسرعة مجنونة إننا نسير بسرعة ١٨٠ كيلومترا في الساعة!

ـ إن الساعة التاسعة تقريبا يا صوفيا وقد أوشك الضابط على الهبوط في مطار كريستيانساند، وعلى أي حال لن تسجل علينا مخالفات لتجاوز السرعة المقررة.

ـ ولكن افترض أننا اصطدمنا بسيارة أخرى؟

ـ لا يهم إن كانت سيارة عادية. أما إن كانت سيارة مثل سيارتنا...

ـ ماذا سيحدث...

ـ يجب أن ننتبه هذا كل ما في الأمر.

ـ ولكن لن يكون من السهل تخطي هذا الأتوبيس السياحي. فالغابة تحف بالطريق من الجهتين.

ـ هذا لا يغير شيئا يا صوفيا. لا بد أن تعتادي على هذا الواقع الجديد.

قال ألبرتو ذلك ثم انحرف يسارا ومر عبر الغابة وتخطى الأتوبيس ثم عاد مرة أخرى إلى الطريق فتنفست صوفيا بارتياح.

ـ لقد أفزعتني.

ـ لن تشعري بشيء حتى لو اقتحمنا سورا حديديا.

ـ هذا معناه أننا مجرد أرواح من الهواء بالقياس إلى كل ما يحيط بنا.

ـ لا، أنت الآن تقلبين الأمور رأسا على عقب، إن الواقع المحيط بنا هو المغامرة الخيالية، هو المصنوع من الهواء بالنسبة لنا.

ـ أنا لا أفهم قصدك.

ـإذن اسمعيني جيدا: هناك اعتقاد شائع بأن الروح شيء «ضبابي» أكثر شفافية من بخار الماء. ولكن هذا رأي خاطيء، إن الروح أكثر صلابة من الثلج.

ـ هذه فكرة لم تخطر على بالي قط.

ـ والآن سأحكي لك حكاية. كان هناك حطاب لا يؤمن بوجود الملائكة. وذات يوم كان مستغرقا في العمل بالغابة ففوجيء بملاك يزوره.

ـ وماذا حدث؟

ـ سارا معاً لفترة من الزمن ثم استدار الرجل أخيراً إلى الملاك وقال له «أنا مضطر الآن لتصديق أن الملائكة موجودون، إلا أنكم لستم موجودين في الواقع مثلنا». فسأله الملاك «ماذا تقصد بذلك؟». فأجابه الحطاب «عندما صادفنا تلك الصخرة الكبيرة اضطررت أنا لأن أدور حولها أما أنت فقد مررت من خلالها. وعندما وجدنا هذا الجذع الضخم يسد طريقنا اضطررت أنا لأن أصعد فوقه بينما مشيت أنت من خلاله». د هش الملاك دهشة بالغة من جواب الرجل وقال له «ولكن ألم تلاحظ أني سرت معك في أرض موحلة لأنك لم تتبين طريقك من شدة

الضباب؟ وإذا كنت عبرت معك الضباب فذلك لأن تكويننا كلينا أكثر صلابة من الضباب».

حقاً!

- إن نفس الشيء ينطبق علينا يا صوفيا. فالروح تستطيع أن تمر من أبواب فولاذية ولا تستطيع الدبابات أو قاذفات القنابل أن تدمر شيئا مكونا من روح.

- يا له من أمر غريب، وإن كان فيه بعض العزاء.

- لقد مرت ساعة حاسمة منذ تركنا شاليه الضابط العجوز. وأشعر الآن أنني احتاج حقاً إلى فنجان من القهوة.

بعد عدة كيلومترات لمحا مقهى إلى شمال الطريق اسمه سندريللا. خرج ألبرتو من الطريق وصف السيارة على النجيل الممتدد أمام المقهى.

في الداخل حاولت صوفيا أن ترفع زجاجة كوكاكولا وجدتها على احدى الموائد إلا أن الزجاجة ما كانت لترتفع، كأنما التصقت بالمائدة. كما حاول ألبرتو أن يضغط على آلة القهوة ليحصل على بعض منها في كأس ورقي وجده في السيارة، غير أن المفتاح ما كان لينضغط. حاول ألبرتو ثانية بكل قواه ولكن دون جدوى.

أثار هذا انزعاج ألبرتو فاستدار يستنجد برواد المقهى فلم يجبه أحد. وعندئذ أخذ يصيح بأعلى صوت:

- أريد قهوة! أريد قهوة!

كان يصرخ بصوت شديد الارتفاع إلى درجة أن صوفيا اضطرت لسد أذنيها. ولكن سرعان ما تبخر غضبه واستغرق في الضحك وقال لصوفيا:

- إنهم لا يستطيعون أن يسمعونا، كما أننا لا نستطيع أن نشرب من قهوتهم.

وما إن همّا بمغادرة المقهى حتى رأيا امرأة عجوز تنهض من مقعدها وتتجه نحوهما. كانت ترتدي ثوبا أحمر وصدارا أزرق وتضع على رأسها منديلا أبيض. وكانت ألوانها وملامحها أكثر وضوحا من أي شيء آخر في المقهى الصغير. مضت المرأة العجوز نحو ألبرتو وقالت له:

- لماذا تصرخ هكذا يا بني!

- أنا آسف يا سيدتي.

ـ هل قلت إنك تريد بعض القهوة؟

ـ نعم، ولكن...

ـ إن لدينا مقهى صغيرا لا يبعد عن هنا.

خرجت المرأة فسارا وراءها في ممشى ضيق يدور خلف المقهى. وبينما هم سائرون قالت لهم المرأة العجوز:

ـ هل أنتما جديدان على هذه المنطقة؟

فأجابها ألبرتو:

ـ نعم. يبدو أن علينا أن نسلم بهذا.

ـ إذن مرحبا بكما في دار الخلود يا ابني ويا ابنتي.

ـ ومن أنت؟

ـ إني شخصية من الشخصيات الخيالية التي جمع قصصها الاخوان جريم: ولكني لست في شهرة سندريللا أو ذات الرداء الأحمر. إن عمري يزيد الآن على مائتي عام. ومن أنتما؟

ـ لقد خرجنا من كتاب فلسفة. أنا أستاذ فلسفة وهذه تلميذتي صوفيا.

ـ أهلا أهلا! كتاب فلسفة! هذا حقاً حدث جديد!

وسرعان ما وصلوا إلى أرض خلاء تحف بها الأشجار من كل جانب ورأت صوفيا وألبرتو مجموعة من البيوت البنية الجميلة المنظر تتوسطها ساحة صغيرة أشعلت فيها النار التقليدية احتفالا بعيد منتصف الصيف. كانت تتحلق النار شخصيات ترتدي ثيابا زاهية الألوان، وترقص في فرح. وتعرفت صوفيا من أول وهلة على كثير منهم فقد رأت الأميرة الجميلة والأقزام السبعة، وسندريللا، وشارلوك هولمز، وبيتر بان، وذات الرداء الأحمر، وعلاء الدين ومصباحه السحري. كما تجمع حول النار مجموعة من الشخصيات التي تألف منظرها دون أن تعرف أسماءها مثل العفاريت. والحيوانات الناطقة، والأقزام، والساحرات. فصاح ألبرتو:

ـ ما هذا الصخب!

فقالت المرأة العجوز:

ـ إنها ليلة عيد منتصف الصيف ونحن لم نتجمع في حفل من هذا النوع منذ ليلة عيد الربيع التي احتفلنا بها في ألمانيا. هل قلت إنك تريد فنجان قهوة؟

ـ نعم من فضلك.

عندئذ لاحظت صوفيا أن كل المباني مصنوعة من كعك خلط بسكر محروق أعطاه هذا اللون البني المميز، كما لاحظت أن البيوت مزينة بأنواع مختلفة من الحلوى. وكانت بعض الشخصيات تأكل من واجهات البيوت مباشرة ثم يأتي خباز يصلح ما أصاب البيوت بمجرد أن تنقص قطعة هنا أو قطعة هناك. وتشجعت صوفيا فأخذت قطعة من أحد الأركان فبدا لها أن مذاقها أشهى من كل ما أكلته طول حياتها.

بعد قليل عادت المرأة العجوز وهي تحمل فنجانا من القهوة.

ـ أشكرك جدا يا سيدتي.

ـ وماذا ستدفعان ثمنا لهذه القهوة؟

ـ ندفع ثمن القهوة؟

ـ ان الثمن لدينا في العادة هو رواية إحدى الحكايات. وفنجان القهوة يساوي قصة قصيرة.

فأجابها ألبرتو:

ـ نحن نستطيع أن نحكي قصة الإنسانية كلها. ولكن المشكلة أننا في منتهى العجلة، ألا نستطيع أن نأتي لندفع في يوم آخر؟

ـ بالطبع يا بني. ولكن لم هذه العجلة كلها؟

شرح ألبرتو الموقف فعلقت المرأة العجوز بقولها:

ـ إنكما حقاً جديدان على عالمنا. هيا لا تتأخرا، إذ يجب أن تقطعا الحبل السري الذي يربطكما بالعالم الفاني. إننا لم نعد بحاجة إلى عالمهم. فنحن ننتمي إلى الشعب الخفي.

عاد ألبرتو وصوفيا مسرعين إلى مقهى سندريللا وعربتهما الحمراء المكشوفة. انطلق ألبرتو بسرعته الفائقة مخترقا الحقول والطرق المختصرة وسرعان ما وجدا نفسهما في ليلساند.

ما إن جلس ألبرت كناج في مقعده وبدأت الطائرة تتحرك نحو ممر الإقلاع في مطار كوبنهاجن حتى فتح الظرف الذي وجده في مكتب شركة

الطيران قبل دخول الطائرة. كان مكتوبا على الظرف: «إلى الضابط كناج، وهو يسلم بطاقة الركوب في مطار كوبنهاجن في ليلة عيد منتصف الصيف، ١٩٩٠».

ثم قرأ ألبرت الرسالة:

عزيزي بابا،

ربما تصورت أني سأظهر أمامك فجأة في كوبنهاجن ولكن سيطرتي على تصرفاتك لا تتوقف عند هذا الحد، فإني أستطيع أن أراك أينما كنت يا بابا. فالواقع أني قمت بزيارة أسرة غجرية معروفة كانت قد باعت لجدتي الكبيرة منذ سنين طويلة مرآة نحاسية مسحورة تطلعني على كل الأسرار. كما أن هذه الأسرة أهدتني كرة من الكريستال أقرأ فيها الغيب، وأستطيع أن آراك في هذه اللحظة نفسها وقد جلست توا في مقعدك. هل لي أن أذكرك أنك يجب أن تربط حزام المقعد وأن ترفع ظهر المقعد إلى وضع رأسي حتى تنطفيء إشارة ربط حزام المقعد. وما إن تحلق الطائرة يمكنك أن تدفع ظهر المقعهد إلى الخلف وتغفو قليلا بعد هذا اليوم الطويل. فمن الحكمة أن تصل إلى البيت وقد أخذت قسطا من الراحة. إن الجو في ليلساند رائع وإن كانت الحرارة تقل بضع درجات عن مستواها في لبنان. أتمنى لك رحلة سعيدة.

مع تحيات ساحرتك الصغيرة
ملكة المرآة المسحورة وحامية
حمى التهكم!

كان ألبرت ما زال لا يعرف أهو غاضب حقاً أم أنه قد أعياه التعب فاستسلم لحيل هيلد. ثم انطلق فجأة في الضحك. كان يضحك بصوت مرتفع حتى أن بعض الركاب قد استداروا نحوه يتطلعون إليه بدهشة كاملة. وما لبثت الطائرة أن أقلعت.

نعم، ها هو يذوق ما كان يذيقه للآخرين. ولكن مع فارق هام. فإن حيله كانت لا تؤثر إلا على صوفيا وألبرتو، وهما ليسا سوى محض خيال.

فعل ألبرت ما نصحته به هيلد فأزاح ظهر مقعده إلى الخلف وغفا قليلا.

وفي تمام الساعة التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة هبطت رحلة الخطوط الجوية الاسكندنافية رقم ٨٧٦ القادمة من كوبنهاجن في مطار كريستيانساند. ونزل ألبرت من الطائرة مع الركاب وأنهى إجراءات الجوازات ووقف في

صالة الوصول ينتظر حقائبه، وعندئذ وجد مفاجأة حقيقية في انتظاره.
وجد البرت مظاهرة تتألف من نحو عشرة أشخاص في عمر هيلد، يحملون لافتات تقول: **مرحبا بك يا بابا، هيلد تنتظرك في الحديقة، فليحيا التهكم.**

وأسوأ ما في الأمر أنه لم يستطع أن يقفز داخل أول تاكسي. إذ تأخرت حقائبه وكان عليه أن ينتظرها. وفي هذه الأثناء لم يكتف المتظاهرون برفع اللافتات بل أخذوا يدورون حوله يجبرونه على قراءة شعاراتهم مرة بعد أخرى. ثم جاءت نحوه إحدى الفتيات وقدمت له باقة ورد. وعندئذ تلاشى توتره واضطرابه وراح يفتش في أكياسه وأخرج بعض ما اشتراه من حلوى ووزعه على المتظاهرين. لم يتبق الآن سوى قطعة واحدة لهيلد. وعندما وصلت حقائبه أخيراً وهم بالخروج من المطار تقدم نحوه شاب وقال له إنه مبعوث ملكة المرآة التي أمرته أن يصطحب والدها إلى باركلي. وعندئذ تفرق المتظاهرون وسط الناس.

ما كاد ينطلق على الطريق السريع حتى رأى لافتات علقت بعرض الطريق تقول **مرحبا بك في بيتك! إن ديك العيد في انتظارك! إني أراك يا بابا!**

وعندما وصل ألبرت كناج أخيراً إلى بوابة الحديقة في باركلي تنهد بارتياح وشكر السائق وأعطاه ورقة بمائة كرون وبعض الحلوى.

كانت زوجته ماريت تنتظره خارج البيت. احتضنها طويلا ثم سألها:

ـ أين هي؟
ـ إنها تجلس على المرسى يا ألبرت.

صف ألبرتو وصوفيا السيارة المكشوفة في ميدان ليلساند الرئيسي أمام فندق النرويج. كانت الساعة العاشرة إلا ربعا. ثم سألت صوفيا:

ـ كيف سنجد باركلي، بيت هيلد؟

ـ يكفي أن نفتش عليه. انه في احدى ضواحي ليلساند، هل تتذكرين اللوحة المعلقة في شاليه الضابط العجوز؟

ـ نعم. هيا بنا نسرع، إني أريد أن أكون هناك قبل وصوله.

وانطلقا بالسيارة في الطرق الجانبية ومضيا عبر الصخور والمنحدرات وكانا يفكران طوال الوقت في أمر هام: فإن باركلي، كما كان مرسوما في اللوحة، يقع على حافة الماء. وفجأة صاحت صوفيا:

ـ هذا هو باركلي! لقد وجدناه!

ـ معك حق يا صوفيا ولكن لا تصيحي بهذا الصوت المرتفع.

ـ لماذا، وليس هناك من يستطيع أن يسمعنا.

ـ عزيزتي صوفيا يؤسفني أنك بعد هذا المقرر الفلسفي الكامل ما زلت تتعجلين في استخلاص النتائج.

ـ نعم، لكن...

ـ هل تعتقدين أن هذا المكان خالٍ تماماً من الأقزام والعفاريت والجنيات وأرواح الغابة؟

ـ هذا صحيح، إني آسفة.

عبرا بوابة الحديقة وصف ألبرتو السيارة على النجيل بجوار الأرجوحة. ورأيا على مبعدة يسيرة في الحديقة مائدة رتبت لثلاثة أشخاص. وهمست صوفيا:

ـ إني آراها! إنها تجلس على المرسى كما رأيتها في الحلم تماماً.

ـ هل لاحظت مدى الشبه بين هذه الحديقة وحديقتك في ممر النرجس؟

ـ حقاً إنها تشبهها تماماً بأرجوحتها وكل شيء. هل أستطيع أن أذهب إلى هيلد؟

ـ بالطبع، سأنتظرك هنا.

جرت صوفيا نحو المرسى وكادت تزل قدمها وتقع فوق هيلد ولكنها استعادت توازنها وجلست إلى جانبها في هدوء.

كانت هيلد تعبث بالحبل الذي ثبت به القارب الصغير، وتمسك بقصاصة ورق في يدها اليسرى ويبدو عليها قلق الانتظار، إذ كانت لا تبرح تنظر في ساعتها مرة بعد أخرى.

وجدت صوفيا أن هيلد رائعة الجمال. إن لها شعرا أشقر متموجا وعينين خضراوين جميلتين. وكانت ترتدي ثوبا صيفيا أصفر، وأحست صوفيا أن هيلد تذكرها بنورا.

كانت صوفيا تعرف أن هيلد لن تسمعها ولكنها حاولت مع ذلك أن تكلمها:

ـ هيلد! أنا صوفيا!

ولم يبد على هيلد أنها سمعت شيئا.

ركعت صوفيا على ركبتيها ومالت على أذن هيلد وصاحت فيها:

ـ ألا تسمعيني يا هيلد؟ هل أنت صماء وعمياء؟

ألم تفتح عينيها قليلا؟ أليست هذه علامة ضئيلة على أنها سمعت شيئا حتى وإن كان خافتا واهنا؟

تطلعت هيلد حولها ثم أدارت رأسها بحركة حادة ونظرت إلى صوفيا في عينيها مباشرة. إلا أن نظرها اخترق صوفيا كأنما هيلد تبحث عن شيء بعيد. وعندئذ قال ألبرتو وهو جالس في السيارة:

ـ لا ترفعي صوتك على هذا النحو يا صوفيا، فلا أريد أن تمتلىء الحديقة بالجنيات والحوريات.

جلست صوفيا ساكنة هادئة، وشعرت أنها سعيدة لمجرد وجودها بالقرب من هيلد.

وما لبث أن جاء صوت رجل يصيح عاليا:

ـ هيلد!

إنه الضابط. تطلعت صوفيا نحوه فرأته واقفا في أول الحديقة مرتديا زي الأمم المتحدة ويضع على رأسه بيريها أزرق. هبت هيلد واقفة وجرت نحوه وجرى هو أيضاً في اتجاهها حتى تقابلا بين الأرجوحة والعربة الحمراء المكشوفة. ارتمت هيلد في صدره فاحتضنها ودار بها في الهواء عدة مرات.

كانت هيلد تجلس على المرسى في انتظار والدها. وراحت تتخيل كيف سيتصرف منذ لحظة هبوطه من الطائرة، وكيف سيواجه ما تدبره له من

مفاجآت. كانت قد سجلت كل المواعيد في قصاصة ورق احتفظت بها معها طول اليوم.

ماذا لو أثارت مفاجآتها غضبه؟ ولكن هل يتوقع بعد أن كتب لها كتابا استمتع فيه بمواراة الحقائق والتلاعب بالاسرار واستعراض الحيل، أن تتوقف الامور عند هذا الحد؟

نظرت في ساعتها مرة أخرى إنها العاشرة إلا ربعا. قد يصل الآن في أي لحظة.

ولكن ما هذا؟ تخيلت أنها سمعت نفساً واهناً تماماً كما حدث في الحلم الذي رأت فيه صوفيا.

التفتت حولها بسرعة. هناك شيء ما. إنها واثقة من ذلك. ولكن ماذا بالضبط؟

ربما كان هو السحر الغامض لليلة وصول أبيها ولعيد منتصف الصيف.

لبضع ثوان خيل إليها أنها تسمع شيئا.

ـ هيلد!

استدارت الآن إلى الجهة الأخرى. إنه بابا! كان يقف في أول الحديقة.

هبت هيلد وجرت نحوه كما ركض هو في اتجاهها والتقيا بجوار الأرجوحة. ارتمت هيلد بين ذراعيه فرفعها في الهواء ودار بها عدة مرات.

بكت هيلد، كما حاول والدها أن يحبس دموعه أيضاً.

ـ أصبحت شابة كبيرة يا هيلد!

ـ وأنت أصبحت كاتبا حقيقيا.

وكفكفت هيلد دموعها وسألته:

ـ هل أصبحنا متعادلين الآن؟

ـ أصبحنا متعادلين يا هيلد!

مضيا إلى المائدة وهيلد تسأله أن يصف لها بالضبط كل ما حدث لـه منـذ وصوله إلى مطار كوبنهاجن، وانطلقا يتسامران ويضحكان.

ـ ألم تر الظرف الذي تركته لك في مقهى المطار؟

ـ لم تكن عندي أي فرصة للجلوس وتناول أي طعـام أيتهـا الشـقية. وأنـا الآن أتضور جوعا.

ـ مسكين يا بابا!

ـ أرجو ألا تكون كل هذه الدعاية عن الديك مجرد مزاح؟

ـ لا بالتأكيد، لقد أعددته بنفسي، وماما هي التي ستقوم بتقديم الطعام لنا اليوم.

ثم انطلقا يتحدثان عن الملف الكبير وقصة صوفيا وألبرتو بالطول والعرض ومن البداية للنهاية.

أحضرت أم هيلد الديك وسلطة والدورف والخـبز الـذي أعدتـه هيلـد في البيت.

كان والدها يقول شيئا عن أفلاطون عندما قاطعته هيلد فجأة وقالت:

ـ هس!

ـ ما هذا؟

ـ ألم تسمع شيئا؟

ـ لا!

ـ أنا واثقة أني سمعت شيئا. كأنه صرير خافت. ربما كان فأرا مـن فـئران الحدائق.

ذهبت ماريت لتحضر مزيدا من الماء فقال ألبرت لهيلد:

ـ لكن مقرر الفلسفة لم ينته بعد يا هيلد.

ـ حقاً؟ ماذا تبقى فيه إذن؟

- الليلة سأحدثك عن الكون.

قبل أن يتناولوا العشاء احتضن ألبرت زوجته وأخذ يربت عليها في حنان وهو يقول:

- من يظن ان هذه المرأة الجميلة قد أوشكت أن تتم عامها الأربعين...

عندما هبت هيلد وجرت نحو والدها، شعرت صوفيا بالدموع تملأ عينيها.

إنها لن تستطيع أبدا أن تصل إليها...

كانت صوفيا تغبط هيلد لأنها خلقت شخصا حقيقيا من لحم ودم.

عندما جلست هيلد ووالدها إلى المائدة أطلق ألبرتو آلة تنبيه السيارة. فنظرت صوفيا إليه. ولكن ألم ترفع هيلد أيضاً عينيها مثل صوفيا تماماً؟

جرت صوفيا إلى ألبرتو وجلست في المقعد المجاور له. فقال لها:

- سنبقى قليلا لنراقب ما سيحدث.

وافقته صوفيا بهزة من رأسها.

- أكنت تبكين يا صوفيا؟

هزت صوفيا رأسها مرة أخرى.

- ولكن ماذا حدث؟

- هي سعيدة الحظ لأنها خلقت شخصاً حقيقياً. إنها الآن ستكبر وتصبح إمرأة حقيقية. أنا واثقة أنها ستنجب أيضاً أطفالا حقيقيين...

-... وأحفادا حقيقيين يا صوفيا. إلا أن كل شيء له وجهان. هذا ما حاولت أن أعلمك إياه في بداية مقرر الفلسفة.

- ماذا تقصد يا ألبرتو؟

- أتفق معك في أنها سعيدة، الحظ ولكن من يفوز بجائزة الحياة الكبرى عليه أن يقبل، في اللحظة ذاتها، أن يأخذ معها الموت، لأن الموت هو مصير الحياة.

- ولكن أليس من الأفضل أن تكون لك حياة بدلا من ألا تكون قد عشت حقاً قط؟

- إننا لا نستطيع أن نعيش حياة مثل هيلد... أو مثل الضابط. غير أننا في المقابل لن نموت أبدا. ألا تتذكرين ما قالته لنا المرأة العجوز هناك في الغابة؟ إننا ننتمي إلى الشعب الخفي. لقد قالت إن عمرها أكثر من مائتي عام. وفي الحفل الذي أقامه هذا الشعب الخفي، رأيت بعض الشخصيات التي يزيد عمرها على ثلاثة آلاف عام...

- قد يكون ما أ غبط هيلد عليه أكثر من أي شيء آخر هو... حياتها الأسرية.

- ولكنك تملكين أنت أيضاً أسرة يا صوفيا. كما أن لديك قطة وعصفورين ملونين وسلحفاة.

- ألم نترك كل هذا وراءنا؟

- لا على الاطلاق. إن الضابط وحده هو الذي تركه وراءه. لقد كتب آخر كلمة في كتابه يا ابنتي، وهو لن يجدنا أبدا مرة أخرى.

- أتقصد أننا نستطيع أن نعود إلى هناك؟

- متى شئت يا صوفيا، ولكننا سنكو ن أيضاً صداقات جديدة في الغابة الموجودة خلف مقهى سندريللا.

كانت العربة تقف بعيدا عن مائدة الأسرة فكانا لا يسمعان من حديث الأسرة سوى كلمات متفرقة بين حين وآخر. وجلست صوفيا وألبرتو يتأملان الحديقة. إن أمامهما وقتاً طويلاً يتذكران فيه كل ما حدث في حفل الحديقة الفلسفي.

لم تنهض الأسرة عن المائدة إلا والليل كاد ينتصف. مضت هيلد في صحبة أبيها نحو الأرجوحة. ولوّحا بأيديهما إلى ماريت وهي تدخل إلى البيت حاملة أطباق العشاء وقالت لها هيلد:

- تستطيعين أن تنامي يا ماما، فما زالت أمامنا، أنا وبابا، أمور كثيرة نتحدث عنها.

الفصل الخامس والثلاثون

الانفجار العظيم

... ما نحن إلا غبار النجوم...

كانت الليلة قد انتصفت عندما جلست هيلد على الأرجوحة بجوار والدها. أخذا يتطلعان إلى البحر وينصتان إلى أصوات الموج المتكسرة على صخور الخليج الصغير بينما تومض بعض النجوم في السماء. قطع والدها هذا الصمت قائلا:

ـ ما أغرب التفكير في أننا نعيش على كوكب صغير في هذا الكون الهائل.

ـ نعم...

ـ إن الأرض ليست إلا أحد الكواكب التي تدور حول الشمس، ومع ذلك فالأرض هي الكوكب الحي الوحيد.

ـ هي الكوكب الحي الوحيد في الكون بأسره؟

ـ هذا محتمل يا هيلد. ولكن من الجائز أيضاً أن يكون الكون حافلا بالحياة. فالكون فسيح إلى درجة يصعب تصورها. إن المسافات هائلة حتى أننا نقيسها بالدقيقة الضوئية والسنة الضوئية.

ـ وما معنى هذا بالضبط؟

ـ إن الدقيقة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في دقيقة واحدة. وهي مسافة هائلة لأن الضوء يمضي في الفضاء بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية. وهذا معناه أن الدقيقة الضوئية تساوي ٦٠×٣٠٠٠٠٠ أي ١٨ مليون كيلومتر. أما السنة الضوئية فهي تبلغ نحو عشرة آلاف مليار كيلومتر.

ـ وما هي المسافة التي تفصلنا عن الشمس؟

ـ إنها أكثر قليلا من ٨ دقائق ضوئية. إن أشعة الشمس التي تدفيء أجسامنا في يوم حار من أيام يونيو (حزيران) تكون قد سافرت في الكون لمدة ثماني دقائق قبل أن تصل إلينا.

ـ استمر...

ـ إن بلوتون أبعد الكواكب في نظامنا الشمسي يبعد عنا بنحو خمس ساعات ضوئية. وعندما ينظر عالم الفلك في تليسكوبه إلى بلوتون فإنه يراقب في الواقع هذا الكوكب كما كان من خمس ساعات مضت. ويمكننا أيضاً أن نقول إن صورة بلوتون تأخذ خمس ساعات حتى تصل إلينا.

ـ من الصعب تخيل هذا. ولكني أعتقد أني أفهم قصدك.

ـ إننا لم نبدأ إلا أخيراً يا هيلد في معرفة موقعنا من هذا الكون الفسيح. إن شمسنا ليست إلا نجما من ٤٠٠ مليار نجم آخر في مجرتنا التي نسميها مجرة الطريق اللبني، أو مجرة درب التبانة. إن هذه المجرة تشبه عجلة أسطوانية تخرج من مركزها أذرع لولبية، وشمسنا تقع على أحد هذه الأذرع. وعندما نتطلع إلى السماء في ليلة صافية من ليالي الشتاء حيث تزداد عتمة الليل نرى شريطا عريضا من النجوم. وربما سميت مجرتنا لهذا السبب الطريق اللبني.

ـ وربما كان الطريق اللبني يسمى لهذا السبب أيضاً «طريق الشتاء» باللغة السويدية.

ـ وأقرب نجم إلينا في الطريق اللبني يبعد عنا بأربع سنوات ضوئية. ومن يدري ربما كان هو هذا النجم البعيد الذي نراه هناك فوق تلك الجزيرة الصغيرة. وإذا تخيلت أن هناك شخصا يقف في هذا اللحظة ذاتها وراء تليسكوب هائل القوة يتطلع إلى باركلي، فإن ما سيراه سيكون صورة باركلي من أربع سنوات. ولعله يرى الآن فتاة في الحادية عشرة من عمرها تهز ساقيها على هذه الأرجوحة.

ـ هذا شيء مذهل حقاً!

ـ وليس هذا إلا أقرب النجوم إلينا. أما المجرة بأكملها، أو السديم كما تسمى أيضاً وهو يعني السحاب والغبار الموجود في الفضاء فإن عرضها يبلغ

٩٠٠٠٠ سنة ضوئية، وهذا هو الزمن الذي يستغرقه الضوء ليسافر من أحد طرفي المجرة إلى طرفها الآخر. وعندما نتطلع إلى نجم في الطريق اللبني يبعد عن شمسنا بمسافة ٥٠٠٠٠ سنة ضوئية فإنما ننظر في الواقع ٥٠٠٠٠ سنة إلى الوراء في الزمن.

ـ هذه فكرة كبيرة جدا على رأسي الصغير.

ـ إن الطريقة الوحيدة التي نستطيع إذن أن ننظر بها إلى الفضاء هي أن ننظر إلى الوراء في الزمن. إننا لا نستطيع أبدا أن نعرف كيف هو الكون الآن. إن ما نعرفه هو كيف كان في الماضي. وعندما ننظر إلى نجم يبعد عنا بآلاف السنوات الضوئية فإننا نسافر في الواقع آلاف السنوات إلى الوراء في تاريخ الفضاء.

ـ هذا أمر من الصعب جدا تصوره.

ـ إن كل ما نراه يا هيلد يصل إلى أعيننا على هيئة موجات ضوئية. وهذه الموجات الضوئية تأخذ وقتا كي تسافر في الفضاء. ويمكننا أن نقارن هذا بظاهرة الرعد. إننا نسمع الرعد دائما بعد أن نكون قد رأينا البرق أولا. وذلك لأن الموجات الصوتية تسير بسرعة أبطأ من الموجات الضوئية. وعندما أسمع دوي الرعد فإني أسمع في الواقع شيئا حدث منذ برهة خاطفة. وينطبق نفس الشيء على النجوم. فعندما أنظر إلى نجم يبعد عنا آلاف السنوات الضوئية فكأنما أرى «دوي الرعد» الآتي من حدث وقع منذ آلاف السنوات إلى الوراء.

ـ نعم، أنا أفهم الآن.

ـ ولكننا لم نتحدث يا هيلد حتى الآن إلا عن مجرتنا وحدها. إن علماء الفلك يخبروننا أن هناك ما يقرب من مائة مليار مجرة في الكون، وكل واحدة من هذه المجرات تتألف من نحو مائة مليار نجم. ونحن نسمي أقرب مجرة إلى الطريق اللبني مجرة المرأة المسلسلة (أو مجرة أندروميدا). وهي تقع على بعد مليوني سنة ضوئية عن مجرتنا. وهذا يعني أن الضوء الذي يأتي من تلك المجرة

يستغرق وصوله إلينا مليوني سنة. ولذلك فإننا عندما ننظر إلى مجرة المرأة المسلسلة في السماء فإنما ننظر مليوني سنة إلى الوراء في الزمن. وإذا تصورنا شخصاً ينظر بتليسكوبه القوي من سديم المرأة المسلسلة إلى الأرض في هذه اللحظة فهو لن يستطيع أن يرانا. إن كل ما سيراه، على أحسن الفروض، هو الإنسان البدائي.

ـ هذا حقاً أمر مذهل.

ـ أما أبعد المجرات عنا فتقع، كما نعرف اليوم، على بعد نحو عشرة مليارات سنة ضوئية. وعندما نتلقى إشارات من هذه المجرات فإننا ننظر بالتالي عشرة مليارات سنة إلى الوراء في تاريخ الكون. وهذا يساوي ما يقرب من ضعف زمن وجود نظامنا الشمسي ذاته.

ـ إن هذا يصيبني بالدوار!

ـ قد يكون من الصعب أن نفهم ما معنى أن ننظر إلى الوراء في الزمن بهذا القدر، إلا أن علماء الفلك قد اكتشفوا شيئا أكثر أهمية من كل هذا بالنسبة لتصورنا عن العالم.

ـ وما هذا؟

ـ ليست هناك، فيما يبدو، أي مجرة تبقى ثابتة في مكانها في الفضاء. إن جميع المجرات في الكون تتحرك بعيداً عن بعضها بسرعة هائلة. وكلما كانت هذه المجرات أبعد عنا زادت سرعة حركتها. وهذا معناه أن المسافة بين المجرات تتزايد باطراد.

ـ إني أحاول أن أتخيل هذا.

ـ إذا كان لديك بالونة ورسمت على سطحها عدداً هائلاً من النقاط السوداء ثم قمت بنفخها فإن النقاط السوداء ستأخذ في الابتعاد عن بعضها. إن هذا ما يحدث للمجرات في الكون. ونحن نصف هذه الظاهرة بقولنا ان الكون يتمدد.

ـ وما السبب في هذا؟

ـ يتفق معظم علماء الفلك على أن تمدد الكون لا يمكن أن يكون له سوى تفسير واحد: منذ نحو ١٥ مليار سنة كانت كل المادة الموجودة في الكون متجمعة في حيز صغير نسبيا. وكانت هذه المادة ذات كثافة هائلة إلى درجة أن قوة الجاذبية جعلتها رهيبة الحرارة. ثم أخذت حرارة تلك المادة تتزايد وكثافتها تشتد إلى أن انفجرت في النهاية. ويسمى هذا الانفجار **«الانفجار العظيم»** (أو Big Bang باللغة الإنجليزية).

ـ إن مجرد التفكير في هذا يجعل جسمي يقشعر.

ـ وقذف هذا الانفجار العظيم المادة في الكون في جميع الاتجاهات، ثم أخذت هذه المادة تبرد تدريجيا وتكون النجوم والمجرات والأقمار والكواكب...

ـ ولكن ألم تقل أن الكون ما زال يتمدد؟

ـ نعم قلت هذا يا هيلد، وهو ما زال يتمدد بالتحديد بسبب هذا الانفجار الذي حدث من مليارات السنين. إن جغرافية الكون ليست خالدة. إن الكون حدث يتحقق. إن الكون انفجار. وما زالت المجرات تتباعد عن بعضها في الفضاء بسرعة مذهلة.

ـ وهل سيستمر هذا التباعد إلى الأبد؟

ـ هذا أحد احتمالين، ولكن هناك احتمالا آخر. ولعلك تذكرين أن ألبرتو قد شرح لصوفيا أن هناك قوتين تبقيان الكواكب في مدار ثابت حول الشمس؟

ـ أليست هاتان القوتان هما الجاذبية والقصور الذاتي؟

ـ نعم هذا صحيح، وينطبق نفس الشيء على المجرات، فمع أن الكون آخذ في التمدد إلا أن قوة الجاذبية تؤثر في الاتجاه المضاد. وربما أدت قوة الجاذبية هذه في يوم من الأيام بعد بضعة مليارات من السنوات، عندما تبدأ قوة الانفجار العظيم في الضعف إلى جعل الأجرام السماوية تتكتل معاً من جديد. وتسمى هذه الحركة العكسية انفجاراً نحو الداخل. ولكن لما كانت المسافات شاسعة هائلة فإن هذا سيحدث في بطء شديد مثل فيلم يعرض

بالحركة البطيئة. ويمكنــك أن تشبهي ذلـك بما يحـدث عندمـا تـتركين الهـواء يتسرب من البالونة.

ـ وهل سوف تتجمع كل المجرات مرة أخرى في كتلة واحدة؟

ـ نعم، أرى أنك فهمت هذه الفكـرة جيـدا. ولكـن مـاذا سيحدث عنـد ذاك؟

ـ سيحدث على الأرجح انفجار عظيم جديد ويبدأ الكون في التمدد مرة أخرى تحـت تأثير نفس القوانين الطبيعية. وهكـذا تتكـون نجـوم ومجـرات جديدة.

ـ تصور منطقـي. فعلمـاء الفلـك يعتقـدون أن هنـاك تصورين محتملــين لمستقبل الكون. فإمـا أن يسـتمر الكـون في التمـدد إلى الأبـد فيتواصـل تبـاعد المجرات عن بعضها، وإما أن يبـدأ الكـون في التجمـع مـرة أخـرى. إن العـامل الحاسم الذي سيقرر ما سيحدث هو كتلة الكون. وهـي أمـر لا يعرفـه علمـاء الفلك حتى الآن.

ـ ولكن إذا كانت كتلة الكون شديدة الثقل بحيث بدأ يتجمع مرة أخرى، ألا يعني هذا أنه ربما يكون قد تمدد ثم انكمش مرات عديدة من قبل.

ـ سيكون هذا استنتاجا منطقيا. إلا أن الآراء تختلف هنا. فربما يكون تمـدد الكون أمرا لا يحدث سوى مرة واحدة. ولكن إذا ظل الكون يتمدد إلى الأبـد فإن السؤال عن بداية كل هذا، سيطرح نفسه بمزيد من الإلحاح.

ـ نعم، من أين جاءت كل هذه المادة التي انفجرت فجأة؟

ـ بالنسـبة لشـخص يؤمـن بالمسـيحية سيكون مـن الواضـح أن الانفجـار العظيم هو لحظة الخلق الفعلية. ويخبرنا الكتـاب المقـدس بـأن الله قـال «ليكـن نور». وربما تتذكرين أيضاً أن ألبرتو أشار إلى أن المسيحية لها رؤيـة «خطيـة» للتاريخ. والفكرة التي تقول إن الكـون يتمـدد بـاطراد أكثر اتفاقـاً مـع الرؤيـة المسيحية للخلق.

ـ هذا صحيح.

ـ أما في الشرق فتسود رؤية «دورية» للتاريخ، أي ينظر للتاريخ على أنه يكرر نفسه إلى الأبد. ففي الهند مثلاً نجد تصوراً قديماً يقول إن العالم ينبسط ويتمدد ثم يتجمع ويتكتل من جديد في دورات لا تنتهي، تتعاقب بين مايسميه الهنود نهار البراهما وليل البراهما. وهذه الفكرة تعتبر بطبيعة الحال أكثر اتفاقاً مع الاحتمال القائل بتمدد الكون وانكماشه ليتجدد مرة أخرى في عملية دورية أبدية. إني أتخيل أمامي صورة قلب كوني عظيم ينبض وينبض...

ـ أنا أعتقد أن كلتا النظريتين صعبة التصور ومثيرة للدهشة بنفس القدر.

ـ ويمكننا مقارنتهما أيضاً بالسؤال الكبير الذي ظلت صوفيا تتأمله ذات مرة وهي جالسة في حديقتها: إما أن الكون قد وجد من قديم الأزل، وإما أنه نشأ فجأة من العدم...

وفجأة تحسست هيلد جبهتها وصاحت:

ـ آي!

ـ ماذا بك يا هيلد؟

ـ يخيل إلي أن حشرة لسعتني.

ـ ربما كان سقراط يحاول «أن يؤجج فيك روح الحياة!»

كانت صوفيا وألبرتو يجلسان في السيارة الحمراء المكشوفة يستمعان إلى هيلد ووالدها يتحدثان عن الكون. وبعد برهة سأل ألبرتو:

ـ هل لاحظت أن أدوارنا قد انعكست تماماً؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ من قبل كانا هما من يستمعان إلينا ونحن لا نستطيع أن نراهما. أما الآن فنحن نستمع إليهما وهما لا يستطيعان رؤيتنا.

- وليس هذا كل شيء.

- فيم تفكرين؟

- في البداية لم نكن نعرف أن هناك واقعا آخر تعيش فيه هيلد ووالدها. أما الآن فهما اللذان يجهلان واقعنا.

- في هذا الانتقام شيء ممتع.

- ولكن الضابط كان يستطيع أن يتدخل في عالمنا...

- إن عالمنا لم يكن سوى ثمرة تدخلاته.

- وأنا لم أتخل عن كل أمل في أن نستطيع نحن أيضاً أن نتدخل في عالمهما.

- ولكنك تعرفين أن هذا مستحيل. هل تتذكرين ما حدث في مقهى سندريللا؟ إنك لم تستطيعي أن ترفعي زجاجة الكوكاكولا.

جلست صوفيا صامتة تتأمل الحديقة بينما الضابط يتحدث عن الانفجار العظيم. شيء ما في هذه العبارة أوحت لها بفكرة معينة فأخذت تفتش في السيارة. فسألها ألبرتو:

- ماذا تفعلين؟

- لا شيء.

فتحت صوفيا صندوق العربة وأخرجت منه مفتاحا إنجليزيا ونزلت من السيارة وذهبت إلى الأرجوحة ووقفت أمام هيلد وأبيها. حاولت أولا أن تجتذب نظرة هيلد إلا أن هذا كان مستحيلا. وأخيراً رفعت المفتاح الإنجليزي ثم هوت به على جبهة هيلد التي صاحت:

- آي!

ثم ضربت صوفيا الضابط على جبهته غير أنه لم يشعر بأي شيء على الإطلاق. وسأل هيلد:

- ما بك يا هيلد؟

- يخيل إلي أن حشرة لسعتني.

- ربما كان سقراط يحاول «أن يؤجج فيك روح الحياة»!

جلست صوفيا على النجيل وحاولت أن تدفع الأرجوحة ولكنها ظلت ثابتة لا تتحرك. أم هل نجحت صوفيا في أن تحركها ميلميترا احدا؟ إذ قالت هيلد:

ـ أشعر بأن هواء باردا قد بدأ يهب.

ـ كلا، إنها نسمة معتدلة يا هيلد.

ـ ليس مجرد هذا. إني أشعر بحضور ما!

ـ ليس هناك سوانا وهذه النسمة الرقيقة.

ـ كلا. هناك شيء ما في الجو!

ـ وما هو يا هيلد؟

ـ هل تتذكر الخطة السرية لألبرتو؟

ـ وكيف أنسى هذا!

ـ لقد أختفيا فجأة من حفل الحديقة كأنما ابتعلتهما الأرض أو تلاشيا في الهواء...

ـ نعم، ولكن...

ـ كأنما ابتلعتهما الأرض أو تلاشيا في الهواء.

ـ كان لا بد أن تنتهي الرواية في لحظة ما. ثم كل هذا لم يكن سوى كلمات كتبتها.

ـ نعم الرواية كلمات كتبتها، ولكن ليس ما حدث بعد ذلك. افترض أنهما هنا...

ـ هل تعتقدين ذلك؟

ـ إني أشعر به يا بابا!

جرت صوفيا عائدة إلى السيارة، واضطر ألبرتو أن يقر بنجاح محاولتها فقال لها وهي تركب إلى جواره حاملة المفتاح الإنجليزي في يدها:

ـ أمر مذهل!

ـ تأكدت الآن أن هيلد لديها قدرات خاصة.

وضع الضابط يده حول هيلد فقالت له:

ـ هل تسمع صوت الأمواج الغريب؟

ـ نعم، غدا يجب أن ننزل القارب إلى الماء.

ـ ولكن هل تسمع همس الريح الغريب؟ انظر كيف ترتعش أوراق الشجر...

ـ إن الأرض كوكب حي يا هيلد...

ـ لقد قلت إن هناك شيئا بين السطور.

ـ حقاً؟

ـ ربما كان هناك شيء بين السطور في هذه الحديقة أيضاً.

ـ إن الطبيعة مليئة بالألغاز. إلا أننا نتكلم عن النجوم في السماء.

ـ وبعد قليل ستكون هناك نجوم في الماء أيضاً.

ـ هذا ما كنت تقولينه وأنت صغيرة عندما ترين صورة النجوم منعكسة على صفحة البحر: «إن النجوم في الماء». وربما كان معك حق بمعنى ما. فكل ما يحيط بنا مكون من مواد أولية كانت متحدة معاًمن قديم في نجم يسبح في الفضاء.

ـ ونحن أيضاً؟

ـ نعم، ما نحن إلا غبار النجوم.

ـ هذا تعبير جميل.

ـ عندما تلتقط التليسكوبات الراديوية الضوء الآتي من مجرات تبعد عنا بمليارات السنوات الضوئية فإنها ترسم في الواقع خريطة الكون كما كان بعد الانفجار العظيم مباشرة. إن كل شيء نراه في السماء أشبه بحفرية كونية تنحدر من آلاف وملايين السنوات. إن الشيء الوحيد الذي يستطيع المنجم أن يتنبأ به هو الماضي.

ـ لأن النجوم في الكوكبات أو الأبـراج قـد ابتعـدت عـن بعضهـا قبـل أن يصلنا ضوءها بزمن بعيد؟

ـ إن الأبراج كانت تبدو، حتى من فترة لا تزيـد علـى ألفـي عـام، مختلفـة تماماً عما تبدو عليه اليوم.

ـ لم أكن أعرف هذا.

ـ إذا كـانت الليلـة صافيـة مـن السـحب نسـتطيع أن ننظـر ملايـين بـل ومليارات السنوات إلى الوراء في تاريخ الكون. إننا ننظـر بمعنـى مـا في الاتجـاه الذي جئنا منه، كأنما نعود من حيث أتينا.

ـ لا أفهم ما تقصده بذلك.

ـ لقد أتينا أنا وأنت يا هيلـد مـن الانفجـار العظيـم أيضـاً لأن كـل المـادة الموجودة في الكون تؤلف وحدة عضوية واحدة. ففي العصور البدائية السحيقة كانت كل المادة متجمعة في كتلة عالية الكثافة إلى درجة أن الدبوس ربمـا بلـغ وزنه مليارات الأطنان. ثم انفجرت هذه «الذرة البدائية» بسبب قـوة الجاذبيـة الهائلة. كأنما شيئا قد تبعثر في الفضاء. ولكننـا عندمـا نتطلـع إلى السـماء فإننـا نحاول أن نجد الطريق الذي جئنا منه.

ـ ما أغرب هذه الطريقة في التعبير!

ـ وكل النجوم والمجرات في الفضاء مكونة من نفـس المـادة. تجمـع بعضهـا هنا، وتكاثف بعضها هناك. وربما كـانت إحـدى المجـرات تبعـد عـن الأخـرى بمليارات السنوات الضوئيـة ولكنهـا نشـأت جميعـا مـن أصـل واحـد. إن كـل النجوم والكواكب تنتمي إلى سلالة واحدة...

ـ نعم، فهمت قصدك.

ـ ولكن ما هذه المادة التي صنع منها العالم؟ ما الذي انفجر ذات يـوم منـذ مليارات السنين؟ من أين جاء؟

ـ هذا هو السؤال الكبير.

ـ وهو سؤال يخصنا مباشرة بصورة عميقة. لأننا نحن هذه المادة ذاتها. نحن قبس من النار العظمى التي اشتعلت منذ مليارات السنين.

ـ هذا أيضاً تعبير جميل.

ـ ولكننا يجب ألا نبالغ في أهمية هذه الأرقام الضخمة. فيكفي أن نمسك حجرا في يدنا. فإن الكون كان سيظل غير مفهوم بنفس القدر حتى إن لم يكن مؤلفا إلا من حجر واحد في حجم برتقالة صغيرة. فسوف يظل السؤال كما هو، يلح غامضا محيرا: من أين جاء هذا الحجر؟

وقفت صوفيا فجأة في العربة الحمراء المكشوفة وأشارت إلى الخليج وقالت:

ـ أريد أن أقوم بجولة في القارب الصغير.

ـ إنه مربوط بحبل يا صوفيا. ثم أنك لن تستطيعي أبدا تحريك المجداف.

ـ دعنا نحاول، إنها ليلة عيد.

ـ نستطيع على أي حال أن نذهب إلى حافة الماء.

قفزا من السيارة وأخذا يركضان في الحديقة. حاولا أن يفكا الحبل المثبت في القائم المعدني، إلا أنهما لم يستطعا حتى أن يرفعا طرف الحبل. فقال ألبرتو:

ـ كأنما هو مثبت بمسمار.

ـ أمامنا كل الوقت.

ـ إن الفيلسوف الحقيقي يجب ألا يستسلم أبدا. إذا استطعنا فقط... رفع الحبل...

وقالت هيلد:

ـ نرى الآن مزيدا من النجوم في السماء.

ـ نعم، فالآن قد اشتدت عتمة هذه الليلة الصيفية.

ـ ولكنها تتألق بوميض أوضح في الشتاء. هل تتذكر ليلة سفرك إلى لبنان؟ كانت ليلة رأس السنة.

ـ وكان هو اليوم الذي قررت فيه أن أكتب لك كتابا عن الفلسفة. فقد ذهبت إلى أكبر مكتبة تجارية في كريستيانساند كما ذهبت إلى المكتبة العامة إلا أني لم أجد شيئا يناسب الشباب الصغير.

ـ كأنما نحن جالسان على طرف شعرة رقيقة في فراء الأرنب الأبيض.

ـ اني لأتساءل إن لم يكن هناك من يتوارى في عتمة تلك السنوات الضوئية.

ـ انظر يا بابا! لقد انفك حبل القارب!

ـ حقاً!

ـ أنا لا أفهم هذا! لقد تأكدت بنفسي وأنا جالسة أنتظرك على المرسى من أنه قد ربط جيدا.

ـ حقاً؟

ـ إن هذا يذكرني بما حدث لقارب ألبرتو عندما أخذته صوفيا في المرة الاولى. هل تتذكر كيف وجدته وسط البحيرة؟

ـ وما يدريك ألا تكون صوفيا قد أخذت هذا القارب أيضاً؟

ـ أنت تقول هذا مازحا، أما أنا فقد شعرت بحضور ما طوال المساء!

ـ لا بد أن يسبح أحدنا لإحضار القارب.

ـ بل نذهب معاً يا أبي.

فهرس الأعلام والمصطلحات

أ

- إبراهيم: ٢٠٤
- أبقراط: ٨٠
- أبوللو: ٤٢
- أبولون: ٧٨
- أبيقور، ابيقورية: ١٧٨
- الأحلام، تفسير: ٥٧٢
- الأخلاق، الأخلاقي: ١٥٥-١٧٤-٣٠٠-٤٤١
- الاختيارات: ٤٩٩
- الإرادة الحرة: ٤٣٨
- أراسموس الروتردامي: ٢٨١
- الارتيابية: ٩٠
- أرستبوس: ١٧٧
- أرستوفانيس: ١٠٥
- الأرستقراطية: ١٠٥
- أرسطو: ٥٠-٨٩ من ١٤٣ إلى ١٥٢-١٧٠-٢٣٦
- الأرواح، تحضير: ٥٧٧-٦٠٢
- ازبيورنسن، بيتر: ٤٦٥
- أسطورة، أسطوري، أساطير ٣٧-٣٨
- أسخيلوس: ١٠٥
- إسرائيل، بنو: ٢٠٦
- الإسقاط: ٥٧٠
- أسكليبيوس: ٤٢
- الاسكندر الأكبر: ١٧١
- الاسكندرية: ١٧٣
- الإشتراكية: ٥٢٦
- الإصلاح الديني: ٢٦٠
- الاغتراب: ٥٢١-٥٩٢
- أفلاطون: ٨٩،٩٢،١٠٦...١٢٣،١٤٤،١٦٨،٢٣٦
- الأفلاطونية الجديدة: ١٨٠

- استفينسن، هنريك: ٤٦٢
- الاقتصاد النقدي: ٢٦٢
- الإقطاعي، النظام: ٢٢٦
- الأكاديمية: ١١٦
- الأكربول: ١٠٤
- أكسانوفان: ٤٣
- أكسريس: ١٠٤
- ألله: ١٥١-١٨١-٢٠٣-٢٣٧-٣٦٠-٤٢١
- مملكة الله: ٢٠٨
- مدينة الله: ٢٣٣
- الإله، الآلهة: ٢٠-٣٠٠
- اناكساجوراس: ٥٧،٦٩،٨٩
- ابنادوقليس: ٥٥
- الانتاج: ٥١٧....
- الانتخاب الطبيعي: ٥٣٥
- أنجلز: ٥١٦
- أفلوطين: ١٨٠
- الاقتصاد، الاقتصادية: ٥١٦
- اندرسن: ٤٦٥
- الإنسان، حقوق: ٤٢١
- الانفجار العظيم: ٦٤٥
- انكسيمانس: ٥١
- انكسيمندريس: ٥١
- أوديب: ٧٩
- أودين: ٤٠
- أورجارد: ٣٩
- أوغسطين: ٢٢٩
- أولمرلاند أرنولف: ٥٨٢
- أوليغارشيه: ١٥٧
- أولية، مادة: ٤٩
- ايبسن، هنريك ٤٦٦
- الإيكولوجي: ٥٩٩
- الإيمان: ٣٦٤

ب

- باخ: ٤٥٧
- باراسيكولوجي: ٦٠٢
- بارمنيدس: ٥٢،٦٠
- بروتون، أندريه: ٥٧٥
- بروثاغوراس: ٩١
- البنية الفوقية: ٥١٧
- بوذا: ٣٦٣
- البوذية: ٢٠٢
- بوفوار، سيمون دي: ٥٩١
- بولس: ٢١٠

- برنو، جوردانو: ٢٦٦-٤٦١
- البنية التحتية: ٥١٧
- البيان الشيوعي: ٥٢٢
- بيتهوفن: ٤٥٧
- بيركلي: ٣٤٧-٣٥٥-٣٧٥-٣٩٥
- بوهم، جاكوب: ٤٦١
- بوهير، نيلس: ٤٨٣
- البيئة: ٥٩٩
- بيكيت، صمويل: ٥٩٦

ت

- التأليه: ٤٢١
- التأمل، التأملية: ٣٤٩
- التاريخ (التصور الدوري للتاريخ): ٢٠٢
- التجارب المنهجية: ٢٦٨
- التجريبي، التجريبية: ٣٤٧
- التحليل النفسي: ٥٦٤
- التخاطر: ٦٠٢
- التداعي: ٥٧٢
- التدين الجديد: ٦٠٠
- التلفيقية: ١٧٢
- تناسخ الأرواح: ٢٠٣
- التنجيم: ٦٠٢
- التنوير، عصر: ٤٠٣
- التوحيد: ١٨٣- ٢٠٣
- توما الأكويني: ٢٣٦

ث

- الثقافة: ٤١٩
- الثقافة العربية الإسلامية: ٢٢٧
- الثنائية، ثنائي: ١٧٦
- ثوكيديدس: ٧٩

ج

- الجاذبية، قانون: ٢٧٤-٢٧٧
- جاليليو: ٢٦٨-٢٧١
- الجدل: ٤٧٩
- جريم، الاخوان: ٤٦٤
- جمهورية، الجمهورية: ١٢٥
- جوته، يوهمان ولفجانج: ٢١٤-٤٦٠،٥٥٧
- جوج، اوليمب دي: ٤٢٣-٤٢٥
- جوستاف الثالث: ٣٠١

- الجنس، الجنسي، الجنسية: ٥٦٤
- الجنس الثاني: ٥٩٥
- جومبروفيتش، فيتولد: ٥٩٦

ح

- الحتمية: ٣٠٦-٣٣٤
- الحدسية، المعرفة: ٣٥٢
- الحساء البدائي: ٥٥٥
- الحفريات: ٥٣٦
- الحق الطبيعي: ٣٥٢
- الحقائق الموضوعية: ٤٩٨
- الحواس، العالم المدرك بالحواس
- الحسية: ٥٣-٦٨-١٢٢

خ

- الخفية، العلوم: ٦٠٠
- الخلية الأولية: ٥٥٢

د

- داروين، شارلز: ٥٢٩-٥٣١
- الداروينية الجديدة: ٥٤٧
- داسي، بيتر: ٣٠٤
- دافنشي، ليوناردو: ٢٨٢
- دلف (عرافة): ٧٨،٩٧
- الدوري (التصور): ٢٠٢
- الدولة الفاضلة: ١٢٥
- ديستويفيسكي، فيودور: ٥٠٣
- ديكتاتورية البروليتاريا: ٥٢٥
- ديكارت، رينيه: ٢٩٨-٣٠٩
٣٣١-٣٤٨
- ديكنز، شارلز: ٥١٤
- دي لاباركا، كلدرون: ٣٠٣
- الديمقراطية: ٩٠
- ديموقريطس: ٥٩-١١٧
- ديوجينس: ١٧٥
- ديونيسيوس: ٤٢

ذ

- الذرات، الذرة، نظرية: ٦٥-٦٧-١١٧

ر

- الرأسمالية، رأسمالي: ٥٢٠
- راسل، برتراند: ٣٦٩
- راديلس، جون: ٥٢٧
- الرؤية الخطية للتاريخ: ٢٠٤
- الرواقية: ١٧٥-٣٣٤
- روسو، جان جاك: ٣٥٥
- الرومانسية: ٤٥١
- الروماني، العصر: ١٧١
- الرومانية، الامبراطورية: ٢٢٣

ز

- الزمان: ٤٣٢
- زينون: ١٧٦
- زيوس: ٤٢-٢٠٠

س

- سارتر، جان بول: ٥٩٠
- الساميون، السامي: ٢٠٣
- السببية، قانون: ٣٦٧
- سبينوزا، باروخ: ٢٩٨-٣٢٧
- السريالية، السريالي: ٥٧٥
- سقراط: ٨٣-٨٩-٩٢-١٠٦-١٧٠
- السلطات، مبدأ الفصل بين: ٣٥٣
- سنوري: ٢٠٠
- سوفسطائية، سوفسطائيون: ٨٩-٩٥-١١٦
- سوفوكليس: ١٠٥
- سيليسيوس، أنجيلوس: ١٨٣
- سينيكا: ١٧٧

ش

- شابلن، شارلي: ٥٩٧
- شتاينبك، جون: ٢٤٠
- شكسبير، ويليام: ٣٠٢
- شوانج تسو: ٣٠٤
- شيشرون: ٩٥-١٧٧
- شيلر، فريدريك فون: ٤٥٧
- شيلنج: ٤٦١-٤٧٥
- شيوعي، شيوعية: ٥٢٠

ص

- الصراع الطبقي، الصراع بين الطبقات: ٥٢٠
- الصفات: ٣٧٦-٣٧٧
- الصوربي، القانون: ٤٤١
- الصوفية، الصوفي: ١٨٢

ض

- الضرورة: ١٧٨-٣٣٤

ط

- طاليس: ٥٠-٥١-٥٢
- الطبيعة، الطبيعي، الطبيعية: ٤٩-١٧٠-١٧٦-٣٦٨-٤٢٠-٤٢١
- الطبقة، الطبقات: ٥٢٠
- الطبقات المقفلة، نظام: ١٢٦
- الطفرة، الطفرات: ٥٥٧
- الطغيان: ١٥٧
- الطوباوية: ١٢٥

ظ

- الظلال: ١٨٢



- العبث، العبثية: ٥٩٦
- العقل، العقلنة: ٣٦٤
- العرب، العربية: ٢٢٧،٢٢٨
- العقلانية، العقلاني: ٥٣-٤١٨-٥٧٠
- العلية، قانون: ٣٦٧

- العدمية، العدمي: ٥٩٣
- العصاب: ٥٦٧
- العصر الجديد: ٦٠٠
- عصر النهضة: ٢٤٧-٢٦٠
- العصور الوسطى: ٢١٥
- العلمي: ٥٠
- العهد الجديد: ٢٠٣-٢٠٩-٢١٣
- العهد القديم: ٢١٣



- الغريزة الغرائز: ٥٦٤
- الغفران، صكوك: ٢٨١
- الغوغائية: ١٥٧



- فاوست: ٥٥٧
- فرانكلين، بنيامين: ٥٤٢
- فرجلاند، هنريك: ٤٥٩
- الفردية: ٢٦٤
- فرويد، سيجموند: ٥٣١،٥٦٣
- فريا: ٤٠
- فشتة: ٤٦٦
- الفكرة المركبة، فكرة مركبة ٣٥٧
- الفلسفة، النظام الفلسفي: ٣٨
- فلهافن يوهان: ٤٥٩
- فولتير: ٣٥٥
- فيتشينو، مارسيليو: ٢٦٤
- الفيدا: ٢٠٠

ق

- القانون: ١٢٧
- القدر: ٧١-٧٧
- القدس: ٢٠٤
- القرآن: ٢٠٣
- القصور الذاتي، قانون: ٢٧١-٢٧٨
- القلق الوجودي: ٥٩٢
- القيم، سلم أولويات: ١٦٩
- القيمة، فائض: ٥٢٣

ك

- كامو، ألبير: ٥٩٦
- كانط، إيمانويل: ٣٥٥-٤١٧ ٤٢٧-٤٣٠
- الكبت: ٥٦٨
- كبلر، يوهانس: ٢٧١
- الكتاب المقدس: ١٦٧
- الكلبية، المدرسة: ١٧٤
- كوبرنيك، نيقولا: ٢٧٠
- كولريدج، صامويل تيلور: ٤٥٨
- كوندورسيه: ٤٢٢
- كيركجارد، سورين: ٤٤٦ ٤٨٩-٤٩٦-٤٩٧
- الكيفيات: ٣٥١-٣٧٦

ل

- اللا أدري: ٩١،٣٦٣
- لابلاس، بيير سيمون: ٣٠٦
- لا مارك، جان بابتيست دي: ٥٣٥
- لامتري، جوليان اوفروي دي: ٣٠٦
- اللا وعي: ٥٦٣
- اللذة، مبدأ: ٥٦٥
- لوثر، مارتن: ٢٨١
- اللوغوس: ١٧٦
- لوك، جون: ٣٤١
- لوكي: ٤٠
- ليبنتز: ٣٠٧
- ليل، شارلز: ٥٣٧
- لينين، اللينينية: ٥١٦



ـ المادة: ٣١٨ـ٣٧٨
ـ المادية، المادي: ٦٧ـ٣٠٥
ـ المادية التاريخية: ٥١٥
ـ المادية الميكانيكية: ٥١٦
ـ ماركس، ماركسية: ٥٠٥ ـ ٥١٤ـ٥٩٨ـ٥٢٦
ـ ماركوس، اوريليوس: ١٧٦
ـ مالتوس، توماس: ٥٤٢
ـ المانوية: ٢٠٣
ـ المثالية، مثالي: ٣٠٥
ـ المثل، عالم: ١١٧ـ١٢٢
ـ المثلى، (الدولة ـ المدينة): ١٢٥
ـ المحتوى الظاهري: ٥٧٢
ـ المحتوى الكامن: ٥٧٣
ـ محمد: ٢٢٧
ـ المدينة الأرضية: ٢٣٤
ـ المرأة، حقوق: ٤٢٢
ـ المسلمة، المسلمات: ٤٣٨
ـ المسيح، مسيحية: ٩٥ـ١٧١ـ ١٨٠
ـ المعرفة: ٣١١
ـ المكان: ٤٣٢
ـ مل، جون ستيوارت: ٣٥٣
ـ ملطية (فلاسفة): ٥٠ـ٥٢
ـ الملكية: ١٥٦
ـ المنهج التجريبي: ٢٦٧
ـ المنهج العلمي الجديد: ٢٦٠ـ٢٦٧
ـ مو، يورجن: ٤٦٥
ـ موسى: ٢٠٦
ـ مونتسكيو: ٣٥٣
ـ ميدجارد: ٣٩
ـ ميراندولا، بيكو ديللا: ٢٦٤



ـ النفي: ٤٨٣
ـ نقيض القضية: ٤٨٠
ـ النهضة (عصر): ٢٤٧ـ٢٦٠
ـ نوفاليس: ٤٥٨
ـ نيتشة، فريدريش: ٥٩٠
ـ نيلس هولجرسون: ٥٨٤
ـ نيوتن: ٢٦٧

هـ

- هاردي، توماس: ٥٥٧
- هاملت: ٣٠٣
- هردر، يوهان: ٤٦٣
- هرقل: ٤٢
- هرمس: ٩٩
- هزيود: ٤٢
- هفايستوس: ٤٢
- الهيلينية: ١٦٣-١٧٠
- هندل، جورج فريدريك: ٤٥٧
- هنزلو، جون ستيفن: ٥٣٣
- الهنود الأوربيون: ٢٠٠
- الهندوسية: ٢٠٢
- هوبز، توماس: ٣٠٥
- هودر: ٤٢
- هوفمان: ٤٦٥
- هوميروس: ٤٢
- هيجل: ٤٤٦-٤٧٣
- هيدجر، مارتن: ٥٩٠
- هيرا: ٤٢
- هيراقليطس: ٥٣-٦٨-١٧٦
- هيرودوت: ٧٩
- هيلدجارد البنجنية: ٢٤٤
- هيمدال: ٤١
- هيوم، ديفيد: ٣٤٧-٣٥٥

و

- الوجود (مذهب وحدة الوجود): ٢٦٦
- الوجودية، وجودي: ٤٩٨-٥٩٠



- يسوع الناصري: ٢٠٨-٢٣٧
- يوريبيدس: ١٠٥
- يونسكو، يوجين: ٥٩٦
- اليهودية: ١٨٣-١٩٩-٢٠٣

الفهرس

عالم صوفيا: ١
كلمة المترجم: ٣
شكر وتقدير: ٧
الفصل الأول: جنة عدن ١١
... كان لابد في لحظة معينة أن ينبثق شيء ما من العدم...
الفصل الثاني: القبعة الطويلة ٢٣
... الشيء الوحيد الذي نحتاجه كي نصبح فلاسفة مبدعين هو القدرة على الاندهاش...
الفصل الثالث: الأساطير ٣٧
... توازن هش بين قوى الخير والشر...
الفصل الرابع: فلاسفة الطبيعة ٤٥
... لا يولد شيء من العدم...
الفصل الخامس: ديموقريطس ٦٣
... أبرع لعبة في العالم...
الفصل السادس: القدر ٧١
... يحاول العراف تأويل أشياء تستعصي بطبيعتها على أي تأويل...
الفصل السابع: سقراط ٨٣
... أحكم الناس هو من يعرف انه لا يعرف...
الفصل الثامن: أثينا ١٠٣

... وارتفعت مكان الأطلال صروح سامقة...

الفصل التاسع: أفلاطون ١١١

... حنين للعودة إلى مستقر الروح...

الفصل العاشر: شاليه الضابط العجوز ١٢٩

... وغمزت الفتاة المطلة من المرآة بكلتا عينيها معاً في آن واحد...

الفصل الحادي عشر: أرسطو ١٤٣

... عقل أشرب حب النظام الدقيق يرتب أفكارنا وينسقها...

الفصل الثاني عشر: الهيلينية ١٦٣

... قبس من النور...

الفصل الثالث عشر: البطاقات البريدية ١٨٧

... أفرض على نفسي رقابة صارمة...

الفصل الرابع عشر: ثقافتان ١٩٩

... السبيل الوحيد لتجنب التحليق في الفراغ على غير هدى...

الفصل الخامس عشر: العصور الوسطى ٢١٥

... لأن نقطع شوطا صغيرا على الطريق الصحيح خير من أن نضل الطريق ذاته...

الفصل السادس عشر: عصر النهضة ٢٤٧

... أيا سليل الأرباب المتواري في حلة فانية...

الفصل السابع عشر: عصر الباروك ٢٨٥

... لقد نسجنا من خامة الأحلام...

الفصل الثامن عشر: ديكارت ٣٠٩

... أراد أن يزيل الانقاض من موقع البناء...

الفصل التاسع عشر: سبينوزا ٣٢٧

... ان الله ليس محرك عرائس...

الفصل العشرون: لوك ٣٤١

... مثل صفحة بيضاء قبل أن يجري فوقها قلم...

الفصل الحادي والعشرون: هيوم ٣٥٥

... فلنلق به إذن إلى النار...

الفصل الثاني والعشرون: بيركلي ٣٧٥

... مثل كوكب يدور حول شمس تلتهب...

الفصل الثالث والعشرون: باركلي ٣٨٣

... مرآة سحرية قديمة اشترتها جدتها من امرأة غجرية...

الفصل الرابع والعشرون: عصر التنوير ٤٠٣

... من طريقة صنع الإبرة إلى طريقة سبك المدفع...

الفصل الخامس والعشرون: كانط ٤٢٧

... السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي والقانون الأخلاقي داخل نفسي...

الفصل السادس والعشرون: الرومانسية ٤٥١

... طريق الأسرار يقود إلى أعماق النفس...

الفصل السابع والعشرون: هيجل ٤٧٣

... ان المعقول هو ما يكتب له البقاء...

الفصل الثامن والعشرون: كيركجارد ٤٨٩

... أوروبا كلها تمضي في طريق الافلاس...

الفصل التاسع والعشرون: ماركس ٥٠٥

... ان شبحا يخيم على أوروبا...

الفصل الثلاثون: داروين ٥٢٩

... سفينة تخوض في بحر الحياة حاملة شحنتها من الجينات...

الفصل الحادي والثلاثون: فرويد ٥٦١

... هذه الرغبة الأنانية البغيضة التي انبثقت في نفسها...

الفصل الثاني والثلاثون: عصرنا الحاضر ٥٨١

... حكم على الإنسان بأن يكون حرا...

الفصل الثالث والثلاثون: حفل الحديقة ٦٠٩

... غراب أبيض...

الفصل الرابع والثلاثون: لحنان متصاحبان ٦٢٣

... لحنان... تتصاحب نغماتهما...

الفصل الخامس والثلاثون: الانفجار العظيم ٦٤٥

... ما نحن إلا غبار النجوم...

فهرس الأعلام والمصطلحات: ٦٥٩

الفهرس: ٦٦٩